حسن التحرير

في تهذيب

تفسير ابن كثير

تهذيب ومختصر وتحقيق لتفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي
المتوفى سنة ٧٤٤ هـ

تهذيب واختصار وتحقيق
محمد الحمود النجدي

الجزء الأول

جمعية إحياء التراث الإسلامي
مكتبة دار الإمام أحمد بن حنبل

حسن التحرير

في تهذيب

تفسير ابن كثير

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

جمعية إحياء التراث الإسلامي
فرع ضاحية صباح الناصر
ت: ٤٨٠٩٠٢٢ - ٤٨٠٩٠٣٣ - ٤٨٠٣٠٦٦
فاكس الإدارة: ٤٨٨٣٠٧٠ - فاكس اللجنة العلمية: ٤٨٨٢٥١١
ص ب: ١٥٥١ العارضية - رمز بريدي: ٩٢٤٠٠ الكويت.

مكتبة دار الإمام أحمد بن حنبل
جليب الشيوخ - المجمعات التجارية
مجمع الواحة - الميزانين - محل رقم ٢ - ت: ٤٣٣٤٦٨٧ - ٤٣١١٣٧٩
فاكس: ٤٣٣٤٦٨٧
ص ب: ٣٧٦ - الفردوس - الكويت.

حُسْنُ التَّحْرِير

فِي تَهْذِيب

تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِير

تهذيب ومختصر وتحقيق لتفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي
المتوفى سنة ٧٤٤ هـ

تهذيب واختصار وتحقيق
محمد الحمود النجدي

الجزء الأول

جمعية إحياء التراث الإسلامي   مكتبة دار الإمام أحمد بن حنبل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله نحمده و نستعينه و نستغفره، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، و من يضلل فلا هادي له، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، و أشهد أن محمداً عبده ورسوله،

أما بعد: فإن أحسن الحديث كتاب الله، و أحسن الهدي هدي محمد ﷺ و شر الأمور محدثاتها، و كل محدثة بدعة، و كل بدعة ضلالة، و كل ضلالة في النار.

ثم أما بعد: فإن تفسير الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي الشافعي، من أشهر التفاسير وأحسنها و أصوبها، و يأتي في الرُّتْبة بعد تفسير الإمام العلامة الحافظ أبي جعفر ابن جرير الطبري شيخ المفسرين؛ و هما كما قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى: «و لسنا نوازن بينهما و بين أي تفسير آخر مما بأيدينا، فما رأينا مثلهما و لا ما يقاربهما»[١].

و لا عجب في ذلك! فقد سلك الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى أحسن الطُّرق في تفسير القرآن العظيم، ففسر القرآن بالقرآن أولاً، لأن ما أُجمل في موضع قد بُيِّن وفُسر في موضع آخر، و ما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر.

ثم فسر القرآن بالسنة النبوية، فإنها تأتي شارحة للقرآن و موضحة له، كما قال عز وجل: ﴿و أنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم و لعلهم يتفكرون﴾ (النحل: ٤٤)

ثم فسَّره بأقوال الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، فإنهم أعلم الناس بتفسيره، فإنهم عاصروا التنزيل، وشاهدوا التأويل، و «لهم من الفهم التام و العلم الصحيح، لا سيما علماؤهم و كبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين و الأئمة المهديِّين، و عبد الله بن مسعود، و الحبر البحر عبد الله بن عباس»[٢] و غيرهم.

ثم بأقوال التابعين كمجاهد بن جبر فإنه كان آية في التفسير، و سعيد بن جبير، و عكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، و الحسن البصري، و مسروق بن الأجدع، و سعيد بن المسيب، و أبي العالية، و الربيع بن أنس، و قتادة، و الضحاك بن مزاحم، و غيرهم من التابعين، و من بعدهم[٣].

و هذا أحسن ما يكون في تفسير كتاب الله العزيز.

---

(١) مقدمة كتاب: عمدة التفسير.

(٢) مقدمة في أصول التفسير (صـ ٩٥-٩٦) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى باختصار.

(٣) انظر المصدر السابق (صـ ١٠٢) و ما بعدها.

«و لكني لمستُ الحاجة الماسّة، و الضّرورة الملحّة، لتقريب التفسير للمتوسطين من المثقفين، الذين لم يمارسوا دقائق العلم، و لم يتصلوا باصطلاحات العلماء الأئمة في الفنون، و لطلاب العلوم الإسلامية في شتى أنحاء العالم الإسلامي، فرأيت أن لا بدّ مما ليس منه بد» [1].

◆ **منهج الاختصار:**

لقد سِرْتُ في اختصاري للكتاب بما يقارب ما كتبه العلامة أحمد شاكر رحمه الله تعالى في اختصاره لتفسير ابن كثير، فقد قال في منهجه في كتابه «عمدة التفسير»:

١- «حافظتُ كل المحافظة على الميزة الأولى لتفسير ابن كثير، الميزة التي انفرد بها عن جميع التفاسير التي رأيناها، و هي تفسير القرآن بالقرآن، و جمع الآيات التي تدل على المعنى المراد من الآية المفسرة أو تؤيده وتقويه. فلم أحذف شيئاً مما قاله المؤلف الإمام الحافظ في ذلك [2].

٢- حافظتُ على آراء الحافظ المؤلف و ترجيحاته في تفسير الآيات، مجتهداً في إبقاء كلامه بحروفه ما استطعتُ.

٣- اخترتُ من الأحاديث التي يذكرها أصحها و أقواها إسناداً، و أوضحها لفظاً. فإن المؤلف رحمه الله كثيراً ما يذكر الحديث الواحد بروايات متعددة، و من أوجه مختلفة.

٤- حذفت أسانيد الأحاديث التي أذكرها، فإن الحافظ ابن كثير يذكر الأحاديث بأسانيدها مفصلة من دواوين السنة. فيقول مثلاً «قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا ...»، ثم يسوق الإسناد و الحديث، ثم كثيراً ما يذكر بعده تخريجه من الصحاح و السنن و غيرها، بأسانيدها كاملة أو بالإشارة إلى الأسانيد.

٥- فاكتفيتُ من ذلك بذكر الحديث عن الصحابي راويه، أو التابعي إذا كان الصحابي غير مُسمَّى، ثم أذكر بعد ذلك من رواه من الأئمة، معتمداً في ذلك على ما ذكره المؤلف رحمه الله، و هو حجةٌ في ذلك، فلم أرجع إلى المصادر التي يذكرها إلا عند الضرورة القصوى، لتحقيق لفظ الحديث، أو لغير ذلك من المقاصد العلمية الدقيقة، التي تتعلق بالرواية أو الدراية، و لم أزد على تخريجه إلا ما لم يكن منه بدٌّ [3].

٦- حذفتُ كل حديث ضعيف أو معلول، إلا أن يكون إثباته في موضعه ضرورة علمية: لرفع شبهة، أو بيان معنى حديث صحيح بحديث ليس ضعيفاً بمرة، أو رد على احتجاج به لذي هوى أو ضغن على الإسلام و أهله،

---

(١) مقدمة «عمدة التفسير».

قال مقيده: و قد ظهر لتفسير ابن كثير مختصران: أولهما للشيخ/ نسيب الرفاعي رحمه الله تعالى، و ثانيهما لمحمد علي الصابوني، وعليهما مؤاخذات و ردود، لا سيما الثاني منهما، فإنه انتهج منهج الخلف في تأويل صفات الباري سبحانه، وأما من جهة الحديث فقد قال العلامة الألباني: «و هناك أشخاص آخرون ظهروا في ساحة التأليف و الكتابة فيما لا يحسنون، و أخص بالذكر منهم الشيخين الحلبيّين اللذَين اختصر كل منهما «تفسير الحافظ ابن كثير» سبق أن نبّهتُ في المجلد السابق على شيء من الأحاديث الضعيفة التي صححاها بجهل بالغ، وفي هذا المجلد أحاديث أخرى من ذلك القبيل. . . . » الضعيفة ـ (مقدمة المجلد الرابع).

(٢) و كذا في هذا الكتاب إلا في مواضع قليلة جداً.

(٣) و قد خرجنا بعض الأحاديث التي أوردها الحافظ ابن كثير و لم يعزها لمصدر، و هي قليلة.

أو غير ذلك من المقاصد العالية.

٧- حذفتُ المكرر من أقوال الصحابة في التفسير، و كثيراً من آراء التابعين، اكتفاء ببعضها، خصوصاً و أنها كثيراً ما تختلفُ لفظاً و تتفق أو تتقارب معنى، كما قال المؤلف الحافظ رحمه الله «و الكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن».

٨- نفيت عن كتابي هذا كل الأخبار الإسرائيلية و ما أشبهها، فإن المؤلف رحمه الله قد جَدَبها [1] في مواضع كثيرة من تفسيره، و أبان عن خطلها و ضررها، و أنحى بالأئمة على روايتها و رُواتها، و رسم لنفسه خطةً في شأنها. و مع ذلك فإنه ـ فيما يبدو لي ـ لم يستطع أن يسير على ما رسم، و غلبه ما وجد من الروايات في كثير من المواطن، فأثبت طائفة منها غير قليلة. فحذفتها كلها، و الحمد لله.

٩- حذفتُ أكثر ما أطال به المؤلف رحمه الله من الأبحاث الكلامية و الفروع الفقهية، و المناقشات اللغوية و اللفظية، مما لا يتصل بتفسير الآية اتصالاً وثيقاً، و أبقيتُ من ذلك ما لم أجد منه بداً في إيضاح معنى الآية، أو تقوية المعنى الراجح المختار في تفسيرها.

١٠- أحياناً يذكر المؤلف الحافظ حديثاً طويلاً لمناسبة تفسير آية أو لمعنى يتعلق بها، و لا يكون كله في موضع الشاهد المتعلق بالآية، بل بعضه فقط.

فرأيت أن أقتصر في مثل هذه الحال على موضع الشاهد منه، لأن المقصد الأصليّ هو التفسير، لا رواية الحديث كله. و أشير بكلمة تدل على ذلك [2] . . .

١١- و أصنع نحو هذا فيما يذكر المؤلف من الأحاديث التاريخية المطولة، التي تتعلق بالتفسير» [3].

و لما كان هذا العمل كبيراً في حجمه، فإنه لا بد من وقوع الخلل و النقص.

فإنْ تجدْ عيباً فسُدَّ الخَلَلا   جلَّ مَنْ لا عيبَ فيه و علا

و أخيراً: أسأل الله تعالى أن يوفقني لإتمام هذا المختصر، و أن ينفع به كما نفع بأصله، و أن يتقبل منا صالح أعمالنا، و يتجاوز عن سيئاتنا، و يتوفانا مع الأبرار، إنه هو الرحيم ذو العزة و الاقتدار. . .

و صلى الله على نبينا محمد و على آله و أصحابه و سلم.

و كتبه/

راجي عفو ربه

محمد بن حمد الحمود النجدي

لتسع بقيت من شهر ربيع الآخر سنة ١٤١٩ هـ

---

(١) جدبها: أي ذمها و عابها.

(٢) أشرت إلى ذلك في كتابنا في الهامش.

(٣) مقدمة «عمدة التفسير». و لا يعني هذا أن كتابنا مطابق لعمدة التفسير، كما سيراه القارئ واضحاً أثناء قراءته إن شاء الله تعالى.

مقدمة تفسير ابن كثير

(قال الشيخ الإمام الأوحد، البارع الحافظ المتقي، عماد الدين أبو الفداء: إسماعيل بن الخطيب أبي حفص عمر ابن كثير الشافعي، رحمه الله تعالى و رضي عنه).

الحمد لله الذي افتتح كتابه بالحمد فقال: **﴿الحمد لله رب العالمين ◆ الرحمن الرحيم ◆ مالك يوم الدين﴾** وقال تعالى: **﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب و لم يجعل له عوجاً ◆ قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ◆ ماكثين فيه أبداً ◆ و ينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ◆ ما لهم به من علم و لا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾** و افتتح خلقه بالحمد فقال تعالى: **﴿الحمد لله الذي خلق السموات و الأرض و جعل الظلمات و النور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾** و اختتمه بالحمد فقال بعد ما ذكر مآل أهل الجنة و أهل النار **﴿و ترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم و قضي بينهم بالحق و قيل الحمد لله رب العالمين﴾** و لهذا قال تعالى **﴿و هو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى و الآخرة و له الحكم و إليه ترجعون﴾** كما قال تعالى: **﴿الحمد لله الذي له ما في السموات و ما في الأرض و له الحمد في الآخرة و هو الحكيم الخبير﴾** فله الحمد في الأولى و الآخرة أي في جميع ما خلق و ما هو خالق، هو المحمود في ذلك كله كما يقول المصلي «اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات ملء الأرض و ملء ما شئت من شيء بعد» و لهذا يُلهم أهل الجنة تسبيحه و تحميده كما يلهمون النَّفَس أي يسبحونه ويحمدونه عدد أنفاسهم، لما يرون من عظيم نعمه عليهم، و كمال قدرته، و عظيم سلطانه، و توالي منته و دوام إحسانه إليهم، كما قال تعالى: **﴿إن الذين آمنوا و عملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم ◆ دعواهم فيها سبحانك اللهم و تحيتهم فيها سلام و آخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾**.

و الحمد لله الذي أرسل رسله **﴿مبشرين و منذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾** و ختمهم بالنبي الأمي العربي المكي الهادي لأوضح السبل، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس و الجن من لدن بعثته إلى قيام الساعة كما قال تعالى: **﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات و الأرض لا إله إلا هو يحيي و يميت فآمنوا بالله و رسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله و كلماته و اتبعوه لعلكم تهتدون﴾** و قال تعالى: **﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾** فمن بلغه هذا القرآن من عرب و عجم و أسود و أحمر و إنس و جان فهو نذير له، و لهذا قال تعالى: **﴿و من يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾** فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده بنص الله تعالى، كما قال تعالى: **﴿فذرني و من يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾** و قال رسول الله ﷺ: «بعثت إلى الأحمر و الأسود» قال مجاهد يعني الإنس و الجن. فهو صلوات الله و سلامه عليه رسول الله إلى جميع الثقلين الإنس و الجن، مبلغاً لهم عن الله تعالى ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز الذي **﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾** و قد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه ندبهم إلى فهمه فقال تعالى: **﴿أفلا يتدبرون القرآن و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾** و قال تعالى: **﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته و ليتذكر أولوا الألباب﴾** و قال تعالى: **﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾**.

(فالواجب) على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، و تفسير ذلك و طلبه من مظانه، و تعلم ذلك وتعليمه كما قال تعالى: **﴿و إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس و لا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئسما يشترون﴾** و قال تعالى: **﴿إن الذين يشترون بعهد الله و أيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة و لا يكلمهم الله و لا ينظر إليهم يوم القيامة و لا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾** فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل إليهم، و إقبالهم على الدنيا و جمعها و اشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا أيها المسلمون أن ننتهي عمّا ذمهم الله تعالى به، و أن نأتمر بما أمرنا به تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، و تفهمه، و تفهيمه، قال تعالى: **﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله و ما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم و كثير منهم فاسقون ❁ اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾** ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها، كذلك يلين القلوب بالإيمان و الهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي، والله المؤمل المسئول أن يفعل بنا هذا إنه جواد كريم.

فإن قال قائل فما أحسن التفسير ؟ (فالجواب) أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن و موضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى: **﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله و لا تكن للخائنين خصيماً﴾** و قال تعالى: **﴿و ما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه و هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾** وقال تعالى: **﴿و أنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم و لعلهم يتفكرون﴾** و لهذا قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن و مثله معه»[1] يعني السنة. و السنة أيضاً تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن وقد استدل الإمام الشافعي رحمه الله تعالى و غيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك.

و الغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة. و حينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن و لا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن و الأحوال التي اختصوا بها، و لما لهم من الفهم التام و العلم الصحيح و العمل الصالح، لا سيما علماؤهم و كبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، و الأئمة المهتدين المهديين، و عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم.

فعن مسروق قال: ابن مسعود: و الذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا و أنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت. و لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته. و قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم يستقرئون من النبي ﷺ و كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلّمنا القرآن والعمل جميعاً.

و منهم الحبر البحر عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ و ترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: «اللهم فقهه في الدين و علمه التأويل» و عن مسروق عن ابن مسعود أنه قال: نعم الترجمان للقرآن ابن عباس. و هذا صحيح إلى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة. و قد مات ابن مسعود رضي الله عنه في

---

(١) رواه أحمد و أبو داود من حديث المقدام بن معديكرب، و هو حديث صحيح.

سنة اثنتين و ثلاثين على الصحيح، و عمّر بعده عبد الله بن عباس ستاً و ثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود ؟ و قال الأعمش عن أبي وائل : استخلف عليّ عبد الله بن عباس على الموسم فخطب الناس فقرأ في خطبته سورة البقرة - و في رواية سورة النور - ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم و الترك و الديلم لأسلموا.

و لهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين ابن مسعود وابن عباس و لكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: «بلغوا عني و لو آية و حدثوا عن بني إسرائيل و لا حرج ، و من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو و لهذا كان عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك.

و لكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد[1] فإنها على ثلاثة أقسام **(أحدها)** ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح **(والثاني)** ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه **(والثالث)** ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل و لا من هذا القبيل فلا نؤمن به و لا نكذبه، و تجوز حكايته لما تقدم، و غالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني. و لهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيراً. و يأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، و لون كلبهم، و عددهم. و عصا موسى من أي الشجر كانت. و أسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضُرب به القتيل من البقرة، و نوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دينهم و لا دنياهم.

ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز كما قال تعالى : **﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم و يقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب و يقولون سبعة و ثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً و لا تستفت فيهم منهم أحدا﴾** فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا، فإنه تعالى حكى عنهم ثلاثة أقوال ضعّف القولين و سكت عن الثالث، فدل على صحته إذ لو كان باطلاً لرده كما ردهما، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته فقال في مثل هذا **﴿قل ربي أعلم بعدتهم﴾** فإنه ما يعلم ذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه فلهذا قال: **﴿فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً﴾** أي لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، و لا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب. فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف، أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام و أن تنبه على الصحيح منها و تبطل الباطل، و تذكر فائدة الخلاف و ثمرته لئلا يطول النزاع و الخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم. فأما من حكى خلافاً في مسألة و لم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه، أو يحكى الخلاف و يطلقه و لا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضاً، فإن صحح غير الصحيح عامداً فقد تعمد الكذب، أو جاهلاً فقد أخطأ، و كذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته أو حكى أقوالاً متعددة لفظاً، و يرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى، فقد ضيّع الزمان و تكثر بما ليس بصحيح فهو كلابس ثوبي زور، و الله الموفق للصواب.

(فصل) إذا لم تجد التفسير في القرآن و لا في السنة و لا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في

---

(١) و قد حذفناها في هذا المختصر ، كما تقدم.

ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر فإنه كان آية في التفسير كما قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها. و لهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، و كسعيد بن جبير و عكرمة مولى ابن عباس و عطاء بن أبي رباح والحسن البصري و مسروق بن الأجدع و سعيد بن المسيب و أبي العالية و الربيع بن أنس و قتادة و الضحاك بن مزاحم و غيرهم من التابعين و تابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عبارتهم تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً، و ليس كذلك فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، و منهم من ينص على الشيء بعينه، و الكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن فليتفطن اللبيب لذلك و الله الهادي. و قال شعبة بن الحجاج و غيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم و هذا صحيح. أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على قول بعض و لا على من بعدهم، و يرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة في ذلك.

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام، لأنه قد تكلف ما لا علم له به وسلك غير ما أمر به، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ لأنه لم يأت الأمر من بابه كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر، لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ والله أعلم. و هكذا سمى الله القذفة كاذبين فقال: **﴿فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾** فالقاذف كاذب، و لو كان قد قذف مَنْ زنى في نفس الأمر لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به، و لو كان أخبر بما يعلم لأنه تكلف ما لا علم له به والله أعلم.

و لهذا تحرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به كما روى أبو معمر قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أي أرض تقلّني، و أي سماء تظلّني، إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم. و عن أنس قال: كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه و في ظهر قميصه أربع رقاع فقرأ **﴿وفاكهة و أباً﴾** فقال فما الأب؟ ثم قال: هو التكلف فما عليك أن لا تدريه؟ و هذا كله محمول على أنهما رضي الله عنهما إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب، و إلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل، كقوله تعالى: **﴿فأنبتنا فيها حباً و عنباً﴾** الآية. و عن ابن مليكة أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها فأبى أن يقول فيها، إسناده صحيح، و عنه قال: سأل رجل ابن عباس عن يوم كان مقداره ألف سنة؟ فقال له ابن عباس: فما **﴿يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾**؟ فقال له الرجل إنما سألتك لتحدثني فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما، فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم. و عن عبيد الله بن عمر قال: لقد أدركت فقهاء المدينة و إنهم لَيُعَظِّمُونَ القول في التفسير منهم سالم بن عبد الله و القاسم بن محمد و سعيد بن المسيب و نافع. و عن مسروق قال: اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله.

فهذه الآثار الصحيحة و ما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه. فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة و شرعاً فلا حرج عليه، و لهذا روي عن هؤلاء و غيرهم أقوال في التفسير و لا منافاة لأنهم تكلموا فيما علموه و سكتوا عما جهلوه، و هذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: **﴿لتبيننه للناس**

ولا تكتمونه﴾ و لما جاء في الحديث الذي روي من طرق «من سُئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار». و روى ابن جرير عن ابن عباس: إن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، و منه ما يعلمه العلماء و منه ما تعلمه العرب من لغاتها، و منه ما لا يعذر أحد في جهالته[1].

مقدمة مفيدة تذكر في أول التفسير قبل الفاتحة

روى أبو بكر بن الأنباري بسنده عن قتادة قال: نزل في المدينة من القرآن البقرة و آل عمران و النساء و المائدة و براءة و الرعد و النحل و الحج و النور و الأحزاب و محمد و الفتح و الحجرات و الرحمن و الحديد و المجادلة والحشر و الممتحنة و الصف و الجمعة و المنافقون و التغابن و الطلاق و ﴿يا أيها النبي لم تحرم﴾ إلى رأس العشر و ﴿إذا زلزلت﴾ و ﴿إذا جاء نصر الله﴾ هؤلاء السور نزلت بالمدينة و سائر السور بمكة.

فأما عدد آيات القرآن العظيم فستة آلاف آية، ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال: فمنهم من لم يزد على ذلك، و منهم من قال: و مائتي آية و أربع آيات، و قيل: و أربع عشرة آية، وقيل: و مائتان و تسع عشرة آية وقيل: و مائتان و خمس و عشرون آية، أو ست و عشرون آية، و قيل: و مائتان و ست و ثلاثون، حكى ذلك أبو عمرو الداني في كتابه البيان. و أما كلماته فقال الفضل بن شاذان عن عطاء بن يسار سبع و سبعون ألف كلمة وأربعمائة و تسع و ثلاثون كلمة، و أما حروفه فقال عبد الله بن كثير عن مجاهد: هذا ما أحصيناه من القرآن وهو: ثلاثمائة ألف حرف و أحد و عشرون ألف حرف و مائة و ثمانون حرفاً، و قال الفضل بن عطاء بن يسار ثلاثمائة ألف حرف و ثلاثة و عشرون ألفاً و خمسة عشر حرفاً.

و قال سلام أبو محمد الحماني: أن الحجاج جمع القراء و الحفاظ و الكتاب فقال: أخبروني عن القرآن كله كم من حرف هو؟ قال: فحسبنا فأجمعوا أنه ثلثمائة ألف و أربعون ألفاً و سبعمائة و أربعون حرفاً، قال: فأخبروني عن نصفه فإذا هو إلى الفاء من قوله في الكهف ﴿و ليتلطف﴾ و ثلثه الأول عند رأس مائة آية من براءة و الثاني على رأس مائة أو إحدى و مائة من الشعراء، و الثالث إلى آخره.

و أما (التحزيب و التجزئة) فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما في الربعات بالمدارس و غيرها، و قد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد في تحزيب الصحابة للقرآن، و الحديث في مسند الإمام أحمد و سنن أبي داود و ابن ماجه و غيرهم عن أوس بن حذيفة أنه سأل أصحاب رسول الله ﷺ في حياته كيف تحزبون القرآن؟ قالوا ثلث وخمس و سبع و تسع و أحد عشرة و ثلاث عشرة و حزب المفصل حتى تختم.

(فصل) و اختلف في معنى السورة مما هي مشتقة فقيل من الإبانة و الارتفاع قال النابغة:

ألم تر أنَّ اللهَ أعطاك سورةً ... ترى كل مَلِكٍ دونها يتذبذب

فكأن القارئ ينتقل بها من منزلته إلى منزلة. و قيل: لشرفها و ارتفاعها كسور البلدان، و قيل: سميت سورة لكونها قطعة من القرآن و جزءاً منه مأخوذ من أسآر الإناء و هو البقية. و على هذا فيكون أصلها مهموزاً، و إنما خففت الهمزة فأبدلت الهمزة واواً لانضمام ما قبلها. و قيل لتمامها و كمالها لأن العرب يسمون الناقة التامة سورة **(قلت)** و يحتمل أن يكون من الجمع و الإحاطة لآياتها كما يسمى سور البلد لإحاطته بمنازله و دوره. وجمع السورة سُوَر بفتح الواو، و قد يجمع على سُورَاتٍ و سُوْرَات.

و أما الآية فمن العلامة على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها و انفصالها، أي هي بائنة عن أختها

---

(١) و في سنده ضعف، و معناه صحيح.

و منفردة قال الله تعالى : ﴿إن آية ملكه﴾

و قيل لأنها جماعة حروف من القرآن و طائفة منه كما يقال خرج القوم بآياتهم أي بجماعاتهم

و قيل سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها. و أما الكلمة فهي اللفظة الواحدة و قد تكون على حرفين مثل ما و لا و نحو ذلك، و قد تكون أكثر، و أكثر ما تكون عشرة أحرف مثل ﴿ليستخلفنهم﴾ و﴿أنلزمكموها﴾ ﴿فأسقيناكموه﴾. و قد تكون الكلمة الواحدة آية مثل و الفجر و الضحى و العصر و كذلك ألم و طه و يس و حم في قول الكوفيين و (حم عسق) عندهم كلمتان و غيرهم لا يسمي هذه آيات بل يقول هذه فواتح السور، و قال أبو عمرو الداني: لا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله تعالى: ﴿مدهامتان﴾ بسورة الرحمن.

(فصل) قال القرطبي : أجمعوا على أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية، و أجمعوا أن فيه أعلاماً من الأعجمية كإبراهيم و نوح و لوط و اختلفوا هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية، فأنكر ذلك الباقلاني و الطبري و قالا : ما وقع فيه مما يوافق الأعجمية فهو من باب ما توافقت فيه اللغات



بسم الله الرحمن الرحيم

يقال لها الفاتحة أي فاتحة الكتاب خطاً و بها تُفتتح القراءة في الصلوات، و يقال لها أيضاً أم الكتاب عند الجمهور، ذكره أنس. و قد ثبت في الصحيح عند الترمذي و صححه عن أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ «الحمد لله رب العالمين أم القرآن، و أم الكتاب، و السبع المثاني، و القرآن العظيم» و يقال لها (الحمد) و يقال لها (الصلاة) لقولهﷺ عن ربه «قسمتُ الصلاة بيني و بين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله: «حمدني عبدي» الحديث. فسميت الفاتحة صلاة لأنها شرط فيها، و يقال لها (الشفاء) لما رواه الدارمي عن أبي سعيد مرفوعاً «فاتحة الكتاب شفاء من كل سم» و يقال لها (الرقية) لحديث أبي سعيد في الصحيح حين رقى بها الرجل السليم فقال له رسول اللهﷺ «و ما يدريك أنها رقية» ؟.

و هي مكية قاله ابن عباس و قتادة و أبو العالية، و قيل مدنية قاله أبو هريرة و مجاهد و عطاء بن يسار والزهري و يقال نزلت مرتين: مرة بمكة و مرة بالمدينة، و الأول أشبه لقوله تعالى: **﴿و لقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾** و الله تعالى أعلم. و هي سبع آيات بلا خلاف، و إنما اختلفوا في البسملة هل هي آية مستقلة من أولها كما هو عند جمهور قراء الكوفة و قول جماعة من الصحابة و التابعين و خلق من الخلف، أو بعض آية أو لا تعد من أولها بالكلية كما هو قول أهل المدينة من القراء و الفقهاء، على ثلاثة أقوال كما سيأتي تقريرها في موضعه إن شاء الله تعالى و به الثقة.

قالوا و كلماتها خمس و عشرون كلمة، و حروفها مائة و ثلاثة عشر حرفاً. قال البخاري في أول كتاب التفسير: و سميت أم الكتاب لأنه يُبدأ بكتابتها في المصاحف و يبدأ بقراءتها في الصلاة، و قيل: إنما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما تضمنته. قال ابن جرير: و العرب تسمي كل جامع أمر أو مقدم لأمر إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع: أمّاً، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ أم الرأس، و يسمون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها أمّاً.

قال و سميت مكة أم القرى لتقدمها أمام جميعها، و جمعها ما سواها، و قيل: لأن الأرض دحيت منها.

ويقال لها أيضاً: الفاتحة لأنها تفتتح بها القراءة و افتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الإمام و صح تسميتها بالسبع المثاني، قالوا: لأنها تثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة و إن كان للمثاني معنى آخر، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى.

روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة عن النبيﷺ أنه قال في أم القرآن: «هي أم القرآن و هي السبع المثاني و هي القرآن العظيم».

ذكْر ما ورد في فضل الفاتحة

عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه حتى صليت، قال: فأتيته فقال: «ما منعك أن تأتيني»؟ قال قلت: يا رسول الله إني كنت أصلي قال: ألم يقل الله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله و للرسول إذا دعاكم لما يحييكم**﴾ ثم قال: «لأُعَلِّمَنَّكَ أعظم سورةٍ في القرآن قبل أن تخرج من المسجد» قال: فأخذ بيدي فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله إنك قلتَ لأعلِّمنك أعظم سورة في القرآن، قال: «نعم ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ هي السبع المثاني و القرآن العظيم الذي أوتيته». رواه البخاري.

و روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على أُبي بن كعب، و هو يصلي قال: يا أُبي، فالتفت ثم لم يجبه، ثم قال: أبيّ، فخفف أبي ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ فقال: السلام عليك أي رسول الله قال «و عليك السلام ما منعك أي أبي إذ دعوتك أن تجيبني» قال: أي رسول الله إني كنت في الصلاة قال: أولست تجد فيما أوحى الله تعالى إلي ﴿**استجيبوا لله و للرسول إذا دعاكم لما يحييكم**﴾ قال: بلى يا رسول الله لا أعود، قال: « أتحب أن أعلمك سورة لم تنزل لا في التوراة و لا في الإنجيل و لا في الزبور و لا في الفرقان مثلها»؟ قلت: نعم أي رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو أن لا أخرج هذا الباب حتى تعلمها»، قال: فأخذ رسول الله ﷺ بيدي يحدثني و أنا أتبطأ مخافة أن يبلغ قبل أن يقضي الحديث، فلما دنونا من الباب قلت: أي رسول الله ما السورة التي وعدتني؟ قال ما تقرأ في الصلاة؟ قال فقرأت عليه أم القرآن قال: «والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة و لا في الإنجيل و لا في الزبور و لا في الفرقان مثلها، إنها السبع المثاني»، وورواه الترمذي و النسائي.

و استدلوا بهذا الحديث و أمثاله على تفاضل بعض الآيات و السور على بعض، كما هو المحكي عن كثير من العلماء، منهم إسحاق بن راهويه و أبو بكر بن العربي و ابن الحفار من المالكية. و روى البخاري في فضائل القرآن عن أبي سعيد الخدري قال: كنا في مسير لنا، فنزلنا فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحي سليم و إن نفرنا غيب فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأبنه برقية فرقاه فبرأ، فأمر له بثلاثين شاة و سقانا لبناً. فلما رجع قلنا له: أكنت تحسن رقية أو كنت ترقى؟ فقال: لا ما رقيت إلا بأم الكتاب، قلنا: لا تحدثوا شيئاً حتى نأتي ونسأل رسول الله ﷺ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال: «و ما كان يُدريه أنها رقية، اقْسِموا و اضْربوا لي بسهم». و في بعض روايات مسلم لهذا الحديث أن أبا سعيد الخدري هو الذي رقى ذلك السليم يعني اللديغ يسمونه بذلك تفاؤلاً.

(حديث آخر): روى مسلم في صحيحه و النسائي في سننه من حديث ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبرائيل، إذ سمع نقيضاً فوقه فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: «هذا باب قد فُتح من السماء ما فُتح قط، قال: فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يُؤتهما نبيٌّ قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته» و هذا لفظ النسائي.

(حديث آخر) روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «منْ صلَّى صلاة لم يقرأ فيها أم القرآن

فهي خِداجٌ ثلاثاً غير تمام» فقيل لأبي هريرة إنا نكون خلف الإمام، فقال: اقرأ بها في نفسك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله عز وجل: «قَسَمتُ الصلاة بيني و بين عبدي نصفين و لعبدي ما سأل فإذا قال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الله: حمدني عبدي، و إذا قال ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال الله: أثنى عليّ عبدي، فإذا قال ﴿مالك يوم الدين﴾ قال الله: مجّدني عبدي، و قال مرة: فوّض إلي عبدي، فإذا قال ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قال: هذا بيني و بين عبدي و لعبدي ما سأل، فإذا قال ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم و لا الضالين﴾ قال الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث مما يختص بالفاتحة من وجوه

(أحدها) أنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة، و المراد القراءة كقوله تعالى: ﴿و لا تجهر بصلاتك و لا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾ أي بقراءتك كما جاء مصرحاً به في الصحيح عن ابن عباس، و هكذا قال في هذا الحديث «قسمت الصلاة بيني و بن عبدي نصفين فنصفها لي و نصفها لعبدي و لعبدي ما سأل» ثم بين تفضيل هذه القسمة في قراءة الفاتحة فدل على عظمة القراءة في الصلاة، و أنها من أكبر أركانها إذا طلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها، هو القراءة. كما أطلق لفظ القراءة و المراد به الصلاة في قوله: ﴿و قرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ و المراد صلاة الفجر كما جاء مصرحاً به في الصحيحين: «أنه يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار» فدل هذا كله على أنه لا بد من القراءة في الصلاة و هو اتفاق من العلماء.

ثم إن مذهب الشافعي و جماعة من أهل العلم أنه تجب قراءتها في كل ركعة. و قال آخرون: إنما تجب قراءتها في معظم الركعات. و قال الحسن و أكثر البصريين: إنما تجب قراءتها في ركعة واحدة من الصلوات أخذاً بمطلق الحديث «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» و قال أبو حنيفة و أصحابه و الثوري و الأوزاعي: لا تتعين قراءتها بل لو قرأ بغيرها أجزأه، لقوله تعالى ﴿فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾ و الله أعلم [1].

(الوجه الثالث) هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم ؟فيه ثلاثة أقوال للعلماء **(أحدها)** أنه تجب عليه قراءتها كما تجب على إمامه لعموم الأحاديث المتقدمة.

(و الثاني) لا تجب على المأموم قراءة بالكلية لا الفاتحة و لا غيرها و لا في الصلاة الجهرية و لا السرية، لما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة» و لكن في إسناده ضعف.

(و القول الثالث) أنه تجب القراءة على المأموم في السرية لما تقدم، و لا يجب ذلك في الجهرية لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ «إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبّر فكبّروا، و إذا قرأ فأنصتوا» و ذكر بقية الحديث، و رواه أهل السنن من حديث أبي هريرة، فدل هذان الحديثان على صحة هذا القول، و هو قول قديم للشافعي رحمه الله، و الله أعلم، و رواية عن الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله تعالى.

(١) ـ و هذا قول ضعيف لمخالفته الأحاديث السابقة.

والغرض من ذكر هذه المسائل ههنا بيان اختصاص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من السور.

تفسير الاستعاذة و أحكامها

قال الله تعالى: ﴿**خذ العفو و أمر بالعرف و أعرض عن الجاهلين * و إما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم**﴾ و قال تعالى: ﴿**ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون * و قل رب أعوذ بك من همزات الشياطين و أعوذ بك رب أن يحضرون**﴾ و قال تعالى: ﴿**ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك و بينه عداوة كأنه ولي حميم * و ما يلقاها إلا الذين صبروا و ما يلقاها إلا ذو حظ عظيم * و إما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم**﴾ فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها، و هو أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الإنسي و الإحسان إليه ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى المودة و المصافاة، و يأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة، إذ لا يقبل مصانعة و لا إحساناً ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل، كما قال تعالى: ﴿**يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة**﴾ و قال تعالى: ﴿**إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير**﴾ و قال: ﴿**أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً**﴾ و قد أقسم للوالد آدم ﷺ أنه له لمن الناصحين و كذب، فكيف معاملته لنا و قد قال: ﴿**فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين**﴾ و قال تعالى: ﴿**فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا و على ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه و الذين هم به مشركون**﴾.

قالت طائفة من القراء و غيرهم: يتعوذ بعد القراءة و اعتمدوا على ظاهر سياق الآية و لدفع الإعجاب بعد فراغ العبادة، و ممن ذهب إلى ذلك حمزة، وحكى القرطبي عن أبي بكر بن العربي عن المجموعة عن مالك رحمه الله: أن القارئ يتعوذ بعد الفاتحة، و استغربه ابن العربي. و حكى قولاً ثالثاً و هو الاستعاذة أولاً و آخراً جمعاً بين الدليلين، نقله الرازي. و المشهور الذي عليه الجمهور أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة لدفع الموسوس عنها، و معنى الآية عندهم ﴿**فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم**﴾ أي إذا أردت القراءة كقوله تعالى ﴿**إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم و أيديكم**﴾ الآية: أي إذا أردتم القيام، و الدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ بذلك. روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته و كبر قال: «سبحانك اللهم و بحمدك، و تبارك اسمك، و تعالى جدك، و لا إله غيرك»، و يقول: «لا إله إلا الله» ثلاثاً، ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه و نفثه» و قد رواه أهل السنن الأربعة، و قال الترمذي: هو أشهر شيء في هذا الباب، و قد فسر الهمز بالموتة و هي الخنق، و النفخ بالكبر، و النفث بالشعر، كما رواه أبو داود و ابن ماجه عن نافع بن جبير بن المطعم عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ حين دخل في الصلاة قال: «الله أكبر كبيراً ثلاثاً، الحمد لله كثيراً ثلاثاً، سبحان الله بكرة و أصيلاً ثلاثاً، اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه و نفخه و نفثه» قال عمرو: وهمزه الموتة و نفخه الكبر و نفثه الشعر.

روى البخاري عن عدي بن ثابت قال: قال سليمان بن صرد رضي الله عنه: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ و نحن عنده جلوس فأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه فقال النبي ﷺ «إني لأعلم كلمةً لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقالوا للرجل ألا تسمع ما يقول رسول الله ﷺ قال: إني لست بمجنون، و قد رواه مسلم.

و قد جاء في الاستعاذة أحاديث كثيرة يطول ذكرها ههنا، و موطنها كتاب الأذكار و فضائل الأعمال، و الله أعلم.

(مسألة) وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة، ليست بمتحتمة يأثم تاركها، و حكى الرازي عن عطاء ابن أبي رباح وجوبها في الصلاة و خارجها كلما أراد القراءة، و احتج الرازي لعطاء بظاهر الآية (فاستعذ) و هو أمر ظاهره الوجوب و بمواظبة النبي ﷺ عليها، و لأنها تدرأ شر الشيطان، و ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب و لأن الاستعاذة أحوط و هو أحد مسالك الوجوب.

(مسألة) و قال الشافعي في الإملاء: يجهر بالتعوذ و إن أسرّ فلا يضر، و قال في الأم بالتخيير لأنه أسرّ ابن عمر و جهر أبو هريرة [1]. و اختلف قول الشافعي فيما عدا الركعة الأولى هل يستحب التعوذ فيها؟ على قولين ورجح عدم الاستحباب، و الله أعلم.

(مسألة) ثم الاستعاذة في الصلاة إنما هي للتلاوة. و من لطائف الاستعاذة: أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو و الرفث و تطييب له، و هو لتلاوة كلام الله، و هي استعانة بالله و اعتراف له بالقدرة و للعبد بالضعف و العجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني، الذي لا يقدر على منعه و دفعه إلا الله الذي خلقه، و لا يَقبل مصانعة و لا يُدارى بالإحسان بخلاف العدو من نوع الإنسان كما دلت على ذلك آيات من القرآن في ثلاث من المثاني، و قال تعالى: **﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان و كفى بربك وكيلا﴾** و قد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري فمن قتله العدو الظاهر البشري كان شهيداً، و من قتله العدو الباطني كان طريداً، و من غلبه العدو الظاهري كان مأجوراً، و من قهره العدو الباطني كان مفتوناً أو موزوراً، و لما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه، استعاذ منه بالذي يراه و لا يراه الشيطان.

(فصل) و الاستعاذة هي الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر، و العياذة تكون لدفع الشر وَ اللياذ يكون لطلب جلب الخير، كما قال المتنبي:

يا مَن ألوذ به فـيـمـا أؤمله	و مَن أعـوذ به ممن أحـاذره
لا يَجبر الناس عَظْماً أنت كاسره	و لا يهيضون عظماً أنت جابره

و معنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أي: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أودنياي أو يصدني عن فعل ما أُمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله.

و الشيطان في لغة العرب مشتق من شَطَن إذا بَعُد فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، و بعيد بفسقه عن كل خير، و قيل: مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار، و منهم من يقول كلاهما صحيح في المعنى، و لكن الأول

(١) الصواب الإسرار بها لأن المنقول عن النبي ﷺ الإسرار بها و بالبسملة، كما في حديث أنس رضي الله عنه في الصحيحين.

أصح و عليه يدل كلام العرب.

و قال سيبويه: العرب تقول تشيطن فلان إذا فعل فعل الشياطين، و لو كان من شاط لقالوا تشيّط، فالشيطان مشتق من البعد على الصحيح، و لهذا يسمون كل من تمرد من جني و إنسي و حيوان شيطاناً، قال الله تعالى: **﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس و الجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾**.

و في صحيح مسلم عن أبي ذر أيضاً قال: قال رسول اللهﷺ «يَقطعُ الصلاةَ المرأةُ و الحمار و الكلب الأسود» فقلت يا رسول الله ما بال الكلب الأسود من الأحمر و الأصفر؟ فقال: «الكلب الأسود شيطان».

و الرجيم فعيل بمعنى مفعول أي أنه مرجوم مطرود عن الخير كله، كما قال تعالى: **﴿و لقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾** و قال تعالى: **﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب و حفظاً من كل شيطان مارد ◆ لا يسَّمَّعون إلى الملإ الأعلى و يقذفون من كل جانب ◆ دحوراً و لهم عذاب واصب ◆ إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾** و قال تعالى: **﴿و لقد جعلنا في السماء بروجاً و زيناها للناظرين ◆ وحفظناها من كل شيطان رجيم ◆ إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾** إلى غير ذلك من الآيات.

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) ﴾

١-افتتح بها الصحابة كتاب الله و اتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل، ثم اختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة أو من أول كل سورة كُتبت في أولها، أو أنها بعض آية من كل سورة أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها أو أنها إنما كُتبت للفصل لا أنها آية، على أقوال للعلماء سلفاً و خلفاً و ذلك مبسوط في غير هذا الموضع، و في سنن أبي داود بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول اللهﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه **﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾** و أخرجه الحاكم.

و ممن حكي عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة: ابن عباس و ابن عمر و ابن الزبير و أبو هريرة و علي و من التابعين عطاء و طاوس و سعيد بن جبير و مكحول و الزهري، و به يقول عبد الله بن المبارك و الشافعي و أحمد ابن حنبل في رواية عنه و إسحاق بن راهويه و أبو عبيد القاسم بن سلام رحمهم الله [1]. و قال مالك و أبو حنيفة و أصحابهما ليست آية من الفاتحة و لا من غيرها من السور. هذا ما يتعلق بكونها آية من الفاتحة أم لا.

فأما الجهر بها فمفرَّع على هذا، فمن رأى أنها ليست من الفاتحة فلا يجهر بها، و كذا من قال إنها آية من أولها، و أما من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا، فذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة، و الحجة في ذلك أنها بعض الفاتحة فيجهر بها كسائر أبعاضها، و أيضاً فقد روى النسائي في سننه وابن خزيمة و ابن حبان في صحيحيهما و الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة أنه صلى فجهر في قراءته بالبسملة و قال بعد أن فرغ: إني لأشبهكم صلاةً برسول اللهﷺ، و صححه الدارقطني و الخطيب و البيهقي وغيرهم، وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك أنه سئل عن قراءة النبيﷺ فقال كانت قراءته مداً، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله و يمد الرحمن و يمد الرحيم.

و ذهب آخرون أنه لا يجهر بالبسملة في الصلاة، و هذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة و عبد الله بن مغفل وطوائف من سلف التابعين و الخلف و هو مذهب أبي حنيفة و الثوري و أحمد بن حنبل. واحتجوا بما في

(١) و هو الصحيح إن شاء الله تعالى وعليه الأدلة.

صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير و القراءة بالحمد لله رب العالمين ، و بما في الصحيحين عن أنس بن مالك قال : صليت خلف النبي ﷺ و أبي بكر و عمر و عثمان فكانوا يفتتحون بالحمد لله رب العالمين . و لمسلم : ولا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة و لا في آخرها . فهذه مآخذ الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة و هي قريبة لأنهم أجمعوا على صحة من جهر بالبسملة ومن أسر ، و لله الحمد و المنة[1] .

فَصلٌ فِي فَضلِهَا

و روى الإمام أحمد عن عاصم قال : سمعت أبا تميمة يحدث عن رديف النبي ﷺ قال عثر بالنبي ﷺ . فقلت تعس الشيطان ، فقال النبي ﷺ : «لا تقل تعس الشيطان ، فإن إذا قلتَ تعس الشيطان تعاظم و قال : بقوتي صرعته ، و إذا قلت باسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب» . فهذا من تأثير بركة بسم الله ، و لهذا تستحب في أول كل عمل و قول .

و تستحب البسملة عند دخول الخلاء ، لما ورد من الحديث في ذلك ، و تستحب في أول الوضوء لما جاء في مسند الإمام أحمد و السنن من رواية أبي هريرة و سعيد بن زيد و أبي سعيد مرفوعاً «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه» و هو حديث حسن ، و من العلماء من أوجبها عند الذكر ههنا ، و منهم من قال بوجوبها مطلقاً ، وكذا تستحب عند الذبيحة في مذهب الشافعي و جماعة ، و أوجبها آخرون عند الذكر ، و مطلقاً في قول بعضهم كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله .

و هكذا تستحب عند الأكل لما في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لربيبه عمر بن أبي سلمة : «قل بسم الله ، و كُلْ بيمينك و كل مما يليك» و من العلماء من أوجبها و الحالة هذه ، و كذلك تستحب عند الجماع لما في صحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال : بسم الله اللهم جنّبنا الشيطان و جنّب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً» .

فالمشروع ذكر اسم الله في الشروع في ذلك كله تبركاً و تيمناً و استعانة على الإتمام و التقبل و الله أعلم .

﴿الله﴾ علم على الرب تبارك و تعالى ، يقال : إنه الاسم الأعظم ، لأنه يوصف بجميع الصفات كما قال تعالى : **﴿هو الله الذي لا إله إلا هو علام الغيب و الشهادة هو الرحمن الرحيم ❁ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ❁ هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات و الأرض و هو العزيز الحكيم﴾** فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له كما قال تعالى : **﴿و لله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾** و قال تعالى : **﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾** و في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة» ، و هو اسم لم يسم به غيره تبارك و تعالى .

﴿الرحمن الرحيم﴾ اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ، و رحمن أشد مبالغة من رحيم .

قال أبو علي الفارسي : الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى ، و الرحيم إنما هو من

---

(١) و عدم الجهر بالبسملة هو الأقوى دليلاً و أصرح قيلاً ، كما ترى .

جهة المؤمنين قال الله تعالى : **﴿و كان بالمؤمنين رحيماً﴾** و قال ابن عباس : هما اسمان رقيقان أحدهما أرقّ من الآخر، أي أكثر رحمة .

و روى ابن جرير عن العزرمي يقول : الرحمن الرحيم قال : الرحمن لجميع الخلق، الرحيم قال بالمؤمنين قالوا و لهذا قال **﴿ثم استوى على العرش الرحمن﴾** و قال **﴿الرحمن على العرش استوى﴾** فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته، و قال **﴿و كان بالمؤمنين رحيماً﴾** فخصهم باسمه الرحيم، قالوا : فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه، و الرحيم خاصة بالمؤمنين . و اسمه تعالى الرحمن خاص به لم يسم به غيره كما قال تعالى **﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾** و قال تعالى : **﴿و اسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾** و لما تجهرم مسيلمة الكذاب و تسمى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب، و شهّر به فلا يقال إلا : مسيلمة الكذاب، فصار يضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر من أهل المدر و أهل الوبر من أهل البادية و الأعراب .

و قد زعم بعضهم أن الرحيم أشد مبالغة من الرحمن لأنه أكّد به و المؤكد لا يكون إلا أقوى من المؤكد، والجواب : أن هذا ليس من باب التأكيد، و إنما هو من باب النعت و لا يلزم فيه ما ذكروه . و أما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره قال : **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾** كما وصف غيره بذلك من أسمائه كما قال تعالى **﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾** و الحاصل أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره، و منها ما لا يسمى به غيره، كاسم الله والرحمن و الخالق و الرازق و نحو ذلك فلهذا بدأ باسم الله و وصفه بالرحمن، لأنه أخص و أعرف من الرحيم، لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشرف الأسماء فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص .

و روى ابن أبي حاتم عن الحسن قال : الرحمن اسمٌ لا يستطيع الناس أن ينتحلوه، تسمّى به تبارك و تعالى .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾

٢- قال أبو جعفر بن جرير معنى **﴿الحمد لله﴾** الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه، و دون كل ما برأ من خلقه بما أنعم على عباده من النعم التي لا يُحصيها العدد و لا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته و تمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، و غذّاهم من نعيم العيش من غير استحقاق منهم ذلك عليه، و مع ما نبههم عليه و دعاهم إليه من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً و آخراً . و قال : الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه و في ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه فكأنه قال : قولوا الحمد لله .

و قال الجوهري : الحمد نقيض الذم ، تقول حمدت الرجل أحمده حمداً و محمدة فهو حميد و محمود والتحميد أبلغ من الحمد، و الحمد أعم من الشكر، و قال في الشكر هو : الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف، يقال شكرته و شكرت له و باللام أفصح . و أما المدح فهو أعم من الحمد لأنه يكون للحي و للميت وللجماد أيضاً كما يمدح الطعام و المكان و نحو ذلك، و يكون قبل الإحسان و بعده، و على الصفات المتعدية واللازمة أيضاً فهو أعم .

ذكر ما ورد في فضل ذكر الحمد

روى الحافظ الترمذي و النسائي و ابن ماجه من حديث عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ «أفضل الذكر لا إله إلا الله، و أفضل الدعاء الحمد لله». و روى ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمةً فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ».

قال القرطبي و غيره: أي لكان إلهامه الحمد لله أكثر نعمة عليه من نعم الدنيا لأن ثواب الحمد لله لا يفنى ونعيم الدنيا لا يبقى قال الله تعالى: **﴿المال و البنون زينة الحياة الدنيا و الباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾** وحكى القرطبي عن طائفة أنهم قالوا: قول العبد الحمد لله رب العالمين أفضل من قوله لا إله إلا الله، لاشتمال الحمد لله رب العالمين على التوحيد مع الحمد، و قال آخرون: لا إله إلا الله أفضل لأنها تفصل بين الإيمان والكفر، و عليها يُقاتَل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، كما ثبت في الحديث المتفق عليه، و في الحديث الآخر: «أفضلُ ما قلتُ أنا و النبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

(و الرب) هو المالك المتصرف و يطلق في اللغة على السيد و على المتصرف للإصلاح، و كل ذلك صحيح في حق الله، و لا يستعمل الرب لغير الله بل بالإضافة تقول: رب الدار، رب كذا، و أما الرب فلا يقال إلا لله عز وجل، و قد قيل: إنه الاسم الأعظم. و(العالمين) جمع عالم و هو كل موجود سوى الله عز وجل، والعوالم أصناف المخلوقات في السموات و في البر و البحر، و كل قرن منها و جيل يسمى عالماً أيضاً.

و قال الزجّاج: العالم كل ما خلق الله في الدنيا و الآخرة، قال القرطبي: و هذا هو الصحيح إنه شامل لكل العالمين كقوله: **﴿قال فرعون و ما رب العالمين ◆ قال رب السموات و الأرض و ما بينهما إن كنتم موقنين﴾** والعالم مشتق من العلامة (قلت) لأنه عَلَم دال على وجود خالقه و صانعه و وحدانيته.

﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) ﴾

٣- تقدم الكلام عليه في البسملة بما أغنى عن الإعادة، قال القرطبي: إنما وصف نفسه بالرحمن الرحيم بعد قوله رب العالمين، ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب، كما قال تعالى: **﴿نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم ◆ وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾** و قوله تعالى: **﴿إن ربك سريع العقاب و إنه لغفور رحيم﴾** قال: فالرب فيه ترهيب والرحمن الرحيم ترغيب، و في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «و لو يَعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد، و لو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد».

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) ﴾

٤- قرأ بعض القراء (مَلِك يوم الدين) و قرأ آخرون (مالك) و كلاهما صحيح متواتر في السبع، و مالك مأخوذ من الملك كما قال تعالى: **﴿إنا نحن نرث الأرض و من عليها و إلينا يرجعون﴾** و قال **﴿قل أعوذ برب الناس ملك الناس﴾** و مَلِك مأخوذ من المُلك كما قال تعالى: **﴿لمن المُلك اليوم لله الواحد القهار﴾** و قال **﴿قوله الحق وله الملك﴾** و قال: **﴿الملك يومئذ الحق للرحمن و كان يوماً على الكافرين عسيراً﴾** و تخصيص الملك بيوم الدين

لا ينفيه عما عداه، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين و ذلك عامّ في الدنيا و الآخرة، و إنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يَدّعي أحدٌ هنالك شيئاً، و لا يتكلم أحد إلا بإذنه كماقال تعالى: **﴿يوم يقوم الروح و الملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن و قال صواباً﴾** و قال تعالى: **﴿و خشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً﴾** و قال تعالى: **﴿يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي و سعيد﴾**.

و المَلِكُ في الحقيقة هو الله عزوجل، قال الله تعالى: **﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام﴾** وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً «أَخْنَعُ اسم عند الله، رجل تَسمَّى بملك الأملاك، و لا مالك إلا الله» وفيهما عنه عن رسول الله ﷺ قال «يقبض الله الأرض و يطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» و في القرآن العظيم **﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾** فأما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز، كما قال تعالى: **﴿إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً﴾**.

(و الدين) الجزاء و الحساب كما قال تعالى: **﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق﴾** و قال **﴿أئنا لمدينون﴾** أي مجيزون محاسبون. و قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، و زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم **﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾**.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾

٥- العبادة في اللغة من الذلة يقال: طريق معبّد و بعير معبد أي مذلل، و في الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة و الخضوع و الخوف. و قدم المفعول و هو إياك و كرر للاهتمام و الحصر، أي لا نعبد إلا إياك و لا نتوكل إلا عليك و هذا هو كمال الطاعة، و الدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، و هذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، و سرها هذه الكلمة **﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾** فالأول تبرؤ من الشرك، و الثاني تبرؤ من الحول والقوة و التفويض إلى الله عز وجل، و هذا المعنى في غير آية من القرآن، كما قال تعالى: **﴿فاعبده و توكل عليه و ما ربك بغافل عما تعملون﴾**، **﴿قل هو الرحمن آمنا به و عليه توكلنا﴾**، **﴿رب المشرق و المغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾**.

و قد سمى الله رسوله ﷺ بعبده في أشرف مقاماته فقال: **﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾** **﴿و أنه لما قام عبد الله يدعوه﴾**، **﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾** فسماه عبداً عند إنزاله عليه و عند قيامه في الدعوة وإسرائه به، و أرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول: **﴿و لقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبّح بحمد ربك و كن من الساجدين ♦ و اعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾**.

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾

٦- لَمّا تقدّم الثناء على المسؤول تبارك و تعالى ناسب أن يعقب بالسؤال كما قال: «فنصفها لي و نصفها لعبدي ولعبدي ما سأل» و هذا أكمل أحوال السائل أن يمدح مسؤوله ثم يسأل حاجته و حاجة إخوانه المؤمنين بقوله: **﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾** لأنه أنجح للحاجة و أنجع للإجابة، و لهذا أرشد الله إليه لأنه الأكمل.

و الهداية ههنا: و الإرشاد و التوفيق، أي: ألهمنا أو وفقنا أو ارزقنا أو أعطنا.

و أما الصراط المستقيم فقال أبو جعفر بن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط

المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه. ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف و الخلف في تفسير الصراط، و إنْ كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد و هو المتابعة لله و للرسول.

و روى الإمام أحمد في مسنده عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً و على جَنْبَتَي الصراط سُوران فيهما أبواب مفتّحة، و على الأبواب ستورٌ مُرْخَاة، و على باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً و لا تَعْوَجُّوا، و داع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إنْ فتحته تلجه، فالصراط الإسلام و السُوران حدود الله، و الأبواب المفتحة: محارم الله، و ذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، و الداعي من فوق الصراط واعظُ الله في قلب كل مسلم» رواه الترمذي و النسائي و هو إسناد حسن صحيح و الله أعلم.

و قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: و الذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي أعني: **﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾** أن يكون معنياً به: وفّقنا للثبات على ما ارتضيته و وفقت له من أنعمت عليه من عبادك من قول وعمل ذلك هو الصراط المستقيم، لأن من وفق لما وفق له مَن أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين فقد وفق للإسلام و تصديق الرسل والتمسك بالكتاب و العمل بما أمره الله به، و الانزجار عما زجره عنه، و اتباع منهاج النبي ﷺ و منهاج الخلفاء الأربعة، و كل عبد صالح و كل ذلك من الصراط المستقيم.

(فإن قيل) فكيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة و غيرها و هو متصف بذلك؟ فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟

فالجواب: أن لا، و لولا احتياجه ليلاً و نهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده الله تعالى إلى ذلك، فإن العبد مفتقر في كل ساعة و حالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهداية و رسوخه فيها، و تبصره و ازدياده منها واستمراره عليها، فإن العبد لا يملك لنفسه نفعاً و لا ضراً إلا ما شاء الله، فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمده بالمعونة و الثبات و التوفيق، فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله فإنه قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه و لا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل و أطراف النهار، و قد قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله و رسوله والكتاب الذي نزل على رسوله و الكتاب الذي أنزل من قبل﴾** الآية: فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان و ليس ذلك من باب تحصيل الحاصل، لأن المراد الثبات و الاستمرار و المداومة على الأعمال المعينة على ذلك، والله أعلم. وقال تعالى آمراً لعباده المؤمنين أن يقولوا: **﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا و هب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾** و قد كان الصديق رضي الله عنه يقرأ بهذه الآية في الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سراً، فمعنى قوله تعالى **﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾** استمر بنا عليه و لا تعدل بنا إلى غيره.

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) ﴾

٧- و قد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد **﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾** إلى آخرها أن الله يقول «هذا لعبدي و لعبدي ما سأل» و قوله تعالى: **﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾** مفسر للصراط المستقيم. و الذين أنعم الله عليهم المذكورون في سورة النساء حيث قال تعالى: **﴿و من يطع الله و الرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقاً ❁ ذلك الفضل من الله و كفى بالله عليماً﴾**.

وقوله تعالى: **﴿غير المغضوب عليهم و لا الضالين﴾** أي اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم و نعتهم، و هم أهل الهداية و الاستقامة و الطاعة لله و رسله، و امتثال أوامره و ترك نواهيه وزواجره، غير صراط **﴿المغضوب عليهم﴾** و هم الذين فسدت إرادتهم فعلموا الحق و عدلوا عنه، و لا صراط **﴿الضالين﴾** و هم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق. و أكد الكلام بـ **﴿لا﴾** ليدل على أن ثَمّ مسلكين فاسدين، و هما طريقة اليهود و النصارى.

فطريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق و العمل به، و اليهود فقدوا العمل، و النصارى فقدوا العلم، ولهذا الغضب لليهود و الضلال للنصارى، لأن مَن عَلِم و ترك استحق الغضب خلاف من لم يعلم، والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، و هو اتباع الحق، ضلوا، و كل من اليهود و النصارى ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب كما قال تعالى عنهم **﴿من لعنه الله و غضب عليه﴾** و أخص أوصاف النصارى الضلال، كما قال تعالى عنهم **﴿قد ضلوا من قبل و أضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾**.

(فصل) اشتملت هذه السورة الكريمة و هي سبع آيات على حمد الله و تمجيده، و الثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا، و على ذكر المعاد و هو يوم الدين، و على إرشاده عبيده إلى سؤاله و التضرع إليه و التبرئ من حولهم و قوتهم إلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية تبارك و تعالى، و تنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، و إلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، و هو الدين القويم و تثبيتهم عليه حتى يقضي لهم بذلك إلى جواز الصراط الحسية يوم القيامة المفضي بهم إلى جنات النعيم، في جوار النبيين والصديقين و الشهداء و الصالحين، و اشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، و التحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة و هم المغضوب عليهم و الضالون.

(فصل) يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها: آمين مثل يس، و يقال أمين بالقصر أيضاً، و معناه اللهم استجب، و الدليل على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد و أبو داود و الترمذي عن وائل بن حجر قال: سمعت النبيﷺ قرأ **﴿غير المغضوب عليهم و لا الضالين﴾** فقال آمين مد بها صوته، و لأبي داود رفع بها صوته، و قال الترمذي هذا حديث حسن.

و في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللهﷺ قال «إذا أمّن الإمام فأمّنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه»، و لمسلم أن رسول اللهﷺ قال: «إذا قال أحدكم في الصلاة آمين و الملائك في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه». قيل بمعنى: من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان، و قيل في الإجابة، و قيل في صفة الإخلاص.

و في صحيح مسلم عن أبي موسى مرفوعاً «إذا قال - يعني الإمام - و لا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله».

و قد روى الإمام أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها أن رسول اللهﷺ ذكرت عنده اليهود فقال «إنهم لن يَحسدونا على شيء كما يحسدونا على الجمعة التي هَدَانا الله لها و ضَلّوا عنها، و على القِبْلة التي هَدَانا الله لها و ضلّوا عنها، و على قولنا خلف الإمام آمين».



ذكر ما في فضلها

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً فإن البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان».

و روى البخاري عن أسيد بن حُضير رضي الله عنه قال : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة - و فرسه مربوطة عنده - إذ جالت الفرس، فسكت فسكنت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت فسكنت ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها، فأشفق أن تصيبه فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدّث النبي ﷺ فقال : «اقرأ يا ابن حُضير» قال : فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى ، و كان منها قريباً ، فرفعت رأسي و انصرفت إليه ، فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظُّلة فيها أمثال المصابيح فخرجتُ حتى لا أراها ، قال : «وتدري ما ذاك ؟» قال : لا ، قال : «تلك الملائكة دَنَتْ لصوتك و لو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم».

ذكر ما ورد في فضلها مع آل عمران

و روى مسلم عن أبي أمامة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «اقرؤوا القرآن فإنه شافع لأهله يوم القيامة اقرؤوا الزهراوين البقرة و آل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فِرقان من طير صواف يحاجان عن أهلهما يوم القيامة ، ثم قال : اقرؤوا البقرة فإن أخذها بركة و تركها حسرة و لا تستطيعها البطلة».

ذكر ما ورد في فضل السبع الطوال

روى أبو عبيد عن واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ قال : «أُعطيت السبعَ الطِوال مكان التوراة ، و أعطيت المئين مكان الإنجيل ، و أعطيت المثاني مكان الزبور ، و فُضِّلت بالمفصَّل».

(فصل) و البقرة جميعها مدنية بلا خلاف و هي من أوائل ما نزل بها لكن قوله تعالى فيه **﴿و اتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾** الآية يقال إنها آخر ما نزل من القرآن و يحتمل أن تكون منها و كذلك آيات الربا من آخر ما نزل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾

١ - قد اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور، فمنهم من قال : هي مما استأثر الله بعلمه فردّوا علمها إلى الله و لم يفسروها. و قيل : هي أسماء السور.

و عن مجاهد أنه قال: فواتح السور كلها (ق و ص و حم و طسم و الر) و غير ذلك هجاء موضوع، و قال بعض أهل العربية: هي حروف من حروف المعجم استغني بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها التي هي تتمة الثمانية و العشرين حرفاً كما يقول القائل: ابني يكتب في ـ ا ب ت ث ـ أي في حروف المعجم الثمانية و العشرين فيستغنى بذكر بعضها عن مجموعها حكاه ابن جرير.

قلت: مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً و هي ـ ا ل م ص ر ك هـ ي ع ط س ح ق ن ـ يجمعها قولك: نص حكيم قاطع له سر. و هي نصف الحروف عدداً و المذكور منها أشرف من المتروك. و قال بعضهم: لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه و تعالى عبثاً و لا سُدى، و من قال من الجهلة إن في القرآن ما هو تعبدٌ لا معنى له بالكلية فقد أخطأ خطأً كبيراً، فتَعَيَّن أن لها معنى في نفس الأمر فإن صحّ لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به و إلا وقفنا حيث وقفنا و قلنا **﴿آمنا به كل من عند ربنا﴾** و لم يجمع العلماء فيها على شيء معين، و إنما اختلفوا فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه، و إلا فالوقف حتى يتبين هذا المقام.

و قال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، و أن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، و قد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد و جمع من المحققين، و حكى القرطبي عن الفراء و قطرب نحو هذا، و قرره الزمخشري في كشافه و نصره أتم نصر، و إليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية، و شيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي و حكاه لي عن ابن تيمية.

(قلت): و لهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يُذكر فيها الانتصار للقرآن و بيان إعجازه وعظمته وهذا معلوم بالاستقراء، و هو الواقع في تسع و عشرين سورة و لهذا يقول تعالى **﴿الم ❁ ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ ﴿الم ❁ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ❁ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه﴾ ﴿المص ❁ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ ﴿الر ❁ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم﴾ ﴿الم ❁ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ ﴿حم ❁ تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ ﴿حم ❁ عسق ❁ كذلك يوحي إليك و إلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم﴾** و غير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر، و الله أعلم.

و أما من زعم أنها دالة على معرفة المُدَد، و أنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث و الفتن و الملاحم، فقد ادعى ما ليس له، و طار في غير مطاره.

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) ﴾

٢- روي عن ابن عباس **﴿ذلك الكتاب﴾** أي هذا الكتاب، و كذا قال مجاهد و عكرمة و سعيد بن جبير والسدي و مقاتل بن حيان و زيد بن أسلم و ابن جريج، أن **﴿ذلك﴾** بمعنى هذا، و الكتاب القرآن، و الريب الشك، قال: و معنى الكلام هنا أن هذا الكتاب هو القرآن لا شك فيه أنه نزل من عند الله، كما قال تعالى في السجدة **﴿الم ❁ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾** و قال بعضهم هذا خبر و معناه النهي أي لا ترتابوا فيه.

﴿هدى﴾ صفة للقرآن و خُصّت الهداية للمتقين كما قال **﴿قل هو للذين آمنوا هدى و شفاء و الذين لا يؤمنون في آذانهم وَقرٌ و هو عليهم عَمَى أولئك يُنادون من مكان بعيد﴾** **﴿و ننزل من القرآن ما هو شفاء و رحمة للمؤمنين و لا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾** إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن لأنه هو في نفسه هدى، و لكن لا يناله إلا الأبرار كما قال تعالى **﴿يا أيها الناس قد جاءتكم مَوعظةٌ من ربكم وشفاءٌ لما في الصدور و هدى و رحمة للمؤمنين﴾**، **﴿هدى للمتقين﴾** يعني نوراً **﴿للمتقين﴾** الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به. و قال قتادة للمتقين هم الذين نعتهم الله بقوله **﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾** الآية و التي بعدها.

و يطلق الهدى و يراد به ما يقرّ في القلب من الإيمان، و هذا لا يَقْدر على خَلْقه في قلوب العباد إلا الله عز وجل قال الله تعالى **﴿إنك لاتهدي من أحببت﴾** و قال **﴿ليس عليك هداهم﴾** و قال **﴿من يضلل الله فلا هادي له﴾** وقال **﴿من يهد الله فهو المهتد و من يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾** إلى غير ذلك من الآيات، و يطلق و يراد به بيان الحق و توضيحه و الدلالة عليه و الإرشاد، قال الله تعالى **﴿و إنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾** و قال **﴿إنما أنت منذر و لكل قوم هاد﴾** و قال تعالى **﴿و أما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾** و قال **﴿وهديناه النجدين﴾** على تفسير من قال المراد بهما الخير و الشر، وهو الأرجح و الله أعلم.

و أصل التقوى التوقي مما يكره لأن أصلها وقوى من الوقاية.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾

٣-عن ابن عباس رضي الله عنهما: يؤمنون يصدّقون. قال ابن جرير: و الأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً و عملاً و اعتقاداً، و قد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل، والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله و كتبه و رسله و تصديق الإقرار بالفعل **(قلت)** أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض، و قد يستعمل في القرآن و المراد به ذلك، كما قال تعالى **﴿يؤمن بالله و يؤمن للمؤمنين﴾** و كما قال إخوة يوسف لأبيهم **﴿و ما أنت بمؤمن لنا و لو كنا صادقين﴾**، و كذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال كقوله تعالى **﴿إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات﴾** فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً و قولاً و عملاً. هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة بل قد حكاه الشافعي و أحمد بن حنبل و أبو عبيدة و غير واحد إجماعاً: أن الإيمان قول و عمل يزيد و ينقص، و قد ورد فيه آثار كثيرة و أحاديث أفردنا الكلام فيها في أول شرح البخاري و لله الحمد و المنة. و منهم من فسره بالخشية كقوله تعالى: **﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب﴾** و قوله **﴿من خشي الرحمن بالغيب و جاء بقلب منيب﴾** و الخشية خلاصة الإيمان و العلم، كما قال تعالى: **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾**.

و أما الغيب المراد هنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه، و كلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد، فعن أبي العالية قوله تعالى: **﴿يؤمنون بالغيب﴾** قال: و يؤمنون بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر و جنته وناره و لقائه، و يؤمنون بالحياة بعد الموت و بالبعث، فهذا غيب كله.

و روى سعيد بن منصور عن عبد الرحمن بن يزيد قال: كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً فذكرنا أصحاب

النبيﷺ و ما سبقونا به ، فقال عبد الله : إن أمر محمدﷺ كان بيناً لمن رآه ، و الذي لا إله غيره ما آمن أحد قط إيماناً أفضل من إيمان بغيب ثم قرأ ﴿**الم ◆ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ◆ الذين يؤمنون بالغيب** - إلى قوله - **المفلحون**﴾ و هكذا رواه ابن أبي حاتم و ابن مردويه و الحاكم .

و روى أحمد بسند صحيح عن ابن محيريز قال قلت لأبي جمعة : حدثنا حديثاً سمعته من رسول اللهﷺ قال نعم أحدثك حديثاً جيداً : تغدينا مع رسول اللهﷺ و معنا أبو عبيدة بن الجراح قال : يا رسول الله هل أحد خير منا ؟ أسلمنا معك و جاهدنا معك . قال «نعم قوم من بعدكم يؤمنون بي و لم يروني» .

﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) ﴾

٣-قال ابن عباس : أي يقيمون الصلاة بفروضها ، و قال : إقامة الصلاة إتمام الركوع و السجود و التلاوة والخشوع و الإقبال عليها فيها ، و قال مقاتل بن حيان : إقامتها المحافظة على مواقيتها و إسباغ الطهور بها ، و تمام ركوعها و سجودها ، و تلاوة القران فيها و التشهد و الصلاة على النبيﷺ فهذا إقامتها .

و عن ابن عباس ﴿**و مما رزقناهم ينفقون**﴾ قال : زكاة أموالهم ، و قال طائفة من أصحاب رسول اللهﷺ ﴿**ومما رزقناهم ينفقون**﴾ قال : نفقة الرجل على أهله ، و هذا قبل أن تنزل الزكاة .

و اختار ابن جرير أن الآية عامة في الزكاة و النفقات فإنه قال : و أولى التأويلات و أحقها بصفة القوم أن يكونوا لجميع اللازم لهم في أموالهم مؤدين ، زكاة كان ذلك أو نفقة من لزمته نفقته من أهل أو عيال و غيرهم ممن يجب عليهم نفقته بالقرابة و الملك و غير ذلك لأن الله تعالى غم وصفهم و مدحهم بذلك ، و كل من الإنفاق و الزكاة ممدوح به محمود عليه .

(قلت) : كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة و الإنفاق من الأموال ، فإن الصلاة حق الله و عبادته ، و هي مشتملة على توحيده و الثناء عليه ، و تمجيده و الابتهال إليه ، و دعائه و التوكل عليه ، و الإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم ، و أولى الناس بذلك القرابات و الأهلون والمماليك ، ثم الأجانب فكل من النفقات الواجبة و الزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى : ﴿**و مما رزقناهم ينفقون**﴾ و لهذا ثبت في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول اللهﷺ قال : «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله ، و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة و صوم رمضان و حج البيت» و الأحاديث في هذا كثيرة و أصل الصلاة في كلام العرب : الدعاء .

ثم استعملت الصلاة في الشرع في ذات الركوع و السجود و الأفعال المخصوصة في الأوقات المخصوصة بشروطها المعروفة و صفاتها و أنواعها المشهورة .

و أما الزكاة فسيأتي الكلام عليها في موضعه إن شاء الله تعالى .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) ﴾

٤- قال ابن عباس : أي يصدقون بما جئت به من الله ، و ما جاء به من قبلك من المرسلين ، لا يفرقون بينهم و لا يجحدون ما جاؤوهم به من ربهم ﴿**و بالآخرة هم يوقنون**﴾ أي بالبعث و القيامة و الجنة و النار و الحساب والميزان ، و إنما سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا .

و هذه الآيات الأربع عامات في كل مؤمن اتصف بها، من عربي و عجمي و كتابي، من إنسي و جني، وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى، بل كل واحدة مستلزمة للأخرى و شرط معها فلا يصح الإيمان بالغيب و إقام الصلاة و الزكاة، إلا مع الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ و ما جاء به من قبله من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، و الإيقان بالآخرة كما أن هذا لا يصح إلا بذلك، وقد أمر الله المؤمنين بذلك كما قال: **﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله و رسوله و الكتاب الذي نزّل على رسوله و الكتاب الذي أنزل من قبل﴾** الآية. وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك فقال تعالى: **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه و المؤمنون كل آمن بالله وملائكته و كتبه و رسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾** و قال تعالى: **﴿و الذين آمنوا بالله و رسله و لم يفرقوا بين أحد منهم﴾** إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أمر جميع المؤمنين بالإيمان بالله و رسله و كتبه، لكن لمؤمني أهل الكتاب خصوصية، و ذلك أنهم يؤمنون بما بأيديهم مفصلاً فإذا دخلوا في الإسلام، وآمنوا به مفصلاً كان لهم على ذلك الأجر مرتين، و أما غيرهم فإنما يحصل له الإيمان بما تقدم مجملاً، و لكن قد يكون إيمان كثير من العرب بالإسلام الذي بعث به محمد ﷺ أتم و أكمل و أعم و أشمل من إيمان من دخل منهم في الإسلام، فهم و إن حصل لهم أجران من تلك الحيثية، فغيرهم يحصل له من التصديق ما ينيف ثوابه على الأجرين اللذين حصلا لهم و الله أعلم.

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) ﴾

٥- يقول الله تعالى: **﴿أولئك﴾** أي المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب و إقام الصلاة، و الإنفاق من الذي رزقهم الله، و الإيمان بما أنزل إلى الرسول، و من قبله من الرسل و الإيقان بالدار الآخرة و هو مستلزم الاستعداد لها من الأعمال الصالحة و ترك المحرمات **﴿على هدى﴾** أي على نور و بيان و بصيرة من الله تعالى: **﴿و أولئك هم المفلحون﴾** أي في الدنيا و الآخرة، الذين أدركوا ما طلبوا، و نجوا من شر ما منه هربوا.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾

٦- يقول تعالى: **﴿إن الذين كفروا﴾** أي غطوا الحق و ستروه و قد كتب الله تعالى عليهم ذلك سواءٌ عليهم إنذارك و عدمه، فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به. كما قال تعالى: **﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾** و قال تعالى في حق المعاندين من أهل الكتاب **﴿و لئن أتيتَ الذين أوتوا الكتاب بكلّ آية ما تبعوا قبلتك﴾** الآية، أي: إنّ من كتب الله عليه الشقاوة فلا مُسعد له، و من أضله فلا هادي له فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، و بلغهم الرسالة فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر، و من تولّى فلا تحزن عليهم و لا يهمنك ذلك **﴿فإنما عليك البلاغ و علينا الحساب﴾** **﴿إنما أنت نذير و الله على كل شيء وكيل﴾**.

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) ﴾

٧- قال السدي **﴿ختم الله﴾** أي طبع الله، و قال قتادة في هذه الآية: استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه، فختم الله على قلوبهم و على سمعهم، و على أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى، و لا يسمعون و لا يفقهون و لا يعقلون. و قال الأعمش أرانا مجاهد بيده فقال كانوا يرون أن القلب في مثل هذه يعني الكف، فإذا

أذنب العبد ضم منه و قال بأصبعه الخنصر هكذا، فإذا أذنب ضم و قال بأصبع أخرى، فإذا أذنب ضم و قال بأصبع أخرى هكذا، حتى ضم أصابعه كلها ثم قال: يطبع عليه بطابع. و قال مجاهد كانوا يرون أن ذلك الرَّين. قال ابن جرير: و قال بعضهم إنما معنى قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ إخبار من الله عن تكبرهم و إعراضهم عن الاستماع لما دُعوا إليه من الحق، كما يقال إن فلاناً أصم عن هذا الكلام إذا امتنع من سماعه و رَفع نفسه عن تفهمه تكبراً، قال: و هذا لا يصح لأن الله تعالى قد أخبر أنه هو الذي ختم على قلوبهم وأسماعهم. **(قلت)**: وقد أطنب الزمخشري في تقرير ما رده ابن جرير ههنا، و تأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جداً و ما جرّأه على ذلك إلا اعتزاله، لأن الختم على قلوبهم و منعها من وصول الحق إليها قبيح عنده يتعالى الله عنه في اعتقاده! و لو فهم قوله تعالى: **﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾** و قوله: **﴿و نقلب أفئدتهم و أبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة و نذرهم في طغيانهم يعمهون﴾** و ما أشبه من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم و حال بينهم و بين الهدى جزاءً وفاقاً على تماديهم في الباطل و تركهم الحق، وهذا عدل منه تعالى حسن و ليس بقبيح، فلو أحاط علماً بهذا لما قال ما قال، و الله أعلم.

قال القرطبي: و أجمعت الأمة على أن الله عز وجل قد وصف نفسه بالختم و الطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم، كما قال تعالى: **﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾** و ذكر حديث تقليب القلوب «و يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك» و ذكر حديث حذيفة الذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ قال «تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأيُّ قلبٍ أُشربها نُكِتَ فيه نكتة سوداء، و أي قلب أنكرها نُكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات و الأرض، و الآخر أسود مُرْباداً كالكوز مُجخّياً لا يعرف معروفاً و لا ينكر منكراً» الحديث، قال ابن جرير و الحق عندي في ذلك ما صح بنظيره الخبر عن رسول الله ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نُكتةً سوداء في قلبه، فإن تاب و نَزَعَ و استعتب صُقِل قلبه، و إنْ زادت زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي قال الله تعالى: **﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾**» رواه الترمذي و قال حسن صحيح ثم قال ابن جرير: فأخبر رسول الله ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، و إذا أغلقتها أتاها حينئذٍ الختم من قبل الله تعالى و الطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، و لا للكفر عنها مخلص، فذلك هو الختم و الطبع الذي في قوله تعالى: **﴿ختم الله على قلوبهم و على سمعهم﴾**.

و اعلم أن الوقف التام على قوله تعالى: **﴿ختم الله على قلوبهم و على سمعهم﴾** و قوله: **﴿و على أبصارهم غشاوة﴾** جملة تامة، فإن الطبع يكون على القلب و على السمع، و الغشاوة و هي الغطاء يكون على البصر.

و لما تقدم وصف المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات ثم عرّف حال الكافرين بهاتين، شرع تعالى في بيان حال المنافقين الذين يُظهرون الإيمان و يُبطنون الكفر، و لما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس أطنب في ذكرهم بصفاتٍ متعددةٍ كل منها نفاق، كما أنزل سورة براءة فيهم و سورة المنافقين فيهم، و ذكرهم في سورة النور وغيرها من السور، تعريفاً لأحوالهم لتُجتنب و يُجتنب من تلبّس بها أيضاً، فقال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾

٨- النفاق: هو إظهار الخير و إسرار الشر، و هو أنواع: اعتقادي، و هو الذي يُخلّد صاحبه في النار. و عملي وهو من أكبر الذنوب كما سيأتي تفصيله في موضعه إن شاء الله تعالى، و هذا كما قال ابن جريج: المنافق يخالف قوله فعله، و سره علانيته، و مدخله مخرجه، و مشهده مغيبه، وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافه من الناس من كان يظهر الكفر مستكرهاً و هو في الباطن مؤمن، فلما هاجر رسول اللهﷺ إلى المدينة و كان بها الأنصار من الأوس و الخزرج، و كانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب، و بها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم و كانوا ثلاث قبائل بنو قينقاع حلفاء الخزرج و بنو النضير و بنو قريظة حلفاء الأوس، فلما قدم رسول اللهﷺ المدينة و أسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس و الخزرج، و قلّ من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلامرضي الله عنه و لم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً، لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، بل قد كان عليه الصلاة و السلام وَادَعَ اليهود و قبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة، فلماكانت وقعة بدر و أظهر الله كلمته و أعز الإسلام و أهله، قال عبد الله بن أبي بن سلول و كان رأساً في المدينة، و هو من الخزرج و كان سيد الطائفتين في الجاهلية، و كانوا قد عزموا على أن يُمَلِّكوه عليهم فجاءهم الخير و أسلموا و اشتغلوا عنه فبقي في نفسه من الإسلام و أهله، فلما كانت وقعة بدر قال: هذا أمر قد توَجَّه فأظهر الدخول في الإسلام و دخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته و آخرون من أهل الكتاب، فمن ثَمَّ وُجِد النفاق في أهل المدينة و من حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد نافق لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهاً، بل يهاجر فيترك ماله و ولده و أرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة.

عن ابن عباس ﴿و من الناس من يقول آمنا بالله و باليوم الآخر و ما هم بمؤمنين﴾ يعني المنافقين من الأوس والخزرج و من كان على أمرهم، و لهذا نبه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، و من اعتقاد إيمانهم و هم كفار في نفس الأمر و هذا من المحذورات الكبار، أن يظن بأهل الفجور خير، فقال تعالى: ﴿و من الناس من يقول آمنا بالله و باليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ أي يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شيء آخر، كما قال تعالى: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله و الله يعلم إنك لرسوله﴾ أي إنما يقولون ذلك إذا جاؤوك فقط لا في نفس الأمر، و لهذا يؤكدون في الشهادة بإنَّ ولام التأكيد في خبرها. أكدوا أمرهم قالوا: آمنا بالله و باليوم الآخر، وليس الأمر كذلك كما كذَّبهم الله في شهادتهم و في خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم بقوله تعالى: ﴿و الله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ و بقوله: ﴿و ما هم بمؤمنين﴾.

٩- و قوله تعالى: ﴿يخادعون الله و الذين آمنوا﴾ أي بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك، و أن ذلك نافعهم عنده، و أنه يَرُوج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين كما قال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم و يحسبون أنهم على شيء ألا

إنهم هم الكاذبون﴾ و لهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله : ﴿و ما يخدعون إلا أنفسهم و ما يشعرون﴾ يقول: و ما يغرون بصنيعهم هذا و لا يخدعون إلا أنفسهم، و ما يشعرون بذلك من أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿إن المنافقين يخادعون الله و هو خادعهم﴾ و من القراء من قرأ ﴿و ما يخدعون إلا أنفسهم﴾ و كلا القراءتين ترجع إلى معنى واحد.

و قال ابن جرير فإن قال قائل: كيف يكون المنافق لله و للمؤمنين مخادعاً و هو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا تقية ؟ قيل: لا تمتنع العرب أن تسمي من أعطى بلسانه غير الذي في ضميره تقية، لينجو مما هو له خائف مخادعاً، فكذلك المنافق سمي مخادعاً لله و للمؤمنين بإظهاره ما ظهر بلسانه تقية بما يخلص به من القتل و السبي و العذاب العاجل، و هو لغير ما أظهره مستبطن، و ذلك من فعله و إن كان خداعاً للمؤمنين في عاجل الدنيا، فهو لنفسه بذلك من فعله خادع، لأنه يظهر لها بفعله ذلك بها أنه يعطيها أمنيتها و يسقيها كأس سرورها، و هو مُوردها حياضَ عَطَبها، و مجرّعها به كأسَ عذابها، و مذيقها من غضب الله وأليم عقابه ما لا قبل لها به، فذلك خديعته نفسه ظناً منه مع إساءته إليها في أمر معادها أنه إليها محسن، كما قال تعالى: ﴿و ما يخدعون إلا أنفسهم و ما يشعرون﴾ إعلاماً منه عباده المؤمنين أن المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم في إسخاطهم عليها ربهم، بكفرهم و شكّهم و تكذيبهم غير شاعرين و لا دارين، و لكنهم على عمى من أمرهم مقيمين.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾

١٠- روي عن ابن عباس و ابن مسعود و أناس من أصحاب النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿في قلوبهم مرض﴾ أي: شك فزادهم الله مرضاً قال: شكاً. و عن ابن عباس ﴿في قلوبهم مرض﴾ قال: نفاق ﴿فزادهم الله مرضاً﴾ قال: نفاقاً و هذا كالأول. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿في قلوبهم مرض﴾ قال: هذا مرض في الدين و ليس مرضاً في الأجساد و هم المنافقون، و المرض: الشك الذي دخلهم في الإسلام ﴿فزادهم الله مرضاً﴾ قال: زادهم رجساً، و قرأ ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً و هم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ قال: شراً إلى شرهم و ضلالة إلى ضلالتهم. و هذا الذي قاله عبد الرحمن رحمه الله حسن و هو الجزاء من جنس العمل، و كذلك قاله الأولون وهو نظير قوله تعالى أيضاً ﴿و الذين اهتدوا زادهم هدى و آتاهم تقواهم﴾ و قوله ﴿بما كانوا يكذبون﴾ و قرئ يكذّبون، و قد كانوا متصفين بهذا وهذا فإنهم كانوا كَذَبَة، و يكذبون بالغيب يجمعون بين هذا و هذا، و قد سئل القرطبي وغيره من المفسرين عن حكمة كفّه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين، مع علمه بأعيان بعضهم وذكروا أجوبة عن ذلك، منها: ما ثبت في الصحيحين أنه ﷺ قال لعمر رضي الله عنه «أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه» ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تغير لكثير من الأعراب عن الدخول في الإسلام، و لا يعلمون حكمة قتله لهم وأن قتله إياهم إنما هو على الكفر، فإنهم إنما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم فيقولون: إن محمداً يَقتُل أصحابه، قال القرطبي و هذا قول علمائنا و غيرهم كما كان يُعطي المؤلفة مع علمه بسوء اعتقادهم. وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أبي بن سلول.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن

لا يَشْعُرُونَ (١٢) ﴾

١١- هم المنافقون، و الفساد هو الكفر و العمل بالمعصية. يعني لا تعصوا في الأرض و كان فسادهم ذلك معصية الله لأنه من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصيته فقد أفسد في الأرض لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة. قال ابن جرير: فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، و ركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، و تضييعهم فرائضه، و شكهم في دينه الذي لا يقبل من أحد عمل إلا بالتصديق به و الإيقان بحقيقته، و كذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك و الريب، و مظاهرتهم أهل التكذيب بالله و كتبه و رسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً، فذلك إفساد المنافقين في الأرض، و هم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها.

فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين، فكأن الفساد من جهة المنافق حاصل لأنه هو الذي غرّ المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له، و والى الكافرين على المؤمنين، و لو أنه استمر على حاله الأول لكان شره أخف، و لو أخلص العمل لله و تطابق قوله و عمله لأفلح و نجح، و لهذا قال تعالى **﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون﴾** أي نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين، و نصطلح مع هؤلاء وهؤلاء.

١٢- يقول الله **﴿ألا إنهم هم المفسدون و لكن لا يشعرون﴾** يقول ألا إن هذا الذي يعتمدونه و يزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد، و لكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾

١٣- يقول تعالى و إذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس، أي كإيمان الناس بالله و ملائكته و كتبه و رسله والبعث بعد الموت و الجنة و النار، و غير ذلك مما أخبر المؤمنين به و عنه، و أطيعوا الله و رسوله في امتثال الأوامر و ترك الزواجر **﴿قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾** يعنون - لعنهم الله - أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم، يقول: أنصير نحن و هؤلاء بمنزلة واحدة و على طريقة واحدة و هم سفهاء؟ و السفهاء جمع سفيه كما أن الحكماء جمع حكيم و الحلماء جمع حليم، و السفيه هو الجاهل الضعيف الرأي القليل المعرفة بمواضع المصالح و المضار، و قد تولى الله سبحانه جوابهم في هذه المواطن كلها فقال **﴿ألا إنهم هم السفهاء﴾** فأكد وحصر السفاهة فيهم **﴿و لكن لا يعلمون﴾** يعني و من تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، و ذلك أردى لهم، و أبلغ في العمى، و البعد عن الهدى.

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) ﴾

١٤- يقول تعالى و إذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: آمنا و أظهروا لهم الإيمان و الموالاة و المصافاة، غروراً منهم للمؤمنين و نفاقاً و مصانعة و تقية، و ليشركوهم فيما أصابوا من خير و مغنم **﴿و إذا خلوا إلى شياطينهم﴾**

يعني إذا انصرفوا و ذهبوا و خلصوا إلى شياطينهم، و شياطينهم سادتهم و كبراؤهم من أحبار اليهود و رؤوس المشركين و المنافقين كما قال تعالى: **﴿و كذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس و الجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾** و قوله **﴿قالوا إنا معكم﴾** أي إنا على مثل ما أنتم عليه **﴿إنما نحن مستهزئون﴾** أي إنما نحن نستهزئ بالقوم و نلعب بهم.

١٥- و قوله تعالى جواباً و مقابلة على صنيعهم **﴿الله يستهزئ بهم و يمدهم في طغيانهم يعمهون﴾** و قال ابن جرير: أخبر تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة في قوله تعالى **﴿يوم يقول المنافقون و المنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾** الآية، و قوله تعالى: **﴿و لا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾** الآية، قال: فهذا و ما أشبهه من استهزاء الله تعالى ذكره وسخريته و مكره و خديعته للمنافقين و أهل الشرك به.

﴿و يمدهم﴾ يُملي لهم، و قال مجاهد: يزيدهم، و قال تعالى: **﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال و بنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾** و قال: **﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾** قال بعضهم: كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة و هي في الحقيقة نقمة. و قوله **﴿في طغيانهم يعمهون﴾** العمه: الضلال، أي في ضلالتهم، وكفرهم الذي غَمَرهم دنسه و عَلاَهم رجسه، يترددون حيارى ضُلاّلاً لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً، لأن الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها، و أعمى أبصارهم عن الهدى و أغشاها، فلا يبصرون رشداً و لا يهتدون سبيلاً.

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) ﴾

١٦- روي عن ابن عباس و ابن مسعود: أي أخذوا الضلالة و تركوا الهدى، و قال مجاهد: آمنوا ثم كفروا، وقال قتادة: استحبوا الضلالة على الهدى، و هذا الذي قاله قتادة يشبهه في المعنى قوله تعالى في ثمود **﴿فأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾** قال تعالى **﴿فما ربحت تجارتهم و ما كانوا مهتدين﴾** أي ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة **﴿و ما كانوا مهتدين﴾** أي راشدين في صنيعهم ذلك. و عن قتادة قال: قد و الله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ومن الجماعة إلى الفرقة، و من الأمن إلى الخوف، و من السنة إلى البدعة.

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (١٨) ﴾

١٧، ١٨- و تقدير هذا المثل أن الله سبحانه شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، و صيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله و انتفع بها و أبصر بها ما عن يمينه و شماله و تأنس بها، فبينا هو كذلك إذْ طفئت ناره و صار في ظلام شديد لا يبصر و لا يهتدي، و هو مع هذا أصم لا يسمع أبكم لا ينطق أعمى لو كان ضياء لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، و استحبابهم الغي على الرشد، و في هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا كما

أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع، و الله أعلم.

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) ﴾

١٩- هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين و هم قوم يظهر لهم الحق تارة، و يشكّون تارة أخرى، فقلوبهم في حال شكهم و كفرهم و ترددهم ﴿كصيب﴾ و الصيب المطر، قاله ابن مسعود و ابن عباس وناس من الصحابة، نزل من السماء في حال ظلمات، وهي الشكوك و الكفر والنفاق، ورعد و هو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع، كما قال تعالى: **﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾** و قال: **﴿و يحلفون بالله إنهم لمنكم و ما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ◆ لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مُدّخلاً لولّوا إليه و هم يجمحون﴾** **﴿و البرق﴾** هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان و لهذا قال **﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت و الله محيط بالكافرين﴾** أي و لا يجدي عنهم حذرهم شيئاً لأن الله محيط بهم بقدرته و هم تحت مشيئته و إرادته، كما قال: **﴿هل أتاك حديث الجنود◆ فرعون و ثمود◆ بل الذين كفروا في تكذيب◆ و الله من ورائهم محيط﴾** بهم.

٢٠- ثم قال: **﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾** قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين، و روي عنه قال: أي لشدة ضوء الحق **﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه و إذا أظلم عليهم قاموا﴾** أي كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به و اتبعوه، و تارة تعرض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾** يقول كلما أصاب المنافقين من عز الإسلام اطمأنوا إليه و إذا أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر، كقوله تعالى **﴿و من الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به﴾**، و عنه أيضاً: أي يعرفون الحق و يتكلمون به، فهم من قولهم به على استقامة فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا أي متحيرين، و هو أصح و أظهر، و الله أعلم، و هكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم، فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ و أكثر من ذلك و أقل من ذلك، و منهم من يطفأ نوره تارة و يضيء أخرى، فيمشي على الصراط تارة و يقف أخرى، ومنهم من يطفأ نوره بالكلية و هم الخلّص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم **﴿يوم يقول المنافقون و المنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً﴾** و قال في حق المؤمنين **﴿يوم ترى المؤمنين و المؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾** الآية، و قال تعالى: **﴿يوم لا يخزي الله النبي و الذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم و بأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا و اغفرلنا إنك أنت على كل شيء قدير﴾**.

عن عبد الله بن مسعود **﴿نورهم يسعى بين أيديهم﴾** قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، و منهم من نوره مثل النخلة، و أدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرة و يطفأ أخرى.

فإذا تقرر هذا صار الناس أقساماً : مؤمنون خُلّص و هم الموصوفون بالآيات الأربع في أول البقرة ، و كفار خلص و هم الموصوفون بالآيتين بعدها و منافقون و هم قسمان : خلص و هم المضروب لهم المثل الناري ، ومنافقون يترددون تارة يظهر لهم لمع الإيمان و تارة يخبو وهم أصحاب المثل المائي ، و هم أخف حالاً من الذين قبلهم ، و هذا المقام يشبه من بعض الوجوه ما ذُكر في سورة النور ، من ضرب مثل المؤمن و ما جعل الله في قلبه من الهدى و النور بالمصباح في الزجاجة التي كأنها كوكب دري ، و هي قلب المؤمن المفطور على الإيمان واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدر و لا تخليط ، كما سيأتي تقريره في موضعه إن شاء الله.

﴿و لو شاء الله لذهب بسمعهم و أبصارهم﴾ روي عن ابن عباس قال : لِمَا تركوا من الحق بعد معرفته **﴿إن الله على كل شيء قدير﴾** قال ابن عباس أي إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير ، و قال ابن جرير : إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع لأنه حذر المنافقين بأسه و سطوته و أخبرهم أنه بهم محيط ، وعلى إذهاب أسماعهم و أبصارهم قدير ، و معنى قدير قادر كما معنى عليم عالم .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) ﴾

شرع تبارك و تعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود و إسباغه عليهم النعم الظاهرة و الباطنة ، بأن جعل لهم الأرض فراشاً أي مهداً كالفراش ، مقررة موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات ، و السماء بناء و هو السقف ، كما قال في الآية الأخرى **﴿و جعلنا السماء سقفاً محفوظاً و هم عن آياتها معرضون﴾** **﴿و أنزل لهم من السماء ماء﴾** و المراد به السحاب ههنا في وقته عند احتياجهم إليه ، فأخرج لهم به من أنواع الزروع و الثمار ما هو مشاهد رزقاً لهم و لأنعامهم كما قرر هذا في غير موضع من القرآن ، و من أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى : **﴿الذي جعل لكم الأرض قراراً و السماء بناء و صوركم فأحسن صوركم و رزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين﴾** و مضمونه : أنه الخالق الرازق مالك الدار و ساكنيها و رازقهم ، فبهذا يستحق أن يعبد وحده و لا يشرك به غيره و لهذا قال : **﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾** و في الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال : «أن تجعل لله نداً و هو خلقك» الحديث ، و كذا حديث معاذ «أتدري ما حق الله على عباده ؟ أن يعبدوه و لا يشركوا به شيئاً» الحديث ، و في الحديث الآخر «لا يقولن أحدكم ما شاء الله و شاء فلان ، و لكن ليقل ما شاء الله ثم شاء فلان»[1].

و عن ابن عباس في قول الله تعالى : **﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾** للفريقين جميعاً من الكفار و المنافقين ، أي وحدوا ربكم الذي خلقكم و الذين من قبلكم . **﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾** قال الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل ، و هو أن يقول : و الله و حياتك يا فلان و حياتي ، و يقول لو لا

(١) رواه الإمام أحمد و أبو داود و النسائي من حديث حذيفة ﷺ بنحوه.

كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة، و لولا البط في الدار لأتى اللصوص، و قول الرجل لصاحبه ما شاء الله وشئت، و قول الرجل لولا الله و فلان لا تجعل فيها «فلان» هذا كله به شرك.

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) ﴾

٢٣، ٢٤- ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو، فقال مخاطباً للكافرين: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾ يعني محمداً ﷺ فأتوا بسورة من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله فعارضوه بمثل ما جاء به و استعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله، فإنكم لا تستطيعون ذلك، قال ابن عباس: شهداءكم أعوانكم، و قال مجاهد: و ادعوا شهداءكم قال ناس يشهدون به يعني حكام الفصحاء، وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن فقال في سورة القصص ﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين﴾ و قال في سورة سبحان ﴿قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ و قال في سورة هود: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات و ادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ و قال في سورة يونس: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله و لكن تصديق الذي بين يديه و تفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ◆ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة من مثله و ادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ و كل هذه الآيات مكية، ثم تحداهم بذلك أيضاً في المدينة فقال في هذه الآية ﴿و إن كنتم في ريب﴾ أي شك ﴿مما نزلنا على عبدنا﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ يعني من مثل القرآن.

و التحدي عام لهم كلهم مع أنهم أفصح الأمم و قد تحداهم بهذا في مكة و المدينة مرات عديدة مع شدة عداوتهم له و بغضهم لدينه و مع هذا عجزوا عن ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿فإن لم تفعلوا و لن تفعلوا﴾ و لن لنفي التأبيد في المستقبل أي و لن تفعلوا ذلك أبداً و هذه أيضاً معجزة أخرى، و هو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً مقدماً غير خائف و لا مشفق أن هذا القرآن لا يُعارض بمثله أبد الآبدين و دهر الداهرين، و كذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا و لا يمكن، و أنى يتأتى ذلك لأحد و القرآن كلام الله خالق كل شيء، و كيف يشتبه كلام الخالق بكلام المخلوقين؟ و من تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة و خفية من حيث اللفظ و من جهة المعنى، قال الله تعالى: ﴿الر ◆ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ فأحكمت ألفاظه و فصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف، فكل من لفظه و معناه فصيح لا يحاذى، و لا يدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت و وقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، و أمر بكل خير، و نهى عن كل شر، كما قال تعالى: ﴿و تمت كلمة ربك صدقاً و عدلاً﴾ أي صدقاً في الأخبار و عدلاً في الأحكام، فكله حق و صدق وعدل و هدى ليس فيه مجازفة و لا كذب و لا افتراء، كما يوجد في أشعار العرب و غيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل في الشعر إن أعذبه أكذبه، و تجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر أو في مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو

مخافة أو سبع أو شيء من المشاهدات المتعينة التي لا تفيد شيئاً إلا قدرة المتكلم المعبر على التعبير على الشيء الخفي أو الدقيق أو إبرازه إلى الشيء الواضح، ثم تجد له فيه بيتاً أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد و سائرها هذر لا طائل تحته.

و أما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً و إجمالاً، ممن فهم كلام العرب و تصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة سواء كانت مبسوطة أو وجيزة و سواء تكررت أم لا، و كلما تكرر حلا و علا، لا يخلق عن كثرة الرد، و لا يمل منه العلماء، و إن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، و إن وعد أتى بما يفتح القلوب القلوب و الآذان، و يشوق إلى دار السلام و مجاورة عرش الرحمن كما قال في الترغيب **﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾** و قال: **﴿و فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين وأنتم فيها خالدون﴾** و قال في الترهيب: **﴿أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر﴾ ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف الأرض فإذا هي تمور﴾ أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير﴾** و قال في الزجر: **﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾** و قال في الوعظ: **﴿أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾** إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة و البلاغة و الحلاوة، و إن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، و النهي عن كل قبيح رذيل دنيء، كما قال ابن مسعود و غيره من السلف: إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن: **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** فأرعها سمعك فإنها خير يأمر به أو شر ينهى عنه، و لهذا قال تعالى: **﴿يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات و يحرم عليهم الخبائث و يضع عنهم إصرهم و الأغلال التي كانت عليهم﴾** الآية، و إن جاءت الآيات في وصف المعاد و ما فيه من الأهوال، و في وصف الجنة و النار، و ما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم و الملاذ و العذاب الأليم، بشرت به و حذّرت و أنذرت، و دعت إلى فعل الخيرات و اجتناب المنكرات، و زهّدت في الدنيا و رغبت في الآخرة، و ثبتت على الطريقة المثلى، و هدت إلى صراط الله المستقيم و شرعه القويم، و نفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم.

و لهذا ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر، و إنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» - لفظ مسلم - و قوله ﷺ: «و إنما كان الذي أوتيته وحياً» أي الذي اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه بخلاف غيره من الكتب الإلهية فإنها ليست معجزة عند كثير من العلماء و الله أعلم، و له عليه الصلاة و السلام من الآيات الدالة على نبوته و صدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر و لله الحمد و المنة.

و قوله تعالى: **﴿فاتقوا النار التي و قودها الناس و الحجارة أعدت للكافرين﴾** أما الوقود، بفتح الواو، فهو ما يلقى في النار لإضرامها كالحطب و نحوه، كما قال تعالى: **﴿و أما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾** و قال تعالى: **﴿إنكم و ما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها و كل فيها خالدون﴾** و المراد بالحجارة ههنا هي حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة، و هي أشد الأحجار

حراً إذا حميت أجارنا الله منها.

و قوله تعالى: ﴿أعدت للكافرين﴾ الأظهر أن الضمير في أعدت عائد إلى النار التي وقودها الناس والحجارة، و يحتمل عوده إلى الحجارة كما قال ابن مسعود، و لا منافاة بين القولين في المعنى لأنهما متلازمان و أعدت أي رصدت و حصلت للكافرين بالله و رسوله. و قد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله تعالى: ﴿أعدت﴾ أي أرصدت و هيئت و قد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها «تحاجت الجنة و النار» و منها «استأذنت النار بها فقالت رب أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء و نفس في الصيف» و حديث ابن مسعود سمعنا وجبة فقلنا ما هذه؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذا حَجَرٌ به أُلقي به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل إلى قعرها» و هو عند مسلم، و حديث صلاة الكسوف و ليلة الإسراء و غير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى، و قد خالفت المعتزلة بجهلهم في هذا و وافقهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الأندلس.

تنبيه ينبغي الوقوف عليه

قوله تعالى: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ و قوله في سورة يونس: ﴿بسورة مثله﴾ يعم كل سورة في القرآن طويلة كانت أم قصيرة لأنها نكرة في سياق الشرط فتعم كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين كما هو مقرر في موضعه، فالإعجاز حاصل في طوال السور و قصارها، و هذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين الناس سلفاً وخلفاً.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٥)﴾

٢٥- لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به و برسوله من العذاب و النكال، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به و برسله، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة، و هذا معنى تسمية القرآن «مثاني» على أصح أقوال العلماء كما سنبسطه في موضعه، و هو أن يذكر الإيمان و يتبع بذكر الكفر أو عكسه أو حال السعداء ثم الأشقياء أو عكسه، و حاصله ذكر الشيء و مقابله. و أما ذكر الشيء و نظيره فذاك التشابه كما سنوضحه إن شاء الله فلهذا قال تعالى: ﴿و بشر الذين آمنوا و عملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فوصفها بأنها تجري من تحتها الأنهار أي من تحت أشجارها و غرفها، و قد جاء في الحديث: أن أنهارها تجري في غير أخدود، و جاء في الكوثر أن حافتيه قباب اللؤلؤ المجوف، و لا منافاة بينهما فطينها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ و الجوهر، نسأل الله من فضله إنه هو البر الرحيم.

وقوله تعالى: ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل﴾ أي أنهم أتوا بالثمرة في الجنة فلما نظروا إليها قالوا هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، قال ابن جرير: و قال آخرون: بل تأويل ﴿هذا الذي رزقنا من قبل﴾ ثمار الجنة من قبل هذا لشدة مشابهة بعضه بعضاً لقوله تعالى: ﴿و أتوا به متشابهاً﴾ قالوا: يؤتى

أحدهم بالصَّحفة من الشيء فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيقول هذا الذي أتينا به من قبل، فتقول الملائكة: كُلْ فاللون واحد و الطعم مختلف. و عن ابن عباس: لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء، و في رواية: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء. و قال ابن أسلم في قوله تعالى: ﴿و أتوا به متشابهاً﴾ قال يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا التفاح بالتفاح و الرمان بالرمان، قالوا في الجنة هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا وأتوا به متشابهاً يعرفونه و ليس هو مثله في الطعم.

و قوله تعالى: ﴿و لهم فيها أزواج مطهرة﴾ عن ابن عباس: مطهرة من القذر و الأذى، و قال مجاهد: من الحيض و الغائط و البول و النخام و البزاق و المني و الولد.

و قوله تعالى: ﴿وهم فيها خالدون﴾ هذا هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر له و لا انقضاء، بل في نعيم سرمدي أبدي على الدوام، و الله المسؤول أن يحشرنا في زمرتهم، إنه جواد كريم بر رحيم.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧) ﴾

٢٦- لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين يعني قوله تعالى: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ و قوله: ﴿أو كصيب من السماء﴾ الآيات الثلاث، قال المنافقون: الله أعلى و أجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿هم الخاسرون﴾ و قال قتادة: أي إن الله لا يستحيي من الحق أن يذكر شيئاً مما قل أو كثر، و إن الله حين ذكر في كتابه الذباب و العنكبوت قال أهل الضلالة: ما أراد الله من ذكر هذا؟ فأنزل الله ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها﴾.

و قوله تعالى: ﴿فما فوقها﴾ فيه قولان: أحدهما فما دونها في الصغر و الحقارة كما إذا وصف رجل باللؤم والشح فيقول السامع نعم وهو فوق ذلك - يعني فيما وصفت - و هذا قول الكسائي و أبي عبيد، قال الرازي: وأكثر المحققين. و في الحديث «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة لما سقى كافراً منها شربة ماء»[1] و الثاني: فما فوقها لما هو أكبر منها لأنه ليس شيء أحقر و لا أصغر من البعوضة، و هذا قول قتادة بن دعامة و اختيار ابن جرير، و يؤيده ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتب له بها درجة و محيت عنه بها خطيئة» فأخبر أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً و لو كان في الحقارة و الصغر كالبعوضة، كما لا يستنكف عن خلقها كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها كما ضرب المثل بالذباب و العنكبوت في قوله ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً و لو اجتمعوا له و إن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب و المطلوب﴾ و قال: ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً و إن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾

---

(١) حديث صحيح، رواه الترمذي و غيره من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

وقال: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس و ما يعقلها إلا العالمون﴾ و في القرآن أمثال كثيرة، قال بعض السلف: إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن الله قال: ﴿و تلك الأمثال نضربها للناس و ما يعقلها إلا العالمون﴾ و قال مجاهد: في قوله تعالى: ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها﴾ الأمثال صغيرها و كبيرها يؤمن بها المؤمنون و يعلمون أنها الحق من ربهم و يهديهم الله بها.

و قال قتادة ﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾ أي يعلمون أنه كلام الرحمن وأنه من عند الله، ﴿و أما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ كما قال في سورة المدثر ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة و ما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب و يزداد الذين آمنوا إيماناً و لا يرتاب الذين أوتوا الكتاب و المؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض و الكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضل الله من يشاء و يهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ و كذلك قال ههنا ﴿يضل به كثيراً و يهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين﴾ يضل به كثيراً يعني به المنافقين و يهدي به المؤمنين، فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلالتهم لتكذيبهم بما قد علموه حقاً يقيناً من المثل الذي ضربه الله بما ضرب لهم، و أنه لما ضرب له موافق، فذلك إضلال الله إياهم به، و يهدي به يعني المثل كثيراً من أهل الإيمان و التصديق فيزيدهم هدى إلى هداهم و إيماناً إلى إيمانهم لتصديقهم بما قد علموه حقاً يقيناً أنه موافق لما ضربه الله له مثلاً و إقرارهم به و ذلك هداية من الله لهم به ﴿و ما يضل به إلا الفاسقين﴾ هم المنافقون، و عن ابن عباس ﴿و ما يضل به إلا الفاسقين﴾ قال يقول يعرفه الكافرون فيكفرون به. و قال قتادة ﴿و ما يضل به إلا الفاسقين﴾ فسقوا فأضلهم الله على فسقهم و الفاسق في اللغة هو الخارج عن الطاعة أيضاً، و تقول العرب فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها، و لهذا يقال للفأرة فويسقة لخروجها عن جحرها للفساد، و ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواسق يقتلن في الحل و الحرم: الغراب و الحدأة و العقرب والفأرة و الكلب العقور» فالفاسق يشمل الكافر و العصي، و لكن فسق الكافر أشد وأفحش، و المراد به من الآية الفاسق الكافر، و الله أعلم بدليل أنه وصفهم بقوله تعالى ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه و يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون﴾ و هذه الصفات صفات الكافر المباينة لصفات المؤمنين كما قال تعالى في سورة الرعد ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ◆ الذين يوفون بعهد الله و لا ينقضون الميثاق ◆ و الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل و يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾ الآيات، إلى أن قال ﴿و الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه و يقطعون ما أمر الله به أن يوصل و يفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة و لهم سوء الدار﴾ و قد اختلف أهل التفسير في معنى «العهد» الذي وُصف هؤلاء الفاسقين بنقضه، فقال بعضهم هو: وصية الله إلى خلقه و أمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه و على لسان رسله، و نقضهم ذلك هو تركهم العمل به.

و قال آخرون: بل هي في كفار أهل الكتاب و المنافقين منهم، و عهد الله الذي نقضوه هو ما أخذ الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها و اتباع محمد ﷺ إذا بُعث و التصديق به و بما جاء به من عند ربهم، و نقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته، و إنكارهم ذلك و كتمانهم علم ذلك عن الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليُبيننه للناس و لا يكتمونه، فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم و اشتروا به ثمناً قليلاً. و هذا

اختيار ابن جرير رحمه الله.

و قال آخرون: بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر و الشرك و النفاق، و عهده إلى جميعهم في توحيده ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته و عهد إليهم في أمره و نهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثله، الشاهدة لهم على صدقهم، قالوا و نقضهم ذلك تركهم الإقرار بما قد تبينت لهم صحته بالأدلة، و تكذيبهم الرسل و الكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق. و قال آخرون: العهد الذي ذكره تعالى هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذي وصف في قوله **﴿و إذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم و أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾** الآيتين، و نقضهم ذلك تركهم الوفاء به.

و قوله: **﴿و يقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾** قيل المراد به صلة الأرحام و القرابات كما فسره قتادة كقوله تعالى: **﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض و تقطعوا أرحامكم﴾** و رجحه ابن جرير، و قيل المراد أعم من ذلك فكل ما أمر الله بوصله و فعله فقطعوه و تركوه. و قال مقاتل بن حيان في قوله تعالى: **﴿أولئك هم الخاسرون﴾** قال في الآخرة، و هذا كما قال تعالى: **﴿أولئك لهم اللعنة و لهم سوء الدار﴾** و قال ابن جرير في قوله تعالى **﴿أولئك هم الخاسرون﴾** الخاسرون جمع خاسر، و هم الناقصون أنفسهم حظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته، كما يخسر الرجل في تجارته بأن يوضع من رأس ماله في بيعه، و كذلك المنافق و الكافر خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة أحوج ما كانوا إلى رحمته.

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) ﴾

٢٨- يقول تعالى محتجاً على وجوده و قدرته و أنه الخالق المتصرف في عباده **﴿كيف تكفرون بالله﴾** أي كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره **﴿و كنتم أمواتاً فأحياكم﴾** أي و قد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود كما قال تعالى: **﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ❁ أم خلقوا السموات و الأرض بل لا يوقنون﴾** و قال تعالى: **﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾** و الآيات في هذا كثيرة، و عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه **﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين و أحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا﴾** قال هي التي في البقرة **﴿و كنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾** و عن ابن عباس: كنتم أمواتاً فأحياكم: أمواتاً في أصلاب آبائكم لم تكونوا شيئاً حتى خلقكم ثم يميتكم موتة الحق ثم يحييكم حين يبعثكم، قال و هي مثل قوله تعالى: **﴿أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾** و عن ابن عباس في قوله تعالى: **﴿ربنا أمتنا اثنتين و أحييتنا اثنتين﴾** قال كنتم تراباً قبل أن يخلقكم، فهذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى، فهذه ميتتان و حياتان، فهو كقوله **﴿كيف تكفرون بالله و كنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾**.

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) ﴾

٢٩- لما ذكر تعالى دلالة من خلقهم و ما يشاهدونه من أنفسهم، ذكر دليلاً آخر مما يشاهدونه من خلق السموات

والأرض فقال ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات﴾ أي قصد إلى السماء. و الاستواء ههنا مضمن معنى القصد و الإقبال، لأنه عُدّي بإلى، فسواهن أي فخلق السماء سبعاً، والسماء ههنا اسم جنس فلهذا قال ﴿فسواهن سبع سموات و هو بكل شيء عليم﴾ أي و علمه محيط بجميع ما خلق، كما قال: ﴿ألا يعلم من خلق﴾ و تفصيل هذه الآية في سورة حم السجدة، و هو قوله تعالى ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين و تجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين﴾ و جعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها و قدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين﴾ ثم استوى إلى السماء و هي دخان فقال لها و للأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ فقضاهن سبع سموات في يومين و أوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح و حفظاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾ ففي هذا دلالة على أنه تعالى ابتدأ بخلق الأرض أولاً ثم خلق السموات سبعاً، و هذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك، و قد صرح المفسرون بذلك كما سنذكره بعد هذا إن شاء الله. فأما قوله تعالى ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها﴾ رفع سمكها فسواها﴾ و أغطش ليلها و أخرج ضحاها﴾ و الأرض بعد ذلك دحاها﴾ أخرج منها ماءها و مرعاها﴾ والجبال أرساها﴾ متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ فقد قيل إن ثم ههنا إنما هي لعطف الخبر على الخبر لا لعطف الفعل على الفعل، كما قال الشاعر:

قل لمن ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده

و قيل إن الدحي كان بعد خلق السموات، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

و قد توقف في ذلك القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها﴾ رفع سمكها فسواها﴾ و أغطش ليلها و أخرج ضحاها﴾ و الأرض بعد ذلك دحاها﴾ أخرج منها ماءها و مرعاها﴾ و الجبال أرساها﴾ قالوا: فذكر خلق السماء قبل الأرض، و في صحيح البخاري أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء، و أن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء، و كذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديماً و حديثاً، و قد حررنا ذلك في سورة النازعات، و حاصل ذلك أن الدحي مفسّر بقوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ أخرج منها ماءها و مرعاها﴾ و الجبال أرساها﴾ ففسر الدحي بإخراج ما كان مودعاً فيها بالقوة إلى الفعل لما اكتملت صورة المخلوقات الأرضية ثم السماوية، دَحَى بعد ذلك الأرض فأخرجت ما كان مودعاً فيها من المياه، فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها و صفاتها و ألوانها و أشكالها، وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت و السيارة، و الله سبحانه و تعالى أعلم.

و قد ذكر ابن أبي حاتم وابن مردويه في تفسير هذه الآية الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خَلَقَ اللهُ التربةَ يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الأحد و خلق الشجر فيها يوم الإثنين و خلق المكروه يوم الثلاثاء و خلق النور يوم الأربعاء وبثَّ فيها الدواب يوم الخميس و خلق آدم بعد العصر يوم الجمعة من آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل» و هذا الحديث من غرائب صحيح مسلم، و قد تكلم عليه علي بن المديني والبخاري و غير واحد من الحفاظ و جعلوه من كلام كعب، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار، و إنما اشتبه على بعض الرواة، فجعلوه مرفوعاً، و قد حرر ذلك البيهقي.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

٣٠- يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: **﴿و إذ قال ربك للملائكة﴾** أي و اذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة و اقصص على قومك ذلك، **﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾** أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن، و جيلاً بعد جيل كما قال تعالى: **﴿هو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾** قال: **﴿و يجعلكم خلفاء الأرض﴾** و قال: **﴿و لو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون﴾** وقال: **﴿فخلف من بعدهم خلف﴾**، و ليس المراد ههنا بالخليفة آدم ﷺ فقط كما يقوله طائفة من المفسرين، بل الظاهر أنه لم يرد آدم عيناً إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة: **﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾** فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، و كأنهم علموا ذلك بعلم خاص أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون أو فهموا من **﴿الخليفة﴾** أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم و يردعهم عن المحارم و المآثم، قاله القرطبي، أو أنهم قاسوهم على من سبق كما سنذكر أقوال المفسرين في ذلك، و قول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله و لا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهمه بعض المفسرين، و قد وصفهم الله تعالى بأنهم **﴿لا يسبقونه بالقول﴾** أي لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه، و ههنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقاً، قال قتادة: و قد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها، فقالوا: **﴿أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء﴾** الآية، و إنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك يقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء ؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك و نقدس لك أي نصلي لك كما سيأتي. أي و لا يصدر منا شيء من ذلك، و هلا وقع الاقتصار علينا ؟ قال الله تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال: **﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾** أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم فإني جاعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل، و يوجد منهم الصديقون و الشهداء و الصالحون و العباد والزهاد و الأولياء و الأبرار والمقربون و العلماء العاملون و الخاشعون و المحبون له تبارك و تعالى، المتبعون رسله صلوات الله و سلامه عليهم، و قد ثبت في الصحيح أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده يسألهم و هو أعلم: كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون: أتيناهم و هم يصلون و تركناهم يصلون. و ذلك لأنهم يتعاقبون فينا و يجتمعون في صلاة الصبح و في صلاة العصر، فيمكث هؤلاء و يصعد أولئك بالأعمال كما قال عليه الصلاة و السلام: «يرفع إليه عمل الليل قبل النهار و عمل النهار قبل الليل»، فقولهم: أتيناهم و هم يصلون و تركناهم و هم يصلون من تفسير قوله لهم: **﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾**، و قيل معنى قوله تعالى جواباً لهم: **﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾** إني لي حكمة مفصلة في خلق هؤلاء و الحالة ما ذكرتم لا تعلمونها، قيل إنه جواب **﴿و نحن نسبح بحمدك و نقدس لك﴾** فقال: **﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾** أي من وجود إبليس بينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به. و قيل بل تضمن قولهم: **﴿أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء و نحن نسبح بحمدك و نقدس لك﴾** طلباً منهم أن يسكنوا الأرض بدل بني آدم، فقال الله تعالى لهم: **﴿إني أعلم ما لا**

تعلمون﴾ من أن بقاءكم في السماء أصلح لكم وأليق بكم . ذكرها الرازي مع غيرها من الأجوبة ، و الله أعلم .

و عن عبد الله بن عمرو قال : كان الجن بنو الجان في الأرض قبل أن يخلق آدم بألفي سنة ، فأفسدوا في الأرض و سفكوا الدماء ، فبعث الله جنداً من الملائكة فضربوهم حتى ألحقوا بجزائر البحور فقال الله للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء ؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون .

و قوله تعالى : ﴿و نحن نسبح بحمدك و نقدس لك﴾ عن قتادة ، قال : التسبيح التسبيح ، و التقديس الصلاة . و قال ابن جرير : التقديس هو التعظيم و التطهير ، و منه قولهم سبوح قدوس يعني بقولهم سبوح تنزيه له ، و بقولهم قدوس طهارة و تعظيم له ، و كذلك قيل للأرض أرض مقدسة يعني بذلك المطهرة ، فمعنى قول الملائكة إذاً ﴿و نحن نسبح بحمدك﴾ ننزهك و نبرئك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك ﴿و نقدس لك﴾ ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس و ما أضاف إليك أهل الكفر بك . و في صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل أي الكلام أفضل ؟ قال : «ما اصطفى الله لملائكته : سبحان الله و بحمده» .

و قد استدل القرطبي و غيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه و يقطع تنازعهم و ينتصر لمظلومهم من ظالمهم و يقيم الحدود و يزجر عن تعاطي الفواحش إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا تمكن إقامتها إلا بالإمام و ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . و الإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة في أبي بكر ، أو بالإيماء إليه كما يقول آخرون منهم ، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب ، أو بتركه شورى في جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر ، أو باجتماع أهل الحل و العقد على مبايعته أو بمبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور ، و حكى على ذلك إمام الحرمين الإجماع ، و الله أعلم . أو بقهر واحد الناس على طاعته فتجب لئلا يؤدي ذلك إلى الشقاق و الاختلاف ، و قد نص عليه الشافعي . و هل يجب الإشهاد على عقد الإمام ؟ فيه خلاف ، فمنهم من قال لا يشترط و قيل بلى ويكفي شاهدان .

و يجب أن يكون ذكراً حراً بالغاً عاقلاً مسلماً عدلاً مجتهداً بصيراً خبيراً سليم الأعضاء خبيراً بالحروب والآراء ، قرشياً على الصحيح و لا يشترط الهاشمي ، و لا المعصوم من الخطإ خلافاً للغلاة الروافض ، و لو فسق الإمام هل ينعزل أم لا ؟ فيه خلاف ، و الصحيح أنه لا ينعزل لقوله عليه الصلاة و السلام ، «إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان» ، و هل له أن يعزل نفسه فيه خلاف ، و قد عزل الحسن بن علي رضي الله عنهما نفسه و سلم الأمر إلى معاوية لكن هذا لعذر و قد مدح على ذلك ، فأما نصب إمامين في الأرض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة و السلام «مَنْ جاءكم و أمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائناً من كان» [1] و هذا قول الجمهور ، و قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد منهم إمام الحرمين ، و قالت الكرامية : يجوز نصب إمامين فأكثر كما كان علي و معاوية إمامين واجبي الطاعة ، و حكى إمام الحرمين عن الأستاذ أبي إسحاق أنه جوز نصب إمامين فأكثر إذا تباعدت الأقطار و اتسعت الأقاليم بينهما ، و تردد إمام الحرمين في ذلك .

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

(١) رواه مسلم من حديث عرفجة رضي الله عنه ، بلفظ «مَنْ أتاكم . . .» .

﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

٣١- هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم و هذا كان بعد سجودهم له ، و إنما قدم هذا الفصل على ذلك لمناسبة ما بين المقام و عدم علمهم بحكمة خلق الخليفة حين سألوا عن ذلك ، فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون ، و لهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم فقال تعالى: **﴿و علم آدم الأسماء كلها﴾** قال الضحاك عن ابن عباس **﴿و علم آدم الأسماء كلها﴾** قال: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس إنسان و دابة و سماء و أرض و سهل و بحر وخيل و حمار و أشباه ذلك من الأمم و غيرها ، و عن سعيد بن معبد عن ابن عباس **﴿و علم آدم الأسماء كلها﴾** قال علمه اسم الصَّحْفَة و القدر ؟ قال: نعم حتى الفسوة و الفسية ، و قال مجاهد **﴿و علم آدم الأسماء كلها﴾** قال علمه اسم كل دابة و كل طير و كل شيء ، و اختار ابن جرير أنه علّمه أسماء الملائكة و أسماء الذرية لأنه قال **﴿ثم عرضهم﴾** وهذا عبارة عما يعقل ، و هذا الذي رجح به ليس بلازم ، فإنه لا ينفي أن يدخل معهم غيرهم ، ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب كما قال تعالى **﴿و الله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه و منهم من يمشي على رجلين و منهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾** وقد قرأ عبد الله بن مسعود **﴿ثم عرضهن﴾** و قرأ أبي بن كعب **﴿ثم عرضها﴾** أي المسميات . و الصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها و صفاتها و أفعالها كما قال ابن عباس حتى الفسوة و الفسية يعني أسماء الذوات و الأفعال المكبر و المصغر ، و لهذا روى البخاري في تفسير هذه الآية في كتاب التفسير من صحيحه عن أنس عن النبيﷺ قال «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا ، فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده، و أسجد لك ملائكته و علّمك أسماء كل شيء ، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول لست هناكم ، و يذكر ذنبه فيستحي . ائتوا نوحاً . . . » الحديث . فدل هذا على أنه علّمه أسماء جميع المخلوقات ، و لهذا قال **﴿ثم عرضهم على الملائكة﴾** يعني المسميات كما قال قتادة : ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة **﴿فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾** عن الحسن و قتادة في قوله تعالى: **﴿إن كنتم صادقين﴾** إني لم أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه ، فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، و عن ابن عباس و ابن مسعود و عن ناس من الصحابة **﴿إن كنتم صادقين﴾** أن بني آدم يفسدون في الأرض و يسفكون الدماء ، وقال ابن جرير: و أولى الأقوال في ذلك تأويل ابن عباس و من قال بقوله ، و معنى ذلك **﴿فقال أنبئوني بأسماء﴾** من عرضته عليكم أيها الملائكة القائلون أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء ، من غيرنا أم منا فنحن نسبح بحمدك و نقدس لك ؟ إن كنتم صادقين في قيلكم إني إن جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عصاني وذريته و أفسدوا و سفكوا الدماء و إن جعلتكم فيها أطعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم لي و التقديس ، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم و أنتم تشاهدونهم ، فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أحرى أن تكونوا غير عالمين .

٣٢- **﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾** هذا تقديس و تنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء و أن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى و لهذا قالوا **﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾** أي العليم بكل شيء الحكيم في خلقك و أمرك و في تعليمك من تشاء ، و منعك من تشاء ، لك الحكمة في ذلك و العدل التام .

٣٣- قوله تعالى : **﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات و الأرض و أعلم ما تبدون و ما كنتم تكتمون﴾** قال زيد بن أسلم : قال أنت جبرائيل أنت ميكائيل أنت إسرافيل حتى عدد الأسماء كلها حتى بلغ الغراب . فلما ظهر آدم ﷺ على الملائكة عليهم السلام في سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء ، قال الله تعالى للملائكة **﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات و الأرض و أعلم ما تبدون و ما كنتم تكتمون﴾** أي ألم أتقدم إليكم أني أعلم الغيب الظاهر و الخفي كما قال تعالى **﴿و إن تجهر بالقول فإنه يعلم السر و أخفى﴾** و كما قال إخباراً عن الهدهد أنه قال لسليمان **﴿ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات و الأرض و يعلم ما تخفون و ما تعلنون*الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾** و قيل في قوله تعالى : **﴿و أعلم ما تبدون و ما كنتم تكتمون﴾** غير ما ذكرناه ، فروى الضحاك عن ابن عباس **﴿و أعلم ما تبدون و ما كنتم تكتمون﴾** قال يقول : أعلم السر كما أعلم العلانية يعني ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والاغترار .

و اختار ذلك ابن جرير فقال : و أولى الأقوال في ذلك قول ابن عباس و هو أن معنى قوله تعالى : **﴿و أعلم ما تبدون﴾** و أعلم مع علمي غيب السموات و الأرض و ما تظهرونه بألسنتكم و ما كنتم تخفون في أنفسكم ، فلا يخفى علي أي شيء سواء عندي سرائركم و علانيتكم ، و الذي أظهروه بألسنتهم قولهم : أتجعل فيها من يفسد فيها ، و الذي كانوا يكتمون ما كان عليه منطوياً إبليس من الخلاف على الله في أوامره و التكبر عن طاعته ، قال : و صح ذلك كما تقول العرب : قُتل الجيش و هزموا ، و إنما قتل الواحد أو البعض و هزم الواحد أو البعض ، فيخرج الخبر عن المهزوم منه و المقتول مخرج الخبر عن جميعهم كما قال تعالى : **﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾** ذكر أن الذي نادى إنما كان واحداً من بني تميم ، قال : و كذلك قوله **﴿و أعلم ما تبدون و ما كنتم تكتمون﴾** .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) ﴾

٣٤ - و هذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، و قد دل على ذلك أحاديث أيضاً كثيرة منها حديث الشفاعة المتقدم ، و حديث موسى ﷺ «رب أرني آدم الذي أخرجنا و نفسه من الجنة ، فلما اجتمع به قال أنت آدم الذي خلقه الله بيده و نفخ فيه من روحه و أسجد له ملائكته» و قال و ذكر الحديث كما سيأتي إن شاء الله .

و الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم ، دخل إبليس في خطابهم ، لأنه و إن لم يكن من عنصرهم إلا أنه كان قد تشبّه بهم و توسّم بأفعالهم ، فلهذا دخل في الخطاب لهم و ذُم في مخالفة الأمر ، و سنبسط المسألة إن شاء الله تعالى عند قوله : **﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾** و روى ابن جرير عن الحسن قال : ما

كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، و إنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس، و هذا الإسناد صحيح عن الحسن، و هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سواء.

و قال قتادة في قوله تعالى: ﴿و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ فكانت الطاعة لله و السجدة لآدم، أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته، و قال بعض الناس كان هذا سجود تحية و سلام و إكرام كما قال تعالى: ﴿و رفع أبويه على العرش و خروا له سجداً و قال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً﴾ و قد كان هذا مشروعاً في الأمم الماضية و لكنه نسخ في ملتنا، قال معاذ: قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم و علمائهم، فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك، فقال: «لا لو كنت آمراً بشراً أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»[1] و رجحه الرازي، و قال بعضهم: بل كانت السجدة لله و آدم قبلة فيها كما قال تعالى: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ و في هذا التنظير نظر، و الأظهر أن القول الأول أولى، والسجدة لآدم إكراماً و إعظاماً و احتراماً و سلاماً، و هي طاعة لله عز وجل لأنها امتثال لأمره تعالى، و قد قواه الرازي في تفسيره و ضعف ما عداه من القولين الآخرين و هما كونه جعل قبلة إذ لا يظهر فيه شرف، و الآخر أن المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء و وضع الجبهة على الأرض و هو ضعيف كما قال، و قال قتادة في قوله تعالى: ﴿فسجدوا إلا إبليس أبى و استكبر و كان من الكافرين﴾ حسد عدو الله إبليس آدم ﷺ ما أعطاه من الكرامة، وقال: أنا ناري و هذا طيني، و كان بدء الذنوب الكبر، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم ﷺ، قلت: و قد ثبت في الصحيح «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر» و قد كان في إبليس من الكبر و الكفر والعناد، ما اقتضى طرده و إبعاده عن جناب الرحمة و حضرة القدس، قال بعض المعربين ﴿و كان من الكافرين﴾ أي و صار من الكافرين بسبب امتناعه كما قال ﴿فكان من المغرقين﴾ و قال: ﴿فتكونا من الظالمين﴾. أي قد صارت و قال ابن فورك: تقديره و قد كان في علم الله من الكافرين، و رجحه القرطبي.

و قد حكى الرازي و غيره قولين للعلماء: هل المأمور بالسجود لآدم خاص بملائكة الأرض أو عام في ملائكة السموات و الأرض؟ و قد رجح كلاً من القولين طائفة، و ظاهر الآية الكريمة العموم ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس﴾ فهذه أربعة أوجه مقوية للعموم، و الله أعلم.

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) ﴾

٣٥- يقول الله تعالى إخباراً عما أكرم به آدم بعد أن أمر الملائكة بالسجود إلا إبليس و أنه أباح له الجنة يسكن منها حيث يشاء و يأكل منها ما شاء رغداً أي هنيئاً واسعاً طيباً. و قد اختلف في الجنة التي أسكنها آدم أهي في السماء أم في الأرض؟ و الأكثرون على الأول، و حكى القرطبي عن المعتزلة و القدرية القول بأنها في الأرض! وسيأتي تقرير ذلك في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى، و سياق الآية يقتضي أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة و قد صرح بذلك محمد بن إسحاق حيث قال: لما فرغ الله من معاتبة إبليس أقبل على آدم و قد علمه

(١) رواه الإمام أحمد و الترمذي و غيرهما.

الأسماء كلها فقال يا آدم أنبئهم بأسمائهم إلى قوله : ﴿إنك أنت العليم الحكيم﴾ قال ثم ألقيت السنة على آدم فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة و غيرهم من أهل العلم عن ابن عباس و غيره ، ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر و لأم مكانه لحماً ، و آدم نائم لم يهب من نومه رآها حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء فسواها امرأة ليسكن إليها ، فلما كشف عنه السنة وهب من نومه رآها إلى جنبه فقال فيما يزعمون و الله أعلم «لحمي و دمي وزوجتي» فسكن إليها ، فلما زوجه الله و جعل له سكناً من نفسه قال له قبلاً : ﴿يا آدم اسكن أنت و زوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما و لا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾

و أما قوله : ﴿و لا تقربا هذه الشجرة﴾ فهو اختبار من الله تعالى و امتحان لآدم و قد اختلف في هذه الشجرة ما هي ؟ قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : و الصواب في ذلك أن يقال إن الله عز وجل ثناؤه : نهى آدم عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها و لا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين ، لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن و لا من السنة الصحيحة ، و قد قيل : كانت شجرة البر و قيل كانت شجرة العنب و قيل كانت شجرة التين ، و جائز أن تكون واحدة منها ، و ذلك علمٌ إذا عُلم لم ينفع العالم به علمه ، و إن جهله جاهل لم يضره جهله به ، و الله أعلم ، و كذلك رجح الإبهام الرازي في تفسيره وغيره و هو الصواب .

٣٦- و قوله تعالى : ﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾ يصح أن يكون الضمير في قوله ﴿عنها﴾ عائداً إلى الجنة فيكون معنى الكلام كما قرأ عاصم ﴿فأزالهما﴾ أي فنحاهما ، و يصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين و هو الشجرة فيكون معنى الكلام كما قال الحسن و قتادة ﴿فأزلهما﴾ أي من قبل الزلل ، فعلى هذا يكون تقدير الكلام ﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾ أي بسببها ، كما قال تعالى : ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أي يصرف بسببه من هو مأفوك ، ولهذا قال تعالى ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ أي من اللباس و المنزل الرحب و الرزق الهنيء و الراحة ﴿و قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو و لكم في الأرض مستقر و متاع إلى حين﴾ أي قرار و أرزاق وآجال ـ إلى حين ـ أي إلى وقت و مقدار معين ثم تقوم القيامة ، و قد ذكر المفسرون من السلف كالسدي بأسانيدم و أبي العالية ووهب ابن منبه و غيرهم ههنا أخباراً إسرائيليةعن قصة الحية و إبليس ، و كيف جرى من دخول إبليس الجنة ووسوسته ، وسنبسط ذلك إن شاء الله في سورة الأعراف فهناك القصة أبسط منها ههنا ، و الله الموفق .

و روى الحاكم عن ابن عباس قال : ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، ثم قال : صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه .

و عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم و فيه أدخل الجنة و فيه أخرج منها» رواه مسلم و النسائي . و قال الرازي : اعلم أن في هذه الآية تهديداً عظيماً عن كل المعاصي من وجوه (الأول) أن من تصور ما جرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وَجَلٍ شديد من المعاصي ، قال الشاعر :

يا ناظراً يرنو بعيني راقد ... ومشاهداً للأمر غير مشاهد

تصل الذنوب إلى الذنوب و ترتجي ... درج الجنان و نيل فوز العابد

أنسيت ربك حين أخرج آدما ... منها إلى الدنيا بذنب واحد

و قال ابن القاسم :

و لكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا و نسلم

قال الرازي عن فتح الموصلي أنه قال: كنا قوماً من أهل الجنة فسبانا إبليس إلى الدنيا، فليس لنا إلا الهم والحزن حتى نُرد إلى الدار التي أخرجنا منها. فإن قيل: فإذا كانت جنة آدم التي أخرج منها في السماء كما يقوله الجمهور من العلماء فكيف تمكن إبليس من دخول الجنة، و قد طرد من هنالك طرداً قدرياً، و القدري لا يخالف ولا يمانع ؟ فالجواب: أن هذا بعينه استدل به من يقول: إن الجنة التي كان فيها آدم في الأرض لا في السماء، كما قد بسطنا هذا في أول كتابنا البداية و النهاية، و أجاب الجمهور بأجوبة، أحدها: أنه منع من دخول الجنة مكرماً، فأما على وجه السرقة و الإهانة، فلا يمتنع، و لهذا قال بعضهم: كما جاء في التوراة أنه دخل في فم الحية إلى الجنة. و قد قال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما و هوخارج باب الجنة. و قال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما و هوفي الأرض، و هما في السماء، ذكرها الزمخشري و غيره. و قد أورد القرطبي ههنا أحاديث في الحيات وقتلهن و بيان حكم ذلك، فأجاد و أفاد.

﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) ﴾

٣٧- قيل إن هذه الكلمات مفسّرة بقوله تعالى: **﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا و إن لم تغفر لنا و ترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾**. و عن ابن عباس فتلقّى آدم من ربه كلمات، قال: قال آدم ﷺ: يا رب ألم تخلقني بيدك ؟ قيل له: بلى، و نفخت فيّ من روحك ؟ قيل له بلى، و عطست فقلت يرحمك الله، و سبقت رحمتك غضبك ؟ قيل له بلى، و كتبت علي أن أعمل هذا ؟ قيل له بلى، قال: أرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة ؟ قال: نعم. وهكذا رواه العوفي و سعيد بن جبير و سعيد بن معبد عن ابن عباس بنحوه، و رواه الحاكم في مستدركه من حديث ابن جبير عن ابن عباس، و قال صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

و عن مجاهد أنه كان يقول في قول الله تعالى: فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، قال: كلمات: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك و بحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفرلي إنك خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك و بحمدك، رب إني ظلمت نفسي فارحمني إنك خير الراحمين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم. و قوله تعالى **﴿إنه هو التواب الرحيم﴾** أي إنه يتوب على من تاب إليه وأ ناب كقوله **﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾** و قوله: **﴿و من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾** الآية، و قوله: **﴿و من تاب و عمل صالحاً﴾** و غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب، و يتوب على من يتوب، و هذا من لطفه بخلقه و رحمته بعبيده، لا إله إلا هو التواب الرحيم.

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩) ﴾

٣٨ - يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم و زوجته و إبليس حين أهبطهم من الجنة، و المراد الذرية، أنه سينزل الكتب و يبعث الأنبياء و الرسل، كما قال أبو العالية: الهدى الأنبياء و الرسل و البينات و البيان، و قال مقاتل

ابن حيان ﴿الهدى﴾ : محمد ﷺ ، و قال الحسن : ﴿الهدى﴾ : القرآن ، و هذان القولان صحيحان ، و قول أبي العالية أعم ﴿فمن تبع هداي﴾ أي من أقبل على ما أنزلت به الكتب و أرسلت به الرسل ﴿فلا خوف عليهم﴾ أي فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا كما قال في سورة طه ﴿قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل و لا يشقى﴾ قال ابن عباس : فلا يضل في الدنيا و لا يشقى في الآخرة ﴿و من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً و نحشره يوم القيامة أعمى﴾ كما قال ههنا :

٣٩- ﴿و الذين كفروا و كذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي مخلدون فيها لا محيد لهم عنها و لا محيص ، و قد أورد ابن جرير ههنا حديثاً عن أبي سعيد و اسمه سعد بن مالك بن سنان الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ : «أما أهلُ النار الذي هم أهلها فلا يموتون فيها و لا يحيون ، ولكن أقوامٌ أصابتهم النار بخطاياهم فأماتتهم إماتة حتى إذا صاروا فحماً أُذن في الشفاعة» و قد رواه مسلم .

و ذكر هذا الإهباط الثاني لما تعلق به ما بعده ، من المعنى المغاير للأول ، و زعم بعضهم : أنه تأكيد و تكرير ، كما يقال : قم قم ، وقال آخرون : بل الإهباط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا ، و الثاني من سماء الدنيا إلى الأرض ، والصحيح الأول ، و الله أعلم .

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) ﴾

٤٠- يقول تعالى آمراً بني إسرائيل بالدخول في الإسلام ، و متابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام ، ومهيجاً لهم بذكر أبيهم إسرائيل و هو نبي الله يعقوب ﷺ ، و تقديره يا بني العبد الصالح المطيع لله ، كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق ، كما تقول : يا ابن الكريم افعل كذا ، يا ابن الشجاع بارز الأبطال ، يا ابن العالم اطلب العلم ، ونحو ذلك . و من ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً﴾ فإسرائيل هو يعقوب . عن عبد الله بن عباس : أن إسرائيل كقولك عبد الله و قوله تعالى ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ قال مجاهد : نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سمى ، و فيما سوى ذلك أن فجر لهم الحجر وأنزل عليهم المن والسلوى ، و نجّاهم من عبودية آل فرعون ، و قال أبو العالية : نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل ، وأنزل عليهم الكتب ، قلت : و هذا كقول موسى ﷺ لهم ﴿يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً و آتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ يعني في زمانهم ، ﴿و أوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ قال : بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي ﷺ إذا جاءكم أُنجز لكم ما وعدتكم عليه من تصديقه واتباعه بوضع ما كان عليكم من الآصار و الأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من إحداثكم . و قال الحسن البصري : هو قوله تعالى : ﴿و لقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل و بعثنا منهم اثني عشر نقيباً و قال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة و آتيتم الزكاة و آمنتم برسلي و عزرتموهم و أقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ الآية وقال آخرون : هو الذي أخذ الله عليهم في التوراة أنه سيبعث

من بني إسماعيل نبياً عظيماً يطيعه جميع الشعوب، و المراد به محمدﷺ فمن اتبعه غفر الله ذنبه و أدخله الجنة وجعل له أجرين.

و قد أورد الرازي بشارات كثيرة عن الأنبياء عليهم الصلاة و السلام بمحمدﷺ، قال أبو العالية **﴿و أوفوا بعهدي﴾** قال عهده إلى عباده دين الإسلام و أن يتبعوه، و قال الضحاك عن ابن عباس: أوف بعهدكم؟ قال: أرض عنكم و أدخلكم الجنة، و كذا قال السدي و الضحاك و أبو العالية والربيع بن أنس، وقوله تعالى **﴿و إياي فارهبون﴾** أي فاخشون، قاله أبو العالية و السدي و الربيع بن أنس و قتادة، و قال ابن عباس في قوله تعالى: **﴿و إياي فارهبون﴾** أي أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات التي قد عرفتم من المسخ وغيره، و هذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب فدعاهم إليه بالرغبة و الرهبة لعلهم يرجعون إلى الحق و اتباع الرسولﷺ والاتعاظ بالقرآن و زاجره و امتثال أوامره و تصديق أخباره، و الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، و لهذا قال:

٤١ - **﴿و آمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم﴾** يعني به القرآن الذي أنزل على محمدﷺ النبي الأمي العربي بشيراً ونذيراً و سراجاً منيراً مشتملاً على الحق من الله تعالى مصدقاً لما بين يديه من التوراة و الإنجيل، قال أبو العالية رحمه الله في قوله تعالى **﴿و آمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم﴾** يقول: يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مُصدقاً لما معكم، يقول لأنهم يجدون محمداًﷺ مكتوباً عندهم في التوراة و الإنجيل و روي عن مجاهد والربيع ابن أنس وقتادة نحو ذلك، و قوله: **﴿و لا تكونوا أول كافر به﴾** قال بعض المعربين: أول فريق كافر به أو نحو ذلك، قال ابن عباس: و لا تكونوا أول كافر به و عندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم، قال أبو العالية: يقول: و لا تكونوا أول من كفر بمحمدﷺ، يعني من جنسكم أهل الكتاب بعد سماعكم بمبعثه، و كذا قال الحسن و السدي و الربيع ابن أنس، و اختار ابن جرير أن الضمير في قوله **﴿به﴾** عائد على القرآن الذي تقدم ذكره في قوله **﴿بما أنزلت﴾** وكلا القولين صحيح لأنهما متلازمان، لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمدﷺ، ومن كفر بمحمدﷺ فقد كفر بالقرآن، و أما قوله **﴿أول كافر به﴾** فيعني به أول من كفر به من بني إسرائيل، لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير، و إنما المراد أول من كفر به من بني إسرائيل مباشرة، فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم، و قوله تعالى: **﴿و لا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾** يقول: لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي و تصديق رسولي بالدنيا وشهواتها، فإنها قليلة فانية، كما سئل الحسن البصري عن قوله تعالى **﴿ثمناً قليلاً﴾** قال: الثمن القليل الدنيا بحذافيرها، و عن سعيد بن جبير في قوله تعالى **﴿و لا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾** إن آياته كتابه الذي أنزله إليهم، و إن الثمن القليل الدنيا وشهواتها، و قال السدي: **﴿و لا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾** يقول: لا تأخذوا طمعاً قليلاً، و لا تكتمنوا اسم الله، فذلك الطمع هو الثمن، و عن أبي العالية في قوله تعالى **﴿و لا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾** يقول: لا تأخذوا عليه أجراً، قال: و هو مكتوب عندهم في الكتاب الأول: يا ابن آدم عَلِّم مجاناً كما عُلِّمت مجاناً، و قيل: معناه لا تعتاضوا عن البيان والإيضاح و نشر العلم النافع بالكتمان و اللبس، لتستمروا على رياستكم في الدنيا القليلة الحقيرة الزائلة عن قريب.

و في سنن أبي داود عن أبي هريرةرضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ «من تعلّم علماً مما يُبتغى به وجه الله، لا

يتعلمه إلا ليصيبَ به عرضاً من الدنيا ، لم يرح رائحة الجنة يوم القيامة» فأما تعليم العلم بأجرة ، فإن كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة ، و يجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله بأجره ، فإن لم يحصل له منه شيء و قَطَعه التعليم عن التكسب ، فهو كما لم يَتَعَيَّن عليه ، و إذا لم يتعين عليه فإنه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند مالك و الشافعي و أحمد و جمهور العلماء كما في صحيح البخاري عن أبي سعيد في قصة اللديغ «إن أحقَّ ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله» و قوله ﷺ في قصة المخطوبة «زوجتكها بما معك من القرآن» .

فأما حديث عبادة بن الصامت ، أنه عَلَّم رجلاً من أهل الصُّفَّة شيئاً من القرآن فأهدى له قوساً فسأل عنه رسول الله ﷺ فقال «إنْ أحببتَ أن تُطوَّقَ بقوسٍ من نار فاقبله» فتركه ، رواه أبو داود ، وروي مثله عن أبي بن كعب مرفوعاً ، فإن صح إسناده فهو محمول عند كثير من العلماء منهم : أبو عمر بن عبد البر ، على أنه لما علّمه لله لم يجز بعد هذا أن يعتاض عن ثواب الله بذلك القوس ، فأما إذا كان من أول الأمر على التعليم بالأجرة فإنه يصح ، كما في حديث اللديغ و حديث سهل في المخطوبة ، و الله أعلم .

و قوله ﴿و إياي فاتقون﴾ عن طلق بن حبيب قال : التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله ، و أن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله ، ومعنى قول ﴿و إياي فاتقون﴾ أنه تعالى يتوعدهم فيما يتعمدونه من كتمان الحق ، و إظهار خلافه ، و مخالفتهم الرسول صلوات الله و سلامه عليه .

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

٤٢- يقول تعالى ناهياً لليهود عما كانوا يتعمدونه من تلبيس الحق بالباطل ، و تمويهه به ، و كتمانهم الحق ، وإظهارهم الباطل : ﴿و لا تلبسوا الحق بالباطل و تكتموا الحق و أنتم تعلمون﴾ فنهاهم عن الشيئين معاً ، وأمرهم بإظهار الحق و التصريح به ، ولهذا قال الضحاك عن ابن عباس ﴿و لا تلبسوا الحق بالباطل﴾ لا تخلطوا الحق بالباطل ، و الصدق بالكذب . و قال أبو العالية ﴿و لا تلبسوا الحق بالباطل﴾ يقول : و لا تخلطوا الحق بالباطل ، وأدوا النصيحة لعباد الله من أمة محمد ﷺ و يروى عن سعيد بن جبير و الربيع بن أنس نحوه ، و قال قتادة ﴿و لا تلبسوا الحق بالباطل﴾ ولا تلبسوا اليهودية و النصرانية بالإسلام ، و أنتم تعلمون دين الله الإسلام ، و أن اليهودية و النصرانية بدعة ليست من الله ، و روي عن الحسن البصري نحو ذلك ، و عن ابن عباس ﴿و تكتموا الحق و أنتم تعلمون﴾ أي لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي و بما جاء به ، و أنتم تجدونه مكتوباً عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم ، و روي عن أبي العالية نحو ذلك و قال مجاهد و السدي و قتادة و الربيع بن أنس ﴿وتكتموا الحق﴾ يعني محمداً ﷺ (قلت) و تكتموا يحتمل أن يكون مجزوماً ، و يحتمل أن يكون منصوباً ، أي لا تجمعوا بين هذا وهذا ، كما يقال : لا تأكل السمك و تشرب اللبن ، قال الزمخشري : و في مصحف ابن مسعود و تكتمون الحق أي في حال كتمانكم الحق ﴿و أنتم تعلمون﴾ حال أيضاً ، و معناه و أنتم تعلمون الحق ، و يجوز أن يكون المعنى : وأنتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس من إضلالهم عن الهدى المفضي بهم إلى النار إلى أن سلكوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لتروّجوه عليهم ، والبيان الإيضاح وعكسه الكتمان و خلط الحق بالباطل .

٤٣- **﴿و أقيموا الصلاة و آتوا الزكاة و اركعوا مع الراكعين﴾** قال مقاتل: قوله تعالى لأهل الكتاب **﴿و أقيموا الصلاة﴾** أمرهم أن يصلوا مع النبيﷺ **﴿و آتوا الزكاة﴾** أمرهم أن يؤتوا الزكاة، أي يدفعونها إلى النبيﷺ **﴿واركعوا مع الراكعين﴾** أمرهم أن يركعوا مع الراكعين من أمة محمدﷺ، يقول: كونوا معهم و منهم، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني بالزكاة طاعة الله و الإخلاص، و عن الحسن في قوله تعالى **﴿و آتوا الزكاة﴾** قال: فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها و بالصلاة، و عن الحارث العكلي في قوله تعالى **﴿و آتوا الزكاة﴾** قال: صدقة الفطر، و قوله تعالى: **﴿واركعوا مع الراكعين﴾** أي و كونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم، و من أخص ذلك وأكمله الصلاة، و قد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة، وأبسطُ ذلك في كتاب الأحكام الكبير إن شاء الله تعالى، و قد تكلم القرطبي على مسائل الجماعة و الإمامة فأجاد.

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

٤٤- يقول تعالى: كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب، و أنتم تأمرون الناس بالبر و هو جماع الخير، أن تنسوا أنفسكم فلا تأتمروا بما تأمرون الناس به، و أنتم مع ذلك تتلون الكتاب و تعلمون ما فيه على من قَصَّرَ في أوامر الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم، فتنتبهوا من رقدتكم، وتتبصروا من عمايتكم، و هذا كما قال قتادة في قوله تعالى: **﴿أتأمرون الناس بالبر و تنسون أنفسكم﴾** قال: كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله و بتقواه و بالبر، و يخالفون، فعيّرهم الله عز و جل، و كذلك قال السدي. و عن ابن عباس: **﴿و تنسون أنفسكم﴾** أي تتركون أنفسكم **﴿و أنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾** أي تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة و العهد من التوراة و تتركون أنفسكم، أي و أنتم تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تصديق رسولي، وتنقضون ميثاقي، و تجحدون ما تعلمون من كتابي، والغرض: أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع، و نبههم على خطئهم في حق أنفسهم حيث كانوا يأمرون بالخير و لا يفعلونه، و ليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، فإن الأمر بالمعروف معروف و هو واجب على العالم، و لكن الواجب و الأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به، و لا يتخلف عنهم كما قال شعيبؑ: **﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت و ما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾** فكل من الأمر بالمعروف و فعله واجبٌ لا يسقط أحدهما بترك الآخر، على أصح قولي العلماء من السلف و الخلف، و ذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي لا ينهى غيره عنه، و هذا ضعيف، و أضعف منه تمسكهم بهذه الآية فإنه لا حجة لهم فيها، والصحيح: أن العالم يأمر بالمعروف و إن لم يفعله، و ينهى عن المنكر و إن ارتكبه، قال مالك عن ربيعة: سمعت سعيد بن جبير يقول: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف و لا ينهى عن المنكر، حتى لا يكون فيه شيء، ما أَمَرَ أحدٌ بمعروف و لا نهى عن منكر. قال مالك: و صدق من ذا الذي ليس فيه شيء؟ **(قلت)** لكنه و الحالة هذه مذموم على ترك الطاعة و فعله المعصية لعلمه بها، و مخالفته على بصيرة فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم، ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك، كما روى الإمام أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير عن جندب بن عبد اللهرضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: «مثل العالم الذي يُعَلِّم الناس الخير و لا يعمل به، كمثل

السِّراج يضيء للناس و يحرق نفسه» هذا حديث غريب من هذا الوجه[١].

حديث آخر: روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أُسري بي على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، قال: قلت من هؤلاء؟ قالوا: خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم و هم يتلون الكتاب أفلا يعقلون». و رواه عبد بن حميد في مسنده.

روى أحمد عن أبي وائل، قال: قيل لأسامة وأنا رديفه: ألا تكلم عثمان؟ فقال: إنكم ترون أني لا أكلمه، ألا أسمعكم، إني لأكلمه فيما بيني وبينه دون أن أفتتح أمراً لا أحب أن أكون أول من افتتحه، و الله لا أقول لرجل إنك خير الناس و إن كان علي أميراً بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول: قالوا: و ما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: «يُجاء بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار فتندلق به أقتابه[٢]، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون: يا فلان ما أصابك، ألم تكن تأمرنا بالمعروف و تنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف و لا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه» و رواه البخاري و مسلم.

و قال إبراهيم النخعي: إني لأكره القصص لثلاث آيات: قوله تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر و تنسون أنفسكم﴾ و قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ◆ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ وقوله إخباراً عن شعيب: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت و ما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾.

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦) ﴾

٤٥ - يقول تعالى آمراً عبيده فيما يُؤمّلون من خير الدنيا و الآخرة بالاستعانة بالصبر و الصلاة، كما قال مقاتل ابن حيان في تفسير هذه الآية: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض و الصلاة، فأما الصبر فقيل: إنه الصيام، نص عليه مجاهد، قال القرطبي و غيره: و لهذا يُسمى رمضان «شهر الصبر» كما نطق به الحديث.

و عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: الصبر صبران: صبرٌ عند المصيبة حسن، و أحسن منه الصبر عن محارم الله. و قال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿و استعينوا بالصبر و الصلاة﴾ قال: على مرضاة الله، و اعلموا أنها من طاعة الله. و أما قوله: و الصلاة، فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر، كما قال تعالى: ﴿اتل ما أوحي إليك من الكتاب و أقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر و لذكر الله أكبر﴾ الآية. و روى أحمد عن حذيفة، يعني ابن اليمان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ، إذا حَزَبه أمر صلى، و رواه أبو داود و ابن جرير. و روى المروزي في «كتاب الصلاة» عن علي رضي الله عنه يقول: لقد رأيتنا ليلة بدر و ما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلي و يدعو حتى أصبح.

و الضمير في قوله: ﴿إنها لكبيرة﴾ عائد إلى الصلاة، نص عليه مجاهد و اختاره ابن جرير، و يحتمل أن يكون عائداً على ما يدل عليه الكلام و هو الوصية بذلك، كقوله تعالى في قصة قارون ﴿و قال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن و عمل صالحاً و لا يُلقّاها إلا الصابرون﴾ و قال تعالى: ﴿و لا تستوي

(١) و هو حديث صحيح. (٢) أي: أمعاؤه

الحسنة و لا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك و بينه عداوة كأنه وليٌّ حميم﴾ و ما يُلقّاها إلا الذين صبروا و ما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ أي و ما يلقى هذه الوصية إلا الذين صبروا، و ما يلقاها أي يؤتاها ويُلهمها إلا ذو حظ عظيم. وعلى كل تقدير فقوله تعالى: ﴿و إنها لكبيرة﴾. أي مشقة ثقيلة إلا على الخاشعين، قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني المصدّقين بما أنزل الله، وقال مجاهد: المؤمنين حقاً، و قال أبو العالية: إلا على الخاشعين الخائفين، و قال مقاتل بن حيان: إلا على الخاشعين يعني به المتواضعين، و قال الضحاك: وإنها لكبيرة، قال: إنها لثقيلة إلا على الخاضعين لطاعته، الخائفين سطوته، المصدقين بوعده و وعيده. و هذا يشبه ما جاء في الحديث «لقد سألت عن عظيم و إنه ليسير على مَن يسّره الله عليه».

و قال ابن جرير: معنى الآية: واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم على طاعة الله، وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء و المنكر، المقرّبة من رضا الله العظيمة إقامتها، إلا على الخاشعين أي المتواضعين المستكينين لطاعته المتذللين من مخافته. هكذا قال: والظاهر أن الآية و إن كانت خطاباً في سياق إنذار بني إسرائيل، فإنهم لم يُقصدوا على سبيل التخصيص، و إنما هي عامة لهم و لغيرهم، و الله أعلم.

٤٦- و قوله تعالى: ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم و أنهم إليه راجعون﴾ هذا من تمام الكلام الذي قبله، أي وإن الصلاة أو الوصاة لثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم، أي يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة معروضون عليه، و أنهم إليه راجعون أي أمورهم راجعة إلى مشيئته يحكم فيها ما يشاء بعدله، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد و الجزاء، سهل عليهم فعل الطاعات و ترك المنكرات، فأما قوله ﴿يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾ قال ابن جرير رحمه الله: العرب قد تسمي اليقين ظناً، و الشك ظناً، نظير تسميتهم الظلمة سدفة، والمغيث صارخاً، والمستغيث صارخاً، و ما أشبه ذلك من الأسماء التي يسمى بها الشيء و ضده. قال: والشواهد من أشعار العرب و كلامها على أن الظن في معنى اليقين أكثر من أن تُحصر، و منه قول الله تعالى: ﴿و رأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾، و عن مجاهد قال: كل ظن في القرآن فهو علم، و هذا سند صحيح، و عن ابن جريج ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾ علموا أنهم ملاقو ربهم كقوله ﴿إني ظننت أني ملاق حسابيه﴾ يقول علمت، و كذا قال ابن أسلم.

(قلت) و في الصحيح: أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة «ألم أزوّجك ألم أكرمك ألم أسخّر لك الخيل و الإبل و أذرك ترأس و تَرْبَع؟ فيقول بلى فيقول الله تعالى «أظننت أنك ملاقي؟» فيقول: لا، فيقول الله «اليوم أنساك كما نسيتني» و سيأتي مبسوطاً عند قوله تعالى ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ إن شاء الله تعالى.

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) ﴾

٤٧- يذكرهم تعالى بسالف نعمه إلى آبائهم و أسلافهم، و ما كان فضّلهم به من إرسال الرسل منهم و إنزال الكتب عليهم و على سائر الأمم من أهل زمانهم، كما قال تعالى: ﴿و لقد اخترناهم على علم على العالمين﴾ وقال تعالى: ﴿و إذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء و جعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ و عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿و أني فضلتكم على العالمين﴾ قال: بما أعطوا من المُلك و الرسل و الكتب على عالَم من كان في ذلك الزمان، فإن لكل زمان عالماً، و روي عن مجاهد

والربيع بن أنس وقتادة و إسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك ، و يجب الحمل على هذا لأن هذه الأمة أفضل منهم لقوله تعالى ، خطاباً لهذه الأمة ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و تؤمنون بالله و لو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم﴾ و في المسانيد و السنن عن معاوية بن حيدة القشيري ، قال : قال رسول الله ﷺ: «أنتم تُوفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله» ، و الأحاديث في هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ .

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨) ﴾

٤٨- لما ذكَّرهم تعالى بنعمه أولاً ، عطف على ذلك التحذير من طول نقمه بهم يوم القيامة ، فقال : ﴿و اتقوا يوماً﴾ يعني يوم القيامة ﴿لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾ أي لا يغني أحدٌ عن أحد ، كما قال ﴿و لا تزر وازرة وزر أخرى﴾ و قال : ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ و قال : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم و اخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده و لا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾ فهذا أبلغ المقامات أن كلاً من الوالد و ولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئاً ، و قوله تعالى : ﴿و لا يقبل منها شفاعة﴾ يعني من الكافرين كما قال : ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ و كما قال عن أهل النار ﴿فما لنا من شافعين و لا صديق حميم﴾ وقوله تعالى : ﴿و لا يؤخذ منها عدل﴾ أي لا يقبل منها فداء ، كما قال تعالى : ﴿إن الذين كفروا و ماتوا و هم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً و لو افتدى به﴾ و قال : ﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً و مثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم و لهم عذاب أليم﴾ و قال تعالى : ﴿و إن تعدل كل عدل لا يُؤخذ منها﴾ وقال : ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية و لا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم﴾ الآية . فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله و يتابعوه على ما بعثه به و وافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه ، فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذي جاه ، و لا يقبل منهم فداء ولو بملء الأرض ذهباً ، كما قال تعالى : ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة و لا شفاعة﴾ و قال : ﴿لا بيع فيه ولا خلال﴾ قال ابن عباس : ﴿و لا يؤخذ منها عدل﴾ قال : بدل ، والبدل : الفدية ، و قال السدي : أما عدل فيعدلها ، من العدل ، يقول : لو جاءت بملء الأرض ذهباً تفتدى به ما تُقبل منها ، و كذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، و عن أبي العالية في قوله : ﴿و لا يقبل منها عدل﴾ يعني فداء .

و قوله تعالى : ﴿و لا هم ينصرون﴾ أي و لا أحد يغضب لهم فينصرهم و ينقذهم من عذاب الله ، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة و لا ذو جاه ، و لا يقبل منهم فداء ، هذا كله من جانب التلطف ، و لا لهم ناصر من أنفسهم و لا من غيرهم ، كما قال : ﴿فما له من قوة و لا ناصر﴾ أي أنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية و لا شفاعة ، و لا يُنقذ أحداً من عذابه منقذ ، و لا يخلص منه أحد ، و لا يجير منه أحد ، كما قال تعالى : ﴿و هو يجير ولا يجار عليه﴾ و قال : ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد و لا يوثق وثاقه أحد﴾ و قال : ﴿ما لكم لا تناصرون ۞ بل هم اليوم مستسلمون﴾ و قال : ﴿فلو لا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم﴾ الآية ، قال ابن جرير : و تأويل قوله : ﴿ولا هم ينصرون﴾ يعني أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر كما لا

يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل و لا فدية، بطلت هنالك المحاباة، و اضمحلت الرّشا و الشفاعات، وارتفع من القوم التناصر والتعاون، و صار الحكم إلى الجبار العدل الذي لا ينفع لديه الشفعاء و النصراء، فيجزي بالسيئة مثلها، وبالحسنة أضعافها، و ذلك نظير قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهم إنهم مسئولون۞ ما لكم لا تناصرون۞ بل هم اليوم مستسلمون﴾

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٠) ﴾

٤٩- يقول تعالى: اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم إذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، أي خلصتكم، و أنقذتكم من أيديهم صحبة موسى ﷺ، و قد كانوا يسومونكم أي يوردونكم و يذيقونكم ويولونكم سوء العذاب، و ذلك أن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته، رأى ناراً خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر إلا بيوت بني إسرائيل مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل، و يقال بعد تحدث سُمّاره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة و رفعة، وهكذا جاء في حديث الفتون كما سيأتي في موضعه في سورة طه إن شاء الله تعالى، فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل و أن تُترك البنات، و أمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال و أرذلها، ههنا فسر العذاب بذبح الأبناء، و في سورة إبراهيم عطف عليه كما قال: ﴿يسومونكم سوء العذاب و يذبحون أبناءكم و يستحيون نساءكم﴾ و سيأتي تفسير ذلك في أول سورة القصص إن شاء الله تعالى، به الثقة و المعونة و التأييد.

و إنما قال ههنا: ﴿يذبحون أبناءكم و يستحيون نساءكم﴾ ليكون ذلك تفسيراً للنعمة عليهم في قوله: ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ ثم فسره بهذا لقوله ههنا: ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ و أما في سورة إبراهيم فلما قال: ﴿و ذكّرهم بأيام الله﴾ أي بأياديه و نعمه عليهم فناسب أن يقول هناك: ﴿يسومونكم سوء العذاب و يذبحون أبناءكم و يستحيون نساءكم﴾ فعطف عليه الذبح ليدل على تعدد النعم و الأيادي على بني إسرائيل. و فرعون عَلَمٌ على كل من مَلَك مصر كافراً من العماليق و غيرهم، كما أن قيصر علم على كل من ملك الروم مع الشام كافراً، و كسرى لمن ملك الفرس، و تُبّع لمن ملك اليمن كافراً، و النجاشي لمن ملك الحبشة، و بطليموس لمن ملك الهند.

و قوله تعالى: ﴿و في ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ قال ابن جرير: و في الذي فعلنا بكم من إنجائنا آباءكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم، أي نعمة عظيمة عليكم في ذلك، و أصل البلاء الاختبار و قد يكون بالخير و الشر، كما قال تعالى: ﴿و نبلوكم بالشر و الخير فتنة﴾ و قال: ﴿و بلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ قال ابن جرير: و أكثر ما يقال في الشر بلوته أبلوه بلاء، و في الخير أبليه إبلاء بلاء.

و قيل: المراد بقوله: ﴿و في ذلكم بلاء﴾ إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهين من ذبح الأبناء و استحياء

النساء، قال القرطبي: و هذا قول الجمهور و لفظه بعد ما حكى القول الأول، ثم قال: و قال الجمهور: الإشارة إلى الذبح و نحوه، و البلاء ههنا في الشر، و المعنى في الذبح مكروه و امتحان.

٥٠- و قوله تعالى: **﴿و إذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم و أغرقنا آل فرعون و أنتم تنظرون﴾**، معناه: و بعد أن أنقذناكم من آل فرعون و خرجتم مع موسى عليه السلام، خرج فرعون في طلبكم ففرقنا بكم البحر، كما أخبر تعالى عن ذلك مفصلاً كما سيأتي في مواضعه، و من أبسطها ما في سورة الشعراء إن شاء الله، **﴿فأنجيناكم﴾** أي خلصناكم منهم و حجزنا بينكم و بينهم، و أغرقناهم و أنتم تنظرون، ليكون ذلك أشفى لصدوركم و أبلغ في إهانة عدوكم.

و قد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء، فعن ابن عباس، قال: قَدِم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومون؟» قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نَجَّى الله عز وجل فيه بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى عليه السلام، فقال رسول الله ﷺ: «أنا أحقُّ بموسى منكم» فصامه رسول الله ﷺ و أمر بصومه، روى هذا الحديث البخاري و مسلم و النسائي و ابن ماجه.

﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) ﴾

٥١، ٥٢- يقول تعالى: و اذكروا نعمتي عليكم في عفوي عنكم، لَمَّا عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة، و كانت أربعين يوماً و هي المذكورة في الأعراف في قوله تعالى: **﴿و إذ واعدنا موسى ثلاثين ليلة و أتممناها بعشر﴾** قيل: إنها ذو القعدة بكماله و عشر من ذي الحجة، و كان ذلك بعد خلاصهم من فرعون و إنجائهم من البحر.

٥٣- و قوله تعالى: **﴿و إذ آتينا موسى الكتاب﴾** يعني التوراة **﴿و الفرقان﴾** و هو ما يفرّق بين الحق و الباطل والهدى و الضلالة **﴿لعلكم تهتدون﴾** و كان ذلك أيضاً بعد خروجهم من البحر، كما دل عليه سياق الكلام في سورة الأعراف، و لقوله تعالى: **﴿و لقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون﴾** و قيل: الواو زائدة، و المعنى و لقد آتينا موسى الكتاب الفرقان و هذا غريب، و قيل: عُطف عليه و إن كان المعنى واحداً.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) ﴾

٥٤- هذه صفة توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل، قال الحسن البصري رحمه الله في قوله تعالى **﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل﴾** فقال: ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع، حتى قال تعالى: **﴿و لما سقط في أيديهم و رأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا﴾** الآية. قال: فذلك حين يقول موسى **﴿يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل﴾** و قال أبو العالية و سعيد بن جبير و الربيع بن أنس **﴿فتوبوا إلى بارئكم﴾** أي إلى خالقكم، قلت: و في قوله ههنا **﴿إلى**

بارئكم» تنبيه على عظم جُرمهم ، أي فتوبوا إلى الذي خلقكم و قد عبدتم معه غيره .

عن ابن عباس ، قال : قال موسى لقومه : **«توبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم»** قال : أمر موسى قومه عن أمر ربه عز وجل أن يقتلوا أنفسهم ، قال : وأخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا و قام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم و أصابتهم ظلمة شديدة ، فجعل يقتل بعضهم بعضاً ، فانجلت الظلمة عنهم و قد جلوا عن سبعين ألف قتيل ، كلُّ مَن قُتل منهم كانت له توبة ، وكل من بقي كانت له توبة . و روى ابن جرير عن سعيد بن جبير و مجاهد في قوله تعالى **«فاقتلوا أنفسكم»** قالا : قام بعضهم إلى بعض بالخناجر يقتل بعضهم بعضاً ، لا يحنو رجل على قريب و لا بعيد ، حتى ألوى موسى بثوبه فطرحوا ما بأيديهم ، فكشف عن سبعين ألف قتيل ، و إن الله أوحى إلى موسى : أن حسبي فقد اكتفيت ، فذلك حين ألوى موسى بثوبه ، و روي عن علي ﷺ نحو ذلك ، و قال قتادة : أمر القوم بشديد من الأمر فقاموا يتناحرون بالشِّفار ، يقتل بعضهم بعضاً ، حتى بلغ الله فيهم نقمته ، فسقطت الشفار من أيديهم ، فأمسك عنهم القتل فجعل لحيّهم توبة ، و للمقتول شهادة . و قال الحسن البصري : أصابتهم ظلمة حندس ، فقتل بعضهم بعضاً ثم انكشف عنهم فجعل توبتهم في ذلك .

و قال الزهري : لما أمرت بنو إسرائيل بقتل أنفسها برزوا و معهم موسى فاضطربوا بالسيوف و تطاعنوا بالخناجر ، وموسى رافع يديه حتى إذا فَتَر بعضهم ، قالوا : يا نبي الله ، ادع الله لنا ، و أخذوا بعضديه يسندون يديه ، فلم يزل أمرهم على ذلك حتى إذا قَبِلَ الله توبتهم قبض أيديهم بعضهم عن بعض فألقوا السلاح ، و حزن موسى و بنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم ، فأوحى الله جل ثناؤه إلى موسى ، ما يحزنك؟ أما من قُتل منهم فحيٌّ عندي يرزقون ، و أما من بقي فقد قَبِلت توبته ، فَسُرَّ بذلك موسى وبنو إسرائيل ، رواه ابن جرير بإسناد جيد عنه .

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) ﴾

٥٥- يقول تعالى : و اذكروا نعمتي عليكم في بعثي لكم بعد الصعق إذ سألتم رؤيتي جهرة عياناً مما لا يستطاع لكم و لا لأمثالكم ، و قال أبو جعفر عن الربيع بن أنس : هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه، قال : فسمعوا كلاماً ، فقالوا **«لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة»** قال : فسمعوا صوتاً فصعقوا يقول ماتوا . و قال مروان بن الحكم ، فيما خطب به على منبر مكة : الصاعقة صيحة من السماء ، و قال السدي في قوله **«فأخذتكم الصاعقة»** الصاعقة : نار ، و قال عروة بن رويم في قوله **«و أنتم تنظرون»** قال : صعق بعضهم و بعض ينظرون ، ثم بعث هؤلاء و صعق هؤلاء ، و قال السدي **«فأخذتكم الصاعقة»** فماتوا ، فقام موسى يبكي ويدعو الله ، ويقول : رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم و قد أهلكت خيارهم **«لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا»** فأوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل ، ثم إن الله أحياهم فقاموا و عاشوا رجل رجل ، ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون ؟ قال : فذلك قوله تعالى : **«ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون»** و قال الربيع بن أنس : كان موتهم عقوبة لهم فبعثوا من بعد الموت

ليستوفوا آجالهم، و كذا قال قتادة.

القول الثاني في الآية: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير هذه الآية: قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة فوجدهم يعبدون العجل، فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا، فتاب الله عليهم، فقال: إن هذه الألواح فيها كتاب الله فيه أمركم الذي أمركم به و نهيكم الذي نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذه بقولك أنت؟ لا و الله حتى نرى الله جهرة حتى يطلع الله علينا فيقول: هذا كتابي فخذوه، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى؟ و قرأ قول الله ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ قال: فجاءت غضبة من الله فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم فماتوا أجمعون، قال: ثم أحياهم الله من بعد موتهم، و قرأ قول الله ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله، فقالوا: لا، فقال: أي شيء أصابكم؟ فقالوا: أصابنا أنا متنا ثم أحيينا، قال: خذوا كتاب الله؟ قالوا: لا، فبعث الله ملائكة فنتقت الجبل فوقهم. وهذا السياق يدل على أنهم كُلِّفوا بعد ما أحيوا.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

٥٧- لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النِّقم، شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النِّعم، فقال: ﴿و ظللنا عليكم الغمام﴾ وهو جمع غمامة، سمي بذلك لأنه يغم السماء أي يواريها و يسترها، و هو السحاب الأبيض ظُلِّلُوا به في التيه ليقيهم حر الشمس. و قوله تعالى: ﴿و أنزلنا عليكم المن﴾ اختلفت عبارات المفسرين في المن ما هو؟ فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كان المن ينزل عليهم على الأشجار، فيغدون إليه، فيأكلون منه ما شاؤوا. و قال مجاهد: المن: صمغة، و قال عكرمة: المن: شيء أنزله الله عليهم مثل الطل شبه الرُّب الغليظ، وقال قتادة: كان المن ينزل عليهم في محلهم سقوط الثلج أشد بياضاً من اللبن و أحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى ذلك فسد و لم يبق، حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه و يوم سابعه، لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشته و لا يطلبه لشيء، و هذا كله في البرية، و قال الربيع بن أنس: المن شراب كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه.

و الغرض أن عبارات المفسرين متقاربة في شرح المن، فمنهم من فسره بالطعام، و منهم من فسره بالشراب، والظاهر، و الله أعلم، أنه كل ما امتن الله به عليهم به من طعام و شراب و غير ذلك مما ليس لهم فيه عمل و لا كد، فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاماً و حلاوة، و إن مزج مع الماء صار شراباً طيباً، و إن ركب مع غيره صار نوعاً آخر، و لكن ليس هو المراد من الآية وحده، و الدليل على ذلك ما رواه البخاري عن سعيد بن زيد رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «الكمأة من المن، و ماؤها شفاء للعين». و عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «العَجْوةُ من الجنة، و فيها شفاء من السم، و الكمأة من المن، و ماؤها شفاء للعين» تفرد بإخراجه الترمذي [1].

---

(١) و قد أخرجه ابن ماجه برقم (٣٤٥٥) و هو في المسند أيضاً من وجوه أخر، و الحديث صحيح.

و أما السلوى فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: السلوى طائر شبه بالسُّماني، كانوا يأكلون منه. وكذا قال مجاهد و الشعبي و الضحاك و الحسن و عكرمة و الربيع بن أنس رحمهم الله تعالى. و قال ابن عطية: السلوى طير بإجماع المفسرين، و قد غلط الهذلي في قوله أنه العسل.

و قوله تعالى: **﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾** أمر إباحة و إرشاد و امتنان، و قوله تعالى: **﴿و ما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾** أي أمرناهم بالأكل مما رزقناهم و أن يعبدوا، كما قال **﴿كلوا من رزق ربكم واشكروا له﴾** فخالفوا و كفروا فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات و المعجزات القاطعات، وخوارق العادات، و من ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمدﷺ و رضي الله عنهم على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم و عدم تعنتهم كما كانوا معه في أسفاره و غزواته منها عام تبوك في ذلك القيظ و الحر الشديد والجهد لم يسألوا خرق عادة و لا إيجاد أمر، مع أن ذلك كان سهلاً على النبيﷺ لكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم فجاء قدر مبرك الشاة، فدعا الله فيه و أمرهم فملؤوا كل وعاء معهم و كذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم فشربوا و سقوا الإبل و ملؤوا أسقيتهم ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر. فهذا هو الأكمل في اتباع الشيء مع قدر الله مع متابعة الرسولﷺ.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) ﴾

٥٨- يقول تعالى لائماً على نكولهم عن الجهاد و دخولهم الأرض المقدسة لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسىﷺ فأُمروا بدخول الأرض المقدسة التي هي ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل، و قتال من فيها من العماليق الكفرة، فنكلوا عن قتالهم و ضعفوا و استحسروا فرماهم الله في التّيه عقوبة لهم كما ذكره تعالى في سورة المائدة، و لهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس، و قد قال الله تعالى حاكياً عن موسى **﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم و لا ترتدوا﴾** الآيات. و قال آخرون هي أريحاء، و يحكى عن ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد، و هذا بعيد لأنها ليست على طريقهم و هم قاصدون بيت المقدس لا أريحاء، وأبعد من ذلك قول من ذهب إلى أنها مصر، حكاه الرازي في تفسيره، و الصحيح الأول أنها بيت المقدس، وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نونﷺ و فتحها الله عليهم عشية جمعة، و قد حُبِستْ لهم الشمس يومئذ قليلاً حتى أمكن الفتح، و لما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب باب البلد **﴿سجداً﴾** أي شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح و النصر و ردَّ بلدهم عليهم و إنقاذهم من التيه و الضلال، وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس في قوله **﴿و ادخلوا الباب سجداً﴾** قال: ركعاً من باب صغير، و قال الحسن البصري: أمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخولهم، و استبعده الرازي، و حكي عن بعضهم أن المراد ههنا بالسجود الخضوع لتعذر حمله على حقيقته.

و قوله تعالى: **﴿و قولوا حطة﴾** عن ابن عباس قال: مغفرة استغفروا، و روي عن عطاء و الحسن و قتادة والربيع بن أنس نحوه، و قال الضحاك عن ابن عباس **﴿و قولوا حطة﴾** قال: قولوا هذا الأمر حق كما قيل

لكم، وقال عكرمة قولوا ﴿لا إله إلا الله﴾ وقال الحسن و قتادة أي احطط عنا خطايانا ﴿نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين﴾ و قال: هذا جواب الأمر، أي إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات و ضاعفنا لكم الحسنات، وحاصل الأمر أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل و القول، و أن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، والشكر على النعمة عندها و المبادرة إلى ذلك، من المحبوب عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ و رأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾ فسبح بحمد ربك و استغفره إنه كان تواباً﴾ فسره بعض الصحابة بكثرة الذكر و الاستغفار عند الفتح و النصر، و فسره ابن عباس بأنه نعى رسول اللهﷺ أجله فيها و أقره على ذلك عمرؓ، و لا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك عند ذلك، و نعى إليه روحه الكريمة أيضاً، و لهذا كان عليه الصلاة و السلام يظهر عليه الخضوع جداً عند النصر، كما روي أنه كان يوم الفتح فتح مكة داخلاً إليها من الثنية العليا، و أنه لخاضع لربه حتى أن عثنونه ليمس مورك رحله شكراً لله على ذلك، ثم لما دخل البلد اغتسل وصلى ثماني ركعات و ذلك ضحى، فقال بعضهم: هذه صلاة الضحى، و قال آخرون: بل هي صلاة الفتح فاستحبوا للإمام و للأمير إذا فتح بلداً أن يصلي فيه ثماني ركعات عند أول دخوله، كما فعل سعد بن أبي وقاصؓ لما دخل إيوان كسرى صلى فيه ثماني ركعات، و الصحيح أنه يفصل بين كل ركعتين بتسليم، و قيل يصليها كلها بتسليم واحد، والله أعلم.

٥٩- و قوله تعالى: ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم﴾ روى البخاري عن أبي هريرةؓ عن النبيﷺ قال: «قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً و قولوا حطّة. فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا: حبة في شعرة» وحاصل ما ذكره المفسرون و ما دل عليه السياق أنهم بدّلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل فأمروا أن يدخلوا سجداً فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعي رؤوسهم، وأمروا أن يقولوا حطة، أي احطط عنا ذنوبنا و خطايانا، فاستهزؤوا فقالوا حنطة في شعيرة، و هذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة، ولهذا أنزل الله بهم بأسه و عذابه بفسقهم، و هو خروجهم عن طاعته. و لهذا قال: ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾ و قال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب، و هكذا روي عن مجاهد و أبي مالك و السدي و الحسن و قتادة أنه العذاب، و قال الشعبي: الرجز إما الطاعون و إما البرد، و قال سعيد بن جبير: هو الطاعون، و عن سعد بن مالك و أسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت رضي الله عنهم، قالوا: قال رسول اللهﷺ: «الطاعون رجز عذاب عُذِّب به من كان قبلكم» رواه النسائي. وأصل الحديث في الصحيحين «إذا سمعتم الطاعون بأرض فلا تدخلوها» الحديث.

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) ﴾

٦٠- يقول تعالى: و اذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسىؑ حين استسقاني لكم، و تيسيري لكم الماء وإخراجه لكم من حَجَر معكم، و تفجيري الماء لكم منه من اثنتي عشرة عيناً، لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها، فكلوا من المن و السلوى و اشربوا من هذا الماء الذي أنبعته لكم بلا سعي منكم و لا كدّ، و اعبدوا الذي سخر لكم ذلك: ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ و لا تقابلوا النعم بالعصيان فتُسلبوها. و قد بسطه

المفسرون في كلامهم كما قال ابن عباس رضي الله عنه و جعل بين ظهرانيهم حجر مربع و أمر موسى عليه السلام فضربه بعصاه فانفجرت منه إثنتا عشرة عيناً في كل ناحية منه ثلاث عيون ، و أعلم كل سبط عينهم يشربون منها لا يرتحلون من منقلة إلا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذي كان منهم بالمنزل الأول. قال الزمخشري : و يحتمل أن تكون اللام للجنس لا للعهد أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر ، و عن الحسن لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه، قال : وهذا أظهر في المعجزة و أبين في القدرة. فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر ثم يضربه فييبس، و هذه القصة شبيهة بالقصة التي في سورة الأعراف و لكن تلك مكية ، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب لأن الله تعالى يقص على رسوله ﷺ ما فعل بهم. و أما في هذه السورة - و هي البقرة - فهي مدنية ، فلهذا كان الخطاب فيها متوجهاً إليهم ، و أخبر هناك بقوله : ﴿فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً﴾ و هو أول الانفجار، و أخبر ههنا بما آل إليه الحال آخراً ، و هو الانفجار فناسب ذكر الانفجار ههنا و ذاك هناك، و الله أعلم.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾

٦١- يقول تعالى : و اذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المن و السلوى طعاماً طيباً نافعاً هنيئاً سهلاً ، واذكروا دبركم و ضجركم مما رزقناكم و سؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنيئة من البقول و نحوها مما سألتم ، قال الحسن البصري : فبطروا ذلك فلم يصبروا عليه ، و ذكروا عيشهم الذي كانوا فيه ، و كانوا قوماً أهل أعداس و بصل و بقول و فوم ، فقالوا : ﴿يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها و قثائها و فومها و عدسها و بصلها﴾ و إنما قالوا على طعام واحد و هم يأكلون المن و السلوى ، لأنه لا يتبدل و لا يتغير كل يوم ، فهو مأكل واحد . فالبقول و القثاء و العدس و البصل كلها معروفة ، و أما الفوم ، فقد اختلف السلف في معناه ، فوقع في قراءة ابن مسعود و ثومها بالثاء ، و كذا فسره مجاهد في رواية ليث بن أبي سليم عنه ، بالثوم. و كذا الربيع بن أنس و سعيد بن جبير ، قال ابن جرير : فإن كان ذلك صحيحاً ، فإنه من الحروف المبدلة كقولهم : وقعوا في عاثور شر و عافور شر ، و أثافي و أثاثي ، و مغافير و مغاثير و أشباه ذلك مما تقلب الفاء ثاء و الثاء فاء لتقارب مخرجيهما ، و الله أعلم . و قال آخرون : الفوم الحنطة ، و هو البر الذي يعمل منه الخبز ، و كذا قال علي بن أبي طلحة و الضحاك و عكرمة عن ابن عباس : أن الفوم الحنطة ، وحكى القرطبي عن عطاء و قتادة : أن الفوم كل حب يختبز.

و قوله تعالى : ﴿قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير﴾ فيه تقريع لهم و توبيخ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنيئة مع ما هم فيه من العيش الرغيد و الطعام الهنيء الطيب النافع ، و قوله تعالى : ﴿اهبطوا مصراً﴾ هكذا هو منون مصروف ، مكتوب بالألف في المصاحف الأئمة العثمانية و هو قراءة الجمهور بالصرف . و قال ابن جرير : و لا أستجيز القراءة بغير ذلك لإجماع المصاحف على ذلك . و قال ابن عباس ﴿اهبطوا مصراً﴾ قال : مصر من الأمصار ، رواه ابن أبي حاتم قال : و روي عن السدي و قتادة و الربيع بن أنس نحو ذلك ، و قال ابن جرير : وقع في قراءة أبي بن كعب و ابن مسعود ﴿اهبطوا مصر﴾ من غير إجراء ، يعني من غير صرف ثم

روى عن أبي العالية و الربيع بن أنس أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون، قال ابن جرير: و يحتمل أن يكون المراد: مصر فرعون على قراءة الإجراء أيضاً. و يكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف كما في قوله تعالى: **﴿قواريرا قوارير﴾** ثم توقف في المراد ما هو أمصر فرعون أم مصراً من الأمصار؟ و هذا الذي قاله فيه نظر، والحق أن المراد: مصر من الأمصار كما روي عن ابن عباس و غيره، و المعنى على ذلك لأن موسى ﷺ يقول لهم: هذا الذي سألتم ليس بأمر عزيز بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه. و لهذا قال: **﴿أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم﴾** أي ما طلبتم، و لما كان سؤالهم هذا من باب البطر و الأشر و لا ضرورة فيه لم يجابوا إليه، والله أعلم.

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١) ﴾

٦١-يقول تعالى: **﴿و ضربت عليهم الذلة و المسكنة﴾** أي وضعت عليهم و أُلزموا بها شرعاً و قدراً أي لا يزالون مستذلين، مَنْ وجدهم استذلهم و أهانهم و ضرب عليهم الصغار، و هم مع ذلك في أنفسهم أذلاء متمسكنون. قال الضحاك عن ابن عباس: **﴿و ضربت عليهم الذلة و المسكنة﴾** قال: هم أصحاب القَبالات يعني الجزية. وعن الحسن و قتادة في قوله تعالى: **﴿و ضربت عليهم الذلة﴾** قال: يعطون الجزية عن يد و هم صاغرون. و قال الحسن: أذلهم الله فلا منعة لهم، و جعلهم تحت أقدام المسلمين، و لقد أدركتهم هذه الأمة و إن المجوس لتجبيهم الجزية، و قال أبو العالية و الربيع بن أنس و السدي: المسكنة الفاقة، و قوله تعالى: **﴿وباؤوا بغضب من الله﴾** قال الضحاك: استحقوا الغضب من الله، و قال الربيع بن أنس: فحَدَثَ عليهم غضب من الله، و قال ابن جرير: يعني بقوله: **﴿و باؤوا بغضب من الله﴾** انصرفوا و رجعوا، و لا يقال: باء إلا موصولاً إما بخير و إما بشر يقال منه: باء فلان بذنبه يبوء به بوءاً و بواءً، و منه قوله تعالى: **﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك﴾** يعني تنصرف متحملهما و ترجع بهما قد صارا عليك دوني.

فمعنى الكلام إذاً: رجعوا منصرفين متحملين غضب الله قد صار عليهم من الله غضب، و وجب عليهم من الله سخط. و قوله تعالى: **﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق﴾** يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم من الذلة و المسكنة، و إحلال الغضب بهم من الذلة، بسبب استكبارهم عن اتباع الحق وكفرهم بآيات الله، و إهانتهم حملة الشرع، و هم الأنبياء و أتباعهم، فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم، فلا كفر أعظم من هذا، إنهم كفروا بآيات الله، و قتلوا أنبياء الله بغير الحق، و لهذا جاء في الحديث المتفق على صحته: أن رسول الله ﷺ قال: «الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ و غَمْطُ الناس» يعني رد الحق، و انتقاص الناس، و الازدراء بهم، و التعاظم عليهم، و لهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوه من الكفر بآيات الله، وقتلهم أنبياءه، أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، و كساهم ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة جزاء و فاقاً.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله يعني ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجلٌ قتله نبي أو قتلَ نبياً، و إمام ضلالة، و ممثل من الممثلين» و قوله تعالى: **﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾** وهذه

علة أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به أنهم كانوا يعصون و يعتدون، فالعصيان فعل المناهي، و الاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه و المأمور به، و الله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾

٦٢- لما بيَّن تعالى حال من خالف أوامره و ارتكب زواجره، و تعدَّى في فعل ما لا إذن فيه و انتهك المحارم، وما أحل بهم من النكال، نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة و أطاع فإن له جزاء الحسنى، و كذلك الأمر إلى قيام الساعة كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية، و لا خوف عليهم فيما يستقبلونه و لا هم يحزنون على ما يتركونه و يخلفونه، كما قال تعالى: **﴿ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم و لا هم يحزنون﴾** وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله: **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا و لا تحزنوا و أبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾**. و روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿إن الذين آمنوا و الذين هادوا و النصارى و الصابئين من آمن بالله و اليوم الآخر﴾** الآية. قال فأنزل الله بعد ذلك **﴿و من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه و هو في الآخرة من الخاسرين﴾** هذا الذي قاله ابن عباس إخباراً عن أنه لا يُقبل من أحد طريقة ولا عملاً إلا ما كان موافقاً لشريعة محمدﷺ بعد أن بعثه بما بعثه به، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى و سبيل و نجاة.

فاليهود أتباع موسىعليه السلام الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم. و اليهود من الهوادة و هي المودة، أو التهوّد و هي التوبة، كقول موسىعليه السلام **﴿إنا هدنا إليك﴾** أي تُبنا، فكأنهم سموا بذلك في الأصل لتوبتهم ومودتهم في بعضهم لبعض، و قيل: لنسبتهم إلى يهودا أكبر أولاد يعقوب، و قال أبو عمرو بن العلاء: لأنهم يتهوّدون أي يتحركون عند قراءة التوراة، فلما بُعث عيسىعليه السلام وجب على بني إسرائيل اتباعه و الانقياد له، فأصحابه و أهل دينه هم النصارى، سموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، و قد يقال لهم أنصار أيضاً، كما قال عيسىعليه السلام **﴿من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله﴾** و قيل: إنهم إنما سموا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضاً يقال لها: ناصرة، قاله قتادة و ابن جريج، و روي عن ابن عباس أيضاً، و الله أعلم. و النصارى جمع نصران، كنشاوى جمع نشوان، و سكارى جمع سكران، و يقال للمرأة نصرانة.

فلما بعث الله محمداًﷺ خاتماً للنبيين، و رسولاً إلى بني آدم على الإطلاق، وجب عليهم تصديقه فيما أخبر، و طاعته فيما أمر، و الانكفاف عما عنه زجر، و هؤلاء هم المؤمنون حقا، و سميت أمة محمدﷺ مؤمنين لكثرة إيمانهم، و شدة إيقانهم و لأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية و الغيوب الآتية.

و أما الصابئون فقد اختلف فيهم، فقال مجاهد: الصابئون قوم بين المجوس و اليهود و النصارى و ليس لهم دين، و كذا روي عن عطاء و سعيد بن جبير نحو ذلك، و قال أبو العالية و الربيع بن أنس و السدي و أبو الشعثاء جابر بن زيد، والضحاك و إسحاق بن راهويه: الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور، و لهذا قال أبو حنيفة وإسحاق: لا بأس بذبائحهم و مناكحتهم، و عن الحسن قال: أُخبر زياد أن الصابئين يصلون إلى القبلة، ويصلون الخمس قال: فأراد أن يضع عنهم الجزية، قال: فخُبِّر بعد أنهم يعبدون الملائكة، و قال أبو

جعفر الرازي: بلغني أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة، و يقرؤون الزبور و يصلون للقبلة، و كذا قال قتادة.

و روى ابن أبي حاتم عن ابن أبي الزناد عن أبيه قال: الصابئون قوم مما يلي العراق و هم بكوثى، و هم يؤمنون بالنبيين كلهم و يصومون من كل سنة ثلاثين يوماً، و يصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات، و سئل وهب بن منبه عن الصابئين فقال: الذي يعرف الله وحده و ليست له شريعة يعمل بها و لم يُحدث كفراً، و قال عبد الله بن وهب: قال عبد الرحمن بن زيد: الصابئون أهل دين من الأديان، كانوا بجزيرة الموصل، يقولون: لا إله إلا الله، و ليس لهم عمل و لا كتاب و لا نبي إلا قول لا إله إلا الله، قال: و لم يؤمنوا برسول، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبيﷺ و أصحابه هؤلاء الصابئون يشبهونهم بهم، يعني في قول لا إله إلا الله، وحكى القرطبي عن مجاهد و الحسن و ابن نجيح، أنهم قوم تَرَكَّبَ دينهم بين اليهود و المجوس، و لا تؤكل ذبائحهم و لا تنكح نساؤهم، قال القرطبي: و الذي تحصل من مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء أنهم موحّدون و يعتقدون تأثير النجوم، و أنها فاعلة، و لهذا أفتى أبو سعيد الإصطخري بكفرهم للقادر بالله حين سأله عنهم، و اختار الرازي أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة و الدعاء، أو بمعنى أن الله فوّض تدبير أمر هذا العالم إليها، قال و هذا القول هو المنسوب إلى الكشرانين الذين جاءهم إبراهيمﷺ راداً عليهم و مبطلاً لقولهم.

و أظهر الأقوال و الله أعلم، قول مجاهد و متابعيه و وهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود و لا النصارى و لا المجوس و لا المشركين، و إنما هم باقون على فطرتهم و لا دين مقرر لهم يتبعونه و يقتفونه، و لهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابئ، أي أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) ﴾

٦٣- يقول تعالى مذكراً بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود و المواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له، و اتباع رسله، و أخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق، و رفع الجبل فوق رؤوسهم ليقروا بما عوهدوا عليه، و يأخذوه بقوة و جزم و امتثال، كما قال تعالى: **﴿و إذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلّة و ظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾** فالطور هو الجبل كما فسره به في الأعراف، و نص على ذلك ابن عباس ومجاهد وعطاء و الحسن و الضحاك و الربيع بن أنس و غير واحد، و هذا ظاهر، و قال السدي: فلما أبوا أن يسجدوا أمر الله الجبل أن يقع عليهم، فنظروا إليه و قد غشيهم فسقطوا سجداً فسجدوا على شق و نظروا بالشق الآخر، فرحمهم الله فكشفه عنهم، فقالوا: و الله ما سجدة أحب إلى الله من سجدة كشف بها العذاب عنهم، فهم يسجدون كذلك، و ذلك قول الله تعالى **﴿و رفعنا فوقكم الطور﴾**. وقال الحسن في قوله **﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾** يعني التوراة، وقال أبو العالية و الربيع بن أنس: بقوة أي بطاعة، و قال مجاهد بقوة بعمل ما فيه، و قال قتادة **﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾** القوة: الجد و إلا قذفته عليكم، قال: فأقروا بذلك أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة، و معنى قوله و إلا قذفته عليكم أي أسقطته عليكم، يعني الجبل، و قال أبو العالية و الربيع **﴿واذكروا ما فيه﴾** يقول: اقرؤوا ما في التوراة و اعملوا به.

٦٤- و قوله تعالى **﴿ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله﴾** يقول تعالى: ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه و انثنيتم و نقضتموه **﴿فلولا فضل الله عليكم و رحمته﴾** أي بتوبته عليكم و إرساله النبيين والمرسلين إليكم **﴿لكنتم من الخاسرين﴾** بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا و الآخرة.

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) ﴾

٦٥- يقول تعالى: **﴿و لقد علمتم﴾** يا معشر اليهود ما أحَلَّ من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله، و خالفوا عهده و ميثاقه، فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت، و القيام بأمره إذ كان مشروعاً لهم، فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت بما وضعوا لها من الشصوص و الحبائل و البرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل و الحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت، فلما فعلوا ذلك، مسخهم الله إلى صورة القردة و هي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة، فكذلك أعمال هؤلاء و حيلتهم، لما كانت مشابهة للحق في الظاهر و مخالفة له في الباطن، كان جزاءهم من جنس عملهم، و هذه القصة مبسوطة في سورة الأعراف حيث يقول تعالى: **﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً و يوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾** القصة بكمالها، و قال السدي: أهل هذه القرية هم أهل أيله، و كذلك قال قتادة، و سنورد أقوال المفسرين هناك مبسوطة إن شاء الله و به الثقة.

و قوله تعالى: **﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾** روى ابن أبي حاتم عن مجاهد **﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾** قال: مسخت قلوبهم و لم يمسخوا قردة. و إنما هو مثل ضربه الله **﴿كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾** وهذا سند جيد عن مجاهد، و قول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره، قال الله تعالى: **﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله و غضب عليه و جعل منهم القردة و الخنازير و عبد الطاغوت﴾** الآية، و قال شيبان النحوي عن قتادة **﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾** فصار القوم قردة تعاوى، لها أذناب بعد ما كانوا رجالاً ونساءاً فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان ألم ننهكم؟ فيقولون برؤوسهم: أي بلى، و قال الضحاك عن ابن عباس: فمسخهم الله قردة بمعصيتهم يقول إذ لا يحيون في الأرض إلا ثلاثة أيام، قال: و لم يعش مَسخٌ قط فوق ثلاثة أيام، و لم يأكل و لم يشرب و لم ينسلوا، وقد خلق الله القردة و الخنازير و سائر الخلق في الستة الأيام التي ذكرها الله في كتابه، فمسخ هؤلاء القوم في صورة القردة، و كذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء، و يحوله كما يشاء، و قال أبو جعفر عن الربيع، عن أبي العالية في قوله **﴿كونوا قردة خاسئين﴾** قال: يعني أذلة صاغرين، و روي عن مجاهد و قتادة و الربيع و أبي مالك نحوه. وقال السدي في قوله تعالى **﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾** قال: هم أهل أيلة، و هي القرية التي كانت حاضرة البحر، فكانت الحيتان إذا كان يوم السبت، و قد حرم الله على اليهود أن يعملوا في السبت شيئاً، فلم يبق في البحر حوت إلا خرج حتى يخرجن خراطيمهن من الماء، فإذا كان يوم الأحد لزمن سفل البحر فلم ير منهن شيء حتى يكون يوم السبت، فذلك قوله تعالى **﴿و سألهم عن القرية**

﴿التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعاً و يوم لا يسبتون لا تأتيهم﴾ فاشتهى بعضهم السمك، فجعل الرجل يحفر الحفيرة و يجعل لها نهراً إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فتح النهر فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيها في الحفيرة، فيريد الحوت أن يخرج فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر، فيمكث فيها، فإذا كان يوم الأحد، جاء فأخذه، فجعل الرجل يشوي السمك، فيجد جاره روائحه، فيسأله فيخبره، فيصنع مثل ما صنع جاره حتى فشا فيهم أكل السمك، فقال لهم علماؤهم: ويحكم، إنما تصطادون يوم السبت وهو لا يحل لكم، فقالوا: إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه، قال الفقهاء: لا و لكنكم صدتموه يوم فتحتم له الماء فدخل، قال: وغلبوا أن ينتهوا. فقال بعض الذين نهوهم لبعض **﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾** يقول: لمَ تعظوهم وقد وعظتموهم فلم يطيعوكم ؟ فقال بعضهم **﴿معذرة إلى ربكم و لعلهم يتقون﴾** فلما أبوا، قال المسلمون: و الله لا نساكنكم في قرية واحدة، فقسموا القرية بجدار وفتح المسلمون باباً و المعتدون في السبت باباً و لعنهم داود ﷺ، فجعل المسلمون يخرجون من بابهم، و الكفار من بابهم، فخرج المسلمون ذات يوم و لم يَفتح الكفارُ بابهم فلما أبطؤوا عليهم، تسور المسلمون عليهم الحائط، فإذا هم قردة يثب بعضهم على بعض، ففتحوا عنهم فذهبوا في الأرض، فذلك قول الله تعالى: **﴿فلما عتوا عما نُهُوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾** و ذلك حين يقول **﴿لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود و عيسى بن مريم﴾** الآية، فهم القردة.

(قلت) و الغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة، بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد رحمه الله، من أن مسخهم إنما كان معنوياً لا صورياً، بل الصحيح أنه معنوي وصوري، و الله أعلم.

٦٦- و قوله تعالى: **﴿فجعلناها نكالاً﴾** قال بعضهم: الضمير في فجعلناها عائد على القردة، و قيل على الحيتان و قيل على العقوبة، و قيل على القرية حكاها ابن جرير، و الصحيح أن الضمير عائد على القرية، أي فجعل الله هذه القرية و المراد أهلها بسبب اعتدائهم في سبتهم **﴿نكالاً﴾** أي عاقبناهم عقوبة فجعلناها عبرة، كما قال الله عن فرعون **﴿فأخذه الله نكال الآخرة و الأولى﴾**. و قوله تعالى **﴿لما بين يديها و ما خلفها﴾** أي من القرى، قال ابن عباس: يعني جعلناها بما أحللنا بها من العقوبة عبرة لما حولها من القرى، كما قال تعالى: **﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى و صرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾** و منه قوله تعالى **﴿أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾** الآية، على أحد الأقوال، فالمراد **﴿لما بين يديها و ما خلفها﴾** في المكان، و قال سعيد بن جبير: من بحضرتها من الناس يومئذ.

و حكى الرازي ثلاثة أقوال: أحدها: أن المراد بما بين يديها و ما خلفها، مَنْ تقدمها من القرى بما عندهم من العلم بخبرها بالكتب المتقدمة و من بعدها، و الثاني: المراد بذلك من بحضرتها من القرى و الأمم. و الثالث: أنه تعالى، جعلها عقوبة لجميع ما ارتكبوه من قبل هذا الفعل و ما بعده، و هو قول الحسن **(قلت)** و أرجح الأقوال المراد بما بين يديها و ما خلفها، من بحضرتها من القرى، يبلغهم خبرها و ما حل بها، كما قال تعالى **﴿و لقد أهلكنا ما حولكم من القرى﴾** الآية، و قال تعالى: **﴿و لا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة﴾** الآية، وقال تعالى: **﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾** فجعلهم عبرة و نكالاً لمن في زمانهم، و موعظة لمن يأتي بعدهم بالخبر المتواتر عنهم، و لهذا قال **﴿و موعظة للمتقين﴾**، و قال الحسن و قتادة **﴿و موعظة**

للمتقين﴾ بعدهم فيتقون نقمة الله و يحذرونها، و قال السدي و عطية العوفي **﴿و موعظة للمتقين﴾** قال أمة محمد ﷺ **(قلت)** المراد بالموعظة ههنا الزاجر أي جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس و النكال في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله، و ما تحيلوا به من الحيل، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم، كما روى الإمام أبو عبد الله بن بطة عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فَتَستحلّوا محارم الله بأدنى الحيل» و هذا إسناد جيد.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) ﴾

٦٧- يقول تعالى: و اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة، و بيان القاتل من هو بسببها، و إحياء الله المقتول، و نصه على من قتله منهم.

ذكر بسط القصة

روى ابن أبي حاتم عن عبيدة السلماني، قال: كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له، و كان له مال كثير، و كان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلاً، فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه حتى تسلحوا و ركب بعضهم على بعض. فقال ذو الرأي منهم و النُّهى: علام يقتل بعضكم بعضاً، و هذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى عليه السلام، فذكروا ذلك له، فقال: **﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾** قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، و لكنهم شددوا، فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أُمروا بذبحها، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: و الله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً، فأخذوها بملء جلدها ذهباً، فذبحوها، فضربوه ببعضها فقام: فقالوا: من قتلك؟ فقال: هذا - لابن أخيه، ثم مال ميتاً، فلم يعط من ماله شيئاً فلم يورث قاتل بعد، و رواه ابن جرير عن عبيدة بنحو من ذلك، و الله أعلم.

و هذه السياقات عن عبيدة و أبي العالية و السدي و غيرهم[1] فيها اختلاف ما، و الظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل، و هي مما يجوز نقلها، و لكن لا تصدق و لا تكذب، فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا، و الله أعلم.

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا

(١) قد حذفنا ما جاء عن أبي العالية و السدي و غيرهما، لضعف في السند و اكتفاء بما جاء عن عبيدة لمشابهته ما ورد عن غيره.

﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)﴾

٦٨، ٦٩، ٧٠-أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل و كثرة سؤالهم لرسولهم، لهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم، و لو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم، كما قال ابن عباس و عبيدة و غير واحد، ولكنهم شددوا فشدد عليهم فقالوا: **﴿ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾** أي ما هي البقرة و أي شيء صفتها، روى ابن جرير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها، و لكنهم شددوا فشدد عليهم - إسناد صحيح - و قد رواه غير واحد عن ابن عباس، و كذا قال أبو عبيدة و السدي و مجاهد و عكرمة وأبو العالية وغير واحد، قال: **﴿إنه يقول إنها بقرة لا فارض و لا بكر﴾** أي لا كبيرة هرمة و لا صغيرة لم يلحقها الفحل، كما قاله أبو العالية و السدي و مجاهد و عكرمة و عطية العوفي و عطاء الخراساني و وهب بن منبه والضحاك والحسن و قتادة، و قاله ابن عباس أيضاً، و هي أقوى ما يكون من الدواب و البقر، و أحسن ما تكون، و قال عطاء عن ابن عباس: من لبس نعلاً صفراء لم يزل في سرور ما دام لابسها، وذلك قوله تعالى: **﴿تسر الناظرين﴾** وكذا قال مجاهد و وهب بن منبه، و عن الحسن في قوله تعالى: **﴿بقرة صفراء فاقع لونها﴾** قال سوداء شديدة السواد، و هذا غريب، و الصحيح الأول و لهذا أكد صفرتها بأنه **﴿فاقع لونها﴾** و قال سعيد ابن جبير **﴿فاقع لونها﴾** صافية اللون، و روي عن أبي العالية و الربيع بن أنس و السدي والحسن و قتادة نحوه، وقال السدي: **﴿تسر الناظرين﴾** أي تعجب الناظرين، و كذا قال أبو العالية و قتادة والربيع بن أنس. وقوله تعالى: **﴿إن البقر تشابه علينا﴾** أي لكثرتها، فميِّز لنا هذه البقرة وصِفْها و جلِّها لنا **﴿وإنا إن شاء الله﴾** إذا بينتها لنا **﴿لمهتدون﴾** إليها.

٧١- **﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض و لا تسقي الحرث﴾** أي إنها ليست مذللة بالحراثة و لا معدة للسقي في الساقية، بل هي مكرمة حسنة، وروى عبد الرزاق عن قتادة **﴿مسلمة﴾** يقول لا عيب فيها، و كذا قال أبو العالية و الربيع، و قال عطاء الخراساني: مسلمة القوائم و الخلق لا شية فيها، قال مجاهد: لا بياض ولا سواد، و قال عطاء الخراساني: لونها واحد بهيم، و كل هذه الأقوال متقاربة في المعنى، **﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾** قال قتادة: الآن بينت لنا، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: و قبل ذلك و الله قد جاءهم الحق **﴿فذبحوها و ما كادوا يفعلون﴾** قال الضحاك عن ابن عباس: كادوا أن لا يفعلوا و لم يكن ذلك الذي أرادوا، لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها، يعني أنهم مع هذا البيان و هذه الأسئلة و الأجوبة و الإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، و في هذا ذم لهم، و ذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت، فلهذا ما كادوا يذبحونها.

و قال محمد بن كعب و محمد بن قيس: فذبحوها و ما كادوا يفعلون لكثرة ثمنها، و في هذا نظر، لأن كثرة الثمن لم يثبت إلا من نقل بني إسرائيل كما تقدم من حكاية أبي العالية والسدي، و فيه اختلاف، ثم قد قيل في ثمنها غير ذلك، و روى عبد الرزاق عن عكرمة، قال: ما كان ثمنها إلا ثلاثة دنانير، و هذا إسناد جيد عن عكرمة، و الظاهر أنه نقله عن أهل الكتاب أيضاً.

و قال ابن جرير: و قال آخرون: لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة، إن اطلع الله على قاتل القتيل الذي اختصموا فيه، و لم يسنده عن أحد، ثم اختار أن الصواب في ذلك أنهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لغلاء

ثمنها و للفضيحة، وفي هذا نظر، بل الصواب، و الله أعلم، ما تقدم من رواية الضحاك عن ابن عباس على ما وجهناه، و بالله التوفيق.

(مسألة) استدل بهذه الآية في حصر صفات هذه البقرة حتى تعينت أو تم تقييدها بعد الإطلاق، على صحة السَّلم في الحيوان [1] كما هو مذهب مالك و الأوزاعي و الليث و الشافعي و أحمد و جمهور العلماء سلفاً وخلفاً، بدليل ما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ: «لا تَنْعَتُ المرأةُ المرأةَ لزوجها كأنه ينظر إليها» و كما وصف النبي ﷺ إبل الدية في قتل الخطأ، و شبه العمد بالصفات المذكورة بالحديث، و قال أبو حنيفة و الثوري والكوفيون: لا يصح السلم في الحيوان لأنه لا تنضبط أحواله، و حكي مثله عن ابن مسعود و حذيفة بن اليمان وعبد الرحمن بن سمرة و غيرهم.

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ﴾

٧٢، ٧٣- قال البخاري: **﴿فادارأتم فيها﴾** اختلفتم، و هكذا قال فيما رواه ابن أبي حاتم عنه، و قال ابن جريج: **﴿و إذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها﴾** قال بعضهم: أنتم قتلتموه، و قال آخرون: بل أنتم قتلتموه، و كذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم **﴿و الله مخرج ما كنتم تكتمون﴾** قال مجاهد: ما تغيبون، و روى ابن أبي حاتم عن المسيب بن رافع قال: ما عمل رجل حسنة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، و ما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، و تصديق ذلك في كلام الله **﴿و الله مخرج ما كنتم تكتمون * فقلنا اضربوه ببعضها﴾** هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة، فالمعجزة حاصلة به، و خرق العادة به كائن، و قد كان معيناً في نفس الأمر، فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبيّنه الله تعالى لنا، و لكنه أبهمه و لم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانه، فنحن نبهمه كما أبهمه الله.

و قال أبو العالية: أمرهم موسى ﷺ، أن يأخذوا عظماً من عظامها فيضربوا به القتيل، ففعلوا فرجع إليه روحه، فسمّى لهم قاتله، ثم عاد ميتاً كما كان، و قوله تعالى: **﴿كذلك يحي الله الموتى﴾** أي فضربوه فحيي، ونبه تعالى على قدرته و إحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل: جعل تبارك و تعالى ذلك الصنع حجة لهم على المعاد، و فاصلاً ما كان بينهم من الخصومة و العناد، و الله تعالى قد ذكر في هذه القصة، و قصة الذين خرجوا من ديارهم و هم ألوف حَذَرَ الموت، و قصة الذي مرّ على قرية و هي خاوية على عروشها، و قصة إبراهيم ﷺ و الطيور الأربعة، و نبه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميماً، كما روى أبو داود الطيالسي عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه، قال: قلت يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ قال: «أما مَرَرتَ بوادٍ مُمحلٍ، ثم مررتَ به خَضِراً»؟ قال بلى. قال: «كذلك النُّشور» أو قال: «كذلك يحيي الله الموتى». و شاهد هذا قوله تعالى: **﴿و آية لهم الأرض الميتة أحييناها و أخرجنا منها حباً فمنه يأكلون * و جعلنا فيها جنات من نخيل و أعناب و فجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره و ما عملته أيديهم أفلا يشكرون﴾**.

---

(١) السلم: هو السلف، سمي سلماً لتسليم رأس ماله في المجلس، و سلفاً لتقديمه. و هو أن يقدم المشتري الثمن على أن يؤدي له البائع المبيع المعلوم بعد زمن معلوم.

(مسألة) استدل لمذهب الإمام مالك في كون قول الجريح : فلان قتلني لوثاً[1] بهذه القصة، لأن القتيل لما حيي سئل عمن قتله؟ فقال: فلان قتلني، فكان ذلك مقبولاً منه، لأنه لا يخبر حينئذ إلا بالحق، و لا يُتهم والحالة هذه، و رجّحوا ذلك لحديث أنس أن يهودياً قتل جارية على أوضاح لها، فرضخ رأسها بين حجرين، فقيل: مَنْ فعل بكِ هذا ؟ أفلان ؟ أفلان ؟ حتى ذكروا اليهودي، فأومأت برأسها، فأخذ اليهودي، فلم يزل به حتى اعترف، فأمر رسول الله ﷺ أن يُرضَّ رأسه بين حجرين، و عن مالك إذا كان لوثاً، حلف أولياء القتيل قسامة، و خالف الجمهور في ذلك، و لم يجعلوا قول القتيل في ذلك لوثاً.

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) ﴾

٧٤- يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل و تقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى و إحيائه الموتى: **﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك﴾** كله، فهي كالحجارة التي لا تلين أبداً، و لهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم، فقال: **﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله و ما نزل من الحق و لا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم و كثير منهم فاسقون﴾** روي عن ابن عباس: لما ضُرب المقتول ببعض البقرة جلس أحيا ما كان قط، فقيل له: من قتلك؟ قال: بنو أخي قتلوني ثم قُبض، فقال بنو أخيه حين قبضه الله: و الله ما قتلناه، فكذبوا بالحق بعد أن رأوه، فقال الله **﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك﴾** يعني أبناء أخي الشيخ فهي كالحجارة أو أشد قسوة، فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات و المعجزات، فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها، أو أشد قسوة من الحجارة فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية، و منها ما يشقق فيخرج من الماء و إن لم يكن جارياً، و منها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله، و فيه إدراك لذلك بحسبه، كما قال: **﴿تسبح له السموات السبع و الأرض و مَنْ فيهن و إنْ من شيء إلا يسبح بحمده و لكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾** و قال ابن أبي نجيح عن مجاهد: إنه كان يقول: كل حجر يتفجر منه الماء، أو يتشقق عن ماء، أو يتردى من رأس جبل، لمن خشية الله نزل بذلك القرآن.

و قد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز، و هو إسناد الخشوع إلى الحجارة، كما أُسندت الإرادة إلى الجدار في قوله: **﴿يريد أن ينقض﴾** قال الرازي و القرطبي و غيرهما من الأئمة: و لا حاجة إلى هذا، فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى: **﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات و الأرض و الجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها﴾** و قال: **﴿تسبح له السموات السبع و الأرض و من فيهن﴾** الآية، و قال: **﴿و النجم والشجر يسجدان﴾** **﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله﴾** الآية، **﴿قالتا أتينا طائعين﴾** **﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل﴾** الآية، **﴿و قالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله﴾** الآية، و في الصحيح «هذا

---

(١) اللوث هو أن يشهد شاهد واحد على إقرار المقتول قبل أن يموت أن فلاناً قتلني، أو يشهد شاهدان على عداوة بينهما، أو تهديد منه له أو نحو ذلك، و هو من التلوث: التلطخ. (اللسان).

جبل يحبنا ونحبه» و كحنين الجذع المتواتر خبره، و في صحيح مسلم «إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسلّم علي قبل أن أُبعث إني لأعرفه الآن» وفي صفة الحجر الأسود: إنه يشهد لمن استلم بحق يوم القيامة، و غير ذلك مما في معناه. وحكى القرطبي قولاً أنها للتخيير، أي: مثلاً لهذا و هذا و هذا، مثل: جالس الحسن أو ابن سيرين، و كذا حكاه الرازي في تفسيره و زاد قولاً آخر: إنها للإبهام بالنسبة للمخاطب كقول القائل: أكلت خبزاً أو تمراً، و هو يعلم أيهما أكل، و قال آخر: إنها بمعنى قول القائل: كُلْ حلواً أو حامضاً، أي لا يخرج عن واحد منهما، أي و قلوبكم صارت كالحجارة أو أشد قسوة منها، لا تخرج عن واحد من هذين الشيئين، و الله أعلم.

(تنبيه) اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى: **﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾** بعد الإجماع على استحالة كونها للشك، فقال بعضهم: أو: ههنا بمعنى الواو، تقديره: فهي كالحجارة و أشد قسوة، كقوله تعالى: **﴿و لا تطع منهم آثماً أو كفوراً﴾** **﴿عذراً أو نذراً﴾**، و قال آخرون: أو ههنا بمعنى بل فتقديره: فهي كالحجارة بل أشد قسوة، و كقوله: **﴿إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾**، **﴿و أرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾**، **﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾** و قال آخرون: معنى ذلك: **﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾** عندكم حكاه ابن جرير، و قال بعضهم: معنى ذلك فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين، إما تكون مثل الحجارة في القسوة، و إما أن تكون أشد منها في القسوة. قال ابن جرير: و معنى ذلك على هذا التأويل: فبعضها كالحجارة قسوة، و بعضها أشد قسوة من الحجارة؛ و قد رجّحه ابن جرير مع توجيه غيره.

(قلت) و هذا القول الأخير يبقى شبيهاً بقوله تعالى: **﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾** مع قوله: **﴿أو كصيب من السماء﴾** وكقوله: **﴿و الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة﴾** مع قوله: **﴿أو كظلمات في بحر لجي﴾** الآية، أي إن منهم من هو هكذا، و منهم من هو هكذا، و الله أعلم.

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) ﴾

٧٥- يقول تعالى: **﴿أفتطمعون﴾** أيها المؤمنون **﴿أن يؤمنوا لكم﴾** أي ينقادوا لكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك: **﴿و قد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه﴾** أي يتأولونه على غير تأويله **﴿من بعد ما عقلوه﴾** أي فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة **﴿و هم يعلمون﴾** أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه و تأويله، و هذا المقام شبيه بقوله تعالى: **﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم و جعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه﴾** قال محمد بن إسحاق، فيما حدثني بعض أهل العلم: أنهم قالوا لموسى، قد حِيلَ بيننا و بين رؤية ربنا تعالى فأسمعنا كلامه حين يكلّمك، فطلب ذلك موسى إلى ربه تعالى، فقال: نعم، مرهم فليتطهروا و ليطهروا ثيابهم و يصوموا، ثم خرج بهم حتى أتوا الطور، فلما غشيهم الغمام، أمرهم موسى أن يسجدوا، فوقعوا سجوداً،

وكلمه ربه، فسمعوا كلامه يأمرهم و ينهاهم حتى عقلوا منه ما سمعوا، ثم انصرف بهم إلى بني إسرائيل، فلما جاؤوهم، حَرَّف فريق منهم ما أمرهم به، و قالوا حين قال موسى لبني إسرائيل: إن الله أمركم بكذا و كذا، قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله إنما قال كذا و كذا خلافاً لما قال الله عز و جل لهم فهم الذين عنى الله لرسوله ﷺ، و قال السدي: ﴿و قد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه﴾ قال: هي التوراة حرفوها، و هذا الذي ذكره السدي أعم مما ذكره ابن عباس و ابن إسحاق، و إن كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السياق، فإنه ليس يلزم من سماع كلام الله أن يكون منه كما سمعه الكليم موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، و قد قال الله تعالى: ﴿و إن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾ أي مبلغاً إليه، و لهذا قال قتادة في قوله: ﴿ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه و هم يعلمون﴾ قال: هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه و وعوه، و قال مجاهد: الذين يحرفونه و الذين يكتمونه هم العلماء منهم، وقال أبو العالية: عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم من نعت محمد ﷺ فحرفوه عن مواضعه، و قال السدي ﴿وهم يعلمون﴾ أي أنهم أذنبوا، و قال ابن وهب: قال ابن زيد في قوله: ﴿يسمعون كلام الله ثم يحرفونه﴾ قال: التوراة التي أنزلها الله عليهم يحرفونها، يجعلون الحلال فيها حراماً و الحرام فيها حلالاً، و الحق فيها باطلاً والباطل فيها حقاً، إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله، و إذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه محق، و إذا جاءهم أحد يسألهم شيئاً ليس فيه حق و لا رشوة و لا شيء أمروه بالحق، فقال الله لهم: ﴿أتأمرون الناس بالبر و تنسون أنفسكم و أنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾.

٧٦- و قوله تعالى: ﴿و إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا و إذا خلا بعضهم إلى بعض﴾ الآية، روي عن ابن عباس قال: أي أن صاحبكم رسول الله و لكنه إليكم خاصة، و إذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: لا تحدثوا العرب بهذا، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان فيهم، فأنزل الله ﴿و إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا و إذا خلا بعضهم إلى بعض﴾ أي تقرون بأنه نبي، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر و نجد في كتابنا، اجحدوه و لا تقروا به. يقول الله تعالى ﴿أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ و قال الضحاك عن ابن عباس: يعني المنافقين من اليهود، كانوا إذا لقوا أصحاب محمد ﷺ قالوا: آمنا، و قال السدي: هؤلاء ناس من اليهود، آمنوا ثم نافقوا. و كذا قال الربيع بن أنس و قتادة و غير واحد من السلف و الخلف. و كانوا يقولون إذا دخلوا المدينة: نحن مسلمون ليعلموا خبر رسول الله ﷺ و أمره، فإذا رجعوا رجعوا إلى الكفر، فلما أخبر الله نبيه ﷺ قطع ذلك عنهم، فلم يكونوا يدخلون، و كان المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون فيقولون: أليس قد قال الله لكم كذا و كذا، فيقولون: بلى، فإذا رجعوا إلى قومهم، يعني الرؤساء، فقالوا: ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ الآية، و قال أبو العالية ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ يعني بما أنزل الله في كتابكم من نعت محمد ﷺ و نحوه عن قتادة.

قول آخر في المراد بالفتح: و قال السدي: ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ من العذاب ﴿ليحاجوكم به عند ربكم﴾ هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا، فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عُذِّبوا به، فقال بعضهم لبعض ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ من العذاب ليقولوا: نحن أحب إلى الله منكم، و أكرم على الله منكم. و قال عطاء الخراساني ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ يعني قضى لكم و عليكم. و قال الحسن

البصري: هؤلاء اليهود كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، و إذا خلا بعضهم إلى بعض قال بعضهم: لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم مما في كتابكم ليحاجوكم به عند ربكم فيخصموكم.

و قوله تعالى: **﴿أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون و ما يعلنون﴾** قال أبو العالية: يعني ما أسروا من كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به، و هم يجدونه مكتوباً عندهم، و كذا قال قتادة، و قال الحسن: **﴿إن الله يعلم ما يسرون﴾** قال: كان ما أسروا أنهم كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمد ﷺ و خلا بعضهم إلى بعض، تناهوا أن يخبر أحد منهم أصحاب محمد ﷺ بما فتح الله عليهم مما في كتابهم، خشية أن يحاجهم أصحاب محمد ﷺ بما في كتابهم عند ربهم **﴿و ما يعلنون﴾** يعني حين قالوا لأصحاب محمد ﷺ: آمنا. كذا قال أبو العالية و الربيع وقتادة.

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) ﴾

٧٨- يقول تعالى: **﴿و منهم أميون﴾** أي و من أهل الكتاب، قاله مجاهد، و الأميون جمع أمي، و هو الرجل الذي لا يُحسن الكتابة، قاله أبو العالية و الربيع و قتادة و إبراهيم النخعي و غير واحد، و هو ظاهر في قوله تعالى **﴿لا يعلمون الكتاب﴾** أي لا يدرون ما فيه. و لهذا في صفات النبي ﷺ: أنه الأمي، لأنه لم يكن يُحسن الكتابة، كما قال تعالى: **﴿و ما كنتَ تتلو من قبله من كتاب و لا تخطُّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾** و قال عليه الصلاة و السلام: «إنا أمةٌ أميةٌ لا نكتب و لا نحسب، الشهر هكذا و هكذا و هكذا» الحديث[1]. أي لا نفتقر في عباداتنا و مواقيتنا إلى كتاب و لا حساب، و قال تبارك وتعالى: **﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾** وقال ابن جرير: نسبت العرب من لا يكتب و لا يخط من الرجال إلى أمه في جهله بالكتاب دون أبيه.

و قوله تعالى: **﴿إلا أماني﴾** قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: إلا أماني الأحاديث، و قال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: **﴿إلا أماني﴾** يقول إلا قولاً يقولون بأفواههم كذباً. وقال مجاهد: إلا كذباً، و عنه أيضاً **﴿و منهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾** قال أناس من اليهود، لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئاً، وكانوا يتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله و يقولون هو من الكتاب، أماني يتمنونها، و عن الحسن البصري نحوه، وقال أبو العالية و الربيع و قتادة: إلا أماني يتمنون على الله ما ليس لهم.

قال ابن جرير: والأشبه بالصواب قول الضحاك عن ابن عباس، و قال مجاهد: إن الأميين الذين وصفهم الله تعالى أنهم لا يفقهون من الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى شيئاً، و لكنهم يتخرصون الكذب ويتخرصون الأباطيل كذباً و زوراً، و التمني في هذا الموضع هو تخلق الكذب و تخرصه، و منه الخبر المروي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ما تغنيتُ و لا تمنيتُ» يعني ما تخرصت الباطل و لا اختلقت الكذب، و قيل المراد بقوله **﴿إلا أماني﴾** بالتشديد و التخفيف أيضاً: أي إلا تلاوة، فعلى هذا يكون استثناء منقطعاً، و استشهدوا على ذلك بقوله تعالى: **﴿إلا إذا تمنى - أي تلا - ألقى الشيطان في أمنيته﴾** الآية.

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

و قال مجاهد : ﴿و إن هم إلا يظنون﴾ يكذبون و قال قتادة و أبو العالية و الربيع : يظنون بالله الظنون بغير الحق.

٧٩- قوله تعالى : ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً﴾ الآية ، هؤلاء صنف آخر من اليهود. و هم الدعاة إلى الضلال بالزور و الكذب على الله ، و أكل أموال الناس بالباطل ، و الويل : الهلاك و الدمار ، و هي كلمة مشهورة في اللغة ، و عن ابن عباس : الويل المشقة من العذاب ، و قال الخليل بن أحمد : الويل شدة الشر ، و قال سيبويه : ويل لمن وقع في الهلكة ، ويح لمن أشرف عليها ، و قال الأصمعي : الويل تفجع ، و الويح ترحم ، و عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ قال : هم أحبار اليهود ، و كذا قال قتادة : و قال الزهري : أخبرني عبيد الله ابن عبد الله عن ابن عباس أنه قال : «يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، و كتاب الله الذي أنزله على نبيه أحدث أخبار الله تقرؤونه غضًا لم يُشب ، و قد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيّروه ، و كتبوا بأيديهم الكتاب و قالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مُساءلتهم ، و لا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي أُنزل عليكم» رواه البخاري ، و قال الحسن بن أبي الحسن البصري : الثمن القليل الدنيا بحذافيرها. و قوله تعالى : ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ أي فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب و البهتان و الافتراء ، و ويل لهم مما أكلوا به من السحت.

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠)﴾

٨٠- يقول تعالى إخباراً عن اليهود فيما نقلوه و ادّعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة ، ثم ينجون منها ، فرد الله عليهم ذلك بقوله تعالى ﴿قل أتخذتم عند الله عهداً﴾ أي بذلك ، فإن كان قد وقع عهدٌ فهو لا يخلف عهده ، و لكن هذا ما جرى و لا كان ، و لهذا أتى بـ«أم» التي بمعنى بل ، أي بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب و الافتراء عليه ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : أن اليهود كانوا يقولون أن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة ، و إنما نعذب بكل ألف سنة يوماً في النار و إنما هي سبعة أيام معدودة فأنزل الله تعالى : ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ إلى قوله ﴿خالدون﴾ ، و عن قتادة ﴿و قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ يعني الأيام التي عبدنا فيها العجل.

و روى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أبي هريرة ، قال : لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ ، شاة فيها سم ، فقال رسول الله ﷺ «اجمعوا لي من كان من اليهود هنا» فقال لهم رسول الله ﷺ «من أبوكم» ؟قالوا فلان ، قال : «كذبتم بل أبوكم فلان» فقالوا : صدقت و بررت ، ثم قال لهم «هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه» ؟ قالوا نعم يا أبا القاسم ، و إن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا ، فقال رسول الله ﷺ : «من أهل النار» ؟ فقالوا : نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «اخسئوا و الله لا نخلفكم فيها أبداً» ثم قال لهم رسول الله ﷺ «هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه» ؟ قالوا : نعم يا أبا القاسم ، قال :

«هل جعلتم في هذه الشاة سماً» ؟ فقالوا: نعم، قال: «فما حملكم على ذلك» ؟ فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، و إن كنت نبياً لم يضرك، و رواه الإمام أحمد و البخاري و النسائي بنحوه.

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢) ﴾

٨١- يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيتم و لا كما تشتهون، بل الأمر أنه من عمل سيئة و أحاطت به خطيئته وهو مَنْ وَافَى يوم القيامة و ليست له حسنة، بل جميع أعماله سيئات، فهذا من أهل النار، **﴿و الذين آمنوا و عملوا الصالحات﴾** أي آمنوا بالله و رسوله، و عملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة فهم من أهل الجنة، و هذا المقام شبيه بقوله تعالى: **﴿ليس بأمانيكم و لا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجزَ به و لا يجد له من دون الله ولياً و لا نصيراً ＊ و من يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى و هو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة و لا يظلمون نقيراً﴾**، يروى عن ابن عباس **﴿بلى من كسب سيئة﴾** أي عمل مثل أعمالكم و كفر بمثل ما كفرتم به حتى يحيط به كفره، فماله من حسنة، و في رواية عن ابن عباس، قال: الشرك، قال ابن أبي حاتم: و روي عن أبي وائل وأبي العالية و مجاهد و عكرمة و الحسن و قتادة و الربيع بن أنس نحوه، وقال الحسن أيضاً و السدي: السيئة الكبيرة من الكبائر، و قال ابن جريج، عن مجاهد **﴿و أحاطت به خطيئته﴾** قال: بقلبه، و قال أبو هريرة وأبو وائل وعطاء و الحسن **﴿و أحاطت به خطيئته﴾** قال: أحاط به شركه، و عن الربيع بن خيثم **﴿و أحاطت به خطيئته﴾** قال الذي يموت على خطاياه من قبل أنْ يتوب، و عن السدي و أبي رزين نحوه، و قال أبو العالية ومجاهد و الحسن في رواية عنهما، و قتادة و الربيع بن أنس **﴿و أحاطت به خطيئته﴾** الموجبة الكبيرة، و كل هذه الأقوال متقاربة في المعنى، و الله أعلم.

و يذكر ههنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومُحَقَّرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يُهلكنه، و إن رسول الله ﷺ ضَرَب لهم مثلاً كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، و الرجل يجيء بالعود حتى جمعوا سواداً، و أجّجوا ناراً فأنضجوا ما قذفوا فيها».

٨٢- قوله تعالى **﴿و الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾**، يروى عن ابن عباس قال: أي من آمن بما كفرتم و عمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها، يخبرهم أن الثواب بالخير و الشر مقيم على أهله أبداً لا انقطاع له.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣) ﴾

٨٣- يذكّر تبارك و تعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر، و أخذه ميثاقهم على ذلك و أنهم تولّوا عن ذلك، كله، و أعرضوا قصداً و عمداً وهم يعرفونه، و يذكرونه، فأمرهم تعالى أن يعبدوه و لا يشركوا به شيئاً،

وبهذا أمر جميع خلقه، و لذلك خلقهم كما قال تعالى: **﴿و ما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾** و قال تعالى: **﴿و لقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾** و هذا هو أعلى الحقوق و أعظمها، و هو حق الله تبارك و تعالى أن يُعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين وآكدهم و أولاهم بذلك حق الوالدين، و لهذا يَقْرِن تبارك و تعالى بين حقه و حق الوالدين، كما قال تعالى: **﴿أن اشكر لي و لوالديك إلي المصير﴾** و قال تبارك و تعالى: **﴿و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه و بالوالدين إحساناً﴾** إلى أن قال **﴿و آت ذا القربى حقه و المسكين و ابن السبيل﴾** و في الصحيحين عن ابن مسعود، قلت: يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أي ؟ قال «بر الوالدين» قلت: ثم أي ؟ قال «الجهاد في سبيل الله» و لهذا جاء في الحديث الصحيح أن رجلاً قال: يا رسول الله من أبر؟ قال «أمك» قال: ثم من ؟ قال «أمك» قال: ثم من ؟ قال «أباك، ثم أدناك ثم أدناك»[1]. و قوله تعالى: **﴿لا تعبدون إلا الله﴾** قال الزمخشري خبر بمعنى الطلب و هو آكد، و قيل كان أصله **﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾** كما قرأها بعض السلف، فحذفت أن فارتفع، و حكي عن أبي و ابن مسعود أنهما قرآها **﴿لا تعبدوا إلا الله﴾** و نقل هذا التوجيه القرطبي في تفسيره عن سيبويه. قال: و اختاره الكسائي و الفراء. قال **﴿و اليتامى﴾** و هم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء، **﴿و المساكين﴾**: الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم و أهليهم، و سيأتي الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء التي أمرنا الله تعالى بها صريحاً في قوله **﴿و اعبدوا الله و لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾** الآية، و قوله تعالى **﴿و قولوا للناس حسناً﴾** أي كلموهم طيباً، و لينوا لهم جانباً، و يدخل في ذلك الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر بالمعروف، كما قال الحسن البصري في قوله تعالى **﴿و قولوا للناس حسناً﴾** فالحُسنُ من القول: يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر و يحلم و يعفو و يصفح، و يقول للناس: حسناً كما قال الله، و هو كل خلق حسن رضيه الله.

و روى الإمام أحمد: عن أبي ذر ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال «لا تَحقِرَنَّ من المعروف شيئاً، و إن لم تجد فالقَ أخاك بوجهٍ منطلق» وأخرجه مسلم في صحيحه، و ناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس: حسناً بعدما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين طرفي الإحسان: الفعلي والقولي، ثم أكد الأمر بعبادته و الإحسان إلى الناس بالمتعيِّن من ذلك و هو الصلاة و الزكاة، فقال **﴿و أقيموا الصلاة و آتوا الزكاة﴾** و أخبرأنهم تولوا عن ذلك كله، أي تركوه وراء ظهورهم و أعرضوا عنه على عمد بعد العلم به إلا القليل منهم، و قد أمر الله هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء بقوله **﴿و اعبدوا الله و لا تشركوا بالله شيئاً و بالوالدين إحساناً و بذي القربى واليتامى و المساكين و الجار ذي القربى و الجار الجنب و الصاحب بالجنب و ابن السبيل و ما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾** فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها، و لله الحمد و المنة.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم

(١) رواه أحمد (٥/ ٣، ٥)، و البخاري في الأدب المفرد (٣) و أبو داود (١٥٣٩)، و الترمذي (١٩٥٩) لكن لفظه: «ثم أباك، ثم الأقرب فالأقرب» و سنده حسن، أما «أدناك ثم أدناك» فوردت في حديث أحمد (٢/ ٢٢٦)، و الطبراني و أبي يعلى و الحاكم و لفظه: «بر أمك وأباك، و أختك و أخاك، ثم أدناك أدناك» و هو صحيح.

بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦) ﴾

٨٤، ٨٥، ٨٦- يقول تبارك و تعالى مُنكراً على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة، و ما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس و الخزرج، و ذلك أن الأوس و الخزرج و هم الأنصار كانوا في الجاهلية عباد أصنام، و كانت بينهم حروب كثيرة، و كانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع، و بنو النضير: حلفاء الخزرج، و بنو قريظة: حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم، قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه، و قد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر، و ذلك حرام عليهم في دينهم و نص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم وينتبهون ما فيها من الأثاث و الأمتعة و الأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكّوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة، و لهذا قال تعالى: **﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾** و لهذا قال تعالى: **﴿و إذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم و لا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾** أي لا يقتل بعضكم بعضاً و لا يُخرجه من منزله و لا يُظاهر عليه، كما قال تعالى: **﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم﴾** و ذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة، كما قال عليه الصلاة و السلام «مثل المؤمنين في توادّهم و تراحمهم و تواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تَداعى له سائر الجسد بالحمى و السهر» و قوله تعالى: **﴿ثم أقررتم و أنتم تشهدون﴾** أي ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق و صحته و أنتم تشهدون به، روي عن ابن عباس **﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم و تُخرجون فريقاً منكم من ديارهم﴾** الآية، قال: أنبأهم الله بذلك من فعلهم، و قد حرّم عليهم في التوراة سفك دمائهم، و افترض عليهم فيها فداء أسراهم، فكانوا فريقين: طائفة منهم بنو قينقاع و هم حلفاء الخزرج و النضير، و قريظة و هم حلفاء الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس و الخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، و خرجت النضير وقريظة مع الأوس، يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى تسافكوا دماءهم بينهم، و بأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم و ما لهم، و الأوس و الخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان و لا يعرفون جنة و لا ناراً و لا بعثاً و لا قيامة و لا كتاباً و لا حلالاً و لا حراماً، فإذا وضعت الحرب أوزارها، افتدوا أسراهم تصديقاً لما في التوراة و أخذاً به بعضهم من بعض، يفتدي بنو قينقاع ما كان من أسراهم في أيدي الأوس، و يفتدي النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم، و يطلبون ما أصابوا من دمائهم، و قتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم مظاهرة لأهل الشرك عليهم، يقول الله تعالى ذكره حيث أنبأهم بذلك **﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب و تكفرون ببعض﴾** أي تفادونهم بحكم التوراة وتقتلونهم، و في حكم التوراة أن لا يُقتل و لا يُخرج من داره، و لا يُظاهر عليه مَن يشرك بالله و يعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض الدنيا؟ ففي ذلك من فعلهم مع الأوس و الخزرج فيما بلغني نزلت هذه القصة.

و الذي أرشدت إليه الآية الكريمة، و هذا السياق، ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها ومخالفة شرعها، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة، فلهذا لا يُؤتمنون على ما فيها و لا على نقلها، و لا يُصدقون فيما كتموه من صفة رسول الله ﷺ و نعته و مبعثه و مخرجه و مهاجره، و غير ذلك من شؤونه التي أخبرت بها الأنبياء قبله عليهم الصلاة والسلام، و اليهود عليهم لعائن الله يتكاتمونه بينهم، و لهذا قال تعالى: **﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا﴾** أي بسبب مخالفتهم شرع الله و أمره **﴿و يوم القيامة يُرَدُّون إلى أشد العذاب﴾** جزاء على مخالفتهم كتاب الله الذي بأيديهم **﴿و ما الله بغافل عما تعملون ۞ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة﴾** أي استحبوها على الآخرة و اختاروها **﴿فلا يخفف عنهم العذاب﴾** أي لا يفتر عنهم ساعة واحدة **﴿و لا هم ينصرون﴾** أي و ليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي، و لا يُجيرهم منه.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ(٨٧) ﴾

٨٧- ينعت تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعتو و العناد، و المخالفة و الاستكبار على الأنبياء، و أنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب و هو التوراة، فحرفوها و بدلوها و خالفوا أوامرها و أولوها، وأرسل الرسل و النبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته كما قال تعالى: **﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى و نور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا و الربانيون و الأحبار بما اسْتُحْفِظوا من كتاب الله و كانوا عليه شهداء﴾** الآية: و لهذا قال تعالى: **﴿و قفينا من بعده بالرسل﴾** قال السدي عن أبي مالك: أتبعنا، و قال غيره: أردفنا، والكل قريب كما قال تعالى: **﴿ثم أرسلنا رسلنا تترى﴾** حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، و لهذا أعطاه الله من البينات و هي المعجزات، قال ابن عباس: من إحياء الموتى، و خلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، و إبراء الأسقام، و إخباره بالغيوب، وتأييده **﴿بروح القدس﴾** و هو جبريل عليه السلام ما يدلهم على صدقة فيما جاءهم به، فاشتد تكذيب بني إسرائيل له، و حسدهم و عنادهم لمخالفة التوراة في البعض، كما قال تعالى إخباراً عن عيسى: **﴿و لأُحِلَّ لكم بعض الذي حُرِّم عليكم و جئتكم بآية من ربكم﴾** الآية، فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة، فريقاً يكذبونه، و فريقاً يقتلونه، و ما ذاك إلا لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم و آرائهم، و بالإلزام بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها، فلهذا كان ذلك يشق عليهم فكذبوهم، و ربما قتلوا بعضهم، و لهذا قال تعالى: **﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم و فريقاً تقتلون﴾**.

و الدليل على أن روح القدس هو جبريل، كما نص عليه ابن مسعود في تفسير هذه الآية، و تابعه على ذلك ابن عباس و محمد بن كعب و إسماعيل بن أبي خالد و السدي و الربيع بن أنس و عطية العوفي و قتادة مع قوله تعالى: **﴿نزل به الروح الأمين ۞ على قلبك لتكون من المنذرين﴾** ما رواه البخاري عن أبي هريرة و عن عائشة: أن رسول الله ﷺ، وضع لحسان بن ثابت منبراً في المسجد، فكان يُنافح عن رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ «اللهم أيِّدْ حسانَ بروح القدس كما نافح عن نبيك» فهذا من البخاري تعليقاً، و قد رواه أبو داود و الترمذي.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة: أن عمر بن الخطاب مر بحسان و هو ينشد الشعر في المسجد، فلحظ إليه فقال: قد كنت أُنشد فيه و فيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله، أسمعت رسول اللهﷺ يقول: «أَجِبْ عني، اللهم أيده بروح القدس» فقال: اللهم نعم، و في بعض الروايات: أن رسول اللهﷺ قال لحسان: «اهجهم - أو هاجهم - و جبريل معك» و في شعر حسان قوله:

وجبريلُ رسولُ الله فينا ... وروحُ القُدُسِ ليس به خفاء

و في صحيح ابن حبان، عن ابن مسعود: أن رسول اللهﷺ قال: «إن روح القدس نَفَثَ في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها و أجلها، فاتقوا الله و أَجْمِلوا في الطلب».

و قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿فَفَرِيقاً كذبتم و فريقاً تقتلون﴾ إنما لم يقل و فريقاً قتلتم، لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضاً، لأنهم حاولوا قتل النبيﷺ بالسم و السحر، و قد قالﷺ في مرض موته: «ما زالت أَكْلَةُ خيبر تعاودني، فهذا أوان انقطاع أبهري» (قلت) و هذا الحديث في صحيح البخاري و غيره.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾

٨٨- روي عن ابن عباس ﴿و قالوا قلوبنا غلف﴾ أي في أَكِنَّة، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ أي لا تفقه، و قال مجاهد: ﴿و قالوا قلوبنا غلف﴾ عليها غشاوة و قال عكرمة: عليها طابع، و قال أبو العالية: أي لا تفقه، و قال السدي: يقولون عليها غلاف، و هو الغطاء، و قرأ ابن عباس غلف، بضم اللام، و هو جمع غلاف، أي قلوبنا أوعية لكل علم فلا نحتاج إلى علمك، قاله ابن عباس وعطاء ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ أي طردهم الله و أبعدهم من كل خير ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ قال قتادة: معناه لا يؤمن منهم إلا القليل ﴿و قالوا قلوبنا غلف﴾ هو كقوله ﴿و قالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله غلف، قال: تقول قلبي في غلاف فلا يَخْلُص إليه مما تقول شيء، و قرأ ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ و هذا الذي رجحه ابن جرير.

قال تعالى: ﴿بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون﴾ أي ليس الأمر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها، كما قال في سورة النساء: ﴿و قولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ وقد اختلفوا في معنى قوله: ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ و قوله: ﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ فقال بعضهم: فقليل من يؤمن منهم، و قيل: فقليل إيمانهم، بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد و الثواب و العقاب، و لكنه إيمان لا ينفعهم لأنه مغمور بما كفروا به من الذي جاءهم به محمدﷺ، و قال بعضهم: إنما كانوا غير مؤمنين بشيء، وإنما قال: فقليلاً ما يؤمنون و هم بالجميع كافرون، كما تقول العرب: قلما رأيت مثل هذا قط، تريد ما رأيت مثل هذا قط.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾

٨٩- يقول تعالى: ﴿و لما جاءهم﴾ يعني اليهود، ﴿كتاب من عند الله﴾ و هو القرآن الذي أنزل على محمدﷺ ﴿مصدق لما معهم﴾ يعني التوراة، و قوله ﴿و كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ أي وقد كانوا من قبل

مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتلَ عاد و إرم، كما روى محمد بن إسحاق عن أشياخ من الأنصار: قالوا: فينا و الله و فيهم، يعني في الأنصار و في اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعني: ﴿و لما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم و كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ قالوا: كنا قد علوناهم قهراً دهراً في الجاهلية، و نحن أهل شرك، و هم أهل كتاب، و هم يقولون: إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أَظَلَّ زمانه فنقتلكم معه قتل عاد و إرم، فلما بعث الله رسوله من قريش و اتبعناه، كفروا به، يقول الله تعالى: ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾.

و قال أبو العالية: كانت اليهود تستنصر بمحمدﷺ على مشركي العرب، يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا حتى نعذب المشركين و نقتلهم. فلما بعث الله محمداًﷺ و رأوا أنه من غيرهم، كفروا به حسداً للعرب و هم يعلمون أنه رسول اللهﷺ، فقال الله تعالى: ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾.

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) ﴾

٩٠- قال مجاهد: ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم﴾ يهود شروا الحق بالباطل و كتمان ما جاء به محمدﷺ بأن يبينوه، و قال السدي ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم﴾ يقول: باعوا به أنفسهم، يقول: بئسما اعتاضوا لأنفسهم فرضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمدﷺ عن تصديقه و موازرته و نصرته، و إنما حملهم على ذلك البغي و الحسد و الكراهية ﴿أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾ ولا حسد أعظم من هذا، ﴿فباءوا بغضب على غضب﴾ قال ابن عباس: في الغضب على الغضب، فغضب عليهم فيما كانوا ضيّعوا من التوراة وهي معهم، و غضب عليهم بكفرهم بهذا النبي الذي بعث الله إليهم (قلت) و معنى ﴿باءوا﴾ استوجبوا واستحقوا واستقروا بغضب على غضب، و قال أبو العالية: غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل و عيسى، ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمدﷺ و بالقرآن، و عن عكرمة و قتادة مثله.

و قوله تعالى: ﴿و للكافرين عذاب مهين﴾ لَمَّا كان كفرهم سببه البغي و الحسد، و منشأ ذلك التكبر، قوبلوا بالإهانة و الصغار في الدنيا و الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ أي صاغرين حقيرين ذليلين راغمين، و قد روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبيﷺ، قال: «يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذّر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصَّغَار، حتى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له: بولس، تعلوهم نارُ الأنيار، يسقون من طينة الخَبَال عُصَارة أهل النار».

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١) وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ

﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) ﴾

٩١- يقول تعالى: **﴿و إذا قيل لهم﴾** أي لليهود و أمثالهم من أهل الكتاب **﴿آمنوا بما أنزل الله﴾** على محمد ﷺ و صدقوه و اتبعوه **﴿قالوا نؤمن بما أنزل علينا﴾** أي يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة و الإنجيل ولا نُقِرُّ إلا بذلك **﴿و يكفرون بما وراءه﴾** يعني بما بعده **﴿و هو الحق مصدقاً لما معهم﴾** أي و هم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ **﴿الحق مصدقاً لما معهم﴾** أي في حال تصديقه لما معهم من التوراة و الإنجيل، فالحجة قائمة عليهم بذلك، كما قال تعالى: **﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾** ثم قال تعالى: **﴿فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾** أي إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم، فلم قتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم و الحكم بها و عدم نسخها، و أنتم تعلمون صدقهم؟! قتلتموهم بغياً وعناداً و استكباراً على رسل الله، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء و الآراء و التشهي، كما قال تعالى: **﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم و فريقاً تقتلون﴾**.

٩٢- **﴿و لقد جاءكم موسى بالبينات﴾** أي بالآيات الواضحات و الدلائل القاطعات على أنه رسول الله، و أنه لا إله إلا الله، و الآيات البينات هي: الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم و العصا و اليد، و فرق البحر و تظليلهم بالغمام و المن و السلوى و الحَجَر، و غير ذلك من الآيات التي شاهدوها، **﴿ثم اتخذتم العجل﴾** أي معبوداً من دون الله في زمان موسى و أيامه، و قوله **﴿من بعده﴾** أي من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله عز وجل، كما قال تعالى: **﴿و اتخذ قوم موسى من بعده من حُلِيِّهم عجلاً جسداً له خوار﴾**، **﴿و أنتم ظالمون﴾**، أي و أنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل، و أنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله كما قال تعالى: **﴿و لما سُقِطَ في أيديهم و رأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا و يغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾**.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣) ﴾

٩٣- يُعدِّد سبحانه و تعالى عليهم خطأهم، و مخالفتهم للميثاق، و عتوهم و إعراضهم عنه، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه، ثم خالفوه و لهذا **﴿قالوا سمعنا و عصينا﴾** و قد تقدم تفسير ذلك. **﴿و أشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾** عن قتادة قال: أشربوا حُبَّه حتى خَلُص ذلك إلى قلوبهم، و كذا قال أبو العالية و الربيع بن أنس.

و قوله **﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾** أي بئسما تعتمدونه في قديم الدهر و حديثه من كفركم بآيات الله، و مخالفتكم الأنبياء ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد ﷺ و هذا أكبر ذنوبكم و أشد الأمر عليكم إذ كفرتم بخاتم الرسل و سيد الأنبياء و المرسلين، المبعوث إلى الناس أجمعين، فكيف تدّعون لأنفسكم الإيمان، و قد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة: من نقضكم المواثيق، و كفركم بآيات الله، و عبادتكم العجل من دون الله؟.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

٩٤- روي عن ابن عباس قال: يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: **﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾** أي ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب، فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ.

٩٥- **﴿و لن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم و الله عليم بالظالمين﴾** أي بعلمهم بما عندهم من العلم بك و الكفر بذلك، و لو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات. و روى عبد الرزاق عن ابن عباس: لو تمنى يهود الموت لماتوا. و روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس قال: لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه، وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس، و روى ابن جرير في تفسيره عن النبي ﷺ: قال «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، و لرأوا مقاعدهم من النار، و لو خرج الذين يُباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً و لا مالاً» ورواه الإمام أحمد. و هذا الذي فسر به ابن عباس الآية، هو المتعين و هو الدعاء على أي الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة، و نقله ابن جرير عن قتادة و أبي العالية و الربيع بن أنس رحمهم الله تعالى، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الجمعة **﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين و لا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم و الله عليم بالظالمين ❁ قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب و الشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾** فهم عليهم لعائن الله تعالى، لما زعموا أنهم أبناء الله و أحباؤه، و قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوداً أو نصارى، دُعُوا إلى المباهلة و الدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين، لما نكلوا عن ذلك، علم كل أحد إنهم ظالمون، لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه، لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخروا، عُلم كذبهم، و هذا كما دعا رسول الله وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة و عتوهم و عنادهم إلى المباهلة، فقال: **﴿فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعُ أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾** فلما رأوا ذلك، قال بعض القوم لبعض: و الله لئن باهلتم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف، فعند ذلك جنحوا للسلم، و بذلوا الجزية عن يد و هم صاغرون، فضربها عليهم، وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح أميناً، و مثل هذا المعنى أو قريب منه قول الله تعالى لنبيه أن يقول للمشركين **﴿قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً﴾** أي من كان في الضلالة منا و منكم فزاده الله مما هو فيه، و مدّ له واستدرجه.

٩٦- **﴿و لتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾** أي على طول العمر لما يعلمون من مآلهم السيء، و عاقبتهم عند الله الخاسرة، لأن الدنيا سجن المؤمن، و جنة الكافر، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم،

و ما يجاذرون منه واقع بهم لا محالة، حتى و هم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم، و هذا من باب عطف الخاص على العام، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿و من الذين أشركوا﴾** قال: الأعاجم، و كذا رواه الحاكم. وقال الحسن البصري: المنافق أحرص الناس، وأحرص من المشرك على حياة، يود أحدهم أي يود أحد اليهود، كما يدل عليه نظم السياق، و قال أبو العالية: يود أحدهم أي أحد المجوس، و هو يرجع إلى الأول **﴿لو يعمر ألف سنة﴾**، و عن ابن عباس في قوله **﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾** قال هو قول الأعاجم: هزارسال نوروز و مهرجان، و قال مجاهد **﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾** قال: حَببت إليهم الخطيئة طول العمر.

﴿و ما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر﴾ أي و ما هو بمُنجّيه من العذاب، و ذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت، فهو يحب طول الحياة، و أن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي، بما ضيع ما عنده من العلم، و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذه الآية: يهود أحرص على الحياة من هؤلاء، و قد ودّ هؤلاء لو يعمر أحدهم ألف سنة، و ليس ذلك بمزحزحه من العذاب لو عُمّر، كما أن عمر إبليس لم ينفعه إذ كان كافراً، **﴿و الله بصير بما يعملون﴾** أي خبير بما يعمل عباده من خير و شر، و سيجازي كل عامل بعمله.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (٩٨)﴾

٩٧- قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، و أن ميكائيل ولي لهم، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك، فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك، من أجل مناظرة جرت بينهم و بين رسول الله ﷺ في أمر نبوته. روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي و اتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: و الله على ما نقول وكيل، قال «هاتوا» قالوا: فأخبرنا عن علامة النبي. قال: «تنام عيناه و لا ينام قلبه» قالوا: أخبرنا كيف تؤنّث المرأة؟ و كيف يذكر الرجل؟ قال: يلتقي الماءان، فإذا علا ماءُ الرجل ماء المرأة أذكرتْ، و إذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثتْ» قالوا: أخبرنا ما حرَّم إسرائيل على نفسه؟ قال: «كان يشتكي عرق النسا، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا و كذا» قال أحمد: قال بعضهم: يعني الإبل فحرم لحومها، قالوا: صدقت، قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: «ملكٌ من ملائكة الله عز وجل موكلٌ بالسحاب بيديه أو في يديه مِخْراقٌ من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله تعالى» قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: «صوته» قالوا: صدقت، قالوا: إنما بقيت واحدة و هي التي نتابعك إن أخبرتنا بها، إنه ليس من نبي إلا و له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: «جبريل عليه السلام» قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب و القتال والعذاب، عدونا لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة و القطر و النبات لكان، فأنزل الله تعالى: **﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾** إلى آخر الآية، و رواه الترمذي و النسائي.

و عن أنس بن مالك، قال: سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ و هو في أرض يخترف فأتى

النبيﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة، و ما أول طعام أهل الجنة، وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «أخبرني بهذه جبرائيل آنفاً» قال: جبريل؟ قال: «نعم» قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: **﴿من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك﴾** «و أما أول أشراط الساعة، فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، و أما أول طعام يأكله أهل الجنة، فزيادة كبد الحوت، و إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة، نزع الولد، و إذا سبق ماء المرأة نزعت» قال: أشهد أن لا إله إلا الله و أنك رسول الله. يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يَبهتوني، فجاءت اليهود، فقال له رسول اللهﷺ: «أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟» قالوا: خيرُنا و ابنُ خيرنا و سيدنا و ابن سيدنا، قال: «أرأيتم إن أسلم» قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، و أشهد أن محمداً رسول الله. قالوا: هو شرُّنا و ابن شرنا و انتقصوه، فقال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله - انفرد به البخاري من هذا الوجه، و قد أخرجاه من وجه آخر عن أنس بنحوه، و في صحيح مسلم عن ثوبان مولى رسول اللهﷺ قريب من هذا السياق كما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى، و عن عكرمة أنه قال: إن جبريل اسمه عبد الله، و ميكائيل اسمه عبد الله، إيل: الله، و عن ابن عباس مثله سواء، و كذا قال غير واحد من السلف كما سيأتي قريباً، و من الناس من يقول: إيل: عبارة عن عبد، و الكلمة الأخرى هي اسم الله، لأن كلمة إيل لا تتغير في الجميع.

و أما تفسير الآية فقوله تعالى: **﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾** أي من عادى جبرائيل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم، على قلبك من الله بإذنه له في ذلك، فهو رسول من رسل الله ملكي، و من عادى رسولاً فقد عادى جميع الرسل، كما أن من آمن برسول يلزمه الإيمان بجميع الرسل، و كما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل، كما قال تعالى: **﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله و يريدون أن يفرقوا بين الله و رسله و يقولون نؤمن ببعض و نكفر ببعض﴾** الآيتين، فحكم عليهم بالكفر المحقق إذا آمنوا ببعض الرسل و كفروا ببعضهم، و كذلك من عادى جبرائيل فإنه عدو لله، لأن جبرائيل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه و إنما ينزل بأمر ربه، كما قال: **﴿و ما نتنزل إلا بأمر ربك﴾** الآية، و قال تعالى: **﴿و إنه لتنزيل رب العالمين ۞ نزل به الروح الأمين ۞ على قلبك لتكون من المنذرين﴾**، و قد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، قال: قال رسول اللهﷺ: «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب» و لهذا غضب الله لجبرائيل على من عاداه، فقال تعالى: **﴿من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه﴾** أي من الكتب المتقدمة: **﴿و هدى و بشرى للمؤمنين﴾** أي هدى لقلوبهم و بشرى لهم بالجنة، و ليس ذلك إلا للمؤمنين، كما قال تعالى: **﴿قل هو للذين آمنوا هدى و شفاء﴾** الآية، و قال تعالى: **﴿و ننزل من القرآن ما هو شفاء و رحمة للمؤمنين﴾** الآية.

٩٨- ثم قال تعالى: **﴿من كان عدواً لله و ملائكته و رسله و جبريل و ميكال فإن الله عدو للكافرين﴾** يقول تعالى من عاداني و ملائكتي و رسلي - و رسله تشمل رسله من الملائكة و البشر- كما قال تعالى: **﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً و من الناس﴾**. **﴿و جبريل و ميكال﴾** و هذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا في الملائكة في عموم الرسل، ثم خُصصا بالذكر لأن السياق في الانتصار لجبرائيل، وهو السفير بين الله

وأنبيائه، و قرن معه ميكائيل في اللفظ، لأن اليهود زعموا أن جبرائيل عدوهم، و ميكائيل وليهم، فأعلمهم الله تعالى أن من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر و عادى الله أيضاً، و لأنه أيضاً ينزل على أنبياء الله بعض الأحيان، كما قرن برسول اللهﷺ في ابتداء الأمر، و لكن جبرائيل أكثر و هي وظيفته، وميكائيل موكل بالنبات و القطر، هذا بالهدى و هذا بالرزق، كما أن إسرافيل موكل بالنفخ في الصور للبعث يوم القيامة، ولهذا جاء في الصحيح أن رسول اللهﷺ كان إذا قام من الليل يقول: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات و الأرض، عالم الغيب و الشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

و قوله تعالى: ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾ فيه إيقاع المظهر مكان المضمر، حيث لم يقل: فإنه عدو بل قال: ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾ و إنما أظهر الله هذا الاسم ههنا لتقرير هذا المعنى و إظهاره و إعلامهم أن من عادى لله ولياً فقد عادى الله، و من عادى الله فإن الله عدو له، و من كان الله عدوه فقد خسر الدنيا و الآخرة، كما تقدم الحديث «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالمحاربة».

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) ﴾

٩٩- قال الإمام أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى: ﴿و لقد أنزلنا إليك آيات بينات﴾ الآية، أي أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات، دالات على نبوتك، و تلك الآيات هي ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود، و مكنونات سرائر أخبارهم و أخبار أوائلهم من بني إسرائيل، و النبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم و علماؤهم، و ما حرّفه أوائلهم و أواخرهم و بدلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة فأطلع الله في كتابه الذي أنزله على نبيه محمدﷺ، فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف من نفسه و لم يدْعه إلى هلاكها الحسد و البغي، إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمدﷺ من الآيات البينات التي وصف من غير تعلم تعلمه من بشر، و لا أخذ شيئاً منه عن آدمي، كما قال الضحاك عن ابن عباس ﴿و لقد أنزلنا إليك آيات بينات﴾ يقول: فأنت تتلوه عليهم و تخبرهم به غدوة و عشية و بين ذلك، وأنت عندهم أمي لم تقرأ كتاباً، و أنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه، يقول الله تعالى في ذلك عبرة وبيان،

وعليهم حجة لو كانوا يعلمون.

١٠٠-و قال الحسن البصري: في قوله ﴿بل أكثرهم لايؤمنون﴾ قال: نعم، ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه، يعاهدون اليوم وينقضون غداً. و قال السدي: لا يؤمنون بما جاء به محمدﷺ. وقال قتادة: نبذه فريق منهم، أي نقضه فريق منهم، وقال ابن جرير: أصل النبذ الطرح والإلقاء، و منه سمي اللقيط منبوذاً، ومنه سمي النبيذ، وهو التمر والزبيب إذا طرحا في الماء، قلت: فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهود التي تقدم الله إليهم في التمسك بها والقيام بحقها، ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، الذي في كتبهم نعته وصفته وأخباره، وقد أمروا فيها باتباعه ومؤازرته ونصرته، كما قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ الآية.

١٠١-وقال ههنا ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم﴾ الآية، أي طرح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم مما فيه البشارة بمحمدﷺ وراء ظهورهم، أي تركوها كأنهم لايعلمون ما فيها، وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه، ولهذا أرادوا كيداً برسول اللهﷺ وسحروه في مشط و مشاقة و جف طلعة ذكر تحت راعوثة ببئر أروان، و كان الذي تولى ذلك رجل منهم يقال له: لبيد بن الأعصم لعنه الله و قبحه، فأطلع الله على ذلك رسولهﷺ وشفاه منه وأنقذه، كما ثبت ذلك مبسوطاً في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، كما سيأتي بيانه. و قال قتادة في قوله ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ قال: إن القوم كانوا يعلمون و لكنهم نبذوا علمهم وكتموه و جحدوا به. و روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: كان آصف كاتب سليمان، و كان يعلم الاسم الأعظم، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجته الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل بها. قال: فأكفره جهال الناس و سبوه، ووقف علماء الناس، فلم يزل جهال الناس يسبونه حتى أنزل الله على محمدﷺ ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾ وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾ قال: كانت الشياطين تستمع الوحي فما سمعوا من كلمة زادوا فيها مائتين مثلها، فأرسل سليمان عليه السلام إلى ما كتبوا من ذلك، فلما توفي سليمان وجدته الشياطين و علمته الناس وهو السحر، وقال سعيد بن جبير: كان سليمان يتتبع ما في أيدي الشياطين من السحر فيأخذه منهم فيدفنه تحت كرسيه في بيت خزانته فلم تقدر الشياطين أن يصلوا إليه فدنت إلى الإنس فقالوا لهم أتدرون ما العلم الذي كان سليمان يسخر به الشياطين والرياح وغير ذلك؟ قالوا: نعم، قالوا: فإنه في بيت خزانته وتحت كرسيه فاستثار به الإنس واستخرجوه وعلموا بها، فقال أهل الحجاز: كان سليمان يعلم بهذا و هذا سحر، فأنزل الله تعالى على نبيه محمدﷺ براءة سليمان عليه السلام فقال تعالى: ﴿و اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾ وقال محمد بن إسحاق بن يسار: عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود عليه السلام، فكتبوا أصناف السحر، من كان يحب أن يبلغ كذا فليفعل كذا وكذا حتى إذا صنفوا أصناف السحر، جعلوه في كتاب ثم ختموه بخاتم على نقش خاتم سليمان، وكتبوا في عنوانه: هذا ما كتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم، ثم دفنوه تحت كرسيه واستخرجته بعد ذلك بقايا بني إسرائيل حتى أحدثوا ما أحدثوا، فلما عثروا عليه قالوا: والله ما كان ملك سليمان إلا بهذا،

فأفشوا السحر في الناس فتعلموه وعلموه، فليس هو في أحد أكثر منه في اليهود لعنهم الله، فلما ذكر رسول الله ﷺ فيما نزل عليه من الله سليمان بن داود وعدَّه فيمن عد من المرسلين، قال من كان بالمدينة من اليهود: ألا تعجبون من محمد يزعم أن ابن داود كان نبياً والله ما كان إلا ساحراً. وأنزل الله في ذلك من قولهم **﴿و اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان و ما كفر سليمان و لكن الشياطين كفروا﴾** الآية، وقول الحسن البصري رحمه الله وكان السحر قبل زمان سليمان بن داود. صحيح لا شك فيه، لأن السحرة كانوا في زمان موسى عليه السلام وسليمان بن داود بعده، كما قال تعالى **﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى﴾** الآية، ثم ذكر القصة بعدها وفيها **﴿و قتل داود جالوت و آتاه الله الملك و الحكمة﴾** وقال قوم صالح وهم قبل إبراهيم الخليل عليه السلام لنبيهم صالح **﴿إنما أنت من المسحَّرين﴾** أي المسحورين على المشهور.

وقوله تعالى **﴿وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت و ما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء و زوجه﴾** اختلف الناس في هذا المقام، فذهب بعضهم إلى أن «ما» نافية أعني التي في قوله: **﴿و ما أنزل على الملكين﴾** قال القرطبي: ما نافية و معطوف على قوله **﴿و ما كفر سليمان﴾** ثم قال **﴿ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر و ما أنزل على الملكين﴾** و ذلك أن اليهود كانوا يزعمون أنه نزل به جبريل و ميكائيل فأكذبهم الله و جعل قوله **﴿هاروت وماروت﴾** بدلا من الشياطين، قال: وصح ذلك إما لأن الجمع يطلق على الإثنين كما في قوله تعالى: **﴿فإن كان له إخوة﴾** أو لكونهما لهما أتباع، أو ذكرا من بينهم لتمردهما، تقدير الكلام عنده: يعلمون الناس السحر ببابل هاروت و ماروت. ثم قال: وهذا أولى ما حملت عليه الآية و أصح ولايُلْتفت إلى ما سواه، و روى ابن جرير عن الربيع بن أنس في قوله **﴿و ما أنزل على الملكين﴾** قال: ما أنزل الله عليهما السحر، قال ابن جرير: فتأويل الآية على هذا **﴿و اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾** من السحر و ما كفر سليمان و لا أنزل الله السحر على الملكين، و لكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت و ماروت، فيكون قوله ببابل هاروت و ماروت من المؤخر الذي معناه المقدم، قال: فإنْ قال لنا قائل: كيف وجه تقديم ذلك؟ قيل وجه تقديمه أن يقال **﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾** من السحر وما كفر سليمان و ما أنزل الله السحر على الملكين، و لكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فيكون معنياً بالملكين جبريل وميكائيل عليهما السلام، لأن سحرة اليهود فيما ذكركانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود فأكذبهم الله بذلك، و أخبر نبيه محمداً ﷺ أن جبريل و ميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين و أنها تعلم الناس ذلك ببابل، و أن الذين يعلمونهم ذلك رجلان: اسم أحدهما هاروت، و اسم الآخر ماروت، فيكون هاروت و ماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس و رداًعليهم. هذا لفظه بحروفه. وقال أبو العالية: لم ينزل عليهما السحر، يقول: علَّمَا الإيمان والكفر، فالسحر من الكفر، فهما ينهيان عنه أشد النهي، رواه ابن أبي حاتم، ثم شرع ابن جرير في رد هذا القول، و أن «ما» بمعنى الذي، و أطال القول في ذلك و ادعى أن هاروت و ماروت ملكان أنزلهما الله إلى الأرض و أَذِنَ لهما في تعليم السحر اختباراً لعباده وامتحاناً بعد أن بيَّنَ لعباده أن ذلك مما ينهى عنه ألسنة الرسل، وادعى أن هاروت و ماروت مطيعان في تعليم ذلك، لأنهما امتثلا ما أمرا به، و هذا الذي سلكه غريب

جداً، و أغرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن، كما زعمه ابن حزم.

و ذهب آخرون إلى الوقف على قوله ﴿يعلمون الناس السحر﴾ وما نافية، و روى ابن جرير عن القاسم بن محمد و سأله رجل عن قول الله ﴿يعلمون الناس السحر و ما أنزل على الملكين ببابل هاروت و ماروت﴾ فقال: الرجلان يعلمان الناس ما أنزل عليهما و يعلمان الناس ما لم ينزل عليهما، فقال القاسم: ما أبالي أيتهما كانت.

وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء، و أنهما أنزلا إلى الأرض، فكان من أمرهما ما كان، وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه الإمام أحمد في مسنده رحمه الله كما سنورده إن شاء الله[1] و على هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ما ورد من الدلائل على عصمة الملائكة أن هذين سبق في علم الله لهما هذا، فيكون تخصيصاً لهما فلا تعارض حينئذ كما سبق في علمه من أمر إبليس ما سبق، و في قول إنه كان من الملائكة لقوله تعالى ﴿و إذقلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك، مع أن شأن هاروت وماروت على ما ذكر أخف مما وقع من إبليس لعنه الله تعالى. و قد حكاه القرطبي عن علي وابن مسعود و ابن عباس و ابن عمر و كعب الأحبار و السدي والكلبي. و قد روي في قصة هاروت و ماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدي والحسن البصري و قتادة و أبي العالية والزهري و الربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم، و قصها خلق من المفسرن من المتقدمين والمتأخرين، و حاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، و ظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط و لا إطناب، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، و الله أعلم بحقيقة الحال.

و قوله تعالى: ﴿و ما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ روي عن ابن عباس قال: فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نهياه أشد النهي و قالا له: إنما نحن فتنة فلا تكفر، و ذلك أنهما علما الخير و الشر والكفر و الإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر، قال: فإذا أبى عليهما أمراه يأتي مكان كذا و كذا، فإذا أتاه عاين الشيطان فعلمه، فإذا تعلمه خرج منه النور، فنظر إليه ساطعاًفي السماء فيقول: يا حسرتاه، يا ويله ماذا صنع، وعن الحسن البصري أنه قال في تفسير هذه الآية: نعم أنزل الملكان بالسحر ليعلما الناس البلاء الذي أراد الله أن يبتلي به الناس، فأخذ عليهم الميثاق أن لا يعلما أحداً حتى يقولا: إنما نحن فتنة فلا تكفر، رواه ابن أبي حاتم، و قال قتادة نحوه. وأما الفتنة فهي المحنة و الاختبار، و كذلك قوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام حيث قال ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ أي ابتلاؤك و اختبارك وامتحانك ﴿تضل بها من تشاء و تهدي من تشاء﴾ و قد استدل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر، واستشهد له بالحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار عن عبدالله قال: «من أتى كاهناً أوساحراً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» و هذا إسناد صحيح و له شواهد أخر، و قوله تعالى: ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء و زوجه﴾ أي فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون به فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة، ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين، مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف، و هذا من صنيع الشياطين، كما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان ليضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه في الناس،

(١) ـ وهو حديث ضعيف لا يصح، بل هو مما أخذه ابن عمر عن كعب الأحبار، كما بين ابن كثير، و لذا فقد أعرضنا عن ذكر رواياته.

فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة، يجيء أحدهم فيقول: ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا، فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئاً. ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله قال: فيقربه ويدنيه ويلتزمه ويقول: نعم أنت» وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك، أو عقد أو بغضه أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة، والمرء عبارة عن الرجل وتأنيثه امرأة ويثنى كل منهما ولا يجمعان والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ قال سفيان الثوري: إلا بقضاء الله، وقال محمد بن إسحاق: إلا بتخلية الله بينه وبين ما أراد، وقال الحسن البصري ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ قال: نعم، من شاء الله سلطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يسلط ولا يستطيعون من أحد إلا بإذن الله، كما قال الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ أي يضرهم في دينهم وليس له نفع يوازي ضرره ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق﴾ أي ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول ﷺ لمن فعل فعلهم ذلك، أنه ما له في الآخرة من خلاق، قال ابن عباس ومجاهد والسدي: من نصيب، وعن قتادة ﴿ما له في الآخرة من خلاق﴾ قال: ولقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له في الآخرة، وقوله تعالى ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ❁ ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾ يقول تعالى: ﴿ولبئس﴾ البديل ما استبدلوا به من السحر، عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسول، لو كان لهم علم بما وعظوا به ﴿ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير﴾ أي ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم، لكان مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به، كما قال تعالى: ﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون﴾.

وقد استدل بقوله ﴿ولو أنهم آمنوا واتقوا﴾ من ذهب إلى تكفير الساحر، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وطائفة من السلف، وقيل: بل لا يكفر، ولكن حده ضرب عنقه، لما رواه الشافعي وأحمد بن حنبل عن بجالة بن عبدة يقول: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر، وقد أخرجه البخاري في صحيحه أيضاً، وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها، فأمرت بها، فقتلت، قال الإمام أحمد بن حنبل: صح عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ في قتل الساحر. وروى الترمذي من حديث جندب الأزدي أنه قال: قال رسول الله ﷺ «حدُّ الساحر ضربةٌ بالسيف» [1] وحمل الشافعي رحمه الله قصة عمر وحفصة على سحر يكون شركاً والله أعلم. وقال أبو عبد الله القرطبي: وعندنا أن السحر حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما يشاء، خلافاً للمعتزلة وأبي إسحاق الإسفراييني من الشافعية حيث قالوا: إنه تمويه وتخييل، قال: ومن السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة، والشعوذي البريد لخفة سيره، قال القرطبي: ومنه ما يكون كلاماً يحفظ ورقى من أسماء الله تعالى، وقد يكون من عهود الشياطين، ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك، قال: وقوله عليه السلام: «إن من البيان لسحراً» يحتمل أن يكون مدحاً كما تقوله طائفة، ويحتمل أن يكون ذماً للبلاغة قال: وهذا أصح، قال لأنها تصوب الباطل حتى توهم السامع أنه حق، كما قال عليه

---

(١) الصحيح أنه موقوف على جندب رضي الله عنه

الصلاة والسلام: «فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له» الحديث.

(فصل) و قد ذكر الوزير أبو المظفر يحي بن محمد بن هبيرة رحمه الله في كتابه «الإشراف على مذاهب الأشراف» باباً في السحر فقال: أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أباحنيفة فإنه قال: لا حقيقة له عنده، واختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله، فقال أبو حنيفة و مالك و أحمد يكفر بذلك. و قال الشافعي رحمه الله: إذا تعلم الساحر قلنا له صف لنا سحرك، فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر، قال ابن هبيرة: وهل يقتل بمجرد فعله و استعماله؟ فقال مالك و أحمد: نعم، و قال الشافعي و أبو حنيفة: لا، فأما إن قتل بسحره إنساناً فإنه يقتل عند مالك و الشافعي و أحمد، و قال أبو حنيفة: لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك أو يقر بذلك في حق شخص معين، وإذا قتل فإنه يقتل حداً عندهم إلا الشافعي فإنه قال: يقتل والحالة هذه قصاصاً قال: و هل إذا تاب الساحر تقبل توبته؟ فقال مالك و أبو حنيفة وأحمد في المشهور عنهم: لا تقبل، و قال الشافعي و أحمد في الرواية الأخرى: تقبل، و أما ساحر أهل الكتاب فعند أبي حنيفة أنه يقتل كما يقتل الساحر المسلم، و قال مالك وأحمد والشافعي: لا يقتل يعني لقصة لبيد بن الأعصم، واختلفوا في المسلمة الساحرة فعند أبي حنيفة أنها لا تقتل ولكن تحبس، و قال الثلاثة حكمها حكم الرجل، و الله أعلم.

و قد نقل القرطبي عن مالك رحمه الله، أنه قال في الذمي يقتل إن قتل سحره، و حكى ابن خويز منداد عن مالك روايتين في الذمي إذا سحر: إحداهما أنه يستتاب فإن أسلم و إلا قتل، و الثانية: أنه يقتل و إن أسلم، وأما الساحر المسلم فإن تضمن سحره كفراً كفر عند الأئمة الأربعة و غيرهم، لقوله تعالى: ﴿و ما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾. لكن قال مالك إذا ظهر عليه لم تقبل توبته لأنه كالزنديق، فإن تاب قبل أن يظهر عليه وجاءنا تائباً قبلناه، فإن قتل سحره قتل. (مسألة) و هل يسئل الساحر حلاً لسحره فأجاز سعيد بن المسيب فيما نقله عنه البخاري، و قال عامر الشعبي: لا بأس بالنشرة و كره ذلك الحسن البصري، وفي الصحيح عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله هلا تنشرت، فقال: «أما الله فقد شفاني و خشيت أن أفتح على الناس شراً».

وحكى القرطبي عن وهب أنه قال: يؤخذ سبع ورقات من سدر فتدق بين حجرين ثم تضرب بالماء و يقرأ عليها آية الكرسي و يشرب منها المسحور ثلاث حسوات ثم يغتسل بباقيه فإنه يذهب ما به، و هو جيد للرجل الذي يؤخذ عن امرأته (قلت) أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله في ذهاب ذلك و هما المعوذتان، وفي الحديث «لم يتعوذ المتعوذ بمثلهما»[1] و كذلك قراءة آية الكرسي فإنها مطردة للشياطين.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) ﴾

(١) رواه النسائي (٨/ ٢٥١) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

١٠٤ – نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم و فعالهم، و ذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص، عليهم لعائن الله، فإذا أرادوا أن يقولوا اسمع لنا يقولون: راعنا، ويورون بالرُّعونة كما قال تعالى: **﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه و يقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع و راعنا لياً بألسنتهم و طعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا و أطعنا و اسمع و انظرنا لكان خيراً لهم و أقوم، و لكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾**، و كذلك جاءت الأحاديث بالأخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون: السام عليكم، و السام هو الموت، و لهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ «وعليكم»، وإنما يستجاب لنا فيهم و لا يستجاب لهم فينا، و الغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً، فقال **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا و قولوا انظرنا و اسمعوا و للكافرين عذاب أليم﴾** و روى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ «بُعثتُ بين يدي الساعة بالسيف حتى يُعبدَ الله وحده لا شريك له، و جُعِل رزقي تحت ظلِّ رمحي، و جعلت الذِّلة و الصَّغار على من خالف أمري، و من تَشبَّهَ بقوم فهو منهم». ففيه دلالة على: النهي الشديد، و التهديد و الوعيد، على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم و أعيادهم وعباداتهم، و غير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولانقر عليها. عن ابن عباس **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا﴾** قال: كانوا يقولون للنبي ﷺ: أرعنا سمعك و إنما راعنا، كقولك: عاطنا. و قال ابن أبي حاتم: و روي عن أبي العالية و أبي مالك و الربيع بن أنس، و عطية العوفي و قتادة نحو ذلك، قال ابن جرير: و الصواب من القول في ذلك عدنا: أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه ﷺ راعنا، لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولها لنبيه ﷺ، نظير الذي ذكر عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقولوا للعنب الكَرْم ولكن قولوا الحَبَلة، و لا تقولوا عبدي و لكن قولوا فتاي» و ما أشبه ذلك.

١٠٥– و قوله تعالى: **﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب و لا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾** يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين، الذين حذر الله تعالى من مشابهتهم للمؤمنين، ليقطع المودة بينهم و بينهم، و نبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل، الذي شرعه لنبيهم محمد ﷺ حيث يقول: **﴿والله يختص برحمته من يشاء و الله ذو الفضل العظيم﴾**.

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) ﴾

١٠٦، ١٠٧– قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما **﴿ما ننسخ من آية﴾** ما نبدل من آية، و قال مجاهد **﴿ما ننسخ من آية﴾** أي ما نمحو من آية، و قال ابن أبي حاتم: يعني قبضها و رفعها، مثل قوله «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»، و قوله «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً» و قال ابن جرير: **﴿ما ننسخ من آية﴾**، ماننقل من حكم آية إلى غيره، فنبدله و نغيره، وذلك أن نحول الحلال حراماً، والحرام حلالاً، والمباح محظوراً، والمحظور مباحاً و لا يكون ذلك، إلا في الأمر و النهي و الحظر و الإطلاق والمنع و الإباحة، فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ و لا منسوخ، و أصل النسخ: من نسخ الكتاب و هو نقله من نسخة إلى أخرى غيرها، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره إنما هو تحويله، و نقل عبارة إلى غيرها، و سواء

نسخ حكمها أو خطها، إذ هي في كلتا حالتيها منسوخة. و أما علماء الأصول، فاختلفت عباراتهم في حد النسخ، والأمر في ذلك قريب، لأن معنى النسخ الشرعي معلوم عند العلماء و لَحَظَ بعضهم أنه رفع الحكم بدليل شرعي متأخر. فاندرج في ذلك نسخ الأخف بالأثقل و عكسه و النسخ لا إلى بدله، و أما تفاصيل أحكام النسخ وذكر أنواعه وشروطه فمبسوطة، في أصول الفقه.

و قوله تعالى: ﴿أو ننسها﴾، فقرئ على وجهين، ننسأها وننسها، فأما من قرأها بفتح النون والهمزة بعد السين فمعناه نؤخرها. قال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس، ﴿ما ننسخ من آية أو ننسأها﴾، يقول ما نبدل من آية أو نتركها لا نبدلها، و أما على قراءة ﴿أو ننسها﴾، فقال قتادة: كان الله عز و جل يُنسي نبيهﷺ مايشاء، و ينسخ ما يشاء. و روى البخاري عن ابن عباس قال: قال عمر: أقرؤنا أبي و أقضانا علي، وإنا لندع من قول أبي، و ذلك أن أبيا يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول اللهﷺ، و قد قال الله: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾ وقوله ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾، أي في الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين، كما قال ابن عباس ﴿نأت بخير منها﴾ خير لكم في المنفعة و أرفق بكم. و قال قتادة: ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ يقول: آية فيها تخفيف فيها رخصة فيها أمر فيها نهي، و قوله ﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ۞ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض و ما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ يُرشد عباده تعالى بهذا، إلى أنه المتصرِّف في خلقه، بما يشاء فله الخلق و الأمر و هو المتصرف، فكما خَلَقَهم كما يشاء، و يسعد من يشاء، و يشقي من يشاء و يصح من يشاء و يمرض من يشاء، و يوفق من يشاء، و يخذل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء و يبيح ما يشاءو يحظر ما يشاء و هو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، و لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، و يختبر عباده و طاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره و اتباع رسله في تصديق ما أخبروا، و امتثال ما أمروا، وترك ما عنه زجروا.

و في هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود و تزييف شبهتهم لعنهم الله، في دعوى استحالة النسخ، إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً، و إما نقلاً كما تخرّصه آخرون منهم افتراءً وإفكاً، قال الإمام أبو جعفر ابن جرير رحمه الله و هذا الخبر وإن كان خطاباً من الله تعالى، لنبيهﷺ على وجه الخبر، عن عظمته فإنه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود، الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة و جحدوا نبوة عيسى و محمد عليهما الصلاةو السلام، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله، بتغيير ما غير الله من حكم التوراة، فأخبرهم الله أن له ملك السموات و الأرض و سلطانهما، و أن الخلق أهل مملكته و طاعته، و عليهم السمع و الطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء و نهيهم عما يشاء، و نسخ ما يشاء، و إقرار ما يشاء، و إنشاء ما يشاء من إقراره و أمره و نهيه.

(قلت) الذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النسخ، إنما هو الكفر و العناد، فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله تعالى، لأنه يحكم ما يشاء، كما أنه يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة و شرائعه الماضية، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرم ذلك، و كما أباح لنوح، بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ حل بعضها، و كان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل و بنيه،

وقد حُرِّم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها، و أمر إبراهيم بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل، و أمر جمهور بني إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم، ثم رفع عنهم القتل كي لا يستأصلهم القتل، و أشياء كثيرة يطول ذكرها وهم يعترفون بذلك و يصدقون عنه و ما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية فلا يصرف الدلالة في المعنى، إذ هو المقصود، و كما في كتبهم مشهوراً من البشارة بمحمد ﷺ و الأمر باتباعه، فإنه يفيد وجوب متابعته عليه الصلاة و السلام، و أنه لا يقبل عمل إلا على شريعته، و سواء قيل إن الشرائع المتقدمة مغيّاة إلى بعثه عليه السلام، فلا يسمى ذلك نسخاً لقوله: ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾، أو قيل: إنها مطلقة، و إن شريعة محمد ﷺ نسختها، فعلى كل تقدير فوجوب متابعته متعين، لأنه جاء بكتاب و هو آخر الكتب عهداً بالله تبارك وتعالى، ففي هذا المقام بيّن تعالى جواز النسخ، رداً على اليهود عليهم لعنة الله، حيث قال تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ۞ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ الآية، فكما أن له الملك بلا منازع، فكذلك له الحكم بما يشاء ﴿ألا له الخلق و الأمر﴾ و قرئ في سورة آل عمران، التي نزل في صدرها خطاباً مع أهل الكتاب، وقوع النسخ في قوله تعالى: ﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه﴾ الآية، كما سيأتي تفسيره و المسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى، لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وكلهم قال بوقوعه، و قال أبو مسلم الأصبهاني المفسر: لم يقع شيء من ذلك في القرآن، و قوله هذا ضعيف مردود مرذول.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾

١٠٨ - نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة، عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل كونها، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم و إن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ أي وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، و لا تسألوا عن الشيء قبل كونه فلعله أن يُحرم من أجل تلك المسألة، و لهذا جاء في الصحيح: «إن أعظمَ المسلمين جُرماً من سأل عن شيء لم يحرم فَحُرِّم من مسألته» و لما سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد امرأته مع رجلٍ فإن تكلم تكلم بأمر عظيم، و إن سكت سكت على مثل ذلك، فكره رسول الله المسائل و عابها، ثم أنزل الله حكم الملاعنة، ولهذا ثبت في الصحيحين، من حديث المغيرة بن شعبة: أن رسول الله ﷺ كان ينهى عن قيل و قال، و إضاعة المال، و كثرة السؤال.

و في صحيح مسلم «ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، و إن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه» و هذا إنما قاله بعد ما أخبرهم، «أن الله كتب عليهم الحج، فقال رجل أكل عام: يا رسول الله؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثاً، ثم قال عليه السلام: «لا، ولو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم»، ثم قال «ذروني ما تركتكم» الحديث، و لهذا قال أنس بن مالك: نُهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله و نحن نسمع.

و روى الحافظ أبو يعلى في مسنده عن البراء بن عازب، قال: إن كان ليأتي على السنة، أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن الشيء، فأتهيب منه و إن كنّا لنتمنى الأعراب. وروى البزار عن ابن عباس، قال: ما رأيت

قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ، ما سألوه إلا عن اثنتي عشرة مسألة كلها في القرآن ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ و ﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾ ﴿ويسألونك عن اليتامى﴾، يعني هذا و أشباهه. و قوله تعالى: ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل﴾ أي بل تريدون، أو هي على بابها في الاستفهام، و هو إنكاري، وهو يعم المؤمنين و الكافرين، فإنه عليه السلام رسول الله إلى الجميع، كما قال تعالى: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾ و قال مجاهد: أن يريهم الله جهرة، قال: سألت قريش محمداً ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، قال: «نعم و هو لكم كالمائدة لبني إسرائيل»، فأبوا و رجعوا، و عن السدي و قتادة نحو هذا، و الله أعلم.

و المراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنت والاقتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتاً و تكذيباً و عناداً. قال الله تعالى: ﴿و من يتبدل الكفر بالإيمان﴾، أي و من يشتر الكفر بالإيمان ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ أي فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل و الضلال. و هكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء، و اتباعهم و الانقياد لهم إلى مخالفتهم وتكذيبهم، و الاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التعنت و الكفر، كما قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً و أحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار﴾، و قال أبو العالية: يتبدل الشدة بالرخاء.

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) ﴾

١٠٩، ١١٠ – يُحذِّر تعالى: عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب، و يُعْلمهم بعداوتهم لهم في الباطن و الظاهر، و ماهم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم و فضل نبيهم، و يأمر عباده المؤمنين بالصفح و العفو و الاحتمال، حتى يأتي أمر الله من النصر و الفتح، و يأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، و يحثهم على ذلك و يُرغبهم فيه، و روى عبدالرزاق عن الزهري في قوله تعالى ﴿ود كثير من أهل الكتاب﴾ قال: هو كعب بن الأشرف، و روى ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه أن كعب بن الأشراف اليهودي كان شاعراً، و كان يهجو النبي ﷺ، و فيه أنزل الله ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم﴾ إلى قوله ﴿فاعفوا واصفحوا﴾.

و قول الله تعالى: ﴿كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ يقول من بعد ما أضاء لهم الحق، لم يجهلوا منه شيئاً، و لكن الحسد حملهم على الجحود، فعيَّرهم ووبخهم و لامهم أشد الملامة، و شرع لنبيه ﷺ وللمؤمنين، ما هم عليه من التصديق والإيمان و الإقرار بما أنزل الله عليهم، و بما أنزل من قبلهم، بكرامته و ثوابه الجزيل و معونته لهم، وقال أبوالعالية ﴿من بعد ما تبين لهم الحق﴾، من بعد ما تبين أن محمداً

رسول الله، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة و الإنجيل، فكفروا به حسداً وبغياً، إذ كان من غيرهم، و كذا قال قتادة والربيع بن أنس، و قوله: ﴿فاعفوا و اصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾، مثل قوله تعالى: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾ الآية، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله، ﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾، نسخ ذلك قوله: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾، وقوله: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾، إلى قوله ﴿وهم صاغرون﴾، فنسخ هذا عفوه عن المشركين، وكذا قال أبو العالية و الربيع بن أنس و قتادة والسدي، إنها منسوخة بآية السيف، و يرشد إلى ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾.

و روى ابن أبي حاتم عن أسامة بن زيد قال: كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين و أهل الكتاب، كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى: ﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير﴾ وكان رسول الله ﷺ، يتأول من العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم بالقتل، فقتل الله به من قتل صناديد قريش، و هذا إسناد صحيح و لم أره في شيء من الكتب الستة، و لكن له أصل في الصحيحين عن أسامة. و قوله تعالى: ﴿و أقيموا الصلاة و آتوا الزكاة و ما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾، يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم، و تعود عليهم عاقبته يوم القيامة، من إقام الصلاة و إيتاء الزكاة، حتى يُمكّن لهم الله النصر في الحياة الدنيا و يوم يقوم الأشهاد، ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة و لهم سوء الدار﴾، و لهذا قال تعالى: ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾، يعني أنه تعالى لايغفل عن عمل عامل، و لا يضيع لديه، سواء كان خيراً أو شراً، فإنه سيجازي كل عامل بعمله.

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)﴾

١١١ - يبين تعالى اغترار اليهود و النصارى بما هم فيه، حيث ادّعتْ كل طائفة من اليهود والنصارى، أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة، أنهم قالوا: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا، لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من دعواهم، أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة، و رد عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل و لاحجة و لابينة، فقال: ﴿تلك أمانيهم﴾، و قال أبو العالية: أماني تمنوها على الله بغير حق، و كذا قال قتادة و الربيع بن أنس، ثم قال تعالى ﴿قل﴾ أي يا محمد ﴿هاتوا برهانكم﴾ قال أبو العالية و مجاهد و السدي و الربيع بن أنس: حجتكم، وقال قتادة: بينتكم على ذلك، ﴿إن كنتم صادقين﴾، أي فيما تدعونه.

١١٢- ثم قال تعالى: ﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن﴾، أي من أخلص العمل لله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن﴾ الآية، و قال سعيد بن جبير: ﴿بلى من أسلم﴾ أخلص ﴿وجهه﴾، قال دينه ﴿و هو محسن﴾ أي اتبع فيه الرسول ﷺ، فإن للعمل المتقبل شرطين: أحدهما أن يكون صواباً خالصاً لله وحده، والآخر أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، فمتى كان خالصاً و لم يكن صواباً لم يتقبل، و لهذا قال رسول الله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ»، رواه مسلم من حديث عائشة عنه عليه الصلاة و السلام، فعمل الرهبان و من شابههم، و إن فُرض أنهم مخلصون فيه لله، فإنه لا يتقبل منهم، حتى يكون ذلك متابعاً للرسول ﷺ المبعوث إليهم و إلى الناس كافة، و فيهم و أمثالهم قال الله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ و قال تعالى: ﴿و الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾، و قال تعالى: ﴿وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية﴾، و روي عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، أنه تأولها في الرهبان كما سيأتي، و أما إن كان العمل موافقاً للشريعة، في الصورة الظاهرة، و لكن لم يخلص عامله القصد لله، فهو أيضاً مردود على فاعله، و هذا حال المرائين و المنافقين، كما قال تعالى: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو يخادعهم و إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾، و قال تعالى: ﴿فويل للمصلين ۝ الذين هم عن صلاتهم ساهون ۝ الذين هم يراءون ۝ و يمنعون الماعون﴾ و لهذا قال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً و لا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ و قال في هذه الآية الكريمة: ﴿بلى من أسلم وجهه لله و هو محسن﴾، و قوله: ﴿فله أجره عند ربه و لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، ضَمِنَ لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور، و آمنهم مما يخافونه من المحذور، ﴿فلا خوف عليهم﴾ فيما يستقبلونه، ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما مضى مما يتركونه، كما قال سعيد بن جبير، ﴿فلا خوف عليهم﴾ يعني في الآخرة، ﴿ولا هم يحزنون﴾ يعني لا يحزنون للموت.

١١٣- و قوله تعالى: ﴿و قالت اليهود ليست النصارى على شيء و قالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب﴾، بين به تعالى تناقضهم و تباغضهم وتعاديهم و تعاندهم، و قال مجاهد في تفسير هذه الآية: قد كانت أوائل اليهود و النصارى على شيء، و قال قتادة: ﴿و قالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ قال: بلى، قد كانت أوائل النصارى على شيء، و لكنهم ابتدعوا وتفرقوا، ﴿و قالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ قال: بلى، قد كانت أوائل اليهود على شيء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا، و عنه رواية أخرى كقول أبي العالية و الربيع بن أنس في تفسير هذه الآية: ﴿و قالت اليهود ليست النصارى على شيء و قالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، و هذا القول يقتضي، أن كلاً من الطائفتين صَدَقت فيما رمت به الطائفة الأخرى، ولكن ظاهر سياق الآية يقتضي ذمهم فيما قالوه، مع علمهم بخلاف ذلك، و لهذا قال تعالى: ﴿وهم يتلون الكتاب﴾، أي و هم يعلمون شريعة التوراة والإنجيل، كل منهما قد كانت مشروعة في وقت، و لكنهم تجاحدوا فيما بينهم عناداً و كفراً ومقابلة للفساد، كما تقدم عن ابن عباس و مجاهد و قتادة في الرواية الأولى عنه في تفسيرها، و الله أعلم.

و قوله: ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾، بين بهذا جهل اليهود و النصارى فيما تقابلوا من

القول و هذا من باب الإيماء و الإشارة . وقد اختلف فيمن عني بقوله تعالى ﴿الذين لايعلمون﴾ فقال الربيع بن أنس و قتادة : و قالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم ، و قال ابن جريج : قلت لعطاء من هؤلاء الذين لا يعلمون؟ قال : أمم كانت قبل اليهود و النصارى و قبل التوراة و الإنجيل ، وقال السدي كذلك ﴿قال الذين لا يعلمون﴾ ، فهم العرب ، قالوا ليس محمد على شيء ، واختار أبو جعفر بن جرير أنها عامة تصلح للجميع ، وليس ثم دليل قاطع يعين واحداً من هذه الأقوال ، والحمل على الجميع أولى ، و الله أعلم .

و قوله تعالى : ﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ ، أي أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد ، و يفصل بينهم بقضاءه العدل ، الذي لايجور فيه و لا يظلم مثقال ذرة ، و هذه الآية كقوله تعالى في سورة الحج : ﴿إن الذين آمنوا و الذين هادوا و الصابئين و النصارى و المجوس و الذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد﴾ ، و كما قال تعالى : ﴿قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق و هو الفتاح العليم﴾ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) ﴾

١١٤ - اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله و سعوا فيخرابها ، على قولين : أحدهما ما رواه العوفي في تفسيره عن ابن عباس ، في قوله : ﴿و من أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه﴾ قال : هم النصارى و قال مجاهد : هم النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى و يمنعون الناس أن يصلوا فيه ، وعن قتادة في قوله : ﴿و سعى في خرابها﴾ قال هو بختنصر وأصحابه ، خرب بيت المقدس ، و أعانه على ذلك النصارى . و قال قتادة : قال أولئك أعداء الله ، النصارى حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلى المجوسي على تخريب بيت المقدس ، (القول الثاني) ، ما رواه ابن جرير عن ابن زيد في قوله ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه و سعى في خرابها﴾ ، قال : هؤلاء المشركون الذين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية ، و بين أن يدخلوا مكة ، حتى نحر هديه بذي طوى ، و هادنهم و قال لهم : «ما كان أحد يصد عن هذا البيت ، و قد كان الرجل ، يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده» فقالوا : لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق ، وفي قوله : ﴿و سعى في خرابها﴾ قال إذ قطعوا من يعمرها بذكره و يأتيها للحج والعمرة . ثم اختار ابن جرير القول الأول ، و احتج بأن قريشاً لم تسعَ في خراب الكعبة ، و أما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس ، (قلت) و الذي يظهر ، و الله يعلم ، القول الثاني كما قاله ابن زيد . وروي عن ابن عباس ، لأن النصارى إذا منعت اليهود الصلاة في البيت المقدس ، كان دينهم أقوم من اليهود ، وكانوا أقرب منهم ، و لم يكن ذكر الله من اليهود مقبولاً إذ ذاك ، لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

وأيضاً فإنه تعالى ، لما وجّه الذم في حق اليهود والنصارى ، شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ و أصحابه من مكة ، و منعوهم من الصلاة في المسجد الحرام ، و أما إعتماده على أن قريشاً لم تَسْعَ في خراب الكعبة ، فأيُّ خَرابٍ أعظم مما فعلوا ! أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه ، و استحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم ، كما قال تعالى : ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام و ما كانوا

أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون و لكن أكثرهم لا يعلمون﴾، و قال تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم و في النار هم خالدون ۞ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله و اليوم الآخر و أقام الصلاة و آتى الزكاة و لم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ و قال تعالى: ﴿هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام و الهدي معكوفاً أن يبلغ محله و لولا رجال مؤمنون و نساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرّةٌ بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ فقال تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله و اليوم الآخر و أقام الصلاة و آتى الزكاة و لم يخش إلا الله﴾، فإذا كان من هو كذلك مطروداً منها مصدوداً عنها، فأي خراب لها أعظم من ذلك؟ و ليس المراد من عمارتها زخرفتها و إقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها و إقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك.

و قوله تعالى: ﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾، هذا خبر معناه الطلب، أي لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها؛ إلا تحت الهدنة و الجزية، و لهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة، أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادي برحاب منى: «ألا لا يحجنّ بعد العام مشرك، و لا يطوفنّ بالبيت عريان، و من كان له أجل فأجله إلى مدته»، و هذا إنما كان تصديقاً و عملاً بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾، و قال بعضهم: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين، على حال التهيب و ارتعاد الفرائص من المؤمنين، أن يبطشوا بهم فضلاً أن يستولوا عليها و يمنعوا المؤمنين منها، والمعنى ما كان الحق و الواجب إلا ذلك، لولا ظلم الكفرة وغيرهم، و قيل: إن هذا بشارة من الله للمسلمين، أنه سيظهرهم على المسجد الحرام و على سائر المساجد، و أنه يذل المشركين لهم، حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم، إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل، إن لم يُسْلِم. وقد أنجز الله هذا الوعد، كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام، و أوصى رسول الله ﷺ، أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان، و أن يجلي اليهود و النصارى منها، و لله الحمد والمنة. و ما ذاك إلا تشريف أكناف المسجد الحرام، وتطهير البقعة التي بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة، بشيراً و نذيراً، صلوات الله و سلامه عليه، وهذا هو الخزي لهم في الدنيا، لأن الجزاء من جنس العمل، فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، صُدوا عنه، و كما أجلوهم من مكة أجلوا عنها، ﴿و لهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت، و امتهنوه من نصب الأصنام حوله، و دعاء غير الله عنده، و الطواف به عرياناً و غير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله و رسوله، و فسر الخزي في الدنيا: بخروج المهدي، عند السدي و عكرمة و وائل بن داود، و فسره قتادة بأداء الجزية عن يد و هم صاغرون، والصحيح أن الخزي في الدنيا أعم من ذلك كله.

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥) ﴾

١١٥- و هذا، و الله أعلم، فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه، الذين أخرجوا من مكة، و فارقوا مسجدهم ومصلاهم، و قد كان رسول الله ﷺ، يصلي بمكة إلى بيت المقدس و الكعبة بين يديه، فلما قدم المدينة، وجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد، و لهذا يقول تعالى: ﴿ولله

المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾، روى أبوعبيد القاسم بن سلام في كتاب الناسخ والمنسوخ: عن ابن عباس قال: أول ما نسخ لنا من القرآن فيما ذكر لنا، والله أعلم، شأن القبلة، قال الله تعالى: **﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾** فاستقبل رسول اللهﷺ، فصلى نحو بيت المقدس و ترك البيت العتيق، ثم صرفه إلى بيته العتيق و نسخها. فقال **﴿ و من حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام، و حيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾** وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول اللهﷺ لما هاجر إلى المدينة، و كان أهلها اليهود، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول اللهﷺ بضعة عشر شهراً و كان رسول اللهﷺ يحب قبلة إبراهيم، و كان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله **﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾** إلى قوله **﴿فولوا وجوهكم شطره﴾** فارتاب من ذلك اليهود، و قالوا: ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، فأنزل الله **﴿قل لله المشرق و المغرب﴾**، و قال: **﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾** و قال عكرمة عن ابن عباس **﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾** قال: قبلة الله أينما توجهت شرقاً وغرباً، و قال مجاهد **﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾** حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها الكعبة.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة، و إنما أنزلها ليعلم نبيهﷺ وأصحابه، أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاؤوا من نواحي المشرق و المغرب، لأنهم لايوجهون وجوههم وجهاً من ذلك وناحية، إلا كان جل ثناؤه في ذلك الوجه و تلك الناحية، لأن له تعالى المشارق والمغارب، قالوا: ثم نسخ ذلك بالفرض الذي فرض عليهم التوجه إلى المسجد الحرام هكذا قال.

و قال آخرون: بل نزلت هذه الآية على رسول اللهﷺ، إذناً من الله أن يصلي المتطوع، حيث توجه من شرق أو غرب، في مسيره في سفره، و في حال المسايفة وشدة الخوف. فعن ابن عمر أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته، ويذكر أن رسول اللهﷺ، كان يفعل ذلك ويتأول هذه الآية **﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾**، رواه مسلم. و في صحيح البخاري من حديث نافع عن ابن عمر أنه كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها، ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك، صلوا رجالاً قياماً على أقدامهم و ركباناً مستقبلي القبلة و غير مستقبليها، قال نافع: ولاأرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبيﷺ. قال ابن جرير: و قال آخرون: بل نزلت الآية في قوم عميت عليهم القبلة، فلم يعرفوا شطرها فصلوا على أنحاء مختلفة، فقال الله تعالى: لي المشارق و المغارب فأين وليتم وجوهكم فهناك وجهي، وهو قبلتكم فيعلمكم بذلك أن صلاتكم ماضية. روى الحافظ ابن مردويه في تفسيره عن جابر قال: بعث رسول اللهﷺ سرية كنت فيها فأصابتنا ظلمة، فلم نعرف القبلة، فقالت طائفة منا: قد عرفنا القبلة هي ههنا قبل الشمال فصلوا وخطوا خطوطاً، فلما أصبحوا و طلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة، فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبيﷺ فسكت وأنزل الله تعالى: **﴿ولله المشرق و المغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾**. وهذه الأسانيد فيها ضعف، ولعله يشد بعضه بعضاً، وأما إعادة الصلاة لمن تبين له خطؤه ففيها قولان للعلماء، وهذه دلائل على عدم القضاء، والله أعلم.

و روى الترمذي عن أبي هريرةؓ عن النبيﷺ قال: «ما بين المشرق و المغرب قبلة» ثم قال: هذا صحيح، قال ابن جرير: و يحتمل فأينما تولوا وجوهكم في دعائكم لي فهنالك وجهي أستجيب لكم دعاءكم. و معنى قوله **﴿إن الله واسع عليم﴾** يسع خلقه كلهم بالكفاية و الجود و الإفضال، و أما قوله **﴿عليم﴾** فإنه يعني عليم

بأعمالهم ما يغيب عنه منها شيء و لا يعزب عن علمه بل هو بجميعها عليم.

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (١١٧) ﴾

١١٦ – اشتملت هذه الآية الكريمة و التي تليها على الرد على النصارى عليهم لعائن الله، و كذا من أشبههم من اليهود و من مشركي العرب ممن جعل الملائكة بنات الله، فأكذبهم الله جميعهم في دعواهم و قولهم إن لله ولداً، فقال تعالى: **﴿سبحانه﴾** أي تعالى وتقدس و تنزه عن ذلك علواً كبيراً **﴿بل له ما في السموات والأرض﴾** أي ليس الأمر كما افتروا، و إنما له ملك السموات و الأرض ومن فيهنّ، و هو المتصرف فيهم و هو خالقهم ورازقهم ومقدّرهم و مسخّرهم و مسيّرهم ومصرّفهم كما يشاء، والجميع عبيدٌ له و ملك له، فكيف يكون له ولد منهم والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين، و هو تبارك وتعالى ليس له نظير و لامشارك في عظمته وكبريائه و لا صاحبة له فكيف يكون له ولد؟ كما قال تعالى: **﴿بديع السموات و الأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة و خلق كل شيء و هو بكل شيء عليم﴾** وقال تعالى: **﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً◆لقد جئتم شيئاً إداً◆تكاد السموات يتفطرن منه و تنشق الأرض و تخر الجبال هداً◆ أن دعوا للرحمن ولداً◆و ما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً◆ إن كل من في السموات و الأرض إلا آت الرحمن عبداً◆ لقد أحصاهم وعدهم عداً◆ وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾** و قال تعالى: **﴿قل هو الله أحد◆ الله الصمد◆ لم يلد ولم يولد◆ و لم يكن له كفواً أحد﴾**، فقرر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم الذي لا نظير له و لا شبيه له، و أن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة فكيف يكون له منها ولد؟ و لهذا روى البخاري في تفسير هذه الآية عن ابن عباس عن النبيﷺ قال: «قال الله تعالى: كذّبني ابنُ آدم و لم له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فيزعم أني لا أقدرُ أن أعيده كما كان، و أما شتمه إياي فقوله لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً»، و في الصحيحين عن رسول اللهﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً و هو يرزقهم و يعافيهم».

وقوله: **﴿كل له قانتون﴾** قال عكرمة و أبو مالك: **﴿كل له قانتون﴾** مقرون له بالعبودية، و قال سعيد بن جبير: **﴿كل له قانتون﴾**، يقول الإخلاص، و قال الربيع بن أنس: أي: قائم يوم القيامة، و قال السدي: **﴿كل له قانتون﴾** أي: مطيعون يوم القيامة، و قال ابن أبي نجيح عن مجاهد: كل له قانتون مطيعون، قال: طاعة الكافر في سجود ظله و هو كاره، و هذا القول عن مجاهد ـ و هو اختيار ابن جرير ـ يجمع الأقوال كلها و هو أن القنوت هو الطاعة و الاستكانة إلى الله وهو شرعي وقدري، كما قال الله تعالى: **﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً و كرهاً وظلالهم بالغدو والآصال﴾**.

١١٧ – و قوله تعالى: **﴿بديع السموات والأرض﴾** أي: خالقهما على غير مثال سبق؛ قال مجاهد والسدي: وهو مقتضى اللغة، و منه يقال للشيء المحدث بدعة، كماجاء في صحيح مسلم: «فإن كل محدثة بدعة» والبدعة على قسمين: تارة تكون بدعة شرعية، كقوله: «فإن كل محدثة بدعة و كل بدعة ضلالة»، و تارة تكون بدعة لغوية، كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن جمعه إياهم على صلاة التراويح و استمرارهم:

نعمت البدعة هذه.

قال ابن جرير: فمعنى الكلام سبحان الله أن يكون له ولد، و هو مالك ما في السموات و الأرض تشهد له جميعها بدلالتها عليه بالوحدانية، و تقر له بالطاعة، و هو بارئها وخالقها وموجدها، من غير أصل و لا مثال احتذاها عليه، و هذا إعلام من الله لعباده، أن ممن يشهدله بذلك المسيح، الذي أضافوا إلى الله بنوته، و إخبار منه لهم، أن الذي ابتدع السموات و الأرض من غير أصل، و على غير مثال، هو الذي ابتدع المسيح عيسى، من غير والد بقدرته. و هذا من ابن جرير رحمه الله كلام جيد و عبارة صحيحة. و قوله تعالى: ﴿و إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ يبين بذلك تعالى كمال قدرته و عظيم سلطانه، و أنه إذا قدّر أمراً و أراد كونه، فإنما يقول له كن، أي: مرة واحدة فيكون، أي: فيوجد، على وفق ما أراد، كما قال تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾، و قال تعالى: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾، و قال تعالى: ﴿و ما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾.

و نبه بذلك أيضاً: على أن خلق عيسى بكلمة «كن» كما أمره الله، قال الله تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) ﴾

١١٨- يروى عن ابن عباس، قال: قال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ: يا محمد إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه؛ فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿و قال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية﴾، وقال مجاهد: ﴿و قال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية﴾، قال: النصارى تقوله، وهو اختيار ابن جرير، قال: لأن السياق فيهم، وفي ذلك نظر، و حكى القرطبي: ﴿لولا يكلمنا الله﴾، أي: يخاطبنا بنبوتك يا محمد، (قلت): و ظاهر السياق أعم، و الله أعلم، و قال أبو العالية و الربيع بن أنس وقتادة و السدي في تفسير هذه الآية: هذا قول كفار العرب ﴿كذلك قال الذين من قبلهم﴾، قال: هم اليهود والنصارى، و يؤيد هذا القول، و أن القائلين ذلك هم مشركو العرب، قوله تعالى: ﴿و إذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿و قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا﴾ إلى قوله: ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾، وقوله تعالى: ﴿و قال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾ الآية، و قوله تعالى: ﴿بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة﴾؛ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب و عتوهم و عنادهم و سؤالهم ما لا حاجة لهم به، إنما هو الكفر و المعاندة، كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة﴾، و قال تعالى: ﴿و إذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾، و قوله تعالى: ﴿تشابهت قلوبهم﴾، أي أشبهت قلوب مشركي العرب قلوب من تقدمهم في الكفر و العناد و العتو، كما قال تعالى: ﴿كذلك ما أتى الذين من

قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به﴾ الآية.

وقوله تعالى: **﴿قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾**، أي قد أوضحنا الدلالات على صدق الرسل، بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر و زيادة أخرى لمن أيقن و صدق و اتبع الرسل، و فهم ما جاؤوا به عن الله تبارك و تعالى، و أما من ختم الله على قلبه وسمعه، و جعل على بصره غشاوة، فأولئك قال الله فيهم: **﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون و لو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾**.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) ﴾

١١٩- قوله: **﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾** قراءة أكثرهم ولاتسأل بضم التاء، على الخبر وفي قراءة أبي ابن كعب: وما تسأل، و في قراءة ابن مسعود: و لن تسأل عن أصحاب الجحيم، نقلها ابن جرير، أي: لا نسألك عن كفر من كفر بك، كقوله: **﴿فإنما عليك البلاغ و علينا الحساب﴾**، وكقوله تعالى: **﴿ فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾** الآية، و كقوله تعالى: **﴿نحن أعلم بما يقولون و ما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾**، و أشباه ذلك من الآيات، و قرأ آخرون: **﴿و لا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾** بفتح التاء على النهي، أي: لا تسأل عن حالهم.

وأخرج البخاري عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً و مبشراً و نذيراً و حرزاً للأميين، و أنت عبدي و رسولي سميتك المتوكل، لا فظٌّ و لا غليظ ولا صخاب في الأسواق، و لا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو و يغفر، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، فيفتح به أعيناً عمياً، و آذاناً صماً، وقلوباً غلفاً.

﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ (١٢٠) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١) ﴾

١٢٠- قال ابن جرير: يعني بقوله جل ثناؤه: **﴿ولن ترضى عنك اليهود و النصارى حتى تتبع ملتهم﴾** و ليست اليهود يا محمد و لا النصارى براضية عنك أبداً، فدع طلب ما يرضيهم و يوافقهم، و أقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق، و قوله تعالى: **﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾** أي: قل يا محمد إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى، يعني هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل، **﴿و لئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾** فيه تهديد ووعيد شديد للأمة، عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن و السنة، عياذاً بالله من ذلك فإن الخطاب مع الرسول و الأمر لأمته.

و قد استدل كثير من الفقهاء بقوله: **﴿حتى تتبع ملتهم﴾** حيث أفرد الملة على أن الكفر كله ملة واحدة، كقوله تعالى: **﴿لكم دينكم ولي دين﴾** فعلى هذا لا يتوارث المسلمون و الكفار، و كل منهم يرث قريبه سواء كان من أهل دينه أم لا، لأنهم كلهم ملة واحدة وهذا مذهب الشافعي و أبي حنيفة وأحمد في رواية عنه، و قال

في الرواية الأخرى كقول مالك، إنه لا يتوارث أهل ملتين شتى، كما جاء في الحديث[1]، و الله أعلم.

١٢١- و قوله: **﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته﴾** قال قتادة: هم اليهود و النصارى، و هو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، و اختاره ابن جرير، و قال قتادة أيضاً: هم أصحاب رسول الله ﷺ، و قال ابن مسعود: و الذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يُحلَّ حلاله، و يُحرِّم حرامه، ويقرأه كما أنزل الله، و لا يحرِّف الكلم عن مواضعه، و لا يتأول منه شيئاً على غير تأويله. وقال الحسن البصري: يعملون بمحكمه و يؤمنون بمتشابهه، ويَكِلُون ما أشكل عليهم إلى عالمه. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿يتلونه حق تلاوته﴾** قال: يتبعونه حق اتباعه، ثم قرأ: **﴿و القمر إذا تلاها﴾** يقول: اتبعها، قال: وروي عن عكرمة و عطاء ومجاهد وأبي رزين وإبراهيم النخعي نحو ذلك. و قوله: **﴿أولئك يؤمنون به﴾** خبر عن **﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته﴾** أي: من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته، آمن بما أرسلتك به يا محمد، كما قال تعالى: **﴿و لو أنهم أقاموا التوراة و الإنجيل و ما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾** الآية، **﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة و الإنجيل و ما أنزل إليكم من ربكم﴾** أي: إذا أقمتموها حق الإقامة، و آمنتم بها حق الإيمان، وصدقتم ما فيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ ونعته وصفته و الأمر باتباعه و نصره و مؤازرته، قادكم ذلك إلى الحق و اتباع الخير في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: **﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾** الآية، و قال تعالى: **﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ❁ ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾** أي: إن كان ما وعدنا به من شأن محمد ﷺ لواقعاً، و قال تعالى: **﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ❁ و إذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ❁ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة و مما رزقناهم ينفقون﴾** وقال تعالى: **﴿و قل للذين أوتوا الكتاب و الأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا و إن تولوا فإنما عليك البلاغ و الله بصير بالعباد﴾** و لهذا قال تعالى: **﴿و من يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾** كما قال تعالى: **﴿و من يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾** وفي الصحيحين: «و الذي نفسي بيده لا يَسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة، يهوديٌ و لا نصرانيٌ ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار».

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣) ﴾

١٢٢، ١٢٣- قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة، و كررت للتأكيد و الحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم نعته و اسمه و أمره و أمته فحذرهم من كتمان هذا، و كتمان ما أنعم به عليهم وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية و الدينية، و لا يحسدوا بني عمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم، و لا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته و تكذيبه و الحيدة عن موافقته، صلوات الله و سلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

---

(١)- رواه أبو داود من حديث علي رضي الله عنه و هو حسن.

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾

١٢٤- يقول تعالى منبهاً على شرف إبراهيم خليلهﷺ وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يُقتدى به في التوحيد حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر و النواهي، ولهذا قال: **﴿و إذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات﴾** أي: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين و أهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم و ليسوا عليها، و إنما الذي هو عليها مستقيم فأنت و الذين معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم أي: اختباره له بما كلفه به من الأوامر و النواهي **﴿فأتمهن﴾** أي: قام بهن كلهن كما قال تعالى: **﴿وإبراهيم الذي وفى﴾** أي: وفى جميع ما شرع الله له فعمل به صلوات الله عليه وقال تعالى: **﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ◆ شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ◆ وآتيناه في الدنيا حسنة و إنه في الآخرة لمن الصالحين ◆ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً و ما كان من المشركين﴾** و قال تعالى: **﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ◆ ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً و ما كان من المشركين﴾**، و قال تعالى: **﴿ما كان إبراهيم يهودياً و لا نصرانياً و لكن كان حنيفاً مسلماً و ما كان من المشركين ◆ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي و الذين آمنوا و الله ولي المؤمنين﴾**.

وقوله تعالى: **﴿بكلمات﴾** أي: بشرائع و أوامر ونواه، فإن الكلمات تطلق، و يراد بها الكلمات القدرية كقوله تعالى عن مريم عليها السلام: **﴿و صدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾** و تطلق، ويراد بها الشرعية، كقوله تعالى: **﴿و تمت كلمة ربك صدقاً و عدلاً﴾** أي: كلماته الشرعية، وهي إما خبر صدق، و إما طلب عدل إن كان أمراً أو نهياً، و من ذلك هذه الآية الكريمة: **﴿و إذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾**، أي: قام بهن قال: **﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾** أي: جزاء على ما فعل، كما قام بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوة، و إماماً يقتدى به و يحتذى حذوه.

وقد اختلف في تعين الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليلﷺ، فروي عن ابن عباس في ذلك روايات، فروى عبد الرزاق عن ابن عباس: ابتلاه الله بالمناسك، وروى عبد الرزاق أيضاً عن ابن عباس **﴿و إذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات﴾**، قال: ابتلاه بالطهارة خمسٌ في الرأس و خمسٌ في الجسد، في الرأس قص الشارب و المضمضة و الاستنشاق و السواك وفَرْق الرأس، و في الجسد: تقليم الأظفار و حلق العانة والختان ونتف الإبط و غسل أثر الغائط والبول بالماء، قال ابن أبي حاتم: و روي عن سعيد بن المسيب و مجاهد والشعبي و النخعي، و أبي صالح و أبي الجلد نحو ذلك.

(قلت): و قريب من هذا ما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول اللهﷺ: «عشر من الفطرة: قص الشارب و إعفاء اللحية و السواك واستنشاق الماء و قص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط و حلق العانة و انتقاص الماء، و نسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة». قال وكيع: انتقاص الماء يعني الاستنجاء، و في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبيﷺ قال: «الفطرة خمس: الختان و الاستحداد و قص الشارب و تقليم الأظفار و نتف الإبط»، و لفظه لمسلم. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه كان يقول في

تفسير هذه الآية: ﴿و إذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾ قال: عشر، ست في الإنسان، و أربع في المشاعر، فأما التي في الإنسان حلق العانة، و نتف الإبط و الختان، و كان ابن هبيرة يقول: هؤلاء الثلاثة واحدة، و تقليم الأظفار وقص الشارب والسواك و غسل يوم الجمعة، و الأربعة التي في المشاعر: الطواف و السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار و الإفاضة. وعن ابن عباس أنه قال: ما ابتلي بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿و إذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾ قلت له: و ما الكلمات التي ابتلى الله إبراهيم بهن فأتمهن؟ قال: الإسلام ثلاثون سهماً منها عشر آيات في براءة ﴿التائبون العابدون﴾ إلى آخر الآية، و عشر آيات في أول سورة: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ و ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ و عشر آيات في الأحزاب: ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ إلى آخر الآية فأتمهن كلهن فكتبت له براءة، قال الله: ﴿وإبراهيم الذي وَفَّى﴾ رواه الحاكم و ابن جرير و ابن أبي حاتم.

وروى ابن جرير عن قتادة قال: كان الحسن يقول: أي و الله لقد ابتلاه بأمر فصبر عليه، ابتلاه بالكوكب والشمس و القمر، فأحسن في ذلك وعرف أن ربه دائم لايزول، فوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفاً، و ما كان من المشركين، ثم ابتلاه بالهجرة، فخرج من بلاده وقومه، حتى لحق بالشام مهاجراً إلى الله، ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة، فصبر على ذلك، وابتلاه بذبح ابنه و الختان، فصبر على ذلك، قال أبو جعفر ابن جرير ما حاصله: أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر، و جائز أن يكون بعض ذلك و لا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع، قال: و لم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد و لا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له.

وقوله: ﴿قال و من ذريتي قال لاينال عهدي الظالمين﴾ لما جعل الله إبراهيم إماماً سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته فأجيب إلى ذلك و أخبر أنه سيكون من ذريته، ظالمون و أنه لا ينالهم عهد الله، و لا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم، والدليل على أنه أجيب إلى طلبته قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿و جعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ فكل نبي أرسله الله، و كل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم ففي ذريته صلوات الله و سلامه عليه. و قال الربيع بن أنس: عهد الله الذي عهد إلى عباده: دينه، يقول: لا ينال دينه الظالمين، ألا ترى أنه قال: ﴿و باركنا عليه و على إسحاق و من ذريتهما محسن و ظالم لنفسه مبين﴾ يقول: ليس كل ذريتك يا إبراهيم على الحق، وكذا روي عن أبي العالية و عطاء ومقاتل. واختار ابن جرير أن هذه الآية وإن كانت ظاهرة في الخبر، أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالماً، ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل عليه السلام، أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه، كما تقدم عن مجاهد و غيره، والله أعلم.

و قال ابن خويز منداد المالكي: الظالم لايصلح أن يكون خليفة و لا حاكماً و لا مفتياً و لا شاهداً ولا راوياً.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى (١٢٥)﴾

١٢٥- روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿و إذ جعلنا البيت مثابة للناس﴾ يقول: لا يقضون فيه وطراً، يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: مثابة للناس يقول يثوبون، رواهما ابن جرير. وروي عن ابن وهب قال: قال ابن زيد: ﴿و إذ جعلنا البيت مثابة للناس﴾ قال:

يثوبون إليه من البلدان كلها و يأتونه ، و مضمون ما فسر هؤلاء الأئمة هذه الآية أن الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفاًبه شرعاً وقدراً ، من كونه مثابة للناس ، أي جعله محلاً تشتاق إليه الأرواح ، وتحن إليه ، و لا تقضي منه وطراً و لو ترددت إليه كل عام استجابة من الله تعالى ، لدعاء خليله إبراهيمﷺ، في قوله **﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾** إلى أن قال : **﴿ربنا و تقبل دعاء﴾** ويصفه تعالى بأنه جعله آمناً من دخله أمن ، و لو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمناً ، و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه ، فلا يعرض له ، كما وصف في سورة المائدة في قوله تعالى : **﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس﴾** أي يدفع عنهم بسبب تعظيمها السوء ، كما قال ابن عباس : لو لم يحج الناس هذا البيت ، لأطبق الله السماء على الأرض ، وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه أولاً ، وهو خليل الرحمن ، كما قال تعالى : **﴿و إذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لاتشرك بي شيئاً﴾** و قال تعالى : **﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً و هدىً للعالمين ﴿ فيه آيات بينات مقام إبراهيم و من دخله كان آمناً﴾** .

و في هذه الآية الكريمة نبه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده ، فقال **﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾** ، و قد اختلف المفسرون في المراد بالمقام ما هو؟ فروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿و اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾** قال : مقام إبراهيم الحرم كله و روي عن مجاهد و عطاء مثل ذلك ، و روي عن ابن جريج قال : سألت عطاء عن **﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾** فقال سمعت ابن عباس قال : أما مقام إبراهيم الذي ذكر ههنا ، فمقام إبراهيم هذا الذي في المسجد ، ثم قال : و **﴿مقام إبراهيم﴾** يعد كثير مقام إبراهيم الحج كله ، ثم فسره لي عطاء فقال : التعريف و صلاتان بعرفة ، والمشعر ، و منى ، و رمي الجمار ، و الطواف بين الصفا والمروة ، فقلت أ فسره ابن عباس؟ قال لا . ولكن قال مقام إبراهيم الحج كله . قلت : أسمعت ذلك لهذا أجمع؟ قال : نعم سمعته منه . و عن سعيد بن جبير قال : الحجر مقام إبراهيم نبي الله قد جعله الله رحمة ، فكان يقوم عليه و يناوله إسماعيل الحجارة ، ولو غسل رأسه كما يقولون لاختلف رجلاه .

روى البخاري : باب قوله **﴿و اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾** مثابة يثوبون يرجعون ، عن أنس بن مالك ، قال : قال عمر بن الخطاب : وافقت ربي في ثلاث أو وافقني ربي في ثلاث ، قلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت **﴿و اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾** ، و قلت : يا رسول الله ، يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب . قال : وبلغني معاتبة النبيﷺ بعض نسائه ، فدخلت عليهن فقلت : إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيراً منكن حتى أتيت إحدى نسائه ، قالت : يا عمر ، أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت ، فأنزل الله **﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات﴾** الآية . و روى مسلم عن جابر ، قال : استلم رسول اللهﷺ الركن ثلاثاً و مشى أربعاً ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ **﴿و اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾** فجعل المقام بينه و بين البيت ، فصلى ركعتين ، وروى البخاري بسنده عن ابن عمر يقول : قدم رسول اللهﷺ فطاف بالبيت سبعاً و صلى خلف المقام ركعتين ، فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحجر الذي كان إبراهيمﷺ يقوم عليه لبناء الكعبة ، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيلﷺ به ليقوم فوقه و يناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار ، و كلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة ، و هو واقف عليه كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها ، وهكذا

حتى تم جدران الكعبة كما سيأتي بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت من رواية ابن عباس عند البخاري، و كانت آثار قدميه ظاهرة فيه، و لم يزل هذا معروفاً تعرفه العرب في جاهليتها، و لهذا قال أبو طالب في قصيدته اللامية:

وَموطئ إبراهيم في الصخر رَطْبَة على قدميه حافياً غيرَ نَاعِلِ

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه كما روى عبد الله بن وهب عن ابن شهاب: أن أنس بن مالك حدثهم قال: رأيت المقام فيه أصابعه ﷺ وأخمص قدميه، غيرَ أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم، و روى ابن جرير عن قتادة ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ إنما أُمروا أن يصلوا عنده و لم يؤمروا بمسحه. و قد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم قبلها، و لقد ذكر لنا من رأى أثر عقبه وأصابعه فيه فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلولق وانمحى، (قلت): و قد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك، و كان الخليل ﷺ لما فرغ من بناء البيت و ضعه إلى جدار الكعبة، أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك و لهذا، و الله أعلم، أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، و إنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحد الأئمة المهديين و الخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباعهم، و هو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ «اقتدُوا باللذين مِنْ بعدي أبي بكر وعمر»[1] و هو الذي نزل القرآن بوفاته في الصلاة عنده، ولهذا لم ينكر أحد من أصحابه رضي الله عنهم أجمعين. وروى عبد الرزاق عن مجاهد قال: أول من أخر المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) ﴾

١٢٥- قال الحسن البصري: قوله ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل﴾ قال: أمرهما أن يطهراه من الأذى والنجس، و لا يصيبه من ذلك شيء، وقال ابن جريج: قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره. وعن ابن عباس قوله ﴿أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين﴾ قال: من الأوثان، و قال مجاهد وسعيد بن جبير ﴿طهرا بيتي للطائفين﴾ أن ذلك من الأوثان و الرفث وقول الزور و الرجس. قال ابن أبي حاتم، و روي عن عبيد بن عمير وأبي العالية و سعيد بن جبير ومجاهد و عطاء و قتادة ﴿أن طهرا بيتي﴾ أي بلا إله إلا الله من الشرك، و أما قوله تعالى: ﴿للطائفين﴾ فالطواف بالبيت معروف، و عن سعيد بن جبير أنه قال في قوله تعالى ﴿للطائفين﴾ يعني من أتاه من غربة ﴿والعاكفين﴾ المقيمين فيه، و هكذا روي عن قتادة والربيع بن أنس، أنهما فسرا العاكفين بأهله

---

(١)- حديث صحيح، رواه الإمام أحمد و الترمذي و ابن ماجه، من حديث حذيفة رضي الله عنه.

المقيمين فيه، كما قال سعيد بن جبير، و روى ابن أبي حاتم عن ثابت، قال: قلنا لعبد الله بن عبيد بن عمير: ما أراني إلا مكلم الأمير أن أمنع الذين ينامون في المسجد الحرام، فإنهم يجنبون ويحدثون. قال: لا تفعل، فإن ابن عمر سئل عنهم فقال: هم العاكفون. و رواه عبد بن حميد.

(قلت)و قد ثبت في الصحيح أن ابن عمر كان ينام في مسجد الرسولﷺ وهوعزب.

و أما قوله تعالى: ﴿والركع السجود﴾ فعن ابن عباس قال: إذا كان مصلياً فهو من الركع السجود، و كذا قال عطاء وقتادة. قال ابن جرير رحمه الله: فمعنى الآية، وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين، والتطهير الذي أمرنا به في البيت هو تطهيره من الأصنام و عبادة الأوثان فيه ومن الشرك، ثم أورد سؤالاً فقال: فإن قيل: فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شيء من ذلك الذي أمر بتطهيره منه، وأجاب بوجهين: (أحدهما) أنه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عنده زمان قوم نوح من الأصنام والأوثان، ليكون ذلك سنة لمن بعدهما، إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إماماً يقتدى به، (قلت)و هذا الجواب مفرع على أنه كان يُعْبَد عنده أصنام قبل إبراهيمعليه السلام، و يحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم محمدﷺ. (الجواب الثاني) أنه أمرهما أن يخلصا بنائه لله وحده لا شريك له، فيبنياه مطهراً من الشرك والريب، كما قال جل ثناؤه: ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خيرأم من أسس بنيانه على شفا جرف هار﴾ قال: فكذلك قوله: ﴿و عهدنا إلى إبراهيم و إسماعيل أن طهرا بيتي﴾ أي ابنياه علي طهر من الشرك بي و الريب.

و قد اختلف الفقهاء أيهما أفضل الصلاة عند البيت أو الطواف به؟ فقال مالك رحمه الله، الطواف به لأهل الأمصار أفضل. و قال الجمهور: الصلاة أفضل مطلقاً، وتوجيه كل منهما يذكر في كتاب الأحكام، والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته المؤسس على عبادته وحده لا شريك له، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه، كما قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا و يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواءً العاكف فيه والباد و من يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له إما بطواف أو صلاة، فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة: قيامها وركوعهاوسجودها، و لم يذكر العاكفين لأنه تقدم ﴿سواء العاكف فيه و الباد﴾ و في هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين و العاكفين، و اكتفي بذكر الركوع والسجود عن القيام، لأنه قد عُلِم أنه لايكون ركوع و لا سجود إلابعد قيام، و في ذلك أيضاً رد علي من لا يَحُجُّه من أهل الكتابين اليهود والنصارى، لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وعظمته، و يعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف في الحج و العمرة و غير ذلك و للاعتكاف والصلاة عنده، و هم لا يفعلون شيئاً من ذلك، فكيف يكونون مقتدين بالخليل و هم لا يفعلون ما شرع الله له؟ و قد حج البيت موسى بن عمران وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة و السلام، كما أخبر بذلك المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾.

و قد اختلف الناس في أول من بنى الكعبة، فقيل: الملائكة قبل آدم، و فيه غرابة، و قيل: آدمعليه السلام، و روي عن ابن عباس وكعب الأحبار و قتادة و عن وهب بن منبه: أن أول من بناه شيثعليه السلام، و غالب من يذكر هذه إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب، و هي مما لا يصدق ولا يكذب و لا يعتمد عليها بمجردها، و أما إذا صح حديث في ذلك فعلى الرأس والعين.

١٢٦- و قوله تعالى: **﴿و إذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً و ارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾**، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حرّم بيت الله و أمنه، و إني حرمت المدينة ما بين لابتيها فلا يصاد صيدها و لا يقطع عضاهها» رواه مسلم، و عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كان الناس إذا رأوا أول الثمر، جاؤوا به إلى رسول الله ﷺ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال: «اللهم بارك لنا في ثمرنا، و بارك لنا في مدينتنا، و بارك لنا في صاعنا، و بارك لنا في مُدّنا، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك، و إني عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، و إني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة، و مثله معه» ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر، و في لفظ «بركة مع بركة» ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان لفظ مسلم.

و قد وردت أحاديث أخر تدل على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات و الأرض كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، و إنه لم يحلّ القتال لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، و لا ينفر صيده، و لا يلتقط لقطته إلا من عرّفها ولا يختلي خلاها» فقال العباس: يا رسول الله: إلا الإذخر، فإنه لقينهم ولبيوتهم، فقال: «إلا الإذخر».

فإذا عُلِمَ هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حرمها، لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها و تحريمه إياها، وأنها لم تزل بلداً حراماً عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها، كما أنه قد كان رسول الله ﷺ مكتوباً عند الله خاتم النبيين، و إن آدم لمنجدل في طينته، و مع هذا قال إبراهيم عليه السلام **﴿ربنا و ابعث فيهم رسولاً منهم﴾** الآية، و قد أجاب الله دعاءه بما سبق في علمه و قدره. ولهذا جاء في الحديث أنهم قالوا: يارسول الله، أخبرنا عن بدء أمرك، فقال: «دعوة أبي إبراهيم عليه السلام، و بُشرى عيسى ابن مريم، و رأت أمي كأنه خرج منها نورٌ أضاءتْ له قصور الشام» أي أخبرنا عن بدء ظهور أمرك، كما سيأتي قريباً إن شاء الله.

و أما مسألة تفضيل مكة على المدينة كما هو قول الجمهور، أو المدينة على مكة كما هو مذهب مالك وأتباعه، فتذكر في موضع آخر بأدلتها إن شاء الله و به الثقة.

وقوله تعالى إخباراً عن الخليل أنه قال: **﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾** أي من الخوف أي لا يرعب أهله، وقد فعل الله ذلك شرعاً و قدراً، كقوله تعالى: **﴿ومن دخله كان آمناً﴾** و قوله: **﴿أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾** إلى غير ذلك من الآيات، و قد تقدمت الأحاديث في تحريم القتال فيه. و في صحيح مسلم عن جابر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح» وقال في هذه السورة **﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾** أي اجعل هذه البقعة بلداً آمناً، وناسب هذا لأنه قبل بناء الكعبة. و قال تعالى في سورة إبراهيم: **﴿و إذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً﴾** و ناسب هذا هناك لأنه - و الله أعلم - كأنه وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت و استقرار أهله به، و بعد مولد إسحاق الذي هو أصغر سناً من إسماعيل بثلاث عشرة سنة، ولهذا قال في آخر الدعاء **﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق، إن ربي لسميع الدعاء﴾**.

وقوله تعالى: ﴿وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله و اليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ عن أبي بن كعب ﴿قال و من كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار و بئس المصير﴾ قال: هو قول الله تعالى، و هذا قول مجاهد وعكرمة، و هو الذي صوبه ابن جرير رحمه الله، قال: و قرأ آخرون: ﴿قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار و بئس المصير﴾ فجعلوا ذلك من تمام دعاء إبراهيم، و عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً و ارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله و اليوم الآخر﴾ قال ابن عباس: كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس فأنزل الله: و من كفر أيضاً أرزقهم كما أرزق المؤمنين، أأخلق خلقاً لا أرزقهم؟ أمتعهم قليلاً ثم أضطرهم إلى عذاب النار و بئس المصير، ثم قرأ ابن عباس ﴿كلاً نمد هؤلاء و هؤلاء من عطاء ربك و ما كان عطاء ربك محظوراً﴾ رواه ابن مردويه، وروي عن عكرمة ومجاهد نحو ذلك أيضاً، و هذا كقوله تعالى: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ◆ متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ و قوله تعالى: ﴿و من كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور ◆ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾.

وقوله: ﴿ثم أضطره إلى عذاب النار و بئس المصير﴾ أي ثم ألجئه بعد متاعه في الدنيا و بسطنا عليه من ظلها إلى عذاب النار وبئس المصير، ومعناه أن الله تعالى ينظرهم و يمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كقوله تعالى: ﴿و كأين من قرية أمليت لها و هي ظالمة ثم أخذتها و إلي المصير﴾ وفي الصحيحين «لا أحد أصبرَ على أذى سَمِعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً و هو يرزقهم و يعافيهم» و في الصحيح أيضاً «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى و هي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾.

١٢٧ - و أما قوله تعالى: ﴿و إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت و إسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ◆ ربنا و اجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك و أرنا مناسكنا و تب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾ فالقواعد جمع قاعدة وهي السارية و الأساس، يقول تعالى: واذكر يا محمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت و رفعهما القواعد منه، وهما يقولان ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ فهما في عمل صالح، و هما يسألان الله أن يتقبل منهما، و هذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخلص في قوله ﴿و الذين يؤتون ما آتوا﴾ أي يعطون ما أعطوا من الصدقات و النفقات و القربات ﴿و قلوبهم وجلة﴾ أي خائفة ألا يتقبل منهم، روى البخاري رحمه الله بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً ليعفّي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم و بابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد و ليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر، و سقاء فيه ماء، ثم قفا إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل، فقالت: ياإبراهيم أين تذهب و تتركنا بهذا الوادي ليس فيه أنيس؟ و لا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، و جعل لا يلتفت إليها، فقالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يضيّعنا. ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات و رفع يديه، فقال ﴿ربنا إني

أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾ حتى بلغ **﴿يشكرون﴾** وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل و تشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها و جعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي: رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما» فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت «صه» - تريد نفسها - ثم تَسَمَّعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم فبحث بعقبه، أو قال: بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوّضه و تقول بيدها هكذا، و جعلت تغرف من الماء في سقائها و هو يفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لوتركت زمزم - أوقال: لو لم تغرف من الماء - لكانت عيناً معيناً» قال: فشربت و أرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة، فإن ههنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام و أبوه و إن الله لايضيع أهله، و كان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه و شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرهَم أوأهل بيت من جُرهَم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي و ما فيه ماء، فأرسلوا جريّا أو جريين، فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبرهم بالماء، فأقبلوا، قال: و أم إسماعيل عند الماء، فقالوا أتأذنين لنا أن نتزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء عندنا، قالوا: نعم، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس» فنزلوا و أرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، و أنفسَهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، و ماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل ليطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم و هيئتهم، فقالت: نحن بشَر، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك: فاقرئي عليه السلام، وقولي له يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل، كأنه أنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أننا في جهد و شدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، و يقول غير عتبة بابك، ذاك أبي و قد أمرني أن أفارقك، فالحقي بأهلك، و طلقها وتزوج منهم بأخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد، فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم و هيئتهم، فقالت: نحن بخير و سعة، وأثنت على الله عز و جل، قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم و الماء، قال النبي ﷺ: «و لم يكن لهم يومئذ حَبٌّ و لو كان لهم لدعا لهم فيه» قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام و مُريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، و هو يقرأ عليك السلام، و يأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي و أنت

العتبة، أمرني أن أمسكك، ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك و إسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، وصنعا كما يصنع الوالد بالولد و الولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: و تعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة و إبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، و هما يقولان ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾، قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت و هما يقولان ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾.

و قال البخاري رحمه الله: قوله تعالى: ﴿و إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ الآية، القواعد: أساسه، واحدها قاعدة، والقواعد من النساء واحدتها قاعدة. و روى عن عائشة زوج النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «ألم تري أن قومك حين بنوا البيت اقتصروا على قواعد إبراهيم؟» فقلت: يارسول الله، ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ قال «لو لا حدثان قومك بالكفر» فقال عبد الله بن عمر: لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحِجْر، إلا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم عليه السلام. و روى البخاري بسنده عن الأسود قال: قال لي ابن الزبير: كانت عائشة تسر إليك حديثاً كثيراً، فما حدثتك في الكعبة ؟ قال: قلت: قالت لي: قال النبي ﷺ: «يا عائشة لولا قومك حديث عهدهم - فقال ابن الزبير - بكفر لنقضت الكعبة، فجعلت لها بابين: باباً يدخل منه الناس، و باباً يخرجون منه» ففعله ابن الزبير. هكذا إلى آخر الزمان، إلى أن يخربها ذو السويقتين من الحبشة، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة».

و قوله تعالى حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك و من ذريتنا أمة مسلمة لك و أرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾ قال ابن جرير: يعنيان بذلك و اجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، و لا نشرك معك في الطاعة أحداً سواك، و لا في العبادة غيرك، و عن سلام ابن أبي مطيع في هذه الآية ﴿و اجعلنا مسلمين﴾ قال: كانا مسلمَين، ولكنهما سألاه الثبات. و قال السدي ﴿و من ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ يعنيان العرب. قال ابن جرير: و الصواب أنه يعم العرب و غيرهم، لأن من ذرية إبراهيم بني إسرائيل، وقد قال الله تعالى: ﴿و من قوم موسى أمة يهدون بالحق و به يعدلون﴾، (قلت) و هذا الذي قاله ابن جرير لا ينفيه السدي، فإن تخصيصهم بذلك لاينفي من عداهم، و السياق إنما هو في العرب، ولهذا قال بعده ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك و يعلمهم الكتاب و الحكمة ويزكيهم﴾ الآية. و المراد بذلك محمد ﷺ، و قد بعث فيهم كما قال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾ و مع هذا لا ينفي رسالته إلى الأحمر و الأسود، لقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ و غير ذلك من الأدلة القاطعة، و هذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما أخبرنا الله تعالى عن عباده المتقين المؤمنين في قوله : ﴿و الذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا و ذرياتنا قرة أعين و اجعلنا للمتقين إماماً﴾ وهذا القدرمرغوب فيه شرعاً، فإن من تمام محبة عبادة الله تعالى، أن يحب أن يكون من صلبه من يعبد الله وحده لا شريك له. ولهذا لما قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ قال ﴿و من

ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ و هو قوله ﴿و اجنبني و بنيّ أن نعبد الأصنام﴾ و قد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرةرضي الله عنه عن النبيﷺ، أنه قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أوعلم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له».

﴿و أرنا مناسكنا﴾ قال عطاء: أخرجها لنا، علّمناها، و قال مجاهد ﴿أرنا مناسكنا﴾ مذابحنا. و روي عن عطاء أيضاً و قتادة نحو ذلك. و روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس، قال: إن إبراهيم لما أري أوامر المناسك، عرض له الشيطان عند المسعى، فسابقه إبراهيم ثم انطلق به جبريل حتى أتى به منى، قال: هذا مناخ الناس، فلما انتهى إلى جمرة العقبة تعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أتى به الجمرة القصوى فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى يذهب، فأتى به جمعاً، فقال: هذا المشعر، ثم أتى به عرفة، فقال: هذه عرفة، فقال له جبريل: أعرفت؟.

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾

١٢٩- يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، أي من ذرية إبراهيم، و قد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد صلوات الله و سلامه عليه رسولاً في الأميين، إليهم و إلى سائر الأعجمين من الإنس والجن، كما روى الإمام أحمد عن أبي أمامة قال: قلت يا رسول الله: ما كان أول بدء أمرك؟ قال «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بي، و رأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام» المراد أن أول من نوّه بذكره و شهره في الناس إبرهيمعليه السلام، و لم يزل ذكره في الناس مذكوراً مشهوراً سائراً حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل نسباً، و هو عيسى بن مريمعليه السلام، حيث قام في بني إسرائيل خطيباً، وقال ﴿إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة و مبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ و لهذا قال في هذا الحديث دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى بن مريم.

و قوله: ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، قيل: كان مناماً رأته حين حلمت به، وقصته على قومها، فشاع فيهم واشتهر بينهم، وكان ذلك توطئة، و تخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه و نبوته ببلاد الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام و أهله، و بها ينزل عيسى بن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها، و لهذا جاء في الصحيحين «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم و لا من خالفهم حتى يأتي أمر الله و هم كذلك» و في صحيح البخاري «و هم بالشام» و عن أبي العالية في قوله ﴿ربنا و ابعث فيهم رسولاً منهم﴾ يعني أمة محمدﷺ، فقيل له قد استجيب لك، و هو كائن في آخر الزمان، و كذا قال السدي و قتادة، وقوله تعالى: ﴿و يعلمهم الكتاب﴾ يعني القرآن، ﴿والحكمة﴾ يعني السنة، قاله الحسن و قتادة ومقاتل بن حيان و أبو مالك و غيرهم، وقيل: الفهم في الدين و لا منافاة، ﴿ويزكيهم﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني طاعة الله، و قوله ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي العزيز الذي لا يعجزه شيء، و هو قادر على كل شيء، الحكيم في أفعاله و أقواله، فيضيع الأشياء في محالها لعلمه وحكمته و عدله.

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) ﴾

١٣٠- يقول تبارك و تعالى رداً على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله، المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء، فإنه جرَّد توحيد ربه تبارك و تعالى فلم يدعُ معه غيره و لا يشرك به طرفة عين، و تبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه، فقال **﴿يا قوم إني بريء مما تشركون* إني وجهت وجهي للذي فطر السموات و الأرض حنيفاً و ما أنا من المشركين﴾** و قال تعالى: **﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين* شاكراً لأنعمه اجتباه و هداه إلى صراط مستقيم* و آتيناه في الدنيا حسنة و إنه في الآخرة لمن الصالحين﴾** ولهذا و أمثاله قال تعالى: **﴿و من يرغب عن ملة إبراهيم﴾** عن طريقته و منهجه فيخالفها و يرغب عنها **﴿إلا من سفه نفسه﴾**؟ أي ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال حيث خالف طريق من اصطُفِي في الدنيا للهداية و الرشاد من حداثة سنه إلى أن اتخذه الله خليلاً، و هو في الآخرة من الصالحين السعداء، فمن ترك طريقه هذا و مسلكه و ملته، و اتبع طريق الضلال والغيّ، فأي سفه أعظم من هذا؟ أم أي ظلم أكبر من هذا؟ كما قال تعالى **﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾** قال أبو العالية وقتادة: نزلت هذه الآية في اليهود، أحدثوا طريقاً ليست من عند الله، و خالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه، و يشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى: **﴿ما كان إبراهيم يهودياً و لا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً و ما كان من المشركين* إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه و هذا النبي والذين آمنوا و الله ولي المؤمنين﴾**.

١٣١- و قوله تعالى **﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾** أي أمره الله بالإخلاص والاستسلام والانقياد، فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدراً، و قوله: **﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب﴾** أي وصى بهذه الملة، وهي الإسلام لله، أو يعود الضمير على الكلمة وهي قوله **﴿أسلمت لرب العالمين﴾** لحرصهم عليها و محبتهم لها، حافظوا عليها إلى حين الوفاة، و وصوا أبناءهم بها من بعدهم، كقوله تعالى: **﴿و جعلها كلمة باقية في عقبه﴾** و قد قرأ بعض السلف **﴿ويعقوبَ﴾** بالنصب عطفاً على بنيه، كأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحاق وكان حاضراً ذلك، و الظاهر و الله أعلم، أن إسحاق وُلد له يعقوب في حياة الخليل و سارة، لأن البشارة وقعت بهما في قوله **﴿فبشرناه بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب﴾** و قد قرئ بنصب يعقوب ههنا على نزع الخافض، فلو لم يوجد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحاق كبير فائدة، وقال في الآية الأخرى **﴿و وهبنا له إسحاق و يعقوب نافلة﴾** وهذا يقتضي أنه وجد في حياته، و أيضاً فإنه باني بيت المقدس، كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة، وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر قلت: يارسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال «بيت المقدس»، قلت: كم بينهما؟ قال «أربعون سنة» الحديث، فزعم ابن حبان أن بين سليمان الذي اعتقد أنه باني بيت المقدس- و إنما كان جدّده بعد خرابه و زخرفه- وبين إبراهيم أربعين سنة، و هذا مما أُنكر على ابن حبان، فإن المدة بينهما تزيد على ألوف السنين، والله أعلم، وأيضاً فإن وصية يعقوب لبنيه سيأتي ذكرها قريباً، و هذا يدل على أنه ههنا من جملة الموصين.

و قوله **﴿يا بنيّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا و أنتم مسلمون﴾** أي أحسنوا في حال الحياة، والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه، فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله الكريم عادته بأنه من قصد الخير وفق له و يسر عليه، و من نوى صالحاً ثبت عليه. و هذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح «إن الرجلَ لَيَعملُ بعملِ أهلِ الجنة حتى ما يكون بينه و بينها إلا باعٌ أو ذراعٌ، فَيَسبقُ عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. و إن الرجلَ ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه و بينها إلا باع أوذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث «ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ويعمل أهل النار فيما يبدو للناس» و قد قال الله تعالى: **﴿فأما من أعطى واتقى ◊ وصدق بالحسنى ◊ فسنيسره لليسرى ◊ و أما من بخل واستغنى ◊ وكذب بالحسنى ◊ فسنيسره للعسرى﴾**.

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) ﴾

١٣٣- يقول تعالى محتجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل، و على الكفار من بني إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام - بأن يعقوب لما حضرته الوفاة، وصّى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال لهم **﴿ماتعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك و إله آبائك إبراهيم و إسماعيل و إسحاق﴾** و هذا من باب التغليب، لأن إسماعيل عمه، قال النحاس: والعرب تسمي العم أباً، نقله القرطبي، و قد استدل بهذه الآية الكريمة من جعل الجد أباً وحجب به الإخوة [1] كما هو قول الصديق، حكاه البخاري عنه من طريق ابن عباس و ابن الزبير، ثم قال البخاري: و لم يختلف عليه، و إليه ذهبت عائشة أم المؤمنين، و به يقول الحسن البصري وطاووس و عطاء، و هو مذهب أبي حنيفة و غير واحد من السلف و الخلف، و قال مالك و الشافعي و أحمد في المشهور عنه أنه يقاسم الإخوة، و حكي ذلك عن عمر وعثمان و علي و ابن مسعود و زيدبن ثابت وجماعة من السلف و الخلف، و اختاره صاحبا أبي حنيفة القاضي أبويوسف و محمد بن الحسن، و لتقريرها موضع آخر. وقوله **﴿إلهاً واحداً﴾** أي نوحده بالألوهية و لانشرك به شيئاًغيره، **﴿و نحن له مسلمون﴾** أي مطيعون خاضعون، كما قال تعالى: **﴿و له أسلم من في السموات و الأرض طوعاً و كرهاً و إليه يرجعون﴾** والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة و إن تنوعت شرائعهم و اختلفت مناهجهم، كما قال تعالى: **﴿و ما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾**، و الآيات في هذا كثيرة والأحاديث، فمنها: قوله ﷺ «نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» و قوله تعالى: **﴿تلك أمة قد خلت﴾** أي مضت، **﴿لها ما كسبت و لكم ما كسبتم﴾** أي إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء و الصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعه عليكم، فإن لهم أعمالهم التي عملوها، و لكم أعمالكم **﴿ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾** و قال أبو العالية و الربيع وقتادة **﴿تلك أمة قد خلت﴾** يعني إبراهيم و إسحاق ويعقوب

---

(١) أي في الميراث.

والأسباط، ولهذا جاء في الأثر «مَن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[1].

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) ﴾

١٣٥ - روي عن ابن عباس قال: قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله عز و جل **﴿و قالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾** و قوله **﴿قل بل ملة إبراهيم حنيفاً﴾** أي لانريد ما دعوتمونا إليه من اليهودية و النصرانية بل نتبع **﴿ملة إبراهيم حنيفاً﴾** أي مستقيماً، قاله محمد بن كعب القرظي و عيسى بن جارية، و قال مجاهد: مخلصاً، و روى علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس حاجاً، و كذا روي عن الحسن و الضحاك و عطية و السدي، و قال أبو العالية: الحنيف الذي يستقبل البيت بصلاته، ويرى أن حجه عليه إن استطاع إليه سبيلاً. وقال مجاهد و الربيع بن أنس: **﴿حنيفاً﴾** أي متبعاً، و قال أبو قلابة: الحنيف الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم، و قال قتادة: الحنيفية شهادة أن لا إله إلا الله، يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والخالات و العمات، و ما حرم الله عز وجل، والختان.

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) ﴾

١٣٦ - أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل الله إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً، و ما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً، ونص على أعيان من الرسل، و أجمل ذكر بقية الأنبياء، و أن لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم **﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله و رسله و يقولون نؤمن ببعض و نكفر ببعض و يريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ۞ أولئك هم الكافرون حقاً﴾** الآية، و روى البخاري بسنده عن أبي هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية و يفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ «لاتصدقوا أهل الكتاب و لا تكذبوهم و قولوا آمنا بالله و ما أنزل إلينا».

و قد روى مسلم وأبو داود والنسائي من حديث ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ أكثر ما يصلي الركعتين اللتين قبل الفجر بـ **﴿آمنا بالله و ما أنزل إلينا﴾** الآية، و الأخرى بـ **﴿آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون﴾**.

وقال أبو العالية و الربيع وقتادة: الأسباط بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً، ولد كل رجل منهم أمة من الناس، فسموا الأسباط. و قال الخليل بن أحمد وغيره: الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في بني إسماعيل، و قال الزمخشري في الكشاف: الأسباط قبائل بني إسرائيل، و هذا يقتضي أن المراد بالأسباط ههنا شعوب بني إسرائيل، و ما أنزل الله من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم، كما قال موسى لهم **﴿اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً﴾** الآية، و قال تعالى: **﴿و قطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً﴾** وروي عن ابن عباس، قال: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: نوح و هود و صالح و شعيب و إبراهيم و لوط وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة و السلام[2].

﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ

(١) رواه مسلم في صحيحه. (٢) كذا! و قد ذكر تسعة.

﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨)﴾

١٣٧- يقول تعالى: فإن آمنوا، يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، بمثل ما آمنتم به يا أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله و رسله ولم يفرقوا بين أحد منهم **﴿فقد اهتدوا﴾** أي فقد أصابوا الحق و أرشدوا إليه **﴿وإن تولوا﴾** أي عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم **﴿فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله﴾** أي فسينصرك عليهم ويظفرك بهم **﴿و هو السميع العليم﴾**. روى ابن أبي حاتم بسنده عن زياد بن يونس عن نافع ابن أبي نعيم، قال: أرسل إلى بعض الخلفاء مصحف عثمان بن عفان ليصلحه، قال زياد: فقلت له: إن الناس ليقولون إن مصحفه كان في حجره حين قتل فوقع الدم على **﴿فسيكفيكهم الله و هو السميع العليم﴾** فقال نافع: بصرت عيني بالدم على هذه الآية.

١٣٨- و قوله **﴿صبغة الله﴾**، عن ابن عباس: دين الله، وكذا روي عن مجاهد و أبي العالية وعكرمة و إبراهيم والحسن و قتادة و الضحاك و عبد الله بن كثير و عطية العوفي و الربيع بن أنس و السدي نحو ذلك، و انتصاب **﴿صبغة الله﴾** إما على الإغراء كقوله **﴿فطرة الله﴾** أي الزموا ذلك عليكموه، و قال بعضهم: بدلاً من قوله **﴿ملة إبراهيم﴾** و قال سيبويه: هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله **﴿آمنا بالله﴾** كقوله **﴿وعد الله﴾**.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)﴾

١٣٩- يقول الله تعالى مرشداً نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين: **﴿قل أتحاجوننا في الله﴾** أي تناظروننا في توحيد الله والإخلاص له و الانقياد واتباع أوامره و ترك زواجره **﴿و هو ربنا و ربكم﴾** المتصرف فينا و فيكم المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له **﴿و لنا أعمالنا و لكم أعمالكم﴾** أي نحن براء منكم و مما تعبدون و أنتم براء منا، كما قال في الآية الأخرى **﴿فإن كذبوك فقل لي عملي و لكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل و أنا بريء مما تعملون﴾** و قال تعالى: **﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله و من اتبعن﴾** إلى آخر الآية، **﴿و نحن له مخلصون﴾** أي: في العبادة والتوجه.

١٤٠- ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم و من ذكر بعده من الأنبياء والأسباط، كانوا على ملتهم إما اليهودية و إما النصرانية، فقال: **﴿قل أأنتم أعلم أم الله﴾** يعني بل الله أعلم، و قد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولانصارى، كما قال تعالى: **﴿ما كان إبراهيم يهودياً و لا نصرانياً و لكن كان حنيفاً مسلماً و ما كان من المشركين﴾** الآية و التي بعدها، و قوله **﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾** قال الحسن البصري: كانوا يقرءون في كتاب الله الذي أتاهم إن الدين عند الله الإسلام، و إن محمداً رسول الله، و إن إبراهيم و إسماعيل و إسحاق ويعقوب و الأسباط، كانوا براء من اليهودية والنصرانية فشهدوا الله بذلك، و أقروا على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك، و قوله **﴿و ما الله بغافل عما تعملون﴾** تهديد ووعيد شديد، أي أن علمه

محيط بعملكم وسيجزيكم عليه.

١٤١- ثم قال تعالى: ﴿تلك أمة قد خلت﴾ أي مضت، ﴿لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾ أي لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ وليس يغني عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة منكم لهم، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر الله، واتباع رسله الذين بعثوا مبشرين ومنذرين، فإنه من كفر بنبي واحد، فقد كفر بسائر الرسل، ولا سيما بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين، إلى جميع الإنس والجن من المكلفين، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر أنبياء الله أجمعين.

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) ﴾

١٤٢- قيل: المراد بالسفهاء ههنا: مشركو العرب، قاله الزجاج، وقيل: أحبار يهود، قاله مجاهد، وقيل: المنافقون، قاله السدي، والآية عامة في هؤلاء كلهم، والله أعلم. روى البخاري بسنده عن البراء ﷺ: أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان يصلي معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قِبَل مكة، فداروا كما هم قبل البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تُحوّل قِبل البيت رجالاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ انفرد به البخاري من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر، وروى محمد بن إسحاق بسنده عن البراء، قال: كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس، ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فأنزل الله ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ فقال رجال من المسلمين: وددنا لو علمنا من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس، فأنزل الله ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ وقال السفهاء من الناس، وهم أهل الكتاب: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، فأنزل الله ﴿سيقول السفهاء من الناس﴾ إلى آخر الآية، وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة، وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يصلي بين الركنين، فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة، تعذر الجمع بينهما، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس، قاله ابن عباس والجمهور، ثم اختلف هؤلاء، هل كان الأمر به بالقرآن أو بغيره على قولين؟ وحكى القرطبي في تفسيره عن عكرمة وأبي العالية والحسن البصري: إن التوجه إلى بيت المقدس كان باجتهاده عليه السلام، والمقصود: إن التوجه إلى بيت المقدس بعد مقدمه ﷺ

المدينة ، و استمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهراً و كان يكثر الدعاء والابتهال أن يوجه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم عليه السلام ، فأجيب إلى ذلك و أمر بالتوجه إلى البيت العتيق ، فخطب رسول الله ﷺ الناس فأعلمهم بذلك ، وكان أول صلاة صلاها إليها صلاة العصر ، كما تقدم في الصحيحين من رواية البراء .

و وقع عند النسائي ، من رواية أبي سعيد بن المعلى أنها الظهر ، و قال : كنت أنا أول من صلى إلى الكعبة ، وذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم : أن تحويل القبلة نزل على رسول الله وقد صلى ركعتين من الظهر ، وذلك في مسجد بني سلمة ، فسمي مسجد القبلتين ، و في حديث نويلة بنت مسلم : أنهم جاءهم الخبر بذلك و هم في صلاة الظهر ، قالت : فتحول الرجال مكان النساء و النساء مكان الرجال ، ذكره الشيخ أبوعمر ابن عبد البر النمري ، و أما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر اليوم الثاني ، كما جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أنه قال : بينما الناس بقباء في صلاة الصبح ، إذجاءهم آت فقال : إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن و قد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة . وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلابعد العلم به ، و إن تقدم نزوله و إبلاغه ، لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء ، و الله أعلم . و لما وقع هذا ، حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود ارتياب ، وزيغ عن الهدى وتخبيط وشك ، و قالوا **﴿ماولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾** أي قالوا : ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا وتارة يستقبلون كذا ؟ فأنزل الله جوابهم في قوله **﴿قل لله المشرق والمغرب﴾** أي الحكم و التصرف و الأمر كله لله **﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾** و **﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب و لكن البر من آمن بالله﴾** أي الشأن كله في امتثال أوامر الله ، فحيثما وجهنا توجهنا ، فالطاعة في امتثال أمره و لو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة : فنحن عبيده وفي تصرفه ، وخدامه حيثما وجهنا توجهنا ، وهوتعالى له بعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه وأمته عناية عظيمة إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن ، وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له أشرف بيوت الله في الأرض ، إذ هي بناء إبراهيم الخليل عليه السلام و لهذا قال : **﴿قل لله المشرق و المغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾** . و قد روى الإمام أحمد عن عائشة ، قالت : قال رسول الله ﷺ ، يعني في أهل الكتاب : «إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها و ضلوا عنها ، و على القبلة التي هدانا الله لها و ضلوا عنها ، وعلى قولنا خلف الإمام : آمين» .

١٤٣ - و قوله تعالى : **﴿و كذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيداً﴾** يقول تعالى : إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام ، و اخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم ، لأن الجميع معترفون لكم بالفضل ، والوسط ههنا الخيار ، والأجود كما يقال : قريش أوسط العرب نسباً وداراً ، أي خيرها ، و كان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه ، أي أشرفهم نسباً ، و منه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات و هي العصر ، كما ثبت في الصحاح و غيرها . و لما جعل الله هذه الأمة وسطاً ، خصها بأكمل الشرائع ، و أقوم المناهج ، وأوضح المذاهب ، كما قال تعالى : **﴿هو اجتباكم و ما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم و تكونوا شهداء على الناس﴾** و روى الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ

«يُدْعَى نوحٌ يوم القيامة، فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ماأتانا من نذير، وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد و أمته، قال فذلك قوله: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ قال: والوسط العدل، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم» ورواه البخاري. و روى الإمام أحمد أيضاً عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ «يجيء النبي يوم القيامة و معه الرجلان و أكثر من ذلك، فيدعى قومه، فيقال: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد و أمته فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا، فذلك قوله عز وجل ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ قال: عدلاً ﴿لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا﴾.

و روى أحمد أيضاً: عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ قال عدلاً. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن بريدة عن أبي الأسود أنه قال: أتيت المدينة فوافقتها و قد وقع بها مرض، فهم يموتون موتا ذريعاً، فجلست إلى عمر بن الخطاب فمرت به جنازة فأُثنِيَ على صاحبها خيرٌ، فقال: وجبت وجبت، ثم مر بأخرى فأُثنِيَ عليها شرٌ، فقال عمر: وجبت. فقال أبو الأسود: ما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال رسول الله ﷺ «أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة» قال: فقلنا وثلاثة؟ قال: فقال: «وثلاثة» قال: فقلنا و اثنان؟ قال: «واثنان» ثم لم نسأله عن الواحد. و كذا رواه البخاري. وروى ابن مردويه عن أبي بكر بن أبي زهير الثقفي عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ بالنباوة يقول: «يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم» قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: «بالثناء الحسن والثناء السيء، أنتم شهداء الله في الأرض»، و رواه ابن ماجه و أحمد.

وقوله تعالى: ﴿و ما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه و إن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله﴾ يقول تعالى: إنما شرعنا لك يامحمد التوجه أولاً إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك و يطيعك، ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبه، أي مرتدا عن دينه ﴿و إن كانت لكبيرة﴾ أي هذه الفعلة و هو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس، إلا على الذين هدى الله قلوبهم و أيقنوا بتصديق الرسول، و أن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه، و أن الله يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما يشاء و ينسخ ما يشاء، و له الحكمة التامة و الحجة البالغة في جميع ذلك بخلاف الذين في قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكاً، كما يحصل للذين آمنوا إيقان و تصديق، كما قال الله تعالى: ﴿و إذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ◆ و أما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾، و قال تعالى: ﴿و ننزل من القرآن ما هو شفاء و رحمة للمؤمنين و لا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾.

ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول ﷺ واتباعه في ذلك، و توجه حيث أمره الله من غير شك و لا ريب من سادات الصحابة، و قد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين و الأنصار هم الذين صلوا إلى القبلتين. و روى البخاري في تفسير هذه الآية بسنده عن ابن عمر قال: بينا الناس يصلون الصبح في مسجد قباء

إذ جاء رجل فقال: قد أنزل على النبي ﷺ قرآن و قد أُمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، فتوجهوا إلى الكعبة. وقد رواه مسلم، و هذا يدل على كمال طاعتهم لله ولرسوله، و انقيادهم لأوامر الله عز و جل رضي الله عنهم أجمعين. وقوله: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أي صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك ما كان يضيع ثوابها عند الله، و في الصحيح من حديث البراء قال: مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس، فقال الناس: ما حالهم في ذلك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فرق بينها و بين ولدها فجعلت كلما وجدت صبياً من السبي أخذته فألصقته بصدرها وهي تدور على ولدها، فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها، فقال رسول الله ﷺ «أترون هذه طارحة ولدها في النار و هي تقدر على أن لاتطرحه؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها»:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) ﴾

١٤٤- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كان أول ما نسخ من القرآن: القبلة، و ذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة و كان أكثر أهلها اليهود، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، و كان يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو إلى الله و ينظر إلى السماء، فأنزل الله ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ إلى قوله: ﴿فولوا وجوهكم شطره﴾ فارتابت من ذلك اليهود وقالوا: ﴿ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق و المغرب﴾ و قال: ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ و قال الله تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾ و قوله ﴿فلنولينك قبلة ترضاها﴾ في أحد قولي الشافعي رحمه الله، إن الغرض إصابة عين الكعبة، والقول الآخر و عليه الأكثرون: أن المراد المواجهة، و هذا قول أبي العالية و مجاهد و عكرمة و سعيد بن جبير و قتادة والربيع بن أنس وغيرهم. وكما تقدم في الحديث الآخر «ما بين المشرق و المغرب قبلة».

و قوله: ﴿وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض شرقاً وغرباً و شمالاً و جنوباً، و لا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في حال السفر فإنه يصليها حيثما توجه قالبه وقلبه نحو الكعبة، و كذا في حال المسايفة في القتال يصلي على كل حال. وكذا من جهل جهة القبلة يصلي باجتهاده و إن كان مخطئاً في نفس الأمر، لأن الله تعالى لايكلف نفساً إلا وسعها.

(مسألة) وقد استدل المالكية بهذه الآية على أن المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده كما ذهب إليه الشافعي وأحمد و أبوحنيفة، قال المالكية بقوله: ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ فلو نظر إلى موضع سجوده لا حتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء و هو ينافي كمال القيام، و قال بعضهم: ينظر المصلي في قيامه إلى صدره. وقال شريك القاضي: ينظر في حال قيامه إلى موضع سجوده كما قال جمهور الجماعة، لأنه أبلغ في الخضوع وآكد في الخشوع و قد ورد به الحديث، و أما في حال ركوعه فإلى موضع قدميه، و في حال

سجوده إلى موضع أنفه ، و في حال قعوده إلى حجره . و قوله : ﴿و إن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم﴾ أي : و اليهود الذين أنكروا استقبالكم وانصرافكم عن بيت المقدس ، يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها بما في كتبهم عن أنبياءهم من النعت و الصفة لرسول الله ﷺ و أمته ، و ما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة ، و لكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسداً وكفراً و عناداً ، و لهذا تهددهم تعالى بقوله : ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ .

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) ﴾

١٤٥ – يخبر تعالى عن كفر اليهود و عنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعوه و تركو أهواءهم ، كما قال تعالى : ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون ۝ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ و لهذا قال ههنا ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ و قوله ﴿و ما أنت بتابع قبلتهم﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به ، وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم و أهوائهم ، فهو أيضاً مستمسك بأمر الله و طاعته و اتباع مرضاته ، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله ، ولا كونه متوجهاً إلى بيت المقدس لكونها قبلة اليهود ، و إنما ذلك عن أمر الله تعالى ، ثم حذر تعالى عن مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى ، فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره ، ولهذا قال مخاطباً للرسول و المراد به الأمة ﴿و لئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين﴾ .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) ﴾

١٤٦ – يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب ، يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده ، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا ، كما جاء في الحديث : أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صغير «ابنك هذا» ؟ قال : نعم يا رسول الله أشهد به ، قال : «أما أنه لا يجني عليك و لا تجني عليه» .

قال القرطبي : و يروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ، وابني لا أدري ما كان من أمه . (قلت) و قد يكون المراد ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ من بين أبناء الناس كلهم ، لا يشك أحد و لا يمتري في معرفة ابنه إذا رآه من أبناء الناس كلهم . ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق و الإتقان العلمي ﴿ليكتمون الحق﴾ أي ليكتمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ ﴿وهم يعلمون﴾ ، ثم ثبت تعالى نبيه ﷺ و المؤمنين ، وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه و لا شك ، فقال :

١٤٧ – ﴿الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ .

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾

١٤٨- روي عن ابن عباس: **﴿ولكل وجهة هو موليها﴾** يعني بذلك أهل الأديان، يقول لكل قبيلة قبلة يرضونها ووجهة الله حيث توجه المؤمنون. وقال أبو العالية: لليهودي وجهة هو موليها، وللنصراني وجهة هو موليها، وهداكم أنتم أيتها الأمة إلى القبلة التي هي القبلة. وروي عن مجاهد و عطاء و الضحاك و الربيع بن أنس والسدي نحو هذا، و قال مجاهد في الرواية الأخرى، و الحسن: أمر كل قوم أن يصلوا إلى الكعبة، و قرأ ابن عباس و أبو جعفر الباقر و ابن عامر **﴿و لكل وجهة هو مولاها﴾**، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: **﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً و لو شاء الله لجعلكم أمة واحدة و لكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً﴾** وقال ههنا **﴿أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير﴾** أي هو قادر على جمعكم من الأرض، وإن تفرقت أجسادكم و أبدانكم.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

١٤٩، ١٥٠- هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض، قد اختلفوا في حكمة هذا التكرار ثلاث مرات، فقيل: تأكيد، لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام على ما نص فيه ابن عباس وغيره، و قيل: بل هو منزل على أحوال، فالأمر الأول لمن هو مشاهد الكعبة، و الثاني لمن هو في مكة غائباً عنها، و الثالث لمن هو في بقية البلدان، هكذا وجهه فخر الرازي. و قال القرطبي: الأول لمن هو بمكة، و الثاني لمن هو في بقية الأمصار، والثالث لمن خرج في الأسفار، و رجح هذا الجواب القرطبي، و قيل غيرذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار، و قد بسطها الرازي و غيره، و الله أعلم.

وقوله، **﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾** أي: أهل الكتاب فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها، ربما احتجوا بها على المسلمين، و لئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس، و هذا أظهر، قال أبو العالية: **﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾** يعني به أهل الكتاب حين قالوا: صرف محمد إلى الكعبة. وقالوا: اشتاق الرجل إلى بيت أبيه و دين قومه، وكان حجتهم على النبي ﷺ انصرافه إلى البيت الحرام، أن قالوا: سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا، قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد وعطاء و الضحاك و الربيع بن أنس و قتادة والسدي نحو هذا، و قال هؤلاء في قوله **﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾** يعني مشركي قريش. ووجه بعضهم حجة الظلمة و هي داحضة، أن قالوا: إن هذا الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم، فلم رجع عنه؟ والجواب: أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أولاً لما له تعالى في ذلك من الحكمة، فأطاع ربه تعالى في ذلك ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم و هي الكعبة، فامتثل أمر الله في ذلك أيضاً، فهو صلوات الله و سلامه عليه مطيع لله في

جميع أحواله، لا يخرج عن أمر الله طرفة عين وأمته تبع له، و قوله، ﴿فلا تخشوهم و اخشوني﴾ أي لاتخشوا شُبَهَ الظلمة المتعنتين و أفردوا الخشية لي، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه، و قوله: ﴿ولأتم نعمتي عليكم﴾ عطف على ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾، أي، لأتم نعمتي عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة، لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها ﴿ولعلكم تهتدون﴾ أي إلى ما ضلت عنه الأمم هديناكم إليه وخصصناكم به، و لهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها.

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) ﴾

١٥١- يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم يتلو عليهم آيات الله مبينات، و يزكيهم، أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق، ودنس النفوس، و أفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور و يعلمهم الكتاب، و هو القرآن، و الحكمة وهي السنة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، فكانوا في الجاهلية الجهلاء يسفهون بالعقول الغراء، فانتقلوا ببركة رسالته، و يُمن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء، فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، و أصدقهم لهجة. و قال تعالى: ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته و يزكيهم﴾ الآية، و ذمّ من لم يعرف قدر هذه النعمة، فقال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾ قال ابن عباس: يعني بنعمة الله محمداً ﷺ، و لهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة و مقابلتها بذكره و شكره.

١٥٢- و قال: ﴿فاذكروني أذكركم و اشكروا لي و لا تكفرون﴾ قال مجاهد في قوله: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم﴾ يقول: كما فعلت فاذكروني، روى عبد الله بن وهب عن زيد بن أسلم أن موسى ﷺ قال: يا رب كيف أشكرك؟ قال له ربه: «تذكرني و لا تنساني، فإذا ذكرتني فقد شكرتني، و إذا نسيتني فقد كفرتني» قال الحسن البصري و أبو العالية و السدي و الربيع بن أنس: إن الله يذكر من ذكره، و يزيد مَنْ شكره، و يعذب مَن كفره، و قال بعض السلف في قوله تعالى، ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ قال: هو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر، و قال الحسن البصري في قوله: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ قال: اذكروني فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجبتُ لكم على نفسي، و عن سعيد بن جبير: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي، و في رواية: برحمتي. و عن ابن عباس في قوله: ﴿اذكروني أذكركم﴾ قال: ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه.

وروى الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عزو جل: يا ابن آدم، إنْ ذكَرتني في نفسك ذكرتك في نفسي، إن ذكرتني في ملأٍ ذكرتك في ملأ من الملائكة - أو قال: في ملأ خير منه - و إن دنوت مني شبراً دنوت منك ذراعاً، و إن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً، و إن أتيتني تمشي أتيتك هرولة»، وأخرجه البخاري. وقوله: ﴿و اشكروا لي و لا تكفرون﴾ أمر الله تعالى بشكره، ووعد على شكره بمزيد الخير فقال: ﴿و إذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم و لئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ و روى الإمام أحمد عن أبي رجاء العطاردي، قال: خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك و لا بعده، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أنعمَ اللهُ عليه نعمةً فإن الله يُحب أن يرى أثرَ نعمتهِ على خلقه»، و قال روح مرة:

«على عبده».

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ (١٥٤) ﴾

١٥٣- لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر، شرع في بيان الصبر و الإرشاد و الاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها، أو في نقمة فيصبر عليها، كما جاء في الحديث «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له: إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له»، وبيّن تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة، كما تقدم في قوله: **﴿و استعينوا بالصبر والصلاة و إنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾**، و في الحديث أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر صلى[1].

و الصبر صبران: فصبر على ترك المحارم و المآثم، وصبر على فعل الطاعات والقربات، و الثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود. و أما الصبر الثالث: وهو الصبر على المصائب و النوائب، فذلك أيضاً واجب كالاستغفار من المعايب، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الصبر في بابين: الصبر لله بما أحب و إن ثقل على الأنفس والأبدان، و الصبر لله عما كره و إن نازعت إليه الأهواء، فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يُسلَّم عليهم إن شاء الله.

١٥٤- و قوله تعالى: **﴿و لا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء﴾**، يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون، كما جاء في صحيح مسلم: «أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك اطلاعة، فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا و أي شيء نبغي، و أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا، قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى- لما يرون من ثواب الشهادة- فيقول الرب جل جلاله: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون». و في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن الإمام الشافعي عن الإمام مالك عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه» ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً، و إن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر في القرآن تشريفاً و تكريماً و تعظيماً.

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾

١٥٥- أخبرنا تعالى أنه يبتلي عباده، أي يختبرهم ويمتحنهم كما قال تعالى: **﴿و لنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم و الصابرين و نبلو أخباركم﴾** فتارة بالسراء و تارة بالضراء من خوف و جوع، كما قال تعالى: **﴿فأذاقها الله لباس الجوع و الخوف﴾** فإن الجائع و الخائف كل منهما يظهر ذلك عليه، و لهذا قال لباس الجوع والخوف.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٨٨) و أبو داود (٢/ ١٣١٩) و هو حسن.

وقال ههنا: ﴿بشيء من الخوف والجوع﴾ أي بقليل من ذلك ﴿ونقص من الأموال﴾ أي ذهاب بعضها ﴿والأنفس﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب ﴿والثمرات﴾ أي لا تغل الحدائق والمزارع كعادتها. قال بعض السلف: فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة، وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده فمن صبر أثابه، ومن قنط أحل به عقابه، ولهذا قال تعالى: ﴿وبشر الصابرين﴾ وقد حكى بعض المفسرين أن المراد من الخوف ههنا خوف الله، وبالجوع صيام رمضان، وبنقص الأموال الزكاة، والأنفس الأمراض، والثمرات الأولاد، وفي هذا نظر، والله أعلم، ثم بين تعالى من الصابرون الذي شكرهم فقال: ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ أي تسلوا بقولهم هذا عما أصابهم، وعلموا أنهم ملك لله يتصرف في عبيده بما يشاء، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده، وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة. ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك، فقال: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾ أي ثناء من الله عليهم. قال سعيد بن جبير: أي أمنة من العذاب ﴿وأولئك هم المهتدون﴾ قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: نعم العدلان ونعمت العلاوة ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾ فهذان العدلان ﴿وأولئك هم المهتدون﴾ فهذه العلاوة وهي ما توضع بين العدلين، وهي زيادة في الحمل فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً.

وقد ورد في ثواب الاسترجاع وهو قول ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة، فمن ذلك: ما رواه مسلم عن أم سلمة أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيراً منها إلا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها» قالت: فلما توفي أبو سلمة قلت: كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيراً منه رسول الله ﷺ. وروى الإمام أحمد عن أبي سنان قال: دفنت ابناً لي فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة يعني الخولاني فأخبرني وقال لي: ألا أبشرك؟ قلت: بلى قال: حدثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عازب عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ «قال الله: يا ملك الموت قبضتَ ولد عبدي؟ قبضتَ قرةَ عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم، قال: فما قال؟ قال: حمدك واسترجع، قال: ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد» ورواه الترمذي.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)﴾

١٥٨- روى أحمد عن عروة عن عائشة، قال: قلت أرأيت قول الله تعالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾، قلت: فوالله ما على أحد جناح أن لا يتطوف بهما؟ فقالت عائشة: بئسما قلت يا ابن أختي إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يُهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلَّل، وكان من أهلَّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية. فأنزل الله عز وجل: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر

الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ قالت عائشة: ثم قد سن رسول الله ﷺ الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما أخرجاه في الصحيحين. ثم روى البخاري عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنساً عن الصفا والمروة، قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله عز وجل: ﴿إن الصفا و المروة من شعائر الله﴾.

(قلت) ذكر محمد بن إسحاق في كتاب السيرة أن إسافاً و نائلة كانا بشرين، فزنيا داخل الكعبة فمسخا حجرين، فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس، فلما طال عهدهما عُبِدَا، ثم حولا إلى الصفا والمروة، فنصبا هنالك فكان من طاف بالصفا و المروة يستلمهما. وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل، و فيه أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من باب الصفا و هو يقول ﴿إن الصفا و المروة من شعائر الله﴾ ثم قال: «أبدأ بما بدأ الله به» و في رواية النسائي «ابدأوا بما بدأ الله به» وروى الإمام أحمد عن حبيبة بنت أبي تجراة قالت: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا و المروة و الناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى، حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره و هو يقول: «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي» وقد استدل بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعي بين الصفا و المروة ركن في الحج، كما هو مذهب الشافعي و من وافقه، و رواية عن أحمد و هو المشهور عن مالك. و قيل: إنه واجب وليس بركن، فإن تركه عمداً أو سهواً جبره بدم، و هو رواية عن أحمد و به يقول طائفة، و قيل: بل مستحب، و إليه ذهب أبو حنيفة و الثوري والشعبي وابن سيرين، و روي عن أنس و ابن عمر و ابن عباس، وحكي عن مالك في العتبية، قال القرطبي: و احتجوا بقوله تعالى: ﴿و من تطوع خيراً﴾ و القول الأول أرجح لأنه عليه السلام طاف بينهما، و قال: «لتأخذوا عني مناسككم» فكل ما فعله في حجته تلك واجب لابد من فعله في الحج، إلا ما خرج بدليل، و الله أعلم، و قد تقدم قوله عليه السلام «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي» فقد بين الله تعالى أن الطواف بين الصفا و المروة من شعائر الله، أي مما شرع الله تعالى لإبراهيم في مناسك الحج.

و قد تقدم في حديث ابن عباس، أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر و ترددها بين الصفا و المروة في طلب الماء لولدها لما نفد ماؤهما و زادهما حين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك، و ليس عندهما أحد من الناس، فلما خافت على ولدها الضيعة هنالك، ونفد ما عندهما، قامت تطلب الغوث من الله عز وجل، فلم تزل تتردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا و المروة، متذللة خائفة وجلة مضطرة فقيرة إلى الله عز و جل، حتى كشف الله كربتها، وآنس غربتها، و فرج شدتها، و أنبع لها زمزم التي مآؤها «طعام طُعْم، و شفاء سُقْم» فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره و ذله و حاجته إلى الله، في هداية قلبه و صلاح حاله و غفران ذنبه، و أن يلتجئ إلى الله عز و جل، لتفريج ما هو به من النقائص و العيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، و أن يثبته عليه إلى مماته و أن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي، إلى حال الكمال و الغفران و السداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام.

و قوله ﴿و من تطوع خيراً﴾ قيل: زاد في طوافه بينهما على قدر الواجب، ثامنة و تاسعة ونحو ذلك[1]

---

(١) و هو قول غريب و لم يؤثر عن النبي ﷺ أنه زاد على السبع و لا عن أصحابه و لا التابعين، والصحيح هو القول الثاني و هو الذي اختاره ابن جرير.

وقيل: يطوف بينهما في حجة تطوع أو عمرة تطوع، وقيل: المراد تطوع خيراً في سائر العبادات، حكى ذلك الرازي، وعزي الثالث إلى الحسن البصري، والله أعلم، وقوله **﴿فإن الله شاكر عليم﴾** أي يثيب على القليل بالكثير، عليم بقدر الجزاء فلا يبخس أحداً ثوابه، و **﴿لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾**.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (١٦٢) ﴾

١٥٩- هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاء به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة، والهدى النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله، قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب، كتموا صفة محمد ﷺ، ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء، والطير في الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، وقد ورد في الحديث المسند من طرائق يشد بعضها بعضاً عن أبي هريرة وغيره أن رسول الله ﷺ، قال: «مَنْ سُئِل عن علم فكتمه، أُلجم يوم القيامة بلجام من نار» والذي في الصحيح عن أبي هريرة أنه قال: لولا آية في كتاب الله، ما حدثت أحداً شيئاً **﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى﴾** الآية، وقال عطاء بن أبي رباح: كل دابة والجن والإنس، وقال مجاهد: إذا أجدبت الأرض، قال البهائم: هذا من أجل عصاة بني آدم، لعن الله عصاة بني آدم، وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة **﴿ويلعنهم اللاعنون﴾** يعني تلعنهم الملائكة والمؤمنون، وقد جاء في الحديث أن العالم يستغفر له كل شيء، حتى الحيتان في البحر، وجاء في هذه الآية أن كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون واللاعنون أيضاً، وهم كل فصيح وأعجمي، إما بلسان المقال، أو الحال، أن لو كان له عقل ويوم القيامة والله أعلم.

١٦٠- ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه، فقال: **﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا﴾** أي رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم، وبينوا للناس ما كانوا يكتمونه **﴿فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾** وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر، أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه. وقد ورد أن الأمم السابقة لم تكن التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم، ولكن هذا من شريعة نبي التوبة ونبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه.

١٦١- ثم أخبر تعالى عمن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأن **﴿عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها﴾** أي في اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيامة ثم المصاحبة لهم في نار جهنم التي **﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾** فيها أي لا ينقص عما هم فيه **﴿ولا هم ينظرون﴾** أي لا يغير عنهم ساعة واحدة ولا يفتر بل هو متواصل دائم، فنعوذ بالله من ذلك. قال أبو العالية وقتادة: إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله ثم تلعنه الملائكة، ثم يلعنه الناس أجمعون.

(فصل) لا خلاف في جواز لعن الكفار، و قد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن بعده من الأئمة، يلعنون الكفرة في القنوت و غيره، فأما الكافر المعين، فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يُلعن، لأنا لا ندري بم يختم الله له، واستدل بعضهم بالآية **﴿إن الذين كفروا و ماتوا و هم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾** وقالت طائفة أخرى: بل يجوز لعن الكافر المعين، واختاره الفقيه أبوبكر ابن العربي المالكي ولكنه احتج بحديث فيه ضعف، و استدل غيره بقوله عليه السلام في قصة الذي كان يُؤتى به سكران فيحده، فقال رجل لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به، فقال رسول الله ﷺ **«لاتلعنه فإنه يحب الله و رسوله»** فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يلعن، و الله أعلم.

﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) ﴾

١٦٣ - يخبر تعالى عن تفرده بالإلهية، و أنه لاشريك له ولا عديل له، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا إله إلا هو، الرحمن الرحيم وقد تقدم تفسير هذين الاسمين في أول الفاتحة، ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بخلق السموات و الأرض و ما فيهما و ما بين ذلك مما ذرأ و برأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته، فقال:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾

١٦٤ - يقول تعالى: **﴿إن في خلق السموات والأرض﴾** تلك في ارتفاعها و لطافتها و اتساعها و كواكبها، السيارة والثوابت و دوران فلكها، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها و جبالها و بحارها و قفارها و وهادها وعمرانها وما فيها من المنافع، واختلاف الليل و النهار، هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر و يعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: **﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر و لا الليل سابق النهار و كل في فلك يسبحون﴾** وتارة يطول هذا و يقصر هذا، و تارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعاوضان، كما قال تعالى: **﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾** أي يزيد من هذا في هذا، ومن هذا في هذا، **﴿و الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾** أي في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس، و الانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء، و ما عند أولئك إلى هؤلاء، **﴿وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها﴾** كما قال تعالى: **﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها و أخرجنا منها حباً فمنه يأكلون﴾** - إلى قوله - **﴿و مما لا يعلمون﴾** **﴿و بث فيها من كل دابة﴾** أي على اختلاف أشكالها و ألوانها و منافعها و صغرها و كبرها، وهو يعلم ذلك كله و يرزقه، لايخفى عليه شيء من ذلك، كما قال تعالى: **﴿و ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها و يعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾** **﴿وتصريف الرياح﴾** أي فتارة تأتي بالرحمة، و تارة تأتي بالعذاب، وتارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه، و تارة تجمعه، و تارة تفرقه، و تارة تصرفه، ثم تارة تأتي من الجنوب وهي الشامية، و تارة تأتي من ناحية اليمن، وتارة صبا، و هي الشرقية التي

تصدم وجه الكعبة، وتارة دبوراً وهي غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة. و قد صنف الناس في الرياح و المطر والأنواء كتباً كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها، وبسط ذلك يطول ههنا، و الله أعلم.

﴿و السحاب المسخر بين السماء والأرض﴾ أي سائر بين السماء والأرض، مسخر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن، كما يصرفه تعالى، ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ أي في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إن في خلق السموات و الأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب◆ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم و يتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾. وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن ابن عباس، قال: أتت قريش محمداًﷺ فقالوا: يا محمد، إنا نريد أن تدعو ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً فنشتري به الخيل والسلاح، فنؤمن بك و نقاتل معك، قال: «أوثقوا لي لئن دعوت ربي فجعل لكم الصفا ذهباً لتؤمنن بي» فأوثقوا له، فدعا ربه، فأتاه جبريل فقال: إن ربك قد أعطاهم الصفا ذهباً على أنهم إن لم يؤمنوا بك عذبهم عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين، قال محمدﷺ «رب لا، بل دعني و قومي فلأدعهم يوماً بيوم»، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إن في خلق السموات و الأرض و اختلاف الليل و النهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾ الآية، و رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر و زاد في آخره: و كيف يسألونك الصفا و هم يرون من الآيات ما هو أعظم من الصفا؟.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾

١٦٥- يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا، و ما لهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أنداداً أي أمثالاً ونظراء، يعبدونهم معه و يحبونهم كحبه، و هو الله لا إله إلا هو، و لا ضد له و لا ند له، و لا شريك معه. وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود، قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» وقوله: ﴿و الذين آمنوا أشد حباً لله﴾ و لحبهم لله و تمام معرفتهم به و توقيرهم و توحيدهم له، لا يشركون به شيئاً بل يعبدونه وحده، و يتوكلون عليه، و يلجأون في جميع أمورهم إليه. ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك، فقال ﴿و لو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً﴾ قال بعضهم: تقدير الكلام، لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعاً، أي أن الحكم له وحده لا شريك له، و أن جميع الأشياء تحت قهره و غلبته و سلطانه ﴿و أن الله شديد العذاب﴾ كما قال ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد◆ ولا يوثق وثاقه أحد﴾ يقول: لو يعلمون ما يُعاينونه هنالك و ما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم و كفرهم لانتهوا عما هم فيه من الضلال.

١٦٦- ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم و تبري المتبوعين من التابعين، فقال: ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا﴾ تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا، فيقول الملائكة: ﴿تبرأنا إليك ما

كانوا إيانا يعبدون﴾ ويقولون: ﴿سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾، والجن أيضاً تتبرأ منهم، ويتنصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: ﴿و من أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ❁ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء و كانوا بعبادتهم كافرين﴾ و قال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً ❁ كلا سيكفرون بعبادتهم و يكونون عليهم ضداً﴾ و قال الخليل لقومه: ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض و يلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار و ما لكم من ناصرين﴾، و قال تعالى: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم و ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني و لوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم و ما أنتم بمصرخيّ إني كفرت بما أشركتمونِ من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾.

و قوله: ﴿و رأوا العذاب و تقطعت بهم الأسباب﴾ أي عاينوا عذاب الله وتقطعت بهم الحيل و أسباب الخلاص، و لم يجدوا عن النار معدلاً و لا مصرفاً. قال عطاء عن ابن عباس ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ قال: المودة، و كذا قال مجاهد في رواية ابن نجيح.

١٦٧- و قوله: ﴿وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا﴾ أي لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء و من عبادتهم، فلا نلتفت إليهم بل نوحد الله وحده بالعبادة، و هم كاذبون في هذا، بل لو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه و إنهم لكاذبون، كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك، و لهذا قال: ﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم﴾ أي تذهب و تضمحل كما قال تعالى: ﴿و قدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ و قال تعالى: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿و الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء﴾ الآية، و لهذا قال تعالى: ﴿وما هم بخارجين من النار﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (١٦٩) ﴾

١٦٨- لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو، و أنه المستقل بالخلق، شرع يبين أنه الرزاق لجميع خلقه، فذكر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً من الله طيباً، أي مستطاباً في نفسه غير ضار للأبدان و لا للعقول، و نهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، و هي طرائقه ومسالكه فيما أضل اتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب و الوصائل و نحوها، مما كان زينه لهم في جاهليتهم، كما في حديث عياض بن حمار الذي في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال «يقول الله تعالى: إن كل مال منحته عبادي فهو لهم حلال- و فيه- و إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم»، وقوله: ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ تنفير عنه و تحذير منه، كما قال: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ و قال تعالى: ﴿أفتتخذونه و ذريته أولياء من دوني و هم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾ و قال قتادة و السدي في قوله: ﴿و لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾: كل معصية لله فهي من

خطوات الشيطان، و قال عكرمة: هي نزغات الشيطان، و قال مجاهد: خطؤه أو قال خطاياه، و قال أبو مجلز: هي النذور في المعاصي، و قال الشعبي: نذر رجل أن ينحر ابنه، فأفتاه مسروق بذبح كبش، و قال: هذا من خطوات الشيطان، و عن مسروق: أُتي عبد الله ابن مسعود بضرع و ملح، فجعل يأكل فاعتزل رجل من القوم فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم، فقال: لا أريده، فقال: أصائم أنت قال: لا، قال: فما شأنك؟ قال: حرّمت أن آكل ضرعاً أبداً، فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان، فأطعم و كفّر عن يمينك، رواه ابن أبي حاتم.

١٦٩- و قوله: ﴿**إنما يأمركم بالسوء و الفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**﴾ أي إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة، و أغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، و أغلظ من ذلك و هو القول على الله بلا علم، فيدخل في هذا كل كافر و كل مبتدع أيضاً.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) ﴾

١٧٠- يقول تعالى: و إذا قيل لهؤلاء الكفرة من المشركين: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال و الجهل، قالوا في جواب ذلك: بل نتبع ما ألفينا، أي وجدنا عليه آباءنا، أي: من عبادة الأصنام والأنداد، قال الله تعالى منكراً عليهم: ﴿**أولو كان آباؤهم**﴾ أي الذين يقتدون بهم و يقتفون أثرهم ﴿**لا يعقلون شيئاً و لا يهتدون**﴾ أي ليس لهم فهم و لا هداية. ثم ضرب لهم تعالى مثلاً كما قال تعالى: ﴿**للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء**﴾ فقال:

١٧١- ﴿**و مثل الذين كفروا**﴾ أي فيما هم فيه من الغيّ و الضلال و الجهل، كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها بل إذا نعق بها راعيها، أي دعاها إلى ما يرشدها، لا تفقه مايقول و لا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط. هكذا روي عن ابن عباس وأبي العالية و مجاهد وعكرمة و عطاء و الحسن وقتادة و عطاء الخراساني والربيع بن أنس نحو هذا. و قيل: إنما هذا مثل ضرب لهم في دعائهم الأصنام التي لا تسمع و لا تبصر و لا تعقل شيئاً، اختاره ابن جرير، و الأول أولى، لأن الأصنام لا تسمع شيئاً و لا تعقله و لا تبصره و لا بطش لها و لا حياة فيها. و قوله ﴿**صم بكم عمي**﴾ أي صم عن سماع الحق، بكم لا يتفوهون به، عمي عن رؤية طريقه و مسلكه ﴿**فهم لا يعقلون**﴾ أي لا يعلمون شيئاً و لا يفهمونه، كما قال تعالى: ﴿**و الذين كذبوا بآياتنا صم و بكم في الظلمات من يشأ الله يضلله و من يشأ يجعله على صراط مستقيم**﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) ﴾

١٧٢- يقول تعالى: آمراً عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى، و أن يشكروه تعالى على ذلك إن

كانوا عبيده، و الأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء و العبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة. كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: **﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾**، و قال **﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾** ثم ذكر الرجل يُطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا ربِّ يا ربِّ، و مَطعمه حرامٌ و مشربه حرام و ملبسه حرام، وغُذّي بالحرام فأنى يُستجاب لذلك؟» و رواه مسلم في صحيحه والترمذي.

١٧٣- و لما امتن الله تعالى عليهم برزقه وأرشدهم إلى الأكل من طيبه، ذكر أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة، و هي التي تموت حتف أنفها من غير تذكية و سواء كانت منخنقة أوموقوذة أو متردية أو نطيحة أو قد عدا عليها السبع، وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى: **﴿أحل لكم صيد البحر و طعامه﴾** على ما سيأتي إن شاء الله، وحديث العنبر في الصحيح، و في المسند و الموطأ و السنن قوله عليه السلام في البحر «هو الطهور ماؤه و الحل ميتته» و روى الشافعي وأحمد و ابن ماجه و الدار قطني حديث ابن عمر مرفوعاً «أحل لنا ميتتان و دمان، السمك و الجراد و الكبد و الطحال» و سيأتي تقرير ذلك إن شاء الله في سورة المائدة.

(مسألة) و لبن الميتة و بيضها المتصل بها نجس عند الشافعي و غيره. لأنه جزء منها. و قال مالك في رواية: هو طاهر إلا أنه ينجس بالمجاورة، و كذلك أنفخة الميتة فيها الخلاف و المشهور عندهم أنها نجسة، و قد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جبن المجوس، فقال القرطبي في التفسير ههنا يخالط اللبن منها يسير، و يعف عن قليل النجاسة إذا خالط الكثير من المائع، و كذلك حرم عليهم لحم الخنزير سواء ذكي أم مات حتف أنفه، ويدخل شحمه في حكم لحمه، إما تغليباً أو أن اللحم يشمل ذلك، أو بطريق القياس على رأي، و كذلك حرم عليهم ما أهل به لغير الله، و هو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب و الأنداد والأزلام ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له. و أورد القرطبي عن عائشة رضي الله عنها: أنها سئلت عما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون للمسلمين فقالت: ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه، و كلوا من أشجارهم.

ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة و الاحتياج إليها عند فقد غيرها من الأطعمة، فقال **﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد﴾** أي في غير بغي و لا عدوان و هو مجاوزة الحد **﴿فلا إثم عليه﴾** أي في أكل ذلك **﴿إن الله غفور رحيم﴾**، و قال مجاهد: فمن اضطر غير باغ و لا عاد، قاطعاً للسبيل أو مفارقاً للأئمة، أو خارجاً في معصية الله، فله الرخصة، و من خرج باغياً أو عادياً أو في معصية الله فلا رخصة و إن اضطر إليه، و كذا روي عن سعيد بن جبير، و قال سعيد في رواية عنه و مقاتل بن حيان: غير باغ يعني غير مستحلة، و قال السدي: غير باغ، يبتغي فيه شهوته، و عن ابن عباس: لا يشبع منها، و فسره السدي بالعدوان، و عن ابن عباس **﴿غير باغ ولا عاد﴾** قال **﴿غير باغ﴾** في الميتة و لا عاد في أكله، و قال قتادة: غير باغ في الميتة أي في أكله أن يتعدّى حلالاً إلى حرام، و هو يجد عنه مندوحة، و حكي القرطبي عن مجاهد في قوله: فمن اضطر، أي أكره على ذلك بغير اختياره.

(مسألة) إذا وجد المضطر ميتة و طعام الغير بحيث لا قطع فيه و لا أذى، فإنه لا يحل له أكل الميتة بل يأكل طعام الغير بغير خلاف كذا قال. ثم قال: وإذا أكله، و الحالة هذه، هل يضمن أم لا؟ فيه قولان هما روايتان عن

مالك، ثم أورد من سنن ابن ماجه من حديث عباد بن شرحبيل الغُبَري قال: أصابتنا عاماً مخمصة، فأتيت المدينة، فأتيت حائطاً، فأخذت سنبلا ففركته و أكلته، وجعلت منه في كسائي، فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي، فأتيت رسول اللهﷺ فأخبرته، فقال للرجل: «ما أطعمته إذ كان جائعاً أو ساغباً، و لا علمته إذ كان جاهلاً» فأمره فرد إليه ثوبه، و أمر له بوسق من طعام أو نصف وسق، إسناد صحيح قوي جيد و له شواهد كثيرة: من ذلك حديث عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده: سئل رسول اللهﷺ عن الثمر المعلق، فقال: «من أصاب منه من ذي حاجة بفيه غير متخذ خبنة؛ فلا شيء عليه» الحديث، و قال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾: فيما أكل من اضطرار، وبلغنا ـ والله أعلم ـ أنه لا يزاد على ثلاث لقم، و قال سعيد بن جبير: غفور لما أكل من الحرام، رحيم إذ أحل له الحرام في الاضطرار، و عن مسروق، قال: من اضطر فلم يأكل و لم يشرب ثم مات، دخل النار. و هذا يقتضي أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة، قال أبو الحسن الطبري المعروف بالكيا الهراسي ـ رفيق الغزالي في الاشتغال ـ: و هذا هو الصحيح عندنا، كالافطار للمريض و نحو ذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)﴾

١٧٤ـ يقول تعالى: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ يعني اليهود الذين كتموا صفة محمدﷺ في كتبهم التي بأيديهم مما تشهد له بالرسالة و النبوة، فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم و ما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا و التحف على تعظيمهم إياهم، فخشوا ـ لعنهم الله ـ إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم، فكتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك وهو نزر يسير، فباعوا أنفسهم بذلك واعتاضوا عن الهدى و اتباع الحق و تصديق الرسول و الإيمان بما جاء عن الله، بذلك النزر اليسير، فخابوا وخسروا في الدنيا و الآخرة، أما في الدنيا فإن الله أظهر لعباده صدق رسوله بما نصبه و جعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات، فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه، وصاروا عوناً له على قتالهم، و باءوا بغضب على غضب، و ذمهم الله في كتابه في غير موضع، فمن ذلك هذه الآية الكريمة ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب و يشترون به ثمناً قليلاً﴾ و هو عرض الحياة الدنيا ﴿أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ أي إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق، ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً و سيصلون سعيراً﴾ و في الحديث الصحيح عن رسول اللهﷺ أنه قال: «الذي يأكل ويشرب في آنية الذهب و الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم»، وقوله: ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة و لا يزكيهم و لهم عذاب أليم﴾ و ذلك لأنه تعالى غضبان عليهم، لأنهم كتموا و قد علموا، فاستحقوا الغضب، فلا ينظر إليهم و لا يزكيهم، أي يثني عليهم و يمدحهم بل يعذبهم عذاباً أليماً.

وقد ذكر ابن أبي حاتم و ابن مردويه، ههنا حديث أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، و لهم عذاب أليم: شيخٌ زانٍ، ومَلِكٌ كذابٌ، و عائل مستكبر».

١٧٥ - ثم قال تعالى مخبراً عنهم **﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾** أي اعتاضوا عن الهدى، و هو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه و البشارة به من كتب الأنبياء و اتباعه و تصديقه، استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه الضلالة، و هو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته في كتبهم **﴿و العذاب بالمغفرة﴾** أي اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب، و هو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة، و قوله تعالى: **﴿فما أصبرهم على النار﴾** يخبر تعالى أنهم في عذاب شديد عظيم هائل، يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك، مع شدة ما هم فيه من العذاب والنكال و الأغلال، عياذاً بالله من ذلك، و قيل معنى قوله: **﴿فما أصبرهم على النار﴾** أي فما أدومهم لعمل المعاصي التي تفضي بهم إلى النار.

١٧٦ - وقوله تعالى: **﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق﴾** أي إنما استحقوا هذا العذاب الشديد، لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ و على الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزواً، فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره فخالفوه و كذبوه، و هذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، و هم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه و يكتمون صفته، فاستهزؤا بآيات الله المنزلة على رسله، فلهذا استحقوا العذاب والنكال، و لهذا قال **﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق و إن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾**.

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾

١٧٧ - اشتملت هذه الآية على جمل عظيمة وقواعد عميمة، وعقيدة مستقيمة، فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب و بعض المسلمين، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك، و هو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل، و امتثال أوامره، والتوجه حيثما وجّه واتباع ما شرع، فهذا هو البر و التقوى و الإيمان الكامل، و ليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب برٌ و لا طاعة، إن لم يكن عن أمر الله و شرعه، و لهذا قال **﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق و المغرب و لكن البر من آمن بالله و اليوم الآخر﴾** الآية، كما قال في الأضاحي والهدايا **﴿لن ينال الله لحومها و لا دماؤها و لكن يناله التقوى منكم﴾** و قال أبو العالية: كانت اليهود تقبل قِبَل المغرب، و كانت النصارى تُقْبل قِبَل المشرق، فقال الله تعالى: **﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾** يقول: هذا كلام الإيمان و حقيقته العمل، وروي عن الحسن والربيع بن أنس مثله؛ قال مجاهد: ولكن البر ما ثبت في القلوب من طاعة الله عز و جل، وقال الضحاك: و لكن البر و التقوى أن تؤدوا الفرائض على وجوهها، و قال

الثوري: ﴿ولكن البر من آمن بالله﴾ الآية قال: هذه أنواع البر كلها.

و صدق رحمه الله، فإن من اتصف بهذه الآية، فقد دخل في عُرى الإسلام كلها، و أخذ بمجامع الخير كله، و هو الإيمان بالله و أنه لا إله إلا هو، و صدق بوجود الملائكة الذين هم سَفَرَةٌ بين الله ورسله ﴿والكتاب﴾ و هو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب الذي انتهى إليه كل خير، و اشتمل على كل سعادة في الدنيا و الآخرة، و نسخ به كل ما سواه من الكتب قبله، و آمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله و سلامه عليه و عليهم أجمعين، وقوله ﴿وآتى المال على حبه﴾ أي أخرجه و هو محب له راغب فيه، نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً «أفضل الصدقة أن تصدق و أنتَ صحيحٌ شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر»، وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «﴿وآتى المال على حبه﴾ أن تعطيه و أنت صحيح شحيح، تأمل العيش و تخشى الفقر» رواه الحاكم ثم قال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، و قال تعالى: ﴿و يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً و أسيراً ۞ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء و لا شكوراً﴾ و قال تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ و قوله: ﴿ويؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة﴾ نمط آخر أرفع من هذا، و هو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه وهؤلاء أعطوا و أطعموا ما هم محبون له.

وقوله: ﴿ذوي القربى﴾ و هم قرابات الرجل و هم أولى من أعطى من الصدقة كما ثبت في الحديث «الصدقة على المساكين صدقة، و على ذي الرحم اثنتان: صدقة و صلة»[1]. فهم أولى الناس بك و ببرك وإعطائك. وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم في غير موضع من كتابه العزيز ﴿واليتامى﴾ هم الذين لا كاسب لهم، و قد مات آباؤهم و هم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب، و قد روى عبد الرزاق، عن علي، عن رسول الله ﷺ قال: «لا يُتمَ بعد حلم» ﴿والمساكين﴾ و هم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسُكّانهم، فيعطون ما تسد به حاجتهم وخلتهم، و في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي ترده التمرة و التمرتان واللقمة و اللقمتان، و لكن المسكين الذي لا يجد غِنًى يغنيه و لا يفطن له فيتصدق عليه»، ﴿و ابن السبيل﴾ وهو المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقته فيعطي ما يوصله إلى بلده، و كذا الذي يريد سفراً في طاعة فيعطي ما يكفيه في ذهابه و إيابه، و يدخل في ذلك الضيف، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: ابن السبيل هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين، و كذا قال مجاهد و سعيد بن جبير و أبوجعفر الباقر و الحسن وقتادة و الضحاك والزهري والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان ﴿و السائلين﴾ و هم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات، ﴿و في الرقاب﴾ و هم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم، و سيأتي الكلام على كثير من هذه الأصناف في آية الصدقات من براءة إن شاء الله تعالى، و قوله ﴿وأقام الصلاة و آتى الزكاة﴾ أي و أتم أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها و خشوعها على الوجه الشرعي المرضي، و قوله: ﴿وآتى الزكاة﴾ يحتمل أن يكون المراد به زكاة النفس، و تخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة كقوله: ﴿قد أفلح من زكاها ۞ و قد خاب من دساها﴾ وقول

(١) رواه أحمد و الترمذي و النسائي و ابن ماجه من حديث سلمان بن عامر رضي الله عنه.

موسى لفرعون ﴿هل لك إلى أن تزكى ❁ وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ وقوله تعالى: ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾ ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال، كما قاله سعيد بن جبير و مقاتل بن حيان، و يكون المذكور من إعطاء هذه الجهات و الأصناف المذكورين، إنما هو التطوع و البر والصلة.

و قوله: ﴿و الموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾، كقوله: ﴿الذين يوفون بعهد الله و لا ينقضون الميثاق﴾ وعكس هذه الصفة النفاق، كما صح في الحديث «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، و إذا وعد أخلف، و إذا ائتمن خان» و في الحديث الآخر: «و إذا حدث كذب، و إذا عاهد غدر، و إذا خاصم فجر» و قوله: ﴿والصابرين في البأساء و الضراء و حين البأس﴾ أي في حال الفقر و هو البأساء، و في حال المرض و الأسقام وهو الضراء ﴿وحين البأس﴾ أي في حال القتال والتقاء الأعداء، قاله ابن مسعود و ابن عباس و أبو العالية ومرة الهمداني ومجاهد وسعيد بن جبير و الحسن وقتادة والربيع بن أنس و السدي و مقاتل بن حيان و أبو مالك والضحاك وغيرهم، و إنما نصب ﴿الصابرين﴾ على المدح والحث على الصبر في هذه الأحوال لشدته وصعوبته، والله أعلم، و هو المستعان و عليه التكلان، وقوله ﴿أولئك الذين صدقوا﴾، أي هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم، لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال و الأفعال، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿وأولئك هم المتقون﴾ لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) ﴾

١٧٨- يقول تعالى: كُتب عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون، حركم بحركم، و عبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، و لا تتجاوزوا وتعتدوا كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم، وسبب ذلك قريظة والنضير، كانت بنو النضير قد غزت قريظة في الجاهلية و قهروهم، فكان إذا قتل النضري القرظي لا يقتل به، بل يُفادى بمائة وسق من التمر، و إذا قتل القرظي النضري قتل به، و إن فاذوه فدوه بمائتي وسق من التمر ضعف دية القرظي، فأمر الله بالعدل في القصاص، و لا يتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم كفراً وبغياً، فقال الله تعالى: ﴿كتب عليكم القصاص في القتلى، الحر بالحر و العبد بالعبد و الأنثى بالأنثى﴾ و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿و الأنثى بالأنثى﴾ و ذلك أنهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة، و لكن يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة، فأنزل الله: النفس بالنفس و العين بالعين، فجعل الأحرار في القصاص سواء فيما بينهم من العمد رجالهم و نساؤهم في النفس و فيما دون النفس، و جعل العبيد مستويين فيما بينهم من العمد في النفس و فيما دون النفس رجالهم و نساؤهم، و كذلك روي عن أبي مالك أنها منسوخة بقوله ﴿النفس بالنفس﴾. (مسألة) ذهب أبو حنيفة إلى أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة، و إليه ذهب الثوري وابن أبي ليلى و داود، و هو مروي عن علي و ابن مسعود وسعيد بن المسيب و إبراهيم النخعي و قتادة والحكم،

قال البخاري و علي بن المديني وإبراهيم النخعي و الثوري في رواية عنه : و يقتل السيد بعبده ، لعموم حديث الحسن عن سمرة «و من قتل عبده قتلناه ، و من جدع عبده جدعناه ، و من خصاه خصيناه»[1] ، وخالفهم الجمهور فقالوا : لايقتل الحر بالعبد ، لأن العبد سلعة لو قُتل خطأ لم يجب فيه دية و إنما تجب فيه قيمته ، و لأنه لا يقاد بطرفه ففي النفس بطريق الأولى ، و ذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر ، لما ثبت في البخاري عن علي ، قال قال رسول الله ﷺ «و لايقتل مسلم بكافر» و لا يصح حديث و لا تأويل يخالف هذا ، و أما أبو حنيفة فذهب إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة .

(مسألة) قال الحسن و عطاء : لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية ، و خالفهم الجمهور لآية المائدة و لقوله عليه السلام : «المسلمون تتكافأ دماؤهم» .

(مسألة) و مذهب الأئمة الأربعة و الجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد ، قال عمر في غلام قتله سبعة فقتلهم ، وقال : لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم ، و لا يعرف له في زمانه مخالف من الصحابة ، و ذلك كالإجماع .

﴿فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف و أداء إليه بإحسان﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد ، و كذا روي عن أبي العالية و أبي الشعثاء و مجاهد و سعيد بن جبير وعطاء و الحسن و قتادة و مقاتل بن حيان ، وقال الضحاك عن ابن عباس : ﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾ يعني : فمن ترك له من أخيه شيء يعني أخذ الدية بعد استحقاق الدم ، وذلك العفو ، ﴿فاتباع بالمعروف﴾ يقول : فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا قبل الدية ، ﴿و أداء إليه بإحسان﴾ يعني من القاتل من غير ضرر و لا مَعْك يعني المدافعة ، و روى الحاكم عن ابن عباس : و يؤدي المطلوب بإحسان ، و كذا قال سعيد بن جبير و أبو الشعثاء جابر بن زيد و الحسن وقتادة و عطاء الخراساني والربيع بن أنس و السدي ومقاتل بن حيان .

(مسألة) قال مالك رحمه الله في رواية ابن القاسم عنه وهو المشهور ، و أبو حنيفة و أصحابه ، والشافعي وأحمد في أحد قوليه : ليس لولي الدم أن يعفو على الدية إلا برضا القاتل ، و قال الباقون : له أن يعفو عليها و إن لم يرض .

(مسألة) و ذهب طائفة من السلف إلى أنه ليس للنساء عفو ، منهم الحسن و قتادة و الزهري و ابن شبرمة و الليث و الأوزاعي ، و خالفهم الباقون .

وقوله : ﴿ذلك تخفيف من ربكم و رحمة﴾ يقول تعالى : إنما شرع لكم أخذ الدية في العمل تخفيفاً من الله عليكم ، و رحمة بكم مما كان محتوماً على الأمم قبلكم من القتل أو العفو ، كما روى سعيد بن منصور عن ابن عباس قال : كتب على بني إسرائيل القصاص في القتلى ، و لم يكن فيهم العفو ، فقال الله لهذه الأمة ﴿كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر و العبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد و قد رواه ابن حبان . و قال قتادة ﴿ذلك تخفيف من ربكم﴾ رحم الله هذه الأمة و أطعمهم الدية و لم تحل لأحد قبلهم ، فكان أهل التوراة إنما هو القصاص و عفو ليس بينهم أرش وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أمروا به ، و جعل لهذه الأمة القصاص و العفو والأرش ، و هكذا روي عن سعيد بن جبير و مقاتل بن حيان والربيع بن أنس نحو هذا . و قوله ﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾ يقول تعالى : فمن قتل بعد أخذ الدية

(١) و هو حديث ضعيف .

أو قبولها، فله عذاب من الله أليم موجع شديد، و هكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وعطاء و عكرمة و الحسن و قتادة و الربيع بن أنس والسدي و مقاتل بن حيان.

١٧٩- و قوله **﴿و لكم في القصاص حياة﴾** يقول تعالى: و في شرع القصاص لكم، و هو قتل القاتل حكمة عظيمة و هي بقاء المهج و صونها، لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه، فكان في ذلك حياة للنفوس، و في الكتب المتقدمة: القتل أنفى للقتل، فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ و أوجز **﴿و لكم في القصاص حياة﴾** قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل. و كذا روي عن مجاهد و سعيد بن جبير و أبي مالك و الحسن وقتادة والربيع بن أنس و مقاتل بن حيان **﴿يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾** يقول يا أولي العقول والأفهام و النهى، لعلكم تنزجرون و تتركون محارم الله و مآثمه، و التقوى اسم جامع لفعل الطاعات و ترك المنكرات.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨٢) ﴾

١٨٠- اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين و الأقربين، و قد كان ذلك واجباً على أصح القولين قبل نزول آية المواريث، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه، و صارت المواريث المقدَّرة فريضة من الله، يأخذها أهلوها حتماً من غير وصية و لا تحمل منّة الموصي، و لهذا جاء في الحديث الذي في السنن وغيرها عن عمرو بن خارجة قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب و هو يقول «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث» و روى الإمام أحمد عن محمد بن سيرين، قال: جلس ابن عباس فقرأ سورة البقرة حتى أتى هذه الآية **﴿إن ترك خيراً الوصية للوالدين و الأقربين﴾** فقال: نُسخت هذه الآية، ورواه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرطهما، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله **﴿الوصية للوالدين والأقربين﴾** قال: كان لا يرث مع الوالدين غيرهما إلا وصية للأقربين، فأنزل الله آية الميراث، فبين ميراث الوالدين و أقر وصية الأقربين في ثلث مال الميت، و روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، في قوله **﴿الوصية للوالدين والأقربين﴾**: نسختها هذه الآية **﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان و الأقربون و للنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً﴾** ثم قال ابن أبي حاتم: و روي عن ابن عمر و أبي موسى وسعيد بن المسيب و الحسن ومجاهد و عطاء و سعيد بن جبير و محمد بن سيرين و عكرمة و زيد بن أسلم و الربيع بن أنس وقتادة والسدي و مقاتل بن حيان و طاوس وإبراهيم النخعي و شريح و الضحاك و الزهري: أن هذه الآية منسوخة، نسختها آية الميراث.

و قال أبو مسلم: ومنهم من قال: إنها منسوخة فيمن يرث، ثابتة فيمن لا يرث، و هو مذهب ابن عباس والحسن و مسروق وطاوس و الضحاك و مسلم بن يسار و العلاء بن زياد. (قلت): و به قال أيضاً سعيد بن جبير و الربيع بن أنس وقتادة و مقاتل بن حيان، ولكن على قول هؤلاء لا يسمى هذا نسخاً في اصطلاحنا المتأخر، لأن آية المواريث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية، لأن الأقربين أعم ممن يرث

و لا يرث، فرفع حكم من يرث بما عين له، و بقي الآخر على ما دلت عليه الآية الأولى، و هذا إنما يتأتى على قول بعضهم: إن الوصاية في ابتداء الإسلام إنما كانت ندباً حتى نسخت، فأما من يقول: إنها كانت واجبة و هو الظاهر من سياق الآية، فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث كما قاله أكثر المفسرين و المعتبرين من الفقهاء، فإن وجوب الوصية للوالدين و الأقربين الوارثين منسوخ بالإجماع، بل منهي عنه للحديث المتقدم «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث» فآية الميراث حكم مستقل، و وجوب من عند الله لأهل الفروض والعصبات، يرفع بها حكم هذه بالكلية، بقي الأقارب الذين لا ميراث لهم يستحب له أن يوصي لهم من الثلث استئناساً بآية الوصية و شمولها، ولما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا و وصيته مكتوبة عنده» قال ابن عمر: ما مرت عليّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندي وصيتي و الآيات والأحاديث بالأمر ببرّ الأقارب والإحسان إليهم كثيرة جداً.

و قوله ﴿إن ترك خيراً﴾ أي مالاً، قاله ابن عباس و مجاهد و عطاء و سعيد بن جبير و أبو العالية و عطية العوفي و الضحاك و السدي و الربيع بن أنس و مقاتل بن حيان و قتادة و غيرهم، ثم منهم من قال: الوصية مشروعة سواء قل المال أو كثر كالوراثة، و منهم من قال: إنما يوصي إذا ترك مالاً جليلاً، ثم اختلفوا في مقداره، روى ابن أبي حاتم عن عروة قال: قيل لعلي رضي الله عنه: إن رجلاً من قريش قد مات و ترك ثلثمائة دينار أو أربعمائة ولم يوص؟ قال: ليس بشيء إنما قال الله ﴿إن ترك خيراً﴾ و روى أيضاً عنه: إن علياً دخل على رجل من قومه يعوده، فقال: أوصي؟ فقال له علي: إنما قال الله ﴿إن ترك خيراً الوصية﴾ إنما تركت شيئاً يسيراً فاتركه لولدك، و قوله ﴿بالمعروف﴾ أي بالرفق و الإحسان، كما روى ابن أبي حاتم عن الحسن قوله ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت﴾ فقال: نعم، الوصية حق على كل مسلم أن يوصي إذا حضره الموت بالمعروف غير المنكر، والمراد بالمعروف أن يوصي لأقربيه وصية لا تُجحف بورثته من غير إسراف و لا تقتير، كما ثبت في الصحيحين أن سعداً قال: يا رسول الله، إن لي مالاً و لا يرثني إلا ابنة لي، أفأوصي بثلثي مالي؟ قال: «لا» قال: فبالشطر؟ قال: «لا» قال: فالثلث؟ قال «الثلثُ، و الثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»، و في صحيح البخاري أن ابن عباس قال: لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع، فإن رسول الله ﷺ قال «الثلث، و الثلث كثير».

١٨١- و قوله ﴿فمن بدّله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم﴾ يقول تعالى: فمن بدّل الوصية و حرفها، فغير حكمها وزاد فيها أو نقص، ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى ﴿فإنما إثمه على الذين يبدلونه﴾ قال ابن عباس و غير واحد: و قد وقع أجر الميت على الله، و تعلق الإثم بالذين بدلوا ذلك ﴿إن الله سميع عليم﴾ أي قد اطلع على ما أوصى به الميت و هو عليم بذلك و بما بدّله الموصي إليهم.

١٨٢- و قوله تعالى: ﴿فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً﴾ قال ابن عباس و أبو العالية و مجاهد والضحاك والربيع بن أنس و السدي: الجنف الخطأ، و هذا يشمل أنواع الخطأ كلها، بأن زادوا وارثاً بواسطة أو وسيلة، كما إذا أوصى ببيعة الشيء الفلاني محاباة، أو أوصى لابن ابنته ليزيدها أو نحو ذلك من الوسائل، إما مخطئاً غير عامد بل بطبعه و قوة شفقته من غير تبصر، أو متعمداً آثماً في ذلك، فللوصي و الحالة هذه، أن يصلح

القضية ويعدل في الوصية على الوجه الشرعي، ويعدل عن الذي أوصى به الميت إلى ما هو أقرب الأشياء إليه و أشبه الأمور به، جمعاً بين مقصود الموصي و الطريق الشرعي، و هذا الإصلاح والتوفيق، ليس من التبديل في شيء، و لهذا عطف هذا فبينه على النهي عن ذلك، ليعلم أن هذا ليس من ذلك بسبيل، و الله أعلم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) ﴾

١٨٣ – يقول تعالى مخاطباً للمؤمنين من هذه الآية، و آمراً لهم بالصيام و هو الإمساك عن الطعام و الشراب والوقاع، بنية خالصة لله عز و جل لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها و تنقيتها من الأخلاط الرديئة و الأخلاق الرذيلة، و ذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم فلهم فيه أسوة، و ليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك، كما قال تعالى: **﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً و لو شاء الله لجعلكم أمة واحدة و لكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات﴾** الآية، و لهذا قال ههنا **﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾** لأن الصوم فيه تزكية للبدن، وتضييق لمسالك الشيطان، ولهذا ثبت في الصحيحين «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، و من لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» ثم بيّن مقدار الصوم وأنه ليس في كل يوم، لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله وأدائه بل في أيام معدودات. و قد كان هذا في ابتداء الإسلام، يصومون من كل شهر ثلاثة أيام، ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان كما سيأتي بيانه. و قد روي أن الصيام كان أولاً كما كان عليه الأمم قبلنا من كل شهر ثلاثة أيام عن معاذ و ابن مسعود و ابن عباس و عطاء و قتادة والضحاك بن مزاحم وزاد: لم يزل هذا مشروعاً من زمان نوح إلى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان. وقال الحسن البصري **﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴿أياما معدودات﴾** فقال: نعم، و الله لقد كتب الصيام على كل أمة قد خلت، كما كتبه علينا شهراً كاملاً، و أياماً معدودات: عدداً معلوماً، وروي عن السدي نحوه. و روي عن ابن عباس **﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾** يعني بذلك أهل الكتاب، و روي عن الشعبي و السدي وعطاء الخراساني مثله.

ثم بيّن حكم الصيام على ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام فقال: **﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾** أي المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر، لما في ذلك من المشقة عليهما بل يفطران و يقضيان بعد ذلك من أيام أخر، وأما الصحيح المقيم الذي يطيق الصيام فقد كان مخيراً بين الصيام وبين الإطعام، إن شاء صام و إن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً، فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم فهو خير، و إن صام فهو أفضل من الإطعام، قاله ابن مسعود و ابن عباس و مجاهد وطاوس ومقاتل ابن حيان وغيرهم من السلف، ولهذا قال تعالى: **﴿و على الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له و أن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾**.

و روى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال، وأحيل الصيام ثلاثة

أحوال، فأما أحوال الصلاة فإن النبيﷺ، قدم المدينة و هو يصلي سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس، ثم إن الله عز و جل أنزل عليه: **﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها﴾** الآية، فوجهه الله إلى مكة هذا حول، قال: و كانوا يجتمعون للصلاة و يؤذن بها بعضهم بعضاً، حتى نقسوا أو كادوا ينقسون [1] ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له عبد الله بن زيد بن عبد ربه أتى رسول اللهﷺ فقال: يا رسول الله، إني رأيت فيما يرى النائم، و لو قلت إني لم أكن نائماً لصدقت، إني بينا أنا بين النائم و اليقظان إذ رأيت شخصاً عليه ثوبان أخضران فاستقبل القبلة، فقال: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله -مثنى- حتى فرغ من الأذان، ثم أمهل ساعة ثم قال مثل الذي قال، غير أنه يزيد في ذلك قد قامت الصلاة مرتين قال رسول اللهﷺ: «علمها بلالاً فليؤذن بها» فكان بلال أول من أذن بها، قال: وجاء عمر بن الخطابﷺ فقال: يا رسول الله، قد طاف بي مثل الذي طاف به، غير أنه سبقني. فهذان حالان، قال: و كانوا يأتون الصلاة سبقهم النبيﷺ ببعضها، فكان الرجل يشير إلى الرجل إذن كم صلى؟ فيقول: واحدة أواثنتين فيصليهما، ثم يدخل مع القوم في صلاتهم، قال: فجاء معاذ فقال: لا أجده على حال أبداً إلا كنت عليها، ثم قضيت ما سبقني، قال: فجاء وقد سبقه النبيﷺ ببعضها، قال: فثبت معه فلما قضى رسول اللهﷺ قام فقضى، فقال رسول الله «إنه قد سنّ لكم معاذ فهكذا فاصنعوا» فهذه ثلاثة أحوال، و أما أحوال الصيام فإن رسول اللهﷺ، قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام و صام عاشوراء، ثم إن الله فرض عليه الصيام، و أنزل الله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾** إلى قوله **﴿و على الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾** فكان من شاء صام و من شاء أطعم مسكيناً، فأجزأ ذلك عنه، ثم إن الله عز وجل أنزل الآية الأخرى **﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾** إلى قوله **﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾** فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح، و رخص فيه للمريض و المسافر، و ثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام، فهذان حالان، قال: و كانوا يأكلون ويشربون و يأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا، ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له صرمة، كان يعمل صائماً حتى أمسى إلى أهله فصلى العشاء ثم نام، فلم يأكل و لم يشرب حتى أصبح فأصبح صائماً، فرآه رسول الله و قد جهد جهداً شديداً، فقال «ما لي أراك قد جهدت جهداً شديداً؟» قال: يا رسول الله، إني عملت أمس فجئت حين جئت، فألقيت نفسي فنمت، فأصبحت صائماً، قال: و كان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام فأتى النبيﷺ فذكر له ذلك، فأنزل الله عز وجل: **﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم -إلى قوله- ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾** و أخرجه أبو داود في سننه، و الحاكم في مستدركه، و قد أخرجه البخاري و مسلم من حديث عائشة أنها قالت: كان عاشوراء يصام، فما نزل فرض رمضان، كان من شاء صام و من شاء أفطر، و روى البخاري عن ابن عمر و ابن مسعود مثله.

و قوله تعالى: **﴿و على الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾** كما قال معاذﷺ: كان في ابتداء الأمر من شاء صام، ومن شاء أفطر و أطعم عن كل يوم مسكيناً، وهكذا روى البخاري عن سلمة بن الأكوع أنه قال لما نزلت **﴿و على الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾**: كان من أراد أن يفطر يفادي حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها، و روى أيضاً من حديث ابن عمر قال: هي منسوخة، و قال السدي عن مرة عن عبد الله، قال لما نزلت هذه

(١) نقس: أي ضرب بالناقوس، و هو ما يضرب به النصارى لأوقات الصلاة.

الآية ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ قال: يقول ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ أي يتجشمونه، قال عبد الله: فكان من شاء صام، و من شاء أفطر و أطعم مسكيناً ﴿فمن تطوع﴾ يقول: أطعم مسكيناً آخر ﴿فهو خير له وأن تصوموا خير لكم﴾ فكانوا كذلك حتى نسختها ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ و روى البخاري أيضاً عن عطاء: سمع ابن عباس: يقرأ ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ قال ابن عباس: ليست منسوخة، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لايستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً، فحاصل الأمر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه بقوله ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ و أما الشيخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام، فله أن يفطر ولا قضاء عليه، لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيهامن القضاء، و لكن هل يجب عليه إذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكيناً إذا كان ذا جدة؟ فيه قولان للعلماء: أحدهما لا يجب عليه إطعام لأنه ضعيف عنه لسنه، فلم يجب عليه فدية كالصبي، لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها وهو أحد قولي الشافعي، و الثاني، و هو الصحيح وعليه أكثر العلماء، أنه يجب عليه فدية عن كل يوم، كما فسره ابن عباس وغيره من السلف على قراءة من قرأ ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ أي يتجشمونه، كما قاله ابن مسعود و غيره، هو اختيار البخاري فإنه قال: و أما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام، فقدأطعم أنس بعد ما كبر عاماً أوعامين عن كل يوم مسكيناً، خبزاً و لحماً وأفطر، و هذا الذي علقه البخاري قد أسنده الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده عن أيوب بن أبي تميمة، قال: ضعف أنس عن الصوم، فصنع جفنة من ثريد، فدعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم، ورواه عبد بن حميد.

و مما يلتحق بهذا المعنى الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما، ففيهما خلاف كثير بين العلماء، فمنهم من قال: يفطران ويفديان و يقضيان، و قيل: يفديان فقط و لا قضاء، و قيل يجب القضاء بلا فدية، وقيل: يفطران و لا فدية و لا قضاء، وقد بسطنا هذه المسألة مستقصاة في كتاب الصيام الذي أفردناه، و لله الحمد والمنة.

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) ﴾

١٨٥ - يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور، بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم، و كما اختصه بذلك قد ورد الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء، روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عن واثلة يعني ابن الأسقع: أن رسول الله ﷺ، قال «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت مضت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع و عشرين خلت من رمضان» و أما الصحف و التوراة والزبور والإنجيل، فنزل كل منها على النبي الذي أنزل عليه جملة واحدة، و أما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، و كان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه، كما قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ و قال ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ ثم نزل بعده مفرقاً بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ، هكذا روي من غير وجه عن ابن عباس، و في

رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال، أنزل القرآن في النصف من شهر رمضان إلى السماء الدنيا، فجعل في بيت العزة، ثم أنزل على رسول الله ﷺ في عشرين سنة لجواب كلام الناس، و في رواية عكرمة عن ابن عباس، قال: نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر، على هذه السماء الدنيا جملة واحدة، وكان الله يحدث لنبيه ما يشاء، و لا يجيء المشركون بمثل يخاصمون به إلا جاءهم الله بجوابه، وذلك قوله: **﴿و قال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك و رتلناه ترتيلاً﴾ و لا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق و أحسن تفسيراً﴾**. و قوله: **﴿هدى للناس و بينات من الهدى و الفرقان﴾** هذا مدح للقرآن الذي أنزله الله لقلوب العباد ممن آمن به و صدقه واتبعه **﴿و بينات﴾** أي دلائل و حجج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال، و الرشد المخالف للغي، و مفرقاً بين الحق والباطل و الحلال والحرام.

و قوله: **﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾** هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر، أي كان مقيماً في البلد حين دخل شهر رمضان، وهو صحيح في بدنه أن يصوم لا محالة، ونسخت هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحاً مقيماً أن يفطر و يفدي بإطعام مسكين عن كل يوم كما تقدم بيانه، و لما حتّم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر، أن يفطر بشرط القضاء، فقال **﴿و من كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾** معناه: و من كان به مرض في بدنه يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه، أو كان على سفر، أي في حالة السفر، فله أن يفطر، فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره في السفر من الأيام، و لهذا قال **﴿يريد الله بكم اليسر و لا يريد بكم العسر﴾** أي إنما رخص لكم في الفطر في حال المرض و السفر مع تحتمه في حق المقيم الصحيح تيسيراً عليكم ورحمة بكم.

و ههنا مسائل تتعلق بهذه الآية (إحداها) أنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أن من كان مقيماً في أول الشهر ثم سافر في أثنائه، فليس له الإفطار بعذر السفر و الحالة هذه، لقوله **﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾** و إنما يباح الإفطار لمسافر استهل الشهر و هومسافر، وهذا القول غريب، نقله أبو محمد بن حزم في كتابه «المحلى» عن جماعة من الصحابة والتابعين، و فيما حكاه عنهم نظر، و الله أعلم، فإنه قد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه خرج في شهر رمضان لغزوة الفتح، فسار حتى بلغ الكديد ثم أفطر، و أمر الناس بالفطر، أخرجه صاحبا الصحيح. (الثانية) ذهب آخرون من الصحابة و التابعين إلى وجوب الإفطار في السفر لقوله **﴿فعدة من أيام أخر﴾** و الصحيح قول الجمهور أن الأمر في ذلك على التخيير و ليس بحتم، لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان، قال: فمنا الصائم و منا المفطر، فلم يعب الصائم على المفطر، و لا المفطر على الصائم، فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام، بل الذي ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنه كان في مثل هذه الحالة صائماً لما ثبت في الصحيحين عن أبي الدرداء، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حر شديد حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر، و ما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ و عبد الله ابن رواحة. (الثالثة) قالت طائفة منهم الشافعي: الصيام في السفر أفضل من الإفطار لفعل النبي ﷺ كما تقدم، و قالت طائفة: بل الإفطار أفضل أخذاً بالرخصة ولما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن الصوم في السفر، فقال: «من أفطر فحسن، و من صام فلا جناح عليه» و قال في حديث آخر «عليكم برخصة الله التي رخص

لكم» و قالت طائفة : هما سواء لحديث عائشة أن حمزة بن عمرو الأسلمي قال : يا رسول الله، إني كثير الصيام أفأصوم في السفر ؟ فقال «إن شئت فصم، و إن شئت فأفطر» و هو في الصحيحين، و قيل : إن شق الصيام فالإفطار أفضل، لحديث جابر أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قد ظُلِّل عليه فقال: «ما هذا؟» قالوا: صائم، فقال «ليس من البر الصيام في السفر» أخرجاه، فأما إن رغب عن السنة و رأى أن الفطر مكروه إليه، فهذا يتعين عليه الإفطار، و يحرم عليه الصيام و الحالة هذه، (الرابعة) القضاء هل يجب متتابعاً أو يجوز فيه التفريق فيه قولان : (أحدهما) أنه يجب التتابع لأن القضاء يحكي الأداء، (و الثاني) لا يجب التتابع، بل إن شاء فرق و إن شاء تابع، و هذا قول جمهور السلف و الخلف، و عليه ثبتت الدلائل، لأن التتابع إنما وجب في الشهر لضرورة أدائه في الشهر، فأما بعد انقضاء رمضان، فالمراد صيام أيام عدة ما أفطر، و لهذا قال تعالى : **﴿فعدة من أيام أخر﴾**.

ثم قال تعالى : **﴿يريد الله بكم اليسر و لا يريد بكم العسر﴾** روى الإمام أحمد عن أبي قتادة عن الأعرابي الذي سمع النبي ﷺ يقول «إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره» . و روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك يقول : إن رسول الله ﷺ قال : «يسروا و لا تعسروا و سكِّنوا و لا تنفِّروا» أخرجاه في الصحيحين . و في الصحيحين : أيضاً أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ و أبي موسى حين بعثهما إلى اليمن «بشرا و لا تنفرا و يسرا و لا تعسرا وتطاوعا و لا تختلفا» و في السنن و المسانيد أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت بالحنيفية السمحة» . ومعنى قوله **﴿يريد الله بكم اليسر و لا يريد بكم العسر و لتكملوا العدة﴾** أي إنما أرخص لكم في الإفطار للمريض والسفر ونحوهما من الأعذار، لإرادته بكم اليسر و إنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم، و قوله : **﴿ولتكبروا الله على ما هداكم﴾** أي و لتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم، كما قال : **﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾** و قال **﴿فإذا قُضيت الصلاة فانتشروا في الأرض و ابتغوا من فضل الله و اذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾** و قال **﴿و سبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس و قبل الغروب ۞ ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾** ولهذا جاءت السنة باستحباب التسبيح و التحميد والتكبير بعد الصلوات المكتوبات، و قال ابن عباس : ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير، ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر من هذه الآية : **﴿و لتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم﴾** حتى ذهب داود ابن علي الأصبهاني الظاهري إلى وجوبه في عيد الفطر، لظاهر الأمر في قوله : **﴿ولتكبروا الله على ما هداكم﴾** و في مقابلته مذهب أبي حنيفة رحمه الله أنه لا يشرع التكبير في عيد الفطر ! والباقون على استحبابه على اختلاف في تفاصيل بعض الفروع بينهم.

و قوله : **﴿ولعلكم تشكرون﴾** أي إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته، بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده، فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) ﴾

١٨٦- روى الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري، قال : كنا مع رسول الله في غزوة، فجعلنا لا نصعد شرفاً

و لا نعلو شرفاً و لا نهبط وادياً ، إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير ، قال : فدنا منا ، فقال «يا أيها الناس ، اربَعُوا على أنفسكم ، فإنكم لا تَدعون أصمَّ و لا غائباً ، إنما تدعون سميعاً بصيراً ، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته ، يا عبد الله بن قيس ، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة ؟ لا حول و لا قوة إلا بالله»أخرجاه في الصحيحين و بقية الجماعة ، و روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه : أن النبي ﷺ ، قال : «يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا دعاني» . وروى أيضاً عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «قال الله تعالى أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه» .

(قلت) و هذا كقوله تعالى : ﴿إن الله مع الذين اتقوا و الذين هم محسنون﴾ ، و قوله لموسى و هارون عليهما السلام ﴿إنني معكما أسمع و أرى﴾ و المراد من هذا أنه تعالى لا يخيب دعاء داعٍ ، و لا يشغله عنه شيء ، بل هو سميع الدعاء ، ففيه ترغيب في الدعاء ، و أنه لا يضيع لديه تعالى ، كما روي عن سلمان يعني الفارسي رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : «إن الله تعالى ليستحيي أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيراً ، فيردهما خائبتين» ، وقد رواه أبو داود و الترمذي و ابن ماجه .

وروي أيضاً عن أبي سعيد : أن النبي ﷺ ، قال «ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم و لا قطيعة رحم ، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يُعجِّل له دعوته ، و إما أن يدخرها له في الأخرى ، و إما أن يَصرف عنه من السوء مثلها» قالوا : إذاً نُكْثِر ؟ قال : «الله أكثر» ، روى الإمام مالك عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ ، قال «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، يقول دعوت فلم يستجب لي» أخرجاه في الصحيحين ، و روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم ، أو قطيعة رحم ، ما لم يستعجل ، قيل : يا رسول الله ، وما الاستعجال ؟ قال «يقول قد دعوتُ و قد دعوت ، فلم أر يستجاب لي ، فيَستَحسر عند ذلك و يَدَعُ الدعاء» ، وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام ، إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة ، بل وعند كل فطر ، و في مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي والنسائي و ابن ماجه عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة لا تُرد دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، و دعوة المظلوم ، يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة و تفتح لها أبواب السماء ، ويقول : بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين» .

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)﴾

١٨٧ – هذه رخصةٌ من الله تعالى للمسلمين ، ورفعٌ لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام ، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل و الشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك ، فمتى نام أو صلى العشاء حرم

عليه الطعام و الشراب والجماع إلى الليلة القابلة ، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة ، و الرفث هنا الجماع ، قاله ابن عباس وعطاء و مجاهد و سعيد بن جبير و طاوس وسالم بن عبد الله و عمرو بن دينارو الحسن و قتادة والزهري والضحاك و إبراهيم النخعي و السدي وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان ، و قوله **﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾** قال ابن عباس ومجاهد و سعيد بن جبير و الحسن وقتادة والسدي و مقاتل بن حيان : يعني هن سكن لكم وأنتم سكن لهن ، و قال الربيع بن أنس : هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن ، وحاصله : أن الرجل و المرأة كل منهما يخالط الآخر و يماسه ويضاجعه ، فناسب أن يرخص لهم في المجامعة في ليل رمضان لئلا يشق ذلك عليهم ويحرجوا .

وكان السبب في نزول هذه الآية كما تقدم في حديث معاذ الطويل ، و روى البخاري ههنا عن البراء ، قال : لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله ، و كان رجال يخونون أنفسهم ، فأنزل الله **﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم و عفا عنكم﴾** وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ، قال : كان المسلمون في شهر رمضان إذا صلوا العشاء ، حرم عليهم النساء و الطعام إلى مثلها من القابلة ، ثم إن أناساً من المسلمين أصابوا من النساء و الطعام في شهر رمضان بعد العشاء ، منهم عمر بن الخطاب فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى : **﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن﴾** الآية ، و قوله **﴿فالآن باشروهن﴾** يعني جامعوهن **﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾** يعني الولد ، و قيل : الجماع ، وقال قتادة : ابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم ، يقول : ما أحل الله لكم ، واختار ابن جرير أن الآية أعم من هذا كله .

قوله **﴿و كلوا و اشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾** أباح تعالى الأكل و الشرب مع ما تقدم من إباحة الجماع في أي الليل شاء الصائم إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل ، و عبر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود ، و رفع اللبس بقوله **﴿من الفجر﴾** كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الله البخاري : عن سهل بن سعد ، قال : أنزلت **﴿و كلوا و اشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾** و لم ينزل **﴿من الفجر﴾** و كان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض و الخيط الأسود ، فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما ، فأنزل الله بَعدُ **﴿من الفجر﴾** فعلموا أنه يعني الليل و النهار . و روى الإمام أحمد عن عدي بن حاتم قال : لما نزلت هذه الآية **﴿و كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾** عمدت إلى عقالين : أحدهما أسود و الآخر أبيض ، قال : فجعلتهما تحت وسادتي ، قال : فجعلت أنظر إليهما ، فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت ، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله فأخبرته بالذي صنعت ، فقال «إن وسادك إذاً لعريض إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل» أخرجاه في الصحيحين ، و معنى قوله : إن وسادك إذاً لعريض ، أي إن كان ليسع الخيطين : الخيط الأسود والأبيض المرادين من هذه الآية تحتها ، فإنهما بياض النهار وسواد الليل ، فيقتضي أن يكون بعرض المشرق والمغرب ، و هكذا وقع في رواية البخاري مفسراً .

و في إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور لأنه من باب الرخصة والأخذ بها محبوب ، و لهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث على السحور ففي الصحيحين عن أنس قال :

قال رسول اللهﷺ «تسحروا فإن في السحور بركة» و في صحيح مسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهﷺ «إن فصل ما بين صيامنا و صيام أهل الكتاب أَكْلَةُ السحور». و روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: قال رسول اللهﷺ «السحور أكله بركة فلا تدعوه، و لو أن أحدكم تجرع جرعة ماء، فإن الله و ملائكته يصلون على المتسحرين» و قد ورد في الترغيب في السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجرعة ماء تشبهاً بالآكلين، و يستحب تأخيره إلى وقت انفجار الفجر، كما جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك، عن زيد بن ثابت قال: تسحرنا مع رسول اللهﷺ ثم قمنا إلى الصلاة، قال أنس: قلت لزيد: كم كان بين الأذان والسحور ؟ قال: قدر خمسين آية. و روى الإمام أحمد عن أبي ذر، قال: قال رسول اللهﷺ «لا تزال أمتي بخير ما عجلوا الإفطار و أخروا السحور» و قد ورد أحاديث كثيرة أن رسول اللهﷺ سماه الغداء المبارك، و حكى أبوجعفر بن جرير في تفسيره عن بعضهم: أنه إنما يجب الإمساك من طلوع الشمس كما يجوز الإفطار بغروبها. (قلت) و هذا القول ما أظن أحداً من أهل العلم يستقر له قدم عليه، لمخالفته نص القرآن في قوله **﴿و كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾** و قد ورد في الصحيحين من حديث القاسم عن عائشة أن رسول اللهﷺ قال: «لا يمنعكم أذان بلال عن سحوركم، فإنه ينادي بليل فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر» لفظ البخاري، وروى عبد الرزاق عن عطاء: سمعت ابن عباس يقول: هما فجران، فأما الذي يسطع في السماء فليس يحل و لا يحرم شيئاً، و لكن الفجر الذي يستنير على رؤوس الجبال هو الذي يحرم الشراب، و قال عطاء فأما إذا سطع سطوعاً في السماء، وسطوعه أن يذهب في السماء طولاً، فأنه لا يحرم به شراب الصائم ولا صلاة و لا يفوت به الحج، و لكن إذا انتشر على رؤوس الجبال، حرم الشراب للصيام و فات الحج، و هذا إسناد صحيح إلى ابن عباس و عطاء، وهكذا روي عن غير واحد من السلف رحمهم الله.

(مسألة) ومن جعله تعالى الفجر غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام يستدل على أنه من أصبح جنباً فليغتسل و ليتم صومه و لا حرج عليه، و هذا مذهب الأئمة الأربعة و جمهور العلماء سلفاً و خلفاً، لما رواه البخاري و مسلم من حديث عائشة و أم سلمة رضي الله عنهما أنهما قالتا كان رسول اللهﷺ يصبح جنباً من جماع غير احتلام ثم يغتسل و يصوم و في حديث أم سلمة عندهما: ثم لا يفطر و لا يقضي، و في صحيح مسلم عن عائشة، أن رجلاً قال: يا رسول الله، تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم ؟ فقال رسول اللهﷺ «و أنا تدركني الصلاة و أنا جنب فأصوم» فقال: لست مثلنا يا رسول الله، فقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك و ما تأخر، فقال «و الله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي».

﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ يقتضي الإفطار عند غروب الشمس حكماً شرعياً، كما جاء في الصحيحين عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ «إذا أقبل الليل من ههنا، و أدبر النهار من ههنا أفطر الصائم» و عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، قال: قال رسول اللهﷺ «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر» أخرجاه، و روى أحمد عن ليلى امرأة بشير بن الخصاصية قالت: أردتُ أن أصوم يومين مواصلة، فمنعني بشير وقال: إن رسول اللهﷺ نهى عنه وقال «يفعل ذلك النصارى، ولكن صوموا كما أمركم الله وأتموا الصيام إلى الليل، فإذا كان الليل فأفطروا» و لهذا ورد في الأحاديث الصحيحة النهي عن الوصال، وهو أن

يصل يوماً بيوم و لا يأكل بينهما شيئاً، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لاتواصلوا» قالوا: يا رسول الله إنك تواصل، قال «فإني لست مثلكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني» قال: فلم ينتهوا عن الوصال فواصل بهم النبي ﷺ يومين و ليلتين ثم رأوا الهلال، فقال: «لو تأخر الهلال لزدتكم» كالمنكّل لهم، وأخرجاه في الصحيحين. فقد ثبت النهي عنه من غير وجه وثبت أنه من خصائص النبي ﷺ و أنه كان يقوى على ذلك ويُعان، و الأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان معنوياً لا حسياً، و إلا فلا يكون مواصلاً مع الحسي، و لكن كما قال الشاعر:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب و تلهيها عن الزاد

أما من أحب أن يمسك بعد غروب الشمس إلى وقت السَّحَر فله ذلك، كما في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ «لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر» قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله ﷺ، قال «إني لستُ كهيئتكم، إني أبيتُ لي مُطْعِمٌ يطعمني، و ساقٍ يسقيني» أخرجاه في الصحيحين أيضاً.

قوله تعالى: ﴿ولا تباشروهن و أنتم عاكفون في المساجد﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان، فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً أو نهاراً حتى يقضي اعتكافه، وقال الضحاك: كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد جامع إن شاء، فقال الله تعالى: ﴿ولا تباشروهن و أنتم عاكفون في المساجد﴾ أي لا تقربوهن ما دمتم عاكفين في المسجد و لا في غيره. و كذا قال مجاهد و قتادة و غير واحد، والأمر المتفق عليه عند العلماء أن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً في مسجده، و لو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد منها، فلا يحل له أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من قضاء الغائط أو الأكل، وليس له أن يقبل امرأته و لا أن يضمها إليه، و لا يشتغل بشيء سوى اعتكافه، ولا يعود المريض لكن يسأل عنه و هو مار في طريقه، وللاعتكاف أحكام مفصلة في بابها، منها ما هو مجمع عليه بين العلماء و منها ما هو مختلف فيه، و قد ذكرنا قطعة صالحة من ذلك في آخر كتاب الصيام، و لله الحمد والمنة، و لهذا كان الفقهاء المصنفون يتبعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف اقتداء بالقرآن العظيم، فإنه نبّه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم.

وفي ذكره تعالى، الاعتكاف بعد الصيام إرشاد و تنبيه على الاعتكاف في الصيام أو في آخر شهر الصيام، كما ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل، ثم اعتكف أزواجه من بعده، أخرجاه من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، و في الصحيحين أن صفية بنت حيي كانت تزور النبي ﷺ و هو معتكف في المسجد، فتحدثت عنده ساعة ثم قامت لترجع إلى منزلها، وكان ذلك ليلاً، فقام النبي ﷺ ليمشي معها حتى تبلغ دارها، و كان منزلها في دار أسامة بن زيد في جانب المدينة.

ثم المراد بالمباشرة إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل و معانقة و نحو ذلك، فأما معاطاة الشيء و نحوه فلا بأس به، فقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يدني إلي رأسه فأرجله و أنا حائض، و كان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان، قالت عائشة: ولقد كان المريض يكون في

البيت، فما أسأل عنه، إلا وأنا مارة، وقوله ﴿تلك حدود الله﴾ أي هذا الذي بيّناه وفرضناه وحددناه من الصيام وأحكامه وما أبحنا فيه وما حرمنا وذكرنا غاياته ورخصه وعزائمه، حدود الله أي شرَعَها الله وبيّنها بنفسه، ﴿فلا تقربوها﴾ أي لا تجاوزوها وتتعدوها، ﴿كذلك يبين الله آياته للناس﴾ أي كما بيّن الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله، كذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمدﷺ ﴿للناس لعلهم يتقون﴾ أي يعرفون كيف يهتدون وكيف يطيعون، كما قال تعالى: ﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم﴾.

﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) ﴾

١٨٨ - قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بينة، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام، وكذا روي عن مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم، وقد ورد في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول اللهﷺ، قال «ألا إنما أنا بشر، وإنما يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيتُ له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من نار فليحملها أوليذرها»

فدلت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث على أن حُكم الحاكم لا يُغير الشيء في نفس الأمر، فلا يحل في نفس الأمر حراماً هو حرام، ولا يحرم حلالاً هو حلال، وإنما هو ملزم في الظاهر، فإن طابق في نفس الأمر فذاك، وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ أي تعلمون بطلان ما تدعونه وترجونه في كلامكم، قال قتادة: اعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضي لا يحل لك حراماً ولا يحق لك باطلاً، وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرى وتشهد به الشهود، والقاضي بشرٌ يخطئ ويصيب، واعلموا أن من قُضي له بباطل أن خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضي على المبطل للمحق بأجود مما قضي به للمبطل على المحق في الدنيا.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩) ﴾

١٨٩ - روي عن ابن عباس: سأل الناس رسول اللهﷺ عن الأهلة، فنزلت هذه الآية ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس﴾ يعلمون بها حل دَينهم وعدة نسائهم ووقت حجهم، وعن أبي العالية: بلغنا أنهم قالوا: يا رسول الله لم خلقت الأهلة؟ فأنزل الله ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت﴾ يقول جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وعدة نسائهم ومحل دينهم، كذا روي عن عطاء والضحاك وقتادة والسدي والربيع بن أنس نحو ذلك؛ وروي عبد الرزاق عن ابن عمر، قال: قال رسول اللهﷺ «جعل الله الأهلة

مواقيت للناس، فصوموا لرؤيته و أفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فعدوا ثلاثين يوماً» و رواه الحاكم في مستدركه، و قال محمد بن جابر عن قيس بن طلق عن أبيه، قال: قال رسول الله: «جعل الله الأهلة، فإذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين» و كذا روي من حديث أبي هريرة ومن كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

و قوله **﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها و لكن البر من اتقى و أتوا البيوت من أبوابها﴾** روى البخاري: عن البراء، قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية، أتوا البيت من ظهره فأنزل الله **﴿و ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها و لكن البر من اتقى و أتوا البيوت من أبوابها﴾** و كذا رواه أبو داود الطيالسي عن البراء قال: كانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم، لم يدخل الرجل من قبل بابه، فنزلت هذه الآية، وعن جابر: كانت قريش تدعى الحُمْس، و كانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، و كانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام، فبينا رسول الله ﷺ في بستان، إذ خرج من بابه، و خرج معه قطبة بن عامر من الأنصار فقالوا: يا رسول الله، إن قطبة بن عامر رجل تاجر، و إنه خرج معك من الباب، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: رأيتك فعلته، ففعلت كما فعلت، فقال: إني أحمس، قال له: فإن ديني دينك، فأنزل الله **﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾** رواه ابن أبي حاتم، وقال الحسن البصري: كان أقوام من أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم سفراً، و خرج من بيته يريد سفره الذي خرج له، ثم بدا له بعد خروجه أن يقيم و يدع سفره، لم يدخل البيت من بابه و لكن يتسوره من قبل ظهره، فقال الله تعالى: **﴿و ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾** الآية.

و قوله: **﴿و اتقوا الله لعلكم تفلحون﴾** أي اتقوا الله، فافعلوا ما أمركم به و اتركوا ما نهاكم عنه **﴿لعلكم تفلحون﴾** غداً إذا وقفتم بين يديه فيجازيكم على التمام والكمال.

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) ﴾

١٩٠- روي عن أبي العالية في قوله تعالى: **﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾** قال: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله، و يكف عمن كف عنه، حتى نزلت سورة براءة، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، حتى قال: هذه منسوخة بقوله: **﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾** وفي هذا نظر، لأن قوله **﴿الذين يقاتلونكم﴾** إنما هو تهييج و إغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام و أهله، أي كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم، كما قال: **﴿و قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾**.

١٩١-ولهذا قال في الآية: **﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم و أخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾** أي لتكون همتكم

منبعثة على قتالهم، كما همتهم منبعثة على قتالكم، و على إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصاً.

وقوله: ﴿و لاتعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ أي قاتلوا في سبيل الله، و لا تعتدوا في ذلك و يدخل في ذلك ارتكاب المناهي، كما قاله الحسن البصري؛ من المُثلة و الغلول و قتل النساء والصبيان و الشيوخ، الذين لا رأي لهم و لاقتال فيهم، والرهبان و أصحاب الصوامع، و تحريق الأشجار، و قتل الحيوان لغيرمصلحة، كما قال ذلك ابن عباس و عمربن عبد العزيز و مقاتل بن حيان و غيرهم، و لهذا جاء في صحيح مسلم، عن بريدة أن رسول اللهﷺ كان يقول: «اغزوا في سبيل الله و قاتلوا من كفر بالله، اغزوا و لا تغلوا و لا تغدروا و لا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد و لا أصحاب الصوامع» رواه الإمام أحمد و عن ابن عباس مثله. و في الصحيحين عن ابن عمر قال: وجدت امرأة في بعض مغازي النبيﷺ مقتولة، فأنكر رسول اللهﷺ قتل النساء والصبيان.

و لما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال، نبه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله، أبلغ و أشد و أعظم وأطم من القتل، ولهذا قال: ﴿و الفتنة أشد من القتل﴾ قال أبو مالك: أي ما أنتم مقيمون عليه أكبر من القتل. ولهذا قال: ﴿و الفتنة أشد من القتل﴾، يقول الشرك أشد من القتل، و قوله: ﴿و لا تقاتلوهم عند المسجد الحرام﴾ كما جاء في الصحيحين «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خَلَقَ السموات و الأرض فهو حَرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، و لم يحل إلا ساعةً من نهار و إنها ساعتي هذه، حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعْضَد شجره و لا يختلى خلاه، فإن أحد ترخّص بقتال رسول اللهﷺ، فقولوا إن الله أذن لرسوله و لم يأذن لكم»، يعني بذلك صلوات الله و سلامه عليه قتاله أهله يوم فتح مكة، فإنه فتحها عنوة و قتلت رجال منهم عند الخندمة، و قيل صلحاً لقوله «من أغلق بابه فهو آمن، و من دخل المسجد فهو آمن، و من دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

و قوله: ﴿حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين﴾ يقول تعالى: و لا تقاتلوهم عند المسجد الحرام إلا أن يبدؤوكم بالقتال فيه، فلكم حينئذ قتالهم وقتلهم دفعاً للصائل، كما بايع النبيﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال، لما تألبت عليه بطون قريش ومن والاهم من أحياء ثقيف و الأحابيش عامئذ، ثم كف الله القتال بينهم فقال ﴿و هوالذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾ و قال ﴿و لو لا رجال مؤمنون و نساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم مَعَرّةٌ بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء، لو تزيّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾.

١٩٢- وقوله: ﴿فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم﴾ أي فإن تركوا القتال في الحرم و أنابوا إلى الإسلام والتوبة، فإن الله يغفر ذنوبهم، و لو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله فإنه تعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه إليه.

١٩٣- ثم أمر الله بقتال الكفار ﴿حتى لا تكون فتنة﴾ أي شرك، قاله ابن عباس وأبو العالية ومجاهد و الحسن وقتادة و الربيع ومقاتل بن حيان و السدي و زيد بن أسلم ﴿ويكون الدين لله﴾ أي يكون دين الله هو الظاهر الغالي على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: سئل النبيﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية و يقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»، و قوله: ﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ يقول تعالى فإن انتهوا عما هم فيه من

الشرك و قتال المؤمنين فكفوا عنهم ، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا على الظالمين ، وهذا معنى قول مجاهد أن لا يقاتل إلا من قاتل ، أو يكون تقديره فإن انتهوا تخلصوا من الظلم و هو الشرك ، فلا عدوان عليهم بعد ذلك ، والمراد بالعدوان ههنا المعاقبة و المقاتلة كقوله : **﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾** وقوله : **﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾** **﴿و إن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾** و لهذا قال عكرمة و قتادة : الظالم الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله ، و روى البخاري عند قوله : **﴿و قاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾** الآية ، عن ابن عمر قال ؛ أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا : إن الناس ضيعوا و أنت ابن عمر وصاحب النبي ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ فقال : يمنعني أن الله حرم دم أخي ، قالا : ألم يقل الله **﴿و قاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾** ؟ فقال : قاتلنا حتى لم تكن فتنة و كان الدين لله ، و أنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ، و حتى يكون الدين لغير الله .

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) ﴾

١٩٤- قال عكرمة : عن ابن عباس ، و الضحاك والسدي و قتادة و مقسم و الربيع بن أنس و عطاء و غيرهم : لما سار رسول الله ﷺ معتمراً في سنة ست من الهجرة وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت وصدوه بمن معه من المسلمين ، في ذي القعدة و هو شهر حرام حتى قاضاهم على الدخول من قابل ، فدخلها في السنة الآتية هو و من كان من المسلمين ، و أقصه الله منهم ، فنزلت في ذلك هذه الآية **﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾** و روى الإمام أحمد : عن جابر بن عبد الله ، قال : لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام ، إلا أن يُغزى و يُغزَوا ، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ . هذا إسناد صحيح ؛ ولهذا لما بلغ النبي ﷺ ، و هو مخيم بالحديبية أن عثمان قتل ، و كان قد بعثه في رسالة إلى المشركين ، بايع أصحابه و كانوا ألفاً و أربعمائة تحت الشجرة ، على قتال المشركين ، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل ، كف عن ذلك و جنح إلى المسالمة و المصالحة ، فكان ما كان . و كذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين ، وتحصن فَلُّهم بالطائف ، عدل إليها فحاصرها ، و دخل ذو القعدة و هو محاصر لها بالمنجنيق ، و استمر عليه إلى كمال أربعين يوماً ، كما ثبت في الصحيحين عن أنس . فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها و لم تفتح ، ثم كر راجعاً إلى مكة و اعتمر من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين ، و كانت عمرته هذه في ذي القعدة أيضاً ، عام ثمان صلوات الله و سلامه عليه .

و قوله : **﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾** أمر بالعدل حتى في المشركين ، كما قال : **﴿و إن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾** و قال : **﴿و جزاء سيئة سيئة مثلها﴾** وروى علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس أن قوله : **﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾** ، نزلت بمكة حيث لا شوكة و لا جهاد ، ثم نسخ بآية القتال بالمدينة ، وقد رد هذا القول ابن جرير ، و قال : بل الآية مدنية بعد عمرة القضية ، وعزا ذلك إلى مجاهد رحمه الله ، و قوله : **﴿و اتقوا الله و اعلموا أن الله مع المتقين﴾** أمر لهم بطاعة الله وتقواه ، وإخباره بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر و التأييد في الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) ﴾

١٩٥- روى البخاري عن حذيفة **﴿و أنفقوا في سبيل الله و لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾** قال: نزلت في النفقة، و قال ابن أبي حاتم: و روي عن ابن عباس و مجاهد و عكرمة و سعيد بن جبير و عطاء و الضحاك والحسن و قتادة و السدي و مقاتل بن حيان نحو ذلك. وروى أبو داود عن أسلم أبي عمران: كنا بالقسطنطينية وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، و على أهل الشام رجل، يريد فضالة بن عبيد، فخرج من المدينة صف عظيم من الروم، فصففنا لهم فحمل رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم، ثم خرج إلينا فصاح الناس إليه، فقالوا: سبحان الله ألقى بيده إلى التهلكة فقال أبو أيوب: يا أيها الناس، إنكم لتتأولون هذه الآية على غير التأويل، و إنما نزلت فينا معشر الأنصار، إنا لما أعز الله دينه و كثر ناصروه، قلنا فيما بيننا: لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها، فأنزل الله هذه الآية. و قال رجل للبراء بن عازب: إن حملتُ على العدو وحدي فقتلوني، أكنتُ ألقيت بيدي إلى التهلكة؟ قال: لا، قال الله لرسوله: **﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾** و إنما هذه في النفقة، رواه ابن مردويه و أخرجه الحاكم في مستدركه، و قال صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، ورواه الترمذي، فذكره و قال بعد قوله **﴿لا تكلف إلا نفسك﴾**: و لكن التهلكة إن يذنب الرجل الذنب فيلقي بيده إلى التهلكة ولا يتوب، و قال الحسن البصري **﴿و لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾** قال: هو البخل، و عن النعمان بن بشير، في قوله: **﴿و لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾** أن يذنب الرجل الذنب فيقول: لا يغفر لي، فأنزل الله: **﴿و لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة و أحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾** رواه ابن مردويه، و قال ابن أبي حاتم، و روي عن عبيدة السلماني و الحسن وابن سيرين و أبي قلابة نحو ذلك، يعني نحو قول النعمان بن بشير، أنها في الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يغفر له، فيلقي بيده إلى التهلكة، أي يستكثر من الذنوب فيهلك. و لهذا روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: التهلكة عذاب الله، و روى ابن أبي حاتم و ابن جرير عن القرظي محمد بن كعب، أنه كان يقول في هذه الآية: **﴿و لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾** قال: كان القوم في سبيل الله، فيتزود الرجل، فكان أفضل زاداً من الآخر، أنفق البائس من زاده حتى لا يبقى من زاده شيء، أحب أن يواسي صاحبه فأنزل الله **﴿و أنفقوا في سبيل الله و لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾**.

و مضمون الآية الأمر بالإنفاق في سبيل الله، في سائر وجوه القربات و وجوه الطاعات، و خاصة صرف الأموال في قتال الأعداء، و بذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم، و الإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك و دمار لمن لزمه و اعتاده، ثم عطف بالأمر بالإحسان، و هو أعلى مقامات الطاعة، فقال: **﴿و أحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾**.

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (١٩٦) ﴾

١٩٦- لماذكر تعالى أحكام الصيام، و عطف بذكر الجهاد، شرع في بيان المناسك فأمر بإتمام الحج والعمرة، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما، و لهذا قال بعده: فإن أحصرتم، أي صددتم عن الوصول إلى البيت، و منعتم من إتمامهما، و لهذا اتفق العلماء، على أن الشروع في الحج و العمرة مُلْزِم، سواء قيل بوجوب العمرة أو باستحبابها، كما هما قولان للعلماء، و قد ذكرناهما بدلائلهما في كتابنا الأحكام، مستقصى و لله الحمد و المنة. و قال السدي في قوله: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ أي أقيموا الحج والعمرة، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿و أتموا الحج و العمرة لله﴾ يقول: من أحرم بحج أو بعمرة فليس له أن يحل، حتى يتمهما، تمام الحج: يوم النحر إذا رمى جمرة العقبة، و طاف بالبيت و بالصفا و المروة فقد حل. و عن علقمة أنه قال: و أقيموا الحج و العمرة إلى البيت، و كذا روي عن إبراهيم، أنه قرأ: و أقيموا الحج والعمرة إلى البيت. و قرأ الشعبي: ﴿و أتموا الحج و العمرة لله﴾ برفع العمرة، وقال: ليست بواجبة. و روي عنه خلاف ذلك، و قد وردت أحاديث كثيرة من طرق متعددة، عن أنس وجماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ جمع في إحرامه بحج وعمرة، و ثبت عنه في الصحيح أنه قال لأصحابه: «من كان معه هدي فليهل بحج وعمرة»، وقال في الصحيح أيضاً: «دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة».

و قوله ﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي﴾ ذكروا أن هذه الآية نزلت في سنة ست، أي عام الحديبية حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ و بين الوصول إلى البيت، و أنزل الله في ذلك سورة الفتح بكمالها، و أنزل لهم رُخصةً أن يذبحوا ما معهم من الهدي، و كان سبعين بدنة، و أن يحلقوا رؤوسهم و أن يتحللوا من إحرامهم، فعند ذلك أمرهم عليه السلام أن يحلقوا رؤوسهم و أن يتحللوا، فلم يفعلوا انتظاراً للنسخ، حتى خرج فحلق رأسه ففعل الناس، و كان منهم من قصر رأسه و لم يحلقه، فلذلك قال ﷺ «رحم الله المحلقين» قالوا: و المقصرين يا رسول الله؟ فقال في الثالثة «و المقصرين»، و قد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك كل سبعة في بدنة، و كانوا ألفاً وأربعمائة، و كان منزلهم بالحديبية خارج الحرم، و قيل بل كانوا على طرف الحرم، فالله أعلم.

ولهذا اختلف العلماء: هل يختص الحصر بالعدو فلا يتحلل إلا من حصره عدو لا مرض و لا غيره على قولين، فروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، أنه قال: لا حصر إلا حصر العدو، فأما من أصابه مرض أو وجع أوضلال فليس عليه شيء، إنما قال الله تعالى: ﴿فإذا أمنتم﴾ فليس الأمن حصراً، قال: و روي عن ابن عمر وطاووس و الزهري وزيد بن أسلم نحو ذلك، و القول الثاني: إن الحصر أعم من أن يكون بعدو أو مرض أوضلال، و هو التوهان عن الطريق أونحو ذلك، و روى الإمام أحمد عن الحجاج بن عمرو الأنصاري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «من كُسِرَ أو وجع أو عرج فقدحل و عليه حجة أخرى» قال: فذكرت ذلك لابن عباس و أبي هريرة فقالا: صدق، وأخرجه أصحاب الكتب الأربعة و رواه ابن أبي حاتم ثم قال: و روي عن ابن مسعود و ابن الزبير و علقمة وسعيد ابن المسيب و عروة بن الزبير و مجاهد و النخعي و عطاء ومقاتل بن حيان أنهم قالوا: الإحصار من عدو أو مرض أوكسر، وقال الثوري: الإحصار من كل شيء آذاه، و ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ دخل على ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، فقالت: يارسول الله إني أريد الحج و أنا شاكية، فقال «حجي و اشترطي أن محلي حيث حبستني» ورواه مسلم عن ابن عباس بمثله،

فذهب من ذهب من العلماء إلى صحة الاشتراط في الحج لهذا الحديث ، و قد علق الإمام محمد بن إدريس الشافعي القول بصحة هذا المذهب على صحة هذا الحديث ، قال البيهقي و غيره من الحفاظ : و قد صح و لله الحمد.

وقوله ﴿فما استيسر من الهدي﴾ قال ابن عباس : الهدي من الأزواج الثمانية من الإبل و البقر و المعز والضأن ، و روى الثوري عن ابن عباس في قوله ﴿فما استيسر من الهدي﴾ قال : شاة ، و كذا قال عطاء و مجاهد و طاوس وأبوالعالية و محمد بن علي بن الحسين و عبد الرحمن بن القاسم و الشعبي و النخعي والحسن و قتادة والضحاك و مقاتل بن حيان و غيرهم : مثل ذلك ، و هو مذهب الأئمة الأربعة ، و روى ابن أبي حاتم عن عائشة و ابن عمر : أنهما كانا لا يريان ما استيسر من الهدي إلا من الإبل و البقر . قال : و روي عن سالم والقاسم وعروة بن الزبير و سعيد ابن جبير نحو ذلك(قلت)و الظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه قصة الحديبية ، فإنه لم ينقل عن أحد منهم أنه ذبح في تحلله ذلك شاة ، وإنما ذبحوا الإبل و البقر ، ففي الصحيحين عن جابر ، قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقركل سبعة منا في بقرة ، و روى عبد الرزاق عن ابن عباس في قوله ﴿فما استيسر من الهدي﴾ قال : بقدر يسارته ، و عنه : إن كان موسراً فمن الإبل ، و إلا فمن البقر ، و إلا فمن الغنم . و قال هشام بن عروة عن أبيه ﴿فما استيسر من الهدي﴾ قال : إنما ذلك فيما بين الرخص والغلاء ، والدليل على صحة قول الجمهور فيما ذهبوا إليه من إجزاء ذبح الشاة في الإحصار : أن الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدي أي مهما تيسر مما يسمى هدياً ، والهدي من بهيمة الأنعام ، و هي الإبل و البقر و الغنم ، كما قاله الحبر البحر ترجمان القرآن و ابن عم رسول الله ﷺ و قد ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : أهدى النبي ﷺ مرة غنماً .

وقوله ﴿ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله﴾ معطوف على قوله ﴿وأتموا الحج و العمرة لله﴾ وليس معطوفاً على قوله ﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي﴾ كما زعمه ابن جرير رحمه الله ، لأن النبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم ، حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم ، فأما في حال الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلق ﴿حتى يبلغ الهدي محله﴾ و يفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كان قارناً ، أو من فعل أحدهما إن كان مفرداً أو متمتعاً ، كما ثبت في الصحيحين عن حفصة أنها قالت : يا رسول الله ، ما شأن الناس حلوا من العمرة ، و لم تحل أنت من عمرتك ؟ فقال «إني لبَّدْتُ رأسي وقلَّدت هديي ، فلا أحل حتى أنحر» .

و قوله ﴿فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ روى البخاري عن عبد الله بن معقل قال : قعدت إلى كعب بن عجرة في هذا المسجد ـ يعني مسجد الكوفة ـ فسألته عن فدية من صيام ، فقال : حملت إلى النبي ﷺ ، و القمل يتناثر على وجهي ، فقال «ما كنتُ أرى أن الجهد بلغ بك هذا ، أما تجد شاة»؟ قلت : لا ، قال : «صُمْ ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين ، لكل مسكين نصف صاع من طعام ، واحلق رأسك» نزلت فيّ خاصة و هي لكم عامة . وعن ابن عباس في قوله ﴿ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ قال : إذا كان «أو» فأيه أخذت أجزأ عنك ، قال ابن أبي حاتم : و روي عن مجاهد وعكرمة وعطاء و طاوس والحسن وحميد الأعرج و إبراهيم و النخعي و الضحاك نحو ذلك . (قلت) و هو مذهب الأئمة الأربعة ، و عامة العلماء

أنه يخير في هذا المقام، إن شاء صام و إن شاء تصدق بفرق، و هو ثلاثة آصع لكل مسكين نصف صاع وهو مدان، و إن شاء ذبح شاة و تصدق بها على الفقراء أيّ ذلك فعل أجزأه، و لما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل **﴿ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾** و لما أمر النبيﷺ كعب بن عجرة بذلك، أرشده إلى الأفضل فالأفضل، فقال: أنسك شاة، أو أطعم ستة مساكين، أو صم ثلاثة أيام، فكل حسن في مقامه، ولله الحمد و المنة. و عن طاوس أنه كان يقول: ما كان من دم أوطعام فبمكة، و ما كان من صيام فحيث شاء، و كذا قال مجاهد و عطاء و الحسن.

و قوله **﴿فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي﴾** أي فإذا تمكنتم من أداء المناسك فمن كان منكم متمتعاً بالعمرة إلى الحج، و هو يشمل من أحرم بهما، أو أحرم بالعمرة أولاً، فلما فرغ منها أحرم بالحج، و هذا هوالتمتع الخاص، و هو المعروف في كلام الفقهاء، و التمتع العام يشمل القسمين، كما دلت عليه الأحاديث الصحاح، فإن من الرواة من يقول: تمتع رسول اللهﷺ و آخر يقول: قرن ولا خلاف أنه ساق هدياً، و قال تعالى: **﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي﴾** أي فليذبح ما قدر عليه من الهدي، وأقله شاة، وله أن يذبح البقر، لأن رسول اللهﷺ ذبح عن نسائه البقر، وعن أبي هريرة: أن رسول اللهﷺ ذبح البقرعن نسائه و كن متمتعات، رواه أبو بكر بن مردويه، وفي هذا دليل على مشروعية التمتع، كما جاء في الصحيحين عن عمران بن حصين، قال: نزلت آية المتعة في كتاب الله و فعلناها مع رسول اللهﷺ ثم لم ينزل قرآن يحرمها و لم ينه عنها، حتى مات، قال رجل برأيه ما شاء. قال البخاري يقال: إنه عمر، و هذا الذي قاله البخاري قد جاء مصرحاً به أن عمر كان ينهى الناس عن التمتع ويقول: إن نأخذ بكتاب الله يأمر بالتمام، يعني قوله **﴿وأتموا الحج و العمرة لله﴾** و في نفس الأمر لم يكن عمرؓ ينهى عنها محرماً لها، إنما كان ينهى ليكثر قصد الناس للبيت حاجين و معتمرين، كما قد صرح به رضي الله عنه.

و قوله **﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج و سبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة﴾** يقول تعالى: فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج، أي في أيام المناسك، قال العلماء: و الأولى أن يصومها قبل عرفة في العشر، قاله عطاء، أو من حين يحرم قاله ابن عباس و غيره لقوله **﴿في الحج﴾** و منهم من يُجوّز صيامها من أول شوال، قاله طاوس و مجاهد وغير واحد، و جوز الشعبي صيام يوم عرفة و قبله يومين، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والسدي و عطاء وطاوس و الحكم و الحسن وحماد و إبراهيم و أبو جعفر الباقر والربيع ومقاتل ابن حيان، و قال العوفي عن ابن عباس: إذا لم يجد هدياً فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة، فإذا كان يوم عرفة الثالث، فقد تم صومه، و سبعة إذا رجع إلى أهله، و كذا روي عن ابن عمر قال: يصوم يوماً قبل التروية، و يوم التروية، و يوم عرفة، وروي عن علي أيضاً[1]. فلولم يصمها أو بعضها قبل العيد، فهل يجوز أن يصومها في أيام التشريق؟ فيه قولان للعلماء وهما للإمام الشافعي أيضاً، القديم منهما: أنه يجوز له صيامها لقول عائشة و ابن عمر في صحيح البخاري: لم يرخص في أيام التشريق أن يُصمن إلا لمن لم يجد الهدي، هكذا رواه مالك و بهذا يقول عبيد بن عمير الليثي عن عكرمة و الحسن البصري وعروة بن الزبير، و إنما قالوا ذلك لعموم قوله **﴿فصيام ثلاثة أيام في الحج﴾** و الجديد من القولين أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق لما رواه

(١) و الأولى ترك صيام يوم عرفة و صيام ما قبله لكراهة صيامه للحاج للحديث الوارد.

مسلم عن قتيبة الهذلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أيام التشريق أيام أكل و شرب، و ذكر الله عز وجل»[1].

وقوله ﴿و سبعة إذا رجعتم﴾ فيه قولان: (أحدهما)إذا رجعتم إلى رحالكم، و لهذا قال مجاهد: هي رخصة إذا شاء صامها في الطريق، و كذا قال عطاء بن أبي رباح. (و القول الثاني) إذا رجعتم إلى أوطانكم، و روى عبد الرزاق عن ابن عمر قال: إذا رجع إلى أهله، وكذا روي عن سعيد بن جبير و أبي العالية ومجاهد وعطاء وعكرمة و الحسن و قتادة و الزهري والربيع بن أنس، و حكى على ذلك أبو جعفر بن جرير الإجماع، و قد روى البخاري أن ابن عمر قال: تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج، و أهدى فساق معه الهدي من ذي الحليفة، فأهلَّ بعمرة، ثم أهل بالحج، فتمتع الناس مع رسول الله ﷺ، و بدأ رسول الله ﷺ بالعمرة إلى الحج، فكان من الناس من أهدى فساق الهدي، و منهم من لم يُهد، فلما قدم النبي ﷺ مكة قال للناس: «من كان منكم أهدى فإنه لا يَحِلُّ بشيءٍ حرم منه حتى يقضي حجه، و من لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة و ليقصر و ليحلّل ثم ليهل بالحج، فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج، و سبعة إذا رجع إلى أهله» و ذكر تمام الحديث، و قوله ﴿تلك عشرة كاملة﴾ قيل: تأكيد، كما تقول العرب: رأيت بعيني، وسمعت بأذني، و كتبت بيدي، وقال الله تعالى: ﴿و لا طائر يطير بجناحيه﴾ و قال ﴿ولا تخطه بيمينك﴾ وقال ﴿و واعدنا موسى ثلاثين ليلة و أتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾ و قيل: معنى كاملة: الأمر بإكمالها وإتمامها، اختاره ابن جرير، و قيل معنى كاملة أي مجزئة عن الهدي، و عن الحسن البصري في قوله ﴿تلك عشرة كاملة﴾ قال: من الهدي.

و قوله ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ قال ابن جرير: واختلف أهل التأويل فيمن عنى بقوله ﴿لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ بعد إجماع جميعهم على أن أهل الحرم معنيون به و أنه لا متعة لهم، فقال بعضهم: عنى بذلك أهل الحرم خاصة دون غيرهم، ثم روى عن ابن عباس قال: هم أهل الحرم، وكذا روى ابن المبارك عن الثوري، و زاد الجماعة عليه، وقال قتادة: ذكر لنا أن ابن عباس كان يقول: يا أهل مكة، لا متعة لكم، أحلت لأهل الآفاق وحرمت عليكم، إنما يقطع أحدكم وادياً، أو قال: يجعل بينه و بن الحرم وادياً، ثم يهل بعمرة، و روى عبد الرزاق عن طاوس قال: المتعة للناس لا لأهل مكة، من لم يكن أهله من الحرم. و كذا قول الله عز و جل ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ قال: و بلغني عن ابن عباس مثل قول طاوس، و قال آخرون: هم أهل الحرم و من بينه و بين المواقيت، كما روى عبد الرزاق عن عطاء، قال: من كان أهله دون المواقيت فهو كأهل مكة لا يتمتع، و عن مكحول في قوله ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ قال: من كان دون الميقات و قال ابن جريج عن عطاء ذلك لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام قال: عرفة و مزدلفة و عرنة و الرجيع، وروى عبد الرزاق عن الزهري يقول: من كان أهله على يوم أو نحوه تمتع، و في رواية عنه: اليوم واليومين، و اختار ابن جرير في ذلك مذهب الشافعي أنهم أهل الحرم، و من كان منه على مسافة لا يقصر فيها الصلاة، لأن من كان كذلك يعد حاضراً لا مسافراً، و الله أعلم. و قوله: ﴿واتقوا الله﴾ أي فيما أمركم و نهاكم ﴿و اعلموا أن الله شديد العقاب﴾ أي لمن خالف أمره وارتكب ما عنه زجره.

---

(١) القول الأول أقوى لأنه صريح في الرخصة لمن لا يجد الهدي.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾

١٩٧- اختلف أهل العربية في قوله **﴿الحج أشهر معلومات﴾** فقال بعضهم: تقديره الحج حج أشهر معلومات، فعلى هذا التقدير يكون الإحرام بالحج فيها أكمل من الإحرام فيما عداها و إن كان ذاك صحيحاً، والقول بصحة الإحرام بالحج في جميع السَّنَة مذهب مالك و أبي حنيفة و أحمد بن حنبل و إسحاق بن راهويه، و به يقول إبراهيم النخعي والثوري و الليث بن سعد، واحتج لهم بقوله تعالى: **﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس و الحج﴾** و بأنه أحد النسكين، فصح الإحرام به في جميع السنة كالعمرة. و ذهب الشافعي رحمه الله، إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره، فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به و هل ينعقد عمرة، فيه قولان عنه. والقول بأنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره مروي عن ابن عباس و جابر، و به يقول عطاء وطاوس لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره مروي عن ابن عباس و جابر، و به يقول عطاء وطاوس ومجاهد رحمهم الله، و الدليل عليه قوله **﴿الحج أشهر معلومات﴾** و ظاهره التقدير الآخر الذي ذهب إليه النحاة، و هو أن وقت الحج أشهر معلومات فخصصه بها من بين سائر شهور السنة، فدل على أنه لا يصح قبلها كميقات الصلاة، و روى ابن خزيمة عن ابن عباس قال: لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج، فإن من سنة الحج أن يحرم في أشهر الحج. و هذا إسناد صحيح، و قول الصحابي من السنة كذا في حكم المرفوع عند الأكثرين، ولا سيما قول ابن عباس تفسيراً للقرآن و هو ترجمانه. وقد ورد فيه حديث مرفوع، رواه ابن مردويه عن أبي الزبير، عن جابر، عن النبيﷺ أنه قال «لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج» و إسناده لا بأس به، لكن رواه الشافعي و البيهقي من طرق عن ابن جريج، عن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يسأل: أيهلّ بالحج؟ قبل أشهر الحج؟ فقال: لا، و هذا الموقوف أصح و أثبت من المرفوع، و يبقى حينئذٍ مذهب صحابي يتقوّى بقول ابن عباس من السُّنَّة: أن لا يحرم بالحج إلا في أشهره، و الله أعلم.

و قوله **﴿أشهر معلومات﴾** قال البخاري: قال ابن عمر: هي شوال و ذو القعدة و عشر من ذي الحجة، وهذا الذي علقه البخاري بصيغة الجزم، رواه ابن جرير موصولاً بإسناد صحيح، (قلت) و هو مروي عن عمر وعلي و ابن مسعود وعبد الله بن الزبير و ابن عباس وعطاء و طاوس و مجاهد و إبراهيم النخعي و الشعبي والحسن وابن سيرين و مكحول و قتادة و الضحاك بن مزاحم و الربيع بن أنس و مقاتل بن حيان، و هو مذهب الشافعي و أبي حنيفة و أحمد بن حنبل وأبي يوسف وأبي ثور رحمهم الله، و اختار هذا القول ابن جرير، قال: وصح إطلاق الجمع على شهرين و بعض الثالث للتغليب، كما يقول العرب: رأيته العام و رؤيته اليوم، وإنما وقع ذلك في بعض العام و اليوم **﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه﴾** و إنما تعجل في يوم و نصف يوم، وقال الإمام مالك بن أنس و الشافعي في القديم: هي شوال و ذو القعدة و ذو الحجة بكماله، و هو رواية عن ابن عمر أيضاً، و روى ابن أبي حاتم عن ابن جريج، قال: قلت لنافع: أسمعت عبد الله بن عمر يسمي شهور الحج. قال: نعم، كان عبد الله يسمي شوالاً و ذا القعدة و ذا الحجة، قال ابن جريج: و قال ذلك ابن شهاب وعطاء وجابر بن عبد الله صاحب النبيﷺ، و هذا إسناد صحيح إلى ابن جريج، و قد حكى هذا أيضاً عن طاوس

ومجاهد و عروة بن الزبير و الربيع بن أنس وقتادة.

وفائدة مذهب مالك أنه إلى آخر ذي الحجة بمعنى أنه مختص بالحج، فيكره الاعتمار في بقية ذي الحجة، لا أنه يصح الحج بعد ليلة النحر، روى ابن أبي حاتم عن عبد الله: الحج أشهر معلومات، ليس فيها عمرة، وهذا إسناد صحيح، قال ابن جرير: و إنما أراد من ذهب إلى أن أشهر الحج شوال و ذو القعدة و ذو الحجة أن هذه الأشهر ليست أشهر العمرة إنما هي للحج، و إن كان عمل الحج قد انقضى بانقضاء أيام منى، كما قال محمد ابن سيرين: ما أحد من أهل العلم يشك في أن عمرة في غير أشهر الحج أفضل من عمرة في أشهر الحج، و قال ابن عون: سألت القاسم بن محمد عن العمرة في أشهر الحج فقال: كانوا لا يرونها تامة. (قلت) و قد ثبت عن عمر و عثمان رضي الله عنهما، أنهما كانا يحبان الاعتمار في غير أشهر الحج وينهيان عن ذلك في أشهر الحج، والله أعلم.

و قوله **﴿فمن فرض فيهن الحج﴾** أي أوجب بإحرامه حجاً، فيه دلالة على لزوم الإحرام بالحج والمضي فيه، قال ابن جرير: أجمعوا على أن المراد من الفرض ههنا الإيجاب والإلزام، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿فمن فرض فيهن الحج﴾** يقول: من أحرم بحج أوعمرة، و قال عطاء: الفرض الإحرام. و كذا قال إبراهيم و الضحاك وغيرهم. و روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال **﴿فمن فرض فيهن الحج﴾** فلا ينبغي أن يلبي بالحج ثم يقيم بأرض. قال ابن أبي حاتم: روي عن ابن مسعود و ابن عباس و ابن الزبير و مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي وعكرمة و الضحاك و قتادة وسفيان الثوري و الزهري ومقاتل بن حيان: نحو ذلك، وقال طاوس والقاسم بن محمد: هو التلبية. وقوله **﴿فلا رفث﴾** أي من أحرم بالحج أو العمرة فليجتنب الرفث، وهو الجماع، كما قال تعالى: **﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾** وكذلك يحرم تعاطي دواعية من المباشرة و التقبيل و نحو ذلك، كذلك التكلم به بحضرة النساء، روى ابن جرير أن عبد الله بن عمر كان يقول: الرفث إتيان النساء و التكلم بذلك للرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم، و روى ابن جرير عن أبي حصين بن قيس، قال: أصعدت مع ابن عباس في الحج، و كنت خليله، فلما كان بعد إحرامنا قال ابن عباس: فأخذ بذنب بعيره فجعل يلويه ويرتجز ويقول:

و هن يمشين بنا هميسا إن تصدقُ الطير ننك لميسا

قال فقلت: أترفث و أنت محرم؟ فقال: إنما الرفث ما قيل عند النساء. و قال عبد الله بن طاوس عن أبيه: سألت ابن عباس عن قول الله عز وجل: **﴿فلا رفث و لا فسوق﴾**؟ قال: الرفث التعريض بذكر الجماع، و هي العرابة في كلام العرب، و هو أدنى الرفث، و قال طاوس: هو أن يقول للمرأة إذا حللت أصبتك، و كذا قال أبوالعالية، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الرفث غشيان النساء و القبلة و الغمز، وأن يعرض لها بالفحش من الكلام و نحو ذلك، و قال ابن عباس أيضاً وابن عمر: الرفث غشيان النساء، و كذا قال سعيد بن جبير و عكرمة ومجاهد و إبراهيم و أبوالعالية عن عطاء ومكحول وعطاء الخراساني و عطاء بن يسار و عطية وإبراهيم النخعي و الربيع و الزهري و السدي و مالك بن أنس و مقاتل بن حيان و عبد الكريم بن مالك والحسن وقتادة و الضحاك و غيرهم.

و قوله **﴿ولا فسوق﴾** قال مقسم و غير واحد، عن ابن عباس: هي المعاصي، و كذا قال عطاء و مجاهد

وطاوس و عكرمة و سعيد بن جبير و محمد بن كعب و الحسن و قتادة وإبراهيم النخعي و الزهري والربيع بن أنس و عطاء بن يسار و عطاء الخراساني و مقاتل بن حيان، و عن ابن عمر أنه كان يقول: ﴿**الفسوق**﴾ إتيان معاصي الله في الحرم، وقال آخرون: الفسوق ههنا: السباب، قاله ابن عباس وابن عمر و ابن الزبير ومجاهد والسدي و إبراهيم النخعي و الحسن، وقد يتمسك هؤلاء بما ثبت في الصحيح «سباب المسلم فسوق و قتاله كفر» و لهذا رواه ههنا الحبر أبو محمد بن أبي حاتم. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الفسوق ههنا الذبح للأصنام، قال الله تعالى: ﴿**أو فسقاً أهل لغير الله به**﴾، و قال الضحاك: الفسوق التنابز بالألقاب، و الذين قالوا: الفسوق ههنا هو جميع المعاصي الصواب معهم، كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم، و إن كان في جميع السنة منهياً عنه، إلا أنه في الأشهر الحرم آكد، و لهذا قال ﴿**منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم**﴾ و قال في الحرم ﴿**و من يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم**﴾ واختار ابن جرير أن الفسوق ههنا ارتكاب ما نهى عنه في الإحرام من قتل الصيد وحلق الشعر و قلم الأظفار و نحو ذلك، كما تقدم عن ابن عمر، وما ذكرناه أولى و الله أعلم، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة، قال قال رسول الله ﷺ: «**من حج هذا البيت فلم يرفث و لم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه**».

وقوله ﴿**ولا جدال في الحج**﴾ فيه قولان: (أحدهما) و لا مجادلة في وقت الحج في مناسكه، و قد بينه الله أتم بيان، و وضحه أكمل إيضاح، كما قال مجاهد ﴿**ولا جدال في الحج**﴾: قد بين الله أشهر الحج فليس فيه جدال بين الناس. و قال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿**ولا جدال في الحج**﴾ قال: لا شهر ينسأ و لا جدال في الحج قد تبين، ثم ذكر كيفية ما كان المشركون يصنعون في النسيء الذي ذمهم الله به. و قال مالك: قال الله تعالى: ﴿**و لا جدال في الحج**﴾ فالجدال في الحج ـ و الله أعلم ـ أن قريشاً كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة، و كانت العرب و غيرهم يقفون بعرفة، و كانوا يتجادلون يقول هؤلاء: نحن أصوب ويقول هؤلاء: نحن أصوب، فهذا فيما نرى، والله أعلم، و قد اختار ابن جرير مضمون هذه الأقوال، و هو قطع التنازع في مناسك الحج، والله أعلم. (و القول الثاني) أن المراد بالجدال ههنا المخاصمة. روى ابن جرير عن ابن عباس، قال: المراء تماري صاحبك حتى تغضبه، و كذا قال أبو العالية و عطاء و مجاهد وسعيد بن جبير و عكرمة و جابر بن زيد و عطاء الخراساني و مكحول والسدي و مقاتل بن حيان وعمرو بن دينار والضحاك و الربيع بن أنس و إبراهيم النخعي وعطاء بن يسار و الحسن و قتادة و الزهري و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿**و لا جدال في الحج**﴾ المراء والملاحاة حتى تغضب أخاك وصاحبك فنهى الله عن ذلك، و عن ابن عمر كان يقول: الجدال في الحج السباب و المراء والخصومات، و روى ابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿**و لا جدال في الحج**﴾ و الجدال الغضب، أن تغضب عليك مسلماً، إلا أن تستعتب مملوكاً فتغضبه من غير أن تضربه، فلا بأس عليك إن شاء الله. (قلت) ولو ضربه لكان جائزاً سائغاً، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد: عن أسماء بنت أبي بكر قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ حجاجاً حتى إذا كنا بالعرج نزل رسول الله ﷺ فجلست عائشة إلى جنب رسول الله ﷺ وجلست إلى جانب أبي، و كانت زمالة أبي بكر و زمالة رسول الله ﷺ واحدة مع غلام أبي بكر، فجلس أبو بكر ينتظره إلى أن يطلع عليه، فأطلع و ليس معه بعيره، فقال: أين بعيرك؟ فقال: أضللته البارحة، فقال أبو بكر: بعير واحد تضله؟ فطفق يضربه و رسول الله ﷺ يبتسم و يقول «انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع» و هكذا

أخرجه أبو داود و ابن ماجه و من هذا الحديث حكى بعضهم عن بعض السلف أنه قال: من تمام الحج ضرب الجمال، و لكن يستفاد من قول النبي ﷺ عن أبي بكر رضي الله عنه «انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع» كهيئة الإنكار اللطيف أن الأولى ترك ذلك، و الله أعلم.

و قوله ﴿و ما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ لما نهاهم عن إتيان القبيح قولاً و فعلاً، حثهم على فعل الجميل وأخبرهم أنه عالم به، و سيجزيهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة، و قوله ﴿و تزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ روى البخاري عن ابن عباس، قال: كان أهل اليمن يحجون و لا يتزودون ويقول: نحن المتوكلون، فأنزل الله ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ و كذا قال ابن الزبير و أبو العالية و مجاهد و عكرمة و الشعبي والنخعي وسالم بن عبد الله و عطاء الخراساني وقتادة والربيع بن أنس و مقاتل بن حيان، وروى وكيع عن ابن عمر قال: إن من كرم الرجل طيب زاده في السفر.

وقوله ﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة، و هو استصحاب التقوى إليها، كما قال ﴿و ريشاً و لباس التقوى ذلك خير﴾ لما ذكر اللباس الحسي نبه مرشداً إلى اللباس المعنوي، و هو الخشوع و الطاعة و التقوى، و ذكر أنه خير من هذا و أنفع، و قوله ﴿و اتقون يا أولي الألباب﴾ يقول: و اتقوا عقابي و نكالي و عذابي لمن خالفني و لم يأتمر بأمري، يا ذوي العقول و الأفهام.

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ﴾

١٩٨- روى البخاري عن ابن عباس، قال: كانت عكاظ و مجنة و ذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتّجروا في الموسم، فنزلت ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ في مواسم الحج. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: لا حرج عليكم في الشراء والبيع قبل الإحرام و بعده، و هكذا فسرها مجاهد وسعيد بن جبير و عكرمة و منصور بن المعتمر وقتادة و إبراهيم النخعي و الربيع بن أنس وغيرهم، وروى ابن جرير عن أبي أميمة، سمعت ابن عمر سئل عن الرجل يحج و معه تجارة، فقرأ ابن عمر ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ و هذا موقوف، و هو قوي جيد، و قد روي مرفوعاً، فروى أحمد عن أبي أمامة التيمي، قال: قلت لابن عمر: إنّا نكري فهل لنا من حج؟ قال: أليس تطوفون بالبيت، وتأتون المُعرّف، و ترمون الجمار، وتحلقون رؤوسكم؟ قال: قلنا: بلى، فقال ابن عمر: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فسأله عن الذي سألتني، فلم يجبه حتى نزل عليه جبرائيل بهذه الآية ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ فدعاه النبي ﷺ، فقال «أنتم حجاج».

و قوله تعالى: ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾ إنما صرف «عرفات» و إن كان علماً على مؤنث، لأنه في الأصل جمع كمسلمات ومؤمنات، سمي به بقعة معينة فروعي فيه الأصل فصرف، اختاره ابن جرير، و عرفة موضع الوقوف في الحج، و هي عمدة أفعال الحج، ولهذا روى الإمام أحمد و أهل السنن بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحج عرفات- ثلاثاً- فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك، و أيام منى ثلاثة، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه،

ومن تأخر فلا إثم عليه» . و وقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر، لأن النبيﷺ وقف في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس، وقال «لتأخذوا عني مناسككم» وقال في هذا الحديث «فمن أدرك قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك» و هذا مذهب مالك و أبي حنيفة و الشافعي، رحمهم الله، و ذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة، واحتجوا بحديث الشعبي عن عروة بن مضرس بن حارثة بن لام الطائي، قال: أتيت رسول اللهﷺ بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة فقلت: يا رسول الله، إني جئت من جبلي طيء، أكللت راحلتي، و أتعبت نفسي، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه فهل لي من حج ؟ فقال رسول اللهﷺ: من شهد صلاتنا هذه، فوقف معنا حتى ندفع، و قد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً، فقد تم حجه وقضى تفثه» رواه الإمام أحمد و أهل السنن، و صححه الترمذي، ثم قيل: إنما سميت عرفات لما رواه عبد الرزاق عن علي بن أبي طالب: بعث الله جبريل عليه السلام إلى إبراهيمﷺ فحج به، حتى إذا أتى عرفة قال: عرفت، وكان قد أتاها مرة قبل ذلك، فلذلك سميت عرفة، و عن عطاء قال: إنما سميت عرفة لأن جبريل كان يُري إبراهيم المناسك فيقول: عرفت عرفت، فسميت عرفات، و روي نحوه عن ابن عباس و ابن عمر و أبي مجلز، فالله أعلم، وتُسمى عرفات المشعر الحرام، المشعر الأقصى، وإلال على وزن هلال، و يقال للجبل في وسطها: جبل الرحمة، وعن المسور بن مخرمة، قال: خطبنا رسول اللهﷺ و هو بعرفات، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال «أما بعد - و كان إذا خطب خطبة قال: أما بعد - فإن هذا اليوم الحج الأكبر، ألا و إن أهل الشرك و الأوثان كانوا يدفعون في هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس إذا كانت الشمس في رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجهها، و إنا ندفع بعد أن تغيب الشمس، و كانوا يدفعون من المشعر الحرام بعد أن تطلع الشمس إذا كانت الشمس في رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوهها، و إنا ندفع قبل أن تطلع الشمس مخالفاً هدينا هدي أهل الشرك»، هكذا رواه ابن مردويه، و هذا لفظه، والحاكم في مستدركه و قال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه.

و روى وكيع عن المعرور بن سويد، قال: رأيت عمر رضي الله عنه حين دفع عن عرفة كأني أنظر إليه رجل أصلع على بعير له يُوضِع و هو يقول: إنا وجدنا الإفاضة هي الإيضاع، و في حديث جابر بن عبد الله الطويل الذي في صحيح مسلم، قال فيه: فلم يزل واقفاً - يعني بعرفة - حتى غربت الشمس، وبدت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص، و أردف أسامة خلفه، ودفع رسول اللهﷺ و قد شَنَقَ للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله، و يقول بيده اليمنى: «أيها الناس السكينة السكينة» كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب و العشاء بأذان واحد و إقامتين، ولم يُسبح بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر، حتى تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعا الله و كبره و هلله ووحده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس، و في الصحيحين عن أسامة بن زيد أنه سئل: كيف كان يسير رسول اللهﷺ حين دفع ؟ قال: كان يسير العَنَقَ، فإذا وجد فجوة نص، والعنق هو انبساط السير، و النص فوقه، و روى ابن أبي حاتم عن سفيان بن عيينة قوله **﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾** و هي الصلاتين جميعاً، و روى عبد الرزاق عن ابن عمر: المشعر الحرام المزدلفة كلها. و روي عن ابن عباس و سعيد بن جبير وعكرمة و مجاهد والسدي والربيع بن أنس و الحسن

وقتادة أنهم قالوا : هو ما بين الجبلين . و قال ابن جريج : قلت لعطاء : أين المزدلفة؟قال : إذا أفضت من مأزمي عرفة فذلك إلى مُحَسِّر ، قال : و ليس المأزمان عرفة من المزدلفة ، و لكن مُفاضاهما ، قال : فقف بينهما إن شئت ، قال : و أحب أن تقف دون قزح هلم إلينا من أجل طريق الناس . (قلت)والمشاعر هي المعالم الظاهرة ، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام ، لأنها داخل الحرم ، و هل الوقوف بها ركن في الحج لايصح إلا به ، كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض أصحاب الشافعي منهم القفال و ابن خزيمة لحديث عروة بن مضرس ؟ أو واجب كما هو أحد قولي الشافعي يجبر بدم ؟ أو مستحب لا يجب بتركه شيء كما هو القول الآخر ؟ في ذلك ثلاثة أقوال للعلماء لبسطها موضع آخر غير هذا ، و الله أعلم .

و قد روى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم ، عن النبيﷺ قال «كُلُّ عرفاتٍ موقف ، وارفعوا عن عُرَنَة ، وكل مزدلفة موقف ، وارفعوا عن محسّر ، و كل فجاج مكة مَنْحَر ، و كل أيام التشريق ذبح » ، و قوله ﴿**و اذكروه كما هداكم**﴾ تنبيه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان و الإرشاد إلى مشاعر الحج على ما كان عليه من الهداية إبراهيم الخليلﷺ ، و لهذا قال ﴿**و إن كنتم من قبله لمن الضالين**﴾ قيل : من قبل هذا الهدى ، و قبل القرآن ، وقبل الرسول ، والكل متقارب و متلازم و صحيح .

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩) ﴾

١٩٩- ثم ـ ههنا ـ لعطف خبر على خبر و ترتيبه عليه ، كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام ، و أمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات ، كما كان جمهور الناس يصنعون ، يقفون بها إلا قريشاً فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحِلّ ، و يقولون : نحن أهل الله في بلدته وقُطّان بيته ، روى البخاري عن عائشة ، قالت : كانت قريش و من دان دينها يقفون بالمزدلفة ، و كانوا يسمون الحمس ، و كان سائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر النبيﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها ، فذلك قوله ﴿**من حيث أفاض الناس**﴾ . و كذا قال ابن عباس و مجاهد وعطاء و قتادة و السدي و غيرهم ، و اختاره ابن جرير وحكى عليه الإجماع . و عن جبير بن مطعم قال : أضللت بعيراً لي بعرفة فذهبت أطلبه ، فإذا النبيﷺ واقف ، قلت : إن هذا من الحمس ما شأنه ههنا؟ أخرجاه في الصحيحين ، ثم رواه البخاري من حديث ابن عباس : ما يقتضي أن المراد بالإفاضة ههنا هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي الجمار ، فالله أعلم . و حكاه ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم فقط . قال : والمراد بالناس : إبراهيمﷺ ، و في رواية عنه : الإمام ، قال ابن جرير : ولولا إجماع الحجة على خلافه لكان هو الأرجح .

وقوله ﴿**و استغفروا الله إن الله غفور رحيم**﴾ كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات ، و لهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول اللهﷺ ، كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثاً ، و في الصحيحين أنه ندب إلى التسبيح و التحميد والتكبير ثلاثاًو ثلاثين . و أورد ابن مردويه ههنا الحديث الذي رواه البخاري عن شداد بن أوس قال : قال رسول اللهﷺ «سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي ، لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، و أنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ ، و أبوء بذنبي ، فاغفر لي فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت ، من قالها في ليلة فمات في ليلته دخل الجنة ، و من قالها في يومه

فمات دخل الجنة»، و في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علمني دعاء أدعو به في صلاتي، فقال «قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً و لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك، و ارحمني إنك أنت الغفور الرحيم» والأحاديث في الاستغفار كثيرة.

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) ﴾

٢٠٠- يأمر تعالى بذكره و الإكثار منه بعد قضاء المناسك و فراغها، و قوله **﴿كذكركم آباءكم﴾** اختلفوا في معناه، فقال ابن جريج عن عطاء: هو كقول الصبي أبه أمه، يعني كما يلهج الصبي بذكر أبيه و أمه، فكذلك أنتم فالهجوا بذكر الله بعد قضاء النسك، و كذا قال الضحاك و الربيع بن أنس، و عن ابن عباس: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحمالات، و يحمل الديات، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله على محمد ﷺ **﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾**. قال ابن أبي حاتم: و روى السدي، عن أنس بن مالك و أبي وائل و عطاء بن أبي رباح في أحد قوليه وسعيد بن جبير وعكرمة في أحد رواياته، ومجاهد و السدي و عطاء الخراساني و الربيع بن أنس و الحسن و قتادة و محمد بن كعب و مقاتل بن حيان نحو ذلك، و هكذا حكاه ابن جرير عن جماعة و الله أعلم، و المقصود منه الحث على كثرة الذكر لله عز وجل، و لهذا كان انتصاب قوله **﴿أو أشد ذكراً﴾** على التمييز، تقديره كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً، و أو - ههنا - لتحقيق المماثلة في الخبر كقوله **﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾** وقوله **﴿يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾** **﴿فأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾** **﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾** فليست ههنا للشك قطعاً، و إنما هي لتحقيق المخبر عنه كذلك أو أزيد منه.

ثم إنه تعالى أرشد إلى دعائه بعد كثرة ذكره فإنه مظنة الإجابة، و ذم من لا يسأله إلا في أمر دنياه وهو معرض عن أخراه، فقال **﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا و ما له في الآخرة من خلاق﴾** أي من نصيب و لا حظ، و تضمن هذا الذم و التنفير عن التشبه بمن هو كذلك، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون: اللهم اجعله عام غيث، و عام خصب، و عام ولاد حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم **﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا و ما له في الآخرة من خلاق﴾** و كان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون **﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة و في الآخرة حسنة و قنا عذاب النار﴾** فأنزل الله **﴿أولئك لهم نصيب مما كسبوا و الله سريع الحساب﴾**.

٢٠١، ٢٠٢- و لهذا مدح من يسأله الدنيا والأخرى، فقال: **﴿و منهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة و في الآخرة حسنة و قنا عذاب النار﴾** فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا و صرفت كل شر، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية، و دار رحبة، وزوجة حسنة، و رزق واسع، و علم نافع، و عمل صالح، ومركب هنيء، و ثناء جميل إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، و لا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا، و أما الحسنة في الآخرة، فأعلى ذلك دخول الجنة و توابعه من الأمن من الفزع

الأكبر في العرصات، و تيسير الحساب و غير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، و أما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم و الآثام و ترك الشبهات و الحرام، و قال القاسم بن عبد الرحمن: من أعطي قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، و جسداً صابراً، فقد أوتي في الدنيا حسنة، و في الآخرة حسنة، و وقي عذاب النار.

و لهذا وردت السنة بالترغيب في هذا الدعاء، فروي البخاري عن أنس بن مالك، قال: كان النبيﷺ يقول: «اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، و قنا عذاب النار» وروى أحمد عن قتادة أنه سأل أنساً: أي دعوة كان أكثر ما يدعوها النبيﷺ؟ قال: يقول «اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة، و في الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار» و كان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها، و إذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها، و رواه مسلم، وروى ابن أبي حاتم عن عبد السلام بن شداد يعني أبا طالوت، قال: كنت عند عند أنس بن مالك، فقال له ثابت: إن إخوانك يحبون أن تدعولهم، فقال: «اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة، و في الآخرة حسنة، و قنا عذاب النار» و تحدثوا ساعة، حتى إذا أرادوا القيام قال: يا أبا حمزة، إن إخوانك يريدون القيام، فادع الله لهم، فقال: أتريدون أن أشقق لكم الأمور؟ إذا آتاكم الله في الدنيا حسنة، و في الآخرة حسنة، ووقاكم عذاب النار، فقد آتاكم الخير كله، و روى أحمد أيضاً عن أنس: أن رسول اللهﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد صار مثل الفرخ، فقال له رسول اللهﷺ «هل تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟ قال: نعم، كنت أقول اللهم ما كنت معاقبي في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال رسول اللهﷺ: «سبحان الله لا تطيقه أو لا تستطيعه، فهلا قلت **﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة، و في الآخرة حسنة، و قنا عذاب النار﴾**» قال: فدعا الله فشفاه، انفرد بإخراجه مسلم، و روى الإمام الشافعي عن عبد الله بن السائب: أنه سمع النبيﷺ يقول فيما بين الركن اليماني والركن الأسود: **﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة، و في الآخرة حسنة، و قنا عذاب النار﴾**. وروى الحاكم عن سعيد بن جبير، قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: إني أجرت نفسي من قوم على أن يحملوني، ووضعت لهم من أجرتي على أن يدعوني أحج معهم، أفيجزي ذلك؟ فقال: أنت من الذين قال الله: **﴿أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب﴾** ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، و لم يخرجاه.

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣) ﴾

٢٠٣- قال ابن عباس: الأيام المعدودات أيام التشريق، و الأيام المعلومات أيام العشر، و قال عكرمة **﴿و اذكروا الله في أيام معدودات﴾** يعني التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات الله أكبر الله أكبر، و روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال: قال رسول اللهﷺ: «يوم عرفة، ويوم النحر، و أيام التشريق، عيدنا أهل الإسلام، و هي أيام أكل و شرب»، و روى أحمد أيضاً عن نبيشة الهذلي قال: قال رسول اللهﷺ: «أيام التشريق أيام أكل و شرب و ذكر الله» و رواه مسلم أيضاً، و تقدم حديث جبير بن مطعم «عرفة كلها موقف، وأيام التشريق كلها ذبح» و تقدم أيضاً حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي «وأيام منى ثلاثة فمن تعجل في

يومين فلا إثم عليه، و من تأخر فلا إثم عليه» و روى ابن جرير عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن حذافة يطوف في منى: «لا تصوموا هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب و ذكر الله عز وجل».

و عن ابن عباس: الأيام المعدودات أيام التشريق أربعة أيام: يوم النحر، وثلاثة بعده، و روي عن ابن عمر و ابن الزبير وأبي موسى مثل ذلك. و قال علي بن أبي طالب: هي ثلاثة: يوم النحر و يومان بعده اذبح في أيهن شئت، و أفضلها أولها، و القول الأول هو المشهور، و عليه دلّ ظاهر الآية الكريمة حيث قال **﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه و من تأخر فلا إثم عليه﴾** فدل على ثلاثة بعد النحر، ويتعلق بقوله **﴿و اذكروا الله في أيام معدودات﴾** ذكر الله على الأضاحي، و قد تقدم أن الراجح في ذلك مذهب الشافعي رحمه الله و هو أن وقت الأضحية من يوم النحر إلى آخر التشريق، و يتعلق به أيضاً: الذكر المؤقّت خلف الصلوات، والمطلق في سائر الأحوال، و في وقته أقوال للعلماء أشهرها الذي عليه العمل أنه من صلاة الصبح يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق، و هو آخر النفر الآخر، و قد جاء فيه حديث رواه الدار قطني لكن لا يصح مرفوعاً، والله أعلم.

و قد ثبت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يكبر في قبته فيكبر هل السوق بتكبيره حتي ترتج منى تكبيراً، و يتعلق بذلك التكبير و ذكر الله عند رمي الجمرات كل يوم من أيام التشريق، و قد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره: «إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا و المروة و رمي الجمار لإقامة ذكر الله عز و جل»[1] و لما ذكر الله تعالى النفر الأول و الثاني، وهو تفرق الناس من موسم الحج إلى سائر الأقاليم و الآفاق بعد اجتماعهم في المشاعر والموقف، قال **﴿و اتقوا الله و اعلموا أنكم إليه تحشرون﴾** كما قال **﴿و هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون﴾**.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧) ﴾

٢٠٤- قال السدي: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، جاء إلى رسول الله ﷺ، و أظهر الإسلام و في باطنه خلاف ذلك، و عن ابن عباس، أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خبيب وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع و عابوهم، فأنزل الله في ذم المنافقين، و مدح خبيب و أصحابه **﴿و من الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله﴾** وقيل: بل ذلك عام في المنافقين كلهم و في المؤمنين كلهم، هذا قول قتادة ومجاهد و الربيع بن أنس وغير واحد، وهوالصحيح. وروى ابن جرير: عن القرظي عن نوف و هو البكالي وكان ممن يقرأ الكتب، قال: إني لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل: قوم يحتالون على الدنيا بالدين، ألسنتهم أحلى من العسل، و قلوبهم أمرّ من الصبر، يلبسون للناس مسوك الضأن، و قلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله تعالى: فعليّ يجترئون و بي يغترون، حلفت بنفسي لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم فيها حيران، قال القرظي: تدبرتها في

(١) و فيه ضعف.

القرآن فإذا هم المنافقون فوجدتها **﴿و من الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا و يشهد الله على ما في قلبه﴾** الآية، وهذ الذي قاله القرظي، حسن صحيح، و أما قوله **﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾** فقرأه ابن محيصن **﴿ويشهد الله﴾** بفتح الياء و ضم الجلالة **﴿على ما في قلبه﴾** و معناها أن هذا و إن أظهر لكم الحيل لكن الله يعلم من قلبه القبيح، كقوله تعالى: **﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله و الله يعلم إنك لرسوله و الله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾** و قراءة الجمهور بضم الياء و نصب الجلالة **﴿يُشهد الله على ما في قلبه﴾** و معناه أنه يظهر للناس الإسلام و يبارز الله بما في قلبه من الكفر و النفاق، كقوله تعالى: **﴿يستخفون من الناس و لا يستخفون من الله﴾** الآية، هذا معنى ما روي عن ابن عباس، و قيل: معناه أنه إذا أظهر الإسلام حلف و أشهد الله لهم أن الذي في قلبه موافق للسانه، و هذا المعنى صحيح، و قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير و عزاه إلى ابن عباس و حكاه عن مجاهد، و الله أعلم.

و قوله **﴿و هو ألد الخصام﴾** الألد في اللغة الأعوج **﴿و تنذر به قوماً لداً﴾** أي عوجاً، وهكذا المنافق في حال خصومته، يكذب و يُزور عن الحق و لا يستقيم معه، بل يفتري و يفجر، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، و إذا عاهد غدر، و إذا خاصم فجر». و روى البخاري عن عائشة ترفعه، قال «إن أبغضَ الرجال إلى الله الألد الخصم».

٢٠٥- و قوله **﴿و إذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث و النسل و الله لا يحب الفساد﴾** أي هو أعوج المقال سيء الفعال، فذلك قوله و هذا فعله، كلامه كذب، و اعتقاده فاسد، و أفعاله قبيحة، و السعي -ههنا- هوالقصد، كما قال إخباراً عن فرعون **﴿ثم أدبر يسعى ❁فحشر فنادى ❁فقال أنا ربكم الأعلى❁ فأخذه الله نكال الآخرة و الأولى❁ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾**وقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلي ذكر الله﴾** أي اقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة، فإن السعي الحسي إلى الصلاة منهي عنه بالسنة النبوية «إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها و أنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة و الوقار» فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد في الأرض وإهلاك الحرث، و هو محل نماء الزروع و الثمار، و النسل و هو نتاج الحيوانات الذين لا قوام للناس إلا بهما، و قال مجاهد: إذاسعى في الأرض إفساداً، منع الله القطر فهلك الحرث و النسل **﴿والله لا يحب الفساد﴾** أي لا يحب من هذه صفته، و لا من يصدر منه ذلك.

٢٠٦- و قوله **﴿و إذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾** أي إذا وُعظ هذا الفاجر في مقاله وأفعاله، و قيل له اتق الله و انزع عن قولك وفعلك و ارجع إلي الحق، امتنع وأبى و أخذته الحمية و الغضب بالإثم، أي بسبب ما اشتمل عليه من الآثام، و هذه الآية شبيهة بقوله تعالى: **﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تَعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يَسْطون بالذين يتلون عليهم آياتنا، قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير﴾** و لهذا قال في هذه الآية **﴿فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾** أي هي كافيته عقوبة في ذلك.

٢٠٧- و قوله **﴿و من الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾** لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة، ذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال **﴿و من الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾** قال ابن عباس و أنس و سعيد بن المسيب وأبو عثمان النهدي و عكرمة وجماعة: نزلت في صهيب بن سنان الرومي و ذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، و إن أحب أن يتجرد منه و يهاجر فعل، فتخلص منهم و أعطاهم

ماله، فأنزل الله في هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب و جماعة إلى طرف الحرة و قالوا له: ربح البيع، فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم و ما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه الآية، ويروى أن رسول الله ﷺ قال له «ربح البيع صهيب» روى ابن مردويه عن أبي عثمان النهدي عن صهيب، قال: لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لي قريش يا صهيب قدمت إلينا، و لا مال لك وتخرج أنت و مالك، والله لا يكون ذلك أبداً، فقلت لهم: أرأيتم إن دفعت إليكم مالي تخلون عني؟ قالوا: نعم، فدفعت إليهم مالي، فخلوا عني، فخرجت حتى قدمت المدينة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال «ربح صهيب ربح صهيب» مرتين.

وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله، كما قال تعالى: **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله، فيَقتلون و يُقتلون، وعداً عليه حقاً في التوراة و الإنجيل و القرآن، و من أوفى بعهده من الله؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به و ذلك هو الفوز العظيم﴾** و لما حمل هشام بن عامر بين الصفين أنكر عليه بعض الناس، فرد عليهم عمر بن الخطاب و أبو هريرة و غيرهما، و تلوا هذه الآية **﴿و من الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله و الله رؤوف بالعباد﴾**.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) ﴾

٢٠٨- يقول الله تعالى آمراً عباده المؤمنين به المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عُرى الإسلام و شرائعه، والعمل بجميع أوامره، و ترك جميع زواجره، ما استطاعوا من ذلك، قال العوفي عن ابن عباس و مجاهد وطاوس و الضحاك و عكرمة و قتادة و السدي و ابن زيد في قوله **﴿ادخلوا في السلم﴾** يعني الإسلام، و قال الضحاك، عن ابن عباس و أبو العالية و الربيع بن أنس **﴿ادخلوا في السلم﴾** يعني الطاعة. و قال قتادة أيضاً: الموادعة. وقوله **﴿كافة﴾** قال ابن عباس و مجاهد و أبو العالية و عكرمة و الربيع بن أنس و السدي و مقاتل بن حيان و قتادة و الضحاك: جميعاً، و قال مجاهد: أي اعملوا بجميع الأعمال و وجوه البر. و من المفسرين من يجعل قوله **﴿كافة﴾** حالاً من الداخلين أي ادخلوا في الإسلام كلكم، والصحيح الأول و هو أنهم أمروا كلهم أن يعملوا بجميع شعب الإيمان و شرائع الإسلام، و هي كثيرة جداً ما استطاعوا منها، كما روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾** كذا قرأها بالنصب، يعني مؤمني أهل الكتاب، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمور التوراة والشرائع التي أنزلت فيهم، فقال الله **﴿ادخلوا في السلم كافة﴾** يقول: ادخلوا في شرائع دين محمد ﷺ و لا تدعوا منها شيئاً وحسبكم الإيمان بالتوراة و ما فيها، و قوله **﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾** أي اعملوا بالطاعات واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان فـ **﴿إنما يأمركم بالسوء والفحشاء و أن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾**، و **﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾** و لهذا قال **﴿إنه لكم عدو مبين﴾** قال مطرف: أغشُ عباد الله لعبيد الله الشيطان.

٢٠٩- و قوله **﴿فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات﴾** أي عدلتم عن الحق بعد ما قامت عليكم الحجج، فاعلموا أن الله عزيز: أي في انتقامه لايفوته هارب و لا يغلبه غالب، حكيم في أحكامه و نقضه و إبرامه، ولهذا قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس: عزيز في نقمته حكيم في أمره. و قال محمد بن إسحاق: العزيز

في نصرة من كفر به إذا شاء الحكيم في عذره وحجته إلى عباده.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٢١٠) ﴾

٢١٠- يقول تعالى مهدداً للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه **﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام و الملائكة﴾** يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين و الآخرين، فيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير، و إن شراً فشر، و لهذا قال تعالى: **﴿و قضي الأمر و إلى الله ترجع الأمور﴾** كما قال الله تعالى: **﴿كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً﴾ و جاء ربك و الملك صفاً صفاً﴾ وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان و أنى له الذكرى﴾** و قال **﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك﴾** الآية. و قد ذكر الإمام أبو جعفر ابن جرير ههنا حديث الصور بطوله من أوله عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، و هو حديث مشهور ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد و غيرهم، وفيه: أن الناس إذا اهتموا لموقفهم في العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحداً واحداً من آدم فمن بعده فكلهم يحيد عنها حتى ينتهوا إلى محمد ﷺ، فإذا جاؤوا إليه قال «أنا لها أنا لها» فيذهب فيسجد الله تحت العرش، و يشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء بين العباد فيشفعه الله، ويأتي في ظلل من الغمام بعد ما تنشق السماء الدنيا وينزل من فيها من الملائكة، ثم الثانية، إلى السابعة، و ينزل حملة العرش . . . قال: و ينزل الجبار عز وجل في ظلل من الغمام و الملائكة . . . و هي كقوله **﴿و يوم تشقق السماء بالغمام و نزل الملائكة تنزيلاً﴾**.

﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١) زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢) ﴾

٢١١- يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل: كم شاهدوا مع موسى من آية بينة أي حجة قاطعة بصدقه فيما جاءهم به، كيده و عصاه و فلقه البحر و ضربه الحجر، و ما كان من تظليل الغمام عليهم في شدة الحر، و من إنزال المن و السلوى، وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار، و صدق من جرت هذه الخوارق على يديه، و مع هذا أعرض كثير منهم عنها، وبدلوا نعمة الله كفراً، أي استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والإعراض عنها **﴿و من يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾** كما قال تعالى إخباراً عن كفار قريش **﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً و أحلوا قومهم دار البوار﴾ جهنم يصلونها و بئس القرار﴾**.

٢١٢- ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها، و اطمأنوا إليها وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التي أمروا بها، مما يرضي الله عنهم، و سخروا من الذين آمنوا، الذين أعرضوا عنها، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم، وبذلوه ابتغاء وجه الله، فلهذا فازوا بالمقام الأسعد و الحظ الأوفر يوم معادهم؛ فكانوا فوق أولئك في محشرهم ومنشرهم ومسيرهم و مأواهم، فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين، وخلد أولئك في الدركات في أسفل سافلين، ولهذا قال تعالى: **﴿و الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾**

أي يرزق من يشاء من خلقه و يعطيه عطاء كثيراً جزيلاً بلا حصر و لا تعداد في الدنيا و الآخرة، كما جاء في الحديث «ابن آدم أنفق أنفق عليك»[1] و قال النبي ﷺ «أنفق بلالاً و لا تخش من ذي العرش إقلالاً»[2] و قال تعالى: ﴿و ما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ و في الصحيح «أن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً» و في الصحيح «يقول ابن آدم: مالي مالي، و هل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيت، و ما لبست فأبليت، و ما تصدقت فأمضيت، و ما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركه للناس».

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) ﴾

٢١٣- روى ابن جرير عن ابن عباس، قال: كان بين نوح و آدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله ﴿كان الناس أمة واحدة فاختلفوا﴾. و رواه الحاكم ثم قال: صحيح الإسناد، و لم يخرجاه، و روى عبد الرزاق عن قتادة في قوله ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ قال: كانوا على الهدى جميعاً ﴿فاختلفوا فبعث الله النبيين﴾ فكان أول من بعث نوحاً. وهكذا قال مجاهد، كما قال ابن عباس أولاً. وقال العوفي عن ابن عباس ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ يقول: كانوا كفاراً ﴿فبعث الله النبيين مبشرين و منذرين﴾ والقول الأول عن ابن عباس أصح سنداً و معنى، لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً ﷺ فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. ولهذا قال تعالى: ﴿و أنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه و ما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم﴾ أي من بعد ما قامت الحجج عليهم، و ما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه و الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة في قوله: ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾ الآية، قال: قال النبي ﷺ «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا و أوتيناه من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع فغداً لليهود، و بعد غد للنصارى».

و قال ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه في قوله ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾ فاختلفوا في يوم الجمعة، فاتخذ اليهود يوم السبت، و النصارى يوم الأحد، فهدى الله أمة محمد ﷺ ليوم الجمعة، و اختلفوا في القبلة فاستقبلت النصارى المشرق و اليهود بيت المقدس، فهدى الله أمة محمد للقبلة، و اختلفوا في الصلاة، فمنهم من يركع و لا يسجد، و منهم من يسجد ولا يركع، و منهم من يصلي وهو يتكلم، و منهم من يصلي و هو يمشي، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، و اختلفوا في الصيام،

---

(١) متفق عليه. (٢) رواه البزار و البيهقي في شعب الإيمان.

فمنهم من يصوم بعض النهار، و منهم من يصوم عن بعض الطعام، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا في إبراهيم ﷺ، فقالت اليهود: كان يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً، و جعله الله حنيفاً مسلماً، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا في عيسى ﷺ، فكذبت به اليهود و قالوا لأمه بهتاناً عظيماً، و جعلته النصارى إلهاً و ولداً، و جعله الله روحه و كلمته، فهدى الله أمة محمد ﷺ للحق من ذلك، وكان أبو العالية يقول في هذه الآية: المخرج من الشبهات و الضلالات و الفتن. و قوله ﴿بإذنه﴾ أي بعلمه بهم وبما هداهم له، قاله ابن جرير. ﴿والله يهدي من يشاء﴾ أي من خلقه ﴿إلى صراط مستقيم﴾ أي و له الحكمة والحجة البالغة، و في صحيح البخاري ومسلم عن عائشة: أن رسول الله ﷺ، كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللهم ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلِف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» و في الدعاء المأثور: «اللهم أرنا الحق حقاً، و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل، واجعلنا للمتقين إماماً».

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾

٢١٤- يقول تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ قبل أن تبتلوا و تختبروا و تمتحنوا كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم، و لهذا قال ﴿و لما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء و الضراء﴾ وهي الأمراض والأسقام و الآلام و المصائب والنوائب. قال ابن مسعود و ابن عباس وأبوالعالية و مجاهد و سعيد بن جبير ومرة الهمداني والحسن و قتادة و الضحاك و الربيع و السدي ومقاتل بن حيان: ﴿البأساء﴾ الفقر ﴿و الضراء﴾ السقم ﴿وزلزلوا﴾ خوفاً من الأعداء زلزالاً شديداً، وامتحنوا امتحاناً عظيماً، كما جاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الأرت، قال: قلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا، ألا تدعوالله لنا؟ فقال: «إن من كان قبلكم كان أحدهم يُوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه، و يمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه، لا يصرفه ذلك عن دينه» ثم قال «و الله ليُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله و الذئب على غنمه، و لكنكم قومٌ تستعجلون» وقال الله تعالى: ﴿الم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا و هم لا يفتنون ۞ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا و ليعلمن الكاذبين﴾ وقد حصل من هذا جانبٌ عظيم للصحابة رضي الله تعالى عنهم في يوم الأحزاب، كما قال الله تعالى: ﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ۞ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ۞ وإذ يقول المنافقون و الذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾ الآيات. و لما سأل هرقل أبا سفيان هل قاتلتموه ؟ قال: نعم، قال فكيف كانت الحرب بينكم ؟ قال سجالاً، يُدال علينا و ندال عليه. قال: كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة.

وقوله ﴿مثل الذين خلوا من قبلكم﴾ أي سُنَّتهم كما قال تعالى: ﴿فأهلكنا أشد منهم بطشاً و مضى مثل الأولين﴾ و قوله ﴿وزلزلوا حتى يقول الرسول و الذين آمنوا معه متى نصر الله﴾ أي يستفتحون على أعدائهم

ويدعون بقرب الفرج والمخرج عند ضيق الحال و الشدة، قال الله تعالى: **﴿ألا إن نصر الله قريب﴾** كما قال **﴿فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسرا﴾** و كما تكون الشدة ينزل من النصر مثلها، و لهذا قال **﴿ألا إن نصر الله قريب﴾**.

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) ﴾

٢١٥- قال مقاتل بن حيان: هذه الآية في نفقة التطوع. وقال السدي: نسختها الزكاة، و فيه نظر، و معنى الآية: يسألونك كيف ينفقون؟ قاله ابن عباس و مجاهد، فبين لهم تعالى ذلك، فقال **﴿قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى و المساكين و ابن السبيل﴾** أي اصرفوها في هذه الوجوه. كما جاء الحديث «أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك»، و تلا ميمون ابن مهران هذه الآية، ثم قال: هذه مواضع النفقة ما ذكر فيها طبلاً و لا مزماراً و لا تصاوير الخشب ولا كسوة الحيطان. ثم قال تعالى: **﴿و ما أنفقتم من خير فإن الله به عليم﴾** أي مهما صدر منكم من فعل معروف، فإن الله يعلمه و سيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء، فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾

٢١٦- هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفُّوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام، و قال الزهري: الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد، فالقاعد عليه إذا استُعين أن يُعين، و إذا استُغيث أن يُغيث، وإذا استنفر أن ينفر، و إن لم يحتج إليه قعد. (قلت) ولهذا ثبت في الصحيح «من مات ولم يغز ولم يُحَدِّث نفسه بالغزو، مات ميتة جاهلية»، و قال عليه السلام يوم الفتح: «لاهجرة بعد الفتح و لكن جهاد و نية، و إذا استنفرتم فانفروا»، و قوله **﴿و هو كره لكم﴾** أي شديد عليكم ومشقة وهو كذلك، فإنه إما أن يُقتل أو يجرح مع مشقة السفر ومجالدة الأعداء. ثم قال تعالى: **﴿و عسى أن تكرهوا شيئاً و هو خير لكم﴾** أي لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء و الاستيلاء على بلادهم و أموالهم وذراريهم و أولادهم. **﴿وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾** وهذا عام في الأمور كلها قد يحب المرء شيئاً وليس له فيه خيرة و لا مصلحة، ومن ذلك القعود عن القتال قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد و الحكم. ثم قال تعالى: **﴿و الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾** أي هو أعلم بعواقب الأمور منكم، وأخبر بما في دنياكم و أخراكم، فاستجيبوا له وانقادوا لأمره، لعلكم ترشدون.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا

وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨) ﴾

٢١٧، ٢١٨- روى ابن أبي حاتم عن جندب بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ بعث رهطاً، و بعث عليهم أبا عبيدة ابن الجراح، فلما ذهب ينطلق بكى صبابة إلى رسول الله ﷺ فحبسه فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش، وكتب له كتاباً و أمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا و كذا، و قال «لاتكرهن أحداً على السير معك من أصحابك» فلما قرأ الكتاب استرجع، و قال: سمعاً و طاعة لله ولرسوله، فخبرهم الخبر و قرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلان و بقي بقيتهم، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه، و لم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام، فأنزل الله **﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير﴾** الآية، وعن ابن عباس **﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير﴾** و ذلك أن المشركين صدوا رسول الله ﷺ و ردوه عن المسجد في شهر حرام، قال: ففتح الله على نبيه في شهر حرام من العام المقبل، فعاب المشركون على رسول الله ﷺ القتال في شهر حرام، فقال الله **﴿وصد عن سبيل الله وكفر به المسجد الحرام و إخراج أهله منه أكبر عند الله﴾** من القتال فيه، و أن محمداً ﷺ بعث سرية، فلقوا عمرو بن الحضرمي و هو مقبل من الطائف في آخر ليلة من جمادى و أول ليلة من رجب، و أن أصحاب محمد ﷺ كانوا يظنون أن تلك الليلة من جمادى و كانت أول رجب، و لم يشعروا، فقتله رجل منهم وأخذوا ما كان معه، وإن المشركين أرسلوا يعيرونه بذلك، فقال الله تعالى: **﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير و صد عن سبيل الله و كفر به والمسجد الحرام و إخراج أهله منه﴾** إخراج أهل المسجد الحرام أكبر من الذي أصاب أصحاب محمد ﷺ، و الشرك أشد منه. و قال ابن إسحاق في السيرة: أنزل الله على رسول الله ﷺ: **﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير و صد عن سبيل الله و كفر به و المسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله و الفتنة أكبر من القتل﴾** أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام، فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، و عن المسجد الحرام، و إخراجكم منه وأنتم أهله **﴿أكبر عند الله﴾** من قتل من قتلتم منهم **﴿والفتنة أكبر من القتل﴾** أي قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل **﴿و لايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾** أي ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه، غير تائبين و لا نازعين، قال ابن إسحاق: فلما نزل القرآن بهذا من الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشدة.

قال ابن إسحاق: فلما تجلى عن عبد الله بن جحش و أصحابه ما كان حين نزل القرآن طمعوا في الأجر فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطي فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله عز و جل:

٢١٨- **﴿إن الذين آمنوا و الذين هاجروا و جاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله و الله غفور رحيم﴾** فوضع الله من ذلك على أعظم الرجاء، و قد استقصى ذلك الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب دلائل النبوة.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ

من الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) ﴾

٢١٩- روى الإمام أحمد عن عمر أنه قال : لما أُنزل تحريم الخمر، قال : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية التي في البقرة **﴿يسألونك عن الخمر و الميسر قل فيهما إثم كبير﴾** فدُعي عمر، فقُرئت عليه فقال : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في النساء **﴿يا أيها الذين امنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾** فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى : أن لا يقربن الصلاة سكران، فدُعي عمر، فقرئت عليه فقال : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة، فدُعي عمر فقُرئت عليه فلما بلغ **﴿فهل أنتم منتهون ؟﴾** قال عمر : انتهينا انتهينا، هكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي. و قال علي بن المديني : هذا إسناد صالح صحيح، و صححه الترمذي، و زاد ابن أبي حاتم بعد قوله انتهينا : إنها تذهب المال وتذهب العقل، وسيأتي هذا الحديث أيضاً مع ما رواه أحمد من طريق أبي هريرة أيضاً عند قوله في سورة المائدة **﴿إنما الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾** الآيات، فقوله **﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾** أما الخمر، فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنه كل ما خامر العقل، كما سيأتي بيانه في سورة المائدة، و كذا الميسر و هو القمار. وقوله **﴿قل فيهما إثم كبير و منافع للناس﴾** أما إثمهما فهو في الدين، و أما المنافع فدنيوية من حيث إن فيها نفع البدن و تهضيم الطعام و إخراج الفضلات وتشحيذ بعض الأذهان و لذة الشدة المطربة التي فيها، و كذا بيعها و الانتفاع بثمنها، وما كان يقمشه بعضهم من الميسر فينفقه على نفسه أو عياله، ولكن هذه المصالح لا توازي مضرته ومفسدته الراجحة، لتعلقها بالعقل والدين، ولهذا قال الله تعالى : **﴿و إثمهما أكبر من نفعهما﴾**، و لهذا كانت هذه الآية ممهدة لتحريم الخمر على البتات، ولم تكن مصرحة بل معرضة، و لهذا قال عمر رضي الله عنه لما قرئت عليه : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، حتى نزل التصريح بتحريمها في سورة المائدة **﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر و الأنصاب و الأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة و البغضاء في الخمر والميسر و يصدكم عن ذكر الله و عن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾** و يأتي الكلام على ذلك في سورة المائدة إن شاء الله تعالى و به الثقة. قال ابن عمر و الشعبي ومجاهد و قتادة و الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إن هذه أول آية نزلت في الخمر **﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير﴾**، ثم نزلت الآية التي في سورة النساء، ثم نزلت الآية التي في المائدة فحرمت الخمر.

وقوله **﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾** قرئ بالنصب وبالرفع و كلاهما حسن متجه قريب. عن ابن عباس **﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾** قال : مايفضل عن أهلك، كذا روي عن ابن عمر و مجاهد و عطاء وعكرمة و سعيد بن جبير و محمد بن كعب و الحسن وقتادة و القاسم و سالم و عطاء الخراساني و الربيع بن أنس و غير واحد، أنهم قالوا في قوله **﴿قل العفو﴾** يعني الفضل، و عن أبي هريرة قال : قال رجل : يا رسول الله، عندي دينار، قال **«أنفقه على نفسك»** قال : عندي آخر، قال : **«أنفقه على أهلك»** قال : عندي آخر قال : **«أنفقه على ولدك»** قال : عندي آخر قال : **«فأنت أبصر»**. و قد رواه مسلم وأخرجه أيضاً عن جابر أن رسول الله ﷺ قال لرجل «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فَضَلَ شيءٌ عن أهلك فلذي

قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا». و عنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «خير الصدقة ما كان عن ظهر غِنًى، و اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول» و في الحديث أيضاً «ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك، و إن تمسكه شر لك، و لا تلام على كفاف» ثم قد قيل إنها منسوخة بآية الزكاة، كما رواه علي بن أبي طلحة و العوفي عن ابن عباس، و قاله عطاء الخراساني والسدي، و قيل مبينة بآية الزكاة، قاله مجاهد و غيره، و هو أوجه.

و قوله **﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا و الآخرة﴾** أي كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه و وعده و وعيده، لعلكم تتفكرون في الدنيا و الآخرة. قال علي ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني في زوال الدنيا وفنائها، و إقبال الآخرة و بقائها. وروى ابن أبي حاتم عن الصعق العيشي، قال: شهدت الحسن وقرأ هذه الآية من البقرة **﴿لعلكم تتفكرون في الدنيا و الآخرة﴾** قال: هي و الله لمن تفكر فيها ليعلم أن الدنيا دار بلاء ثم دار فناء، و ليعلم أن الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء، وهكذا قال قتادة وابن جريج و غيرهما، وروى عبد الرزاق عن قتادة: لتعلموا فضل الآخرة على الدنيا. و في رواية عن قتادة: فآثروا الآخرة على الأولى.

٢٢٠- و قوله **﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير و إن تخالطوهم فإخوانكم و الله يعلم المفسد من المصلح و لو شاء الله لأعنتكم﴾** الآية، روى ابن جرير عن ابن عباس، قال: لما نزلت **﴿ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾** و **﴿إن الذين يأكون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً و سيصلون سعيراً﴾** انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه و شرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: **﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير و إن تخالطوهم فإخوانكم﴾** فخلطوا طعامهم بطعامهم و شرابهم بشرابهم. وهكذا رواه أبو داود والنسائي و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و الحاكم، وعن ابن مسعود بمثله، و هكذا ذكر غير واحد في سبب نزول هذه الآية كمجاهد و عطاء و الشعبي و ابن أبي ليلى و قتادة و غير واحد من السلف و الخلف، فقوله **﴿قل إصلاح لهم خير﴾** أي على حدة، **﴿و إن تخالطوهم فإخوانكم﴾** أي وإن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم فلا بأس عليكم، لأنهم إخوانكم في الدين، ولهذا قال **﴿و الله يعلم المفسد من المصلح﴾** أي يعلم من قصده و نيته الإفساد أو الإصلاح، و قوله **﴿ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم﴾** أي ولوشاء الله لضيق عليكم و أحرجكم، و لكنه وسّع عليكم، و خفف عنكم، و أباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن، قال تعالى: **﴿ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾** بل جوز الأكل منه للفقير بالمعروف، إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر، أو مجاناً كما سيأتي بيانه في سورة النساء، إن شاء الله و به الثقة.

﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١) ﴾

٢٢١- هذا تحريم من الله عز و جل على المؤمنين، أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان، ثم إن كان عمومها

مراداً، وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية و وثنية ، فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله **﴿و المحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين﴾** قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله **﴿و لا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾** : استثنى الله نساء أهل الكتاب، و هكذا قال مجاهد وعكرمة و سعيد بن جبير و مكحول و الحسن والضحاك و زيد بن أسلم و الربيع بن أنس وغيرهم. وقيل: بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان ، و لم يرد أهل الكتاب بالكلية ، والمعنى قريب من الأول ، و الله أعلم. و قال أبوجعفر بن جرير رحمه الله: بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات، و إنما كره عمر ذلك لئلا يزهد الناس في المسلمات أو لغير ذلك من المعاني. ثم روى بسنده عن شقيق قال: تزوج حذيفة يهودية ، فكتب إليه عمر: خلّ سبيلها، فكتب إليه: أتزعم أنها حرام، فأخلي سبيلها ؟ فقال: لا أزعم أنها حرام، و لكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن، و هذا إسناد صحيح ، وروى ابن جرير عن عمر أيضاً: المسلم يتزوج النصرانية ، و لا يتزوج النصراني المسلمة ، قال: وهذا أصح إسناداً من الأول، ثم روى عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ «نتزوج نساء أهل الكتاب و لا يتزوجون نساءنا» ثم قال: وهذا الخبر وإن كان في إسناده ما فيه ، فالقول به لإجماع الجميع من الأمة عليه ، كذا قال ابن جرير رحمه الله. و قد روى ابن أبي حاتم عن ابن عمر، أنه كره نكاح أهل الكتاب ، و تأول **﴿و لا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾**. و قال البخاري : و قال ابن عمر: لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول: ربها عيسى ، و روى أبو بكر الخلال الحنبلي عن أحمد بن حنبل في قول الله **﴿و لا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾** قال: مشركات العرب الذين يعبدون الأصنام. و قوله **﴿و لأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾** ، قد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «تُنكح المرأةُ لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها و لدينها، فاظفر بذات الدِّين، تربت يداك» و لمسلم عن جابر مثله، وله عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال «الدنيا مَتَاعٌ، وخيرُ متاعها المرأة الصالحة».

وقوله **﴿و لا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾** أي لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات، كما قال تعالى: **﴿لاهنّ حل لهم و لا هم يحلون لهن﴾** ثم قال تعالى: **﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك و لو أعجبكم﴾** أي ولرجل مؤمن ـ و لو كان عبداً حبشياً ـ خير من مشرك ، وإن كان رئيساً سرياً **﴿أولئك يدعون إلى النار﴾** أي معاشرتهم و مخالطتهم ، تبعث على حب الدنيا واقتنائها و إيثارها على الدار الآخرة، و عاقبة ذلك وخيمة **﴿والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه﴾** أي بشرعه وما نهى عنه **﴿و يبين الله آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾**.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) ﴾

٢٢٢- روى الإمام أحمد عن أنس: أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يُواكلوها و لم يجامعوها في البيوت فسأل أصحابُ النبي ﷺ النبيَّ ﷺ فأنزل الله عز و جل **﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا**

النساء في المحيض و لا تقربوهن حتى يطهرن﴾ حتى فرغ من الآية، فقال رسول الله ﷺ «اصْنَعُوا كُلَّ شيءٍ إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً، إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير و عباد بن بشر، فقالا: يا رسول الله، إن اليهود قالت: كذا وكذا أفلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وَجَدَ عليهما، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ فأرسل في آثارهما فسقاهما فعَرَفَا أن لم يجد عليهما، رواه مسلم.

فقوله ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ يعني الفرج، لقوله «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» و لهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم، إلى أنه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج، روى أبو داود أيضاً عن عكرمة، عن بعض أزواج النبي ﷺ كان إذا أراد من الحائض شيئاً يلقي على فرجها ثوباً، و روى أبو جعفر بن جرير أن مسروقاً ركب إلى عائشة فقال: السلام على النبي و على أهله، فقالت عائشة: مرحباً مرحباً، فأذنوا له فدخل فقال: إني أريد أن أسألك شيئاً عن شيء و أنا أستحي، فقالت: إنما أنا أمك و أنت ابني، فقال: ما للرجل من امرأته و هي حائض؟ فقالت له: كل شيء إلا فرجها، و هذا قول ابن عباس و مجاهد والحسن و عكرمة، (قلت) و يحل مضاجعتها و مواكلتها بلا خلاف، قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يأمرني فأغسل رأسه و أنا حائض، و كان يتكئ في حجري و أنا حائض فيقرأ القرآن. و في الصحيح عنها، قالت: كنت أتعرّق العَرْق و أنا حائض، فأعطيه النبي ﷺ فيضع فمه في الموضع الذي وضعت فمي فيه، و أشرب الشراب فأناوله فيضع فمه في الموضع الذي كنت أشرب منه، و روى أبو داود عن خلاس الهَجَري قال: سمعت عائشة تقول: كنت أنا و رسول الله ﷺ في الشعار الواحد و أنا حائض طامث، فإن أصابه مني شيء غسل مكانه لم يعده، و إن أصاب - تعني ثوبه - شيء غسل مكانه لم يعده و صلى فيه. و قال آخرون: إنما تحل له مباشرتها فيما عدا ما تحت الإزار، كما ثبت في الصحيحين عن ميمونة بنت الحارث الهلالية قالت: كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت و هي حائض، و روى الإمام أحمد و أبو داود و الترمذي و ابن ماجه عن حزام بن حكيم، عن عمه عبد الله بن سعد الأنصاري أنه سأل رسول الله ﷺ: ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: ما فوق الإزار. و هو رواية عن عائشة كما تقدم و ابن عباس و سعيد بن المسيب و شريح.

فهذه الأحاديث و ما شابهها حجة من ذهب إلى أنه يحل ما فوق الإزار منها، و هو أحد القولين في مذهب الشافعي رحمه الله، الذي رجحه كثير من العراقيين وغيرهم، ومأخذهم أنه حريم الفرج فهو حرام لئلا يتوصل إلى تعاطي ما حرم الله عز و جل، الذي أجمع العلماء على تحريمه و هو المباشرة في الفرج، ثم من فعل ذلك فقد أثم فيستغفر الله و يتوب إليه، و هل يلزمه مع ذلك كفارة أم لا؟ فيه قولان (أحدهما) نعم، لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن ابن عباس عن النبي ﷺ في الذي يأتي امرأته و هي حائض، يتصدق بدينار أو نصف دينار، وفي لفظ للترمذي «إذا كان دماً أحمر فدينار، وإذا كان دماً أصفر فنصف دينار»[1] (و القول الثاني) وهو الصحيح الجديد من مذهب الشافعي و قول الجمهور أنه لا شيء في ذلك، بل يستغفر الله عز و جل لأنه لم يصح عندهم رفع الحديث، فإنه قد روي مرفوعاً كما تقدم، و موقوفاً و هو الصحيح عند كثير من أئمة الحديث، فقوله تعالى: ﴿ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ تفسير قوله ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ و نهى عن قربانهن بالجماع

(١) ثبت من قول ابن عباس رضي الله عنه.

ما دام الحيض موجوداً، و مفهومه حله إذا انقطع.

وقوله ﴿فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ فيه ندب و إرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال، وذهب ابن حزم إلى وجوب الجماع بعد كل حيضة لقوله ﴿فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ وليس له في ذلك مستند، لأن هذا أمر بعد الحظر. و فيه أقوال لعلماء الأصول منهم من يقول إنه على الوجوب كالمطلق، هؤلاء يحتاجون إلى جواب ابن حزم، و منهم من يقول: إنه للإباحة، و يجعلون تقدم النهي عليه قرينة صارفة له من الوجوب، وفيه نظر، و الذي ينهض عليه الدليل أنه يرد عليه الحكم إلى ما كان عليه الأمر قبل النهي، فإن كان واجباً، فواجب كقوله ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين﴾ أو مباحاً فمباح كقوله ﴿و إذا حللتم فاصطادوا﴾ ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾ و على هذا القول تجتمع الأدلة، و قد حكاه الغزالي وغيره، فاختاره بعض أئمة المتأخرين و هو الصحيح.

و قد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تتيمم إن تعذر ذلك عليها بشرطه، إلا أن أبا حنيفة رحمه الله يقول، فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض و هو عشرة أيام عنده: أنها تحل بمجرد الانقطاع و لا تفتقر إلى غسل، و الله أعلم، و قال ابن عباس ﴿حتى يطهرن﴾ أي من الدم ﴿فإذا تطهرن﴾ أي بالماء، وكذا قال مجاهد و عكرمة والحسن و مقاتل بن حيان و الليث بن سعد وغيرهم. و قوله ﴿من حيث أمركم الله﴾ قال ابن عباس و مجاهد و غير واحد: يعني الفرج. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ يقول: في الفرج و لا تعدوه إلى غيره، فمن فعل شيئاً من ذلك فقد اعتدى. وقال ابن عباس و مجاهد و عكرمة ﴿من حيث أمركم الله﴾ أي تعتزلوهن، و فيه دلالة حينئذ على تحريم الوطء في الدبر، كما سيأتي تقريره قريباً إن شاء الله تعالى. و قال أبو رزين و عكرمة والضحاك و غير واحد ﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ يعني طاهرات غير حيّض، و لهذا قال ﴿إن الله يحب التوابين﴾ أي من الذنب و إن تكرر غشيانه ﴿ويحب المتطهرين﴾ أي من المتنزهين عن الأقذار و الأذى، و هو ما نهوا عنه من إتيان الحائض أو في غير المأتى.

٢٢٣- و قوله ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ قال ابن عباس: الحرث موضع الولد ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ أي كيف شئتم، سمعت جابراً قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ و رواه مسلم و أبو داود. و روى ابن أبي حاتم عن محمد بن المنكدر حدثهم: أن جابر بن عبد الله أخبره أن اليهود قالوا للمسلمين: مَن أتى امرأة و هي مدبرة جاء الولد أحول، فأنزل الله ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ قال ابن جريج في الحديث: فقال رسول الله ﷺ «مُقْبلةً و مُدْبرة إذا كان في الفرج». و في حديث بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيري، عن أبيه، عن جده، أنه قال: يارسول الله، نساؤنا ما نأتي منها و ما نَذَر؟ قال «حرثك ائت حرثك أنى شئت، غير أن لا تضرب الوجه، و لا تُقبح و لا تهجر إلا في البيت» الحديث، رواه أحمد و أهل السنن.

حديث آخر- و روى ابن أبي حاتم عن عبد الله ابن عباس، قال: أتى ناس من حمير إلى رسول الله ﷺ فسألوه عن أشياء، فقال له رجل: إني أحب النساء فكيف ترى في؟ فأنزل الله ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ و رواه الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: أنزلت هذه الآية ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ في أناس

من الأنصار أتوا النبيﷺ فسألوه، فقال النبيﷺ «ائتها على كل حالٍ إذا كان في الفرج».

حديث آخر - روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول اللهﷺ فقال: يا رسول الله هلكت، قال ما الذي أهلكك؟ قال: حولت رحلي البارحة، قال فلم يرد عليه شيئاً. قال: فأوحى الله إلى رسول اللهﷺ هذه الآية **﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾** «أَقْبِل و أَدْبِر و اتق الدُّبر والحيضة». ورواه الترمذي. و روى النسائي عن أبي النضر أنه أخبره أنه قال لنافع مولى ابن عمر، أنه قد أكثر عليك القول، أنك تقول عن ابن عمر أنه أفتى أن تؤتى النساء في أدبارهن! قال: كذبوا عليّ، ولكن سأحدثك كيف كان الأمر، إن ابن عمر عرض المصحف يوماً و أنا عنده حتى بلغ **﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾** فقال: يا نافع، هل تعلم من أمر هذه الآية؟ قلت: لا. قال، إنا كنا معشر قريش نجبي النساء، فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار أردنا منها ما كنا نريد، فإذا هن قد كرهن ذلك و أعظمنه، و كانت نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود إنما يؤتين على جنوبهن، فأنزل الله **﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾** و هذا إسناد صحيح، وقد رواه ابن مردويه عن الطبراني.

و قد وردت الأحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن فعله و تعاطيه (أي إتيان النساء في الأدبار) فروى الحسن بن عرفة عن جابر قال: قال رسول اللهﷺ «استحيوا إن الله لا يستحي من الحق، لا يحل أن تأتوا النساء في حشوشهن».

و روى الإمام أحمد عن خزيمة بن ثابت، أن رسول اللهﷺ نهى أن يأتي الرجل امرأته في دبرها.

حديث آخر - روى أبوعيسى الترمذي والنسائي عن ابن عباس، قال: قال رسول اللهﷺ «لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في الدبر» ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وهكذا أخرجه ابن حبان في صحيحه، و صححه ابن حزم أيضاً، و روى عبدٌ عن طاوس أن رجلاً سأل ابن عباس عن إتيان المرأة في دبرها، قال: تسألني عن الكفر! إسناده صحيح، و كذا رواه النسائي.

حديث آخر - روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده، أن النبيﷺ قال: «الذي يأتي امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى». و روى أحمد أيضاً عن أبي هريرة، قال: قال رسول اللهﷺ «ملعون من أتى امرأته في دبرها»، و هكذا رواه أبو داود و النسائي.

(طريق أخرى) - رواها الإمام أحمد و أهل السنن من حديث أبي هريرة، أن رسول اللهﷺ قال «من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهناً فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد». و عن أبي جويرية، قال: سأل رجل علياً عن إتيان المرأة في دبرها، فقال: سفلت، سفّل الله بك، ألم تسمع قول الله عز و جل: **﴿أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾**.

و قد تقدم قول ابن مسعود و أبي الدرداء وأبي هريرة وابن عباس و عبد الله بن عمرو في تحريم ذلك، و هو الثابت بلا شك عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه يحرمه. و روى الدارمي عن سعيد بن يسار أبي الحباب، قال: قلت لابن عمر: ما تقول في الجواري أيحمض لهن؟ قال: و ما التحميض؟ فذكر الدبر، فقال: و هل يفعل ذلك أحد من المسلمين؟ و هذا إسناد صحيح ونص صريح منه بتحريم ذلك. فكل ما ورد عنه مما يحتمل فهو مردود إلى هذا المحكم. و روى أبو بكر بن زياد النيسابوري سألت مالك بن أنس: ما تقول في

إتيان النساء في أدبارهن ؟ قال : ما أنتم إلا قوم عرب ، هل الحرث إلا موضع الزرع ، لا تعدو الفرج ، قلت : يا أبا عبدالله ، إنهم يقولون : إنك تقول ذلك ؟ قال : يكذبون علي يكذبون علي ، فهذا هو الثابت عنه ، و هو قول أبي حنيفة و الشافعي و أحمد بن حنبل و أصحابهم قاطبة ، و هو قول سعيد بن المسيب و أبي سلمة وعكرمة ، و طاوس و عطاء وسعيد بن جبير و عروة بن الزبير و مجاهد بن جبر و الحسن و غيرهم من السلف ، أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار ، و منهم من يطلق على فعله الكفر وهو مذهب جمهور العلماء ، و قد حكي في هذا شيء عن بعض فقهاء المدينة حتى حكوه عن الإمام مالك ، و في صحته نظر .

و قوله **﴿و قدموا لأنفسكم﴾** أي من فعل الطاعات مع امتثال ما أنهاكم عنه من ترك المحرمات ، و لهذا قال **﴿و اتقوا الله و اعلموا أنكم ملاقوه﴾** أي فيحاسبكم على أعمالكم جميعها **﴿و بشر المؤمنين﴾** أي المطيعين الله فيما أمرهم ، التاركين ما عنه زجرهم . و روى ابن جرير عن عطاء ، قال : أراه عن ابن عباس **﴿وقدموا لأنفسكم﴾** قال : تقول باسم الله ، التسمية عند الجماع ، و قد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله ، قال : باسم الله ، اللهم جَنِّبْنَا الشيطان وجنِّب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه إن يُقَدَّر بينهما ولد في ذلك ، لن يضره الشيطان أبداً» .

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) ﴾

٢٢٤- يقول تعالى : لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر و صلة الرحم إذا حلفتم على تركها ، كقوله تعالى : **﴿و لا يأتل أولو الفضل منكم و السعة أن يؤتوا أولي القربى و المساكين و المهاجرين في سبيل الله وليعفوا و ليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾** فالاستمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير ، كما روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة» و قال رسول الله ﷺ «و الله لأن يلجّ أحدكم بيمينه في أهله آثم له عند الله من أن يعطي كفارته التي افترض الله عليه» و هكذا رواه مسلم ، ثم روى البخاري عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ «من استلج في أهله بيمين فهو أعظم إثماً ، ليس تغني الكفارة» . و قال علي بن طلحة عن ابن عباس في قوله **﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾** قال : لا تجعلن عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير ، و لكن كفر عن يمينك و اصنع الخير ، و كذا قال مسروق و الشعبي وإبراهيم النخعي و مجاهد و طاوس و سعيد بن جبير و عطاء و عكرمة و مكحول و الزهري والحسن و قتادة ومقاتل بن حيان و الربيع بن أنس و الضحاك و عطاء الخراساني و السدي رحمهم الله ، و يؤيد ما قاله هؤلاء الجمهور ما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إني و الله إن شاء الله ، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير و تحللتها» و ثبت فيهما أيضاً أن رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة «يا عبد الرحمن بن سمرة ، لا تسأل الإمارة فإنك إنْ أُعطيتها من غير مسألةٍ أُعنتَ عليها ، و إن أُعطيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها ، وَ إذا حلفتَ على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأتِ الذي هو خير ، و كفِّر عن يمينك» . و روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه ، و ليفعل الذي هو خير» .

٢٢٥- و قوله ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ أي لا يعاقبكم و لا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية، و هي التي لا يقصدها الحالف بل تجري على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول اللهﷺ قال «من حلف فقال في حلفه: باللات و العزى، فليقل لا إله إلا الله» فهذا قاله لقوم حديثي عهد بجاهلية، قد أسلموا و ألسنتهم قد ألفت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد، فأمروا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد لتكون هذه بهذه، و لهذا قال تعالى: ﴿و لكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ الآية، و في الآية الأخرى ﴿بما عقدتم الأيمان﴾. و قالت عائشة: إن رسول اللهﷺ قال: «اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته: كلا و الله، و بلى و الله» رواه أبو داود. و روى عبد الرزاق عن عائشة في قوله ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ قالت: هم القوم يتدارؤون في الأمر، فيقول هذا: لا والله، بلى والله، و كلا والله، يتدارؤون في الأمر لا تعقد عليه قلوبهم، و قال ابن أبي حاتم بعد أن روى نحوه: و روي عن ابن عمر و ابن عباس في أحد قوليه. (الوجه الثاني) روي أيضاً عن عائشة أنها كانت تتأول هذه الآية، يعني قوله ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ وتقول: هو الشيء يحلف علية أحدكم لا يريد منه إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه، ثم قال: و روي عن أبي هريرة و ابن عباس في أحد قوليه. (أقوال أخر). روى عبد الرزاق عن إبراهيم: هو الرجل يحلف على الشيء ثم ينساه. و قوله ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ قال ابن عباس ومجاهد و غير واحد: هو أن يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب، قال مجاهد و غيره: و هي كقوله تعالى: ﴿و لكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ الآية. ﴿و الله غفور حليم﴾ أي غفور لعباده حليم عليهم.

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

٢٢٦- الإيلاء الحلف، فإذا حلف الرجل أن لا يجامع زوجته مدة، فلا يخلو إما أن يكون أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها، فإن كانت أقل، فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته، و عليها أن تصبر وليس لها مطالبته بالفيئة في هذه المدة، و هذا كما ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول اللهﷺ آلى من نسائه شهراً فنزل لتسع و عشرين، و قال «الشهر تسع و عشرون»، و لهما عن عمر بن الخطاب نحوه، فأما إن زادت المدة على أربعة أشهر فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر، إما أن يفيء أي يجامع، و إما أن يطلق فيجبره الحاكم على هذا، أو هذا لئلا يضر بها، و لهذا قال تعالى: ﴿للذين يؤلون من نسائهم﴾ أي يحلفون على ترك الجماع عن نسائهم، فيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء كما هو مذهب الجمهور ﴿تربص أربعة أشهر﴾ أي ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف، ثم يوقف و يطالب بالفيئة أو الطلاق، و لهذا قال ﴿فإن فاءوا﴾ أي رجعوا إلى ما كانوا عليه و هو كناية عن الجماع، قاله ابن عباس و مسروق و الشعبي و سعيد ابن جبير و غير واحد و منهم ابن جرير رحمه الله ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ ما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين، و قوله ﴿فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم﴾ فيه دلالة لأحد قولي العلماء، و هو القديم عن الشافعي أن المولي إذا فاء بعد الأربعة الأشهر أنه لا كفارة عليه، و الذي عيه الجمهور و هو الجديد من مذهب الشافعي أن

عليه التكفير لعموم وجوب التكفير على كل حالف، كما تقدم أيضاً في الأحاديث الصحاح، و الله أعلم.

٢٢٧- و قوله ﴿وإن عزموا الطلاق﴾ فيه دلالة على أن الطلاق لا يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر، كقول الجمهور من المتأخرين، و ذهب آخرون إلى أنه يقع بمضي أربعة أشهر تطليقة، و هو مروي بأسانيد صحيحة عن عمر و عثمان و علي و ابن مسعود و ابن عباس و ابن عمر و زيد بن ثابت، ثم قيل: إنها تَطْلُقُ بمضي الأربعة أشهر طلقة رجعية، قاله سعيد بن المسيب و أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام و مكحول و ربيعة والزهري ومروان بن الحكم، و قيل: إنها تَطلُقُ طلقة بائنة، روي عن علي و ابن مسعود و عثمان و ابن عباس وابن عمر و زيد بن ثابت، و به يقول أبو حنيفة، فكل من قال: إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر أوجب عليها العدة، إلا ما روي عن ابن عباس وأبي الشعثاء: أنها إن كانت حاضت ثلاث حيض فلا عدة عليها، و هو قول الشافعي، و الذي عليه الجمهور من المتأخرين أن يوقف فيطالب إما بهذا وإما بهذا و لا يقع عليها بمجرد مضيها طلاق، وروى مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أنه قال: إذا آلى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر حتى يوقف، فإما أن يطلق و إما أن يفيء، و أخرجه البخاري.

و روى الشافعي رحمه الله عن سليمان بن يسار، قال: أدركت بضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ كلهم يوقف المولي، قال الشافعي: و أقل ذلك ثلاثة عشر، و رواه الشافعي عن علي رضي الله عنه أنه يوقف المولي، ثم قال: و هكذا نقول، و هو موافق لما رويناه عن عمر و ابن عمر و عائشة و عثمان و زيد بن ثابت و بضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ، وروى ابن جرير عن أبي صالح قال: سألت اثني عشر رجلاً من الصحابة عن الرجل يولي من امرأته، فكلهم يقول: ليس عليه شيء حتى تمضي الأربعة أشهر فيوقف، فإن فاء و إلا طلق، و رواه الدارقطني. (قلت) و هو يروى عن عمر و عثمان وعلي و أبي الدرداء و عائشة أم المؤمنين و ابن عمر و ابن عباس، و به يقول سعيد بن المسيب وعمر بن عبد العزيز و مجاهد و طاوس و محمد بن كعب و القاسم، و هو مذهب مالك و الشافعي وأحمد بن حنبل و أصحابهم رحمهم الله، و هو اختيار ابن جرير أيضاً، و هو قول الليث وإسحاق بن راهويه و أبي عبيد و أبي ثور و داود، و كل هؤلاء قالوا: إن لم يفيء ألزم بالطلاق، فإن لم يطلق طلق عليه الحاكم، و الطلقة تكون رجعية، له رجعتها في العدة، و انفرد مالك بأن قال، لا يجوز له رجعتها حتى يجامعها في العدة و هذا غريب جداً.

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) ﴾

٢٢٨-هذا أمر من الله سبحانه و تعالى للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء، بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء، أي بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء، ثم تتزوج إن شاءت، و قد أخرج الأئمة الأربعة من هذا العموم «الأمة» إذا طُلِّقت، فإنها تعتد عندهم بقرأين لأنها على النصف من الحرة، و القرء لا يتبعض فكمل لها قرآن، و قد روي عن ابن عمر من قوله، و هكذا روي عن عمر بن الخطاب قالوا: و لم يعرف بين الصحابة خلاف، و قال بعض السلف: بل عدتها كعدة الحرة لعموم الآية، و لأن هذا أمر جِبلّي، فكان الحرائر

و الإماء في هذا سواء، حكى هذا القول الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن محمد بن سيرين و بعض أهل الظاهر و ضعفه.

و قد اختلف السلف و الخلف و الأئمة في المراد بالأقراء ما هو على قولين: **(أحدهما)** أن المراد بها الأطهار، وروى مالك عن عروة، عن عائشة أنها انتقلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر حين دخلت في الدم من الحيضة الثالثة، فذكرت ذلك لعمرة بنت عبد الرحمن، فقالت: صدق عروة، و قد جادلها في ذلك ناس فقالوا: إن الله تعالى يقول في كتابه **﴿ثلاثة قروء﴾**. فقالت عائشة: صدقتم، و تدرون ما الأقراء ؟ إنما الأقراء الأطهار، و روى مالك عن أبي بكر بن عبد الرحمن يقول: ماأدركت أحداً من فقهائنا إلا و هو يقول ذلك، يريد قول عائشة، و روى مالك عن عبد الله بن عمر، أنه كان يقول: إذا طلق الرجل امرأته، فدخلت في الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبرئ منها، و قال مالك: و هو الأمر عندنا وروى مثله عن ابن عباس و زيد بن ثابت و سالم والقاسم و عروة و سليمان بن يسار، و أبي بكر بن عبد الرحمن وأبان بن عثمان و عطاء بن أبي رباح و قتادة والزهري و بقية الفقهاء السبعة، و هو مذهب مالك و الشافعي و غير واحد و داود و أبو ثور، وهو رواية عن أحمد و استدلوا عليه بقوله تعالى: **﴿فطلقوهن لعدتهن﴾** أي في الأطهار و لما كان الطهر الذي يُطلّق فيه محتسباً، دل على أنه أحد الأقراء الثلاثة المأمور بها و لهذا قال هؤلاء: إن المعتدة تنقضي عدتها و تبين من زوجها بالطعن في الحيضة الثالثة، و أقل مدة تصدق فيها المرأة في انقضاء عدتها اثنان و ثلاثون يوماً و لحظتان، **(والقول الثاني)** - أن المراد بالأقراء، الحيض، فلا تنقضي العدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة، زاد آخرون: وتغتسل منها، و أقل وقت تصدق فيه المرأة في انقضاء عدتها ثلاثة و ثلاثون يوماً و لحظة، روى الثوري عن علقمة قال: كنا عند عمر بن الخطاب ﷺ فجاءته امرأة فقالت: إن زوجي فارقني بواحدة أو اثنتين فجاءني و قد نزعت ثيابي و أغلقت بابي فقال عمر لعبد الله بن مسعود: أراها امرأته ما دون أن تحل لها الصلاة قال: و أنا أرى ذلك، و هكذا روي عن أبي بكر الصديق وعمر و عثمان و علي و أبي الدرداء وعبادة بن الصامت وأنس بن مالك و ابن مسعود و معاذ، وأبي ابن كعب و أبي موسى الأشعري و ابن عباس و سعيد بن المسيب و علقمة و الأسود و إبراهيم ومجاهد و عطاء و طاوس و سعيد بن جبير وعكرمة و محمد بن سيرين والحسن و قتادة والشعبي و الربيع و مقاتل بن حيان و السدي ومكحول و الضحاك و عطاء الخراساني أنهم قالوا: الأقراء الحيض، و هذا مذهب أبي حنيفة وأصحابه و أصح الروايتين عن الإمام أحمد بن حنبل، و حكى عنه الأثرم أنه قال: الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: الأقراء الحيض، و هو مذهب الثوري والأوزاعي و ابن أبي ليلى وابن شبرمة و الحسن بن صالح بن حي و أبي عبيد و إسحاق بن راهويه، و يؤيد هذا ما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود و النسائي عن فاطمة بنت أبي حبيش، أن رسول الله ﷺ قال لها «دعي الصلاة أيام أقرائك» فهذا لو صح لكان صريحاً في أن القرء هو الحيض [1] و قال ابن جرير: أصل القرء في كلام العرب: الوقت لمجيء الشيء المعتاد مجيئه في وقت معلوم، و لإدبار الشيء المعتاد إدباره لوقت معلوم، و هذه العبارة تقتضي أن يكون مشتركاً بين هذا و هذا، و قد ذهب إليه بعض الأصوليين، والله أعلم. و هذا قول الأصمعي أن القرء هو الوقت. و قال أبو عمر بن العلاء: العرب تسمي الحيض قرءاً، و تسمي الطهر قرءاً و تسمي الطهر والحيض

---

(١) الحديث صحيح لشواهده.

جميعاً قرءاً. و قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء أن القرء يراد به الحيض، و يراد به الطهر، و إنما اختلفوا في المراد من الآية ما هو على قولين.

و قوله : ﴿و لا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ أي من حبل أو حيض، قاله ابن عباس و ابن عمر و مجاهد و الشعبي والحكم بن عيينة والربيع بن أنس و الضحاك و غير واحد. و قوله: ﴿إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ تهديد لهن على خلاف الحق، دل هذا على أن المرجع في هذا إليهن، لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن و يتعذر إقامة البينة غالباً على ذلك، فرد الأمر إليهن و توعدن فيه لئلا يخبرن بغير الحق، إما استعجالاً منها لانقضاء العدة أو رغبة منها في تطويلها لما لها في ذلك من المقاصد، فأمرت أن تخبر بالحق في ذلك من غير زيادة و لا نقصان. وقوله: ﴿و بعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً﴾ أي وزوجها الذي طلقها أحق بردها، ما دامت في عدتها، إذا كان مراده بردها الإصلاح و الخير، وهذا في الرجعيات، فأما المطلقات البوائن فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن. و إنما كان ذلك لما حصروا في الطلقات الثلاث، فأما حال نزول هذه الآية، فكان الرجل أحق برجعة امرأته و إن طلقها مائة مرة، فلما قصروا في الآية التي بعدها على ثلاث تطليقات، صار للناس مطلقة بائن، و غير بائن و إذا تأملت هذا، تبين لك ضعف ما سلكه بعض الأصوليين من استشهادهم على مسألة عود الضمير، هل يكون مخصصاً لما تقدمه من لفظ العموم أم لا بهذه الآية الكريمة، فإن التمثيل بها غير مطابق لما ذكروه، والله أعلم.

وقوله﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ أي ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر، ما يجب عليه بالمعروف، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر، أن رسول الله ﷺ قال في خطبته في حجة الوداع «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف». و في حديث معاوية بن حيدة القشيري أنه قال: يارسول الله ما حق زوجة أحدنا ؟ قال «أن تطعمها إذا طعمت، و تكسوها إذا اكتسيت، و لا تضرب الوجه، و لا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت». وروى وكيع عن ابن عباس، قال: إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة، لأن الله يقول ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ و رواه ابن جرير و ابن أبي حاتم. و قوله ﴿و للرجال عليهن درجة﴾ أي في الفضيلة في الخلق و الخلق و المنزلة و طاعة الأمر و الإنفاق و القيام بالمصالح و الفضل في الدنيا و الآخرة، كما قال تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض و بما أنفقوا من أموالهم﴾. و قوله ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي عزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، حكيم في أمره و شرعه وقدره.

﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا

حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

٢٢٩- هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه من الأمر في ابتداء الإسلام من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة ما دامت في العدة، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله إلى ثلاث طلقات، وأباح الرجعة في المرة والثنتين، وأبانها بالكلية في الثالثة، فقال **﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾** روى أبو داود في (باب نسخ المراجعة بعد الطلقات الثلاث) عن ابن عباس **﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾** الآية، وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعتها وإن طلقها ثلاثاً، فنسخ ذلك فقال **﴿الطلاق مرتان﴾** الآية، ورواه النسائي، وروى ابن أبي حاتم عن هشام بن عروة، عن أبيه أن رجلاً قال لامرأته: لا أطلقك أبداً ولا آويك أبداً، قالت: كيف ذلك؟ قال: أطلق حتى إذا دنا أجلك راجعتك، فأتت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فأنزل الله عز وجل **﴿الطلاق مرتان﴾**، وهكذا رواه ابن جرير وعبد بن حميد، ورواه الترمذي والحاكم عن عائشة.

وقوله **﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾** أي إذا طلقتها واحدة أو اثنتين، فأنت مخير فيها ما دامت عدتها باقية بين أن تردها إليك ناوياً الإصلاح بها والإحسان إليها، وبين أن تتركها حتى تنقضي عدتها فتبين منك وتطلق سراحها محسناً إليها، لا تظلمها من حقها شيئاً ولا تضار بها. وقال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، قال: إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين، فليتق الله في ذلك، أي في الثالثة، فإما أن يمسكها بمعروف فيحسن صحابتها، أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئاً. وروى ابن أبي حاتم عن أبي رزين يقول: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت قول الله عز وجل **﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾** أين الثالثة؟ قال: «التسريح بإحسان» ورواه عبد بن حميد، ورواه ابن مردويه عن أنس. وقوله: **﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً﴾** أي لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيقوا عليهن، ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو ببعضه، كما قال تعالى: **﴿ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾** فأما إن وهبته المرأة شيئاً عن طيب نفس منها، فقد قال تعالى: **﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾** وأما إذا تشاقق الزوجان، ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته، فلها أن تفتدي منه بما أعطاها، ولا حرج عليها في بذلها له، ولا حرج عليه في قبول ذلك منها، ولهذا قال تعالى: **﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾** الآية، فأما إذا لم يكن لها عذر، وسألت الافتداء منه، فقد روى ابن جرير عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «أيما امرأة سألت زوجها طلاقها في غير ما بأس، فحرام عليها رائحة الجنة». وهكذا رواه الترمذي وقال حسن، ورواه أبو داود وابن ماجه.

حديث آخر- روى ابن جرير عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ «إن المختلعات المنتزعات هن المنافقات» ثم قد قال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف: إنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية، واحتجوا بقوله تعالى: **﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله﴾** قالوا: فلم يشرع الخلع إلا في هذه الحالة، فلا يجوز في غيرها إلا

بدليل، والأصل عدمه، ممن ذهب إلى هذا ابن عباس وطاوس و إبراهيم و عطاء و الحسن والجمهور حتى قال مالك و الأوزاعي: لوأخذ منها شيئاً وهو مضار لها، وجب رده إليها، و كان الطلاق رجعياً، قال مالك: و هو الأمر الذي أدركت الناس عليه، وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجوز الخلع في حال الشقاق وعند الاتفاق بطريق الأولى والأحرى، و هذا قول جميع أصحابه قاطبة، وحكى الشيخ أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستذكار له عن بكر بن عبد الله المزني، أنه ذهب إلى أن الخلع منسوخ بقوله: **﴿و آتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً﴾** ورواه ابن جرير عنه، و هذا قول ضعيف و مأخذ مردود على قائله، و قد ذكر ابن جرير رحمه الله أن هذه الآية نزلت في شأن ثابت بن قيس بن شماس و امرأته حبيبة بنت عبد الله بن أبي بن سلول، و لنذكر طرق حديثها واختلاف ألفاظه، روى الإمام مالك عن حبيبة بنت سهل الأنصارية، أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، و أن رسول الله ﷺ خرج إلى الصبح، فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه في الغلس، فقال رسول الله ﷺ «من هذه؟» قالت: أنا حبيبة بنت سهل. فقال: «ما شأنك؟» فقال: لا أنا و لا ثابت بن قيس لزوجها، فلما جاء زوجها ثابت بن قيس قال له رسول الله ﷺ «هذه حبيبة بنت سهل قد ذكرت ما شاء الله أن تذكر» فقالت حبيبة: يا رسول الله كل ما أعطاني عندي، فقال رسول الله ﷺ «خذ منها» فأخذ منها و جلست في أهلها. وهكذا رواه الإمام أحمد و رواه أبو داود والنسائي.

حديث آخر - فيه عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال البخاري عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس، أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ما أعيب عليه في خُلُق و لا دين، و لكن أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ «أتردين إليه حديقته»؟ قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ «اقبل الحديقة و طلقها تطليقة»، و في بعض الطرق أنها قالت: لا أطيقه يعني بغضاً. و قد اختلف الأئمة رحمهم الله في أنه هل يجوز للرجل أن يفاديها بأكثر مما أعطاها، فذهب الجمهور إلى جواز ذلك لعموم قوله تعالى: **﴿فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾**. وقال البخاري: و أجاز عثمان الخلع دون عقاص رأسها. و روى عبد الرزاق أن الربيع بنت معوذ بن عفراء قالت: كان لي زوج يقل علي الخير إذا حضرني، و يحرمني إذا غاب عني، قالت: فكانت مني زلة يوماً فقلت له: أختلع منك بكل شيء أملكه، قال: نعم، قالت: ففعلت، قالت: فخاصم عمي معاذ بن عفراء إلى عثمان بن عفان، فأجاز الخلع و أمره أن يأخذ عقاص رأسي فما دونه، أو قالت: ما دون عقاص الرأس. و معنى هذا أنه يجوز أن يأخذ منها كل ما بيدها من قليل وكثير و لا يترك لها سوى عقاص شعرها، و به يقول ابن عمر و ابن عباس و مجاهد و عكرمة وإبراهيم النخعي و قبيصة بن ذؤيب والحسن بن صالح و عثمان البتي، و هذا مذهب مالك و الليث و الشافعي و أبي ثور، و اختاره ابن جرير، و قال أصحاب أبي حنيفة: إن كان الإضرار من قبلها، جاز أن يأخذ منها ما أعطاها، ولا يجوز الزيادة عليه، فإن ازداد جاز في القضاء، و إن كان الإضرار من جهته لم يجز أن يأخذ منها شيئاً، فإن أخذ، جاز في القضاء. و قال الإمام أحمد و أبو عبيد و إسحاق بن راهويه: لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاها، و هذا قول سعيد بن المسيب و عطاء وعمرو بن شعيب و الزهري وطاوس والحسن والشعبي و حماد بن أبي سليمان و الربيع بن أنس، و قال معمر و الحكم: كان علي يقول: لا يأخذ من المختلعة فوق ما أعطاها، و قال الأوزاعي: القضاة لا يجيزون أن يأخذ منها أكثر مما ساق إليها. (قلت): ويستدل لهذا القول بما روى عن ابن عباس في قصة ثابت بن قيس، فأمره رسول الله ﷺ أن يأخذ منها

الحديقة و لا يزداد، وحملوا معنى **﴿فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾** أي من الذي أعطاها لتقدم قوله: **﴿و لا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾** أي من ذلك، وهكذا كان يقرؤها الربيع بن أنس **﴿فلا جناح عليهما فيما افتدت به منه﴾** رواه ابن جرير، لهذا قال بعده **﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها و من يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾**.

(فصل) قال الشافعي: اختلف أصحابنا في الخلع، ثم روى عن ابن عباس في رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه بعد، يتزوجها إن شاء لأن الله تعالى يقول: **﴿الطلاق مرتان - قرأ إلى - أن يتراجعا﴾** ثم روى عن عكرمة قال: كل شيء أجازه المال فليس بطلاق، و روى غير الشافعي عن ابن عباس: أن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص سأله قال: رجلٌ طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه أيتزوجها؟ قال: نعم، ليس الخلع بطلاق، ذكر الله الطلاق في أول الآية و آخرها، و الخلع فيما بين ذلك، فليس الخلع بشيء، ثم قرأ **﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾** و قرأ: **﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره﴾** و هذا الذي ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما من أن الخلع ليس بطلاق و إنما هو فسخ، هو رواية عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان و ابن عمر، و هو قول طاوس وعكرمة، و به يقول أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه و أبو ثور و داود بن علي الظاهري، و هو مذهب الشافعي في القديم، و هو ظاهر الآية الكريمة، و القول الثاني في الخلع: أنه طلاق بائن إلا أن ينوي أكثر من ذلك، و قد روي عن عمر وعلي و ابن مسعود و ابن عمر، و به يقول سعيد بن المسيب و الحسن و عطاء و شريح والشعبي وإبراهيم و جابر بن زيد، وإليه ذهب مالك وأبوحنيفة و أصحابه والثوري و الأوزاعي وأبوعثمان البتي و الشافعي في الجديد، غير أن الحنفية عندهم أنه متى نوى المخالع تطليقة أو اثنتين أو أطلق، فهو واحدة بائنة، وإن نوى ثلاثاً فثلاث، وللشافعي قول آخر في الخلع، و هو أنه متى لم يكن بلفظ الطلاق، و عَرِيَ عن البينة، فليس هو بشيء بالكلية. (مسألة) و ذهب مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد و إسحاق بن راهويه في رواية عنهما، و هي المشهورة، إلى أن المختلعة عدتها عدة المطلقة بثلاثة قروء، إن كانت ممن تحيض، و روي ذلك عن عمر وعلي وابن عمر، قال الترمذي: و هو أكثر أهل العلم من الصحابة و غيرهم، و مأخذهم في هذا أن الخلع طلاق، فتعتد كسائر المطلقات، والقول الثاني: أنها تعتد بحيضة واحدة تستبرئ بها رحمها. روى ابن أبي شيبة عن ابن عمر أن الربيع اختلعت من زوجها، فأتى عمها عثمان ﷺ، فقال: تعتد بحيضة. قال: و كان ابن عمر يقول: تعتد ثلاث حيض، حتى قال هذا عثمان، فكان ابن عمر يفتي به، و يقول: عثمان خيرنا و أعلمنا. و به يقول عكرمة و أبان بن عثمان و كل من تقدم ذكره ممن يقول أن الخلع فسخ يلزمه القول بهذا واحتجوا لذلك بما رواه أبو داود و الترمذي عن ابن عباس، أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها على عهد النبيﷺ فأمرها النبيﷺ أن تعتد بحيضة.

حديث آخر - روى الترمذي عن الربيع بنت معوذ بن عفراء، أنها اختلعت على عهد رسول اللهﷺ، فأمرها النبيﷺ أو أُمرت أن تعتد بحيضة. قال الترمذي: الصحيح أنها أمرت أن تعتد بحيضة. (مسألة) و ليس للمخالع أن يراجع المختلعة في العدة بغير رضاها عند الأئمة الأربعة و جمهور العلماء، لأنها قد ملكت نفسها بما بذلت له من العطاء. و روي عن ابن أبي أوفى و ماهان الحنفي و سعيد بن المسيب و الزهري أنهم قالوا: إن رد

إليها الذي أعطاها جاز له رجعتها في العدة بغير رضاها، و هو اختيار أبي ثور رحمه الله. (مسألة) و هل له أن يوقع عليها طلاقاً آخر في العدة؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء: (أحدهما) ليس له ذلك، لأنها قد ملكت نفسها وبانت منه، وبه يقول ابن عباس و ابن الزبير و عكرمة و جابر بن زيد و الحسن البصري و الشافعي و أحمد بن حنبل و إسحاق بن راهويه و أبو ثور. (و الثاني) قال مالك: إن أتبع الخلع طلاقاً من غير سكوت بينهما، وقع، و إن سكت بينهما، لم يقع، قال ابن عبد البر: و هذا يشبه ما روي عن عثمان ﷺ. (و الثالث) أنه يقع عليها الطلاق بكل حال ما دامت في العدة، و هو قول أبي حنيفة و أصحابه و الثوري و الأوزاعي، و قوله ﴿**تلك حدود الله فلا تعتدوها و من يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون**﴾ أي هذه الشرائع التي شرعها لكم هي حدوده فلا تتجاوزوها، كما ثبت في الحديث الصحيح «إن الله حدَّ حدوداً فلا تعتدوها، و فرض فرائض فلا تضيعوها، و حرم محارم فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تسألوا عنها». و قد يستدل بهذه الآية من ذهب إلى أن جمع الطلقات الثلاث بكلمة واحدة حرام، كما هو مذهب المالكية و من وافقهم، و إنما السنة عندهم أن يطلق واحدة لقوله ﴿**الطلاق مرتان**﴾ ثم قال ﴿**تلك حدود الله فلا تعتدوها و من يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون**﴾ ويقوون ذلك بحديث محمود بن لبيد الذي رواه النسائي في سننه عن محمود بن لبيد، قال: أخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً، فقام غضبان ثم قال: «أيلعب بكتاب الله و أنا بين أظهركم»؟ حتى قام رجل فقال: يا رسول الله، ألا أقتله. فيه انقطاع[1].

٢٣٠ - و قوله تعالى: ﴿**فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره**﴾ أي أنه إذا طلق الرجل امرأته طلقة ثالثة بعد ما أرسل عليها الطلاق مرتين، فإنها تحرم عليه ﴿**حتى تنكح زوجاً غيره**﴾ أي حتى يطأها زوج آخر في نكاح صحيح، فلو وطئها واطئ في غير نكاح و لو في ملك اليمين، لم تحل للأول، لأنه ليس بزوج، وهكذا لو تزوجت و لكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول، و قد روى أبو جعفر ابن جرير عن ابن عمر، عن النبي ﷺ، في الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها البتة، فيتزوجها زوج آخر، فيطلقها قبل أن يدخل بها، أترجع إلى الأول؟ قال «لا، حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها» و رواه الإمام أحمد و النسائي.

حديث آخر - و روى ابن جرير عن عائشة: أن رجلاً طلق امرأته ثلاثة، فتزوجت زوجاً، فطلقها قبل أن يمسها، فسئل رسول الله ﷺ: أتحل للأول؟ فقال «لا، حتى يذوق من عسيلتها كما ذاق الأول» أخرجه البخاري و مسلم. (فصل) والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغباً في المرأة، قاصداً لدوام عشرتها، كما هو المشروع من التزويج، واشترط الإمام مالك مع ذلك، أن يطأها الثاني وطأ مباحاً، فلو وطئها و هي محرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائض أو نفساء أو الزوج صائم أو محرم أو معتكف لم تحل للأول بهذا الوطء، و كذا لو كان الزوج الثاني ذمياً لم تحل للمسلم بنكاحه، لأن أنكحة الكفار باطلة عنده. فأما إذا كان الثاني إنما قصده أن يحلها للأول، فهذا هو المحلل الذي وردت الأحاديث بذمه و لعنه، و متى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة.

---

(١) و الراجح اتصاله و صحته، و انظر «غاية المرام» (٢٦١) للألباني حفظه الله.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك

(الحديث الأول) عن عبد الله قال: لعن رسول الله ﷺ: الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة والمحلل والمحلل له وآكل الربا وموكله، رواه أحمد والترمذي والنسائي، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، قال: والعمل على هذا عند أهل العلم من الصحابة منهم عمر وعثمان وابن عمر، وهو قول الفقهاء من التابعين، ويروى ذلك عن علي وابن مسعود وابن عباس.

(طريق أخرى) روى الإمام أحمد والنسائي عن عبد الله بن مسعود، قال: آكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبه إذا علموا به، والواصلة والمستوصلة، ولاوي الصدقة والمعتدي فيها، والمرتد على عقبيه أعرابياً بعد هجرته، والمحلل والمحلل له، ملعونون على لسان محمد ﷺ يوم القيامة.

(الحديث الثاني) عن عمر بن نافع عن أبيه أنه قال: جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه، هل تحل للأول؟ فقال: لا إلا نكاح رغبة، كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ، رواه الحاكم، وهذه الصيغة مشعرة بالرفع.

٢٣٠- وقوله **﴿فإن طلقها﴾** أي الزوج الثاني بعد الدخول بها **﴿فلا جناح عليهما أن يتراجعا﴾** أي المرأة والزوج الأول **﴿إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾** أي يتعاشرا بالمعروف. قال مجاهد: إن ظنا أن نكاحهما على غير دلسة **﴿وتلك حدود الله﴾** أي شرائعه وأحكامه **﴿يبينها﴾** أي يوضحها **﴿لقوم يعلمون﴾**.

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله فيما إذا طلق الرجل امرأته طلقة أو طلقتين وتركها حتى انقضت عدتها، ثم تزوجت بآخر، فدخل بها ثم طلقها فانقضت عدتها، ثم تزوجها الأول، هل تعود إليه بما بقي من الثلاث، كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل، وهو قول طائفة من الصحابة رضي الله عنهم، أو يكون الزوج الثاني قد هدم ما قبله من الطلاق، فإذا عادت إلى الأول تعود بمجموع الثلاث، كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله، وحجتهم أن الزوج الثاني إذا هدم الثلاث فلأن يهدم ما دونها بطريق الأولى والأحرى، والله أعلم.

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) ﴾

٢٣١- هذا أمر من الله عز وجل للرجال، إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً له عليها فيه رجعة، أن يحسن في أمرها إذا انقضت عدتها، ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها، فإما أن يمسكها، أي يرتجعها إلى عصمة نكاحه، بمعروف وهو أن يشهد على رجعتها، وينوي عشرتها بالمعروف، أو يسرحها، أي يتركها حتى تنقضي عدتها ويخرجها من منزله بالتي هي أحسن، من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقابح، قال الله تعالى:

﴿ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا﴾، قال ابن عباس، ومجاهد و مسروق و الحسن و قتادة والضحاك والربيع و مقاتل بن حيان و غير واحد: كان الرجل يطلق المرأة، فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراراً لئلا تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعتد فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة، فنهاهم الله عن ذلك، وتوعّدهم عليه، فقال: ﴿و من يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ أي بمخالفته أمر الله تعالى.

و قوله تعالى: ﴿و لا تتخذوا آيات الله هزواً﴾، قال مسروق: هو الذي يطلق في غير كنهه، و يضار امرأته بطلاقها وارتجاعها لتطول عليها العدة، وقال الحسن وقتادة و عطاء الخراساني و الربيع و مقاتل ابن حيان: هو الرجل يطلق و يقول: كنت لاعباً، أو عتق أو ينكح و يقول: كنت لاعباً، فأنزل الله ﴿و لا تتخذوا آيات الله هزواً﴾ فألزم الله بذلك، وروى ابن أبي حاتم عن الحسن هو البصري نحوه و المشهور في هذا الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي و ابن ماجه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث جدهن جد، و هزلهن جد: النكاح و الطلاق و الرجعة». و قوله ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾، أي في إرساله الرسول بالهدى و البينات إليكم ﴿و ما أنزل عليكم من الكتاب و الحكمة﴾، أي السنة ﴿يعظكم به﴾ أي يأمركم و ينهاكم و يتوعدكم على ارتكاب المحارم، ﴿و اتقوا الله﴾، أي فيما تأتون و فيما تذرون، ﴿و اعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ أي فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية و الجهرية و سيجازيكم على ذلك.

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) ﴾

٢٣٢- قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طلقة أوطلقتين، فتنقضي عدتها، ثم يبدو له أن يتزوجها و أن يراجعها، و تريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك، فنهى الله أن يمنعوها. و كذا قال مسروق و إبراهيم النخعي و الزهري و الضحاك: إنها أنزلت في ذلك، و هذا الذي قالوه ظاهر من الآية، و فيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تُزوج نفسها، و أنه لا بد في النكاح من ولي، كما قاله الترمذي و ابن جرير عند هذة الآية، كما جاء في الحديث «لا تزوج المرأة المرأة، و لا تزوج المرأة نفسها، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها» و في الأثر الآخر «لا نكاح إلا بولي مرشد و شاهدي عدل» و في هذه المسألة نزاع بين العلماء، محرر في موضعه من كتب الفروع، و قد قررنا ذلك في كتاب الأحكام، و لله الحمد و المنة[1].

و قد روي أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار المزني و أخته، فروى البخاري رحمه الله في كتابه الصحيح عند تفسير هذه الآية عن الحسن، أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها، فتركها حتى انقضت عدتها فخطبها، فأبى معقل، فنزلت ﴿ولا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن﴾ و هكذا ذكر غير واحد من السلف، أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار وأخته. و قوله ﴿ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله و اليوم الآخر﴾ أي هذا الذي نهيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف يأتمر به، و يتعظ به، وينفعل له ﴿من كان منكم﴾ أيها الناس ﴿يؤمن بالله و اليوم الآخر﴾ أي يؤمن بشرع الله، و يخاف وعيد الله و عذابه، في الدار

(١) و الراجح في المسألة ما وافق الكتاب و السنة من أنه لا نكاح إلا بولي، و لا يصح للمرأة أن تزوج نفسها و لو كانت ثيباً.

الآخرة، و ما فيها من الجزاء ﴿ذلكم أزكى لكم و أطهر﴾ أي اتباعكم شرع الله، في رد المولِيات إلى أزواجهن، و ترك الحمية في ذلك أزكى لكم و أطهر لقلوبكم ﴿و الله يعلم﴾ أي من المصالح، فيما يأمر به و ينهى عنه ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ أي الخيرة فيما تأتون، ولا فيما تذرون.

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) ﴾

٢٣٣- هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة، و هي سنتان فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك، و لهذا قال ﴿لمن أرادأن يتم الرضاعة﴾ و ذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرّم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود و عمره فوقهما لم يحرم. روى الترمذي في (باب ماجاء أن الرضاعة لا تحرم إلا في الصغر دون الحولين) عن أم سلمة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي و كان قبل الفطام» هذا حديث حسن صحيح، و العمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ و غيرهم، أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين، و ما كان بعد الحولين الكاملين، فإنه لا يحرم شيئاً، ومعنى قوله «إلا ما كان في الثدي» أي في محل الرضاعة قبل الحولين، كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد عن البراء بن عازب، قال: لما مات إبراهيم ابن النبي ﷺ، قال: «إن ابني مات في الثدي، إن له مرضعاً في الجنة» هكذا أخرجه البخاري، و إنما قال عليه السلام ذلك، لأن ابنه إبراهيم عليه السلام، مات و له سنة وعشرة أشهر، فقال: إن له مرضعاً، يعني تكمل رضاعه، و يؤيده ما رواه الدارقطني عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما كان في الحولين»، و تمام الدلالة من هذا الحديث في قوله تعالى: ﴿و فصاله في عامين أن اشكر لي﴾ و قال ﴿و حمله و فصاله ثلاثون شهراً﴾ و القول بأن الرضاعة لا تحرم بعد الحولين، يروى عن علي وابن عباس و ابن مسعود و جابر و أبي هريرة و ابن عمر و أم سلمة و سعيد بن المسيب و عطاء والجمهور، و هو مذهب الشافعي و أحمد وإسحاق و الثوري و أبي يوسف و محمد و مالك في رواية، و قد روي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، أنها كانت ترى رضاع الكبير يؤثر في التحريم، و هو قول عطاء بن أبي رباح و الليث بن سعد، و كانت عائشة تأمر بمن تختار أن يدخل عليها من الرجال لبعض نسائها، فترضعه، و تحتج في ذلك بحديث سالم مولى أبي حذيفة حيث أمر النبي ﷺ امرأة أبي حذيفة أن ترضعه و كان كبيراً، فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة، و أبى ذلك سائر أزواج النبي ﷺ، و رأين ذلك من الخصائص، و هو قول الجمهور، و حجة الجمهور و هم الأئمة الأربعة، و الفقهاء السبعة، و الأكابر من الصحابة، و سائر أزواج رسول الله ﷺ، سوى عائشة ما ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «انظرن مَنْ إخوانكن فإنما الرضاعة من المجاعة» و سيأتي الكلام على مسائل الرضاع وفيما يتعلق برضاع الكبير، عند قوله

تعالى: ﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم﴾.

و قوله: ﴿و على المولود له رزقهن و كسوتهن بالمعروف﴾ أي وعلى والد الطفل نفقة الوالدات و كسوتهن بالمعروف، أي بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف و لا إقتار، بحسب قدرته في يساره، وتوسطه و إقتاره، كما قال تعالى: ﴿لينفق ذو سعة من سعته و من قُدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ قال الضحاك: إذا طلق زوجته وله منها ولد، فأرضعت له ولده، وجب على الوالد نفقتها و كسوتها بالمعروف. و قوله: ﴿و لا تضار والدة بولدها﴾ أي بأن تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته، و لكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللبأ الذي لا يعيش بدون تناوله غالباً، ثم بعد هذا لها دفعه عنها إذا شاءت، و لكن إن كانت مضارةً لأبيه، فلا يحل لها ذلك، كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرار لها، و لهذا قال: ﴿و لا مولود له بولده﴾ أي بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضراراً بها، قاله مجاهد وقتادة و الضحاك و الزهري والسدي و الثوري و ابن زيد و غيرهم. و قوله تعالى: ﴿و على الوارث مثل ذلك﴾ قيل: في عدم الضرار لقريبه، قاله مجاهد و الشعبي و الضحاك، و قيل: عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل و القيام بحقوقها و عدم الإضرار بها، و هو قول الجمهور، وقد استقصى ذلك ابن جرير في تفسيره، و قد استدل بذلك من ذهب من الحنفية و الحنبلية إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، و هو مروي عن عمر بن الخطاب وجمهور السلف، و يرجح ذلك بحديث الحسن عن سمرة مرفوعاً «مَنْ مَلَكَ ذا رحم محرم، عتق عليه»[1] و قد ذكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد إما في بدنه أو في عقله. و روي عن علقمة: أنه رأى امرأة ترضع بعد الحولين، فقال: لا ترضعيه. و قوله: ﴿فإن أرادا فصالاً عن تراضٍ منهما و تشاور فلا جناح عليهما﴾ أي فإن اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين، و رأيا في ذلك مصلحة له، وتشاورا في ذلك و أجمعا عليه، فلا جناح عليهما في ذلك، فيؤخذ منه أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لايكفي، و لا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر، قاله الثوري و غيره، وهذا فيه احتياط للطفل و إلزام للنظر في أمره، و هو من رحمة الله بعباده حيث حجر على الوالدين في تربية طفلهما، و أرشدهما إلى ما يصلحهما ويصلحه، كما قال في سورة الطلاق ﴿فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف و إن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾.

وقوله تعالى: ﴿و إن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف﴾ أي إذا اتفقت الوالدة و الوالد على أن يستلم منها الولد إما لعذر منها أو العذر له، فلا جناح عليهما في بذله، و لا عليه في قبوله منها إذا سلمها أجرتها الماضية بالتي هي أحسن، و استرضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف، قاله غير واحد. و قوله: ﴿و اتقوا الله﴾ أي في جميع أحوالكم ﴿و اعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾ أي فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم و أقوالكم.

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) ﴾

(١) رواه الإمام أحمد و أبو داود و الترمذي و ابن ماجه، و هو صحيح.

٢٣٤- هذا أمر من الله للنساء اللاتي يُتوفى عنهن أزواجهن ، أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال ، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن و غير المدخول بهن بالإجماع ، و مستنده في غير المدخول بها عموم الآية الكريمة ، و هذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد و أهل السنن و صححه الترمذي : أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ، و لم يدخل بها و لم يفرض لها ، فترددوا إليه مراراً في ذلك ، فقال أقول فيها برأيي ، فإن يك صواباً فمن الله ، و إن يك خطأ فمني و من الشيطان ، و الله و رسوله بريئان منه : لها الصداق كاملاً ، وفي لفظ : لها صداق مثلها لا وَكْس و لا شطط ، و عليها العدة ، و لها الميراث ، فقام معقل بن يسار الأشجعي فقال : سمعت رسول الله ﷺ ، قضى به في بروع بنت واشق ، ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً .

و لا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها ، و هي حامل ، فإن عدتها بوضع الحمل و لو لم تمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله : ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ و كان ابن عباس يرى أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع ، أو أربعة أشهر وعشر للجمع بين الآيتين ، و هذا مأخذ جيد ومسلك قوي ، لو لا ما ثبتت به السنة في حديث سبيعة الأسلمية المخرج في الصحيحين من غير وجه ، أنها توفي عنها زوجها سعد ابن خولة و هي حامل ، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته ، و في رواية : فوضعت حملها بعده بليال ، فلما تعلت من نفاسها ، تجملت للخطاب ، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك ، فقال لها : ما لي أراك متجملة لعلك ترجين النكاح ؟ والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر و عشر . قالت سبيعة : فلما قال لي ذلك ، جمعت عليّ ثيابي حين أمسيت ، فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك ، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي ، وأمرني بالتزويج إن بدا لي ، قال أبو عمر بن عبد البر : و قد روي أن ابن عباس رجع إلى حديث سبيعة ، يعني لما احتج عليه به ، قال : و يصحح ذلك عنه ، أن أصحابه أفتوا بحديث سبيعة كما هو قول أهل العلم قاطبة .

و كذلك يستثنى من ذلك الزوجة إذا كانت أمة ، فإن عدتها على النصف من عدة الحرة ، شهران و خمس ليال على قول الجمهور ، لأنها لما كانت على النصف من الحرة في الحد ، فكذلك فلتكن على النصف منها في العدة . و من العلماء كمحمد بن سيرين و بعض الظاهرية من يسوي بين الزوجات الحرائر و الإماء في هذا المقام لعموم الآية ، و لأن العدة من باب الأمور الجبلية التي تستوي فيها الخليقة ، و قد ذكر سعيد بن المسيب ، و أبو العالية وغيرهما ، أن الحكمة في جعل عدة الوفاة أربعة أشهر و عشراً ، لاحتمال اشتمال الرحم على حمل ، فإذا انتظر به هذه المدة ، ظهر إن كان موجوداً ، كما جاء في حديث ابن مسعود الذي في الصحيحين و غيرهما «إنّ خَلْقَ أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح» فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر ، و الاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور ، ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه ، و الله أعلم .

و من ههنا ذهب الإمام أحمد ، في رواية عنه ، إلى أن عدة أم الولد عدة الحرة ههنا ، لأنها صارت فراشاً كالحرائر ، وللحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عمرو ابن العاص أنه قال : لاتلبسوا علينا سنة نبينا ، عدة أم الولد ، إذا توفى عنها سيدها أربعة أشهر و عشر . ورواه أبو داود و ابن ماجه و قد ذهب إلى القول بهذا الحديث طائفة من السلف ، منهم : الأوزاعي و إسحاق بن راهويه و أحمد بن حنبل في رواية عنه ، و قال أبو حنيفة

وأصحابه، و الثوري والحسن بن صالح بن حيي: تعتد بثلاث حيض، وهو قول علي و ابن مسعود وعطاء وإبراهيم النخعي. و قال مالك و الشافعي و أحمد في المشهور عنه: عدتها حيضة، و به يقول ابن عمر والشعبي و مكحول و الليث و أبو عبيد و أبو ثور والجمهور، وقال الليث: و لو مات وهي حائض، أجزأتها. و قال مالك: فلو كانت ممن لا تحيض، فثلاثة أشهر. و قال الشافعي و الجمهور: شهر و ثلاثة أحب إليّ، و الله أعلم.

و قوله: ﴿فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف و الله بما تعملون خبير﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها لما ثبت في الصحيحين عن غير وجه عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أم المؤمنين، أن رسول الله ﷺ، قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله و اليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر و عشراً»، و في الصحيحين أيضاً عن أم سلمة أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن ابنتي توفي عنها زوجها و قد اشتكت عينها أفنكحلها؟ فقال «لا» كل ذلك يقول - لا - مرتين أوثلاثاً، ثم قال: «إنما هي أربعة أشهر وعشر، وقد كانت إحداكن في الجاهلية تمكث سنة» قالت زينب بنت أم سلمة: كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها، دخلت حفشاً و لبست شر ثيابها، و لم تمس طيباً ولا شيئاً حتى تمر بها سنة، ثم تخرج فَتُعطى بعرة فترمي بها، ثم تُوتى بدابة حمار أو شاة أو طير فتفتضُّ به، فقلما تفتض بشيء إلا مات. و من ههنا ذهب كثيرون من العلماء إلى أن هذه الآية ناسخة للآية التي بعدها، و هي قوله: ﴿و الذين يتوفون منكم و يذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج﴾ الآية، كما قاله ابن عباس وغيره، و في هذا نظر كما سيأتي تقريره. و الغرض أن الإحداد هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب و لبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلي و غير ذلك، و هو واجب في عدة الوفاة قولاً واحداً، و هل يجب في عدة البائن فيه قولان. و يجب الإحداد على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن، سواء في ذلك الصغيرة والآيسة والحرة و الأمة و المسلمة و الكافرة، لعموم الآية، و قال الثوري و أبوحنيفة و أصحابه: لا إحداد على الكافرة، وبه يقول أشهب و ابن نافع من أصحاب مالك، و حجة قائل هذه المقالة قوله ﷺ «لا يحل لامرأة تؤمن بالله و اليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر و عشراً» قالوا: فجعله تعبداً، و ألحق أبوحنيفة و أصحابه و الثوري الصغيرة بها لعدم التكليف، و ألحق أبو حنيفة و أصحابه الأمة المسلمة لنقصها، ومحل تقرير ذلك كله في كتب الأحكام و الفروع، و الله الموفق للصواب.

و قوله ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ أي انقضت عدتهن، قاله الضحاك والربيع بن أنس، ﴿فلا جناح عليكم﴾ قال الزهري: أي على أوليائها. ﴿فيما فعلن﴾ يعني النساء اللاتي انقضت عدتهن، قال العوفي عن ابن عباس: إذا طُلِّقت المرأة أو مات عنها زوجها، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين و تتصنع وتتعرض للتزويج، فذلك المعروف. و روي عن مقاتل بن حيان نحوه، و قال مجاهد ﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف﴾ قال: النكاح الحلال الطيب، وروي عن الحسن و الزهري نحو ذلك.

﴿ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفًا وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ

الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)﴾

٢٣٥- يقول تعالى : **﴿و لا جناح عليكم﴾** أن تُعَرِّضُوا بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح ، قال ابن عباس : التعريض أن يقول : إني أريد التزويج ، وإني أحب امرأة مِنْ أمرها و مِن أمرها . يعرض لها بالقول المعروف . و في رواية : وددت أن الله رزقني امرأة ، و نحو هذا ، و لا يَنْتَصب للخطبة ، و رواه البخاري تعليقاً عن ابن عباس : هو أن يقول : إني أريد التزويج ، و إن النساء لمن حاجتي ، و لوددت أنه ييسر لي امرأة صالحة ، و هكذا قال غير واحد من السلف والأئمة في التعريض : إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة ، و هكذا حكم المطلقة المبتوتة يجوز التعريض لها ، كما قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات ، فأمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم ، و قال لها : فإذا حللت فآذنيني ، فلما حلت ، خطب عليها أسامة بن زيد مولاه ، فزوجها إياه ، فأما المطلقة فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها و لا التعريض لها ، و الله أعلم .

وقوله **﴿أو أكننتم في أنفسكم﴾** أي أضمرتم في أنفسكم من خطبتهن ، وهذا كقوله تعالى **﴿و ربك يعلم ما تُكِنُّ صدورهم و ما يعلنون﴾** و كقوله **﴿و أنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم﴾** و لهذا قال **﴿علم الله أنكم ستذكرونهن﴾** أي في أنفسكم ، فرفع الحرج عنكم في ذلك . ثم قال : **﴿و لكن لا تواعدوهن سراً﴾** يعني : الزنا ، و هو معنى رواية العوفي عن ابن عباس ، و اختاره ابن جرير ، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿و لكن لا تواعدوهن سراً﴾** يعني : الزنا ، و هو معنى رواية العوفي عن ابن عباس ، و اختاره ابن جرير ، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿و لكن لا تواعدوهن سراً﴾** لا تقل لها : إني عاشق و عاهديني ألا تتزوجي غيري ، ونحو هذا ، و كذا روي عن سعيد بن جبير و الشعبي و عكرمة و أبي الضحى و الضحاك و الزهري و مجاهد والثوري ، و هو أن يأخذ ميثاقها أن لا تتزوج غيره . وعن مجاهد : هو قول الرجل للمرأة : لا تفوتيني بنفسك فإني ناكحك ، و قال قتادة : هو أن يأخذ عهد المرأة و هي في عدتها أن لا تنكح غيره ، فنهى الله عن ذلك ، وقدم فيه و أحل الخطبة ، و القول بالمعروف ، و قال ابن زيد **﴿و لكن لا تواعدوهن﴾** هو أن يتزوجها في العدة سراً ، فإذا حلت أظهر ذلك ، و قد يحتمل أن تكون الآية عامة في جميع ذلك ، لهذا قال **﴿إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾** قال ابن عباس و غيره : يعني به ما تقدم من إباحة التعريض كقوله : إني فيك لراغب و نحو ذلك ، و قال محمد بن سيرين : قلت لعبيدة : ما معنى قوله **﴿إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾** ؟ قال : يقول لوليها : لا تسبقني بها ، يعني لا تزوجها حتى تعلمني ، رواه ابن أبي حاتم .

و قوله **﴿و لا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله﴾** يعني ولا تعقدوا العقدة بالنكاح حتى تنقضي العدة . قال ابن عباس و غيره : **﴿حتى يبلغ الكتاب أجله﴾** يعني : ولا تعقدوا العقدة بالنكاح حتى تنقضي العدة ، و قد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في العدة . و اختلفوا فيمن تزوج امرأة في عدتها ، فإنه يفرق بينهما ، وهل تحرم عليه أبداً ؟ على قولين : الجمهور على أنها لا تحرم عليه ، بل له أن يخطبها إذا انقضت عدتها . و ذهب الإمام مالك إلى أنها تحرم عليه على التأبيد ، و احتج في ذلك بما رواه عن عمر رضي الله عنه قال : أيما امرأة نكحت في عدتها ، فإن كان زوجها الذي تزوج بها لم يدخل بها فُرِّقَ بينهما ، ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها

الأول، و كان خاطباً من الخطاب، و إن كان دخل بها فرّق بينهما ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول، ثم اعتدت من الآخر، ثم لم ينكحها أبداً، و قالوا: و مأخذ هذا أن الزوج لما استعجل ما أحل الله، عوقب بنقيض قصده، فحرمت عليه على التأبيد كالقاتل يحرم الميراث. و قد روى الشافعي هذا الأثر عن مالك. قال البيهقي: و ذهب إليه في القديم و رجع عنه في الجديد، لقول علي: أنها تحل له. (قلت) قال: ثم هو منقطع عن عمر. و قد روى الثوري أن عمر رجع عن ذلك، و جعل لها مهرها وجعلهما يجتمعان. و قوله: **﴿و اعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾** توعّدهم على ما يقع في ضمائرهم من أمور النساء، و أرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر، ثم لم يؤيسهم من رحمته، و لم يقنطهم من عائدته فقال: **﴿و اعلموا أن الله غفور حليم﴾**.

﴿ لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) ﴾

٢٣٦- أباح تبارك و تعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها، و قبل الدخول بها. قال ابن عباس وطاوس و إبراهيم والحسن البصري: المس النكاح، بل و يجوز أن يطلقها قبل الدخول بها و الفرض لها، إن كانت مفوّضة و إن كان في هذا انكسار لقلبها، و لهذا أمر تعالى بإمتاعها و هو تعويضها عما فاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله، على الموسع قدره، و على المقتر قدره. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: إن كان موسراً متعها بخادم أو نحو ذلك، و إن كان معسراً أمتعها بثلاث أثواب. و قال الشعبي: أوسط ذلك درع و خمار و ملحفة وجلباب، و روى عبد الرزاق عن ابن سيرين، قال: كان يمتع بالخادم أو بالنفقة أوبالكسوة. و ذهب أبو حنيفة إلى أنه متى تنازع الزوجان في مقدار المتعة وجب لها عليه نصف مهر مثلها. و قال الشافعي في الجديد: لايجبر الزوج على قدر معلوم إلا على أقل ما يقع عليه اسم المتعة، و أحب ذلك إلي أني أستحسن ثلاثين درهماً، كما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما.

و قد اختلف العلماء أيضاً: هل تجب المتعة لكل مطلقة أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التي لم يفرض لها، على أقوال: أحدها أنها تجب المتعة لكل مطلقة لعموم قوله تعالى: **﴿و للمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾** و لقوله تعالى: **﴿ياأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا و زينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً﴾** و قد كن مفروضاً لهن و مدخولا بهن، وهذاقول سعيد بن جبير و أبي العالية والحسن البصري، و هو أحد قولي الشافعي و منهم من جعله الجديد الصحيح، و الله سبحانه و تعالى أعلم.

(و القول الثاني) أنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس، و إن كانت مفروضاً لها، لقوله تعالى: **﴿ياأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً﴾** فعن سعيد بن المسيب قال: نسخت هذه الآية التي في الأحزاب الآية التي في البقرة. وقد روى البخاري في صحيحه، عن سهل بن سعد وأبي أسيد، أنهما قالا: تزوج رسول الله ﷺ أميمة بنت شرحبيل، فلما أُدخِلتْ عليه، بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيين.

(القول الثالث): أن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها و لم يفرض لها، فإن كان قد دخل بها، وجب لها

مهر مثلها إذا كانت و إن كان قد فرض لها و طلقها قبل الدخول، وجب لها عليه شطره، فإن دخل بها استقر الجميع، وكان ذلك عوضاً لها عن المتعة، وإنما المصابة التي لم يفرض لها و لم يدخل بها، فهذه التي دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها، هذا قول ابن عمر و مجاهد، و من العلماء من استحبها لكل مطلقة ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول، و هذا ليس بمنكور، وعليه تحمل آية التخيير في الأحزاب، و لهذا قال تعالى: ﴿على الموسع قدره و علي المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾ و للمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾ و من العلماء من يقول: إنها مستحبة مطلقاً. روى ابن أبي حاتم عن الشعبي: ، قال: ذكروا له المتعة، أيحبس فيها؟ فقرأ ﴿على الموسع قدره و على المقتر قدره﴾ قال الشعبي: و الله ما رأيت أحداً حبس فيها، و الله لو كانت واجبة لحبس فيها القضاة.

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧) ﴾

٢٣٧- و هذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى، حيث إنما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض إذا طلق الزوج قبل الدخول، فإنه لو كان ثَمَّ واجب آخر من متعة لبينها لا سيما و قد قرنها بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية، و الله أعلم. و تشطير الصداق و الحالة هذه أمر مجمع عليه بين العلماء، لا خلاف بينهم في ذلك، فإنه متى كان قد سمى لها صداقاً ثم فارقها قبل دخوله بها، فإنه يجب لها نصف ما سمى من الصداق، إلا أن عند الثلاثة أنه يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج وإن لم يدخل بها، وهو مذهب الشافعي في القديم، و به حكم الخلفاء الراشدون. و قوله: ﴿إلا أن يعفون﴾ أي النساء، عما وجب لها على زوجها، فلا يجب لها عليه شيء، عن ابن عباس في قوله: ﴿إلا أن يعفون﴾ قال: إلا أن تعفو الثيب فتدع حقها. قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم رحمه الله: و روي عن شريح وسعيد بن المسيب و عكرمة ومجاهد والشعبي والحسن و نافع و قتادة و جابر بن زيد و عطاء الخراساني و الضحاك والزهري و مقاتل بن حيان و ابن سيرين و الربيع بن أنس و السدي نحو ذلك. قال: و خالفهم محمد بن كعب القرظي فقال: ﴿إلا أن يعفون﴾ يعني الرجال، و هو قول شاذ لم يتابع عليه، انتهى كلامه. و قوله: ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ روى ابن أبي حاتم عن شريح قال: سألني علي بن أبي طالب عن الذي بيده عقدة النكاح، فقلت له: هو ولي المرأة، فقال علي: لا، بل هو الزوج، ثم قال: و في إحدى الروايات عن ابن عباس و جبير بن مطعم وسعيد بن المسيب وشريح في أحد قوليه، وسعيد بن جبير و مجاهد و الشعبي و عكرمة و نافع و محمد بن سيرين و الضحاك ومحمد بن كعب القرظي وجابر بن زيد و أبي مجلز و الربيع بن أنس وإياس بن معاوية ومكحول و مقاتل بن حيان، أنه الزوج.

(قلت): و هذا هو الجديد من قولي الشافعي، ومذهب أبي حنيفة و أصحابه، و الثوري و ابن شبرمة والأوزاعي، و اختاره ابن جرير، و مأخذ هذا القول: أن الذي بيده عقدة النكاح حقيقةً: الزوج، فإن بيده عقدها و إبرامها و نقضها وانهدامها، و كما أنه لا يجوز للولي، أن يهب شيئاً من مال المولية للغير، فكذلك في

الصداق. قال: و الوجه الثاني: عن ابن عباس - في الذي ذكر الله بيده عقدة النكاح - قال: ذلك أبوها أو أخوها أو من لا تنكح إلا بإذنه. و روي عن علقمة و الحسن و عطاء و طاوس و الزهري وربيعة و زيد بن أسلم وإبراهيم النخعي و عكرمة في أحد قوليه، و محمد بن سيرين في أحد قوليه أنه الولي. و هذا مذهب مالك، وقول الشافعي في القديم، ومأخذه أن الولي هو الذي أكسبها إياه، فله التصرف فيه بخلاف سائر مالها. و روى ابن جرير عن عكرمة، قال: أذن الله في العفو وأمر به، فأي امرأة عفت جاز عفوها، فإن شحّت و ضنت عفا وليها جاز عفوه، و هذا يقتضي صحة عفو الولي وإن كانت رشيدة، و هو مروي عن شريح، لكن أنكر عليه الشعبي، فرجع عن ذلك و صار إلى أنه الزوج و كان يباهل عليه.

و قوله: ﴿وأن تعفو أقرب للتقوى﴾. قال ابن جرير: قال بعضهم: خوطب به الرجال و النساء، روى بسنده عن ابن عباس ﴿و أن تعفو أقرب للتقوى﴾ قال: أقربهما للتقوى الذي يعفو، و كذا روي عن الشعبي وغيره. و قال مجاهد و النخعي والضحاك و مقاتل بن حيان و الربيع بن أنس والثوري: الفضل - ههنا - أن تعفو المرأة عن شطرها أو إتمام الرجل الصداق لها، ولهذا قال ﴿و لا تنسوا الفضل بينكم﴾ أي الإحسان، قاله سعيد، وقال الضحاك و قتادة و السدي و أبو وائل المعروف يعني لا تهملوه بينكم، ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أموركم و أحوالكم، وسيجزي كل عامل بعمله.

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩) ﴾

٢٣٨ - يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها و حفظ حدودها و أدائها في أوقاتها، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود، قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة في وقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»، قال: حدثني بهن رسول الله ﷺ و لو استزدته لزادني.

وخص تعالى من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى، و قد اختلف السلف و الخلف فيها أي صلاة هي؟ فقيل: إنها الصبح، حكاه مالك في الموطأ بلاغاً عن علي و ابن عباس، و روى ابن جرير عن ابن عباس، أنه صلى الغداة في مسجد البصرة، فقنت قبل الركوع، و قال: هذه الصلاة الوسطى التي ذكرها الله في كتابه، فقال: ﴿حافظوا على الصلوات و الصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ و روي أيضاً عن أبي العالية، قال: صليت خلف عبد الله بن قيس بالبصرة صلاة الغداة، فقلت لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ إلى جانبي: ما الصلاة الوسطى؟ قال: هذه الصلاة، و حكاه ابن أبي حاتم عن ابن عمر و أبي أمامة و أنس و هو الذي نص عليه الشافعي رحمه الله، محتجاً بقوله تعالى: ﴿و قوموا لله قانتين﴾ والقنوت عنده في صلاة الصبح، و منهم من قال: هي الوسطى باعتبار أنها لا تقصر، و هي بين صلاتين رباعيتين مقصورتين، و ترد المغرب، وقيل: لأنها بين صلاتين ليل جهريتين و صلاتي نهار سريتين، و قيل: إنها صلاة الظهر. روى أبو داود الطيالسي في مسنده عن زهرة يعني ابن معبد، قال: كنا جلوساً عند زيد بن ثابت، فأرسلوا إلى أسامة فسألوه عن الصلاة الوسطى، فقال: هي الظهر، كان رسول الله ﷺ يصليها بالهجير، وروى أحمد عن زيد بن ثابت، قال: كان رسول

الله ﷺ يصلي الظهر بالهاجرة، و لم يكن يصلي صلاة أشد على أصحاب رسول الله ﷺ منها، فنزلت **﴿حافظوا على الصلوات و الصلاة الوسطى و قوموا لله قانتين﴾** و قال: إن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين، و رواه أبو داود. و ممن روى عنه أنها الظهر: ابن عمر، و أبو سعيد و عائشة، على اختلاف عنهم، وهو قول عروة بن الزبير و عبد الله بن شداد بن الهاد، و رواية عن أبي حنيفة رحمهم الله.

و قيل إنها صلاة العصر. قال الترمذي و البغوي رحمهما الله: و هو قول أكثر علماء الصحابة و غيرهم. و قال القاضي الماوردي: هو قول جمهور التابعين: و قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: هو قول أكثر أهل الأثر. و قال أبو محمد بن عطية في تفسيره: و هو قول جمهور الناس. و قال الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي في كتابه المسمى «بكشف المغطى في تبيين الصلاة الوسطى» و قد نص فيه: أنها العصر، و حكاه عن عمر و علي و ابن مسعود و أبي أيوب و عبدالله بن عمرو و سمرة بن جندب و أبي هريرة و أبي سعيد و حفصة و أم حبيبة و أم سلمة و عن ابن عباس و عائشة على الصحيح عنهم، و هو مذهب أحمد بن حنبل. قال القاضي الماوردي: و الشافعي. قال ابن المنذر: و هو الصحيح عن أبي حنيفة، و أبي يوسف و محمد، و اختاره ابن حبيب المالكي، رحمهم الله.

ذكر الدليل على ذلك: روى الإمام أحمد عن علي، قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله قلوبهم و بيوتهم ناراً» ثم صلاها بين العشاءين المغرب و العشاء، وكذا رواه البخاري و مسلم، وحديث يوم الأحزاب، و شغل المشركين رسول الله ﷺ و أصحابه عن أداء صلاة العصر يومئذ، مروي عن جماعة من الصحابة يطول ذكرهم، وإنما المقصود رواية من نصّ منهم في روايته، أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر. و قد رواه مسلم أيضاً من حديث ابن مسعود و البراء بن عازب رضي الله عنهما. فهذه نصوص في المسألة لا تحتمل شيئاً، و يؤكد ذلك الأمر بالمحافظة عليها، و قوله ﷺ في الحديث الصحيح عن سالم، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وُتر أهله و ماله». و في الصحيح أيضاً عن بريدة بن الحصيب عن النبي ﷺ، قال: «من ترك صلاة العصر، فقد حبط عمله». وروى أحمد عن أبي تميم عن أبي نضرة الغفاري، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ في واد من أوديتهم، يقال له الحميص، صلاة العصر، فقال «إن هذه الصلاة عرضت على الذين من قبلكم فضيعوها، ألا و من صلاها ضعّف له أجره مرتين، ألا ولا صلاة بعدها حتى تروا الشاهد»، رواه مسلم، وعن أبي يونس مولى عائشة، قال: أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً، قالت: إذا بلغت هذه الآية **﴿حافظوا على الصلوات و الصلاة الوسطى﴾** فآذني، فلما بلغتها آذنتها، فأملت عليّ **﴿حافظوا على الصلوات و الصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين﴾** قالت: سمعتها من رسول الله ﷺ، رواه مسلم. و ورد نحوه عن حفصة رضي الله عنها، رواه ابن جرير، و تقرير المعارضة: أنه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى بواو العطف التي تقتضي المغايرة، فدل ذلك على أنها غيرها، و أجيب عن ذلك بوجوه: أحدها: أن هذا إن روي على أنه خبر، فحديث علي أصح وأصرح منه، و هذا يحتمل أن تكون الواو زائدة، كما في قوله **﴿و كذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين﴾** **﴿و كذلك نري إبراهيم ملكوت السموات و الأرض و ليكون من الموقنين﴾** أو تكون لعطف الصفات لا لعطف الذوات، كقوله **﴿و لكن رسول الله و خاتم النبيين﴾** و كقوله **﴿سبح اسم ربك**

الأعلى ۞ الذي خلق فسوى ۞ والذي قدر فهدى ۞ و الذي أخرج المرعى﴾ وأشباه ذلك كثيرة. و قد نص سيبويه شيخ النحاة على جواز قول القائل: مررت بأخيك و صاحبك، ويكون الصاحب هو الأخ نفسه، و الله أعلم.

وأما إن روي على أنه قرآن، فإنه لم يتواتر فلا يثبت بمثل خبر الواحد قرآن، و لهذا لم يثبته أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في المصحف، ولا قرأ ذلك أحد من القراء الذين تثبت الحجة بقراءتهم، لا من السبعة و لا من غيرهم.

ثم قد روي ما يدل على نسخ هذه التلاوة المذكورة في هذا الحديث، روى مسلم عن البراء بن عازب قال: نزلت ﴿حافظوا على الصلوات و صلاة العصر﴾ فقرأناها على رسول الله ﷺ ماشاء الله، ثم نسخها الله عز وجل، فأنزل ﴿حافظوا على الصلوات و الصلاة الوسطى﴾ فقال له زاهر رجل كان مع شقيق: أفهي العصر؟ قال: قد حدثتك كيف نزلت، و كيف نسخها الله عز و جل. فعلى هذا تكون هذه التلاوة و هي تلاوة الجادة ناسخة للفظ رواية عائشة و حفصة و لمعناها إن كانت الواو دالة على المغايرة، و إلا فلفظها فقط، و الله أعلم.

و قيل: إن الصلاة الوسطى هي صلاة المغرب، رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس، و في إسناده نظر، ووجّه هذا القول بعضهم بأنها وسطى في العدد بين الرباعية و الثنائية، وبأنها وتر المفروضات، و بما جاء فيها من الفضيلة، و الله أعلم.

و قيل: إنها العشاء الأخير، اختاره علي بن أحمد الواحدي في تفسيره المشهور، و قيل: هي واحد من الخمس لا بعينها و أبهمت فيهن، كما أبهمت ليلة القدر في الحول أو الشهر أو العشر، و يحكى هذا القول عن سعيد بن المسيب و شريح القاضي و نافع مولى ابن عمر، والربيع بن خيثم، و نقل أيضاً عن زيد بن ثابت واختاره إمام الحرمين الجويني في نهايته. وقيل: بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس، رواه ابن أبي حاتم عن ابن عمر، و في صحته أيضاً نظر، و العجب أن هذا القول اختاره الشيخ أبو عمرو بن عبد البر النمري إمام ما وراء البحر، و إنها لإحدى الكبر إذ اختار مع اطلاعه و حفظه ما لم يقم عليه دليل من كتاب و لا سنة ولا أثر. و قيل: إنها صلاة العشاء و صلاة الفجر. وقيل: بل هي صلاة الجماعة. و قيل: صلاة الجمعة. وقيل: صلاة الخوف. وقيل: بل صلاة عيد الفطر. وقيل: بل صلاة الأضحى، وقيل: الوتر وقيل: الضحى. وتوقف آخرون لما تعارضت عندهم الأدلة، و لم يظهر لهم وجه الترجيح، و لم يقع الإجماع على قول واحد بل لم يزل النزاع فيها موجوداً من زمان الصحابة و إلى الآن. روى ابن جرير عن سعيد بن المسيب، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين في الصلاة الوسطى هكذا و شبك بين أصابعه، و كل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التي قبلها، و إنما المدار و معترك النزاع في الصبح و العصر، وقد ثبتت السنة بأنها العصر فتعين المصير إليها.

وقد روى الإمام ابن أبي حاتم الرازي رحمهما الله في كتاب الشافعي رحمه الله: قال الشافعي: كل ما قلت فكان عن النبي ﷺ بخلاف قولي مما يصح، فحديث النبي ﷺ أولى و لا تقلدوني، و كذا روى الربيع والزعفراني و أحمد بن حنبل عن الشافعي، وقال موسى أبو الوليد بن أبي الجارود عن الشافعي: إذا صح الحديث و قلت قولاً، فأنا راجع عن قولي وقائل بذلك، فهذا من سيادته وأمانته و هذا نفس إخوانه من الأئمة رحمهم الله، و رضي الله عنهم أجمعين، آمين، و من ههنا قطع القاضي الماوردي بأن مذهب الشافعي رحمه

الله أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، و إن كان قد نصّ في الجديد و غيره أنها الصبح لصحة الأحاديث أنها العصر، و قد وافقه على هذه الطريقة جماعة من محدثي المذهب الشافعي، وصمموا على أنها الصبح قولاً واحداً، قال الماوردي: و منهم من حكى في المسألة قولين، ولتقرير المعارضات و الجوابات موضع آخر غير هذا و قد أفردناه على حدة و لله الحمد و المنة. وقوله تعالى: ﴿و قوموا لله قانتين﴾ أي خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه، و هذا الأمر مستلزم ترك الكلام في الصلاة لمنافاته إياها، و لهذا لما امتنع النبي ﷺ من الرد على ابن مسعود حين سلَّم عليه و هو في الصلاة، اعتذر إليه بذلك و قال «إن في الصلاة لشغلاً». و في صحيح مسلم أنه ﷺ قال لمعاوية بن الحكم السلمي حين تكلم في الصلاة «إن هذه الصلاة لا يَصْلح فيها شيءٌ من كلام الناس، إنما هي التسبيح و التكبير و ذكر الله»، وروى الإمام أحمد بن حنبل عن زيد بن أرقم قال: كان الرجل يكلِّم صاحبه في عهد النبي ﷺ في الحاجة في الصلاة، حتى نزلت هذه الآية ﴿وقوموا لله قانتين﴾ فأُمرنا بالسكوت، رواه الجماعة سوى ابن ماجه، و قد أشكل هذا الحديث على جماعة من العلماء حيث ثبت عندهم أن تحريم الكلام في الصلاة كان بمكة قبل الهجرة إلى المدينة وبعد الهجرة إلى الحبشة، كما دل على ذلك حديث ابن مسعود الذي في الصحيح، قال: كنا نُسلّم على النبي ﷺ قبل أن نهاجر إلى الحبشة وهو في الصلاة فيرد علينا، قال: فلما قدمنا سلمت عليه فلم يرد عليّ، فأخذني ما قرب و ما بعد، فلما سلم قال «إني لم أرد عليك إلا أني كنت في الصلاة، و إن الله يُحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث أنْ لا تكلّموا في الصلاة» و قد كان ابن مسعود ممن أسلم قديماً و هاجر إلى الحبشة، ثم قدم منها إلى مكة مع من قدم فهاجر إلى المدينة، وهذه الآية ﴿وقوموا لله قانتين﴾ مدنية بلا خلاف، فقال قائلون: إنما أراد زيد بن أرقم بقوله: كان الرجل يكلم أخاه في حاجته في الصلاة، الإخبار عن جنس الكلام، و استدل على تحريم ذلك بهذه الآية بحسب ما فهمه منها، و الله أعلم، و قال آخرون: إنما أراد أن ذلك قد وقع بالمدينة بعد الهجرة إليها، و يكون ذلك قد أبيح مرتين و حرم مرتين، كما اختار ذلك قوم من أصحابنا وغيرهم، و الأول أظهر، و الله أعلم.

و قوله ﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ لما أمر الله تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات و القيام بحدودها، و شدّد الأمر بتأكيدها، ذكر الحال الذي يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل، وهي حال القتال والتحام الحرب، فقال ﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً﴾ أي فصلُّوا على أي حال كان رجالاً أو ركباناً يعني مستقبلي القبلة و غير مستقبليها، كما قال مالك عن نافع: أن ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وَصَفَها، ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً على أقدامهم، أو ركباناً يعني مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها، قال نافع: لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ، ورواه البخاري و هذا لفظ مسلم، و لمسلم أيضاً عن ابن عمر قال: فإن كان خوف أشد من ذلك، فَصَلِّ راكباً أو قائماً تومئ إيماءً، و في حديث عبد الله بن أنيس الجهني لما بعثه النبي ﷺ إلى خالد بن سفيان الهذلي ليقتله، وكان نحو عرفة أو عرفات، فلما واجهه حانت صلاة العصر، قال فخشيت أن تفوتني فجعلت أصلي و أنا أومئ إيماء، الحديث بطوله رواه أحمد وأبو داود بإسناد جيد.

و هذا من رخص الله التي رخّص لعباده و وضعه الآصار و الأغلال عنهم، وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: في هذه الآية يصلي الراكب على دابته و الراجل على رجليه، و قد ذهب الإمام أحمد فيما نص

عليه إلى أن صلاة الخوف تفعل في بعض الأحيان ركعة واحدة إذا تلاحم الجيشان، و على ذلك يُنزّل الحديث الذي رواه مسلم و أبو داود والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً، و في السفر ركعتين، و في الخوف ركعة، و به قال الحسن البصري و قتادة و الضحاك و غيرهم. وروى ابن جرير عن شعبة قال: سألت الحكم وحماداً و قتادة عن صلاة المسايفة، فقالوا: ركعة، و هكذا روى الثوري عنهم سواء، وروى ابن جرير أيضاً عن جابر عن عبد الله قال: صلاة الخوف ركعة. واختار هذا القول ابن جرير، و قال البخاري: (باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو). و قال الأوزاعي: إن كان تهيأ الفتح و لم يقدروا على الصلاة صلوا إيماء كل امرئ لنفسه، فإن لم يقدروا على الإيماء أخَّروا الصلاة حتى ينكشف القتال، و يأمنوا فيصلوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلوا ركعة و سجدتين، فإن لم يقدروا لا يجزيهم التكبير و يؤخرونها حتى يأمنوا. و به قال مكحول، و قال أنس بن مالك: حضرت مناهضة حصن تستر عند إضاءة الفجر و اشتد اشتعال القتال، فلم يقدروا علي الصلاة، فلم نُصلّ إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها و نحن مع أبي موسى، ففتح لنا. قال أنس: و ما يسرني بتلك الصلاة الدنيا و ما فيها. هذا لفظ البخاري.

ثم استشهد على ذلك بحديث تأخيره ﷺ صلاة العصر يوم الخندق لعذر المحاربة إلى غيبوبة الشمس، وبقوله ﷺ بعد ذلك لأصحابه لما جهزهم إلى بني قريظة «لا يُصلينَّ أحد منكم العصر إلا في بني قريظة» فمنهم من أدركته الصلاة في الطريق فصلوا، و قالوا: لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير، و منهم من أدركته فلم يصل إلى أن غربت الشمس في بني قريظة، فلم يُعنّف واحداً من الفريقين، و هذا على اختيار البخاري لهذا القول، و الجمهور على خلافه، و يعولون على أن صلاة الخوف على الصفة التي ورد بها القرآن في سورة النساء، و وردت بها الأحاديث، لم تكن مشروعة في غزوة الخندق، و إنما شرعت بعد ذلك، و قد جاء مصرحاً بهذا في حديث أبي سعيد و غيره، وأما مكحول والأوزاعي و البخاري فيجيبون بأن مشروعية صلاة الخوف بعد ذلك لا تنافي جواز ذلك، لأن هذا حال نادر خاص، فيجوز فيه مثل ما قلنا بدليل صنيع الصحابة زمن عمر في فتح تستر و قد اشتهر ولم ينكر، و الله أعلم.

و قوله **﴿فإذا أمنتم فاذكروا الله﴾** أي أقيموا صلاتكم كما أمرتم، فأتموا ركوعها و سجودها و قيامها وقعودها و خشوعها و هجودها، **﴿كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾** أي مثل ما أنعم عليكم و هداكم للإيمان، وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا و الآخرة، فقابلوه بالشكر و الذكر، كقوله بعد صلاة الخوف **﴿فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾** و ستأتي الأحاديث الواردة في صلاة الخوف وصفاتها في سورة النساء عند قوله تعالى: **﴿و إذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾** الآية.

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢) ﴾

٢٤٠- قال الأكثرون: هذه الآية منسوخة بالتي قبلها، و هي قوله **﴿يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾** روى البخاري عن ابن الزبير: قلت لعثمان بن عفان **﴿و الذين يتوفون منكم و يذرون أزواجاً﴾** قد نسختها الآية

الأخرى، فلِمَ تكتبها أو تدعها، قال يا ابن أخي، لا أغير شيئاً منه من مكانه. و معنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان: إذا كان حكمها قد نُسخ بالأربعة الأشهر فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التي نسختها يوهم بقاء حكمها؟ فأجابه أمير المؤمنين، بأن هذا أمر توقيفي، و أنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها، فأثبتها حيث وجدتها، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿و اللذين يتوفون منكم و يذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج﴾** فكان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكناها في الدار سنة، فنسخها آية المواريث فجعل لهن الثمن أو الربع مما ترك الزوج، ثم قال: وروي عن أبي موسى الأشعري و ابن الزبير و مجاهد و إبراهيم و الحسن و عكرمة و قتادة و الضحاك و زيد بن أسلم والسدي و مقاتل بن حيان و عطاء الخراساني و الربيع بن أنس أنها منسوخة.

وروي من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، قال: كان الرجل إذا مات و ترك امرأته اعتدت سنة في بيته ينفق عليها من ماله، ثم أنزل الله بعد **﴿واللذين يتوفون منكم و يذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾** فهذه عدة المتوفى عنها زوجها، إلا أن تكون حاملاً، فعدتها أن تضع ما في بطنها، و قال **﴿و لهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم﴾** فبين ميراث المرأة و ترك الوصية والنفقة، وروى البخاري عن مجاهد **﴿واللذين يتوفون منكم و يذرون أزواجاً﴾** قال: كانت هذه للمعتدة، تعتد عند أهل زوجها واجب، فأنزل الله **﴿وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف﴾** قال: جعل الله تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة، وصية إن شاءت سكنت في وصيتها و إن شاءت خرجت، و هو قول الله **﴿غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم﴾** فالعدة كما هي واجب عليها، زعم ذلك عن مجاهد رحمه الله، وقال عطاء: قال ابن عباس: نسخت هذه الآية عدتها عند أهلها، فتعتد حيث شاءت، و هو قول الله تعالى: **﴿غير إخراج﴾** قال عطاء: إن شاءت اعتدت عند أهلها و سكنت في وصيتها، و إن شاءت خرجت، لقول الله **﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن﴾** قال عطاء: ثم جاء الميراث، فنسخ السكنى فتعتد حيث شاءت، و لا سكنى لها، ثم أسند البخاري عن ابن عباس مثل ما تقدم عنه بهذا القول، الذي عول عليه مجاهد و عطاء، من أن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سَنَة، كما زعمه الجمهور، حتى يكون ذلك منسوخاً بالأربعة الأشهر و عشر، و إنما دلت على أن ذلك كان من باب الوصاة بالزوجات بأن يمكّن من السكنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولاً كاملاً إن اخترن ذلك، و لهذا قال **﴿وصية لأزواجهم﴾** أي يوصيكم الله بهن وصية كقوله **﴿يو صيكم الله في أولادكم﴾** الآية.

و قوله: **﴿وصية من الله﴾** و قيل: إنما انتصب على معنى فلتوصوا لهن وصية، و قرأ آخرون بالرفع (وصيةٌ) على معنى كتب عليكم وصية و اختارها ابن جرير، و لا يمنعن من ذلك لقوله **﴿غير إخراج﴾** فأما إذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر، أو بوضع الحمل، و اخترن الخروج و الانتقال من ذلك المنزل، فإنهن لا يمنعن من ذلك لقوله **﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف﴾** و هذا القول له اتجاه، و في اللفظ مساعدة له، و قد اختاره جماعة منهم الإمام أبو العباس بن تيمية ورده آخرون، منهم الشيخ أبو عمر بن عبد البر، و قول عطاء ومن تابعه، على أن ذلك منسوخ بآية الميراث، إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهر والعشر فمسلّم، و إن أرادوا أن سكنى الأربعة أشهر و عشر لا تجب في تركة الميت، فهذا محل خلاف بين الأئمة و هما

قولان للشافعي رحمه الله، و قد استدلوا على وجوب السكنى في منزل الزوج، بما رواه مالك في موطئه أن الفريعة بنت مالك بن سنان و هي أخت أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة، فإن زوجها خرج في طلب أعبد له أبَقُوا حتى إذا كان بطرف القُدُوم لحقهم فقتلوه قالت: فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي في بني خدرة، فإن زوجي لم يتركني في مسكن يملكه و لا نفقة، قالت: فقال رسول الله ﷺ «نعم» قالت: فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة ناداني رسول الله ﷺ أو أمَرَبي فنوديت له فقال «كيف قلت»؟ فرددت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي، قال «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر و عشراً، قالت: فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلي فسألني عن ذلك، فأخبرته فاتبعه و قضى به، و كذا رواه أبو داود و الترمذي و النسائي.

٢٤١- و قوله ﴿**و للمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين**﴾ قد استدل بهذه الآية، من ذهب من العلماء، إلى وجوب المتعة لكل مطلقة، سواء كانت مفوضة، أو مفروضاً لها، أو مطلقة قبل المسيس، أو مدخولاً بها، وهو قول عن الشافعي رحمه الله، و إليه ذهب سعيد بن جبير، و غيره من السلف، و اختاره ابن جرير، و من لم يوجبها مطلقاً، يخصص من هذا العموم مفهوم قوله تعالى: ﴿**لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة و متعوهن على الموسع قدره و على المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين**﴾ وأجاب الأولون بأن هذا من باب ذكر بعض أفراد العموم، فلا تخصيص على المشهور المنصوص، والله أعلم.

٢٤٢- و قوله ﴿**كذلك يبين الله لكم آياته**﴾ أي في إحلاله و تحريمه و فروضه و حدوده، فيما أمركم ونهاكم عنه، بينه و وضحه و فسره، ولم يتركه مجملاً في وقت احتياجكم إليه ﴿**لعلكم تعقلون**﴾ أي تفهمون وتتدبرون.

﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)** ﴾

٢٤٣- روي عن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف، و عنه كانوا ثمانية آلاف، و قال أبو صالح: تسعة آلاف، وعن ابن عباس أربعون ألفاً، و قال وهب بن منبه و أبو مالك: كانوا بضعة و ثلاثين ألفاً. و روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كانوا أهل قرية يقال لها داوردان. و كذا قال السدي و أبو صالح و زاد: من قبل واسط، وقال سعيد بن عبد العزيز: كانوا من أهل أذرعات، وروى وكيع بن الجراح في تفسيره عن ابن عباس ﴿**ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم و هم ألوف حذر الموت**﴾ قال: كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون قالوا: نأتي أرضاً ليس بها موت، حتى إذا كانوا بموضع كذا و كذا قال الله لهم ﴿**موتوا**﴾ فماتوا، فمر عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم، فذلك قوله عز و جل ﴿**ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم و هم ألوف حذر الموت**﴾ الآية. و ذكر غير واحد من السلف، أن هؤلاء القوم، كانوا أهل بلدة في زمان بني إسرائيل

استوخموا أرضهم، و أصابهم بها وباء شديد، فخرجوا فراراً من الموت، هاربين إلى البرية، فنزلوا وادياً أفيح، فملؤوا ما بين عَدْوتيه، فأرسل الله إليهم ملكين، أحدهما من أسفل الوادي، و الآخر من أعلاه، فصاحا بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم موتة رجل واحد، فحيزوا إلى حظائر، وبني عليهم جدران و قبور، و فنوا وتمزقوا وتفرقوا، فلما كان بعد دهر، مرّ بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل، يقال له حزقيل، فسأل الله أن يحييهم على يديه، فأجابه إلى ذلك، و أمره أن يقول: أيتها العظام البالية، إن الله يأمرك أن تجتمعي، فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض، ثم أمره فنادى: أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسي لحماً و عصباً و جلداً، فكان ذلك و هو يشاهد، ثم أمره فنادى: أيتها الأرواح، إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره فقاموا أحياءً ينظرون قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة و هم يقولون: سبحانك لا إله إلا أنت.

و كان في إحيائهم عبرة و دليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة، و لهذا قال: **﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾**، أي فيما يريهم من الآيات الباهرة و الحجج القاطعة و الدلالات الدامغة **﴿و لكن أكثر الناس لا يشكرون﴾** أي لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم في دينهم ودنياهم.

و في هذه القصة عبرة و دليل، على أنه لن يغني حذر من قدر، و أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن هؤلاء خرجوا فراراً من الوباء، طلباً لطول الحياة، فعوملوا بنقيض قصدهم، و جاءهم الموت سريعاً في آن واحد. و من هذا القبيل، الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ، لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة ابن الجراح و أصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، فذكر الحديث، فجاءه عبد الرحمن بن عوف، و كان متغيباً لبعض حاجته فقال: إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان بأرض و أنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه، و إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه» فحمد الله عمر ثم انصرف، وأخرجاه في الصحيحين.

٢٤٤- و قوله: **﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾** أي كما أن الحذر لا يغني من القدر، كذلك الفرار من الجهاد و تجنبه، لا يقرب أجلاً و لا يبعده، بل الأجل المحتوم و الرزق المقسوم، مقدَّر مقنن لا يزاد فيه و لا ينقص منه، كما قال تعالى: **﴿الذين قالوا لإخوانهم و قعدوا لو أطاعونا ما قُتلوا قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾** و قال تعالى: **﴿و قالوا ربنا لم كتبتَ علينا القتال لولا أخّرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل و الآخرة خير لمن اتقى و لا تُظلمون فتيلاً ◆ أينما تكونوا يدرككم الموت و لو كنتم في بروج مشيدة﴾** و روينا عن أمير الجيوش، و مقدم العساكر، و حامي حوزة الإسلام، وسيف الله المسلول على أعدائه: أبي سليمان خالد بن الوليد رضي الله عنه، أنه قال و هو في سياق الموت: لقد شهدت كذا و كذا موقفاً، و ما من عضو من أعضائي إلا و فيه رمية أو طعنة أو ضربة، و ها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء، يعني أنه يتألم لكونه ما مات قتيلاً في الحرب، و يتأسف على ذلك، و يتألم أن يموت على فراشه.

٢٤٥- و قوله: **﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾**، يحث تعالى عباده على الإنفاق في سبيل الله، و قد كرر تعالى هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع، و في حديث النزول أنه يقول تعالى: «من يقرض غير عديم و لا ظلوم» و روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود، قال: لما نزلت **﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له﴾**، قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، و إن الله عز وجل

ليريد منا القرض ؟ قال: «نعم يا أبا الدحداح». قال: أرني يدك يا رسول الله. قال: فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي عز وجل حائطي، قال: و حائط له فيه ستمائة نخلة، و أم الدحداح فيه و عيالها. قال فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح. قالت: لبيك. قال: اخرجي، فقد أقرضته ربي عز وجل. و قد رواه ابن مردويه عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً بنحوه، و قوله: ﴿**قرضاً حسناً**﴾ روي عن عمر و غيره من السلف هو: النفقة في سبيل الله، و قيل: هو النفقة على العيال، و قيل: هو التسبيح و التقديس. و قوله: ﴿**فيضاعفه له أضعافاً كثيرة**﴾ كما قال تعالى: ﴿**مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة و الله يضاعف لمن يشاء**﴾ الآية، و سيأتي الكلام عليها. و في معنى هذا ما رواه الترمذي و غيره عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، أن رسول الله ﷺ، قال «من دخل سوقاً من الأسواق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك و له الحمد، و هو على كل شيء قدير. كتب الله له ألف ألف سنة حسنة، و محا عنه ألف ألف سيئة» الحديث. وقوله ﴿**و الله يقبض و يبسط**﴾ أي أنفقوا و لا تبالوا، فالله هو الرازق يضيق على من يشاء من عباده في الرزق، و يوسعه على آخرين، له الحكمة البالغة في ذلك ﴿**و إليه ترجعون**﴾ أي يوم القيامة.

﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)** ﴾

٢٤٦- روى عبد الرزاق عن قتادة: هذا النبي هو يوشع بن نون، قال ابن جرير: يعني ابن أفرايم بن يوسف بن يعقوب، و هذا القول بعيد لأن هذا كان بعد موسى بدهر طويل، و كان ذلك في زمان داود عليه السلام، كما هو مصرح به في القصة، و قد كان بين داود و موسى ما ينيف عن ألف سنة، والله أعلم. و قال السدي: هو شمعون. و قال مجاهد: هو شمويل عليه السلام، و كذا قال وهب بن منبه و غيره: كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مدة من الزمان، ثم أحدثوا الأحداث، و عبد بعضهم الأصنام، و لم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويقيمهم على منهج التوراة، إلى أن فعلوا ما فعلوا، فسلط الله عليهم أعداءهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، و أسروا خلقاً كثيراً، و أخذوا منهم بلاداً كثيرة، و لم يكن أحد يقاتلهم إلا غلبوه، و ذلك أنهم كان عندهم التوراة، و التابوت الذي كان في قديم الزمان، وكان ذلك موروثاً لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة و السلام، فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب، و أخذوا التوراة من أيديهم، و لم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل، وانقطعت النبوة من أسباطهم، و لم يبق من سبط لاوى الذي يكون فيه من الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها و قد قتل، فأخذوها فحبسوها في بيت، و احتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاماً يكون نبياً لهم، و لم تزل المرأة تدعو الله عز وجل أن يرزقها غلاماً، فسمع الله لها و وهبها غلاماً، فسمته شمويل، أي سمع الله دعائي، و منهم من يقول: شمعون، و هو بمعناه، فشب ذلك الغلام، و نشأ فيهم، و أنبته الله نباتاً حسناً، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه، و أمره بالدعوة إليه و توحيده، فدعا بني إسرائيل، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم، و كان الْمُلْك أيضاً قد باد فيهم، فقال لهم النبي: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً ألا

تقاتلوا و تفوا بما التزمتم من القتال معه، **﴿قالوا و ما لنا ألا نقاتل في سبيل الله و قد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾** أي و قد أُخذت منا البلاد و سبيت الأولاد، قال الله تعالى: **﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم و الله عليم بالظالمين﴾** أي ما وفّوا بما وعدوا بل نكل عن الجهاد أكثرهم، و الله عليم بهم.

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) ﴾

٢٤٧- أي لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً منهم، فعين لهم طالوت، و كان رجلاً من أجنادهم، و لم يكن من بيت الملك فيهم، لأن الملك كان في بسط يهوذا، و لم يكن هذا من ذلك السبط، فلهذا قالوا: **﴿أنى يكون له الملك علينا﴾**، أي كيف يكون ملكاً علينا **﴿و نحن أحق بالملك منه و لم يؤت سعة من المال﴾** أي هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك، و قد ذكر بعضهم أنه كان سقاء، و قيل: دباغاً، و هذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت، و كان الأولى بهم طاعة و قول معروف، ثم قد أجابهم النبي قائلاً: **﴿إن الله اصطفاه عليكم﴾** أي اختاره لكم من بينكم، و الله أعلم به منكم، يقول: لست أنا الذي عينته من تلقاء نفسي، بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك، **﴿و زاده بسطة في العلم و الجسم﴾** أي و هو مع هذا، أعلم منكم، و أنبل، و أشكل منكم، وأشد قوة و صبراً في الحرب و معرفة بها، أي أتم علماً وقامة منكم، و من ههنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن، و قوة شديدة في بدنه و نفسه؛ ثم قال **﴿و الله يؤتي الملك من يشاء﴾** أي هو الحاكم الذي ما شاء فعل، و لا يسئل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه و حكمته و رأفته بخلقه، ولهذا قال **﴿و الله سميع عليم﴾** أي هو واسع الفضل، يختص برحمته من يشاء، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه.

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) ﴾

٢٤٨- يقول لهم نبيهم: إن علامة بركة مُلْك طالوت عليكم، أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أُخِذ منكم **﴿فيه سكينة من ربكم﴾** قيل معناه: وقار و جلالة. رواه عبد الرزاق عن قتادة و قال الربيع: رحمة، و كذا روي عن ابن عباس. و قال ابن جريج: سألت عطاء عن قوله **﴿فيه سكينة من ربكم﴾**؟ قال: ما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه، و كذا قال الحسن البصري. و روى سفيان الثوري عن علي قال: السكينة لها وجه كوجه الإنسان، ثم هي روح هفافة. و روى ابن جرير نحوه. و قال مجاهد: لها جناحان و ذَنَب. وقوله **﴿و بقية مما ترك آل موسى و آل هارون﴾** روى ابن جرير عن ابن عباس في هذه الآية **﴿و بقية مما ترك آل موسى و آل هارون﴾** قال: عصاه، و رضاض الألواح، و كذا قال قتادة و السدي و الربيع بن أنس و عكرمة، وزاد: والتوراة. قال أبو صالح **﴿و بقية مما ترك آل موسى﴾** يعني عصا موسى، وعصا هارون، و لوحين من التوراة، و المنّ. و قال عطية بن سعد: عصا موسى، و عصاهارون، وثياب موسى، و ثياب هارون، ورضاض الألواح. و قال عبد الرزاق: سألت الثوري عن قوله **﴿و بقية مما ترك آل موسى و آل هارون﴾**، فقال: منهم من

يقول: قفيز من منّ، و رضاض الألواح، و منهم من يقول: العصا و النعلان. وقوله **﴿تحمله الملائكة﴾** قال ابن جرير: قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض، حتى و ضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون، قال السدي: أصبح التابوت في دار طالوت، فآمنوا بنبوة شمعون، و أطاعوا طالوت. و قوله **﴿إن في ذلك لآية لكم﴾** أي على صدقي فيما جئتكم به من النبوة، و فيما أمرتكم به من طاعة طالوت **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** أي بالله و اليوم الآخر.

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) ﴾

٢٤٩- يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده، و من أطاعه من ملأ بني إسرائيل، و كان جيشه يومئذ فيما ذكره السدي ثمانين ألفاً، فالله أعلم، أنه قال **﴿إن الله مبتليكم﴾** أي مختبركم بنهر، قال ابن عباس وغيره: و هو نهر بين الأردن وفلسطين، يعني نهر الشريعة المشهور، **﴿فمن شرب منه فليس مني﴾** أي فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه **﴿و من لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده﴾**، أي فلا بأس عليه، قال الله تعالى: **﴿فشربوا منه إلا قليلاً منهم﴾** روى عن ابن عباس: من اغترف منه بيده روي، ومن شرب منه لم يرو. و كذا قال قتادة وابن شوذب، و قال السدي: كان الجيش ثمانين ألفاً، و تبقى معه أربعة آلاف، كذا قال. و قد روى ابن جرير عن البراء بن عازب، قال: كنا نتحدث أن أصحاب محمدﷺ، الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة و بضعة عشر، على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، و ما جازه معه إلا مؤمن، ورواه البخاري بنحوه، و لهذا قال تعالى: **﴿فلما جاوزه هو والذين معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾** أي استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم، فشجعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق، فإن النصر من عند الله ليس عن كثرة عدد و لا عُدد. و لهذا قالوا **﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله و الله مع الصابرين﴾**.

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢) ﴾

٢٥٠- أي لما واجه حزب الإيمان، وهم قليل من أصحاب طالوت، لعدوهم أصحاب جالوت، وهم عدد كثير **﴿قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً﴾** أي أنزل علينا صبراً من عندك **﴿و ثبت أقدامنا﴾** أي في لقاء الأعداء، و جنبنا الفرار و العجز **﴿و انصرنا على القوم الكافرين﴾**.

٢٥١- قال الله تعالى : ﴿فهزموهم بإذن الله﴾ أي غلبوهم و قهروهم بنصر الله لهم ﴿و قتل داود جالوت﴾ ذكروا في الإسرائيليات أنه قتله بمقلاع كان في يده ، رماه به فأصابه فقتله ، و كان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ، ويشاطره نعمته ، ويشركه في أمره ، فوفّى له ثم آل الملك إلى داودﷺ مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة ، و لهذا قال تعالى : ﴿و آتاه الله الملك﴾ الذي كان بيد طالوت ﴿والحكمة﴾ أي النبوة بعد شمويل ﴿و علمه مما يشاء﴾ أي مما يشاء الله من العلم الذي اختص بهﷺ ثم قال تعالى : ﴿و لو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ أي لو لا الله يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت و شجاعة داود لهلكوا كما قال تعالى : ﴿و لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع و بيع و صلوات و مساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾ الآية . و قوله ﴿و لكن الله ذو فضل على العالمين﴾ أي ذو مَنٍّ عليهم و رحمة بهم ، يدفع عنهم ببعضهم بعضاً ، و له الحكم والحكمة و الحجة على خلقه في جميع أفعاله وأقواله .

٢٥٢-ثم قال تعالى : ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق و إنك لمن المرسلين﴾ أي هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق ، أي بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماء بني إسرائيل ، ﴿و إنك﴾ يا محمد ﴿لمن المرسلين﴾ وهذ هو توكيد و توطئة للقسم .

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) ﴾

٢٥٣- يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض ، كما قال تعالى : ﴿و لقد فضلنا بعض النبيين على بعض و آتينا داود زبوراً﴾ ، و قال ههنا ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله﴾ يعني موسى ومحمداًﷺ ، و كذا آدم كما ورد به الحديث المروي في صحيح ابن حبان عن أبي ذرﷺ ﴿و رفع بعضهم درجات﴾ كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبيﷺ الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عزوجل ، (فإن قيل) فما الجمع بين هذه الآية و بين الحديث الثابت في الصحيحين عن أبي هريرة ، قال استب رجل من المسلمين و رجل من اليهود ، فقال اليهودي في قسم يقسمه : لا و الذي اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم يده ، فلطم بها وجه اليهودي ، فقال : أي خبيث ؟ و على محمدﷺ؟ فجاء اليهودي إلى النبيﷺ ، فاشتكى على المسلم ، فقال رسول اللهﷺ : «لا تفضلوني على الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور ؟ فلا تفضلوني على الأنبياء» و في رواية «لاتفضلوا بين الأنبياء» فالجواب من وجوه : أحدها : أن هذا كان قبل أن يعلم بالتفضيل ، و في هذا نظر . الثاني : أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع ، الثالث : أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر . الرابع : لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية . الخامس :

ليس مقام التفضيل إليكم، وإنما هو إلى الله عز و جل، و عليكم الانقياد والتسليم له، و الإيمان به. و قوله **﴿وآتينا عيسى بن مريم البينات﴾** أي الحجج و الدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني إسرائيل به من أنه عبد الله و رسوله إليهم **﴿وأيدناه بروح القدس﴾** يعني أن الله أيده بجبريل ﷺ، ثم قال تعالى: **﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات و لكن اختلفوا فمنهم من آمن و منهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾** أي كل ذلك عن قضاء الله و قدره، لهذا قال **﴿و لكن الله يفعل ما يريد﴾**.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤) ﴾

٢٥٤- يأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم في سبيله، سبيل الخير، ليدّخروا ثواب ذلك عند ربهم و مليكهم، وليبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا، **﴿من قبل أن يأتي يوم﴾** يعني يوم القيامة **﴿لا بيع و لا خلة و لا شفاعة﴾** أي لا يباع أحد من نفسه و لا يفادي بمال لو بذل، و لو جاء بملء الأرض ذهباً، و لا تنفعه خلة أحد، يعني صداقته بل و لا نسابته، كما قال **﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ و لا يتساءلون﴾** و لا شفاعة: أي و لا تنفعهم شفاعة الشافعين. و قوله **﴿والكافرون هم الظالمون﴾** مبتدأ محصور في خبره، أي و لا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافراً، و قد روي ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال **﴿والكافرون هم الظالمون﴾** و لم يقل: و الظالمون هم الكافرون.

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥) ﴾

٢٥٥- هذه آية الكرسي، و لها شأن عظيم، و قد صح الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله. روى الإمام أحمد عن أبي هو ابن كعب، أن النبي ﷺ، سأله «أي آية في كتاب الله أعظم»؟ قال: الله ورسوله أعلم، فرددها مراراً، ثم قال: آية الكرسي، قال «ليهنك العلم أبا المنذر، و الذي نفسي بيده، إن لها لساناً و شفتين تقدس الملك عند ساق العرش» و قد رواه مسلم. و ليس عنده زيادة: و الذي نفسي بيده إلخ.

حديث آخر - عن أبي أيضاً في فضل آية الكرسي، روى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن عبد الله بن أبي بن كعب، أن أباه أخبره أنه كان له جرن فيه تمر، قال: فكان أبي يتعاهده، فوجده ينقص، قال: فحرسه ذات ليلة، فإذا هو بدابة شبيه الغلام المحتلم، قال: فسلمت عليه، فرد السلام، قال: فقلت: ما أنت؟ جني أم إنسي؟ قال: جني. قال: ناولني يدك، قال فناولني يده، فإذا يد كلب و شعر كلب، فقلت: هكذا خلق الجن. قال: لقد علمت الجن ما فيهم أشد مني. قلت: فما حملك على ما صنعت؟ قال: بلغني أنك رجل تحب الصدقة، فأحببنا أن نصيب من طعامك. قال: فقال له أبي: فما الذي يجيرنا منكم؟ قال: هذه الآية، آية الكرسي، ثم غدا إلى النبي فأخبره، فقال النبي ﷺ «صدق الخبيث» و هكذا رواه الحاكم. و قد ذكر البخاري هذه القصة عن أبي هريرة، قال: و كلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته

وقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ، فقال : دعني فإني محتاج و عليّ عيال و لي حاجة شديدة ، قال : فخليت عنه فأصبحت ، فقال النبي ﷺ «يا أبا هريرة ما فعل بك أسيرك البارحة ؟» قال : قلت يا رسول الله ، شكا حاجة شديدة وعيالاً ، فرحمته وخليت سبيله ، قال «أما إنه قد كذبك و سيعود» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ «إنه سيعود» فرصدته ، فجاء يحثو الطعام ، فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : دعني فأنا محتاج و عليّ عيال ، لا أعود . فرحمته وخليت سبيله ، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ ، «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟» قلت : يا رسول الله ، شكا حاجة وعيالاً ، فرحمته و خليت سبيله . قال «أما إنه قد كذبك وسيعود» ، فرصدته الثالثة ، فجاء يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ، و هذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود ، فقال : دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، قلت : و ما هي ؟ إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ حتى تختم الآية ، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ، و لا يقربك شيطان حتى تصبح . فخليت سبيله ، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ «ما فعل أسيرك البارحة ؟» قلت : يا رسول الله ، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها ، فخليت سبيله . قال «و ما هي ؟» قال لي : إذا أويت إلى فراشك ، فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ و قال لي : لايزال عليك من الله حافظ و لا يقربك شيطان حتى تصبح ، و كانوا أحرص شيء على الخير ، فقال النبي ﷺ «أما إنه صدقك و هو كذوب ، تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟» قلت : لا . قال «ذاك شيطان» رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم ، و قد رواه النسائي في اليوم و الليلة .

حديث آخر - في اشتمالها علي اسم الله الأعظم : روى ابن مردويه عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً قال «اسم الله الأعظم الذي إذادعي به أجاب في ثلاث : سورة البقرة ، وآل عمران و طه» و قال هشام و هو ابن عمار خطيب دمشق أما البقرة ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ و في آل عمران ﴿ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ وفي طه ﴿و عنت الوجوه للحي القيوم﴾ .

حديث آخر - عن أبي أمامة في فضل قراءتها بعد الصلاة المكتوبة ، رواه أبو بكر بن مردويه عن أبي أمامة ، قال : قال رسول الله ﷺ «من قرأ دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي ، لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت» وهكذا رواه النسائي في اليوم والليلة و أخرجه ابن حبان في صحيحه و هو إسناد على شرط البخاري ، و قد ورد في فضلها أحاديث أخر ، تركناها اختصاراً لعدم صحتها و ضعف أسانيدها كحديث علي في قراءتها عند الحجامة ، أنها تقوم مقام حجامتين . و حديث أبي في كتابتها في اليد اليسرى بالزعفران سبع مرات ، و تلحس للحفظ و عدم النسيان ، أوردهما ابن مردويه ، وغير ذلك .

وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة

فقوله ﴿الله لا إله إلا هو﴾ إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق ﴿الحي القيوم﴾ أي الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً ، القيم لغيره . و كان عمر يقرأ (القيّام) فجميع الموجودات مفتقرة إليه ، و هو غني عنها ، لا قوام لها بدون أمره ، كقوله ﴿و من آياته أن تقوم السماء و الأرض بأمره﴾ و قوله ﴿لا تأخذه سنة و لا نوم﴾ أي لا يعتريه

نقص و لا غفلة و لا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، و لا يخفى عليه خافية، و من تمام القيومية أنه لايعتريه سنة و لا نوم، فقوله ﴿لا تأخذه﴾ أي لا تغلبه سنة و هي الوسن و النعاس، و لهذا قال: و لا نوم لأنه أقوى من السِّنة. و في الصحيح عن أبي موسى، قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات، فقال «إن الله لا ينام، و لا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط و يرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، و عمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، أن بني إسرائيل قالوا: يا موسى، هل ينام ربك ؟ قال: اتقوا الله، فناداه ربه عز وجل يا موسى، سألوك هل ينام ربك، فخذ زجاجتين في يديك، فقم الليلة، ففعل موسى، فلما ذهب من الليل ثلث نعس، فوقع لركبتيه، ثم انتعش فضبطهما، حتى إذا كان آخر الليل نعس، فسقطت الزجاجتان فانكسرتا، فقال: يا موسى، لو كنت أنام لسقطت السموات و الأرض فهلكت كما هلكت الزجاجتان في يديك. فأنزل الله عز و جل على نبيه ﷺ آية الكرسي. و قوله ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ إخبار بأن الجميع عبيده و في ملكه، و تحت قهره و سلطانه، كقوله ﴿إن كل من في السموات إلا آت الرحمن عبداً ۞ لقد أحصاهم وعدهم عداً ۞ وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾. وقوله ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ كقوله ﴿و كم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء و يرضى﴾ وكقوله ﴿و لا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ و هذا من عظمته وجلاله و كبريائه عز و جل، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة، كما في حديث الشفاعة: «آتي تحت العرش فأخر ساجداً، فيدعني ما شاء الله ما شاء الله أن يدعني. ثم يقال: ارفع رأسك و قل تسمع و اشفع تشفع - قال - فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة». وقوله: ﴿يعلم ما بين أيديهم و ما خلفهم﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات، ماضيها وحاضرها و مستقبلها، كقوله إخباراً عن الملائكة ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا و ما خلفنا و ما بين ذلك و ما كان ربك نسيّاً﴾. و قوله: ﴿و لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ أي لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله عز وجل و أطلعه عليه. و يحتمل أن يكون المراد لا يطلعون على شيء من علم ذاته و صفاته، إلا بما أطلعهم الله عليه، كقوله: ﴿و لا يحيطون به علماً﴾.

و قوله: ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وسع كرسيه السموات و الأرض﴾ قال: علمه، و كذا رواه ابن جرير قال ابن أبي حاتم: وروي عن سعيد بن جبير مثله، ثم قال ابن جرير: و قال آخرون: الكرسي موضع القدمين، ثم رواه عن أبي موسى و السدي و الضحاك و مسلم البطين. و قد رواه وكيع في تفسيره عن ابن عباس، قال: الكرسي موضع القدمين، و العرش لا يقدر أحد قدره. و قد رواه الحاكم. وقوله: ﴿ولا يؤده حفظهما﴾ أي لا يثقله و لا يكرثه حفظ السموات و الأرض، و من فيهما، و من بينهما، بل ذلك سهل عليه، يسير لديه، و هو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء و لا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلي العظيم، لا إله غيره، و لا رب سواه، فقوله: ﴿وهو العلي العظيم﴾ كقوله: ﴿و هو الكبير المتعال﴾ و هذه الآيات و ما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح، أمروها كما جاءت من غير تكييف و لا تشبيه.

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) ﴾

٢٥٦- يقول تعالى: **﴿لا إكراه في الدين﴾** أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيِّن واضح، جلي دلائله و براهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، و شرح صدره، و نور بصيرته، دخل فيه على بينة، و من أعمى الله قلبه و ختم على سمعه و بصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً، و قد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار، و إن كان حكمها عاماً. روى ابن جرير عن ابن عباس، قال: كانت المرأة تكون مقلاة، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير، كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله عز و جل **﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾**، و قد رواه أبو داود و النسائي و ابن أبي حاتم و ابن حبان في صحيحه، و هكذا ذكر مجاهد و سعيد بن جبير و الشعبي و الحسن البصري و غيرهم، أنها نزلت في ذلك. و قد ذهب طائفة كثيرة من العلماء، أن هذه محمولة على أهل الكتاب، و من دخل في دينهم قبل النسخ و التبديل إذا بذلوا الجزية، و قال آخرون: بل هي منسوخة بآية القتال، و إنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف، دين الإسلام، فإن أبى أحد منهم الدخول فيه، و لم ينقد له أو يبذل الجزية، قوتل حتى يقتل، و هذا معنى الإكراه، قال الله تعالى **﴿ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون﴾** و قال تعالى: **﴿يا أيها النبي جاهد الكفار و المنافقين و اغلظ عليهم﴾** و قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة و اعلموا أن الله مع المتقين﴾** و في الصحيح «عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل» يعني الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام في الوثائق و الأغلال و القيود و الأكبال، ثم بعد ذلك يسلمون، وتصلح أعمالهم و سرائرهم فيكونون من أهل الجنة. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل «أسلم»، قال: إني أجدني كارهاً، قال: «و إن كنت كارهاً» فإنه ثلاثي صحيح، ولكن ليس من هذا القبيل، فإنه لم يكرهه النبي ﷺ على الإسلام، بل دعاه إليه، فأخبره أن نفسه ليست قابلة له، بل هي كارهة، فقال له: أسلم و إن كنت كارهاً، فإن الله سيرزقك حسن النية و الإخلاص.

و قوله: **﴿فمن يكفر بالطاغوت و يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها و الله سميع عليم﴾** أي من خلع الأنداد و الأوثان، و ما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، ووحد الله فعبده وحده، و شهد أنه لا إله إلا هو **﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾** أي فقد ثبت في أمره، و استقام على الطريق المثلى، و الصراط المستقيم، روى أبو القاسم البغوي عن عمر رضي الله عنه: إن الجبت السحر، و الطاغوت الشيطان، و إن الشجاعة والجبن غرائز تكون في الرجال، يقاتل الشجاع عمن لا يعرف، و يفر الجبان من أمه، وإن كرم الرجل دينه، وحسبه خلقه، و إن كان فارسياً أو نبطياً. و هكذا رواه ابن جرير و ابن أبي حاتم، ومعنى قوله في الطاغوت: إنه الشيطان، قوي جداً، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان و التحاكم إليها، والاستنصار بها. و قوله: **﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾** أي فقد استمسك من الدين بأقوى سبب، و شبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم، هي في نفسها محكمة مبرمة قوية و ربطها قوي

شديد، ولهذا قال ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾ الآية، قال مجاهد: العروة الوثقى يعني الإيمان، و قال السدي: هو الإسلام، و قال سعيد بن جبير و الضحاك: يعني لا إله إلا الله، والبغض في الله، و كل هذه الأقوال صحيحة، و لا تنافي بينها. و قال معاذ بن جبل في قوله: ﴿لا انفصام لها﴾ دون دخول الجنة، وقال مجاهد و سعيد بن جبير ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾ ثم قرأ ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ وروى الإمام أحمد عن محمد بن قيس بن عباد، قال: كنت في المسجد، فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع، فصلى ركعتين أوجز فيهما، فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة، فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله، فدخلت معه فحدثته، فلما استأنس، قلت له: إن القوم لما دخلت المسجد، قالو: كذا وكذا، قال: سبحان الله، ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، و سأحدثك لم، إني رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ، قصصتها عليه، رأيت كأني في روضة خضراء - قال ابن عون فذكر من خضرتها و سعتها - و في وسطها عمود حديد أسفله في الأرض و أعلاه في السماء، في أعلاه عروة، فقيل لي اصعد عليه، فقلت: لا أستطيع، فجاءني منصف - قال ابن عون هو الوصيف - فرفع ثيابي من خلفي، فقال: اصعد، فصعدت حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك بالعروة، فاستيقظت و إنها لفي يدي، فأتيت رسول الله ﷺ فقصصتها عليه فقال «أماالروضة، فروضة الإسلام، و أما العمود فعمود الإسلام وأما العروة فهي العروة الوثقى، أنت على الإسلام حتى تموت» قال: وهو عبد الله بن سلام. أخرجاه في الصحيحين.

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧) ﴾

٢٥٧- يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير، و أن الكافرين إنما و ليهم الشيطان، يزين لهم ما هم فيه من الجهالات و الضلالات، ويخرجونهم و يحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر و الإفك ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ و لهذا وحد تعالى لفظ النور، و جمع الظلمات، لأن الحق واحد و الكفر أجناس كثيرة ولكنها باطلة، كما قال ﴿و أن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، و لا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ و قال تعالى ﴿وجعل الظلمات و النور﴾ و قال تعالى ﴿عن اليمين و الشمائل﴾ إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق و انتشار الباطل وتفرده و تشعبه.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾

٢٥٨- هذا الذي حاج إبراهيم في ربه هو ملك بابل نمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح و هو قول مجاهد و غيره، قال مجاهد: و مَلَكَ الدنيا مشارقها و مغاربها أربعة: مؤمنان و كافران، فالمؤمنان سليمان بن داود، وذو القرنين، والكافران: نمروذ و بختنصر، و الله أعلم. ومعنى قوله: ﴿ألم تر﴾ أي بقلبك يا محمد ﴿إلى

الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ أي وجود ربه، و ذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره، كما قال بعده فرعون لملئه ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾. و ما حمله على هذا الطغيان و الكفر الغليظ و المعاندة الشديدة، إلا تجبره، و طول مدته في الملك، وذلك أنه يقال: أنه مكث أربعمائة سنة في ملكه، ولهذا قال: ﴿أن آتاه الله الملك﴾ و كان طلب من إبراهيم دليلاً، على وجود الرب الذي يدعو إليه، فقال إبراهيم ﴿ربي الذي يحيي و يميت﴾ أي إنما الدليل على وجوده، حدوث هذه الأشياء، المشاهدة بعد عدمها، و عدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار، ضرورة، لأنها لم تحدث بنفسها، فلا بد لها من موجد أوجدها، و هو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له. فعند ذلك قال المحاج - و هو النمروذ - ﴿أنا أحيي و أميت﴾. قال قتادة و محمد بن إسحاق والسدي و غير واحد: و ذلك أني أوتى بالرجلين، قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما - فيقتل، و آمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل، فذلك معنى الإحياء و الإماتة - و الظاهر و الله أعلم - أنه ما أراد هذا لأنه ليس جواباً لما قاله إبراهيم، و لا في معناه لأنه غير مانع لوجود الصانع، و إنما أراد أن يدعي لنفسه هذا المقام عناداً و مكابرة ويوهم أنه الفاعل لذلك، و أنه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ ولهذا قال له إبراهيم، لما ادعى هذه المكابرة: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾ أي إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي و تميت، فالذي يحيي و يميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذراته وتسخير كواكبه و حركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهاً كما ادعيت تحيي وتميت، فأت بها من المغرب؟ فلما علم عجزه وانقطاعه و أنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام، بهت، أي أخرس، فلا يتكلم، و قامت عليه الحجة، قال الله تعالى: ﴿و الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يلهمهم حجة و لا برهاناً، بل حجتهم داحضة عند ربهم، و عليهم غضب، ولهم عذاب شديد، و هذا التنزيل على المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين، إن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارة ترديه و ليس كما قالوه، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني، و يبين بطلان ما ادعاه نمروذ في الأول و الثاني، و لله الحمد و المنة.

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾

٢٥٩- تقدم قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ وهو في قوة قوله: هل رأيت مثل الذي حاج إبراهيم في ربه، و لهذا عطف عليه بقوله ﴿أو كالذي مر على قرية و هي خاوية على عروشها﴾ اختلفوا في هذا المار من هو، فروى ابن أبي حاتم عن ناجية بن كعب عن علي بن أبي طالب أنه قال: هو عزير. و رواه ابن جرير عن ناجية نفسه، و حكاه ابن جرير و ابن أبي حاتم عن ابن عباس و الحسن و قتادة و السدي و سليمان بن بريدة، و هذا القول هو المشهور و قال وهب بن منبه و عبد الله بن عبيد، هو أرميا بن حلقيا. وقال مجاهد بن

جبر: هو رجل من بني إسرائيل، و أما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس، مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها ﴿و هي خاوية﴾ أي ليس فيها أحد، من قولهم خوت الدار تخوي خوياً. و قوله ﴿على عروشها﴾ أي ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها، فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة، و قال ﴿أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟﴾ و ذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها و بعدها عن العود إلى ما كانت عليه، قال الله تعالى: ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ قال: و عمرت البلاد بعد مضي سبعين سنة من موته، و تكامل ساكنوها، و تراجع بنو إسرائيل إليها، فلما بعثه الله عز وجل بعد موته، كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه: كيف يحيي بدنه، فلما استقل سوياً قال الله له، أي بواسطة الملك: ﴿كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم﴾ قال: و ذلك أنه مات أول النهار، ثم بعثه الله في آخر النهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم، فقال ﴿أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك و شرابك لم يتسنه﴾ وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب و تين و عصير، فوجده كما تقدم لم يتغير منه شيء، لا العصير استحال، و لا التين حمض و لا أنتن، و لا العنب نقص ﴿و انظر إلى حمارك﴾ أي كيف يحييه الله عز وجل، و أنت تنظر ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ أي دليلاً على المعاد ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها﴾ أي نرفعها، فيركب بعضها على بعض. و قد روى الحاكم في مستدركه عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿كيف ننشزها﴾ بالزاي ثم قال: صحيح الإسناد، و لم يخرجاه. و قرئ ﴿ننشرها﴾ أي نحييها، قاله مجاهد ﴿ثم نكسوها لحماً﴾. و قال السدي و غيره: تفرقت عظام حماره حوله يميناً و يساراً، فنظر إليها و هي تلوح من بياضها، فبعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة، ثم ركب كل عظم في موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها، ثم كساها الله لحما و عصباً و عروقاً وجلداً، و بعث الله ملكاً فنفخ في منخري الحمار، فنهق بإذن الله عزوجل، و ذلك كله بمرأى من العزير، فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ أي أنا عالم بهذا، و قد رأيته عياناً، فأنا أعلم أهل زماني بذلك، و قرأ آخرون «قال اعْلَمْ» على أنه أمر له بالعلم.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾

٢٦٠- ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام أسباباً منها أنه قال لنمروذ ﴿ربي الذي يحيي و يميت﴾ أحبَّ أن يترقى من علم اليقين بذلك، إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة، فقال ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى و لكن ليطمئن قلبي﴾ فأما الحديث الذي رواه البخاري عند هذه الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى، قال: أولم تؤمن؟ قال: بلى، و لكن ليطمئن قلبي». و كذا رواه مسلم، فليس المراد ههنا بالشك، ما قد يفهمه من لا علم عنده بلا خلاف، و قد أجيب عن هذا الحديث بأجوبة أحدها. و قوله ﴿قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك﴾ اختلف المفسرون في هذه الأربعة ما هي، وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان في ذلك مهم لنص عليه القرآن، فروي عن ابن

عباس أنه قال هي الغرنوق و الطاوس والديك و الحمامة، وقوله ﴿فصرهن إليك﴾ أي: قطعهن. قاله ابن عباس و عكرمة و سعيد بن جبير و أبو مالك و أبو الأسود الدؤلي و وهب بن منبه و الحسن و السدي و غيرهم. و قال العوفي عن ابن عباس ﴿فصرهن إليك﴾ أوثقهن، فلما أوثقهن ذبحهن، ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً، فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير، فذبحهن ثم قطعهن و نتف ريشهن و مزقهن و خلط بعضهن ببعض، ثم جزأهن أجزاءً، و جعل على كل جبل منهن جزءاً، قيل أربعة أجبل، و قيل سبعة، قال ابن عباس: و أخذ رؤوسهن بيده ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، و الدم يطير إلى الدم، واللحم إلى اللحم، و الأجزاء من كل طائر، يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته، و أتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، و جعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم ﷺ، فإذا قدم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله و قوته، و لهذا قال ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ أي عزيز لا يغلبه شيء، و لا يمتنع من شيء، و ما شاء كان بلا ممانع، لأنه القاهر لكل شيء، حكيم في أقواله وأفعاله و شرعه و قدره. و روى ابن أبي حاتم عن ابن المنكدر أنه قال: التقى عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص، فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص: أي آية في القرآن أرجى عندك، فقال عبد الله بن عمرو: قول الله عز و جل: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا﴾ الآية، فقال ابن عباس: لكن أنا أقول قول الله عز وجل: ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى﴾ فرضي من إبراهيم قوله ﴿بلى﴾، قال فهذا معنى لما يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان، و هكذا رواه الحاكم ثم قال: صحيح الإسناد، و لم يخرجاه.

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾

٢٦١- هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله و ابتغاء مرضاته، و أن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فقال ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾. قال سعيد بن جبير: يعني في طاعة الله. و قال مكحول: يعني به الإنفاق في الجهاد من رباط الخيل و إعداد السلاح و غير ذلك. و قال ابن عباس: الجهاد و الحج يضعف الدرهم فيهما إلى سبعمائة ضعف، و لهذا قال تعالى: ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة﴾ وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عزوجل لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة، و قد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف. روى الإمام أحمد: عن ابن مسعود أن رجلاً تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ «لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة» و رواه مسلم و النسائي ولفظ مسلم: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: يا رسول الله، هذه في سبيل الله، فقال: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة».

حديث آخر- روى أحمد عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله، يقول الله إلا الصوم فإنه لي و أنا أجزي به، يدع طعامه و شرابه من

أجلي، و للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، و فرحة عند لقاء ربه، و لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، الصوم جنة، الصوم جنة» و كذا رواه مسلم

حديث آخر. روى أحمد عن خريم بن فاتك، قال: قال رسول الله ﷺ «من أنفق نفقة في سبيل الله، تضاعف بسبعمائة ضعف». وقوله ههنا ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ أي بحسب إخلاصه في عمله ﴿و الله واسع عليم﴾ أي فضله واسع كثير أكثر من خلقه، عليم بمن يستحق و من لا يستحق، سبحانه و بحمده.

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾

٢٦٢- يمدح تبارك و تعالى الذين ينفقون في سبيله، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات مناً على من أعطوه، فلا يمنون به على أحد، و لا يمنون به لا بقول و لا بفعل. و قوله ﴿ولا أذى﴾ أي لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهاً يحبطون به ما سلف من الإحسان، ثم وعدهم الله تعالى الجزاء الجزيل على ذلك، فقال ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ أي ثوابهم على الله لا على أحد سواه. ﴿و لا خوف عليهم﴾ أي فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة. ﴿و لا هم يحزنون﴾ أي على ما خالفوه من الأولاد، و لا ما فاتهم من الحياة الدنيا و زهرتها لا يأسفون عليها، لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك.

٢٦٣- ثم قال تعالى: ﴿قول معروف﴾ أي من كلمة طيبة ودعاء لمسلم ﴿و مغفرة﴾ أي عفو وغفر عن ظلم قولي أو فعلي ﴿خير من صدقة يتبعها أذى﴾. ﴿و الله غني﴾ عن خلقه، ﴿حليم﴾ أي يحلم و يغفر و يصفح ويتجاوز عنهم، و قد وردت الأحاديث بالنهي عن المن في الصدقة، ففي صحيح مسلم من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، و لا ينظر إليهم، و لا يزكيهم، و لهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، و المسبل إزاره، و المنفق سلعته بالحلف الكاذب» وروى ابن مردويه عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال «لا يدخل الجنة عاق، ولا منان، ولا مدمن خمر، و لا مكذب بقدر». وروى أحمد و ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، و مدمن خمر، والمنان بما أعطى».

٢٦٤- و لهذا قال الله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن و الأذى﴾ فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن و الأذى، فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المن و الأذى، ثم قال تعالى: ﴿كالذي ينفق ماله رئاء الناس﴾ أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمن و الأذى كما تبطل صدقة من راءى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله، و إنما قصده مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة ليشكر بين الناس، أو يقال إنه كريم، و نحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى و ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه، و لهذا قال ﴿و لا يؤمن

بالله و اليوم الآخر﴾، ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائي بإنفاقه، قال الضحاك: والذي يتبع نفقته مناً أوأذى، فقال **﴿فمثله كمثل صفوان﴾** و هو جمع صفوانة، فمنهم من يقول: الصفوان يستعمل مفرداً أيضاً و هو الصفا و هو الصخر الأملس، **﴿عليه تراب فأصابه وابل﴾** وهو المطر الشديد **﴿فتركه صلداً﴾** أي فترك الوابل ذلك الصفوان صلداً أي أملس يابساً، أي لا شيء عليه من ذلك التراب، بل قد ذهب كله، أي و كذلك أعمال المرائين تذهب و تضمحل عند الله و إن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب، و لهذا قال **﴿لايقدرون على شيء مما كسبوا و الله لا يهدي القوم الكافرين﴾**.

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) ﴾

٢٦٥- و هذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضاة الله عنهم في ذلك، **﴿وتثبيتاً من أنفسهم﴾** أي وهم متحققون متثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء، و نظير هذا في معنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح المتفق على صحته (من صام رمضان إيماناً و احتساباً) أي يؤمن أن الله شرعه ويحتسب عند الله ثوابه، قال الشعبي: **﴿وتثبيتاً من أنفسهم﴾** أي تصديقاً و يقيناً، و كذا قال قتادة وأبو صالح و ابن زيد، و اختاره ابن جرير وقال مجاهد و الحسن: أي يتثبتون أين يضعون صدقاتهم. و قوله **﴿كمثل جنة بربوة﴾** وهو عند الجمهور: المكان المرتفع من الأرض، و زاد ابن عباس و الضحاك و تجري فيه الأنهار. قال ابن جرير رحمه الله: و في الربوة ثلاث لغات: هن ثلاث قراءات: بضم الراء، و بها قرأ عامة أهل المدينة و الحجاز و العراق، وفتحها و هي قراءة بعض أهل الشام، و الكوفة، و يقال إنها لغة تميم، و كسر الراء، و يذكر أنها قراءة ابن عباس.

و قوله **﴿أصابها وابل﴾** وهو المطر الشديد، كما تقدم، فآتت **﴿أكلها﴾** أي ثمرتها **﴿ضعفين﴾** أي بالنسبة إلى غيرها من الجنان **﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾** قال الضحاك: هو الرذاذ و هو اللين من المطر، أي هذه الجنة بهذه الربوة لا تمحل أبداً، بل يتقبله الله و يكثره و ينميه كل عامل بحسبه، ولهذا قال **﴿و الله بما تعملون بصير﴾** أي لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء.

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) ﴾

٢٦٦- روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ **﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل و أعناب﴾** قالوا: الله أعلم. فغضب عمر، فقال: قولوا: نعلم أولا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء ياأمير المؤمنين، فقال عمر: ياابن أخي قل و لا تحقر نفسك، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ضربت مثلاً بعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي، حتى أغرق أعماله، و هو من أفراد البخاري رحمه الله، و في هذا الحديث كفاية في تفسيرهذه الآية، و تبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن

العمل أولاً، ثم بعد ذلك انعكس سيره فبدل الحسنات بالسيئات عياذاً بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من الصالح، و احتاج إلى شيء من الأول في أضيق الأحوال، فلم يحصل منه شيء و خانه أحوج ما كان إليه، و لهذا قال تعالى: ﴿و أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار﴾ وهو الريح الشديد ﴿فيه نار فاحترقت﴾ أي أحرق ثمارها و أباد أشجارها، فأي حال يكون حاله؟. و لهذا قال تعالى: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ أي تعتبرون و تفهمون الأمثال و المعاني و تنزلونها على المراد منها. كما قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس و ما يعقلها إلا العالمون﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٦٩) ﴾

٢٦٧- يأمر تعالى: عباده المؤمنين بالإنفاق و المراد به الصدقة ههنا، قاله ابن عباس. من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها، قال مجاهد: يعني التجارة بتيسيره إياها لهم، و قال علي والسدي ﴿من طيبات ما كسبتم﴾ يعني الذهب والفضة، و من الثمار و الزروع التي أنبتها لهم من الأرض، قال ابن عباس: أمرهم بالإنفاق من أطيب المال و أجوده و أنفسه، و نهاهم عن التصدق برذالة المال و دنيه و هو خبيثه، فإن الله طيب لا يقبل الله إلا طيباً، و لهذا قال: ﴿و لا تيمموا الخبيث﴾ أي تقصدوا الخبيث ﴿منه تنفقون و لستم بآخذيه﴾ أي لو أعطيتموه ما أخذتموه، إلا أن تتغاضوا فيه، فالله أغنى عنه منكم، فلا تجعلوا لله ما تكرهون، و قيل معناه ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾ أي: لا تعدلوا عن المال الحلال و تقصدوا إلى الحرام فتجعلوا نفقتكم منه، والصحيح القول الأول، روى ابن جرير رحمه الله عن البراء بن عازب رضي الله عنه في قول الله ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم و مما أخرجنا لكم من الأرض و لا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾ الآية، قال: نزلت في الأنصار، كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها البسر فعلقوه على حبل، بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ، فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع أقناء البسر، يظن أن ذلك جائز، فأنزل الله فيمن فعل ذلك ﴿و لا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾، ورواه ابن ماجه و ابن مردويه و الحاكم في مستدركه و قال صحيح على شرط البخاري ومسلم، و لم يخرجاه. و قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه﴾ يقول: لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحق دون حقكم، لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه، قال فذلك قوله: ﴿إلا أن تغمضوا فيه﴾ فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم، و حقي عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه؟ رواه ابن أبي حاتم، و ابن جرير. وقوله: ﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾ أي و إن أمركم بالصدقات و بالطيب منها، فهو غني عنها، و ما ذاك إلا أن يساوي الغني الفقير، كقوله ﴿لن ينال الله لحومها و لا دماؤها و لكن يناله التقوى منكم﴾ وهو غني عن جميع خلقه و جميع خلقه فقراء إليه، و هو واسع الفضل، لا ينفد ما لديه، فمن تصدق بصدقة من كسب

طيب، فليعلم أن الله غني واسع العطاء، كريم جواد، و يجزيه بها، ويضاعفها له أضعافاً كثيرة، من يقرض غير عديم و لاظلوم، و هو الحميد أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله و شرعه و قدره، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

٢٦٨- و قوله: ﴿**الشيطان يعدكم الفقر و يأمركم بالفحشاء و الله يعدكم مغفرة منه و فضلاً و الله واسع عليم**﴾ روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول اللهﷺ «إن للشيطان لمة بابن آدم و للمَلَك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر و تكذيب بالحق، و أما لمة الملك فإيعاد بالخير والتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، و من وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان» ثم قرأ ﴿**الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء و الله يعدكم مغفرة منه وفضلاً**﴾ الآية، و هكذا رواه الترمذي والنسائي، و معنى قوله تعالى: ﴿**الشيطان يعدكم الفقر**﴾ أي يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلاتنفقوه في مرضاة الله. ﴿**و يأمركم بالفحشاء**﴾ أي مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصي و المآثم و المحارم و مخالفة الخلاق، قال تعالى: ﴿**و الله يعدكم مغفرة منه**﴾ أي في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء. ﴿**و فضلاً**﴾ أي في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر ﴿**والله واسع عليم**﴾.

٢٦٩- وقوله: ﴿**يؤتي الحكمة من يشاء**﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، و محكمه ومتشابهه، و مقدمه و مؤخره، و حلاله و حرامه، و أمثاله، و قال مجاهد: يعني بالحكمة الإصابة في القول، و قال أبو العالية: الحكمة خشية الله، فإن خشية الله رأس كل حكمة، و قال إبراهيم النخعي: الحكمة الفهم، و قال أبو مالك: الحكمة السنة، قال زيد بن أسلم: الحكمة العقل، قال مالك: و إنه ليقع في قلبي أن الحكمة هو الفقه في دين الله، و أمر يدخله الله في القلوب من رحمته و فضله، ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلاً في أمر الدنيا إذا نظر فيها، و تجد آخر ضعيفاً في أمر دنياه، عالماً بأمر دينه بصيراً به، يؤتيه الله إياه و يحرمه هذا، فالحكمة الفقه في دين الله، و قال السدي: الحكمة النبوة و الصحيح أن الحكمة كما قال الجمهور: لا تختص بالنبوة بل هي أعم منها، و أعلاها النبوة، و الرسالة أخص، و لكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع، و روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، و رجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها و يعلمها»، و هكذا رواه البخاري و مسلم. و قوله: ﴿**و ما يذكّر إلا أولوا الألباب**﴾ أي و ما ينتفع بالموعظة والتذكار إلا من له لب وعقل، يعني به الخطاب و معنى الكلام.

﴿ **وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٢٧٠) إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)** ﴾

٢٧٠-يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات و المنذورات، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه و رجاء موعوده، وتوعد من لا يعمل بطاعته، بل خالف أمره، وكذب خبره، و عبد معه غيره، فقال ﴿**و ما للظالمين من أنصار**﴾ أي يوم القيامة ينقذونهم من

عذاب الله و نقمته.

٢٧١-و قوله: **﴿إن تبدوا الصدقات فنعماهي﴾** أي إن أظهرتموها فنعم شيء هي. وقوله: **﴿و إن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾** فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها، لأنه أبعد عن الرياء إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به، فيكون أفضل من هذه الحيثية، و قال رسول الله ﷺ «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة و المسر بالقرآن كالمسر بالصدقة»[1] و الأصل أن الإسرار أفضل لهذه الآية، ولما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، و رجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه و تفرقا عليه، و رجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه، و رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، و رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين، و رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»، وفي الحديث المروي «صدقة السر تطفئ غضب الرب عزوجل»[2] ثم إن الآية عامة في أن إخفاء الصدقة أفضل سواء كانت مفروضة أو مندوبة لكن روى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسيره هذه الآية، قال: جعل الله صدقة السر تفضل علانيتها، فقال: بسبعين ضعفاً، و جعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها، فقال: بخمسة وعشرين ضعفاً. و قوله: **﴿ويكفر عنكم من سيئاتكم﴾** أي بدل الصدقات ولا سيما إذا كانت سراً، يحصل لكم الخير في رفع الدرجات و يكفر عنكم السيئات و قد قرئ ويكفر بالجزم عطفاً على محل جواب الشرط و هو قوله: **﴿فنعما هي﴾** كقوله: **﴿فأصدّق وأكن﴾** و قوله: **﴿والله بما تعملون خبير﴾** أي لا يخفى عليه من ذلك شيء وسيجزيكم عليه.

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤) ﴾

٢٧٢- قال أبو عبد الرحمن النسائي عن ابن عباس قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا[3] لأنسابهم من المشركين، فسألوا فرخص لهم، فنزلت هذه الآية **﴿ليس عليك هداهم و لكن الله يهدي من يشاء، وما تنفقوا من خير فلأنفسكم، و ما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، و ما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾**. وسيأتي عند قوله تعالى: **﴿لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم﴾** الآية، حديث أسماء بنت الصديق في ذلك. و قوله: **﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم﴾** كقوله **﴿من عمل صالحاً فلنفسه﴾** و نظائرها في القرآن كثيرة. و قوله **﴿و ما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾** قال الحسن البصري: نفقة المؤمن لنفسه و لا ينفق

---

(١) ـ رواه أبو داود و الترمذي و النسائي، و هو حديث صحيح. (٢) رواه الطبراني في الأوسط الصغير، و غيره و هو صحيح.

(٣) يرضخوا: أي يعطوا و يتصدقوا.

المؤمن إذا أنفق إلا ابتغاء وجه الله ، و قال عطاء الخراساني : يعني إذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ماكان عمله . و هذا معنى حسن و حاصله أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله ، فقد وقع أجره على الله ، و لا عليه في نفس الأمر لمن أصاب أ لبرٍّ أو فاجرٍ أومستحق أو غيره ، و هو مثاب على قصده ، ومستند هذا تمام الآية **﴿و ما تنفقوا من خير يوفَّ إليكم و أنتم لا تظلمون﴾** و الحديث المخرج في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «قال رجل لأتصدقنَّ الليلة بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية ، فأصبح الناس يتحدثون : تصدق على زانية ، فقال : اللهم لك الحمد على زانية ، لأتصدقنَّ الليلة بصدقة فوضعها في يد غني ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على غني ، قال : اللهم لك الحمد على غني ، لأتصدقنَّ الليلة بصدقة ، فخرج فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد على زانية و على غني وعلى سارق ، فأتي فقيل له : أما صدقتك فقد قبلت ، و أما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زناها ، و لعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله ، و لعل السارق أن يستعف بها عن سرقته» .

٢٧٣- وقوله **﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله﴾** يعني المهاجرين الذين انقطعوا إلى الله و إلى رسوله وسكنوا المدينة ، وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم و **﴿لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾** يعني سفراً للتسبب في طلب المعاش والضرب في الأرض هو السفر ، قال الله تعالى : **﴿و إذاضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾** وقال تعالى : **﴿علم أن سيكون منكم مرضى و آخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله و آخرون يقاتلون في سبيل الله﴾** الآية . و قوله **﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾** أي الجاهل بأمرهم و حالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم في لباسهم و حالهم و مقالهم ، و في هذا المعنى الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ «ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة و التمرتان ، واللقمة واللقمتان ، و الأكلة و الأكلتان ، و لكن المسكين الذي لايجد غنىً يغنيه و لا يفطن له فيتصدق عليه ، و لا يسأل الناس شيئاً» . رواه أحمد من حديث ابن مسعود أيضاً . وقوله **﴿تعرفهم بسيماهم﴾** أي بما يظهر لذوي الألباب من صفاتهم ، كما قال تعالى : **﴿سيماهم في وجوههم﴾** وقال **﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾** وفي الحديث الذي في السنن «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنورالله» ثم قرأ **﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾** . وقوله : **﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾** أي لا يلحون في المسألة و يكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه ، فإن سأل و له ما يغنيه عن المسألة ، فقد ألحف في المسألة ، روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «ليس المسكين الذي ترده التمرة و التمرتان ، و لا اللقمة و اللقمتان ، و إنما المسكين الذي يتعفف ، اقرءوا إن شئتم يعني قوله **﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾**» وقد رواه مسلم . وروى الإمام أحمد عن رجل من مزينة أنه قالت له أمه : ألا تنطلق فتسأل رسول الله ﷺ كما يسأله الناس ؟ فانطلقت أسأله فوجدته قائماً يخطب ، وهو يقول «و من استعف أعفه الله ، و من استغنى أغناه الله ، و من يسأل الناس و له عدل خمس أواق ، فقد سأل الناس إلحافاً» فقلت بيني و بين نفسي : لناقة لي خير من خمس أواق ، و لغلامي ناقة أخرى فهي خير من خمس أواق ، فرجعت ولم أسأل . وقوله **﴿و ما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾** أي لا يخفى عليه شيء منه و سيجزي عليه أوفر الجزاء و أتمه يوم القيامة أحوج ما يكون إليه .

٢٧٤- و قوله **﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً و علانية فلهم أجرهم عند ربهم و لا خوف عليهم**

ولاهم يحزنون﴾ هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله و ابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليل ونهار، والأحوال من سر وجهر، حتى أن النفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضاً، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص حين عاده مريضاً عام الفتح، وفي رواية عام حجة الوداع «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى ما تجعل في في امرأتك». وروى الإمام أحمد عن أبي مسعود رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة»، وعن ابن عباس في هذه الآية، قال: هم الذين يعلفون الخيل في سبيل الله، رواه ابن أبي حاتم ثم قال: و كذا روي عن أبي أمامة وسعيد بن المسيب و مكحول، و قوله **﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾** أي يوم القيامة على ما فعلوا من الإنفاق في الطاعات **﴿و لا خوف عليهم و لاهم يحزنون﴾** تقدم تفسيره.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥)﴾

٢٧٥- لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات، المخرجين الزكوات، المتفضلين بالبر و الصدقات لذوي الحاجات والقرابات في جميع الأحوال والأوقات، شرع في ذكر أكلة الربا و أموال الناس بالباطل و أنواع الشبهات، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم و قيامهم منها، إلى بعثهم ونشورهم، فقال **﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾**، أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه، و تخبط الشيطان له، وذلك أنه يقوم قياماً منكراً. و قال ابن عباس: آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يخنق، رواه ابن أبي حاتم، قال: وروي عن عوف بن مالك و سعيد بن جبير و السدي و الربيع بن أنس و قتادة و مقاتل بن حيان نحو ذلك، و حكي عن عبد الله بن عباس وعكرمة و سعيد بن جبير والحسن وقتادة و مقاتل بن حيان أنهم قالوا في قوله **﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾** يعني لا يقومون يوم القيامة، و كذا قال مجاهد والضحاك و ابن زيد، وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب، و قرأ **﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾** و ذلك حين يقوم من قبره. وقد روى البخاري عن سمرة بن جندب في حديث المنام الطويل: فأتينا على نهر، حسبت أنه كان يقول: أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، و إذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، و إذا ذلك السابح يسبح، ثم يأتي الذي قد جمع الحجارة عنده، فيفغر له فاه فيلقمه حجراً، فذكر في تفسيره أنه آكل الربا. وقوله **﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا و أحل الله البيع و حرم الربا﴾** أي إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه، و ليس هذا قياساً منهم للربا على البيع، لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذي شرعه الله في القرآن ولو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع، وإنما قالوا: **﴿إنما البيع مثل الربا﴾** أي هو نظيره، فلم حرم هذا وأبيح هذا؟ و هذا اعتراض منهم على الشرع، أي هذا مثل هذا، و قد أحل هذا و حرم هذا، و قوله تعالى: **﴿وأحل الله البيع و حرم الربا﴾** يحتمل أن يكون من تمام الكلام رداً عليهم، أي على ما قالوه من الاعتراض،

مع علمهم بتفريق الله بين هذا و هذا حكماً، و هو العليم الحكيم الذي لا معقب لحكمته و لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، و هو العالم بحقائق الأمور ومصالحها ، و ما ينفع عباده فيبيحه لهم، و ما يضرهم ينهاهم عنه، و هو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل، و لهذا قال: **﴿فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف و أمره إلى الله﴾** أي من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه، فله ما سلف من المعاملة، لقوله: **﴿عفا الله عما سلف﴾** و كما قال النبي ﷺ يوم فتح مكة «وكل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين، و أول ربا أضعه ربا العباس» و لم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية بل عفا عما سلف، كما قال تعالى: **﴿فله ما سلف و أمره إلى الله﴾** قال سعيد بن جبير و السدي: **﴿فله ما سلف﴾** ما كان أكل من الربا قبل التحريم. وروى ابن أبي حاتم أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت لها أم محبة أم ولد لزيد ابن أرقم: يا أم المؤمنين أتعرفين زيد بن أرقم؟ قالت: نعم، قالت: فإني بعته عبداً إلى العطاء بثمانمائة، فاحتاج إلى ثمنه، فاشتريته قبل محل الأجل بستمائة، فقالت: بئس ما شريت و بئس ما اشتريت، أبلغي زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ، إن لم يتب، قالت: فقلت أرأيت إن تركت المائتين و أخذت الستمائة؟ قالت: نعم **﴿فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف﴾** وهذا الأثر مشهور [1] و هو دليل لمن حرم مسألة العينة، مع ما جاء فيها من الأحاديث المذكورة المقررة في كتاب الأحكام، و لله الحمد و المنة، ثم قال تعالى: **﴿ومن عاد﴾** أي إلى الربافعله بعد بلوغه نهي الله عنه، فقد استوجب العقوبة، و قامت عليه الحجة، و لهذا قال: **﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**. و إنما حرمت المخابرة وهي المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض و المزابنة: و هي اشتراء الرطب في رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض، و المحاقلة و هي اشتراء الحب في الحقل بالحب على وجه الأرض، إنما حرمت هذه الأشياء و ما شاكلها حسماً لمادة الربا، لأنه لا يعلم التساوي بين الشيئين قبل الجفاف، و لهذا قال الفقهاء: الجهل بالمماثلة كحقيقة المفاضلة، و من هذا حرموا أشياء بما فهموا من تضييق المسالك المفضية إلى الربا و الوسائل الموصلة إليه، و تفاوت نظرهم بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم، و قد قال تعالى: **﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾** وباب الربا من أشكل الأبواب على كثير من أهل العلم، و قد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ عهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه: الجد، و الكلالة، وأبواب من أبواب الربا - يعني بذلك بعض المسائل التي فيها شائبة الربا و الشريعة شاهدة بأن كل حرام فالوسيلة إليه مثله، لأن ما أفضى إلى الحرام حرام، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بين و الحرام بين، و بين ذلك أمور مشتبهات، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، و من وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه» وفي السنن عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» و في الحديث الآخر: «الإثم ما حاك في القلب و ترددت فيه النفس و كرهت أن يطلع عليه الناس» وفي رواية «استفت قلبك و إن أفتاك الناس وأفتوك» و قال ابن عباس: آخر ما نزل على رسول الله ﷺ، آية الربا، رواه البخاري. ومن هذا القبيل تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات، الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عائشة، قالت: لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد

---

(١) - رواه الدارقطني (٣/ ٥٢).

فقرأهن، فحرم التجارة في الخمر، و قد أخرجه الجماعة، سوى الترمذي. قال بعض من تكلم هذا الحديث من الأئمة: لما حرم الربا و وسائله حرم الخمر و ما يفضي إليه من تجارة و نحو ذلك، كما قالﷺ في الحديث المتفق عليه: «لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها وأكلوا أثمانها» و قد تقدم في حديث علي وابن مسعود و غيرهما، عند لعن المحلل في تفسير قوله: ﴿حتى تنكح زوجاً غيره﴾ قولهﷺ «لعن الله آكل الربا وموكله و شاهديه و كاتبه»، قالوا: و ما يشهد عليه و يكتب إلا إذا أظهر في صورة عقد شرعي، و يكون داخله فاسداً، فالاعتبار بمعناه لا بصورته، لأن الأعمال بالنيات، و في الصحيح: «إن الله لاينظر إلى صوركم و لا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم، وأعمالكم» وقد صنف الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية، كتاباً في إبطال التحليل، تضمن النهي عن تعاطي الوسائل المفضية إلى كل باطل، و قد كفى في ذلك وشفى، فرحمه الله و رضي عنه.

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) ﴾

٢٧٦- يخبر الله تعالى أنه يمحق الربا، أي يذهبه إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه، أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به، بل يعدمه به في الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة، كما قال تعالى: **﴿قل لا يستوي الخبيث و الطيب و لو أعجبك كثرة الخبيث﴾** وقال تعالى: **﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم﴾** وقال **﴿و ما آتيتم من رباً ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله﴾** الآية، و قال ابن جرير: في قوله **﴿يمحق الله الربا﴾** و هذا نظير الذي روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: الربا و إن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل، و هذا الحديث قد رواه الإمام أحمد عن ابن مسعود عن النبيﷺ، قال: «إن الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل»، و قد رواه ابن ماجه. و هذا من باب المعاملة بنقيض المقصود. وقوله **﴿ويربي الصدقات﴾** قرئ بضم الياء و التخفيف، من ربا الشيء يربو و أرباه يربيه، أي كثره ونماه ينميه، وقرئ يربي بالضم و التشديد من التربية، روى البخاري عن أبي هريرة، قال: قال رسول اللهﷺ «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، و لا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه، حتى يكون مثل الجبل»، وقوله **﴿والله لا يحب كل كفار أثيم﴾** أي لا يحب كفور القلب أثيم القول و الفعل، و لا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، و لا يكتفي بما شرع له من الكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل. ثم قال تعالى مادحاً للمؤمنين بربهم، المطيعين أمره المؤدين شكره، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مخبراً عما أعد لهم من الكرامة، و أنهم يوم القيامة من التبعات آمنون فقال:

٢٧٧- **﴿إن الذين آمنوا و عملوا الصالحات وأقاموا الصلاة و آتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم و لا هم يحزنون﴾**.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١) ﴾

٢٧٨- يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، ناهياً لهم عما يقربهم إلى سخطه و يبعدهم عن رضاه، فقال **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾** أي خافوه وراقبوه فيما تفعلون **﴿و ذروا ما بقي من الربا﴾** أي اتركوا ما لكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال، بعد هذا الإنذار **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** أي بما شرع الله لكم من تحليل البيع و تحريم الربا و غير ذلك.

٢٧٩- **﴿فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾** و هذا تهديد و وعيد أكيد، لمن استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار، قال ابن عباس: **﴿فأذنوا بحرب﴾** أي استيقنوا بحرب من الله ورسوله، و تقدم أنه قال: يقال يوم القيامة لآكل الربا خذ سلاحك للحرب، ثم قرأ **﴿فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله و رسوله﴾** فمن كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه، كان حقاً على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع و إلا ضرب عنقه، و روى ابن أبي حاتم عن الحسن و ابن سيرين، أنهما قالا: والله إن هؤلاء الصيارفة لأكلة الربا، و إنهم قد أذنوا بحرب من الله ورسوله، و لو كان على الناس إمام عادل لاستتابهم، فإن تابوا و إلا وضع فيه السلاح. و قال قتادة: أوعدهم الله بالقتل كما يسمعون، و جعلهم بهرجاً أين ما أتوا، فإياكم ومخالطة هذه البيوع من الربا، فإن الله قد أوسع الحلال و أطابه، فلا يلجئنكم إلى معصيته فاقة. رواه ابن أبي حاتم، و قال السهيلي: و لهذا قالت عائشة لأم محبة مولاة زيد بن أرقم في مسئلة العينة: أخبريه أن جهاده مع النبي ﷺ قد بطل إلا أن يتوب، فخصت الجهاد لأنه ضد قوله: **﴿فأذنوا بحرب من الله و رسوله﴾** قال: و هذا المعنى ذكره كثير. ثم قال تعالى: **﴿وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلِمون﴾** أي بأخذ الزيادة **﴿ولا تُظلَمون﴾** أي بوضع رؤوس الأموال أيضاً، بل لكم ما بذلتم من غير زيادة عليه و لا نقص منه، و روى ابن أبي حاتم عن عمرو بن الأحوص قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فقال «ألا إن كل رباً كان في الجاهلية موضوع عنكم كله، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون و لا تظلمون، وأول ربا موضوع ربا العباس بن عبد المطلب، موضوع كله».

٢٨٠- و قوله **﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾** يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء، فقال: **﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾** لا كما كان أهل الجاهلية، يقول أحدهم لمدينه إذا حلّ الدين: إما أن تقضي و إما أن تربي، ثم يندب إلى الوضع عنه و يعد على ذلك الخير والثواب الجزيل فقال: **﴿و أن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾** أي و أن تتركوا رأس المال بالكلية و تضعوه عن المدين، و قد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبي ﷺ بذلك.

فالحديث الأول - عن أبي أمامة أسعد بن زرارة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سرّه أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله، فلييسر على معسر أو ليضع عنه» رواه الطبراني.

حديث آخر- عن بريدة قال: سمعت النبيﷺ يقول «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة» قال: ثم سمعته يقول: «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة» قلت: سمعتك يا رسول الله تقول «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة». ثم سمعتك تقول «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة»، قال: «له لكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدَّين، فإذا حل الدين فأنظره، فله بكل يوم مثلاه صدقة» رواه أحمد.

حديث آخر- عن أبي قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري أنه كان له دين على رجل، و كان يأتيه يتقاضاه فيختبئ منه، فجاء ذات يوم فخرج صبي، فسأله عنه، فقال: نعم هو في البيت يأكل خزيرة، فناداه، فقال: يا فلان، اخرج فقد أخبرت أنك ههنا، فخرج إليه، فقال: ما يغيبك عني؟ فقال إني معسر و ليس عندي شيء، قال: آلله أنك معسر؟ قال: نعم، فبكى أبو قتادة، ثم قال سمعت رسول اللهﷺ يقول «من نفس عن غريمه، أومحا عنه، كان في ظل العرش يوم القيامة»، ورواه مسلم في صحيحه.

حديث آخر- روى الإمام أحمد عن حذيفة أن رجلاً أتى به الله عز وجل، فقال: ماذا عملت في الدنيا؟ فقال له الرجل: ما عملت مثقال ذرة من خير، فقال ثلاثاً، و قال في الثالثة: إني كنت أعطيتني فضلاً من المال في الدنيا، فكنت أبايع الناس، فكنت أيسر على الموسر، وأنظر المعسر. فقال تبارك و تعالى: نحن أولى بذلك منك، تجاوزوا عن عبدي، فغفر له. قال أبو مسعود: هكذا سمعت من النبيﷺ، وهكذا رواه مسلم.

٢٨١- ثم قال تعالى يعظ عباده، ويذكرهم زوال الدنيا، و فناء ما فيها من الأموال و غيرها، وإتيان الآخرة، والرجوع إليه تعالى، و محاسبته تعالى خلقه على ما عملوا، و مجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر، ويحذرهم عقوبته، فقال: **﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾**، وعاش النبيﷺ بعد نزول هذه الاية تسع ليال، ثم مات يوم الإثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول، رواه ابن أبي حاتم، وقد رواه النسائي من حديث عبد الله بن عباس قال: آخر شيء نزل من القرآن **﴿و اتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾**

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) ﴾

٢٨٢- هذه الآية الكريمة أطول آية في القرآن العظيم، فقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل**

مسمى فاكتبوه﴾ هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها، ليكون أحفظ لمقدارها و ميقاتها وأضبط للشاهد فيها، و قد نبه على هذا في آخر الآية حيث قال: ﴿ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة و أدنى أن لا ترتابوا﴾، و عن ابن عباس، قال: أشهد السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحله و أذن فيه، ثم قرأ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى﴾، رواه البخاري، وثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال قدم النبي ﷺ المدينة و هم يسلفون في الثمار السنة والسنتين و الثلاث، فقال رسول الله ﷺ «من أسلف فليسلف في كيل معلوم، و وزن معلوم، إلى أجل معلوم»، و قوله: ﴿فاكتبوه﴾ أمر منه تعالى بالكتابة للتوثقة و الحفظ، فإن قيل: فقد ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ «إنا أمة أمية لا نكتب و لا نحسب» فما الجمع بينه و بين الأمر بالكتابة؟ فالجواب: أن الدَّين من حيث هو غير مفتقر إلى كتابة أصلاً، لأن كتاب الله قد سهل الله ويسر حفظه على الناس، و السنن أيضاً محفوظة عن رسول الله ﷺ، و الذي أمر الله بكتابته إنما هو أشياء جزئية تقع بين الناس، فأمروا أمر إرشاد لا أمر إيجاب كما ذهب إليه بعضهم، و قال أبو سعيد و الشعبي و الربيع بن أنس و الحسن و ابن جريج وابن زيد و غيرهم: كان ذلك واجباً، ثم نسخ بقوله: ﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن أمانته﴾ و الدليل على ذلك أيضاً الحديث الذي حكى عن شرع من قبلنا مقرراً في شرعنا و لم ينكر عدم الكتابة و الإشهاد. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بشهداء أشهدهم. قال: كفى بالله شهيداً، قال ائتني بكفيل قال: كفى بالله كفيلاً. قال: صدقت، فدفعها إلى أجل مسمى فخرج في البحر فقضى حاجته ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركباً فأخذ خشبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار و صحيفة معها إلى صاحبها، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها البحر، ثم قال: اللهم إنك قد علمت أني استسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بذلك؛ و سألني شهيداً، فقلت: كفى بالله شهيداً، فرضي بذلك؛ و إني قد جهدت أن أجد مركباً أبعث بها إليه بالذي أعطاني فلم أجد مركباً و إني استودعتكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً يجيئه بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما كسرها وجد المال و الصحيفة، ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه، فأتاه بألف دينار و قال: و الله مازلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه قال: هل كنت بعثت إليّ بشيء؟ قال: ألم أخبرك أني لم أجد مركباً قبل الذي جئت فيه؟ قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة، فانصرف بألفك راشداً، وهذا إسناد صحيح و قد رواه البخاري في سبعة مواضع من طرق صحيحة معلقاً بصيغة الجزم. وقوله: ﴿فليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ أي بالقسط و الحق و لا يَجُرْ في كتابته على أحد، و لا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة و لا نقصان. و قوله ﴿ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب﴾ أي و لا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس و لا ضرورة عليه في ذلك، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم، فليتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب، كما جاء في الحديث «إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرق» وفي الحديث الآخر «من كتم علماً يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» و قال مجاهد وعطاء: واجب على الكاتب أن يكتب، و قوله: ﴿وليملل الذي عليه الحق و ليتق الله ربه﴾ أي وليملل

المدين على الكاتب ما في ذمته من الدين وليتق الله في ذلك **﴿ولا يبخس منه شيئاً﴾** أي لا يكتم منه شيئاً **﴿فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً﴾** محجوراً عليه بتبذير و نحوه **﴿أو ضعيفاً﴾** أي صغيراً، أو مجنوناً **﴿أو لا يستطيع أن يمل هو﴾** إما لعي أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه **﴿فليملل وليه بالعدل﴾**.

وقوله: **﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾** أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثقة **﴿فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان﴾** و هذا إنما يكون في الأموال، و ما يقصد به المال، و إنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة، كما روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال «يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة منهن جزلة: و ما لنا يارسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «تكثرن اللعن، و تكفرن العشير، مارأيت من ناقصات عقل و دين أغلب لذي لب منكن» قالت: يا رسول الله ما نقصان العقل والدين؟ قال «أما نقصان عقلها، فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، و تمكث الليالي لا تصلي و تفطر في رمضان فهذا نقصان الدين». وقوله: **﴿ممن ترضون من الشهداء﴾** فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود، و هذا مقيد حكم به الشافعي على كل مطلق في القرآن من الأمر بالإشهاد من غير اشتراط وقد استدل من رد المستور بهذه الآية الدالة على أن يكون الشاهد عدلاً مرضياً. وقوله: **﴿أن تضل إحداهما﴾** يعني المرأتين إذا نسيت الشهادة **﴿فتذكر إحداهما الأخرى﴾** أي يحصل لها ذكر بما وقع به من الإشهاد، و بهذا قرأ آخرون فتذكر بالتشديد من التذكار، و من قال: إن شهادتها معها تجعلها كشهادة ذكر فقد أبعد. و الصحيح الأول، و الله أعلم. وقوله: **﴿ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا﴾** قيل: معناه إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة، وهو قول قتادة و الربيع بن أنس، و هذا كقوله: **﴿ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب﴾** ومن ههنا استفيد أن تحمل الشهادة فرض كفاية، و هو مذهب الجمهور، و المراد بقوله: **﴿و لا يأب الشهداء إذا ما دعوا﴾** للأداء، لحقيقة قوله: **﴿الشهداء﴾**، والشاهد حقيقة فيمن تحمل، فإذا دعي لأدائها فعليه الإجابة إذا تعينت و إلا فهو فرض كفاية، و الله أعلم، وقال مجاهد و أبو مجلز وغير واحد: إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار، و إذا شهدت فدعيت فأجب، و قد ثبت في صحيح مسلم و السنن عن زيد بن خالد، أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها» فأما الحديث الآخر في الصحيحين «ألا أخبركم بشر الشهداء؟ الذين يشهدون قبل أن يستشهدوا» و كذا قوله: «ثم يأتي قوم تسبق أيمانهم شهاداتهم، و تسبق شهاداتهم أيمانهم» و في رواية «ثم يأتي قوم يشهدون و لا يستشهدون» و هؤلاء شهود الزور، وقد روي عن ابن عباس و الحسن البصري أنها تعم الحالين التحمل، و الأداء. و قوله: **﴿ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله﴾** هذا من تمام الإرشاد و هو الأمر بكتابة الحق صغيراً أو كبيراً، فقال: و لا تسأموا أي لا تملوا أن تكتبوا الحق على أي حال كان القلة و الكثرة إلى أجله، وقوله: **﴿ذلكم أقسط عند الله و أقوم للشهادة و أدنى أن لا ترتابوا﴾** أي هذا الذي أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلاً هو أقسط عند الله، أي أعدل وأقوم للشهادة، أي أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة، لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه، كما هو الواقع غالباً **﴿و أدنى أن لا ترتابوا﴾** و أقرب إلى عدم الريبة بل ترجعون عند التنازع إلي الكتاب الذي كتبتموه فيفصل بينكم بلا ريبة.

و قوله: **﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها﴾** أي إذا كان البيع

بالحاضر يداً بيد، فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور في تركها. فأما الإشهاد على البيع فقد قال تعالى: **﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾** وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله تعالى **﴿و أشهدوا إذا تبايعتم﴾** يعني أشهدوا على حقكم إذا كان في أجل أولم يكن فيه أجل، فأشهدوا على حقكم على كل حال، قال وروي عن جابر بن زيد و مجاهد و عطاء والضحاك نحو ذلك، و قال الشعبي و الحسن: هذا الأمر منسوخ بقوله: **﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي ائتمن أمانته﴾** وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب لا على الوجوب، و الدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الأنصاري، و قد رواه الإمام أحمد عن عمارة بن خزيمة الأنصاري أن عمه حدثه و هو من أصحاب النبيﷺ أن النبيﷺ، ابتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه النبيﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبيﷺ وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس، و لا يشعرون أن النبيﷺ ابتاعه حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبيﷺ، فنادى الأعرابي النبيﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه وإلا بعته، فقال النبيﷺ حين سمع نداء الأعرابي، قال: أوليس قد ابتعته منك؟ قال الأعرابي: لا والله ما بعتك، فقال النبيﷺ «بل قد ابتعته منك» فطفق الناس يلوذون بالنبيﷺ، والأعرابي، وهما يتراجعان فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أني بايعتك، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك إن النبيﷺ لم يكن يقول إلا حقاً حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبيﷺ ومراجعة الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أني بايعتك، قال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبيﷺ على خزيمة فقال «بم تشهد»؟ فقال: بتصديقك يا رسول الله فجعل رسول الله شهادة خزيمة بشهادة رجلين، وهكذا رواه أبو داود والنسائي، و لكن الاحتياط هو الإشهاد لما رواه الإمامان الحافظ أبو بكر بن مردويه والحاكم عن أبي موسى عن النبيﷺ، قال «ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم: رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، و رجل دفع مال يتيم قبل أن يبلغ، ورجل أقرض رجلاً مالاً فلم يشهد» ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

و قوله تعالى: **﴿و لا يضارّ كاتب و لا شهيد﴾** قيل: معناه لا يضارّ الكاتب و لا الشاهد، فيكتب هذا خلاف ما يملي، و يشهد هذا بخلاف ما سمع أو يكتمها بالكلية، و هو قول الحسن وقتادة و غيرهما. و قيل: معناه لا يضرّ بهما. قال ابن أبي حاتم: وروي عن عكرمة و مجاهد وطاوس و سعيد بن جبير و الضحاك و عطية ومقاتل ابن حيان و الربيع بن أنس و السدي نحو ذلك، و قوله: **﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾** أي إن خالفتم ما أمرتم به أو فعلتم ما نهيتم عنه، فإنه فسق كائن بكم، أي لازم لكم لا تحيدون عنه، وقوله **﴿واتقوا الله﴾** أي خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره **﴿ويعلمكم الله﴾** كقوله **﴿ياأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾** وكقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و آمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته و يجعل لكم نوراً تمشون به﴾** وقوله: **﴿و الله بكل شيء عليم﴾** أي هو عالم بحقائق الأمور و مصالحها و عواقبها فلا يخفى عليه شيء من الأشياء بل علمه محيط بجميع الكائنات.

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) ﴾

٢٨٣- يقول تعالى: **﴿وإن كنتم على سفر﴾** أي مسافرين و تداينتم إلى أجل مسمى **﴿و لم تجدوا كاتباً﴾** يكتب لكم، قال ابن عباس: أو وجدوه ولم يجدوا قرطاساً أو دواة أو قلماً، فرهان مقبوضة، أي فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة أي في يد صاحب الحق، و قد استدل بقوله: **﴿فرهان مقبوضة﴾** على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض كما هو مذهب الشافعي و الجمهور، واستدل بها آخرون على أنه لا بد أن يكون الرهن مقبوضاً في يد المرتهن، و هو رواية عن الإمام أحمد، و ذهب إليه طائفة، و استدل آخرون من السلف بهذه الآية، على أنه لا يكون الرهن مشروعاً إلا في السفر، قاله مجاهد و غيره، و قد ثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول اللهﷺ توفي و درعه مرهون عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعير رهناً قوتاً لأهله، و تقرير هذه المسائل في كتاب الأحكام الكبير، و لله الحمد و المنة، و به المستعان. و قوله **﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي ائتمن أمانته﴾** روى ابن أبي حاتم بإسناد جيد عن أبي سعيد الخدري أنه قال: هذه نسخت ما قبلها. و قال الشعبي: إذا ائتمن بعضكم بعضاً فلا بأس أن لا تكتبوا أو لا تشهدوا. و قوله: **﴿وليتق الله﴾** يعني المؤتمن. قوله: **﴿و لا تكتموا الشهادة﴾** أي لا تخفوها و تغلوها، ولا تظهروها. قال ابن عباس و غيره: شهادة الزور من أكبر الكبائر وكتمانها كذلك، و لهذا قال **﴿و من يكتمها فإنه آثم قلبه﴾** قال السدي: يعني فاجر قلبه، وهذه كقوله تعالى: **﴿و لا نكتم شهادة الله إنا إذاً لمن الآثمين﴾** وقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين و الأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾** و هكذا قال ههنا **﴿و لا تكتموا الشهادة و من يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾**.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)﴾

٢٨٤- يخبر تعالى أن له ملك السموات و الأرض و ما فيهن و ما بينهن، و أنه المطلع على ما فيهن، لا تخفى عليه الظواهر و لا السرائر و الضمائر وإن دقت و خفيت، و أخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه و ما أخفوه في صدورهم، كما قال تعالى: **﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله و يعلم ما في السموات وما في الأرض و الله علي كل شيء قدير﴾** وقال **﴿يعلم السر وأخفى﴾** والآيات في ذلك كثيرة جداً، و قد أخبر في هذه بمزيد على العلم وهو المحاسبة على ذلك، و لهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة رضي الله عنهم، و خافوا منها، و من محاسبة الله لهم على جليل الأعمال و حقيرها، و هذا من شدة إيمانهم و إيقانهم. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: لما نزلت على رسول اللهﷺ **﴿لله ما في السموات و ما في الأرض و إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء و الله على كل شيء قدير﴾** اشتد ذلك على أصحاب رسول اللهﷺ فأتوا رسول اللهﷺ ثم جثوا على الركب و قالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة و الصيام والجهاد و الصدقة و قد أنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها. فقال رسول اللهﷺ **«أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا و أطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير»** فلما أقر بها القوم و ذلت بها ألسنتهم، أنزل الله في أثرها **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه**

من ربه و المؤمنون كل آمن بالله و ملئكته وكتبه و رسله لا نفرق بين أحد من رسله و قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله : ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت و عليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ إلى آخره. ورواه مسلم منفرداً به مثله و لفظه : فلما فعلوا ذلك نسخها الله ، فأنزل الله ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت و عليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ قال : نعم، ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾ قال : نعم ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ قال : نعم ﴿واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ قال : نعم.

(طريق أخرى) روى ابن جرير عن سالم أن أباه قرأ ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ فدمعت عيناه ، فبلغ صنيعه ابن عباس فقال : يرحم الله أبا عبد الرحمن لقد صنع كما صنع رسول الله ﷺ حين أنزلت ، فنسختها الآية التي بعدها ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ فهذه طرق صحيحة عن ابن عباس ، وقد ثبت عن ابن عمر كما ثبت عن ابن عباس رواه البخاري عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أحسبه ابن عمر ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه﴾ قال : نسختها الآية التي بعدها ، و هكذا روي عن علي و ابن مسعود وكعب الأحبار و الشعبي و النخعي و محمد بن كعب القرظي و عكرمة و سعيد بن جبير و قتادة ، أنها منسوخة بالتي بعدها ، و قد ثبت بما رواه الجماعة في كتبهم الستة عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل» . و في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «قال الله : إذا همّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه ، فإن عملها فاكتبوها سيئة ، و إذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشراً» لفظ مسلم ، زاد في رواية «ولا يهلك على الله إلا هالك» ، و في حديث أبي هريرة قال : جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فسألوه فقالوا : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ، قال «وقد وجدتموه» ؟ قالوا : نعم ، قال : «ذاك صريح الإيمان» . و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿و إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ فإنها لم تنسخ ، و لكن الله إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول : إني أخبركم بما أخفيتم في أنفسكم بما لم يطلع عليه ملائكتي ، فأما المؤمنون فيخبرهم و يغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم ، وهو قوله ﴿يحاسبكم به الله﴾ يقولون : يخبركم ، وأما أهل الشك و الريب فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب ، و هو قوله ﴿فيغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء﴾ وهو قوله ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ أي من الشك و النفاق . وروى ابن جرير عن مجاهد و الضحاك نحوه ، و عن الحسن البصري أنه قال : هي محكمة لم تنسخ ، واختار ابن جرير ذلك واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة ، و أنه تعالى قد يحاسب و يغفر ، و قد يحاسب و يعاقب ، بالحديث الذي رواه عند هذه الآية قائلاً عن صفوان بن محرز قال : بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر وهو يطوف ، إذ عرض له رجل فقال : يا ابن عمر ، ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «يدنو المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنبه فيقول له : هل تعرف كذا؟ فيقول : رب أعرف ، مرتين ، حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ ، قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم ، قال : فيعطى صحيفة حسناته أو كتابه بيمينه ، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الأشهاد ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله

على الظالمين﴾ وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وغيرهما.

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)﴾

٢٨٥- (ذكر الأحاديث الواردة في فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعنا الله بهما)

(الحديث الأول) - روى البخاري عن ابن مسعود و أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ بالآيتين - من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» وقد أخرجه بقية الجماعة.

(الحديث الثاني) - روى الإمام أحمد عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن نبي قبلي» قد رواه ابن مردويه.

(الحديث الثالث) - روى مسلم عن عبد الله، قال: لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السابعة، إليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها، و إليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها، قال ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ قال: فراش من ذهب، قال: أعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطي الصلوات الخمس، و أعطي خواتيم سورة البقرة، و غفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المقحمات.

(الحديث الرابع) - روى أبو عيسى الترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات و الأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرأ بهن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان» وهكذا رواه الحاكم و قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

(الحديث الخامس) - قد تقدم في فضائل الفاتحة عن ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ و عنده جبريل إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال له: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب و خواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته، رواه مسلم و النسائي و هذا لفظه.

فقوله تعالى: **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه﴾** إخباراً عن النبي ﷺ بذلك، وقوله **﴿و المؤمنون﴾** عطف على الرسول، ثم أخبر عن الجميع فقال **﴿كل آمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾** فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، ولا رب سواه، و يصدقون بجميع الأنبياء والرسل و الكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين و الأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارّون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نسخ الجميع بشرع محمد ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين، الذين تقوم الساعة على

شريعته، و لا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين، و قوله **﴿وقالوا سمعنا و أطعنا﴾** أي سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه، و قمنا به وامتثلنا العمل بمقتضاه، **﴿غفرانك ربنا﴾** سؤال للمغفرة و الرحمة واللطف. و قوله **﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾** أي لا يكلف أحداً فوق طاقته، و هذا من لطفه تعالى بخلقه و رأفته بهم و إحسانه إليهم، و هذه هي الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة في قوله **﴿وإن تبدوا مافي أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾** أي هو وإن حاسب و سأل، لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه، فأما ما لا يملك دفعه من وسوسة النفس و حديثها، فهذا لا يكلف به الإنسان، و كراهية الوسوسة السيئة من الإيمان، وقوله **﴿لها ما كسبت﴾** أي من خير **﴿وعليها ما اكتسبت﴾** أي من شر و ذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف. ثم قال تعالى مرشداً عباده إلى سؤاله، و قد تكفل لهم بالإجابة كما أرشدهم و علمهم أن يقولوا **﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾** أي إن تركنا فرضاً على جهة النسيان، أو فعلنا حراماً كذلك، أو أخطأنا أي الصواب في العمل جهلاً منا بوجهه الشرعي. و قد تقدم في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، قال «قال الله: نعم» و لحديث ابن عباس، قال الله «قد فعلت». و روى ابن ماجه في سننه و ابن حبان عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ و النسيان و ما استكرهوا عليه». و قوله **﴿ربنا و لا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾** أي لا تكلفنا من الأعمال الشاقة و إن أطقناها كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال و الآصار التي كانت عليهم، التي بعثت نبيك محمداً ﷺ، نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به من الدين الحنيفي السهل السمح، و قد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال «قال الله: نعم»، و عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ، قال «قال الله قد فعلت». وجاء في الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة». وقوله **﴿ربنا و لاتحملنا ما لا طاقة لنا به﴾** أي من التكليف والمصائب و البلاء لا تبتلنا بما لا قبل لنا به، و قد قال مكحول في قوله **﴿ربنا ولاتحملنا ما لا طاقة لنا به﴾** قال: العزبة و الغلمة، رواه ابن أبي حاتم، قال الله: نعم، وفي الحديث الآخر: قال الله: قد فعلت. و قوله **﴿واعف عنا﴾** أي فيما بيننا و بينك مما تعلمه من تقصيرنا و زللنا **﴿واغفر لنا﴾** أي فيما بيننا و بين عبادك فلا تظهرهم على مساوينا و أعمالنا القبيحة **﴿وارحمنا﴾** أي فيما يستقبل فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر، ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه و بينه، و أن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره. و قد تقدم في الحديث أن الله قال: نعم، و في الحديث الآخر: قال الله: قد فعلت. و قوله **﴿أنت مولانا﴾** أي أنت ولينا و ناصرنا، وعليك توكلنا، و أنت المستعان، و عليك التكلان، ولا حول لنا و لا قوة إلا بك، **﴿فانصرنا على القوم الكافرين﴾** أي الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك ورسالة نبيك، و عبدوا غيرك وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا و الآخرة، قال الله: نعم. و في الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس، قال الله: قد فعلت.

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة البقرة.



هي مدنية، لأن صدرها إلى ثلاث و ثمانين آية منها نزل في وفد نجران و كان قدومهم في سنة تسع من الهجرة، كما سيأتي بيان ذلك عند تفسير آية المباهلة منها، إن شاء الله تعالى. وقد ذكرنا ما ورد في فضلها مع سورة البقرة أول البقرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ (١) اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) ﴾

١، ٢- قد ذكرنا الحديث الوارد في اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ و ﴿الم الله لا إلا هو الحي القيوم﴾ عند تفسير آية الكرسي و قد تقدم الكلام على قوله ﴿الم﴾ في أول سورة البقرة بما يغني عن إعادته، وتقدم الكلام على قوله: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ في تفسير آية الكرسي.

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) ﴾

٣- وقوله تعالى: ﴿نزل عليك الكتاب بالحق﴾ يعني نزل عليك القرآن يا محمد بالحق، أي شهيداً، وقوله: ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ أي من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله الأنبياء، فهي تصدقه بما أخبرت به، وبشرت في قديم الزمان، و هو يصدقها، لأنه طابق ما أخبرت به، وبشرت من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن العظيم عليه. و قوله: ﴿وأنزل التوراة﴾ أي على موسى بن عمران، ﴿والإنجيل﴾ أي على عيسى ابن مريم عليهما السلام.

﴿ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤) ﴾

٤- ﴿من قبل﴾ أي من قبل هذا القرآن ﴿هدى للناس﴾ أي في زمانهما. ﴿وأنزل الفرقان﴾ وهو الفارق بين الهدى و الضلال، و الحق و الباطل، والغي و الرشاد، بما يذكره الله تعالى من الحجج و البينات و الدلائل الواضحات، و البراهين القاطعات، و يبينه و يوضحه و يفسره و يقرره ويرشد إليه وينبه عليه من ذلك. و قال قتادة والربيع بن أنس ﴿الفرقان﴾ ههنا القرآن. و اختار ابن جرير أنه مصدر ههنا لتقدم ذكر القرآن في قوله: ﴿نزل عليك الكتاب بالحق﴾ وهو القرآن. وقوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ أي جحدوا بها وأنكروها وردوها بالباطل، ﴿لهم عذاب شديد﴾ أي يوم القيامة، ﴿والله عزيز﴾ أي منيع الجناب عظيم السلطان، ﴿ذو انتقام﴾ أي ممن كذب بآياته و خالف رسله الكرام و أنبياءه العظام.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦) ﴾

٥، ٦- يخبر تعالى أنه يعلم غيب السماء و الأرض، لايخفى عليه شيء من ذلك، **﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾** أي يخلقكم في الأرحام كما يشاء من ذكر و أنثى، وحسن و قبيح، وشقي وسعيد، **﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾** أي هو الذي خلق، وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له، و له العزة التي لا ترام، والحكمة والأحكام. وهذه الآية فيها تعريض، بل تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق، كما خلق الله سائر البشر، لأن الله صوّره في الرحم و خلقه كما يشاء، فكيف يكون إلهاً كما زعمته النصارى، عليهم لعائن الله، و قد تقلب في الأحشاء و تنقل من حال إلى حال؟ كما قال تعالى: **﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾**.

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٧) رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩) ﴾

٧- يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات، هن أم الكتاب، أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد، و منه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه وحكّم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى و من عكس انعكس ولهذا قال تعالى **﴿هن أم الكتاب﴾** أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه **﴿و أخر متشابهات﴾** أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظ و التركيب لا من حيث المراد. وقد اختلفوا في المحكم و المتشابه فروي عن السلف عبارات كثيرة فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: المحكمات ناسخة وحلاله وحرامه و أحكامه وحدوده و فرائضه وما يؤمر به ويعمل به، وعن ابن عباس أيضاً أنه قال: المحكمات قوله تعالى: **﴿قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً﴾** والآيات بعدها. وقوله تعالى: **﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾** إلى ثلاث آيات بعدها ورواه ابن أبي حاتم وحكاه عن سعيد بن جبير به. وقيل في المتشابهات: المنسوخة و المقدم والمؤخر والأمثال فيه و الأقسام وما يؤمن به ولا يعمل به، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وقيل هي الحروف المقطعة في أوائل السور قاله مقاتل بن حيان، و عن مجاهد: المتشابهات يصدق بعضها بعضاً وهذا إنما هو في تفسير قوله **﴿كتاباً متشابهاً مثاني﴾** هناك ذكروا أن المتشابه هو الكلام الذي يكون في سياق واحد، والمثاني هو الكلام في شيئين متقابلين كصفة الجنة وصفة النار و ذكر حال الأبرار وحال الفجار ونحو ذلك. وأما ههنا فالمتشابه هو الذي يقابل المحكم، قال: **﴿منه آيات محكمات﴾** فهن حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم الباطل ليس لهن تصريف عما وضعن عليه، قال: و المتشابهات في الصدق ليس لهن تصريف و تحريف وتأويل، ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم في الحلال والحرام ألا يصرفن إلى الباطل ويحرفن عن الحق. و لهذا قال تعالى **﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ﴾** أي وخروج عن الحق إلى الباطل **﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾** أي إنما

يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة و ينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه لأنه دافع لهم وحجة عليهم ، و لهذا قال الله تعالى: ﴿**ابتغاء الفتنة**﴾ أي الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن ، وهو حجة عليهم لا لهم ، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله و كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه و تركوا الاحتجاج بقوله ﴿**إن هو إلا عبد أنعمنا عليه**﴾ وبقوله ﴿**إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**﴾ وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله و عبد و رسول من رسل الله .

وقوله تعالى ﴿**وابتغاء تأويله**﴾ أي تحريفه على ما يريدون ، و قال مقاتل بن حيان والسدي : يبتغون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من القرآن ، وقد روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : قرأ رسول اللهﷺ ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب و أخر متشابهات**﴾ إلى قوله ﴿**أولوا الألباب**﴾ فقال : «فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم» ، وقد روى هذا الحديث البخاري و مسلم .

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة يحدث النبيﷺ في قوله تعالى : ﴿**فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه**﴾ قال «هم الخوارج» . وفي قوله تعالى: ﴿**يوم تبيض وجوه و تسود وجوه**﴾ قال «هم الخوارج» وقد رواه ابن مردويه ، وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفاً من كلام الصحابي ، ومعناه صحيح ، فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج ، و كان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم النبيﷺ غنائم حنين ، فكأنهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة ، ففاجؤوه بهذه المقالة ، فقال قائلهم وهو ذو الخويصرة ـ بقر الله خاصرته ـ : اعدل فإنك لم تعدل ، فقال له رسول اللهﷺ «لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل ، أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني» ، فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب ـ وفي رواية خالد بن الوليد ـ رسول الله في قتله ، فقال «دعه فإنه يخرج من ضئضىء هذا ـ أي من جنسه ـ قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم» ثم كان ظهورهم أيام علي بن أبي طالبرضي الله عنه و قتلهم بالنهروان ، ثم تشعبت منهم شعوب ، وقبائل و آراء ، و أهواء ، و مقالات ، ونحل كثيرة منتشرة ، ثم نبغت القدرية ، ثم المعتزلة ، ثم الجهمية ، وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوقﷺ في قوله «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة» قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : «من كان على ما أنا عليه و أصحابي» أخرجه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة . وقوله تعالى ﴿**وما يعلم تأويله إلا الله**﴾ اختلف القراء في الوقف ههنا ، فقيل : على الجلالة ، كما تقدم عن ابن عباسرضي الله عنه أنه قال : التفسير على أربعة أنحاء : فتفسير لا يعذر أحد في فهمه ، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها ، و تفسير يعلمه الراسخون في العلم ، و تفسير لا يعلمه إلا الله ، ويروى هذا القول عن عائشة و عروة وأبي الشعثاء و أبي نهيك و غيرهم . وروى عبد الرزاق عن ابن عباس أنه كان يقرأ : (وما يعلم تأويله إلا الله ، ويقول الراسخون آمنا به) وكذا رواه ابن جرير عن عمر بن عبد العزيز و مالك ابن أنس أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله ، وحكى ابن جرير أن في قراءة عبد الله بن مسعود : (إن تأويله إلا عند الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به) وكذا عن أبي بن كعب ، واختار ابن جرير هذا

القول. ومنهم من يقف على قوله: ﴿والراسخون في العلم﴾، وتبعهم كثير من المفسرين و أهل الأصول، وقالوا: الخطاب بما لا يفهم بعيد، و قد روي عن ابن عباس أنه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله، وقال مجاهد: والراسخون في العلم يعلمون تأويله و يقولون آمنا به، و كذا قال الربيع بن أنس، و قال محمد ابن جعفر بن الزبير: ﴿وما يعلم تأويله﴾ الذي أراد ما أراد ﴿إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به﴾، ثم ردوا تأويل المتشابهات على ما عرفوا من تأويل المحكمة التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد، فاتسق بقولهم الكتاب وصدق بعضه بعضاً، فنفذت الحجة، و ظهر به العذر، وزاح به الباطل، و دفع به الكفر، و في الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لابن عباس، فقال «اللهم فقهه في الدين و علمه التأويل»

ومن العلماء من فصل في هذا المقام وقال: التأويل يطلق، ويراد به في القرآن معنيان: أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشيء و ما يؤول أمره إليه، و منه قوله تعالى: ﴿وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾ وقوله ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله﴾ أي حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا الله عز وجل، ويكون قوله ﴿والراسخون في العلم﴾ مبتدأ و﴿يقولون آمنا به﴾ خبره، و أما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر، وهو التفسير و البيان و التعبير عن الشيء كقوله ﴿نبئنا بتأويله﴾ أي بتفسيره، فإن أريد به هذا المعنى، فالوقف على ﴿والراسخون في العلم﴾ لأنهم يعلمون و يفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا يكون قوله: ﴿يقولون آمنا به﴾ حالاً منهم، و ساغ هذا، و أن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه، كقوله ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم و أموالهم - إلى قوله - يقولون ربنا اغفرلنا و لإخواننا﴾ الآية، و قوله تعالى: ﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾ أي وجاءت الملائكة صفوفاً صفوفاً. وقوله إخباراً عنهم ﴿يقولون آمنا به﴾، أي المتشابه، ﴿كل من عند ربنا﴾ أي الجميع من المحكم، و المتشابه حق وصدق، و كل واحد منهما يصدق الآخر و يشهد له، لأن الجميع من عند الله و ليس شيء من عند الله بمختلف و لا متضاد، لقوله: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ أي إنما يفهم ويعقل و يتدبر المعاني على وجهها أولوا العقول السليمة و الفهوم المستقيمة.

وروى الإمام أحمد عن ابن عمرو قال: سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارؤون، فقال «إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما أنزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا به، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه».

وقد روى أبو يعلى الموصلي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «نزل القرآن على سبعة أحرف، و المراء في القرآن كفر - قالها ثلاثاً - ما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه جل جلاله» وهذا إسناد صحيح، وروى ابن المنذر في تفسيره عن نافع بن يزيد قال: يقال: الراسخون في العلم المتواضعون لله، المتذللون لله، في مرضاته، لا يتعاظمون على من فوقهم ولا يحقرون من دونهم.

٨- ثم قال تعالى مخبراً أنهم دعوا ربهم قائلين ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾، أي لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه و لا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن، و لكن ثبتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم، ﴿وهب لنا من لدنك﴾ أي من عندك ﴿رحمة﴾ تثبت بها قلوبنا و تجمع بها شملنا،

وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً، ﴿إنك أنت الوهاب﴾. وروى ابن مردويه عن أسماء بنت يزيد بن السكن: إن رسول الله ﷺ كان يكثر من دعائه «اللهم مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك» قالت قلت: يارسول الله، وإن القلب ليتقلب؟ قال: «نعم، ما خلق الله من بني آدم من بشر إلا قلبه بين إصبعين من أصابع الله عزوجل، فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه» فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب. وهكذا رواه ابن جرير، ولكن أصله ثابت في الصحيحين وغيرهما من طرق كثيرة بدون زيادة ذكر هذه الآية الكريمة، وروى عبد الرزاق عن أبي عبد الله الصنابحي أنه صلى وراء أبي بكر الصديق رضي الله عنه المغرب، فقرأ أبو بكر في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورتين من قصار المفصل، وقرأ في الركعة الثالثة، قال: فدنوت منه حتى إن ثيابي لتكاد تمس ثيابه، فسمعته يقرأ بأم القرآن وهذه الآية: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ الآية. قال أبو عبيد: وأخبرني عبادة بن نسي أنه كان عند عمر بن عبد العزيز في خلافته، فقال عمر لقيس: كيف أخبرتني عن أبي عبد الله؟ قال عمر: فما تركناها منذ سمعناها منه وإن كنت قبل ذلك لعلى غير ذلك، فقال له رجل: على أي شيء كان أمير المؤمنين قبل ذلك، قال: كنت أقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾، وقوله ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه﴾ أي يقولون في دعائهم: إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم، وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه، وتجزي كلاً بعمله وما كان عليه في الدنيا من خير وشر.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) ﴾

١٠- يخبر تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله، ولا بمنجيهم من عذابه وأليم عقابه، كما قال تعالى: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ وقال تعالى: ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾، وقال ههنا ﴿إن الذين كفروا﴾ أي بآيات الله، وكذبوا رسله، وخالفوا كتابه، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه ﴿لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار﴾ أي حطبها الذي تسجر به، وتوقد به، كقوله: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ الآية.

﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) ﴾

١١- ﴿كدأب آل فرعون﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: كصنيع آل فرعون، وكذا روي عن عكرمة ومجاهد وأبي مالك والضحاك وغير واحد، ومنهم من يقول: كسنة آل فرعون، وكفعل آل فرعون، وكشبه آل فرعون، والألفاظ متقاربة، والدأب بالتسكين والتحريك كنهر ونهر، هو الصنيع والحال والشأن والأمر والعادة، كما يقال لا يزال هذا دأبي ودأبك، والمعنى في الآية أن الكافرين لا تغني عنهم الأموال ولا الأولاد، بل يهلكون ويعذبون كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسل فيما جاؤوا به من آيات الله وحججه، ﴿والله شديد العقاب﴾ أي شديد الأخذ أليم العذاب لا يمتنع منه أحد ولا يفوته شيء، بل هو الفعال لما يريد الذي قد غلب كل شيء وذلّ له كل شيء، لا إله غيره ولا رب سواه.

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ﴾

١٢- يقول تعالى: قل يامحمد للكافرين **﴿ستغلبون﴾** أي في الدنيا، **﴿و تحشرون﴾** أي يوم القيامة **﴿إلى جهنم و بئس المهاد﴾** و قد ذكر محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة، أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب، و رجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع، و قال «يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب الله قريشاً». فقالوا: يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك و الله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، و أنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله في ذلك قوله **﴿قل للذين كفروا ستغلبون و تحشرون إلى جهنم و بئس المهاد- إلى قوله - لعبرة لأولي الأبصار﴾**.

١٣- و لهذا قال تعالى: **﴿قد كان لكم آية﴾** أي قد كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم **﴿آية﴾** أي دلالة على أن الله معز دينه، و ناصر رسوله، و مظهر كلمته، و معل أمره **﴿في فئتين﴾** أي طائفتين **﴿التقتا﴾** أي للقتال **﴿فئة تقاتل في سبيل الله و أخرى كافرة﴾** وهم مشركو قريش يوم بدر، و قوله: **﴿يرونهم مثليهم رأي العين﴾** قال بعض العلماء فيما حكاه ابن جرير: يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليهم في العدد رأي أعينهم، أي جعل الله ذلك فيما رأوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم، و هذا لا إشكال عليه إلا من جهة واحدة، و هي أن المشركين بعثوا عمر بن سعد يومئذ قبل القتال يحزر لهم المسلمين، فأخبرهم بأنهم ثلثمائة يزيدون قليلاً أو ينقصون، وهكذا كان الأمر. كانوا ثلثمائة و بضعة عشر رجلاً، ثم لما وقع القتال أمدهم الله بألف من خواص الملائكة وساداتهم.

و القول الثاني: أن المعنى في قوله تعالى: **﴿يرونهم مثليهم رأي العين﴾** أي ترى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثليهم، أي ضعفيهم في العدد، و مع هذا نصرهم الله عليهم، و كأن هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية، ولكنه خلاف المشهور عند أهل التواريخ و السير و أيام الناس، و خلاف المعروف عند الجمهور من أن المشركين كانوا ما بين تسعمائة إلى ألف، لكن وجه ابن جرير هذا و جعله صحيحاً كما تقول: عندي ألف، و أنا محتاج إلى مثليها، و تكون محتاجاً إلى ثلاثة آلاف، كذا قال، و على هذا فلا إشكال، لكن بقي سؤال آخر و هو وارد على القولين، و هو أن يقال: ما الجمع بين هذه الآية و بين قوله تعالى في قصة بدر **﴿و إذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً و يقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾** فالجواب أن هذا كان في حالة و الآخر كان في حالة أخرى، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى: **﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا﴾** الآية، قال: هذا يوم بدر، و قد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً، وذلك قوله تعالى: **﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً و يقللكم في أعينهم﴾** الآية. فعندما عاين كل من الفريقين الآخر، رأى المسلمون المشركين مثليهم، أي أكثر منهم بالضعف ليتوكلوا و يتوجهوا و يطلبوا الإعانة من ربهم عز وجل، و رأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب و الخوف و الجزع و الهلع، ثم لما حصل التصاف و التقى الفريقان، قلل الله هؤلاء في أعين هؤلاء، و هؤلاء في أعين هؤلاء، ليقدم كل منهما

على الآخر ﴿**ليقضي الله أمراً كان مفعولا**﴾ أي ليفرق بين الحق و الباطل، فيظهر كلمة الإيمان على الكفر والطغيان، و يعز المؤمنين و يذل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿**و لقد نصركم الله ببدر و أنتم أذلة**﴾ و قال ههنا ﴿**والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار**﴾ أي إن في ذلك لمعتبراً لمن له بصيرة و فهم يهتدي به إلى حكمة الله و أفعاله و قدره الجاري بنصره عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا و يوم يقوم الأشهاد.

﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)** ﴾

١٤- يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء و البنين، فبدأ بالنساء، لأن الفتنة بهن أشد، كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء» فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف و كثرة الأولاد، فهذا مطلوب مرغوب فيه، مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج و الاستكثار منه، و أن خير هذه الأمة من كان أكثرها نساء، و قوله ﷺ «الدنيا متاع، و خير متاعها المرأة الصالحة، إن نظر إليها سرته، و إن أمرها أطاعته و إن غاب عنها حفظته في نفسها و ماله» و قوله في الحديث الآخر «حبب إليّ النساء و الطيب، و جعلت قرة عيني في الصلاة». و حب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة، فهو داخل في هذا، و تارة يكون لتكثير النسل و تكثير أمة محمد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له، فهذا محمود ممدوح كما ثبت في الحديث «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة» و حب المال كذلك تارة يكون للفخر و الخيلاء و التكبر على الضعفاء و التجبر على الفقراء، فهذا مذموم، وتارة يكون للنفقة في القربات و صلة الأرحام و القرابات و وجوه البر و الطاعات، فهذا ممدوح محمود شرعاً و قد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال، و حاصلها أنه المال الجزيل كما قاله الضحاك و غيره، وقيل: ألف دينار، و قيل: ألف و مائتا دينار، و قيل: اثنا عشر ألفاً، و قيل: أربعون ألفاً، و قيل: ستون ألفاً، وقيل: سبعون ألفاً، و قيل: ثمانون ألفاً، و قيل غير ذلك، و روى ابن جرير عن معاذ بن جبل و ابن عمر، وحكاه ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة و أبي الدرداء أنهم قالوا: القنطار ألف و مائتا أوقية، و روى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري قال: القنطار ملء مسك الثور ذهباً.

و حب **الخيل على ثلاثة أقسام**: تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله متى احتاجوا إليها غزوا عليها، فهؤلاء يثابون، و تارة تربط فخراً و نواء لأهل الإسلام، فهذه على صاحبها وزر، و تارة للتعفف و اقتناء نسلها، و لم ينس حق الله في رقابها فهذه لصاحبها ستر، كما سيأتي الحديث بذلك إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿**و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل**﴾ الآية، و أما المسومة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: المسومة الراعية، و المطهمة الحسان، و كذا روي عن مجاهد و عكرمة و سعيد بن جبير و عبد الرحمن ابن عبد الله بن أبزى و السدي و الربيع بن أنس و أبي سنان و غيرهم، و قال مكحول: المسومة الغرة والتحجيل وقيل: غير ذلك، و قد روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ليس من فرس

عربي إلا يؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين يقول: اللهم إنك خولتني من خولتني من بني آدم، فا جعلني من أحب ماله و أهله إليه، أو أحب أهله و ماله إليه» و قوله تعالى ﴿و الأنعام﴾ يعني الإبل و البقر و الغنم، ﴿والحرث﴾ يعني الأرض المتخذة للغراس و الزراعة، ثم قال تعالى: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ أي إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة ﴿و الله عنده حسن المآب﴾ أي حسن المرجع و الثواب.

١٥- و لهذا قال تعالى: ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم﴾ أي قل يا محمد للناس: أؤخبركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها و نعيمها الذي هو زائل لا محالة، ثم أخبر عن ذلك فقال: ﴿للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تنخرق بين جوانبها و أرجائها الأنهار من أنواع الأشربة من العسل واللبن و الخمر و الماء و غير ذلك مما لا عين رأت و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبد الآباد لا يبغون عنها حولاً، ﴿و أزواج مطهرة﴾ أي من الدنس و الخبث و الأذى و الحيض والنفاس و غير ذلك مما يعتري نساء الدنيا ﴿و رضوان من الله﴾ أي يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبداً، و لهذا قال تعالى في الآية الأخرى التي في براءة ﴿و رضوان من الله أكبر﴾ أي أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم، ثم قال تعالى: ﴿و الله بصير بالعباد﴾ أي يعطي كلاً بحسب ما يستحقه من العطاء.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾﴾

١٦- يصف تبارك و تعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل، فقال تعالى: ﴿الذين يقولون ربنا إننا آمنا﴾ أي بك و بكتابك و برسولك، ﴿فاغفر لنا ذنوبنا﴾ أي بإيماننا بك و بماشرعته لنا، فاغفرلنا ذنوبنا و تقصيرنا من أمرنا بفضلك و رحمتك، ﴿و قنا عذاب النار﴾.

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

١٧- ﴿الصابرين﴾ أي في قيامهم بالطاعات و تركهم المحرمات، ﴿و الصادقين﴾ فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمونه من الأعمال الشاقة، ﴿و القانتين﴾ و القنوت الطاعة و الخضوع ﴿و المنفقين﴾ أي من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات، و صلة الأرحام و القرابات، و سد الخلات، و مواساةذوي الحاجات ﴿و المستغفرين بالأسحار﴾ دلّ على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار، و قد قيل: إن يعقوب ﷺ، لما قال لبنيه ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾ إنه أخرهم إلى وقت السحر و ثبت في الصحيحين و غيرهما من المسانيد والسنن من غير وجه عن جماعة من الصحابة، إن رسول الله ﷺ، قال «ينزل الله تبارك و تعالى في كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟» الحديث، و قد أفرد الحافظ أبو الحسن الدار قطني في ذلك جزءً على حدة. فرواه من طرق متعددة، و في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «مِنْ كلِّ الليل قد أوتر رسول الله ﷺ من أوله وأوسطه و آخره، فانتهى وتره إلى السَّحَر»، و كان عبد الله بن عمر يصلي من الليل، ثم يقول: يانافع، هل جاء السحر؟ فإذا قال: نعم، أقبل على الدعاء و الاستغفار حتى يصبح، رواه ابن أبي حاتم.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

١٨- شهد تعالى و كفى به شهيداً و هو أصدق الشاهدين و أعدلهم ، و أصدق القائلين ﴿أنه لا إله إلا هو﴾ أي المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق ، و أن الجميع عبيده و خلقه و فقراء إليه ، و هو الغني عما سواه ، كما قال تعالى : ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾ الآية ، ثم قرن شهادة ملائكته و أولي العلم بشهادته ، فقال ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو و الملائكة و أولو العلم﴾ و هذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام ﴿قائماً بالقسط﴾ منصوب على الحال و هو في جميع الأحوال كذلك ﴿لا إله إلا هو﴾ تأكيد لما سبق ، ﴿العزيز الحكيم﴾ العزيز الذي لا يرام جنابه عظمة و كبرياء ، الحكيم في أقواله و أفعاله و شرعه و قدره .

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

١٩- ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام ، و هو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد ﷺ الذي سدّ جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ ، فمن لقي الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل ، كما قال تعالى : ﴿و من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ الآية ، و قال في هذه الآية مخبراً بانحصار الدين المتقبل عنده في الإسلام ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ ، ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب الأول ، إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة بإرسال الرسل إليهم و إنزال الكتب عليهم ، فقال : ﴿و ما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ أي بغى بعضهم على بعض فاختلفوا في الحق لتحاسدهم و تباغضهم و تدابرهم ، فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله و أفعاله و إن كانت حقاً ، ثم قال تعالى : ﴿و من يكفر بآيات الله﴾ أي من جحد ما أنزل الله في كتابه ﴿فإن الله سريع الحساب﴾ أي فإن الله سيجازيه على ذلك و يحاسبه على تكذيبه ، و يعاقبه على مخالفته كتابه .

﴿فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

٢٠- ﴿فإن حاجوك﴾ أي جادلوك في التوحيد ﴿فقل أسلمت وجهي لله و من اتبعن﴾ أي فقل : أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له و لا ند له ، و لا ولد له ، و لا صاحبة له ، ﴿و من اتبعن﴾ أي على ديني يقول كمقالتي ، كما قال تعالى : ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا و من اتبعني﴾ الآية ، ثم قال تعالى آمراً لعبده و رسوله محمد ﷺ أن يدعو إلى طريقته و دينه و الدخول في شرعه و ما بعثه الله به ، الكتابيين من الملتين و الأميين من المشركين ، فقال تعالى : ﴿فقل للذين أوتوا الكتاب و الأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا و إن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾ أي و الله عليه حسابهم و إليه مرجعهم و مآبهم ، و هو الذي يهدي من يشاء و يضل من يشاء و له الحكمة البالغة ، و الحجة الدامغة و لهذا قال تعالى : ﴿و الله بصير بالعباد﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة ، و هو الذي ﴿لا يسأل عما يفعل و هم يسألون﴾ و ما ذلك إلا لحكمته

ورحمته ، و هذه الآية و أمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله و سلامه عليه إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة ، و كما دل عليه الكتاب و السنة في غير ما آية و حديث ، فمن ذلك قوله تعالى: **﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾** و قال تعالى: **﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾** وفي الصحيحين و غيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق و طوائف بني آدم من عربهم و عجمهم كتابيهم و أميهم امتثالاً لأمر الله له بذلك ، و قد روى عبد الرزاق عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال «والذي نفسي بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة : يهودي و لا نصراني و مات و لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار» رواه مسلم وقال ﷺ «بعثت إلى الأحمر والأسود» ، و قال «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة و بعثت إلى الناس عامة» .

و روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه : أن غلاماً يهودياً كان يضع للنبي ﷺ وضوءه ، و يناوله نعليه ، فمرض ، فأتاه النبي ﷺ فدخل عليه و أبوه قاعد عند رأسه فقال النبي ﷺ «يافلان قل لا إله إلا الله» فنظر إلى أبيه فسكت أبوه ، فأعاد عليه النبي ﷺ ، فنظر إلى أبيه ، فقال أبوه : أطع أبا القاسم ، فقال الغلام : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فخرج النبي ﷺ و هو يقول «الحمد لله الذي أخرجه بي من النار» رواه البخاري في الصحيح ، إلى غير ذلك من الآيات و الأحاديث .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) ﴾

٢١- هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب بما ارتكبوه من المآثم و المحارم في تكذيبهم بآيات الله ، قديماً و حديثاً ، التي بلغتهم إياها الرسل استكباراً عليهم ، و عناداً لهم ، و تعاظماً على الحق ، و استنكافاً عن اتباعه ، و مع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه بغير سبب و لا جريمة منهم إليهم ، إلا لكونهم دعوهم إلى الحق **﴿ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾** و هذا هو غاية الكبر ، كما قال النبي ﷺ «الكبر بطر الحق وغمط الناس» ، و لهذا لما أن تكبروا عن الحق و استكبروا على الخلق ، قابلهم الله على ذلك بالذلة و الصغار في الدنيا ، و العذاب المهين في الآخرة فقال تعالى: **﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾** أي موجع مهين .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٢) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (٢٥) ﴾

٢٢ ، ٢٣- يقول تعالى منكراً على اليهود و النصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم اللذين بأيديهم ، و هما التوراة و الإنجيل ، و إذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد ﷺ ، تولوا وهم معرضون عنهما ، و هذا في غاية ما يكون من ذمهم و التنويه بذكرهم بالمخالفة و العناد .

٢٤- ثم قال تعالى : **﴿ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات﴾** أي إنما حملهم و جرأهم علي مخالفة

الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام عن كل ألف سنة في الدنيا يوماً و قد تقدم تفسير ذلك في سورة البقرة. ثم قال تعالى: ﴿و غرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ أي ثبتهم على دينهم الباطل، ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياماً معدودات، و هم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم و اختلقوه و لم ينزل الله به سلطاناً.

٢٥- قال الله تعالى متهددا لهم و متوعداً ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾ أي كيف يكون حالهم و قد افتروا على الله، و كذبوا رسله، وقتلوا أنبياءه، و العلماء من قومهم، الآمرين بالمعروف، و الناهين عن المنكر، و الله تعالى سائلهم عن ذلك كله و محاسبهم عليه و مجازيهم به، و لهذا قال تعالى: ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾ أي لا شك في وقوعه و كونه، ﴿و وفيت كل نفس ما كسبت و هم لا يظلمون﴾.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)﴾

٢٦- يقول تبارك و تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد معظماً لربك و شاكراً له و متوكلا عليه ﴿اللهم مالك الملك﴾ أي لك الملك كله ﴿تؤتي الملك من تشاء و تنزع الملك ممن تشاء و تعز من تشاء و تذل من تشاء﴾ أي أنت المعطي، وأنت المانع، و أنت الذي ما شئت كان، و ما لم تشأ لم يكن، و في هذه الآية تنبيه و إرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ و هذه الأمة، لأن الله تعالى حول النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي الأمي المكي، خاتم الأنبياء على الإطلاق، و رسول الله إلى جميع الثقلين: الإنس و الجن، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله، و خصه بخصائص لم يعطها نبياً من الأنبياء، و لا رسولاً من الرسل في العلم بالله وشريعته، و اطلاعه على الغيوب الماضية و الآتية، و كشفه له عن حقائق الآخرة، و نشر أمته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها، و إظهار دينه و شرعه على سائر الأديان و الشرائع، فصلوات الله و سلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ما تعاقب الليل و النهار. و لهذا قال تعالى: ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ الآية، أي أنت المتصرف في خلقك، الفعال لما تريد، كما رد تعالى على من يحكم عليه في أمره حيث قال ﴿و قالوا لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾، قال الله رداً عليهم حيث ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ الآية، أي نحن نتصرف فيما خلقنا كما نريد بلا ممانع و لا مدافع، و لنا الحكمة البالغة، و الحجة التامة في ذلك، و هكذا يعطي النبوة لمن يريد، كما قال تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ و قال تعالى: ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ الآية.

٢٧- و قوله تعالى: ﴿تولج الليل في النهار و تولج النهار في الليل﴾ أي تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا، فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان، ثم يعتدلان. و هكذا في فصول السنة ربيعاً و صيفاً وخريفاً وشتاء، و قوله تعالى: ﴿و تخرج الحي من الميت و تخرج الميت من الحي﴾ أي تخرج الزرع من الحب، و الحب من الزرع، و النخلة من النواة، و النواة من النخلة، و المؤمن من الكافر، و الكافر من المؤمن، والدجاجة من البيضة، و البيضة من الدجاجة، و ما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء ﴿و ترزق من تشاء بغير

حساب﴾ أي تعطي من شئت من المال ما لا يعد و لا يقدر على إحصائه، و تقتر على آخرين لما لك في ذلك من الحكمة والإرادة و المشيئة و العدل.

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) ﴾

٢٨- نهى تبارك و تعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين، و أن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين، ثم توعد على ذلك، فقال تعالى: **﴿و من يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾** أي و من يرتكب نهي الله في هذا، فقد برئ من الله، كما قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي و عدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة** - إلى أن قال - **و من يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾**، و قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبيناً﴾** و قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود و النصارى أولياء بعضهم أولياء بعض و من يتولهم منكم فإنه منهم﴾** الآية، و قال تعالى بعد ذكر موالاة المؤمنين من المهاجرين و الأنصار و الأعراب **﴿و الذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض و فساد كبير﴾**، و قوله تعالى: **﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾** أي إلا من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه و نيته، كما قال البخاري عن أبي الدرداء: أنه قال: «إنا لنكشر في وجوه أقوام و قلوبنا تلعنهم». و قال ابن عباس: ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان، وكذا قال أبو العالية و أبو الشعثاء و الضحاك و الربيع بن أنس. و يؤيد ما قالوه قول الله تعالى: **﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره و قلبه مطمئن بالإيمان﴾** الآية. و قال البخاري: قال الحسن: التقية إلى يوم القيامة.

ثم قال تعالى: **﴿و يحذركم الله نفسه﴾** أي يحذركم نقمته في مخالفته وسطوته و عذابه، لمن والى أعداءه وعادى أولياءه. ثم قال تعالى: **﴿و إلى الله المصير﴾** أي إليه المرجع و المنقلب ليجازي كل عامل بعمله.

﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) ﴾

٢٩- يخبر تبارك و تعالى عباده أنه يعلم السرائر و الضمائر و الظواهر، و أنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال و الأزمان و الأيام و اللحظات و جميع الأوقات، و جميع ما في الأرض والسموات لا يغيب عنه مثقال ذرة، و لا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض و البحار و الجبال، **﴿و الله على كل شيء قدير﴾** أي و قدرته نافذة في جميع ذلك، و هذا تنبيه منه لعباده على خوفه و خشيته لئلا يرتكبوا ما نهى عنه و ما يبغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، و هو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، و إن أنظر من أنظر منهم، فإنه يهمل، ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر.

٣٠- و لهذا قال بعد هذا **﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾** الآية، يعني يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير و من شر، كما قال تعالى **﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم و أخر﴾** فما رأى من أعماله حسناً

سره ذلك و أفرحه، و ما رأى من قبيح ساءه و غاظه و ود لو أنه تبرأ منه، و أن يكون بينهما أمد بعيد، كما يقول لشيطانه الذي كان مقروناً به في الدنيا، و هو الذي جرأه على فعل السوء **﴿يا ليت بيني و بينك بُعد المشرقين فبئس القرين﴾**، ثم قال تعالى مؤكداً و مهدداً و متوعداً **﴿و يحذركم الله نفسه﴾** أي يخوفكم عقابه، ثم قال جل جلاله مرجيا لعباده لئلا ييئسوا من رحمته و يقنطوا من لطفه **﴿و الله رؤوف بالعباد﴾** قال الحسن البصري: من رأفته بهم حذرهم نفسه، و قال غيره: أي رحيم بخلقه يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم، و دينه القويم وأن يتبعوا رسوله الكريم.

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) ﴾

٣١- هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، و ليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي، و الدين النبوي في جميع أقواله و أفعاله و أحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ، أنه قال «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» و لهذا قال: **﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾** أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه و هو محبته إياكم، و هو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء الحكماء: ليس الشأن أن تحب، إنما الشأن أن تُحَب. و قال الحسن البصري و غيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله، فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال **﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾**

ثم قال تعالى: **﴿ويغفر لكم ذنوبكم، و الله غفور رحيم﴾** أي باتباعكم الرسول ﷺ، يحصل لكم هذا كله من بركة سفارته.

٣٢- ثم قال تعالى آمراً لكل أحد من خاص و عام **﴿قل أطيعوا الله و الرسول فإن تولوا﴾** أي خالفوا عن أمره **﴿فإن الله لا يحب الكافرين﴾** فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، و الله لا يحب من اتصف بذلك، و إن ادعى و زعم في نفسه أنه محب لله و يتقرب إليه حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل و رسول الله إلى جميع الثقلين: الجن و الإنس، الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولو العزم منهم في زمانه ما وسعهم إلا اتباعه، و الدخول في طاعته، و اتباع شريعته، كما سيأتي تقريره عند قوله تعالى: **﴿و إذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾** الآية.

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) ﴾

٣٣، ٣٤- يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم ﷺ، خلقه بيده، و نفخ فيه من روحه، و أسجد له ملائكته، و علَّمه أسماء كل شيء و أسكنه الجنة، ثم أهبطه منها لما له في ذلك من الحكمة، و اصطفى نوحاً ﷺ و جعله أول رسوله بعثه إلى أهل الأرض، لما عبد الناس الأوثان، و أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، و انتقم له لما طالت مدته بين ظهراني قومه يدعوهم إلى الله ليلاً و نهاراً، سراً و جهاراً،

فلم يزدهم ذلك إلا فراراً، فدعا عليهم، فأغرقهم الله عن آخرهم، و لم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به، و اصطفى آل إبراهيم، و منهم سيد البشر و خاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ، و آل عمران والمراد بعمران هذا هو والد مريم بنت عمران أم عيسى ابن مريم عليها السلام، و عيسى عليه السلام من ذرية إبراهيم كما سيأتي بيانه في سورة الأنعام، إن شاء الله تعالى، و به الثقة.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦)﴾

٣٥- امرأة عمران هذه هي أم مريم عليها السلام، وهي حنة بنت فاقوذ، قال محمد بن إسحاق: و كانت امرأة لا تحمل، فرأت يوماً طائراً يزق فرخه، فاشتهت الولد، فدعت الله تعالى أن يهبها ولداً، فاستجاب الله دعاءها، فواقعها زوجها، فحملت منه، فلما تحققت الحمل، نذرت أن يكون محرراً أي خالصاً مفرغاً للعبادة، ولخدمة بيت المقدس، فقالت: ﴿رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم﴾ أي السميع لدعائي العليم بنيتي، و لم تكن تعلم ما في بطنها: أذكراً أم أنثى؟

٣٦- ﴿فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى و الله أعلم بما وضعت﴾ قرئ برفع التاء، على أنها تاء المتكلم، وأن ذلك من تمام قولها، و قرئ بتسكين التاء، على أنه من قول الله عز وجل، ﴿و ليس الذكر كالأنثى﴾ أي في القوة و الجلد في العبادة و خدمة المسجد الأقصى ﴿و إني سميتها مريم﴾ فيه دليل على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق لأنه شرع من قبلنا، و قد حكي مقرراً، و بذلك ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ حيث قال «وُلِدَ لي الليلة ولد سميته باسم أبي إبراهيم» أخرجاه، و كذلك ثبت فيهما: أن أنس بن مالك ذهب بأخيه حين ولدته أمه إلى رسول الله ﷺ فحنكه و سماه عبد الله، و في صحيح البخاري: أن رجلاً قال: يا رسول الله ولد لي الليلة ولد فما أسميه؟ قال «اسم ولدك عبد الرحمن»، و ثبت في الصحيح أيضاً: أنه لما جاءه أبو أسيد ليحنكه، فذهل عنه، فأمر به أبوه، فرده إلى منزلهم، فلما ذكر رسول الله ﷺ في المجلس سماه المنذر، فأما حديث سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ، قال «كل غلام رهين بعقيقته، يذبح عنه يوم سابعه، و يسمى و يحلق رأسه» فقد رواه أحمد و أهل السنن، و صححه الترمذي بهذا اللفظ، و روي: ويُدَمَّى، و هو أثبت وأحفظ، و الله أعلم[1].

و قوله إخباراً عن أم مريم أنها قالت ﴿و إني أعيذها بك و ذريتها من الشيطان الرجيم﴾ أي عوذتها بالله عز وجل من شر الشيطان، و عوذت ذريتها و هو ولدها عيسى عليه السلام، فاستجاب الله لها ذلك، كما روى عبد الرزاق عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً من مسه إياه، إلا مريم و ابنها» ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿و إني أعيذها بك و ذريتها من الشيطان الرجيم﴾، أخرجاه من حديث عبد الرزاق.

(١) و الأحاديث تدل على أن التسمية تجوز في يوم الولادة، و يجوز تأخيرها إلى السابع، و الأمر فيه واسع كما قرره ابن القيم في تحفة المودود.

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾

٣٧- يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة، و أنه ﴿أنبتها نباتاً حسناً﴾، أي جعلها شكلاً مليحاً و منظراً بهيجاً، ويسر لها أسباب القبول، و قرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم و الخير و الدين، فلهذا قال ﴿و كفّلها زكريا﴾ و في قراءة: ﴿و كفّلها زكريا﴾ بتشديد الفاء، و نصب زكريا على المفعولية، أي جعله كافلاً لها.

قال ابن إسحاق: و ما ذلك إلا أنها كانت يتيمة. و ذكر غيره: أن بني إسرائيل أصابتهم سنة جدب، فكفل زكريا مريم لذلك، و لا منافاة بين القولين؛ و الله أعلم. و إنما قدر الله كون زكريا كافلها لسعادتها، لتقتبس منه علماً جماً نافعاً و عملاً صالحاً، و لأنه كان زوج خالتها على ما ذكره ابن إسحاق و ابن جرير و غيرهما، وقيل: زوج أختها، كما ورد في الصحيح «فإذا بيحيى و عيسى و هما ابنا الخالة» و قد يطلق على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضاً توسعاً، فعلى هذا كانت في حضانة خالتها، و قد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قضى في عمارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبي طالب، و قال «الخالة بمنزلة الأم».

ثم أخبر تعالى عن سيادتها و جلالتها في محل عبادتها، فقال ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً﴾. قال مجاهد وعكرمة و سعيد بن جبير و أبو الشعثاء و إبراهيم النخعي و الضحاك و قتادة و الربيع بن أنس و عطية العوفي والسدي: يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، و فاكهة الشتاء في الصيف. و عن مجاهد ﴿وجد عندها رزقاً﴾ أي علماً، أو قال: صحفاً فيها علم، رواه ابن أبي حاتم، و الأول أصح و فيه دلالة على كرامات الأولياء. و في السنة لهذا نظائر كثيرة، فإذا رأى زكريا هذا عندها ﴿قال يامريم أنى لك هذا﴾ أي يقول من أين لك هذا؟ ﴿قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١) ﴾

٣٨- لما رأى زكريا ﷺ أن الله يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف و فاكهة الصيف في الشتاء، طمع حينئذ في الولد و كان شيخاً كبيراً قد وهن منه العظم و اشتعل الرأس شيباً، و كانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقراً، لكنه مع هذا كله سأل ربه و ناداه نداء خفياً، و قال ﴿رب هب لي من لدنك﴾ أي من عندك ﴿ذرية طيبة﴾ أي ولداً صالحاً ﴿إنك سميع الدعاء﴾.

٣٩- قال تعالى: ﴿فنادته الملائكة و هو قائم يصلي في المحراب﴾ أي خاطبته الملائكة شفاهاً خطاباً، أسمعته وهو

قائم يصلي في محراب عبادته و محل خلوته ومجلس مناجاته وصلاته. ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة ﴿أن الله يبشرك بيحيى﴾ أي بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى. قال قتادة و غيره: إنما سمي يحيى لأن الله أحياه بالإيمان. و قوله ﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾، روي عن ابن عباس، و قال الحسن و قتادة و عكرمة ومجاهد و أبو الشعثاء و السدي و الربيع بن أنس و الضحاك وغيره في هذه الآية ﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾ أي بعيسى ابن مريم. و قال الربيع بن أنس: هو أول من صدق بعيسى ابن مريم. و قال قتادة: و على سنته ومنهاجه. قوله: ﴿وسيداً﴾ قال أبو العالية و الربيع بن أنس و قتادة و سعيد بن جبير و غيرهم: الحكيم. قال قتادة: سيداً في العلم و العبادة. و قال ابن عباس و الثوري والضحاك: السيد الحكيم التقي. قال سعيد بن المسيب: هو الفقيه العالم. و قوله: ﴿وحصوراً﴾ روي عن ابن مسعود و ابن عباس و مجاهد و عكرمة و سعيد ابن جبير و أبي الشعثاء و عطية العوفي، أنهم قالوا: الذي لا يأتي النساء. و عن أبي العالية و الربيع بن أنس: هو الذي لا يولد له و قال الضحاك: هو الذي لا ولد له و لا ماء له. روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: ليس أحد من خلق الله لا يلقاه بذنب غير يحيى بن زكريا. ثم قرأ سعيد ﴿و سيداً وحصوراً﴾ ثم أخذ شيئاً من الأرض، فقال: الحصور من كان ذكره مثل ذي. و أشار يحيى بن سعيد القطان بطرف إصبعه السبابة، فهذا موقوف أصح إسناداً من المرفوع بل وفي صحة المرفوع نظر و الله أعلم. و رواه ابن المنذر. وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال «كل ابن آدم يلقى الله بذنب يعذبه عليه إن شاء أو يرحمه، إلا يحيى بن زكريا فإنه كان سيداً و حصوراً و نبياً من الصالحين» ثم أهوى النبي ﷺ إلى قذاة من الأرض، فأخذها و قال: «و كان ذكره مثل هذه القذاة».

و قد قال القاضي عياض في كتابه الشفاء: اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان ﴿حصوراً﴾ ليس كما قاله بعضهم إنه كان هيوباً أو لا ذكر له، بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين، و نقاد العلماء، و قالوا: هذه نقيصة و عيب، و لا تليق بالأنبياء عليهم السلام، و إنما معناه أنه معصوم من الذنوب، أي لا يأتيها كأنه حصر عنها. وقيل مانعاً نفسه من الشهوات. و قيل ليست له شهوة في النساء، و قد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة، ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى، أو بكفاية من الله عز وجل كيحيى عليه السلام، ثم هي في حق من قدر عليها، و قام بالواجب فيها، و لم تشغله عن ربه درجة عليا، و هي درجة نبينا ﷺ الذي لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة بتحصينهن و قيامه عليهن و إكسابه لهن وهدايته إياهن، بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، و إن كانت من حظوظ دنيا غيره، فقال: «حبب إلي من دنياكم» هذا لفظه. و المقصود أنه مدح ليحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء، بل معناه كما قاله هو و غيره: أنه معصوم عن الفواحش و القاذورات، و لا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال و غشيانهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: ﴿هب لي من لدنك ذرية طيبة﴾ كأنه قال: ولداً له ذرية و نسل و عقب، و الله سبحانه و تعالى أعلم.

و قوله: ﴿و نبياً من الصالحين﴾ هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته، و هي أعلى من الأولى، كقوله لأم موسى ﴿إنا رادوه إليك و جاعلوه من المرسلين﴾.

٤٠- فلما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة، أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر ﴿قال رب أنى يكون لي

غلام و قد بلغني الكبر و امرأتي عاقر قال﴾ أي الملك ﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ أي هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شيء، و لا يتعاظمه أمر.

٤١- ﴿قال رب اجعل لي آية﴾ أي علامة أستدل بها على وجود الولد مني ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً﴾ أي إشارة لا تستطيع النطق مع أنك سوي صحيح، كما في قوله: ﴿ثلاث ليال سوياً﴾ ثم أمر بكثرة الذكر و التسبيح في هذه الحال، فقال تعالى: ﴿و اذكر ربك كثيراً و سبح بالعشي و الإبكار﴾ و سيأتي طرف آخر في بسط هذا المقام في أول سورة مريم، إن شاء الله تعالى.

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) ﴾

٤٢- هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك، أن الله قد اصطفاها أي اختارها لكثرة عبادتها و زهادتها و شرفها و طهارتها من الأكدار و الوسواس، و اصطفاها ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين، روى عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب، في قوله تعالى: ﴿إن الله اصطفاك و طهرك و اصطفاك على نساء العالمين﴾ قال: كان أبو هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ «خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، و أرعاه على زوج في ذات يده، و لم تركب مريم بنت عمران بعيراً قط» ولم يخرجه من هذا الوجه سوى مسلم، و عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «خير نسائها مريم بنت عمران، و خير نسائها خديجة بنت خويلد» أخرجاه في الصحيحين، وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير، و لم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، و مريم بنت عمران، و إن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» أخرجه الجماعة إلا أبا داود.

٤٣- ثم أخبر تعالى عن الملائكة أنهم أمروها بكثرة العبادة و الخشوع و الركوع و السجود و الدأب في العمل، لما يريد الله بها من الأمر الذي قدره الله و قضاه بما فيه محنة لها، و رفعة في الدارين بما أظهر الله فيها من قدرته العظيمة، حيث خلق منها ولداً من غير أب، فقال تعالى: ﴿يا مريم اقنتي لربك و اسجدي و اركعي مع الراكعين﴾ أما القنوت فهو الطاعة في خشوع، كما قال تعالى: ﴿بل له ما في السموات و الأرض كل له قانتون﴾. و قال مجاهد: كانت مريم عليها السلام تقوم حتى تتورم كعباها، و القنوت هو طول الركود في الصلاة، يعني امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿يا مريم اقنتي لربك﴾ قال الحسن: يعني اعبدي لربك، ﴿و اسجدي واركعي مع الراكعين﴾ أي كوني منهم.

٤٤- ثم قال تعالى لرسوله بعد ما أطلعه على جلية الأمر ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ أي ما كنت عندهم يا محمد فتخبرهم عنهم معاينة عما جرى بل أطلعك الله على ذلك كأنك حاضر و شاهد لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكفلها، و ذلك لرغبتهم في الأجر. و قد ذكر عكرمة و السدي و قتادة و الربيع ابن أنس و غير واحد، دخل حديث بعضهم في بعض، أنهم ذهبوا إلى نهر الأردن، و اقترعوا هنالك على أن

يلقوا أقلامهم فأيهم يثبت في جرية الماء فهو كافلها، فألقوا أقلامهم، فاحتملها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت ويقال إنه ذهب صاعداً يشق جرية الماء، و كان مع ذلك كبيرهم و سيدهم و عالمهم و إمامهم و نبيهم، صلوات الله وسلامه عليه و على سائر النبيين.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾

٤٥- هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام بأن سيوجد منها ولد عظيم له شأن كبير. قال الله تعالى: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه﴾ أي بولد يكون وجوده بكلمة من الله، أي يقول له: كن فيكون، و هذا تفسير قوله: ﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾ كما ذكر الجمهور على ما سبق بيانه ﴿اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾ أي يكون مشهوراً بهذا في الدنيا، و يعرفه المؤمنون بذلك و سمي المسيح، قال بعض السلف: لكثرة سياحته. و قيل: لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما، و قيل: لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى. و قوله: ﴿عيسى ابن مريم﴾ نسبة إلى أمه حيث لا أب له. ﴿وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾ أي له وجاهة و مكانة عند الله في الدنيا بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وينزله عليه من الكتاب وغير ذلك بما منحه الله به، و في الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولي العزم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

٤٦- وقوله: ﴿ويكلم الناس في المهد و كهلاً﴾ أي يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره، معجزة و آية، و في حال كهولته حين يوحي الله إليه بذلك ﴿ومن الصالحين﴾ أي في قوله و عمله، له علم صحيح و عمل صالح. و روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، و صبي كان في زمن جريج، و صبي آخر.

٤٧- فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك عن الله عزو جل، قالت في مناجاتها ﴿رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر﴾ تقول كيف يوجد هذا الولد مني و أنا لست بذات زوج، و لا من عزمي أن أتزوج، و لست بغياً حاشا لله؟ فقال لها الملك عن الله عز وجل في جواب ذلك السؤال ﴿كذلك الله يخلق ما يشاء﴾ أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء، وصرح ههنا بقوله: ﴿يخلق ما يشاء﴾ ولم يقل: يفعل، كما في قصة زكريا، بل نص ههنا على أنه يخلق لئلا يبقى لمبطل شبهة، وأكد ذلك بقوله: ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي فلا يتأخر شيئاً بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة كقوله: ﴿و ما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ أي إنما نأمر مرة واحدة لا مثنوية فيها فيكون ذلك الشيء سريعاً كلمح بالبصر.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ

وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

٤٨- يقول تعالى مخبراً عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى ﷺ: أن الله يعلمه **﴿الكتاب و الحكمة﴾**، فالتوراة هو الكتاب ههنا الكتابة، و الحكمة تقدم تفسيرها في سورة البقرة، و **﴿التوراة والإنجيل﴾**، فالتوراة هو الكتاب الذي أنزل على موسى بن عمران ، والإنجيل الذي أنزل على عيسى بن مريم عليهما السلام . و قد كان عيسى ﷺ يحفظ هذا و هذا.

٤٩- و قوله : **﴿و رسولاً إلى بني إسرائيل﴾** أي يجعله رسولاً إلى بني إسرائيل، قائلاً لهم **﴿أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله﴾** وكذلك كان يفعل، يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله عز وجل، الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله **﴿وأبرئ الأكمه﴾** قيل : أنه الذي يبصر نهاراً و لا يبصر ليلاً، و قيل بالعكس. و قيل : الأعمش. و قيل : هو الذي يولد أعمى و هو أشبه، لأنه أبلغ كثير من العلماء : بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى ﷺ السحر و تعظيم السحرة، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار و حيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام، و صاروا من عباد الله الأبرار. و أما عيسى ﷺ، فبعث في زمن الأطباء و أصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه والأبرص، و بعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد. و كذلك محمد ﷺ، بعث في زمان الفصحاء و البلغاء و نحارير الشعراء، فأتاهم بكتاب من الله عز وجل، لو اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله، لم يستطيعوا أبداً و لو كان بعضهم لبعض ظهيراً، و ما ذاك إلا لأن كلام الرب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبداً.

و قوله : **﴿و أنبئكم بما تأكلون و ما تدخرون في بيوتكم﴾** أي أخبركم بما أكل أحدكم الآن، وما هو مدخر له في بيته لغد، **﴿إن في ذلك﴾** أي في ذلك كله **﴿لآيات لكم﴾** أي على صدقي فيما جئتكم به **﴿إن كنتم مؤمنين. و مصدقاً لما بين يدي من التوراة﴾**.

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ ﴾

٥٠- أي مقرراً لها و مثبتاً **﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾** فيه دلالة على أن عيسى ﷺ نسخ بعض شريعة التوراة، و هو الصحيح من القولين، و من العلماء من قال : لم ينسخ منها شيئاً، و إنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ، فكشف لهم عن المغطى في ذلك، كما قال في الآية الأخرى **﴿و لأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾** و الله أعلم. ثم قال **﴿و جئتكم بآية من ربكم﴾** أي بحجة و دلالة على صدقي فيما أقول لكم **﴿فاتقوا الله و أطيعون﴾**.

﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١) ﴾

٥١- ﴿إن الله ربي و ربكم فاعبدوه﴾ أي أنا و أنتم سواء في العبودية له و الخضوع والاستكانة إليه ﴿هذا صراط مستقيم﴾.

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾

٥٢- يقول تعالى: ﴿فلما أحس عيسى﴾ أي استشعر منهم التصميم على الكفر و الاستمرار على الضلال، ﴿قال من أنصاري إلى الله﴾ قال مجاهد: أي من يتبعني إلى الله. و قال سفيان الثوري و غيره: أي من أنصاري مع الله، و قول مجاهد أقرب. و الظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر «من رجل يؤويني حتى أبلغ كلام ربي. فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي» حتى وجد الأنصار، فآووه و نصروه و هاجر إليهم، فواسوه و منعوه من الأسود و الأحمر، رضي الله عنهم وأرضاهم. و هكذا عيسى ابن مريم ﷺ انتدب له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به و وازروه و نصروه و اتبعوا النور الذي أنزل معه، و لهذا قال الله تعالى مخبراً عنهم ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله و اشهد بأنا مسلمون * ربنا آمنا بما أنزلت و اتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾ الحواريون قيل: كانوا قصارين، و قيل: سموا بذلك لبياض ثيابهم، و قيل: صيادين. و الصحيح أن الحواري: الناصر، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب، فانتدب الزبير ثم ندبهم، فانتدب الزبير ﷺ، فقال النبي ﷺ: «لكل نبي حواري، و حواريي الزبير»، و روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ قال: مع أمة محمد ﷺ و هذا إسناد جيد.

ثم قال تعالى مخبراً عن ملإ بني إسرائيل، فيما هموا به من الفتك بعيسى ﷺ، و إرادته بالسوء و الصلب حين تمالؤوا عليه، و وشوا به إلى ملك ذلك الزمان، و كان كافراً، أن هنا رجلاً يضل الناس و يصدهم عن طاعة الملك و يفسد الرعايا، ويفرق بين الأب و ابنه، إلى غير ذلك مما تقلدوه في رقابهم و رموه به من الكذب، و أنه ولد زنية حتى استثاروا غضب الملك، فبعث في طلبه من يأخذه و يصلبه و ينكل به، فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به، نجاه الله تعالى من بينهم و رفعه من روزنة ذلك البيت إلى السماء، و ألقى الله شبهه على رجل ممن كان عنده في المنزل، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسى، فأخذوه و أهانوه و صلبوه، و وضعوا على رأسه الشوك، و كان هذا من مكر الله بهم، فإنه نجى نبيه و رفعه من بين أظهرهم و تركهم في ضلالهم يعمهون، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبتهم، و أسكن الله في قلوبهم قسوة و عناداً للحق ملازماً لهم، و أورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد.

و لهذا قال تعالى: ﴿ومكروا و مكر الله و الله خير الماكرين﴾.

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ

فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

٥٥- اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿إني متوفيك و رافعك إلي﴾ فقال قتادة و غيره: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره إني رافعك إلي و متوفيك، يعني بعد ذلك. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: إني متوفيك، أي مميتك. و قال ابن جرير: توفيه هو رفعه، و قال الأكثرون: المراد بالوفاة ههنا - النوم، كما قال تعالى: ﴿و هو الذي يتوفاكم بالليل﴾ الآية، و قال تعالى ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها و التي لم تمت في منامها﴾ الآية، و كان رسول الله ﷺ، يقول إذا قام من النوم: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا» الحديث، وقال تعالى: ﴿و بكفرهم و قولهم على مريم بهتاناً عظيماً ◊ و قولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه و ما صلبوه و لكن شبه لهم - إلى قوله - و ما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه و كان الله عزيزاً حكيماً ◊ و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته و يوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ و الضمير في قوله ﴿قبل موته﴾ عائد على عيسى ﷺ، أي و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، و ذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة على ما سيأتي بيانه، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم، لأنه يضع الجزية و لا يقبل إلا الإسلام. وقوله تعالى: ﴿و مطهرك من الذين كفروا﴾ أي برفعي إياك إلى السماء ﴿و جاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ و هكذا وقع فإن المسيح ﷺ، لما رفعه الله إلى السماء، تفرقت أصحابه شيعاً بعده، فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبدالله و رسوله و ابن أمته، و منهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله، و آخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة.

و قد حكى الله مقالاتهم في القرآن و رد على كل فريق، فاستمروا على ذلك قريباً من ثلثمائة سنة، ثم نبغ لهم ملك من ملوك اليونان يقال له قسطنطين، فدخل في دين النصرانية، قيل: حيلة ليفسده، فإنه كان فيلسوفاً، و قيل: جهلاً منه إلا أنه بدل لهم دين المسيح وحرفه، و زاد فيه و نقص منه، و وضعت له القوانين، و الأمانة الكبرى التي هي الخيانة الحقيرة، و أحل في زمانه لحم الخنزير، و صلوا له إلى المشرق، و صوروا له الكنائس والمعابد و الصوامع، و زاد في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه فيما يزعمون، و صار دين المسيح دين قسطنطين إلا أنه بنى لهم من الكنائس و المعابد والصوامع و الديارات ما يزيد على اثني عشر ألف معبد، و بنى المدينة المنسوبة إليه، و اتبعه الطائفة الملكية منهم، وهم في هذا كله قاهرون لليهود، أيدهم الله عليهم، لأنهم أقرب إلى الحق منهم، و إن كان الجميع كفاراً عليهم لعائن الله، فلما بعث الله محمداً ﷺ، فكان من آمن به يؤمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله على الوجه الحق، كانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض، إذ قد صدقوا الرسول النبي الأمي العربي، خاتم الرسل و سيد ولد آدم على الإطلاق، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق، فكانوا أولي بكل نبي من أمته الذين يزعمون أنهم على ملته و طريقته، مع ما قد حرفوا و بدلوا، ثم لو لم يكن شيء من ذلك، لكان قد نسخ الله شريعة جميع الرسل بما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين الحق الذي لا

يغير و لا يبدل إلى قيام الساعة، و لا يزال قائماً منصوراً ظاهراً على كل دين، فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض و مغاربها، و اجتازوا جميع الممالك، ودانت لهم جميع الدول، و كسروا كسرى، و قصروا قيصر وسلبوهما كنوزهما، و أنفقت في سبيل الله كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم عز وجل في قوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم و ليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم و ليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾ الآية، فلهذا لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقاً، سلبوا النصارى بلاد الشام وألجؤوهم إلى الروم فلجؤوا إلى مدينتهم القسطنطينية، و لا يزال الإسلام و أهله فوقهم إلى يوم القيامة.

و قد أخبر الصادق الصدوق ﷺ أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية ويستفيئون ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جداً، لم ير الناس مثلها و لا يرون بعدها نظيرها، و قد جمعت في هذا جزءاً مفرداً، ولهذا قال تعالى: ﴿و جاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينهم فيما كنتم فيه تختلفون * فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا و الآخرة وما لهم من ناصرين﴾ و كذلك فعل بمن كفر بالمسيح من اليهود أو غلا فيه أو أطراه من النصارى، عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي، و أخذ الأموال وإزالة الأيدي عن الممالك، و في الدار الآخرة عذابهم أشد و أشق ﴿وما لهم من الله من واق﴾ ﴿و أما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم﴾ أي في الدنيا و الآخرة، في الدنيا بالنصر والظفر، و في الآخرة بالجنات العاليات ﴿و الله لا يحب الظالمين﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات و الذكر الحكيم﴾ أي هذا الذي قصصنا عليك يا محمد في أمر عيسى و مبدأ ميلاده و كيفية أمره، وهو مما قاله تعالى و أوحاه إليك ونزل عليك من اللوح المحفوظ، فلا مرية فيه و لا شك، كما قال تعالى في سورة مريم ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ وهاهنا قال تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

٥٩- يقول جل و علا: ﴿إن مثل عيسى عند الله﴾ في قدرة الله حيث خلقه من غير أب ﴿كمثل آدم﴾ حيث خلقه من غير أب و لا أم بل ﴿خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ فالذي خلق آدم من غير أب، قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى و الأحرى، و إن جاز ادعاء البنوة في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى، و معلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواها في عيسى أشد بطلاناً و أظهر فساداً، و لكن الرب جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر و لا من أنثى، و خلق حواء من ذكر بلا

أنثى، و خلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق بقية البرية من ذكر و أنثى، و لهذا قال تعالى في سورة مريم ﴿ولنجعله آية للناس﴾.

٦٠- و قال ههنا: ﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾ أي هذا هو القول الحق في عيسى الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال. ثم قال تعالى آمراً رسوله ﷺ، أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان.

٦١- ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا وأنفسكم﴾ أي نحضرهم في حال المباهلة ﴿ثم نبتهل﴾ أي نلتعن ﴿فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ أي منا ومنكم.

و كان سبب نزول هذه المباهلة و ما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نجران، أن النصارى لما قدموا فجعلوا يحاجون في عيسى و يزعمون فيه ما يزعمون من البنوّة الإلهية، فأنزل الله صدر هذه السورة رداً عليهم.

روى البخاري عن حذيفة ﷺ قال: جاء العاقب و السيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فو الله لئن كان نبياً فلاعناه لا نفلح نحن و لا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا و ابعث معنا رجلاً أميناً و لا تبعث معنا إلا أميناً. فقال «لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين» فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ، فقال «قم يا أبا عبيدة بن الجراح» فلما قام، قال رسول الله ﷺ «هذا أمين هذه الأمة» و رواه مسلم. و روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال أبوجهل قبحه الله، إن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على رقبته، قال: فقال «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، و لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا و لرأوا مقاعدهم من النار، و لو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً و لا أهلاً»، و قد رواه الترمذي و النسائي.

و الغرض أن وفودهم كان في سنة تسع، لأن الزهري قال: كان أهل نجران أول من أدى الجزية إلى رسول الله ﷺ، و آية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح، و هي قوله تعالى ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله و لا باليوم الآخر﴾ الآية، و روى أبو بكر بن مردويه عن جابر قال: قدم على النبي ﷺ العاقب و الطيب، فدعاهما إلى الملاعنة فواعداه على أن يلاعناه الغداة، قال: فغدا رسول الله ﷺ، فأخذ بيد علي و فاطمة و الحسن و الحسين، ثم أرسل إليهما، فأبيا أن يجيباو أقرا له بالخراج، قال: فقال رسول الله ﷺ: «و الذي بعثني بالحق لو قالا: لا، لأمطر عليهم الوادي ناراً» و فيهم نزلت ﴿ندع أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم﴾ قال جابر ﴿أنفسنا و أنفسكم﴾ رسول الله ﷺ و علي بن أبي طالب ﴿و أبناءنا﴾ الحسن و الحسين ﴿و نساءنا﴾ فاطمة. وهكذا رواه الحاكم.

٦٢، ٦٣- ثم قال تعالى: ﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه و لا محيد ﴿و ما من إله إلا الله و إن الله لهو العزيز الحكيم ◆ فإن تولوا﴾ أي عن هذا إلى غيره ﴿فإن الله عليم بالمفسدين﴾ أي من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد و الله عليم به، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء، و هو القادر الذي لا يفوته شيء، سبحانه و بحمده و نعوذ به من حلول نقمته.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾

٦٤- هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود و النصارى و من جرى مجراهم. **﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة﴾** و الكلمة تطلق على الجملة المفيدة، كما قال ههنا، ثم وصفها بقوله **﴿سواء بيننا و بينكم﴾** أي عدل ونصف نستوي نحن و أنتم فيها، ثم فسرها بقوله: **﴿أن لا نعبد إلا الله و لا نشرك به شيئاً﴾** لا وثناً و لا صليباً ولا صنماً و لا طاغوتاً و لا ناراً و لا شيئاً، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له، و هذه دعوة جميع الرسل، قال الله تعالى: **﴿و ما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾** و قال تعالى **﴿و لقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله و اجتنبوا الطاغوت﴾**.

ثم قال تعالى **﴿و لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾**، قال ابن جريج: يعني يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله، و قال عكرمة: يسجد بعضنا لبعض **﴿فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾** أي فإن تولوا عن هذا النصف و هذه الدعوة، فأشهدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم. و قد ذكرنا في شرح البخاري عند روايته عن ابن عباس عن أبي سفيان في قصته حين دخل على قيصر، فسأله عن نسب رسول الله ﷺ، و عن صفته و نعته و ما يدعو إليه، فأخبره بجميع ذلك على الجلية، مع أن أبا سفيان كان إذ ذاك مشركاً، لم يسلم بعد، و كان ذلك بعد صلح الحديبية وقبل الفتح، كما هو مصرح في الحديث، و لأنه لما سأله: هل يغدر؟ قال: فقلت: لا، و نحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها، قال: و لم يمكني كلمة أزيد فيها شيئاً سوى هذه، و الغرض أنه قال: ثم جيء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فأسلم تسلم، و أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و **﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد إلا الله و لا نشرك به شيئاً و لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾**».

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾

٦٥- ينكر تبارك و تعالى على اليهود و النصارى في محاجتهم في إبراهيم ﷺ، و دعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، و قالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالى: **﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم﴾** الآية، أي كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهودياً، و قد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى؟ و كيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً و إنما حدثت النصرانية

بعد زمنه بدهر؟ و لهذا قال تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾.

٦٦- ثم قال تعالى: ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ الآية. هذا إنكار على من يحاج فيما لا علم له به، فإن اليهود و النصارى تحاجوا في إبراهيم بلا علم، و لو تحاجوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثه محمد ﷺ، لكان أولى بهم، وإنما تكلموا فيما لا يعلمون، فأنكر الله عليهم ذلك، و أمرهم برد ما لا علم لهم به إلى علم الغيب و الشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها و جلياتها، و لهذا قال تعالى: ﴿و الله يعلم و أنتم لا تعلمون﴾.

٦٧- ثم قال تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً و لا نصرانياً و لكن كان حنيفاً مسلماً﴾ أي متحنفاً عن الشرك قاصداً إلى الإيمان ﴿و ما كان من المشركين﴾ و هذه الآية كالتي تقدمت في سورة البقرة ﴿و قالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ الآية.

٦٨- ثم قال تعالى: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه و هذا النبي و الذين آمنوا و الله ولي المؤمنين﴾ يقول تعالى: أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه و هذا النبي، يعني محمداً ﷺ، و الذين آمنوا من أصحابه المهاجرين و الأنصار و من تبعهم بعدهم. روى سعيد بن منصور عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل نبي ولاة من النبيين، و إن وليي منهم أبي و خليل ربي عز وجل» ثم قرأ ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه﴾ الآية، و قد رواه الترمذي و البزار. و قوله ﴿و الله ولي المؤمنين﴾ أي ولي جميع المؤمنين برسله.

﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤) ﴾

٦٩- يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين، و بغيهم إياهم الإضلال، و أخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم و هم لا يشعرون أنهم ممكور بهم.

٧٠- ثم قال تعالى منكراً عليهم ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله و أنتم تشهدون﴾ أي تعلمون صدقها و تتحققون حقها.

٧١- ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل و تكتمون الحق و أنتم تعلمون﴾ أي تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ، و أنتم تعرفون ذلك و تتحققونه.

٧٢- ﴿و قالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار و اكفروا آخره﴾ الآية، هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، و هو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، و يصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم

إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة و عيب في دين المسلمين، و لهذا قالوا ﴿لعلهم يرجعون﴾ . و هكذا روي عن ابن عباس و مجاهد و قتادة و السدي و الربيع و أبي مالك.

٧٣ ، ٧٤- و قوله تعالى: ﴿و لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ أي لا تطمئنوا أو تظهروا سركم و ما عندكم إلا لمن تبع دينكم، و لا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين فيؤمنوا به و يحتجوا به عليكم، قال الله تعالى: ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ أي هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان بما ينزله على عبده و رسوله محمد ﷺ من الآيات البينات، و الدلائل القاطعات، و الحجج الواضحات، و إن كتمتم أيها اليهود ما بأيديكم من صفة محمد النبي الأمي في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين . و قوله ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾ يقولون: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين، فيتعلموه منكم، و يساووكم فيه و يمتازوا به عليكم لشدة الإيمان به، أو يحاجوكم به عند ربكم، أي يتخذوه حجة عليكم بما في أيديكم، فتقوم به عليكم الدلالة، وتتركب الحجة في الدنيا و الآخرة، قال الله تعالى: ﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾ أي الأمور كلها تحت تصرفه، و هو المعطي المانع، يمن على من يشاء بالإيمان و العلم و التصور التام، و يضل من يشاء فيعمي بصره و بصيرته و يختم على قلبه و سمعه، و يجعل على بصره غشاوة، و له الحجة التامة و الحكمة البالغة ﴿والله واسع عليم ❁ يختص برحمته من يشاء و الله ذو الفضل العظيم﴾ أي اختصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يحد و لا يوصف بما شرف به نبيكم محمداً ﷺ على سائر الأنبياء، و هداكم به إلى أكمل الشرائع .

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

٧٥- يخبر تعالى عن اليهود بأن منهم الخونة و يحذر المؤمنين من الاغترار بهم، فإن منهم ﴿من إن تأمنه بقنطار﴾ أي من المال ﴿يؤده إليك﴾ أي و ما دونه بطريق الأولى أن يؤده إليه ﴿و منهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً﴾ أي بالمطالبة و الملازمة و الإلحاح في استخلاص حقك، و إذا كان هذا صنيعه في الدينار فما فوقه أولى أن لا يؤديه إليه . و قد تقدم الكلام على القنطار في أول السورة، و أما الدينار فمعروف. ومناسب أن يذكر ههنا الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال ائتني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيداً، قال: ائتني بالكفيل، كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته ثم التمس مركباً يركبها ليقدم عليه في الأجل الذي أجله، فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه ثم زجج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر فقال: اللهم إنك تعلم أني استسلفت فلاناً ألف دينار فسألني شهيداً، فقلت: كفى بالله شهيداً، وسألني كفيلاً، فقلت: كفى بالله كفيلاً فرضي بذلك، و أني جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له فلم أقدر، و إني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف و هو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه لينظر لعل مركباً يجيئه بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما كسرها وجد المال و الصحيفة، ثم قدم الرجل كان تسلف

منه ، فأتاه بألف دينار ، و قال : والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه ، قال : هل كنت بعثت إلي بشيء ؟ قال : ألم أخبرك أني لم أجد مركباً قبل هذا ، قال : فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة ، فانصرف بألف دينار راشداً . رواه الإمام أحمد .

و قوله **﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾** أي إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون : ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميين و هم العرب ، فإن الله قد أحلها لنا ، قال الله تعالى : **﴿و يقولون على الله الكذب و هم يعلمون﴾** أي و قد اختلقوا هذه المقالة ، و ائتفكوا بهذه الضلالة ، فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها و إنما هم قوم بهت .

٧٦- ثم قال تعالى : **﴿بلى من أوفى بعهده و اتقى﴾** أي لكن من أوفى بعهده واتقى منكم يا أهل الكتاب الذي عاهدكم الله عليه من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بُعث ، كما أخذ العهد و الميثاق على الأنبياء و أممهم بذلك ، و اتقى محارم الله ، و اتبع طاعته و شريعته التي بعث بها خاتم رسله و سيدهم **﴿فإن الله يحب المتقين﴾** .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) ﴾

٧٧- يقول تعالى : إن الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه من اتباع محمد ﷺ و ذكر صفته للناس و بيان أمره ، و عن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة بالأثمان القليلة الزهيدة ، و هي عروض هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة **﴿أولئك لا خلاق لهم في الآخرة﴾** أي لا نصيب لهم فيها و لا حظ لهم منها **﴿و لا يكلمهم الله و لا ينظر إليهم يوم القيامة﴾** أي برحمة منه لهم ، يعني لا يكلمهم الله كلام لطف بهم و لا ينظر إليهم بعين الرحمة **﴿و لا يزكيهم﴾** أي من الذنوب و الأدناس ، بل يأمر بهم إلى النار **﴿و لهم عذاب أليم﴾** . و قد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة ، فلنذكر منها ما تيسر .

الحديث الأول : روي الإمام أحمد ، عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة لا يكلمهم الله ، و لا ينظر إليهم يوم القيامة ، و لا يزكيهم ، و لهم عذاب أليم» قلت : يا رسول الله ، من هم؟ خسروا و خابوا ، قال : وأعاده رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، قال «المسبل ، و المنفق سلعته بالحلف و الكاذب ، و المنان» ، و رواه مسلم وأهل السنن .

الحديث الثاني : روى أحمد عن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : «من حلف على يمين هو فيها فاجرٌ ليقتطع بها مال امرئ مسلم ، لقي الله عز وجل و هو عليه غضبان» . فقال الأشعث : فيَّ و الله كان ذلك ؛ كان بيني و بين رجل من اليهود أرض فجحدني ، فقدمته إلى رسول الله ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ : «ألك بينة ؟ قلت : لا ، فقال لليهودي : احلف . قلت : يا رسول الله ، إذاً يحلف فيذهب مالي . فأنزل الله عز وجل : **﴿إن الذين يشترون بعهد الله و أيمانهم ثمناً قليلاً﴾** الآية ، أخرجاه .

الحديث الثالث : روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن أبي أوفى ، أن رجلاً أقام سلعة له في السوق ، فحلف بالله لقد أعطي بها ما لم يعط ، ليوقع فيها رجلاً من المسلمين ، فنزلت هذه الآية : **﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾** الآية ، و رواه البخاري .

الحديث الرابع: روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، و لا ينظر إليهم، و لا يزكيهم، و لهم عذاب أليم: رجل منع ابن السبيل فضل ماء عنده، و رجل حلف على سلعة بعد العصر، يعني كاذباً، و رجل بايع إماماً فإن أعطاه و فّى له و إن لم يعطه لم يف له» و رواه أبو داود و الترمذي.

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

٧٨- يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله، أن منهم فريقاً يحرفون الكلم عن مواضعه، و يبدلون كلام الله ويزيلونه عن المراد به، ليوهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك، و ينسبونه إلى الله و هو كذب على الله، و هم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا و افتروا في ذلك كله، و لهذا قال الله تعالى: **﴿و يقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾**. و قال مجاهد و الشعبي و الحسن و قتادة و الربيع بن أنس: **﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾** يحرفونه، و هكذا روى البخاري عن ابن عباس أنهم يحرفون و يزيدون، و ليس أحد من خلق الله يزيل لفظ كتاب من كتب الله، لكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله.

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

٧٩- أي ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب و الحكمة و النبوة، أن يقول للناس اعبدوني من دون الله، أي مع الله، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي و لا لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى و الأحرى، ولهذا قال الحسن البصري: لا ينبغي هذا المؤمن أن يأمر الناس بعبادته، قال: و ذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً، يعني أهل الكتاب كانوا يعبدون أحبارهم و رهبانهم، كما قال الله تعالى: **﴿اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أرباباً من دون الله﴾** الآية، و في المسند و الترمذي كما سيأتي أن عدي بن حاتم قال: يا رسول الله ما عبدوهم. قال «بلى إنهم أحلوا لهم الحرام و حرّموا عليهم الحلال، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم». فالجهلة من الأحبار والرهبان و مشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم و التوبيخ، بخلاف الرسل و أتباعهم من العلماء العاملين فإنهم إنما يأمرون بما يأمر الله به، و بلغتهم إياه رسله الكرام، و إنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه و بلغتهم إياه رسله الكرام، فالرسل صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين، هم السفراء بين الله و بين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة و إبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتم القيام، و نصحوا الخلق، و بلغوهم الحق، و قوله: **﴿ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب و بما كنتم تدرسون﴾** أي و لكن يقول الرسول للناس: كونوا ربانيين، قال ابن عباس و أبو رزين و غير واحد: أي حكماء علماء حلماء، و قال الحسن و غير واحد: فقهاء، و كذا روي عن ابن عباس و سعيد بن جبير و قتادة و عطاء الخراساني و عطية العوفي و الربيع بن أنس و عن الحسن أيضاً: يعني أهل عبادة و أهل تقوى، وقال الضحاك في قوله: **﴿بما كنتم تعلمون الكتاب و بما**

كنتم تدرسون﴾: حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً ﴿تعلَمون﴾ أي تفهمون معناه، و قرئ ﴿تُعلّمون﴾ بالتشديد من التعليم ﴿وبما كنتم تدرسون﴾ تحفظون ألفاظه.

٨٠- ثم قال الله تعالى: ﴿و لا يأمركم أن تتخذوا الملائكة و النبيين أرباباً﴾ أي لا يفعل ذلك إلا من دعا إلى عبادة غير الله، و من دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر، و الأنبياء إنما يأمرون بالإيمان و هو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿و ما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ و قال تعالى: ﴿و لقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله و اجتنبوا الطاغوت﴾ الآية، و قال ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ و قال إخباراً عن الملائكة ﴿و من يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)﴾

٨١- يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام، لمهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة، و بلغ أي مبلغ، ثم جاءه رسول من بعده ليؤمنن به و لينصرنه، و لا يمنعه ما هو فيه من العلم و النبوة من اتباع من بُعث بعده و نصرته، و لهذا قال تعالى و تقدس ﴿و إذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة﴾ أي لمهما أعطيتكم من كتاب و حكمة ﴿ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به و لتنصرنه قال أأقررتم و أخذتم على ذلكم إصري﴾ و قال ابن عباس و مجاهد و الربيع بن أنس و قتادة و السدي: يعني عهدي، و قال محمد بن إسحاق ﴿إصري﴾ أي ثقل ما حملتم من عهدي، أي ميثاقي الشديد المؤكد ﴿قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾.

٨٢- ﴿فمن تولى بعد ذلك﴾ أي عن هذا العهد و الميثاق ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾، قال علي بن أبي طالب وابن عمه ابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث الله محمداً و هو حي ليؤمنن به و ينصرنه، و أمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بُعث محمدٌ و هم أحياء ليؤمنن به و لينصرنه، وقال طاوس و الحسن البصري و قتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً، و هذا لا يضاد ما قاله علي و ابن عباس و لا ينفيه، بل يستلزمه و يقتضيه، ولهذا روى عبد الرزاق عن طاوس مثل قول علي و ابن عباس، و قد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ لي يهودي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال، فتغير وجه رسول الله ﷺ قال عبد الله بن ثابت، قلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله رباً، و بالإسلام ديناً، و بمحمد رسولاً، قال: فسُرّي عن النبي ﷺ و قال «والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام، ثم اتبعتموه و تركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم و أنا حظكم من النبيين».

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ

آمنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

٨٣- يقول تعالى منكراً على من أراد ديناً سوى دين الله الذي أنزل به كتبه، و أرسل به رسله، و هو عبادة الله وحده لا شريك له، الذي **﴿له أسلم من في السموات و الأرض﴾** أي استسلم له من فيها طوعاً و كرهاً، كما قال تعالى: **﴿ولله يسجد من في السموات و الأرض طوعاً و كرهاً﴾** الآية، و قال تعالى: **﴿أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله عن اليمين و الشمائل سجداً لله و هم داخرون ❁ و لله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة و الملائكة و هم لا يستكبرون ❁ يخافون ربهم من فوقهم و يفعلون ما يؤمرون﴾** فالمؤمن مستسلم بقلبه و قالبه لله، و الكافر مستسلم لله كرهاً، فإنه تحت التسخير و القهر و السلطان العظيم الذي لا يخالف و لا يمانع، و قد ورد في الصحيح «عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل» و سيأتي له شاهد من وجه آخر، و لكن المعنى الأول للآية أقوى، و قد روى وكيع عن مجاهد قال: هو كقوله **﴿ولئن سألتهم من خلق السموات و الأرض ليقولن الله﴾** وروى أيضاً عن ابن عباس **﴿و له أسلم من في السموات والأرض طوعاً و كرهاً﴾** قال: حين أخذ الميثاق، **﴿و إليه يرجعون﴾** أي يوم المعاد فيجازي كلا بعمله.

٨٤- ثم قال تعالى: **﴿قل آمنا بالله و ما أنزل علينا﴾** يعني القرآن، **﴿و ما أنزل على إبراهيم و إسماعيل وإسحاق و يعقوب﴾** أي من الصحف و الوحي، **﴿و الأسباط﴾** و هم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل - و هو يعقوب - الإثني عشر، **﴿و ما أوتي موسى و عيسى﴾** يعني بذلك التوراة و الإنجيل، **﴿و النبيون من ربهم﴾** و هذا يعم جميع الأنبياء جملة **﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾** يعني: بل نؤمن بجميعهم **﴿و نحن له مسلمون﴾** فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل، و بكل كتاب أنزل، لا يكفرون بشيء من ذلك، بل هم يصدقون بما أُنزل من عند الله، و بكل نبي بعثه الله.

٨٥- ثم قال تعالى: **﴿و من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾** الآية، أي من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله، فلن يُقبل منه **﴿و هو في الآخرة من الخاسرين﴾** كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ».

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾

٨٦- روي ابن جرير عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد و لحق بالشرك، ثم ندم فأرسل إليه قومه أن سَلُوا لي رسول الله، هل لي من توبة؟ فنزلت **﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم - إلى قوله - فإن الله غفور رحيم﴾** فأرسل إليه قومه فأسلم، و هكذا رواه النسائي و الحاكم و ابن حبان، فقوله تعالى:

﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم و شهدوا أن الرسول حق و جاءهم البينات﴾ أي قامت عليهم الحجج و البراهين على صدق ما جاءهم به الرسول، و وضح لهم الأمر ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العماية، و لهذا قال تعالى: **﴿و الله لا يهدي القوم الظالمين﴾**.

٨٧- ثم قال تعالى **﴿أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين﴾** أي يلعنهم الله، و يلعنهم خلقه.

٨٨- **﴿خالدين فيها﴾** أي في اللعنة، **﴿لا يخفف عنهم العذاب و لا هم ينظرون﴾** أي لا يفتر عنهم العذاب ولا يخفف عنهم ساعة واحدة.

٨٩- ثم قال تعالى: **﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك و أصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾** وهذا من لطفه و بره و رأفته و رحمته و عائدته على خلقه أن من تاب إليه، تاب عليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٩١)﴾

٩٠- يقول تعالى متوعداً و مهدداً لمن كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفراً، أي استمر عليه إلى الممات، و مخبراً بأنهم لن تقبل لهم توبة عند الممات، كما قال تعالى: **﴿و ليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾** الآية، و لهذا قال ههنا **﴿لن تقبل توبتهم و أولئك هم الضالون﴾** أي الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغي، روى الحافظ أبو بكر البزار، عن ابن عباس: أن قوماً أسلموا ثم ارتدوا ثم أسلموا ثم ارتدوا، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية: **﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم﴾** و إسناده جيد.

٩١- ثم قال تعالى: **﴿إن الذين كفروا و ماتوا و هم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً و لو افتدى به﴾** أي من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً، و لو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قربة، كما سئل النبي ﷺ عن عبد الله بن جدعان و كان يقري الضيف و يفك العاني و يطعم الطعام: هل ينفعه ذلك؟ فقال «لا، إنه لم يقل يوماً من الدهر: ربي اغفر لي خطيئتي يوم الدين». و كذلك لو افتدى بملء الأرض ذهباً ما قُبل منه، كما قال تعالى: **﴿و لا يقبل منها عدل و لا تنفعها شفاعة﴾** و قال **﴿و لا بيع فيه و لا خلال﴾**، و قال **﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً و مثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقُبِّل منهم و لهم عذاب أليم﴾**. و لهذا قال تعالى ههنا: **﴿إن الذين كفروا و ماتوا و هم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به﴾** فعطف **﴿و لو افتدى﴾** به على الأول، فدل على أنه غيره، و ما ذكرناه أحسن من أن يقال: إن الواو زائدة، و الله أعلم، و يقتضي ذلك أن لا ينقذه من عذاب الله شيء و لو كان قد أنفق مثل الأرض ذهباً، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهباً، بوزن جبالها و تلالها و ترابها و رمالها و سهلها و وعرها وبرها وبحرها.

و روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو

كان لك ما على الأرض من شيء، أكنت مُفتدياً به ؟ قال: فيقول: نعم، فيقول الله: قد أردتُ منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك» و هكذا أخرجه البخاري ومسلم.

و لهذا قال **﴿أولئك لهم عذاب أليم و ما لهم من ناصرين﴾** أي: و ما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله، و لا يُجيرهم من أليم عقابه.

﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾

٩٢- روي عن عمرو بن ميمون **﴿لن تنالوا البر﴾** قال: الجنة، و روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالاً، و كان أحب أمواله إليه بَيرُحاء، و كانت مستقبلة المسجد، و كان النبيﷺ يدخلها و يشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت **﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾** قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول **﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾**، و إنَّ أحب أموالي إليّ بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برّها و ذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبيﷺ «بخ بخ ذاك مالٌ رابح، ذاك مال رابح، و قد سمعت و أنا أرى أن تجعلها في الأقربين»، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبوطلحة في أقاربه و بني عمه، أخرجاه، و في الصحيحين أن عمر قال: يا رسول الله لم أُصب مالاً قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر، فما تأمرني به ؟ قال: «حبِّس الأصل و سبِّل الثمرة» و روى الحافظ أبو بكر البزار عن عبد الله بن عمر قال: حضرتني هذه الآية **﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾** فذكرت ما أعطاني الله، فلم أجد شيئاً أحب إليّ من جارية لي رومية، فقلت: هي حرة لوجه الله، فلو أني أعود في شيء جعلته لله لنكحتها، يعني تزوجتها.

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

٩٣- روى أحمد عن ابن عباس قال: أقبلت يهود إلى رسول اللهﷺ فقالوا يا أبا القاسم، إنا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي و اتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال **﴿و الله على ما نقول وكيل﴾** قال «هاتوا» قالوا: أخبرنا عن علامة النبي قال: «تنام عيناه و لا ينام قلبه»، قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة، و كيف تذكر؟ قال: «يلتقي الماءان، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة، أذكرت، و إذا علا ماء المرأة أنثت» قالوا: أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: «كان يشتكي عرق النسا، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا و كذا - قال أحمد: قال بعضهم: يعني الإبل - فحرم لحومها» قالوا: صدقت، قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب بيده - أو في يده - مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله عز وجل» قالوا: فما هذا الصوت الذي يسمع؟ قال: «صوته». قالوا: صدقت، إنما بقيت واحدة، و هي التي نتابعك إن أخبرتنا بها، إنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر فأخبرنا من صاحبك؟ قال:

«جبريل ﷺ» ، قالوا: جبريل ذاك ينزل بالحرب و القتال و العذاب عدونا ، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة و النبات و القطر لكان ، فأنزل الله تعالى: ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه و هدى و بشرى للمؤمنين﴾ و الآية بعدها ، و قد رواه الترمذي و النسائي .

و قوله ﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾ أي حرم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ، قلت: و لهذا السياق بعدما تقدم مناسبتان ، **إحداهما**: أن إسرائيل ﷺ حرم أحب الأشياء إليه و تركها لله ، و كان هذا سائغاً في شريعتهم فله مناسبة بعد قوله ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ فهذا هو المشروع عندنا ، و هو الإنفاق في طاعة الله مما يحبه العبد ويشتهيه ، كما قال تعالى: ﴿و آتى المال على حبه﴾ و قال تعالى: ﴿و يطعمون الطعام على حبه﴾ الآية .

المناسبة الثانية: لما تقدم بيان الرد على النصارى ، و اعتقادهم الباطل في المسيح و تبيين زيف ما ذهبوا إليه وظهور الحق و اليقين في أمر عيسى و أمه ، كيف خلقه الله بقدرته و مشيئته و بعثه إلى بني إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه تبارك و تعالى ، شرع في الرد على اليهود قبحهم الله تعالى و بيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع ، فإن الله تعالى قد نص في كتابهم التوراة أن نوحاً ﷺ لما خرج من السفينة ، أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها ، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحمان الإبل و ألبانها فاتبعه بنوه في ذلك ، وجاءت التوراة بتحريم ذلك ، و أشياء أخرى زيادة على ذلك ، و كان الله عزوجل قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه ، و قد حرم ذلك بعد ذلك ، و كان التسري على الزوجة مباحاً في شريعة إبراهيم ﷺ ، و قد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة ، و قد حُرِّمَ مثل هذا في التوراة عليهم ، و كذلك كان الجمع بين الأختين سائغاً ، وقد فعله يعقوب ﷺ جمع بين الأختين ، ثم حرم عليهم ذلك في التوراة ، و هذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم ، وهذا هو النسخ بعينه ، فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح ﷺ ، في إحلاله بعض ما حرم في التوراة ، فما بالهم لم يتبعوه ؟ بل كذبوه و خالفوه ؟ و كذلك ما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين القويم ، والصراط المستقيم ، و ملة أبيه إبراهيم ، فما بالهم لايؤمنون؟ و لهذا قال تعالى: ﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة﴾ أي كان حلاً لهم ، جميع الأطعمة قبل نزول التوراة إلا ما حرمه إسرائيل ، ثم قال تعالى: ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ فإنها ناطقة بما قلناه .

٩٤- ﴿فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾ أي فمن كذب على الله وادعى أنه شرع لهم السبت و التمسك بالتوراة دائماً ، و أنه لم يبعث نبياً آخر يدعو إلى الله بالبراهين و الحجج بعد هذا الذي بيناه من وقوع النسخ و ظهور ما ذكرناه ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ .

٩٥- ثم قال تعالى: ﴿قل صدق الله﴾ أي قل يا محمد صدق الله فيما أخبر به و فيما شرعه في القرآن ، ﴿فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً و ما كان من المشركين﴾ أي اتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ فإنه الحق الذي لا شك فيه و لا مرية ، و هي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها و لا أبين و لا أوضح و لا أتم ، كما قال تعالى: ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ﴿ ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً و ما كان من المشركين﴾ و قال تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً و ما كان من المشركين﴾ .

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾

٩٦، ٩٧- يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس أي لعموم الناس لعبادتهم و نسكهم، يطوفون به، و يصلون إليه، ويعتكفون عنده ﴿للذي ببكة﴾ يعني الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل ﷺ الذي يزعم كل من طائفتي النصارى واليهود أنهم على دينه و منهجه، و لا يحجون إلى البيت الذي بناه عن أمر الله له في ذلك و نادى الناس إلى حجه، و لهذا قال تعالى: ﴿مباركاً﴾ أي وضع مباركاً ﴿و هدى للعالمين﴾. و قد روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال «المسجد الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة». قلت: ثم أي؟ قال: «ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد» و أخرجه البخاري و مسلم.

و قوله تعالى: ﴿للذي ببكة﴾ بكة من أسماء مكة على المشهور، قيل: سميت بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة و الجبابرة بمعنى أنهم يذلون بها و يخضعون عندها، و قيل: لأن الناس يتباكّون فيها أي يزدحمون. قال قتادة: إن الله بكّ به الناس جميعاً، فيصلي النساء أمام الرجال و لا يفعل ذلك ببلد غيرها، و كذا روي عن مجاهد وعكرمة و سعيد بن جبير و عمرو بن شعيب و مقاتل بن حيان. و عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: مكة من الفج إلى التنعيم، و بكة من البيت إلى البطحاء، و عن إبراهيم: بكة البيت و المسجد، و كذا قال الزهري. و قال عكرمة في رواية، و ميمون بن مهران: البيت و ما حوله بكة، و ما وراء ذلك مكة، و كذا قال أبو صالح و إبراهيم النخعي و عطية العوفي و مقاتل بن حيان، و قد ذكروا لمكة أسماء كثيرة: مكة، و بكة، و البيت العتيق، والبيت الحرام، و البلد الأمين، و المأمون، و أم رحم، و أم القرى، و صلاح، و العرش، على وزن بدر، و القادس لأنها تطهر من الذنوب، و المقدسة، و الناسة بالنون، و بالباء أيضاً والحاطمة، و النسّاسة، و الرأس، و كوثى، و البلدة، و البنية، و الكعبة.

و قوله تعالى: ﴿فيه آيات بينات﴾ أي دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم، و أن الله عظمه و شرفه، ثم قال تعالى: ﴿مقام إبراهيم﴾ يعني الذي لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه و الجدران، حيث كان يقف عليه و يناوله إسماعيل، و قد كان ملتصقاً بجدار البيت حتى أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطُّوَّاف منه، و لا يُشَوِّشون على المصلين عنده بعد الطواف؛ لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ و قد قدمنا الأحاديث في ذلك فأغنى عن إعادتها ههنا، و لله الحمد و المنة. و قال مجاهد: أثر قدميه في المقام آية بينة، و كذا روى عن عمر بن عبد العزيز والحسن وقتادة و السدي و مقاتل بن حيان و غيرهم. و روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مقام إبراهيم﴾ قال: الحجر كله مقام إبراهيم.

و قوله تعالى: ﴿و من دخله كان آمناً﴾ يعني حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، و كذلك كان الأمر في حال الجاهلية، كما قال الحسن البصري و غيره: كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة و يدخل

الحرم، فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج، و قال الله تعالى: ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً و يتخطف الناس من حولهم﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع و آمنهم من خوف﴾ و حتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها و تنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها و قلع حشيشها، كما ثبتت الأحاديث و الآثار في ذلك عن جماعة من الصحابة مرفوعاً وموقوفاً. ففي الصحيحين و اللفظ لمسلم عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح فتح مكة «لا هجرة و لكن جهاد و نية، و إذا استنفرتم فانفروا» و قال يوم الفتح فتح مكة «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات و الأرض، فهو حرام بحرمة الله، إلى يوم القيامة، و إنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه، و لا ينفر صيده، و لا تلتقط لقطته إلا من عرفها، و لا يختلى خلاها» فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر فإنه لقينهم و لبيوتهم، فقال «إلا الإذخر»، و لهما عن أبي هريرة مثله أو نحوه.

و عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح» رواه مسلم. و عن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ و هو واقف بالحَزْوَرَة بسوق مكة، يقول «والله إنك لخير أرض الله، و أحب أرض الله إلى الله، و لو لا أني أُخرجت منك ما خرجت». رواه الإمام أحمد، و هذا لفظه و الترمذي و النسائي و ابن ماجه.

و قوله ﴿و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾ هذه آية وجوب الحج عند الجمهور. و قيل: بل هي قوله ﴿و أتموا الحج و العمرة لله﴾، و الأول أظهر. و قد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام و دعائمه و قواعده، و أجمع المسلمون على ذلك إجماعاً ضرورياً، و إنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص و الإجماع. روى الإمام أحمد رحمه الله، عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال «أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا» فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ «لو قلت نعم لوجبت و لما استطعتم» ثم قال «ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم و اختلافهم على أنبيائهم، و إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، و إذا نهيتكم عن شيء فدعوه» ورواه مسلم.

و أما الاستطاعة فأقسام: تارة يكون الشخص مستطيعاً بنفسه، و تارة بغيره كما هو مقرر في كتب الأحكام، روى أبو عيسى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال قام رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: من الحاج يا رسول الله؟ قال «الشَّعِثُ التَّفِل» فقام آخر فقال: أي الحج أفضل يا رسول الله؟ قال: «العَجُّ و الثَّجُّ»، فقام آخر فقال: ما السبيل يارسول الله؟ قال: «الزاد و الراحلة» و هكذا رواه ابن ماجه، و رواه ابن أبي حاتم من طريق آخر ثم قال: و قد روي عن ابن عباس و أنس و الحسن و مجاهد و عطاء و سعيد بن جبير و الربيع بن أنس وقتادة نحو ذلك، و قد روي هذا الحديث من طرق أخرى من حديث أنس و عبد الله بن عباس و ابن مسعود وعائشة كلها مرفوعة، و لكن في أسانيدها مقال كما هو مقرر في كتاب الأحكام، و الله أعلم، ورواه الحاكم من حديث أنس رضي الله عنه.

و روى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ «تعجلوا إلى الحج - يعني الفريضة - فإن

أحدكم لا يدري ما يعرض له» . وقوله تعالى : ﴿و من كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ قال ابن عباس و مجاهد و غير واحد : أي و من جحد فريضة الحج فقد كفر و الله غني عنه . و قد روى أبو بكر الإسماعيلي الحافظ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : من أطاق الحج فلم يحج ، فسواء عليه مات يهودياً أو نصرانياً ، وهذا إسناد صحيح إلى عمر رضي الله عنه .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) ﴾

٩٨ ، ٩٩- هذا تعنيف من الله تعالى للكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق ، و كفرهم بآيات الله ، و صدهم عن سبيل الله من أراده من أهل الإيمان بجهدهم و طاقتهم ، مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله ، بما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين و السادة المرسلين صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين ، و ما بشروا به ونوّهوا به من ذكر النبي الأمي الهاشمي العربي المكي سيد ولد آدم ، و خاتم الأنبياء ، و رسول رب الأرض والسماء ، و قد توعدهم الله على ذلك ، و أخبر بأنه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء و معاملتهم الرسول المبشر به بالتكذيب و الجحود و العناد ، فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون ، أي وسيجزيهم على ذلك ﴿يوم لا ينفع مال و لا بنون﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) ﴾

١٠٠- يحذر تبارك و تعالى عباده المؤمنين ، عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب ، الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله و ما منحهم به من إرسال رسوله ، كما قال تعالى : ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم﴾ الآية ، و هكذا قال ههنا ﴿إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ .

١٠١- ثم قال تعالى : ﴿و كيف تكفرون و أنتم تتلى عليكم آيات الله و فيكم رسوله﴾ يعني أن الكفر بعيد منكم و حاشاكم منه ، فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلاً و نهاراً ، و هو يتلوها عليكم و يبلغها إليكم ، و هذا كقوله تعالى : ﴿و ما لكم لا تؤمنون بالله و الرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم و قد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين﴾ الآية بعدها . ثم قال تعالى : ﴿و من يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ أي و مع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية ، و العدة في مباعدة الغواية ، و الوسيلة إلى الرشاد ، و طريق السداد وحصول المراد .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ

إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

١٠٢- روى ابن أبي حاتم عن عبد الله هو ابن مسعود **﴿اتقوا الله حق تقاته﴾** قال: أن يطاع فلا يعصى، و أن يذكر فلا ينسى، و أن يشكر فلا يكفر، و هذا إسناد صحيح موقوف، ثم قال ابن أبي حاتم: و روي نحوه عن مرة الهمداني و الربيع بن خُثيم و عمرو بن ميمون و إبراهيم النخعي و طاوس و الحسن و قتادة و أبي سنان والسدي نحو ذلك. و روي عن أنس أنه قال: لا يتقي الله العبد حق تقاته حتى يخزن لسانه. و قد ذهب سعيد ابن جبير و أبو العالية، و الربيع بن أنس و قتادة و مقاتل بن حيان و زيد بن أسلم و السدي و غيرهم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: **﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾**. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: **﴿اتقوا الله حق تقاته﴾** قال: لم تنسخ، و لكن **﴿حق تُقاته﴾** أي يجاهدوا في سبيله حق جهاده، و لا تأخذهم في الله لومة لائم، و يقوموا بالقسط و لو على أنفسهم و آبائهم و أبنائهم. و قوله تعالى: **﴿و لا تموتن إلا و أنتم مسلمون﴾** أي حافظوا على الإسلام في حال صحتكم و سلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، و من مات على شيء بُعث عليه، فعياذاً بالله من خلاف ذلك.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ « **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته و لا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾** و لو أن قطرة من الزقوم قُطِرت لأَمَرَّتْ على أهل الأرض عيشتهم، فكيف بمن ليس له طعام إلا الزقوم؟» و هكذا رواه الترمذي و النسائي و ابن ماجه و ابن حبان في صحيحه و الحاكم.

و روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ «من أحبَّ أن يُزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله و اليوم الآخر، ويأتي إلى الناس ما يحب أن يُؤتى إليه». و روى الإمام أحمد أيضاً عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث «لا يموتن أحدكم إلا و هو يحسن الظن بالله عز وجل» ورواه مسلم.

١٠٣- و قوله تعالى: **﴿و اعتصموا بحبل الله جميعاً و لا تفرقوا﴾** قيل **﴿بحبل الله﴾** أي بعهد الله، كما قال في الآية بعدها **﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله و حبل من الناس﴾** أي بعهد و ذمة، و قيل **﴿بحبل من الله﴾** يعني القرآن و روى وكيع عن عبد الله: إن هذا الصراط مُحتضر يحضره الشياطين. يا عبدالله هذا الطريق، هلم إلى الطريق فاعتصموا بحبل الله، فإن حبل الله القرآن.

و قوله: **﴿و لا تفرقوا﴾** أمرهم بالجماعة و نهاهم عن التفرقة، و قد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق، و الأمر بالاجتماع و الائتلاف، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، و يسخط لكم ثلاثاً، يرضى لكم أن تعبدوه و لا تشركوا به شيئاً، و أن تعتصموا بحبل الله جميعاً و لا تفرقوا، و أن تناصحوا مَنْ ولاَّه أمركم، و يسخط لكم ثلاثاً: قيلَ و قال، و كثرةَ السؤال، وإضاعة المال» و قد ضُمِنتْ لهم العصمة عند اتفاقهم من الخطأ، كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضاً، وخيف عليهم الافتراق و الاختلاف، و قد وقع ذلك في هذه الأمة فافترقوا على ثلاث و سبعين فرقة، منها فرقة ناجية إلى الجنة و مسلمة من عذاب النار، و هم الذين على ما كان عليه النبي ﷺ و أصحابه.

و قوله تعالى: ﴿و اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ إلى آخر الآية، و هذا السياق في شأن الأوس و الخزرج، فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، و عداوة شديدة و ضغائن و إحن و ذحول، طال بسببها قتالهم و الوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام، فدخل فيه من دخل منهم، صاروا إخواناً متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر و التقوى، قال الله تعالى: ﴿هو الذي أيدك بنصره و بالمؤمنين و ألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم و لكن الله ألف بينهم﴾ إلى آخر الآية، و كانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم، فأنقذهم الله منها أن هداهم للإيمان، و قد امتنّ عليهم بذلك رسول الله ﷺ يوم قسم غنائم حنين، فعتب من عتب منهم، بما فضل عليهم في القسم، بما أراه الله، فخطبهم فقال «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلّالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، و عالة فأغناكم الله بي؟» فكلما قال شيئاً قالوا: الله و رسوله أمنّ.

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩) ﴾

١٠٤- يقول تعالى: ﴿و لتكن منكم أمة﴾ منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، ﴿و أولئك هم المفلحون﴾، قال الضحاك: هم خاصة الصحابة و خاصة الرواة، يعني المجاهدين والعلماء. و المقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن، و إن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه و ذلك أضعف الإيمان» و في رواية: «و ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل». و روى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان، أن النبي ﷺ قال: «و الذي نفسي بيده، لتأمرنّ بالمعروف و لتنهونّ عن المنكر، أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم» و رواه الترمذي و ابن ماجه، و الأحاديث في هذا الباب كثيرة، مع الآيات الكريمة، كما سيأتي تفسيرها في أماكنها.

١٠٥- ثم قال تعالى: ﴿و لا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾ الآية، ينهى تبارك وتعالى هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضين في افتراقهم و اختلافهم و تركهم الأمر بالمعروف، و النهي عن المنكر، مع قيام الحجة عليهم. روى الإمام أحمد عن أبي عامر عبد الله بن لحيّ قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان فلما قدمنا مكة، قام حين صلى الظهر، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين و سبعين ملة، و إن هذه الأمة ستفترق على ثلاثة و سبعين ملة - يعني الأهواء - كلها في النار إلا

واحدة - و هي الجماعة - و إنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكَلَبُ بصاحبه، لا يبقي منه عرقٌ و لا مفصل إلا دخله» و الله يا معشر العرب، لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ ، لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به، و هكذا رواه أبو داود و قد ورد هذا الحديث من طرق.

١٠٦ ، ١٠٧- و قوله تعالى: **﴿يوم تبيض وجوه و تسود وجوه﴾** يعني يوم القيامة، حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، و تسود وجوه أهل البدعة و الفرقة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، **﴿فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم﴾** قال الحسن البصري: و هم المنافقون **﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾** و هذا الوصف يعم كل كافر **﴿و أما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾** يعني الجنة ماكثون فيها أبداً لا يبغون عنها حِولاً، و قد روى أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية عن أبي غالب، قال: رأى أبو أمامة رؤوساً منصوبة على درج مسجد دمشق، فقال أبو أمامة: كلابُ النار شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى مَنْ قتلوه، ثم قرأ **﴿يوم تبيض وجوه و تسود وجوه﴾** إلى آخر الآية، قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال: لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً أو أربعاً - حتى عدّ سبعاً - ما حدثتكموه، ثم قال: هذا حديث حسن، و قد رواه ابن ماجه، و أخرجه أحمد.

١٠٨- ثم قال تعالى: **﴿تلك آيات الله نتلوها عليك﴾** أي هذه آيات الله و حججه و بيناته نتلوها عليك يا محمد **﴿بالحق﴾** أي نكشف ما الأمر عليه في الدنيا و الآخرة **﴿و ما الله يريد ظلماً للعالمين﴾** أي ليس بظالم لهم بل هو الحكم، العدل الذي لا يجور، لأنه القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحداً من خلقه.

١٠٩- و لهذا قال تعالى: **﴿و لله ما في السموات و ما في الأرض﴾** أي الجميع مُلْكٌ له و عبيد له **﴿و إلى الله ترجع الأمور﴾** أي هو الحاكم المتصرف في الدنيا و الآخرة.

﴿ كُنتُم خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُم مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

١١٠- يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم، فقال تعالى: **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾** روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾** قال: خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام، و هكذا قال ابن عباس و مجاهد و عطية العوفي و عكرمة و عطاء والربيع ابن أنس **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾** يعني خير الناس للناس، و المعنى أنهم خير الأمم و أنفع الناس للناس، و لهذا قال **﴿تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و تؤمنون بالله﴾**، روى أحمد عن عبدالله بن عميرة، عن زوج دُرّة بنت أبي لهب، عن درّة بنت أبي لهب قالت: قام رجل إلى النبي ﷺ و هو على المنبر، فقال: يا رسول

الله أي الناس خير؟ قال «خيرُ الناس أقرؤهم و أتقاهم لله، و آمرهم بالمعروف، و أنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم»، و روى أحمد و النسائي و الحاكم عن ابن عباس في قوله تعالى: **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾** قال: هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة.

و الصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة كل قرن بحسبه، و خير قرونهم الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، كما قال في الآية الأخرى **﴿و كذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾** أي خياراً **﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾** الآية. و في مسند الإمام أحمد و جامع الترمذي و سنن ابن ماجه و مستدرك الحاكم من رواية حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ «أنتم تُوفُّون سبعين أمة، أنتم خيرها و أنتم أكرم على الله عز وجل» و هو حديث مشهور، وقد حسنه الترمذي، و يُروى من حديث معاذ بن جبل و أبي سعيد نحوه، و إنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلوات الله و سلامه عليه، فإنه أشرف خلق الله و أكرم الرسل على الله، و بعثه الله بشرع كامل لم يعطه نبي قبله و لا رسول من الرسل، فالعمل على منهاجه و سبيله يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه. و قد وردت أحاديث يناسب ذكرها ههنا، روى الإمام أحمد عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «أُعطيتُ سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، وجوههم كالقمر ليلة البدر، قلوبهم على قلب رجل واحد، فاستزدت ربي عز وجل فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً» قال أبو بكر رضي الله عنه: فرأيت أن ذلك آت على أهل القرى و مصيب من حافات البوادي.

حديث آخر: روى مسلم بن الحجاج في صحيحه عن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال، أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ قلت: أنا، ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة، و لكني لدغت، قال: فما صنعت؟ قلت: أنا، ثم قلت: استرقيت، قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي، قال: و ما حدثكم الشعبي؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب الأسلمي أنه قال «لا رقية إلا من عينٍ أو حُمَة»، قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، و لكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «عُرِضت عليّ الأمم فرأيت النبي و معه الرهيط، و النبي و معه الرجل و الرجلان، و النبي وليس معه أحد، إذ رُفِعَ لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى و قومه، و لكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك و معهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب و لا عذاب» ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب و لا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، و قال بعضهم: فلعلهم الذين وُلدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، و ذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ، فقال «ما الذي تخوضون فيه؟» فأخبروه، فقال «هم الذين لا يرقون و لا يسترقون، و لا يتطيرون و على ربهم يتوكلون» فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: «أنت منهم»، ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «سبقك بها عكاشة» و أخرجه البخاري و ليس عنده: لا يرقون.

حديث آخر: روى الحافظ أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب السنن له عن أبي أمامة الباهلي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول «وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً، مع كل ألف سبعون ألفاً، لا حساب

عليهم و لا عذاب، و ثلاث حثيات من حثيات ربي عز وجل» و كذا رواه الطبراني و هذا إسناد جيد.

نوع آخر: من الأحاديث الدالة على فضيلة هذه الأمة و شرفها و كرامتها على الله عز وجل، و أنها خير الأمم في الدنيا و الآخرة، روى الإمام أحمد عن جابر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إني لأرجو أن يكون من يتبعني من أمتي يوم القيامة ربع الجنة» قال: فكبّرنا، ثم قال: «أرجو أن يكونوا ثلث الناس» قال: فكبرنا، ثم قال: «أرجو أن تكونوا الشطر» وهو على شرط مسلم.

و ثبت في الصحيحين من حديث عن عبد الله بن مسعود، قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة ؟» فكبرنا، ثم قال: «أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة ؟» فكبرنا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة».

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن ابن بريدة عن أبيه، أن النبي ﷺ قال: «أهل الجنة عشرون و مائة صف، هذه الأمة من ذلك ثمانون صفاً». و روى عبد الرزاق عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا و أوتيناه من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، الناس لنا فيه تبع، غداً لليهود للنصارى بعد غد» رواه البخاري و مسلم.

فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى: **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾** فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم و المدح، كما قال قتادة: بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة حجها، رأى من الناس سرعة، فقرأ هذه الآية **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾** ثم قال: من سره أن يكون من تلك الأمة، فليؤد شرط الله فيها، رواه ابن جرير، و من لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله تعالى: **﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾** الآية، و لهذا لما مدح تعالى هذه الأمة على هذه الصفات، شرع في ذم أهل الكتاب و تأنيبهم، فقال تعالى: **﴿و لو آمن أهل الكتاب﴾** أي بما أنزل على محمد ﷺ **﴿لكان خيراً لهم منهم المؤمنون و منهم الفاسقون﴾** أي قليل منهم من يؤمن بالله و ما أنزل إليكم و ما أنزل إليهم، و أكثرهم على الضلالة و الكفر و الفسق و العصيان.

١١١- ثم قال تعالى مخبراً عباده المؤمنين و مبشراً لهم أن النصر و الظفر لهم، على أهل الكتاب الكفرة الملحدين، فقال تعالى: **﴿لن يضروكم إلا أذى و إن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون﴾** و هكذا وقع، فإنهم يوم خيبر أذلهم الله و أرغم أنوفهم، و كذلك من قبلهم من يهود المدينة بني قينقاع و بني النضير و بني قريظة كلهم أذلهم الله، و كذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن، و سلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين، و لا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم كذلك، ويحكم بملة الإسلام وشرع محمد عليه أفضل الصلاة و السلام، فيكسر الصليب و يقتل الخنزير ويضع الجزية، و لا يقبل إلا الإسلام.

١١٢- ثم قال تعالى: **﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله و حبل من الناس﴾** أي ألزمهم الله الذلة و الصغار أينما كانوا فلا يأمنون **﴿إلا بحبل من الله﴾** أي بذمة من الله، و هو عقد الذّمة لهم و ضرب الجزية عليهم، و إلزامهم أحكام الملة **﴿و حبل من الناس﴾** أي أمان منهم لهم، كما في المهادن و المعاهد والأسير

إذا أمّنه واحد من المسلمين، و لو امرأة، و كذا عبد على أحد قولي العلماء، قال ابن عباس ﴿**إلا بحبل من الله وحبل من الناس**﴾ أي بعهد من الله و عهد من الناس و كذا قال مجاهد و عكرمة و عطاء و الضحاك و الحسن وقتادة و السدي و الربيع بن أنس. و قوله ﴿**و باؤوا بغضب من الله**﴾ أي الزموا بغضب من الله و هم يستحقونه ﴿**و ضربت عليهم المسكنة**﴾ أي ألزموها قدراً و شرعاً. و لهذا قال ﴿**ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله و يقتلون الأنبياء بغير حق**﴾ أي و إنما حملهم على ذلك الكبر و البغي و الحسد فأعقبهم ذلك الذلة و الصغار و المسكنة أبداً، متصلاً بذل الآخرة، ثم قال تعالى: ﴿**ذلك بما عصو و كانوا يعتدون**﴾ أي إنما حملهم على الكفر بآيات الله و قتل رسل الله، وقيّضوا لذلك أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله عز وجل و الغشيان لمعاصي الله، و الاعتداء في شرع الله، فعياذاً بالله من ذلك، و الله عز وجل المستعان.

﴿ **لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)** ﴾

١١٣- روي عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿**ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة**﴾ قال: لا يستوي أهل الكتاب و أمة محمد ﷺ، و هكذا قال السدي. و يؤيد هذا القول الحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن ابن مسعود قال: أخّر رسول الله ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال «أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحدٌ يذكر الله هذه الساعة غيركم» قال: فنزلت هذه الآيات ﴿**ليسوا سواء من أهل الكتاب**- إلى قوله - **و الله عليم بالمتقين**﴾ والمشهور عند كثير من المفسرين كما ذكره محمد ابن إسحاق و غيره، و رواه العوفي عن ابن عباس - أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام و أسد بن عبيد و ثعلبة بن سعية و أسيد بن سعية و غيرهم، أي لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب، و هؤلاء الذين أسلموا، و لهذا قال تعالى: ﴿**ليسوا سواء**﴾ أي ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن و منهم المجرم، و لهذا قال تعالى: ﴿**من أهل الكتاب أمة قائمة**﴾ أي قائمة بالأمر الله مطيعة لشرعه، متبعة نبي الله فهي قائمة، يعني مستقيمة ﴿**يتلون آيات الله آناء الليل و هم يسجدون**﴾ أي يقومون الليل ويكثرون التهجد، و يتلون القرآن في صلواتهم.

١١٤- ﴿**يؤمنون بالله و اليوم الآخر و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و يسارعون في الخيرات و أولئك من الصالحين**﴾ و هؤلاء هم المذكورون في آخر السورة ﴿**و إن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله و ما أنزل إليكم و ما أنزل إليهم خاشعين لله**﴾ الآية.

١١٥- و لهذا قال تعالى ههنا ﴿**و ما يفعلوا من خير فلن يكفروه**﴾ أي لا يضيع عند الله، بل يجزيهم به أوفر

الجزاء ﴿و الله عليم بالمتقين﴾ أي لا يخفى عليه عمل عامل، و لا يضيع لديه أجر من أحسن عملاً.

١١٦- ثم قال تعالى مخبراً عن الكفرة المشركين بأنه ﴿لن تغني عنهم و لا أولادهم من الله شيئاً﴾ أي لا يرد عنهم بأس الله و لا عذابه إذا أراده بهم ﴿و أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

١١٧- ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار في هذه الدار، قاله مجاهد و الحسن و السدي، فقال تعالى: ﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر﴾ أي برد شديد، قاله ابن عباس و عكرمة و سعيد بن جبير والحسن و قتادة و الضحاك و الربيع بن أنس وغيرهم. و قال عطاء: برد وجليد، و عن ابن عباس أيضاً ومجاهد ﴿فيها صر﴾ أي نار و هو يرجع إلى الأول، فإن البرد الشديد - و لا سيما الجليد - يحرق الزروع والثمار، كما يُحرق الشيء بالنار ﴿أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته﴾ أي فأحرقته، يعني بذلك السفعة[1] إذا نزلت على حرث قد آن جذاذه أو حصاده، فدمرته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع، فذهبت به وأفسدته، فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه. فكذلك الكفار يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا و ثمرتها، كما أذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه. و كذلك هؤلاء بنوها على غير أصل و على غير أساس ﴿و ما ظلمهم الله و لكن أنفسهم يظلمون﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾

١١٨، ١١٩- يقول تبارك و تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة، أي يطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم، و المنافقون بجهدهم و طاقتهم، لا يألون المؤمنين خبالاً، أي يسعون في مخالفتهم و ما يضرهم بكل ممكن، و بما يستطيعون من المكر و الخديعة، و يودّون ما يعنت المؤمنين و يحرجهم و يشق عليهم، و قوله تعالى: ﴿لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾ أي من غيركم من أهل الأديان، و بطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخلة أمره. و قد روى البخاري و النسائي و غيرهما، من حديث أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال «ما بَعَث الله من نبي و لا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانةٌ تأمره بالخير و تحضّه عليه، و بطانة تأمره بالسوء و تحضّه عليه، و المعصوم من عصم الله». و روى ابن أبي حاتم أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن ههنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب، فلو اتخذته كاتباً، فقال: قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين.

ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على

(١) السوافع: لوافح السموم.

المسلمين، و اطلاع على دواخل أمورهم، التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب، و لهذا قال تعالى: ﴿لا يألونكم خبالاً ودّوا ما عنتم﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم و ما تخفي صدورهم أكبر﴾ أي قد لاح على صفحات وجوههم، و فلتات ألسنتهم من العداوة، مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام و أهله، ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل، و لهذا قال تعالى: ﴿قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾.

١١٩- و قوله تعالى: ﴿ها أنتم أولاء تحبونهم و لا يحبونكم﴾ أي أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين، بما يظهرونه لكم من الإيمان فتحبونهم على ذلك، و هم لا يحبونكم لا باطناً و لا ظاهراً، ﴿و تؤمنون بالكتاب كله﴾ أي ليس عندكم في شيء منه شك و لا ريب، و هم عندهم الشك و الريب و الحيرة. ﴿و إذا لقوكم قالوا آمنا و إذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ و الأنامل أطراف الأصابع، قاله قتادة. و قال ابن مسعود و السدي و الربيع بن أنس: الأنامل الأصابع، و هذا شأن المنافقين يظهرون للمؤمنين الإيمان و المودة، و هم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه، كما قال تعالى: ﴿و إذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ و ذلك أشد الغيظ و الحنق.

قال الله تعالى: ﴿قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم، فاعلموا أن الله متم نعمته على عباده المؤمنين و مكمل دينه، و مُعْلٍ كلمته و مظهر دينه، فموتوا أنتم بغيظكم ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم و تُكِنُّه سرائركم من البغضاء و الحسد والغلّ للمؤمنين، و هو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تؤمّلون، و في الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها لا محيد لكم عنها، و لا خروج لكم منها.

١٢٠- ثم قال تعالى: ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤكم و إن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾ و هذه الحال دالة على شدة العداوة منهم المؤمنين، و هو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب و نصر و تأييد و كثروا و عزَّ أنصارهم، ساء ذلك المنافقين، و إن أصاب المسلمين سنة أي جدب أو أُديل عليهم الأعداء، لما لله تعالى في ذلك من الحكمة - كما جرى يوم أحد - فرح المنافقون بذلك، قال الله تعالى مخاطباً للمؤمنين ﴿و إن تصبروا و تتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾ الآية، يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار و كيد الفجار، باستعمال الصبر و التقوى، و التوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول و لا قوة لهم إلا به. و هو الذي ما شاء كان، و ما لم يشأ لم يكن، و لا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره و مشيئته، و من توكل عليه كفاه. ثم شرع تعالى في ذكر قصة أحد و ما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين، و التمييز بين المؤمنين و المنافقين و بيان صبر الصابرين فقال تعالى:

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) ﴾

١٢١- المراد بهذه الوقعة يوم أحد عند الجمهور، قاله ابن عباس و الحسن و قتادة و السدي و غير واحد. وكانت وقعة أحد يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة. و كان سببها أن المشركين حين قُتل من قتل من أشرافهم يوم بدر و سلمت العير بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سفيان، فلما رجع قفلهم إلى مكة قال

أبناء من قتل و رؤساء من بقي لأبي سفيان: أرصد هذه الأموال لقتال محمد فأنفقوها في ذلك، فجمعوا الجموع والأحابيش، و أقبلوا في نحو من ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريباً من أحد تلقاء المدينة، فصلى رسول الله ﷺ يوم الجمعة، فلما فرغ منها صلى على رجل من بني النجار يقال له مالك بن عمرو، و استشار رسول الله ﷺ الناس أيخرج إليهم أم يمكث بالمدينة؛ فأشار عبد الله بن أبي بالمقام بالمدينة، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، و إن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم، و رماهم النساء و الصبيان بالحجارة من فوقهم، و إن رجعوا رجعوا خائبين، و أشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهد بدراً بالخروج إليهم، فدخل رسول الله ﷺ فلبس لأمته وخرج عليهم، وقد ندم بعضهم و قالوا: لعلنا استكرهنا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله إن شئت أن نمكث، فقال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمَتَه أن يرجع حتى يحكم الله له» فسار ﷺ في ألف من أصحابه، فلما كانوا بالشوط، رجع عبد الله بن أُبي في ثلث الجيش مغضباً لكونه لم يرجع إلى قوله، وقال هو وأصحابه: لو نعلم اليوم قتالاً لاتبعناكم، و لكننا لا نراكم تقاتلون اليوم. و استمر رسول الله ﷺ سائراً حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي، و جعل ظهره و عسكره إلى أحد، و قال «لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال» و تهيأ رسول الله ﷺ للقتال و هو في سبعمائة من أصحابه. و أمَّر على الرماة عبد الله بن جبير أخا بني عمرو ابن عوف. و الرماة يومئذ خمسون رجلاً. فقال لهم «انضحوا الخيل عنا و لا نؤتين من قبلكم والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا، و إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم» و ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين، و أعطى اللواء مصعب بن عمير أخا بني عبد الدار. و أجاز رسول الله ﷺ بعض الغلمان يومئذ و أرجأ آخرين حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقريب من سنتين، و تعبأت قريش و هم ثلاثة آلاف، و معهم مائتا فرس قد جنبوها، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، و على الميسرة عكرمة بن أبي جهل، و دفعوا اللواء إلى بني عبد الدار، ثم كان بين الفريقين ما سيأتي تفصيله في مواضعه عند هذه الآيات إن شاء الله تعالى، و لهذا قال تعالى: **﴿و إذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال﴾** أي تنزلهم منازلهم، وتجعلهم ميمنة و ميسرة وحيث أمرتهم **﴿و الله سميع عليم﴾** أي سميع لما تقولون، عليم بضمائركم.

و قد أورد ابن جرير ههنا سؤالاً حاصله: كيف تقولون إن النبي ﷺ سار إلى أحد يوم الجمعة بعد الصلاة وقد قال الله تعالى: **﴿و إذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال﴾** الآية؟ ثم كان جوابه عنه: أن غدوه ليبوأهم مقاعد إنما كان يوم السبت أول النهار.

۱۲۲- و قوله تعالى: **﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾** الآية، روى البخاري عن جابر بن عبد الله قال: فينا نزلت **﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾** الآية، قال: نحن الطائفتان بنو حارثة و بنو سلمة. و ما نحب - وقال سفيان مرة - و ما يسرني أنها لم تنزل لقوله تعالى: **﴿و الله وليهما﴾** و كذا رواه مسلم.

۱۲۳- و قوله تعالى: **﴿و لقد نصركم الله ببدر﴾** أي يوم بدر، و كان يوم الجمعة وافق السابع عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين من الهجرة، و هو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام و أهله، و دمغ فيه الشرك، وخرب محله و حزبه، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلثمائة و ثلاثة عشر رجلاً، فيهم فرسان وسبعون بعيراً، و الباقون مشاة ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه. و كان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد و البيض، و العدة الكاملة، و الخيول المسومة و الحلي الزائد، فأعز الله

رسوله و أظهر وحيه و تنزيله، و بيض وجه النبي و قبيله، و أخزى الشيطان و جيله، و لهذا قال تعالى ممتناً على عباده المؤمنين و حزبه المتقين ﴿و لقد نصركم الله ببدر و أنتم أذلة﴾ أي قليل عددكم ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العدد و العُدد، و لهذا قال تعالى في الآية الأخرى ﴿و يوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً - إلى - غفور رحيم﴾. و بدر: محلة بين مكة و المدينة تعرف ببئرها، منسوبة إلى رجل حفرها، وقوله ﴿فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ أي تقومون بطاعته.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩)﴾

١٢٤، ١٢٥ - إختلف المفسرون في هذا الوعد، هل كان يوم بدر أو يوم أحد؟ على قولين، أحدهما: أن قوله ﴿إذ تقول للمؤمنين﴾ متعلق بقوله: ﴿ولقد نصركم الله ببدر﴾ و روي هذا عن الحسن البصري و عامر الشعبي والربيع بن أنس و غيرهم، و اختاره ابن جرير، و قال الربيع بن أنس: أمد الله المسلمين بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف، فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية على هذا القول، و بين قوله تعالى في قصة بدر: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين - إلى قوله - إن الله عزيز حكيم﴾؟ فالجواب أن التنصيص على الألف ههنا لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها لقوله: ﴿مردفين﴾ بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم، و هذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران، فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، و الله أعلم. القول الثاني: إن هذا الوعد متعلق بقوله: ﴿و إذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال﴾ و ذلك يوم أحد، و هو قول مجاهد و عكرمة والضحاك و الزهري و موسى بن عقبة و غيرهم، لكن قالوا: لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف لأن المسلمين فروا يومئذ، زاد عكرمة: و لا بالثلاثة الآلاف لقوله تعالى: ﴿بلى إن تصبروا و تتقوا﴾ فلم يصبروا بل فروا فلم يُمدوا بَمَلَك واحد، و قوله: ﴿بلى إن تصبروا و تتقوا﴾ يعني تصبروا على عدوكم، وتتقوني وتطيعوا أمري، وقوله تعالى: ﴿و يأتوكم من فورهم هذا﴾ قال الحسن و قتادة و الربيع والسدي: أي من وجههم هذا، و قال مجاهد و عكرمة و أبو صالح: أي من غضبهم هذا، و قال الضحاك: من غضبهم ووجههم، و قوله تعالى: ﴿يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ أي معلمين بالسيما. روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه في هذه الآية ﴿مسومين﴾ قال: بالعهن الأحمر، و قال مجاهد: ﴿مسومين﴾ أي محذفة أعرافها، معلمة نواصيها بالصوف الأبيض في أذناب الخيل، و قال قتادة و عكرمة ﴿مسومين﴾ أي بسيما القتال، و قال مكحول: مسومين العمائم. و روى ابن أبي حاتم أن الزبير رضي الله عنه، كان عليه يوم بدر عمامة صفراء معتجراً بها،

فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفر، و رواه ابن مردويه.

١٢٦- و قوله تعالى: ﴿و ما جعله الله إلا بشرى لكم و لتطمئن قلوبكم به﴾ أي و ما أنزل الله الملائكة و أعلمكم بإنزالهم إلا بشارة لكم و تطييباً لقلوبكم و تطميناً، و إلا فإنما النصر من عند الله الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، و من غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال ﴿ذلك و لو شاء الله لانتصر منهم و لكن ليبلو بعضكم ببعض و الذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم ◆ سيهديهم و يصلح بالهم ◆ و يدخلهم الجنة عرفها لهم﴾ و لهذا قال ههنا ﴿و ما جعله الله إلا بشرى لكم و لتطمئن قلوبكم به و ما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ أي هو ذو العزة التي لا ترام، و الحكمة في قدره و الأحكام.

١٢٧- ثم قال تعالى: ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا﴾ أي أمركم بالجهاد و الجلاد لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير، و لهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهَدين، فقال: ﴿ليقطع طرفاً﴾ أي ليهلك أمة ﴿من الذين كفروا أو يكبتهم﴾ أي يخزيهم و يردهم بغيظهم، لما لم ينالوا منكم ما أرادوا. و لهذا قال: ﴿أو يكبتهم فينقلبوا﴾ أي يرجعوا ﴿خائبين﴾ أي لم يحصلوا على ما أملوا.

١٢٨- ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم في الدنيا و الآخرة له وحده لا شريك له، فقال تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ أي بل الأمر كله إليّ، كما قال تعالى: ﴿فإنما عليك البلاغ و علينا الحساب﴾ و قال ﴿ليس عليك هداهم و لكن الله يهدي من يشاء﴾ و قال ﴿إنك لا تهدي من أحببت و لكن الله يهدي من يشاء﴾ قال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ أي ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم، ثم ذكر تعالى بقية الأقسام، فقال ﴿أو يتوب عليهم﴾ أي مما هم فيه من الكفر فيهديهم بعد الضلالة ﴿أو يعذبهم﴾ أي في الدنيا و الآخرة على كفرهم و ذنوبهم، و لهذا قال ﴿فإنهم ظالمون﴾ أي يستحقون ذلك.

وروى البخاري عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من الفجر «اللهم العن فلاناً و فلاناً» بعدما يقول «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد» فأنزل الله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ الآية و هكذا رواه النسائي. و روى أحمد عن عبد الله أن رسول الله ﷺ كان يدعو على أربعة، قال: فأنزل الله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ إلى آخر الآية، قال: و هداهم الله للإسلام. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد، أو يدعو لأحد، قنت بعد الركوع و ربما قال: إذا قال «سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد: اللهم أنج الوليد بن الوليد، و سلمة بن هشام و عياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، و اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» يجهر بذلك. وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر «اللهم العن فلاناً و فلاناً» لأحياء من أحياء العرب، حتى أنزل الله ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ الآية.

و روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كُسرت رباعيته يوم أحد، وشج في جبهته حتى سال الدم على وجهه، فقال «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم، و هو يدعوهم إلى ربهم عز وجل؟» فأنزل الله ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ انفرد به مسلم.

١٢٩- ثم قال تعالى: ﴿ولله ما في السموات و ما في الأرض﴾ أي الجميع ملك له، و أهلها عبيد بين يديه ﴿يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء﴾ أي هو المتصرف فلا معقب لحكمه، و لا يسأل عما يفعل و هم يسألون

﴿والله غفور رحيم﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) ﴾

١٣٠- يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الربا وأكله أضعافاً مضاعفة كما كانوا في الجاهلية يقولون: إذا حل أجل الدَّين، إما أن تقضي و إما أن تُربي، فإن قضاه، و إلا زاده في المدة، و زاده الآخر في القدر، وهكذا كل عام فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً، و أمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى و الأخرى.

١٣١، ١٣٢- ثم توعدهم بالنار و حذرهم منها، فقال تعالى: ﴿و اتقوا النار التي أعدت للكافرين ﴾ ﴿و أطيعوا الله و الرسول لعلكم ترحمون﴾.

١٣٣- ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات و المسارعة إلى نيل القربات، فقال تعالى: ﴿و سارعوا إلى مغفرة من ربكم و جنة عرضها السموات و الأرض أعدت للمتقين﴾ أي كما أعدت النار للكافرين، و قد قيل: إن معنى قوله ﴿عرضها السموات والأرض﴾ تنبيهاً على اتساع طولها، كما قال في صفة فرش الجنة ﴿بطائنها من إستبرق﴾ أي فما ظنك بالظهائر؟، و قيل: بل عرضها كطولها لأنها قبة تحت العرش، و الشيء المقبب والمستدير عرضه كطوله، و قد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة و أوسط الجنة، و منه تفجر أنهار الجنة و سقفها عرش الرحمن» و هذه الآية كقوله تعالى في سورة الحديد ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم و جنة عرضها كعرض السماء و الأرض﴾ الآية.

و عن طارق بن شهاب: إن ناساً من اليهود سألوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟ فقال لهم عمر: أرأيتم إذا جاء النهار أين الليل؟ و إذا جاء الليل أين النهار؟ فقالوا: لقد نزعت مثلها من التوراة، رواه ابن جرير، ثم روى نحوه عن ابن عباس . و هذا يحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون المعنى في ذلك أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون في مكان، و إن كنا لا نعلمه، و كذلك النار تكون حيث يشاء الله عز وجل، وهذا أظهر. الثاني: أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشَّى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من الجانب الآخر، فكذلك الجنة في أعلى عليين فوق السموات تحت العرش و عرضها، كما قال الله عز وجل ﴿كعرض السماء و الأرض﴾ و النار في أسفل سافلين فلا تنافي بين كونها كعرض السموات و الأرض و بين وجود النار، و الله أعلم.

١٣٤ - ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال ﴿الذين ينفقون في السراء و الضراء﴾ أي في الشدة و الرخاء و المنشط و المكره و الصحة و المرض، و في جميع الأحوال، كما قال ﴿الذين ينفقون أموالهم سراً و علانية﴾ و المعني أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى و الإنفاق في مراضيه، و الإحسان إلى خلقه من قراباتهم و غيرهم بأنواع البر. و قوله تعالى: ﴿و الكاظمين الغيظ و العافين عن الناس﴾ أي إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يعملوه، و عفوا مع ذلك عمن أساء إليهم. و روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «ليس الشديد بالصُّرَعَة، و لكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» و قد رواه الشيخان. و روى الإمام أحمد أيضاً عن عبد الله و هو ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله «أيكم مالُ وارثه أحب إليه من ماله» قال: قالوا: يارسول الله ما منّا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال «اعلموا أنه ليس منكم أحد إلا مال وارثه أحب إليه من ماله، مالك من مالك إلا ما قدمت، و مال وارثك ما أخرت» قال: و قال رسول الله ﷺ «ما تعدون الصرعة فيكم؟» قلنا: الذي لا تصرعه الرجال، قال: «لا و لكن الذي يملك نفسه عند الغضب». قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تعدون فيكم الرَّقُوب؟» قلنا: الذي لا ولد له. قال «الذي لم يقدم من ولده شيئاً» أخرج البخاري الفصل الأول منه، و أخرج مسلم أصل هذا الحديث.

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن جارية بن قدامة السعدي أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، قل لي قولاً ينفعني و أقلل عليّ لعلي أعيه، فقال رسول الله ﷺ: «لا تغضب» فأعاد عليه حتى أعاد مراراً كل ذلك يقول «لا تغضب».

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رجل: يارسول الله أوصني، قال: «لا تغضب» قال الرجل: ففكرت حين قال النبي ﷺ ما قال، فإذا الغضب يجمع الشر كله، انفرد به أحمد.

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول الله قال «من كظم غيظاً و هو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء» و رواه أبو داود و الترمذي و ابن ماجه. فقوله تعالى: ﴿و الكاظمين الغيظ﴾ أي لا يُعملون غضبهم في الناس بل يكفون عنهم شرهم، و يحتسبون ذلك عند الله عز وجل. ثم قال تعالى: ﴿و العافين عن الناس﴾ أي مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم فلا يبقى في أنفسهم موجدة على أحد، و هذا أكمل الأحوال، و لهذا قال ﴿و الله يحب المحسنين﴾ فهذا من مقامات الإحسان، و في الحديث «ثلاث أُقسم عليهن: ما نقص مال من صدقة، و ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، و من تواضع لله رفعه الله»[1].

١٣٥، ١٣٦ - و قوله تعالى: ﴿و الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ أي إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة و الاستغفار. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «إن رجلاً أذنب ذنباً فقال: رب إني أذنبت ذنباً فاغفره، فقال الله عز وجل: عبدي عمل ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب و يأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب إني عملت ذنباً فاغفره، فقال تبارك وتعالى: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب و يأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب إني عملت ذنباً فاغفره

(١) رواه مسلم في صحيحه.

لي، فقال الله عز وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب و يأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب إني عملت ذنباً فاغفره، فقال عز وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب و يأخذ به، أشهدكم أني قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء». أخرجاه في الصحيح. و يتأكد الوضوء و صلاة ركعتين عند التوبة لما رواه الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً، نفعني الله بما شاء منه. و إذا حدثني عنه غيره استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، و إن أبا بكر رضي الله عنه حدثني - و صدق أبو بكر - أنه سمع رسول الله ﷺ قال «ما من رجل يُذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الوضوء - قال مسعر - فيصلي - و قال سفيان - ثم يصلي ركعتين، فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له» و هكذا رواه أهل السنن و ابن حبان في صحيحه، و بالجملة فهو حديث حسن، و هو من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عن خليفة النبي أبي بكر الصديق رضي الله عنهما. و مما يشهد بصحة هذا الحديث ما رواه مسلم في صحيحه عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو فيسبغ - الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، و أشهد أن محمداً عبده و رسوله، إلا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء».

و في الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه توضأ لهم وضوء النبي ﷺ، ثم قال: سمعت النبي ﷺ يقول «من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يُحَدِّث فيهما نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه» فقد ثبت هذا الحديث من رواية الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، عن سيد الأولين و الآخرين، و رسول رب العالمين، كما دل عليه الكتاب المبين، من أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين، و قد روى عبد الرزاق عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بلغني أن إبليس حين نزلت هذه الآية **﴿و الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾** الآية، بكى.

وقوله تعالى: **﴿و من يغفر الذنوب إلا الله﴾** أي لا يغفرها أحد سواه، و قوله **﴿و لم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾** أي تابوا من ذنوبهم و رجعوا إلى الله عن قريب، و لم يستمروا على المعصية و يصروا عليها غير مقلعين عنها، و لو تكرر منهم الذنب تابوا عنه، و قوله **﴿و هم يعلمون﴾** قال مجاهد و عبد الله بن عبيد ابن عمير **﴿وهم يعلمون﴾** أن من تاب تاب الله عليه، و هذا كقوله تعالى: **﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾** وكقوله **﴿و من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾** ونظائر هذا كثيرة جداً. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال و هو على المنبر «ارحموا تُرحموا، و اغفروا يُغفر لكم، ويل لأقماع القول[1] ويل للمصرين الذين يُصرّون على ما فعلوا و هم يعلمون» تفرد به أحمد.

١٣٦- ثم قال تعالى بعد وصفهم بما وصفهم به **﴿أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم﴾** أي جزاؤهم على هذه الصفات **﴿مغفرة من ربهم و جنات تجري من تحتها الأنهار﴾** أي من أنواع المشروبات **﴿خالدين فيها﴾** أي ماكثين فيها **﴿و نعم أجر العاملين﴾** يمدح تعالى الجنة.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ

(١) - أقماع القول: هم الذين يسمعون القول و لا يعونه و لا يحفظونه و لا يعملون به، شبههم بالأقماع جمع قمع يمر به السائل أو المائع اجتيازاً و لا تعي ما يفرغ فيها. (انظر النهاية لابن الأثير).

لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

١٣٧- يقول تعالى مخاطباً عباده المؤمنين الذين أصيبوا يوم أحد و قتل منهم سبعون **﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾** أي قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم، و الدائرة على الكافرين، و لهذا قال تعالى: **﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾**.

١٣٨- ثم قال تعالى: **﴿هذا بيان للناس﴾** يعني القرآن فيه بيان الأمور على جليتها، و كيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم **﴿و هدى و موعظة﴾** يعني القرآن فيه خبر ما قبلكم. و **﴿هدى﴾** لقلوبكم، و **﴿و موعظة للمتقين﴾** أي زاجر عن المحارم و المآثم.

١٣٩- ثم قال تعالى مسلياً المؤمنين **﴿و لا تهنوا﴾** أي لا تضعفوا بسبب ما جرى **﴿و لا تحزنوا و أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾** أي العاقبة و النصرة لكم أيها المؤمنون.

١٤٠- **﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾** أي إن كنتم قد أصابتكم جراح و قتل منكم طائفة، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل و جراح **﴿و تلك الأيام نداولها بين الناس﴾** أي نديل عليكم الأعداء تارة، و إن كانت لكم العاقبة، لما لنا في ذلك من الحكمة، و لهذا قال تعالى: **﴿و ليعلم الله الذين آمنوا﴾** قال ابن عباس: في مثل هذا لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء **﴿و يتخذ منكم شهداء﴾** يعني يقتلون في سبيله ويبذلون مهجهم في مرضاته **﴿و الله لا يحب الظالمين﴾**.

١٤١- **﴿و ليمحص الله الذين آمنوا﴾** أي يكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب. و إلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به. و قوله **﴿و يمحق الكافرين﴾** أي فإنهم إذا ظفروا بغوا و بطروا، فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم و محقهم و فنائهم.

١٤٢- ثم قال تعالى: **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة و لما يعلم الله الذين جاهدوا منكم و يعلم الصابرين﴾** أي: أحسبتم أن تدخلوا الجنة و لم تبتلوا بالقتال و الشدائد، كما قال تعالى في سورة البقرة **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة و لما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء و الضراء و زلزلوا﴾** الآية، و قال تعالى: **﴿الم ❁ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا و هم لا يفتنون﴾** الآية، و لهذا قال ههنا **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة و لما يعلم الله الذين جاهدوا منكم و يعلم الصابرين﴾** أي لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا و يرى الله منكم المجاهدين في سبيله، و الصابرين على مقاومة الأعداء.

١٤٣- و قوله **﴿و لقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه و أنتم تنظرون﴾** أي قد كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم، تتمنون لقاء العدو و تتحرقون عليهم و تودون مناجزتهم و مصابرتهم، فها قد حصل لكم الذي

تمنيتموه و طلبتموه، فدونكم فقاتلوا و صابروا، و قد ثبت في الصحيحين أن رسول اللهﷺ قال: «لا تتمنوا لقاء العدو، و سلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، و اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» و لهذا قال تعالى: ﴿فقد رأيتموه﴾ يعني: الموت شاهدتموه وقت لمعان السيوف، و حد الأسنة و اشتباك الرماح، و صفوف الرجال للقتال، و المتكلمون يعبرون عن هذا بالتخييل، و هو مشاهدة ما ليس بمحسوس كالمحسوس كما تتخيل الشاة صداقة الكبش، و عداوة الذئب.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)﴾

١٤٤- لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد و قتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل، ورجع ابن قمئة إلى المشركين، فقال لهم: قتلت محمداً، و إنما كان قد ضرب رسول اللهﷺ فشجه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس و اعتقدوا أن رسول اللهﷺ قد قتل، و جوزوا عليه ذلك، كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام، فحصل ضعف و وهن و تأخر عن القتال، ففي ذلك أنزل الله تعالى على رسولهﷺ: ﴿و ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ أي له أسوة بهم في الرسالة، و في جواز القتل عليه، ثم قال تعالى منكراً على من حصل له ضعف ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ أي رجعتم القهقرى ﴿و من ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً و سيجزي الله الشاكرين﴾ أي الذين قاموا بطاعته و قاتلوا عن دينه، و اتبعوا رسوله حياً و ميتاً. و كذلك ثبت في الصحاح و المسانيد و السنن و غيرها من كتب الإسلام من طرق متعددة تفيد القطع، و قد ذكرت ذلك في مسندي الشيخين أبي بكر و عمر رضي الله عنهما أن الصديق رضي الله عنه، تلا هذه الآية لما مات رسول اللهﷺ.

و روى البخاري عن أبي سلمة أن عائشة رضي الله عنها أخبرته أن أبا بكر رضي الله عنه أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة، فتيمم رسول اللهﷺ و هو مغشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه و قبله و بكى، ثم قال: بأبي أنت و أمي و الله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها، و قال ابن عباس: أن أبا بكر خرج و عمر يحدث الناس فقال: اجلس يا عمر فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه و تركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، و من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال الله تعالى: ﴿و ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل - إلى قوله - و سيجزي الله الشاكرين﴾ قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله

أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم فما سمعها بشر من الناس إلا تلاها، و أن عمر قال: و الله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرتُ حتى ما تقلني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض.

١٤٥- و قوله تعالى: **﴿و ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾** أي لا يموت أحد إلا بقدر الله وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له، و لهذا قال **﴿كتاباً مؤجلاً﴾** كقوله **﴿و ما يعمر من معمر و لا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾** و كقوله **﴿هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً و أجل مسمى عنده﴾** و هذه الآية فيها تشجيع للجبناء و ترغيب لهم في القتال، فإن الإقدام و الإحجام لا ينقص من العمر و لا يزيد فيه، و قوله **﴿و من يرد ثواب الدنيا نؤته منها، و من يرد ثواب الآخرة نؤته منها﴾** أي من كان عمله للدنيا فقط نال منها ما قدره الله له، ولم يكن له في الآخرة نصيب، و من قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له في الدنيا، كما قال تعالى: **﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه و من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها و ما له في الآخرة من نصيب﴾** و قال تعالى: **﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً * و من أراد الآخرة سعى لها سعيها و هو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾** و لهذا قال ههنا **﴿وسنجزي الشاكرين﴾** أي سنعطيهم من فضلنا و رحمتنا في الدنيا و الآخرة، بحسب شكرهم و عملهم.

١٤٦، ١٤٧، ١٤٨- ثم قال تعالى مسلياً للمؤمنين عما كان وقع في نفوسهم يوم أحد **﴿و كأين من نبي قاتل معه ربيون كثير﴾** قيل: معناه كم من نبي قُتل وقُتل معه ربيون من أصحابه كثير. و هذا القول هو اختيار ابن جرير فإنه قال: و أما الذين قرأوا **﴿قتل معه ربيون كثير﴾** فإنهم قالوا: إنما عنى بالقتل النبي و بعض من معه من الربيين دون جميعهم، و إنما نفى الوهن و الضعف عمن بقي من الربيين ممن لم يقتل، قال: و من قرأ **﴿قاتل﴾** فإنه اختار ذلك، لأنه قال: لو قتلوا لم يكن لقول الله **﴿فما وهنوا﴾** وجه معروف لأنه يستحيل أن يوصفوا بأنهم لم يهنوا و لم يضعفوا بعد ما قتلوا، ثم اختار قراءة من قرأ **﴿قتل معه ربيون كثير﴾** لأن الله عاتب بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أحد، و تركوا القتال لما سمعوا الصائح يصيح بأن محمداً قد قتل، فعذلهم الله على فرارهم و تركهم القتال، فقال لهم **﴿أفإن مات أو قتل﴾** أيها المؤمنون ارتددتم عن دينكم و **﴿انقلبتم على أعقابكم﴾** وقيل: و كم من نبي قتل بين يديه من أصحابه ربيون كثير، و كلام ابن إسحاق في السيرة يقتضي قولاً آخر، فإنه قال: وكأين من نبي أصابه القتل و معه ربيون أي جماعات فما وهنوا بعد نبيهم، و ما ضعفوا عن عدوهم، وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله و عن دينهم، و ذلك الصبر **﴿و الله يحب الصابرين﴾** فجعل قوله **﴿معه ربيون كثير﴾** حالاً، و قد نصر هذا القول السهيلي و بالغ فيه، وله اتجاه لقوله **﴿فما وهنوا لما أصابهم﴾** الآية، و كذا حكاه الأموي في مغازيه عن كتاب محمد بن إبراهيم و لم يحك غيره.

و قرأ بعضهم **﴿قاتل معه ربيون كثير﴾** روى سفيان الثوري عن ابن مسعود **﴿ربيون كثير﴾** أي ألوف، و قال ابن عباس ومجاهد و سعيد بن جبير و عكرمة والحسن و قتادة و السدي و الربيع و عطاء الخراساني: الربيون الجموع الكثيرة، و روى عبد الرزاق عن الحسن **﴿ربيون كثير﴾** أي علماء كثير، وعنه أيضاً: علماء صبر أبرار وأتقياء. و حكى ابن جرير عن بعض نحاة البصرة أن الربيين هم الذين يعبدون الرب عز وجل، قال: و رد بعضهم عليه فقال: لو كان كذلك لقيل: الربيون بفتح الراء، و قال ابن زيد: الربيون الأتباع و الرعية، و الربانيون الولاة. **﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله و ما ضعفوا و ما استكانوا﴾** قال قتادة و الربيع بن أنس **﴿و ما**

ضعفوا﴾ بقتل نبيهم ﴿و ما استكانوا﴾ يقول : فما ارتدّوا عن بصيرتهم و لا عن دينهم بأن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا بالله ، و قال ابن عباس ﴿و ما استكانوا﴾ تخشّعوا ، و قال السدي و ابن زيد : و ما ذلوا لعدوهم ، و قال محمد بن إسحاق و السدي و قتادة : أي ما أصابهم ذلك حين قتل نبيهم ﴿و الله يحب الصابرين ۞ و ما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا و إسرافنا في أمرنا و ثبت أقدامنا و انصرنا على القوم الكافرين﴾ أي لم يكن لهم هجّيرى إلا ذلك ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا﴾ أي النصر و الظفر و العاقبة ﴿و حسن ثواب الآخرة﴾ أي جمع لهم ذلك مع هذا ﴿و الله يحب المحسنين﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ﴾

١٤٩ – يحذر تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين و المنافقين ، فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا و الآخرة ، و لهذا قال تعالى : ﴿إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾.

١٥٠ – ثم أمرهم بطاعته و موالاته و الاستعانة به و التوكل عليه ، فقال تعالى : ﴿بل الله مولاكم و هو خير الناصرين﴾.

١٥١ – ثم بشرهم بأنه سيلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم و الذلة لهم بسبب كفرهم و شركهم مع ما ادخره لهم في الدار الآخرة من العذاب و النكال ، فقال : ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً و مأواهم النار و بئس مثوى الظالمين﴾ و قد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن رسول الله قال : «أُعطيتُ خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، و جعلت لي الأرض مسجداً و طهوراً ، و أُحلت لي الغنائم ، و أُعطيت الشفاعة ، و كان النبي يبعث إلى قومه خاصة و بعثت إلى الناس عامة» و روى سعيد بن منصور أن رسول الله ﷺ قال : «نصرت بالرعب على العدو» رواه مسلم.

١٥٢ – و قوله تعالى : ﴿و لقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه﴾ قال ابن عباس : وعدهم الله النصر ، و قد يستدل بهذه الآية على أحد القولين المتقدمين في قوله تعالى : ﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ۞ بلى إن تصبروا و تتقوا و يأتوكم من فورهم هذا يمددكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ أن ذلك كان يوم أحد ، لأن عدوهم كان ثلاثة آلاف مقاتل ، فلما واجهوهم كان الظفر و النصر أول النهار للإسلام ، فلما حصل ما حصل من عصيان الرماة و فشل بعض المقاتلة ، تأخر الوعد الذي كان مشروطاً بالثبات و الطاعة ، و لهذا قال ﴿و لقد صدقكم الله وعده﴾ أي أول النهار ﴿إذ تحسونهم﴾ أي تقتلونهم

﴿بإذنه﴾ أي بتسليطه إياكم عليهم **﴿حتى إذا فشلتم﴾** قال ابن عباس: الفشل الجبن **﴿و تنازعتم في الأمر وعصيتم﴾** كما وقع للرماة **﴿من بعد ما أراكم ما تحبون﴾** و هو الظفر منهم **﴿منكم من يريد الدنيا﴾** و هم الذين رغبوا في المغنم حين رأوا الهزيمة **﴿و منكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾** ثم أدالهم عليكم ليختبركم و يمتحنكم **﴿ولقد عفا عنكم﴾** أي غفر لكم ذلك الصنيع، و ذلك - و الله أعلم - لكثرة عدد العدو وعددهم، و قلة عدد المسلمين و عددهم، قال ابن جريج: قوله **﴿و لقد عفا عنكم﴾** قال: لم يستأصلكم، وكذا قال محمد بن إسحاق: رواهما ابن جرير **﴿و الله ذو فضل على المؤمنين﴾**.

و روى البخاري عن البراء قال: لقينا المشركين يومئذ و أجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة و أمّر عليهم عبدالله بن جبير، و قال: «لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، و إن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا» فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل رفعن عن سوقهن، قد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون الغنيمة الغنيمة، فقال عبد الله بن جبير: عهد إلي النبي ﷺ أن لا تبرحوا فأبوا، فلما أبوا صُرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلاً، فأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال «لا تجيبوه». فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال «لا تجيبوه». فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قد قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه فقال له: كذبت يا عدو الله قد أبقى الله لك ما يحزنك، قال أبو سفيان: اعلُ هُبل. فقال النبي ﷺ: «أجيبوه» قالوا: ما نقول؟ قال «قولوا: الله أعلى و أجل». قال أبو سفيان: لنا العزّى و لا عزى لكم. فقال النبي ﷺ «أجيبوه» قالوا: ما نقول؟ قال «قولوا: الله مولانا و لا مولى لكم». قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، و تجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤني.

و روى البخاري أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما كان يوم أحد هزم المشركون، فصرخ إبليس: أي عباد الله أخراكم، فرجعت أولاهم فاجْتَلَدتْ هي و أخراهم، فبصر حذيفة، فإذا هو بأبيه اليمان فقال: أي عباد الله أبي أبي. قال: قالت: فو الله ما احتجزوا حتى قتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم. قال عروة: فو الله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله عز وجل. و قال عبد الله بن مسعود: ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد **﴿منكم من يريد الدنيا و منكم من يريد الآخرة﴾** و قد روي من غير وجه عن ابن مسعود، و كذا روي عن عبد الرحمن بن عوف و أبي طلحة، رواهن ابن مردويه في تفسيره.

و قوله تعالى: **﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾** روى البخاري عن أنس بن مالك أن عمه يعني أنس بن النضر، غاب عن بدر فقال: غِبتُ عن أول قتال النبي ﷺ لئن أشهدني الله مع رسول الله ليَرَينَّ الله ما أجد، فلقي يوم أحد فَهُزم الناس، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - و أبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدم بسيفه فلقي سعد بن معاذ، فقال: أين يا سعد؟ إني أجد ريح الجنة دون أحد، فمضى فقتل، فما عُرف حتى عرفته أخته ببنانه بشامة، و به بضع وثمانون من طعنة و ضربة و رمية بسهم، هذا لفظ البخاري، و أخرجه مسلم.

و روى البخاري أيضاً عن عثمان بن موهب، قال: جاء رجل حج البيت فرأى قوماً جلوساً، فقال: من هؤلاء القعود؟ قالوا: هؤلاء قريش. قال من الشيخ؟ قالوا: ابن عمر فأتاه فقال: إني أسألك عن شيء

فحدثني، قال: سل، قال: أنشدك بحرمة هذا البيت، أتعلم أن عثمان بن عفان فرّ يوم أحد؟ قال: نعم. قال: فتعلمه تغيب عن بدر فلم يشهدها؟ قال: نعم. قال: فتعلم أنه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم. فكبّر، فقال ابن عمر: تعال لأخبرك و لأبين لك عما سألتني عنه، أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه، و أما تغيبه عن بدر فإنه كان تحته بنت رسول اللهﷺ و كانت مريضة، فقال له رسول اللهﷺ: «إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً و سهمه» و أما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه فبعث عثمان، فكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة، فقال النبيﷺ بيده اليمنى: «هذه يد عثمان» فضرب بها على يده فقال: «هذه يد عثمان» اذهب بها الآن معك.

١٥٣- و قوله تعالى: **﴿إذ تصعدون و لا تلوون على أحد﴾** أي صرفكم عنهم إذ تصعدون أي في الجبل هاربين من أعدائكم. و قرأ الحسن و قتادة **﴿إذ تَصْعَدون﴾** أي في الجبل **﴿و لا تلوون على أحد﴾** أي و أنتم لا تلوون على أحد من الدهش و الخوف و الرعب **﴿و الرسول يدعوكم في أخراكم﴾** أي و هو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء، و إلى الرجعة و العودة و الكرة. قال السدي: لما شد المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم دخل بعضهم المدينة، و انطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة فقاموا عليها. فجعل الرسولﷺ يدعو الناس «إليّ عباد الله، إليّ عباد الله» فذكر الله صعودهم إلى الجبل، ثم ذكر دعاء النبيﷺ إياهم، فقال **﴿إذ تصعدون و لا تلوون على أحد و الرسول يدعوكم في أخراكم﴾** وكذا قال ابن عباس و قتادة والربيع و ابن زيد.

و قد روى البخاري عن قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة شلاّء وقى بها النبيﷺ - يعني يوم أحد - وفي الصحيحين من حديث أبي عثمان النهدي قال: لم يبق مع رسول اللهﷺ، في بعض الأيام التي قاتل فيهن رسول اللهﷺ، إلا طلحة بن عبيد الله و سعد عن حديثهما. و روى الحسن بن عرفة عن سعد بن أبي وقاص قال: نثل لي رسول اللهﷺ كنانته يوم أحد و قال: «ارم فداك أبي و أمي»، و أخرجه البخاري.

و ثبت في الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص قال: رأيت يوم أحد عن يمين النبيﷺ و عن يساره رجلين عليهما ثياب بيض، يقاتلان عنه أشد القتال، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم و لا بعده، يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام. و قال أنس بن مالك: أن رسول اللهﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار، و اثنين من قريش، فلما أرهقوه قال «من يردهم عنا و له الجنة - أو و هو رفيقي في الجنة» فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قتل، ثم أرهقوه أيضاً، فقال «من يردهم عنا و له الجنة» فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قتل، فلم كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول اللهﷺ لصاحبيه «ما أنصفنا أصحابنا» رواه مسلم.

و عن عروة بن الزبير، قال: كان أبي بن خلف أخو بني جمح قد حلف و هو بمكة ليقتلن رسول اللهﷺ، فلما بلغت رسول الله حلفته، قال «بل أنا أقتله إن شاء الله» فلما كان يوم أحد، أقبل أُبي في الحديد مُقنّعاً و هو يقول: لا نجوت إن نجا محمد، فحمل على رسول اللهﷺ يريد قتله فاستقبله مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار يقي رسول اللهﷺ بنفسه، فقُتل مصعب بن عمير، و أبصر رسول اللهﷺ ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابغة الدرع و البيضة و طعنه فيها بحربته، فوقع إلى الأرض عن فرسه، و لم يخرج من طعنته دم، فأتاه أصحابه فاحتملوه و هو يخور خوار الثور، فقالوا له: ما أجزعك إنما هو خدش؟ فذكر لهم قول رسول اللهﷺ

«بل أنا أقتل أبياً» ثم قال: و الذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي، بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعين، فمات إلى النار ﴿فسحقاً لأصحاب السعير﴾ و قد رواه موسى بن عقبة في مغازيه.

و ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «اشتد غضب الله على قوم فعلوا برسول الله ﷺ و هو حينئذ يشير إلى رباعيته، و اشتدَّ غضبُ الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله».

و قد ثبت في الصحيحين عن سهل بن سعد، أنه سئل عن جرح رسول الله ﷺ فقال: جرح وجه رسول الله ﷺ و كسرت رباعيته و هشمت البيضة على رأسه ﷺ، فكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدم و كان علي يسكب عليه الماء بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها حتى إذا صارت رماداً ألصقته بالجرح فاستمسك الدم.

و قوله تعالى: ﴿فأثابكم غماً بغم﴾ أي فجزاكم غماً على غم، كما تقول العرب: نزلت ببني فلان، و نزلت على بني فلان. و قال ابن جرير: وكذا قوله ﴿و لأصلبنكم في جذوع النخل﴾ أي على جذوع النخل، قال ابن عباس: الغم الأول بسبب الهزيمة، و حين قيل قتل محمد ﷺ، و الثاني: حين علاهم المشركون فوق الجبل، وقال النبي ﷺ: «اللهم ليس لهم أن يعلونا» و عن عبد الرحمن بن عوف: الغم الأول بسبب الهزيمة، و الثاني: حين قيل قتل محمد ﷺ كان ذلك عندهم أشد و أعظم من الهزيمة، رواهما ابن مردويه، و روي عن عمر بن الخطاب نحو ذلك، و ذكر ابن أبي حاتم عن قتادة نحو ذلك أيضاً.

و قال السدي: الغم الأول بسبب ما فاتهم من الغنيمة و الفتح، و الثاني بإشراف العدو عليهم، و قال محمد بن إسحاق ﴿فأثابكم غماً بغم﴾ أي كرباً بعد كرب، قتل مَنْ قتل من إخوانكم، و علو عدوكم عليكم، وما وقع في أنفسكم من قول من قال: قتل نبيكم، فكان ذلك متتابعاً عليكم غماً بغم، قال ابن جرير: و أولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال ﴿فأثابكم غماً بغم﴾ فأثابكم بغمكم أيها المؤمنون بحرمان الله إياكم غنيمة المشركين والظفر بهم والنصر عليهم، و ما أصابكم من القتل و الجراح، يومئذ بعد الذي كان قد أراكم في كل ذلك ما تحبون بمعصيتكم أمر ربكم، و خلافكم أمر نبيكم ﷺ غم ظنكم أن نبيكم قد قتل، و ميل العدو عليكم بعد فلولكم منهم. و قوله تعالى: ﴿لكيلا تحزنوا على ما فاتكم﴾ أي على ما فاتكم من الغنيمة و الظفر بعدوكم ﴿ولا ما أصابكم﴾ من الجراح و القتل، قاله ابن عباس و عبد الرحمن بن عوف و الحسن و قتادة و السدي، ﴿والله خبير بما تعملون﴾ سبحانه و بحمده لا إله إلا هو جل و علا.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)﴾

١٥٤ ، ١٥٥ - يقول تعالى ممتناً على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة و الأمنة ، وهو النعاس الذي غشيهم وهم مستلئمو السلاح في حال همهم و غمهم ، و النعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان ، كما قال تعالى في سورة الأنفال في قصة بدر ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾ الآية ، و روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال : النعاس في القتال من الله ، و في الصلاة من الشيطان ، و روى البخاري عن أبي طلحة قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد ، حتى سقط سيفي من يدي مراراً ، يسقط و آخذه ، و يسقط و آخذه ، و قد رواه الترمذي والنسائي و الحاكم عن أبي طلحة قال : رفعت رأسي يوم أحد و جعلت أنظر و ما منهم يومئذ أحد إلا يميل تحت حجفته من النعاس .

و الطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم ، أجبن قوم و أرعبه و أخذله للحق ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾ أي إنما هم كذبة أهل شك و ريب في الله عز وجل ، قال عز و جل ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم﴾ يعني أهل الإيمان و اليقين و الثبات و التوكل الصادق ، و هم الجازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله و ينجز له مأموله ، و لهذا قال : ﴿و طائفة قد أهمتهم أنفسهم﴾ يعني لا يغشاهم النعاس من القلق و الجزع و الخوف ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول و المؤمنون إلى أهليهم أبداً﴾ إلى آخر الآية ، و هكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة و أن الإسلام قد باد و أهله ، و هذا شأن أهل الريب و الشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة ، ثم أخبر تعالى عنهم أنهم ﴿يقولون﴾ في تلك الحال ﴿هل لنا من الأمر شيء﴾ فقال تعالى : ﴿قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾ ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا﴾ أي يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ .

روى ابن إسحاق عن الزبير : لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم ، فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره ، قال : فو الله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم يقول : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ، فحفظتها منه ، و في ذلك أنزل الله ﴿يقولون لو كان من الأمر شيء ما قتلنا ههنا﴾ لقول معتب ، ورواه ابن أبي حاتم . قال الله تعالى : ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ أي هذا قدر قدره الله عز وجل و حكم حتم لا محيد عنه و لا مناص منه ، و قوله تعالى : ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم و ليمحص ما في قلوبكم﴾ أي يختبركم بما جرى عليكم ليميز الخبيث من الطيب و يظهر أمر المؤمن من المنافق للناس في الأقوال و الأفعال ﴿و الله عليم بذات الصدور﴾ أي بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر .

١٥٥ - ثم قال تعالى : ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا﴾ أي ببعض ذنوبهم السابقة كما قال بعض السلف : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، و إن من جزاء السيئة السيئة بعدها ، ثم قال تعالى ﴿و لقد عفا الله عنهم﴾ أي عما كان منهم من الفرار ﴿إن الله غفور حليم﴾ أي يغفر الذنب و يحلم عن خلقه و يتجاوز عنهم ، و قد تقدم حديث ابن عمر في شأن عثمان و توليه يوم أحد و أن الله قد عفا عنه مع من عفا عنهم عند قوله ﴿و لقد عفا الله عنكم﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) ﴾

١٥٦- ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد، الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار و الحروب، لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم، فقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا و قالوا لإخوانهم﴾** أي عن إخوانهم **﴿إذا ضربوا في الأرض﴾** أي سافروا للتجارة ونحوها **﴿أو كانوا غزى﴾** أي كانوا في الغزو **﴿لو كانوا عندنا﴾** أي في البلد **﴿ما ماتوا و ما قتلوا﴾** أي ما ماتوا في السفر، وما قتلوا في الغزو، و قوله تعالى: **﴿ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم﴾** أي خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتهم و قتلهم، ثم قال تعالى رداً عليهم **﴿و الله يحيي و يميت﴾** أي بيده الخلق وإليه يرجع الأمر، و لا يحيا أحد و لا يموت أحد إلا بمشيئته و قدره، و لا يُزاد في عمر أحد و لا ينقص منه شيء إلا بقضائه و قدره **﴿و الله بما تعملون بصير﴾** أي علمه و بصره نافذ في جميع خلقه، لا يخفى عليه من أمورهم شيء.

١٥٧- وقوله تعالى: **﴿و لئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله و رحمة خير مما يجمعون﴾** تضمن هذا أن القتل في سبيل الله و الموت أيضاً، وسيلة إلى نيل رحمة الله و عفوه و رضوانه، و ذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني.

١٥٨- ثم أخبر تعالى بأن كل من مات أو قتل فمصيره و مرجعه إلى الله عز وجل، فيجزيه بعمله إن خيراً فخير، و إن شراً فشر، فقال تعالى: **﴿و لئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾**.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١٦٤) ﴾

١٥٩- يقول تعالى مخاطباً رسوله، ممتناً عليه و على المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته المتبعين لأمره، التاركين لزجره، و أطاب لهم لفظه **﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾** أي: أي شيء جعلك لهم ليناً، لولا رحمة الله بك

ويهم ، و قال قتادة **﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾** يقول فبرحمة من الله لنت لهم ، و «ما» صلة ، و قال الحسن البصري هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به ، و هذه الآية الكريمة شبيه بقوله تعالى : **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾** و روى الإمام أحمد عن أبي راشد الحبراني قال : أخذ بيدي أبو أمامة الباهلي و قال : أخذ بيدي رسول الله ﷺ فقال «يا أبا أمامة إن من المؤمنين مَنْ يلين لي قلبه» [1] تفرد به أحمد ، ثم قال تعالى : **﴿و لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾** و الفظ الغليظ ، والمراد به ههنا غليظ الكلام ، لقوله بعد ذلك **﴿غليظ القلب﴾** أي لو كنت سيء الكلام ، قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك و تركوك ، و لكن الله جمعهم عليك ، و ألان جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم ، كما قال عبد الله بن عمرو : «إني أرى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة إنه ليس بفظ ، و لا غليظ ، و لا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ، و لكن يعفو و يصفح» ، و لهذا قال تعالى : **﴿فاعف عنهم و استغفر لهم و شاورهم في الأمر﴾** ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث تطييباً لقلوبهم ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه ، كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير ، فقالوا : يا رسول الله ، لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك ، و لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك ، و لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : «اذهب أنت و ربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، و لكن نقول اذهب ، فنحن معك ، و بين يديك ، و عن يمينك ، و عن شمالك مقاتلون» و شاورهم أيضاً أين يكون المنزل ، حتى أشار المنذر بن عمرو المُعْتق ليموت ، بالتقدم إلى أمام القوم . و شاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو ، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم ، فخرج إليهم ، و شاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ ، فأبى ذلك عليه السعدان سعد بن معاذ و سعد بن عبادة ، فترك ذلك ، و شاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذاري المشركين ، فقال له الصديق : إنا لم نجئ لقتال أحد و إنما جئنا معتمرين ، فأجابه إلى ما قال ، و قال ﷺ في قصة الإفك «أشيروا عليّ معشر المسلمين في قوم أبنوا أهلي و رموهم ، وايم الله ما علمت على أهلي من سوء ، و أبنوهم بمن؟ و الله ما علمت عليه إلا خيراً» و استشار علياً و أسامة في فراق عائشة رضي الله عنها .

فكان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها ، و قد اختلف الفقهاء هل كان ذلك واجباً عليه أو من باب الندب تطييباً لقلوبهم؟ على قولين . و قد روى الحاكم عن ابن عباس في قوله تعالى : **﴿و شاورهم في الأمر﴾** قال : أبو بكر و عمر رضي الله عنهما ، ثم قال : صحيح على شرط الشيخين ، و لم يخرجاه ، و قد روى ابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «المستشار مؤتمن» و رواه أبو داود و الترمذي ، وحسنه النسائي ، و قوله تعالى : **﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾** أي إذا شاورتهم في الأمر و عزمت عليه فتوكل على الله فيه **﴿إن الله يحب المتوكلين﴾**

١٦٠ ، ١٦١ - و قوله تعالى : **﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم و إن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** و هذه الآية كما تقدم من قوله : **﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾** ثم أمرهم بالتوكل عليه ، فقال **﴿و على الله فليتوكل المؤمنون﴾** و قوله تعالى : **﴿و ما كان لنبي أن يغل﴾** قال ابن عباس ومجاهد و الحسن و غير واحد : ما ينبغي لنبي أن يخون . و روى ابن مردويه عن ابن عباس قال : اتهم

(١) معنى «يلين لي قلبه» أي يميل إليّ بالمحبة و المودة ، ودليل ذلك الاتباع له كما قال سبحانه **﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾**

المنافقون رسول الله ﷺ بشيء فقد، فأنزل الله تعالى: ﴿و ما كان لنبي أن يغل﴾ و روي من غير وجه عن ابن عباس نحو ما تقدم، و هذا تنزيه له صلوات الله و سلامه عليه من جميع وجوه الخيانة، في أداء الأمانة، و قسم الغنيمة و غير ذلك. و قال محمد بن إسحاق ﴿و ما كان لنبي أن يغل﴾ بأن يترك بعض ما أنزل إليه فلا يبلغه أمته. و قرأ الحسن البصري و طاوس و مجاهد و الضحاك ﴿و ما كان لنبي أن يُغَل﴾ بضم الياء أي يخان. ثم قال تعالى: ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ وهذا تهديد شديد و وعيد أكيد، وقد وردت السنة بالنهي عن ذلك أيضاً في أحاديث متعددة، روى الإمام أحمد عن المستورد بن شداد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «مَنْ وَلِيَ لنا عملاً و ليس له منزل فليتخذ منزلاً، أو ليست له زوجة فليتزوج، أو ليس له خادم فليتخذ خادماً، أو ليست له دابة فليتخذ دابة، و من أصاب شيئاً سوى ذلك فهو غال».

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن أبي حميد الساعدي قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللُّتبية على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم و هذا أهدي لي. فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال «ما بال العامل نبعثه فيجيء فيقول: هذا لكم و هذا أهدي لي، أفلا جلس في بيت أبيه و أمه فينظر أيُهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحد منكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته، إن كان بعيراً له رُغاء، أو بقرة لها خُوار، أو شاة تيعر» ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه، ثم قال «اللهم هل بلغت» ثلاثاً. و زاد هشام ابن عروة فقال أبو حميد: بصرته بعيني و سمعته بأذني، و اسألوا زيد بن ثابت. أخرجاه.

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن عدي بن عميرة الكندي قال: قال رسول الله ﷺ «يا أيها الناس من عمل لنا منكم عملاً فكتمنا منه مخيطاً فما فوقه، فهو غلٌ يأتي به يوم القيامة» قال: فقام رجل من الأنصار أسود، قال مجالد: هو سعد بن عبادة كأني أنظر إليه، فقال: يا رسول الله اقبل عني عملك. قال «و ما ذاك؟» قال: سمعتك تقول: كذا و كذا، قال «و أنا أقول ذاك الآن، مَنْ استعملناه على عملٍ فليجئ بقليله و كثيره، فما أوتي منه أخذه، و ما نُهي عنه انتهى» و كذا رواه مسلم و أبو داود.

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم خيبر أقبل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: فلان شهيد و فلان شهيد، حتى أتوا على رجل فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله ﷺ «كلا إني رأيته في النار في بُردة غلَّها، أو عباءة» ثم قال رسول الله ﷺ «يا ابن الخطاب اذهب فناد في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون» قال: فخرجت فناديت: ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، و كذا رواه مسلم والترمذي.

١٦٢- و قوله تعالى: ﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله و مأواه جهنم و بئس المصير﴾ أي لا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه فاستحق رضوان الله و جزيل ثوابه، و أجير من وبيل عقابه، و من استحق غضب الله و أُلزم به فلا محيد له عنه، و مأواه يوم القيامة جهنم و بئس المصير، و هذه الآية لها نظائر كثيرة في القرآن، كقوله تعالى: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾ و كقوله ﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا﴾ الآية.

١٦٣- ثم قال تعالى: ﴿هم درجات عند الله﴾، قال الحسن البصري و محمد بن إسحاق: يعني أهل الخير

وأهل الشر درجات، و قال أبو عبيدة والكسائي: منازل، يعني متفاوتون في منازلهم و درجاتهم في الجنة ودركاتهم في النار، كقوله تعالى: ﴿ولكل درجت مما عملوا﴾ الآية، و لهذا قال تعالى: ﴿و الله بصير بما يعملون﴾ أي و سيوفيهم إياها، لا يظلمهم خيراً و لا يزيدهم شراً، بل يجازي كل عامل بعمله.

١٦٤- و قوله تعالى: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾ أي من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته و سؤاله، و مجالسته و الانتفاع به، كما قال تعالى: ﴿و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها﴾ أي من جنسكم، و قال تعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿و ما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام و يمشون في الأسواق﴾ و قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى﴾ و قال تعالى: ﴿يا معشر الجن و الإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾ فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم، بحيث يمكنهم مخاطبته و مراجعته في فهم الكلام عنه، و لهذا قال تعالى: ﴿يتلو عليهم آياته﴾ يعني القرآن ﴿و يزكيهم﴾ أي يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر لتزكو نفوسهم، و تطهر من الدنس و الخبث، الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم و جاهليتهم، ﴿ويعلمهم الكتاب و الحكمة﴾ يعني القرآن و السنة ﴿وإن كانوا من قبل﴾ أي من قبل هذا الرسول ﴿لفي ضلال مبين﴾ أي لفي غي و جهل، ظاهر جلي بين لكل أحد.

﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)﴾

١٦٥- يقول تعالى: ﴿أولما أصابتكم مصيبة﴾ و هي ما أصيب منهم يوم أحد من قتل السبعين منهم ﴿قد أصبتم مثليها﴾ يعني يوم بدر، فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلاً، و أسروا سبعين أسيراً، ﴿قلتم أنى هذا﴾ أي من أين جرى علينا هذا ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ روى ابن أبي حاتم: عن عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم أحد من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، و فرّ أصحاب رسول الله ﷺ عنه، و كسرت رباعيته، و هشمت البيضة على رأسه، و سال الدم على وجهه، فأنزل الله ﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل من عند أنفسكم﴾ بأخذكم الفداء. و هكذا رواه الإمام أحمد، و هكذا قال الحسن البصري، و روي عن جرير عن علي رضي الله عنه، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الأسارى، و قد أمرك أن تخيرهم بين أمرين: إما أن يقدموا فتضرب أعناقهم، و بين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم، قال: فدعا رسول الله ﷺ الناس، فذكر لهم ذلك فقالوا: يا رسول الله، عشائرنا و إخواننا ألا نأخذ فداءهم فنتقوى به على قتال عدونا، ويستشهد منا عدتهم، فليس في ذلك ما نكره؟ قال: فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلاً، عدة أسارى أهل بدر، و هكذا رواه النسائي والترمذي.

و قال محمد بن إسحاق و ابن جريج و الربيع بن أنس و السدي **﴿قل هو من عند أنفسكم﴾** أي بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم يعني بذلك الرُّماة **﴿إن الله على كل شيء قدير﴾** أي: يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه.

١٦٦- ثم قال تعالى: **﴿و ما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله﴾** أي فراركم بين يدي عدوكم و قتلهم لجماعة منكم و جراحتهم لآخرين، كان بقضاء الله و قدره، و له الحكمة في ذلك **﴿و ليعلم المؤمنين﴾** أي الذين صبروا و ثبتوا و لم يتزلزلوا.

١٦٧- **﴿و ليعلم الذين نافقوا و قيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾** يعني بذلك أصحاب عبد الله بن أبي ابن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطريق، فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الإياب والقتال و المساعدة، و لهذا قال **﴿أو ادفعوا﴾** قال ابن عباس و عكرمة وسعيد بن جبير و الضحاك و أبو صالح والحسن و السدي: يعني كَثِّروا سواد المسلمين، و قال الحسن بن صالح: ادفعوا بالدعاء، و قال غيره: رابطوا، فتعللوا قائلين **﴿لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾** قال مجاهد: يعنون لو نعلم أنكم تلقون حرباً لجئناكم، و لكن لا تلقون قتالاً. قال الله عز وجل: **﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾** استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال، فيكون في حال أقرب إلى الكفر، و في حال أقرب إلى الإيمان، لقوله: **﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾** . ثم قال تعالى: **﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾** يعني أنهم يقولون القول و لا يعتقدون صحته، و منه قولهم هذا **﴿لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾** فإنهم يتحققون أن جنداً من المشركين قد جاؤوا من بلاد بعيدة، يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من سَرَاتهم يوم بدر، و هم أضعاف المسلمين، أنه كائن بينهم قتال لا محالة. و لهذا قال تعالى: **﴿و الله أعلم بما يكتمون﴾**.

١٦٨- ثم قال تعالى: **﴿الذين قالوا لإخوانهم و قعدوا لو أطاعونا ما قتلوا﴾** أي لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قُتلوا مع من قتل، قال الله تعالى: **﴿قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾** أي إن كان القعود يَسْلم به الشخص من القتل و الموت، فينبغي أنكم لا تموتون، و الموت لا بد آتٍ إليكم و لو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين. قال مجاهد عن جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي بن سلول.

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا

﴿ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥)﴾

١٦٩ ، ١٧٠- يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم و إنْ قُتلوا في هذه الدار ، فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار .

روى ابن جرير عن أنس بن مالك في أصحاب رسول الله ﷺ الذين أرسلهم نبي الله ﷺ إلى أهل بئر معونة ، قال : لا أدري أربعين أو سبعين ، و على ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفري ، فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ حتى أتوا غاراً مشرفاً على الماء فقعدوا فيه ، ثم قال بعضهم لبعض : أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء ، فقال - أراه ابن ملحان الأنصاري - أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ ، فخرج حتى أتى حياً منهم فاختبأ أمام البيوت ، ثم قال : يا أهل بئر معونة ، إني رسول رسول الله إليكم ، إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده و رسوله ، فآمنوا بالله و رسوله ، فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح ، فضربه في جنبه حتى خرج من الشق الآخر ، فقال : الله أكبر فُزْتُ و رب الكعبة ، فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه في الغار فقتلهم أجمعين عامر بن الطفيل ، و قال إسحاق : حدثني أنس بن مالك أن الله أنزل فيهم قرآناً : «بلِّغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا و رضينا عنه» ، ثم نُسخت فرُفعت بعد ما قرأناها زماناً ، وأنزل الله تعالى : **﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾** .

و قد روى مسلم عن مسروق قال : سألنا عبد الله عن هذه الآية **﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾** فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال «أرواحهم في جوف طيرٍ خُضر ، لها قناديل معلَّقة بالعرش ، تَسْرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطِّلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا : أي شيء نشتهي و نحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا ، قالوا : يا رب نُريد أن تَردَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتلَ في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة ، تُركوا» .

حديث آخر : روى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال «ما من نفسٍ تموت لها عند الله خير ، يَسرُّها أن ترجع إلى الدنيا إلا الشهيد ، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فَيُقتل مرة أخرى ، لما يرى من فضل الشهادة» تفرد به مسلم .

و قد ثبت في الصحيحين و غيرهما : أن أبا جابر و هو عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري رضي الله عنه ، قتل يوم أحد شهيداً . روى البخاري عن ابن المنكدر : سمعت جابراً قال لما قتل أبي : جعلت أبكي و أكشف الثوب عن وجهه ، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوني و النبي ﷺ لم ينه ، و قال النبي ﷺ «لا تبكيه - أو ما تبكيه - ما زالت الملائكة تُظلُّه بأجنحتها حتى رُفع» .

حديث آخر : روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ «لما أُصيب إخوانكم بأحد ، جعل الله أرواحهم في أجوافِ طيرٍ خُضر ، ترد أنهار الجنة ، و تأكل من ثمارها ، و تأوي إلى قناديلَ من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مشربهم و مأكلهم ، و حسن منقلبهم قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنعَ الله لنا لئلا يزهدوا في الجهاد ، و لا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله عز وجل هذه الآيات **﴿و لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾** و ما بعدها» وكذا رواه ابن

جرير و رواه أبو داود و الحاكم.

حديث آخر: روي الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة، في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة و عشياً» تفرد به أحمد. و قد رواه ابن جرير و هو إسناد جيد. و كأن الشهداء أقسام: منهم من تسرح أرواحهم في الجنة، و منهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، و قد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر، فيجتمعون هنالك، و يُغدى عليهم برزقهم هناك و يراح، و الله أعلم. و قد روينا في مسند الإمام أحمد حديثاً فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها، و تأكل من ثمارها، و ترى ما فيها من النضرة و السرور، و تشاهد ما أعده الله لها من الكرامة، و هو إسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة، فإن الإمام أحمد رحمه الله، رواه عن محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله، عن مالك بن أنس الأصبحي رحمه الله، عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «نسمة المؤمن طائر يَعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه» قوله «يعلق» أي يأكل، و في هذا الحديث إن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة، و أما أرواح الشهداء فكما تقدم في حواصل طير خضر، فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين، فإنها تطير بأنفسها، فنسأل الله الكريم المنان أن يميتنا على الإيمان.

و قوله تعالى: ﴿**فرحين بما آتاهم الله**﴾ إلى آخر الآية، أي الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله أحياء عند ربهم، وهم فرحون بما هم فيه من النعمة و الغبطة، و مستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم، و أنهم لا يخافون مما أمامهم و لا يحزنون على ما تركوه وراءهم، نسأل الله الجنة.

قال محمد ابن إسحاق ﴿**و يستبشرون**﴾ أي و يسرون بلحوق من خلفهم من إخوانهم، على ما مضوا عليه من جهادهم، ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذي أعطاهم.

و قد ثبت في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه في قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار الذين قتلوا في غَدَاة واحدة، و قنت رسول الله ﷺ يدعو على الذين قتلوهم و يلعنهم، قال أنس: و نزل فيهم قرآن قرأناه حتى رُفع «أن بَلِّغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا و أرضانا».

١٧١- ثم قال تعالى: ﴿**يستبشرون بنعمة من الله و فضل و أن الله لا يضيع أجر المؤمنين**﴾ قال محمد بن إسحاق: استبشروا و سُرُّوا لما عاينوا من وفاء الموعود و جزيل الثواب. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم سواء الشهداء و غيرهم، و قلما ذكر الله فضلاً ذكر به الأنبياء و ثواباً أعطاهم الله إياه، إلا ذكر الله ما أعطى المؤمنين من بعدهم.

١٧٢- و قوله تعالى: ﴿**الذين استجابوا لله و الرسول من بعد ما أصابهم القرح**﴾ هذا كان يوم حمراء الأسد، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين، كروا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا في سيرهم ندموا لم لا تمموا على أهل المدينة و جعلوها الفيصلة، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليُرعبهم و يريهم أن بهم قوة و جلداً، و لم يأذن لأحد سوى من حضر الوقعة يوم أحد سوى جابر بن عبد الله رضي الله عنه، لما سنذكره، فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح و الإثخان، طاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ. روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: لما رجع المشركون عن أحد، قالوا: لا محمداً قتلتم، و لا

الكواعب أردفتم، بئس ما صنعتم، ارجعوا، فسمع رسول الله ﷺ بذلك، فندب المسلمين، فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد ـ أو بئر أبي عيينة ـ الشك من سفيان ـ فقال المشركون: نرجع من قابل، فرجع رسول الله ﷺ، فكانت تعد غزوة، فأنزل الله تعالى: ﴿**الذين استجابوا لله و الرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم و اتقوا أجر عظيم**﴾ و رواه ابن مردويه عن عكرمة عن ابن عباس فذكره.

و روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها ﴿**الذين استجابوا لله و الرسول**﴾ الآية، قلت لعروة: يا ابن أختي كان أبواك منهم الزبير و أبو بكر رضي الله عنهما، لما أصاب نبي الله ﷺ ما أصاب يوم أحد، و انصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا، فقال «مَنْ يرجع في أثرهم؟» فانتدب منهم سبعون رجلاً فيهم أبو بكر و الزبير رضي الله عنهما.

١٧٣- و قوله تعالى: ﴿**الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً**﴾ الآية، أي الذين توعدهم الناس بالجموع و خوفهم بكثرة الأعداء، فما اكترثوا لذلك، بل توكلوا على الله و استعانوا به، ﴿**وقالوا حسبنا الله و نعم الوكيل**﴾. روى البخاري عن ابن عباس ﴿**حسبنا الله و نعم الوكيل**﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، و قالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً، وقالوا: حسبنا الله و نعم الوكيل.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس في قوله: ﴿**فإذا نقر في الناقور**﴾، قال: قال رسول الله ﷺ «كيف أنعم وصاحبُ القرن قد التقم القرن، و حنَى جبهته يَسمع متى يؤمر فينفخ؟» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما نقول؟ قال «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا» و قد روي هذا من غير وجه، و هو حديث جيد.

١٧٤- و لهذا قال تعالى: ﴿**فانقلبوا بنعمة من الله و فضل لم يمسسهم سوء**﴾ أي لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم و ردّ عنهم بأس من أراد كيدهم، فرجعوا إلى بلدهم ﴿**بنعمة من الله و فضل لم يمسسهم سوء**﴾ مما أضمر لهم عدوهم ﴿**و اتبعوا رضوان الله و الله ذو فضل عظيم**﴾. و قال مجاهد في قول الله تعالى: ﴿**الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم**﴾ قال: هذا أبو سفيان، قال لمحمد ﷺ، موعدكم بدر حيث قتلتم أصحابنا. فقال محمد ﷺ «عسى» فانطلق رسول الله ﷺ لموعده حتى نزل بدراً، فوافقوا السوق فيها، فابتاعوا، فذلك قول الله عز وجل: ﴿**فانقلبوا بنعمة من الله و فضل لم يمسسهم سوء**﴾ الآية، قال: و هي غزوة بدر الصغرى، رواه ابن جرير.

١٧٥- ثم قال تعالى: ﴿**إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه**﴾ أي يخوفكم أولياءه، و يوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة، قال الله تعالى: ﴿**فلا تخافوهم و خافون إن كنتم مؤمنين**﴾ أي إذا سوّل لكم و أوهمكم فتوكلوا علي والجأوا إلي، فإني كافيكم و ناصركم عليهم، كما قال تعالى: ﴿**أليس الله بكاف عبده و يخوفونك بالذين من دونه**﴾ إلى قوله ﴿**قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون**﴾ و قال تعالى: ﴿**فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً**﴾ وقال تعالى: ﴿**أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون**﴾ و قال تعالى ﴿**كتب الله لأغلبن أنا و رسلي إن الله قوي عزيز**﴾ و قال ﴿**و لينصرن الله من ينصره**﴾ و قال تعالى: ﴿**يا أيها الذينآمنوا إن تنصروا الله ينصركم**﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿**إنا لننصر رسلنا و الذين آمنوا في الحياة الدنيا و يوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم و لهم اللعنة و لهم سوء الدار**﴾.

﴿ وَلا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) ﴾

١٧٦- يقول تعالى لنبيه ﷺ: **﴿و لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾** و ذلك من شدة حرصه على الناس، كان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة و العناد و الشقاق، فقال تعالى: لا يحزنك ذلك **﴿إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة﴾** أي حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته و قدرته أن لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة **﴿و لهم عذاب عظيم﴾**.

١٧٧- ثم قال تعالى مخبراً عن ذلك إخباراً مقرراً: **﴿إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان﴾** أي استبدلوا هذا بهذا **﴿لن يضروا الله شيئاً﴾** أي و لكن يضرون أنفسهم **﴿و لهم عذاب أليم﴾**.

١٧٨- ثم قال تعالى **﴿و لا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيراً لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً و لهم عذاب مهين﴾** كقوله **﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال و بنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾** و كقوله **﴿فذرني و من يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾** و كقوله **﴿و لا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا و تزهق أنفسهم و هم كافرون﴾**.

١٧٩- ثم قال تعالى: **﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾** أي لا بد أن يعقد سبباً من المحنة، يظهر فيه وليُّه و يفضح به عدوه، يُعرف به المؤمن الصابر، و المنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانهم و صبرهم و جلدهم و ثباتهم و طاعتهم لله ولرسوله ﷺ، وهتك به ستر المنافقين فظهر مخالفتهم و نُكُولهم عن الجهاد و خيانتهم لله ولرسوله ﷺ و لهذا قال تعالى: **﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾** قال مجاهد: ميّز بينهم يوم أحد، و قال قتادة: ميز بينهم بالجهاد و الهجرة، روى ذلك كله ابن جرير. ثم قال تعالى: **﴿و ما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾** أي أنتم لا تعلمون غيب الله في خلقه، حتى يميز لكم المؤمن من المنافق لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك. ثم قال تعالى: **﴿و لكن الله يجتبي من رسله من يشاء﴾** كقوله تعالى: **﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه و من خلفه رصداً﴾** ثم قال تعالى: **﴿فآمنوا بالله و رسله﴾** أي أطيعوا الله و رسوله و اتبعوه فيما شرع لكم **﴿وإن تؤمنوا و تتقوا فلكم أجر عظيم﴾**.

١٨٠- و قوله تعالى : **﴿و لا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم﴾** أي لا يحسبن البخيل أن جمعه المال ينفعه ، بل هو مضرة عليه في دينه ، و ربما كان في دنياه . ثم أخبر بمآل أمر ماله يوم القيامة ، فقال **﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾** ، روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثّل له شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، يأخذ بلهزمتيه - يعني بشدقيه - ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك» ثم تلا هذه الآية **﴿و لا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم﴾** إلى آخر الآية . و قوله تعالى **﴿و لله ميراث السموات و الأرض﴾** أي **﴿فأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾** فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله عز وجل . فقدموا من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم **﴿و الله بما تعملون خبير﴾** أي بنياتكم و ضمائركم .

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) ﴾

١٨١ ، ١٨٢- روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : دخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه بيت المدراس فوجد من يهود أناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص ، و كان من علمائهم و أحبارهم ، و معه حبر يقال له أشيع ، فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص اتق الله و أسلم ، فو الله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة و الإنجيل . فقال فنحاص : و الله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، و إنه إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، و إنا عنه لأغنياء ، و لو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا و يعطناه ، و لو كان غنياً ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر رضي الله عنه فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً ، و قال : و الذي نفسي بيده لو لا الذي بيننا و بينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله ، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين . فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا محمد أبصر ما صنع بي صاحبك ، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : «ما حملك على ما صنعت ؟» فقال : يا رسول الله ، إن عدو الله قد قال قولاً عظيماً ، زعم أن الله فقير و أنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك ، غضبت لله مما قال ، فضربت وجهه ، فجحد فنحاص ذلك ، و قال : ما قلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص رداً عليه وتصديقاً لأبي بكر **﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير و نحن أغنياء﴾** الآية ، رواه ابن أبي حاتم . و قوله **﴿سنكتب ما قالوا﴾** تهديد و وعيد ، و لهذا قرنه تعالى بقوله : **﴿و قتلهم الأنبياء بغير حق﴾** أي هذا قولهم في الله ، و هذه معاملتهم لرسل الله ، و سيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء ، و لهذا قال تعالى : **﴿و نقول ذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدمت أيديكم و أن الله ليس بظلام للعبيد﴾** أي يقال لهم ذلك تقريعاً و توبيخاً و تحقيراً وتصغيراً .

١٨٣- و قوله تعالى: ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾ يقول تعالى تكذيباً أيضاً لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم في كتبهم، أن لا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته، فتُقُبِّلت منه، أن تنزل نار من السماء تأكلها، قاله ابن عباس و الحسين وغيرهما: قال الله عز وجل: ﴿قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات﴾ أي بالحجج و البراهين، ﴿و بالذي قلتم﴾ أي وبنار تأكل القرابين المتقبلة، ﴿فلم قتلتموهم﴾ أي فلم قابلتموهم بالتكذيب و المخالفة و المعاندة وقتلتموهم ﴿إن كنتم صادقين﴾ أنكم تتبعون الحق، و تنقادون للرسل.

١٨٤- ثم قال تعالى مسلياً لنبيه محمدﷺ ﴿فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات و الزبر والكتاب المنير﴾ أي لا يهيدنك تكذيب هؤلاء لك، فلك أسوة بمن قبلك من الرسل، الذين كُذِّبوا مع ماجاءوا به من البينات، و هي الحجج و البراهين القاطعة، ﴿و الزبر﴾ و هي الكتب المتلقاة من السماء كالصحف المنزلة على المرسلين، ﴿و الكتاب المنير﴾ أي البين الواضح الجلي.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٨٦) ﴾

١٨٥- يخبر تعالى إخباراً عاماً يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت، كقوله تعالى: ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال و الإكرام﴾ فهو تعالى وحده هو الحي الذي لا يموت، و الجن و الإنس يموتون، وكذلك الملائكة و حملة العرش، و ينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة و البقاء، فيكون آخراً كما كان أولاً، وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدة و فرغت النطفة التي قدر الله وجودها في صلب آدم و انتهت البرية، أقام الله القيامة و جازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها، كثيرها و قليلها، كبيرها و صغيرها، فلا يظلم أحداً مثقال ذرة، و لهذا قال تعالى: ﴿و إنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾. و قوله: ﴿فمن زحزح عن النار و أدخل الجنة فقد فاز﴾ أي من جُنِّب النار و نجا منها وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز. روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ «موضعُ سوطٍ في الجنة خير من الدنيا و ما فيها، اقرؤوا إن شئتم ﴿فمن زحزح عن النار و أدخل الجنة فقد فاز﴾» هذا حديث ثابت في الصحيحين، من غير هذا الوجه بدون هذه الزيادة. و تقدم عند قوله تعالى: ﴿و لا تموتن إلا و أنتم مسلمون﴾ ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول اللهﷺ «مَنْ أحب أن يُزحزح عن النار و أن يدخل الجنة، فلتدركه منيته و هو يؤمن بالله و اليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يُؤتى إليه». و قوله تعالى: ﴿و ما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ تصغير لشأن الدنيا، و تحقير لأمرها، و أنها دنيئة فانية، قليلة زائلة، كما قال تعالى: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا ❁ و الآخرة خير و أبقى﴾ و قال تعالى ﴿و ما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا و زينتها و ما عند الله خير و أبقى﴾ و في الحديث «والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما

يغمس أحدكم أصبعه في اليم ، فلينظر بم ترجع إليه» و قال قتادة في قوله تعالى : **﴿و ما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾** قال : هي متاع ، هي متاع ، متروكة ، أوشكت ـ و الله الذي لا إله إلا هو ـ أن تضمحل عن أهلها ، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم ، و لا قوة إلا بالله .

١٨٦ـ و قوله تعالى : **﴿لتبلون في أموالكم و أنفسكم﴾** كقوله تعالى : **﴿و لنبلونكم بشيء من الخوف و الجوع ونقص من الأموال و الأنفس و الثمرات﴾** إلى آخر الآيتين ، أي لا بد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله ، و يبتلى المؤمن على قدر دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء **﴿و لتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم و من الذين أشركوا أذى كثيراً﴾** يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر مسلياً لهم عما نالهم من الأذى من أهل الكتاب و المشركين ، و آمراً لهم بالصفح و الصبر و العفو حتى يفرج الله ، فقال تعالى : **﴿و إن تصبروا و تتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾** .

و قد روى البخاري عن أسامة بن زيد حدثه أن رسول اللهﷺ ركب على حمار عليه قطيفة فَدَكية ، و أردف أسامة بن زيد وراءه ، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، قال : حتى مر على مجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول ، قبل أن يسلم عبد الله بن أبي ، و إذا في المجلس أخلاط من المسلمين و المشركين عبدة الأوثان و أهل الكتاب اليهود و المسلمين ، و في المجلس عبد الله بن رواحة ، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة ، خَمَّر عبد الله بن أبي أنفه بردائه و قال : لا تغبروا علينا ، فسلم رسول اللهﷺ ، ثم وقف فنزل ، ودعاهم إلى الله عز وجل و قرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أبي : أيها المرء ، إنه لا أُحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا . ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه : بل يا رسول الله ، فاغشنا به في مجالسنا ، فإنا نحب ذلك ، فاستب المسلمون و المشركون و اليهود حتى كادوا يتثاورون ، فلم يزل النبيﷺ يخفضهم حتى سكتوا ، ثم ركب النبيﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة ، فقال له النبيﷺ «يا سعد ألم تسمع إلى ما قاله أبو حباب» يريد عبد الله بن أبي ، قال : كذا و كذا ، فقال سعد : يا رسول الله ، اعف عنه و اصفح ، فوالله الذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك ، و لقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يُتَوِّجوه و يعصبوه بالعصابة ، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله ، شَرَق بذلك ، فذلك الذي فعل به ما رأيت ، فعفا عنه رسول اللهﷺ و كان رسول اللهﷺ ، و أصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ، و يصبرون على الأذى ، قال الله تعالى : **﴿و لتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم و من الذين أشركوا أذى كثيراً﴾** الآية و قال تعالى : **﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا و اصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾** الآية ، و كان النبيﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به حتى أذن له فيهم ، فلما غزا رسول اللهﷺ بدراً ، فقتل الله به صناديد كفار قريش ، قال عبد الله بن أبي بن سلول و من معه من المشركين و عبدة الأوثان : هذا أمر قد توجه فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام و أسلموا .

فكل من قام بحق أو أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر فلا بد أن يُؤذى فما له دواء إلا الصبر في الله ، والاستعانة بالله و الرجوع إلى الله عز وجل .

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾

١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ – هذا توبيخ من الله و تهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمدﷺ، و أن ينوهوا بذكره في الناس ، ليكونوا على أهبة من أمره ، فإذا أرسله الله تابعوه ، فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا و الآخرة بالدون الطفيف ، و الحظ الدنيوي السخيف ، فبئست الصفقة صفقتهم ، و بئست البيعة بيعتهم ، و في هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم ، ويسلك بهم مسلكهم ، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع ، الدال على العمل الصالح ، و لا يكتموا منه شيئاً ، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبيﷺ، أنه قال : «مَنْ سُئِل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار» .

و قوله تعالى : ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا و يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ ، يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا ، كما جاء في الصحيحين عن النبيﷺ «مَنْ ادَّعى دعوةً كاذبة ليتكثر بها ، لم يزده الله إلا قلة» . و في الصحيح أيضاً «المتشبِّع بما لم يُعطَ كلابس ثوبي زُور» و روى الإمام أحمد أن مروان قال : لبوابه اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى ، و أحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبن أجمعون ، فقال ابن عباس : و ما لكم و هذه ، إنما نزلت هذه في أهل الكتاب ، ثم تلا ابن عباس ﴿و إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس و لا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم و اشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ◆ لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا و يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ الآية . و قال ابن عباس : سألهم النبيﷺ عن شيء فكتموه إياه و أخبروه بغيره فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ، و فرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه ، و هكذا رواه البخاري و مسلم .

وروى البخاري عن أبي سعيد الخدريؓ : أن رجالاً من المنافقين على عهد رسول اللهﷺ كان إذا خرج رسول اللهﷺ إلى الغزو وتخلفوا عنه ، و فرحوا بمقعدهم خلاف رسول اللهﷺ فإذا قدم رسول اللهﷺ من الغزو اعتذروا إليه و حلفوا ، و أحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فنزلت ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا و يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ الآية ، و كذا رواه مسلم . و لا منافاة بين ما ذكره ابن عباس و ما قاله هؤلاء ، لأن الآية عامة في جميع ما ذُكر ، والله أعلم . و قوله تعالى : ﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾ يقرأ بالتاء على مخاطبة المفرد ، و بالياء على الإخبار عنهم ، أي لا يحسبون أنهم ناجون من العذاب بل لا بد لهم منه ، و لهذا قال تعالى : ﴿و لهم عذاب أليم﴾ ثم قال تعالى ﴿و لله ملك السموات و الأرض و الله على كل شيء قدير﴾ أي هو مالك كل شيء ، و القادر على كل شيء ، فلا يعجزه شيء ، فهابوه و لا تخالفوه ، و احذروا غضبه و نقمته فإنه العظيم الذي لا أعظم منه ، و القدير الذي لا أقدر منه .

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)﴾

١٩٠- و معنى الآية أن الله تعالى يقول: **﴿إن في خلق السموات و الأرض﴾** أي هذه في ارتفاعها و اتساعها، و هذه في انخفاضها و كثافتها و اتضاعها، و ما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات، وثوابت و بحار و جبال و قفار و أشجار و نبات، و زروع و ثمار، و حيوان و معادن، و منافع مختلفة الألوان والروائح و الطعوم و الخواص، **﴿و اختلاف الليل و النهار﴾** أي تعاقبهما و تقارضهما الطول و القصر، فتارة يطول هذا و يقصر هذا، ثم يعتدلان ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيراً، و يقصر الذي كان طويلاً. وكل ذلك تقدير العزيز العليم، و لهذا قال تعالى **﴿لآيات لأولي الألباب﴾** أي العقول التامة الذكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، و ليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون، الذين قال الله فيهم **﴿و كأين من آية في السموات و الأرض يمرون عليها و هم عنها معرضون * و ما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾**.

١٩١- ثم وصف تعالى أولي الألباب، فقال: **﴿الذين يذكرون الله قياماً و قعوداً و على جنوبهم﴾**. كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين: أن رسول الله ﷺ قال «صَلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنبك» أي لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم و ضمائرهم و ألسنتهم، **﴿و يتفكرون في خلق السموات و الأرض﴾** أي يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق و قدرته، و علمه وحكمته و اختياره و رحمته. و قال الشيخ أبو سليمان الداراني: إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله علي فيه نعمة و لي فيه عبرة، و عن الحسن البصري أنه قال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة، و قال الفضيل قال الحسن: الفكرة مرآة تريك حسناتك و سيئاتك، و قال سفيان بن عيينة: الفكرة نور يدخل قلبك. وقال عمر بن عبد العزيز: الكلام بذكر الله عز وجل حسن، و الفكرة في نعم الله أفضل العبادة. و قال الحسن البصري: يا ابن آدم، كل في ثلث بطنك، و اشرب في ثلثه، و دع ثلثه الآخر تتنفس للفكرة. و قال بشر الحافي: لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه.

و قد ذم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته و صفاته و شرعه و قدره و آياته، فقال **﴿وكأين من آية في السموات و الأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾** و مدح عباده المؤمنين **﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً و على جنوبهم و يتفكرون في خلق السموات و الأرض﴾** قائلين **﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾** أي ما خلقت هذا الخلق عبثاً، بل بالحق لتجزي الذين أساؤوا بما عملوا، و تجزي الذين أحسنوا بالحسنى. ثم نزهوه عن العبث و خلق الباطل، فقالوا **﴿سبحانك﴾** أي عن أن تخلق شيئاً باطلاً **﴿فقنا عذاب النار﴾** أي يا من خلق

الخلق بالحق و العدل، يامن هو منزه عن النقائص و العيب و العبث، قنا من عذاب النار بحولك و قوتك وقيضنا لأعمال ترضى بها عنا. و وفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم، و تجيرنا به من عذابك الأليم.

١٩٢- ثم قالوا **﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾** أي أهنته و أظهرت خزيه لأهل الجمع **﴿و ما للظالمين من أنصار﴾** أي يوم القيامة لا مجير لهم منك. و لا محيد لهم عما أردت بهم.

١٩٣- **﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾** أي داعياً يدعو إلى الإيمان، و هو الرسول ﷺ **﴿أن آمنوا بربكم فآمنا﴾** أي يقول آمنوا بربكم فآمنا، أي فاستجبنا له و اتبعناه، أي بإيماننا و اتبعنا نبيك، **﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا﴾** أي استرها، **﴿و كفر عنا سيئاتنا﴾** فيما بيننا و بينك، **﴿و توفنا مع الأبرار﴾** أي ألحقنا بالصالحين.

١٩٤- **﴿ربنا و آتنا ما وعدتنا على رسلك﴾** قيل: معناه على الإيمان برسلك، و قيل: معناه على ألسنة رسلك. و هذا أظهر. **﴿و لا تخزنا يوم القيامة﴾** أي على رؤوس الخلائق، **﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾** أي لا بد من الميعاد الذي أخبرتْ عنه رسلك، و هو القيام يوم القيامة بين يديك، و قد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده، فروى البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: بتُّ عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء، فقال **﴿إن في خلق السموات و الأرض و اختلاف الليل و النهار لآيات لأولي الألباب﴾** الآيات، ثم قام فتوضأ و استنّ، فصلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى بالناس الصبح. وهكذا رواه مسلم.

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥) ﴾

١٩٥- يقول تعالى: **﴿فاستجاب لهم ربهم﴾** أي فأجابهم ربهم، و معنى الآية: أنّ المؤمنين ذوي الألباب لما سألوا ما سألوا مما تقدم ذكره فاستجاب لهم ربهم، عقّب ذلك بفاء التعقيب، كما قال تعالى: **﴿و إذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي و ليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾** و قوله تعالى: **﴿أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر و أنثى﴾** هذا تفسير للإجابة، أي قال لهم مجيباً لهم أنه لا يضيع عمل عامل لديه، بل يوفي كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى، و قوله **﴿بعضكم من بعض﴾** أي جميعكم في ثوابي سواء، **﴿فالذين هاجروا﴾** أي تركوا دار الشرك و أتوا إلى دار الإيمان، و فارقوا الأحباب و الإخوان و الخلان والجيران، **﴿و أخرجوهم من ديارهم﴾** أي ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجؤوهم إلى الخروج من بين أظهرهم، و لهذا قال **﴿و أوذوا في سبيلي﴾** أي إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده، كما قال تعالى: **﴿يخرجون الرسول و إياكم أن تؤمنوا بالله ربكم﴾** و قال تعالى: **﴿و ما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾**.

و قوله تعالى: **﴿و قاتلوا و قتلوا﴾** و هذا أعلى المقامات أن يقاتل في سبيل الله فيعقر جواده و يعفر وجهه بدمه و ترابه، و قد ثبت في الصحيحين أن رجلاً قال: يا رسول الله، أرأيت إن قتلتُ في سبيل الله صابراً

محتسباً مقبلاً غير مدبر، أيكفر الله عني خطاياي؟ قال: نعم ثم قال: كيف قلت؟ فأعاد عليه ما قال، فقال: نعم، إلا الدَّين، قاله لي جبريل آنفاً» و لهذا قال تعالى: ﴿لأكفرن عنهم سيئاتهم و لأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تجري في خلالها من أنواع المشارب من لبن و عسل و خمر و ماء غير آسن، و غير ذلك مما لا عين رأت، و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر، و قوله ﴿ثواباً من عند الله﴾ أضافه إليه و نسبه إليه، ليدل على أنه عظيم، لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جزيلاً كثيراً.

و قوله تعالى: ﴿و الله عنده حسن الثواب﴾ أي عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحاً. روى ابن أبي حاتم[1] عن شداد بن أوس كان يقول: يا أيها الناس، لا تتهموا الله في قضائه، فإنه لا يبغي على مؤمن، فإذا نزل بأحدكم شيء مما يحب، فليحمد الله، و إذا أنزل به شيء مما يكره، فليصبر و ليحتسب، فإن الله عنده حسن الثواب.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨)﴾

١٩٦، ١٩٧- يقول تعالى: لا تنظروا إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه من النعمة و الغبطة و السرور، فعما قليل يزول هذا كله عنهم و يصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة، فإنما نمد لهم فيما هم فيه استدراجاً، و جميع ما هم فيه ﴿متاع قليل ثم مأواهم جهنم و بئس المهاد﴾ و هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد﴾، و قال تعالى: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾، و قال تعالى: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ و قال تعالى: ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾ أي قليلاً، و قال تعالى: ﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾.

١٩٨- و هكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا و ذكر أن مآلهم إلى النار، قال بعده ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله و ما عند الله خير للأبرار﴾. و روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود: ما من نفس برة و لا فاجرة إلا الموت خير لها، لئن كان براً لقد قال الله تعالى ﴿و ما عند الله خير للأبرار﴾ و كذا رواه عبد الرزاق عنه و قرأ ﴿و لا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً و لهم عذاب مهين﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾

١٩٩- يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، و يؤمنون بما أنزل على محمد مع

---

(١)- قال ابن أبي حاتم: ذكر عن دحيم بن إبراهيم ثم ساق سنده إلى شداد، و لكن لمعناه الجميل أبقيته.

ماهم مؤمنون به من الكتب المتقدمة، و أنهم خاشعون لله أي مطيعون له، خاضعون متذللون بين يديه، **﴿لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً﴾**، أي لا يكتمون ما بأيديهم من البشارات بمحمدﷺ و ذكر صفته و نعته و مبعثه وصفة أمته، و هؤلاء هم خيرة أهل الكتاب و صفوتهم، سواء كانوا هوداً أو نصارى، و قد قال تعالى في سورة القصص: **﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ❁ و إذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ❁ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾** الآية، و قال تعالى: **﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به﴾** الآية. و قال تعالى: **﴿و من قوم موسى أمة يهدون بالحق و به يعدلون﴾**، و قال تعالى: **﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل و هم يسجدون﴾**، و قال تعالى: **﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً و يقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ❁ و يخرون للأذقان يبكون و يزيدهم خشوعاً﴾**.

و هذه الصفات توجد في اليهود، ولكن قليلاً كما وُجد في عبد الله بن سلام و أمثاله ممن آمن من أحبار اليهود، و لم يبلغوا عشرة أنفس، و أما النصارى فكثير منهم يهتدون و ينقادون للحق، كما قال تعالى: **﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا و لتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾** إلى قوله تعالى: **﴿فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾** الآية، و هكذا قال ههنا **﴿أولئك لهم أجرهم عند ربهم﴾** الآية، وقد ثبت في الحديث أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، لما قرأ سورة «كهيعص» بحضرة النجاشي ملك الحبشة وعنده البطاركة و القساوسة، بكى و بكوا معه حتى أخضبوا لحاهم، و ثبت في الصحيحين أن النجاشي لما مات نعاه النبيﷺ إلى أصحابه و قال «إن أخاً لكم بالحبشة قد مات، فصلوا عليه» فخرج إلى الصحراء فصفهم و صلى عليه. وروى ابن أبي حاتم و الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أنس بن مالك، قال: لما توفي النجاشي قال رسول اللهﷺ «استغفروا لأخيكم» فقال بعض الناس: يأمر أن نستغفر لعِلْج مات بأرض الحبشة، فنزلت **﴿و إن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله و ما أنزل إليكم و ما أنزل إليهم خاشعين لله﴾** الآية، و رواه عبد بن حميد. و قال مجاهد **﴿و إن من أهل الكتاب﴾** يعني مسلمة أهل الكتاب. و قال عباد بن منصور: سألت الحسن البصري عن قول الله **﴿و إن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾** الآية، قال: هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمدﷺ فاتبعوه، وعرفوا الإسلام فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين: للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمدﷺ و بالذي اتبعوا محمداًﷺ، رواهما ابن أبي حاتم.

و قد ثبت في الصحيحين عن أبي موسى، قال: قال رسول اللهﷺ «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين» فذكر منهم: و رجلٌ من أهل الكتاب من آمن بنبيه و آمن بي، و قوله تعالى: **﴿لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً﴾** أي لا يكتمون ما بأيديهم من العلم كما فعله الطائفة المرذولة منهم، بل يبذلون ذلك مجاناً، و لهذا قال تعالى: **﴿أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾**، قال مجاهد: **﴿سريع الحساب﴾** يعني سريع الإحصاء، رواه ابن أبي حاتم و غيره.

٢٠٠- و قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا و صابروا و رابطوا﴾** قال الحسن البصري رحمه الله: أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم و هو الإسلام، فلا يَدَعوه لسراء و لا لضراء و لا لشدة و لا لرخاء، حتى يموتوا مسلمين، و أن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم، و كذا قال غير واحد من علماء السلف، و أما

المرابطة : فهي المداومة في مكان العبادة و الثبات، و قيل : انتظار الصلاة بعد الصلاة، قاله ابن عباس و سهل بن حنيف و محمد بن كعب القرظي و غيرهم، و روى ابن أبي حاتم ههنا الحديث الذي رواه مسلم و النسائي عن أبي هريرة ، عن النبيﷺ قال «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا و يرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، و كثرة الخُطَا إلى المساجد، و انتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط». و قيل: المراد بالمرابطة ههنا مرابطة الغزو في نحور العدو، و حفظ ثغور الإسلام و صيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين، و قد وردت الأخبار بالترغيب في ذلك و ذكر كثرة الثواب فيه، فروى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول اللهﷺ، قال «رباطُ يومٍ في سبيل الله خير من الدنيا و ما عليها».

حديث آخر: و روى مسلم عن سلمان الفارسي، عن رسول اللهﷺ أنه قال «رباط يوم و ليلة خير من صيام شهر و قيامه، و إن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، و أُجرى عليه رزقه و أَمِنَ الفتَّان».

حديث آخر: و روى الإمام أحمد عن فضالة بن عبيد قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول «كل ميتٍ يُختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله، فإنه ينمي له عمله إلى يوم القيامة، و يأمن فتنة القبر» و هكذا رواه أبو داود و الترمذي.

حديث آخر: روى الترمذي عن ابن عباس قال سمعت رسول اللهﷺ يقول «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، و عين باتت تحرس في سبيل الله».

و قوله تعالى: **﴿و اتقوا الله﴾** أي في جميع أموركم وأحوالكم، كما قال النبيﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن «اتق الله حيثما كنت، و أتبعِ السيئة الحسنة تمحها، و خالق الناس بخلق حسن» **﴿لعلكم تفلحون﴾** أي في الدنيا و الآخرة، و روى ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقول في قول الله عز وجل **﴿و اتقوا الله لعلكم تفلحون﴾** اتقوني فيما بيني و بينكم لعلكم تفلحون غداً إذا لقيتموني.

انتهى تفسير سورة آل عمران، و لله الحمد و المنة،
نسأله الموت على الكتاب و السنة، آمين...

ترتيبها ٤ — سورة النساء — آياتها ١٧٦

روى الحاكم عن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا و ما فيها ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ الآية، و ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ الآية، و ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ و ﴿لو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك﴾ الآية، ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ ثم قال: هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن سمع من أبيه فقد اختلف في ذلك. و روى الحاكم عن ابن عباس يقول: سلوني عن سورة النساء فإني قرأت القرآن و أنا صغير. ثم قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، و لم يخرجاه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) ﴾

١- يقول تعالى آمراً خلقه بتقواه، و هي عبادته وحده لا شريك له، و منبهاً لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة، و هي آدم عليه السلام ﴿و خلق منها زوجها﴾ و هي حواء عليها السلام خلقت من ضلعه الأيسر، من خلفه و هو نائم، فاستيقظ فرآها فأعجبته، فأنس إليها و أنست إليه، و روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: خلقت المرأة من الرجل فجعل نهمتها في الرجل، و خلق الرجل من الأرض فجعل نهمته في الأرض، فاحبسوا نساءكم. و في الحديث الصحيح: «إن المرأة خلقت من ضلع، و إن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، و إن استمتعت بها استمتعت بها و فيها عوج». وقوله: ﴿و بث منهما رجالاً كثيراً و نساء﴾ أي وذرأ من آدم و حواء رجالاً كثيراً و نساء، و نشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم و صفاتهم و ألوانهم و لغاتهم، ثم إليه بعد ذلك المعاد و المحشر.

ثم قال تعالى: ﴿و اتقوا الله الذي تساءلون به و الأرحام﴾ أي واتقوا الله بطاعتكم إياه. قال إبراهيم و مجاهد والحسن ﴿الذي تساءلون به﴾ أي كما يقال: أسألك بالله و بالرحم، وقال الضحاك: و اتقوا الله الذي تعاقدون وتعاهدون به، و اتقوا الأرحام أن تقطعوها و لكن بروها و صلوها، قاله ابن عباس و عكرمة و مجاهد و الحسن والضحاك و الربيع و غير واحد. و قرأ بعضهم: و الأرحام بالخفض على العطف على الضمير في به أي تساءلون بالله و بالأرحام، كما قال مجاهد و غيره. و قوله: ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ أي هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم، كما قال: ﴿و الله على كل شيء شهيد﴾. وفي الحديث الصحيح «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك» و هذا إرشاد و أمر بمراقبة الرقيب. ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد و أم واحدة ليعطف بعضهم على بعض، و يحننهم على ضعفائهم. و قد ثبت في صحيح مسلم من حديث جرير ابن عبد الله البجلي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم عليه أولئك النفر من مضر و هم مجتابو النِّمار- أي من عُريِّهم وفقرهم- قام

فخطب الناس بعد صلاة الظهر فقال في خطبته : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ ، حتى ختم الآية و قال : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و لتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ ، ثم حضهم على الصدقة فقال : «تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من صاع بره ، من صاع تمره» و ذكر تمام الحديث ، و هكذا رواه أحمد و أهل السنن عن ابن مسعود في خطبة الحاجة ، و فيها ثم يقرأ ثلاث آيات هذه منها ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ الآية .

﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا (٤) ﴾

٢- يأمر تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم كاملة موفرة ، و ينهى عن أكلها و ضمها إلى أموالهم ، ولهذا قال : ﴿و لا تتبدلوا الخبيث بالطيب﴾ قال سفيان الثوري عن أبي صالح : لا تعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الرزق الحلال الذي قدر لك . و قال سعيد بن جبير : لا تتبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم ، يقول : لا تبذروا أموالكم الحلال و تأكلوا أموالهم الحرام . و قال سعيد بن المسيب والزهري : لا تعط مهزولاً و تأخذ سميناً . و قال إبراهيم النخعي و الضحاك : لا تعط زائفاً و تأخذ جيداً . و قال السدي : كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم ، و يجعل مكانها الشاة المهزولة و يقول : شاة بشاة ، ويأخذ الدرهم الجيد و يطرح مكانه الزيف و يقول درهم بدرهم . و قوله ﴿و لا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير و مقاتل بن حيان و السدي و سفيان بن حسين : أي لا تخلطوها فتأكلوها جميعاً . و قوله : ﴿إنه كان حوباً كبيراً﴾ قال ابن عباس : أي إثماً كبيراً عظيماً . و روي هكذا عن مجاهد و عكرمة وسعيد بن جبير والحسن و ابن سيرين و قتادة ومقاتل بن حيان و الضحاك و أبي مالك و زيد بن أسلم و أبي سنان مثل قول ابن عباس . و المعنى : إن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم وخطأ كبير فاجتنبوه .

٣- و قوله : ﴿و إن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى﴾ ، أي إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة و خاف أن لا يعطيها مهر مثلها فليعدل إلى ما سواها من النساء ، فإنهن كثير و لم يضيق الله عليه . وروى البخاري عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى : ﴿و إن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى﴾ ، قالت : يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله و يعجبه مالها و جمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن . و يبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق ، و أمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن . قال عروة : قالت عائشة : و إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله ﴿ويستفتونك في النساء﴾ ، قالت عائشة : و قول الله عز وجل في الآية الأخرى ﴿و ترغبون أن تنكحوهن﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال و الجمال ، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في ماله و جماله من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال . وقوله : ﴿مثنى و ثلاث و رباع﴾ أي انكحوا ما شئتم من النساء سواهن إن شاء أحدكم ثنتين و إن شاء

ثلاثاً، وإن شاء ثلاثاً، و إن شاء أربعاً. كما قال الله تعالى: **﴿جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى و ثلاث ورباع﴾** أي منهم من له جناحان، و منهم من له ثلاثة، و منهم من له أربعة، و لا ينفي ما عدا ذلك في الملائكة لدلالة الدليل عليه، بخلاف قصر الرجال على أربع، فمن هذه الآية كما قال ابن عباس و جمهور العلماء، لأن المقام مقام امتنان و إباحة، فلو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره. قال الشافعي: و قد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة، و هذا الذي قاله الشافعي رحمه الله مجمع عليه بين العلماء إلا ما حكى عن طائفة من الشيعة، أنه يجوز الجمع بين أكثر من أربع إلى تسع. و قال بعضهم: بلا حصر. و قد يتمسك بعضهم بفعل رسول الله ﷺ في جمعه بين أكثر من أربع إلى تسع كما ثبت في الصحيحين، و إما إحدى عشرة كما جاء في بعض ألفاظ البخاري، و قد علقه البخاري، و قد روينا عن أنس أن رسول الله ﷺ تزوج بخمس عشرة امرأة، و دخل منهن بثلاث عشرة، و اجتمع عنده إحدى عشرة، ومات عنه تسع. و هذا عند العلماء من خصائصه دون غيره من الأمة لما سنذكره من الأحاديث الدالة على الحصر في أربع، و لنذكر الأحاديث في ذلك، روى الإمام أحمد أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم و تحته عشر نسوة فقال له النبي ﷺ «اختر منهن أربعاً» فلما كان عهد عمر طلق نساءه، و قسم ماله بين بنيه، فبلغ ذلك عمر فقال: إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك فقذفه في نفسك، و لعلك لا تمكث إلا قليلاً، وايم الله لتراجعن نساءك و لترجعن في مالك أو لأورثهن منك و لآمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبي رغال. وهكذا رواه الشافعي والترمذي و ابن ماجه و الدار قطني و البيهقي و غيرهم، و رجاله ثقات على شرط الشيخين. فوجه الدلالة أنه لو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لسوّغ له رسول الله ﷺ سائرهن في بقاء العشرة و قد أسلمن معه فلما أمره بإمساك أربع و فراق سائرهن دل على أنه لا يجوز الجمع بين أكثر من أربع بحال، فإذا كان هذا في الدوام، ففي الاستئناف بطريق الأولى و الأحرى، و الله سبحانه و تعالى أعلم بالصواب.

(حديث آخر في ذلك) روى أبو داود و ابن ماجه في سننهما عن الحارث بن قيس بن عميرة الأسدي قال: أسلمت و عندي ثمان نسوة فذكرت للنبي ﷺ فقال: «اختر منهن أربعاً» و هذا الإسناد حسن. فهذه كلها شواهد بصحة ما تقدم من حديث غيلان كما قاله البيهقي رحمه الله. و قوله: **﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم﴾**، أي فإن خشيتم من تعداد النساء أن لاتعدلوا بينهن، كما قال تعالى **﴿و لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾** فمن خاف من ذلك فليقتصر على واحدة أو على الجواري السراري فإنه لا يجب قسم بينهن، و لكن يستحب فمن فعل فحسن، و من لا فلا حرج، و قوله: **﴿ذلك أدنى ألا تعولوا﴾** قال بعضهم ذلك أدنى ألا تكثر عيالكم، قاله زيد بن أسلم و سفيان بن عيينة و الشافعي رحمهم الله، و هو مأخوذ من قوله تعالى: **﴿و إن خفتم عيلة﴾** أي فقراً **﴿فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء﴾**

و تقول العرب: عال الرجل يعيل عيلة إذا افتقر، و لكن في هذا التفسير ههنا نظر، فإنه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر كذلك يخشى من تعداد السراري أيضا، و الصحيح قول الجمهور **﴿ذلك أدنى ألا تعولوا﴾** أي لا تجوروا، يقال: عال في الحكم إذا قسط و ظلم و جار.

٤- و قوله تعالى: **﴿و آتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾** قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: النحلة المهر، و قال مقاتل و قتادة و ابن جريج: نحلة أي فريضة. زاد ابن جريج: مسماة، و قال ابن زيد: النحلة في كلام العرب:

الواجب، يقول: لا تنكحها إلا بشيء واجب لها و ليس ينبغي لأحد بعد النبي ﷺ أن ينكح امرأة إلا بصداق واجب، و لا ينبغي أن يكون تسمية الصداق كذباً بغير حق، و مضمون كلامهم: أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتماً، و أن يكون طيب النفس بذلك كما يمنح المنيحة و يعطي النحلة طيباً بها كذلك يجب أن يعطي المرأة صداقها طيباً بذلك، فإن طابت هي له به بعد تسميته أو عن شيء منه فليأكله حلالاً طيباً، و لهذا قال: **﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾**.

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٥) وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦) ﴾

٥- ينهى سبحانه و تعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً، أي تقوم بها معايشهم من التجارات و غيرها، و من ههنا يؤخذ الحجر على السفهاء و هم أقسام، فتارة يكون الحجر للصغر، فإن الصغير مسلوب العبارة، و تارة يكون الحجر للجنون، و تارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين، وتارة للفلس، و هو ما إذا أحاطت الديون برجل و ضاق ماله عن وفائها، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه، حجر عليه، و قال الضحاك عن ابن عباس، في قوله **﴿و لا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾** قال: هم بنوك و النساء، و كذا قال ابن مسعود و الحكم بن عيينة و الحسن و الضحاك: هم النساء و الصبيان، و قال سعيد بن جبير: هم اليتامى، و قال مجاهد و عكرمة و قتادة: هم النساء، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، يقول: لا تعمد إلى مالك و ما خولك الله و جعله لك معيشة فتعطيه امرأتك أو بنيك ثم تنظر إلى ما في أيديهم و لكن أمسك مالك و أصلحه و كن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم و مؤنتهم و رزقهم، و روى ابن جرير عن أبي موسى قال: ثلاثة يدعون الله فلا يستجيب لهم: رجل كانت له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، و رجل أعطى ماله سفيهاً، و قد قال: **﴿و لا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾**، و رجل كان له على رجل دين فلم يُشهد عليه[1]. و قال مجاهد: **﴿و قولوا لهم قولاً معروفاً﴾** يعني في البر و الصلة، و هذه الآية الكريمة تضمنت الإحسان إلى العائلة و من تحت الحجر بالفعل من الإنفاق في الكساوي و الأرزاق و الكلام الطيب و تحسين الأخلاق.

٦- و قوله تعالى: **﴿و ابتلوا اليتامى﴾** قال ابن عباس و مجاهد و الحسن و السدي و مقاتل بن حيان: أي اختبروهم **﴿حتى إذا بلغوا النكاح﴾** قال مجاهد: يعني الحلم، قال الجمهور من العلماء البلوغ في الغلام تارة يكون بالحلم، وهو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الدافق الذي يكون منه الولد، و في سنن أبي داود عن علي قال: حفظت من رسول الله ﷺ «لا يتم بعد احتلام و لا صمات يوم إلى الليل». و في الحديث الآخر عن عائشة و غيرها من الصحابة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال: «رفع القلم عن ثلاثة، عن الصبي حتى يحتلم، و عن النائم حتى يستيقظ، و عن المجنون حتى يفيق»[2]. أو يستكمل خمس عشرة سنة و أخذوا ذلك من الحديث الثابت في

---

(١) و قد رواه الحاكم مرفوعاً (٢/ ٣٠٢) و صححه الشيخ الألباني حفظه الله في الصحيحة (١٨٠٥). (٢) رواه الإمام أحمد و أبو داود والترمذي و ابن ماجه و غيرهم و هو حديث صحيح.

الصحيحين عن ابن عمر، قال: عُرِضتُ على النبي ﷺ يوم أحد و أنا ابن أربع عشرة فلم يجزني، و عرضت عليه يوم الخندق و أنا ابن خمس عشرة فأجازني، فقال عمر بن عبد العزيز لما بلغه هذا الحديث: إن هذا الفرق بين الصغير و الكبير. و اختلفوا في إنبات الشعر الخشن حول الفرج، و هي الشَّعرة، هل تدل على بلوغ أم لا؟ على ثلاثة أقوال، يفرق في الثالث بين صبيان المسلمين فلا يدل على ذلك لاحتمال المعالجة، و بين صبيان أهل الذمة فيكون بلوغاً في حقهم لأنه لا يتعجل بها ضرب الجزية عليه. فلا يعالجها، والصحيح أنها بلوغ في حق الجميع لأن هذا أمر جبلي يستوي فيه الناس و احتمال المعالجة بعيد، ثم قد دلت السنة على ذلك في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عطية القرظي رضي الله عنه قال: عرضنا على النبي ﷺ يوم قريظة، فكان من أنبت قتل و من لم ينبت خُلِّي سبيله، فكنت فيمن لم يُنبت فخلي سبيلي، و قد أخرجه السنن الأربعة بنحوه، و قال الترمذي: حسن صحيح و إنما كان كذلك لأن سعد بن معاذ كان قد حكم فيهم بقتل المقاتلة و سبي الذرية.

و قوله عز وجل: ﴿**فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم**﴾ قال سعيد بن جبير: يعني صلاحاً في دينهم وحفظاً لأموالهم. و كذا روي عن ابن عباس و الحسن البصري و غير واحد من الأئمة، و هكذا قال الفقهاء: متى بلغ الغلام مصلحاً لدينه و ماله انفك الحجر عنه، فيسلم إليه ماله الذي تحت يد وليه بطريقه، و قوله: ﴿**و لا تأكلوها إسرافاً و بداراً أن يكبروا**﴾ ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية ﴿**إسرافاً وبداراً**﴾ أي مبادرة قبل بلوغهم، ثم قال تعالى: ﴿**و من كان غنياً فليستعفف**﴾ من كان في غنية عن مال اليتيم فليستعفف عنه و لا يأكل منه شيئاً، و قال الشعبي: هو عليه كالميتة و الدم ﴿**و من كان فقيراً فليأكل بالمعروف**﴾ روى ابن أبي حاتم: عن عائشة: ﴿**و من كان فقيراً فليأكل بالمعروف**﴾ نزلت في والي اليتيم الذي يقوم عليه و يصلحه إذا كان محتاجاً أن يأكل منه، و روى أيضاً عن عائشة قالت: أنزلت هذه الآية في والي اليتيم ﴿**و من كان غنياً فليستعفف و من كان فقيراً فليأكل بالمعروف**﴾ بقدر قيامه عليه، و رواه البخاري. قال الفقهاء: له أن يأكل أقل الأمرين: أجرة مثله أو قدر حاجته، و اختلفوا هل يرد إذا أيسر؟ على قولين: أحدهما: لا، لأنه أكل بأجرة عمله و كان فقيراً، و هذا هو الصحيح عند أصحاب الشافعي، لأن الآية أباحت الأكل من غير بدل، روى أحمد عن ابن عمرو أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: ليس لي مال و لي يتيم؟ فقال: «كل من مال يتيمك غير مسرف و لا مبذر، و لا متأثل مالاً، ومن غير أن تقي مالك - أو قال - تفدي مالك بماله». و روى ابن حبان في صحيحه و ابن مردويه عن جابر أن رجلاً قال: يا رسول الله فيم أضرب يتيمي؟ قال: «ما كنت ضارباً منه ولدك، غير واقٍ مالك بماله، و لا متأثل منه مالاً» وبهذا القول و هو عدم أداء البدل، يقول عطاء بن أبي رباح وعكرمة و إبراهيم النخعي و عطية العوفي و الحسن البصري. و الثاني: نعم، لأن مال اليتيم على الحظر، و إنما أبيح للحاجة فيرد بدله كأكل مال الغير للمضطر عند الحاجة، و قد روى ابن أبي الدنيا عن عمر رضي الله عنه: إني أنزلت نفسي من هذا المال بمنزلة والي اليتيم، إن استغنيت استعففت، و إن احتجت استقرضت، فإذا أيسرت قضيت.

و له طريق أخرى رواها سعيد بن منصور عنه و إسنادها صحيح، و روى البيهقي عن ابن عباس نحو ذلك، وهكذا رواه ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿**و من كان فقيراً فليأكل بالمعروف**﴾ يعني القرض، قال: و روي عن عبيدة و أبي العالية و أبي وائل و سعيد بن جبير في إحدى الروايات و مجاهد والضحاك و السدي نحو ذلك، و روي عن ابن عباس في قوله ﴿**فليأكل بالمعروف**﴾ قال: يأكل بثلاث أصابع،

وقال عامر الشعبي: لا يأكل منه إلا أن يضطر إليه كما يضطر إلى الميتة، فإن أكل منه قضاه، رواه ابن أبي حاتم **﴿ومن كان فقيراً﴾** أي منهم **﴿فليأكل بالمعروف﴾** أي بالتي هي أحسن كما قال في الآية الأخرى **﴿و لا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾** أي لا تقربوه إلا مصلحين له، فإن احتجتم إليه أكلتم منه بالمعروف.

و قوله: **﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم﴾** يعني بعد بلوغهم الحلم و إيناسكم الرشد منهم، فحينئذ سلّموا إليهم أموالهم فإذا دفعتم إليهم أموالهم **﴿فأشهدوا عليهم﴾** و هذا أمر من الله تعالى للأولياء أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم و سلموا إليهم أموالهم، لئلا يقع من بعضهم جحود و إنكار لما قبضه و تسلمه، ثم قال: **﴿و كفى بالله حسيباً﴾** أي و كفى بالله محاسباً و شهيداً و رقيباً على الأولياء في حال نظرهم للأيتام، وحال تسليمهم للأموال: هل هي كاملة موفرة، أو منقوصة مبخوسة مدخلة، مروج حسابها، مدلس أمورها؟ الله عالم بذلك كله، و لهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، و إني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرنَّ على اثنين، و لا تَلينَّ مال يتيم».

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٨) وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)﴾

٧- قال سعيد بن جبير و قتادة: كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار و لا يورثون النساء و لا الأطفال شيئاً، فأنزل الله: **﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان و الأقربون﴾** الآية، أي الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى، يستوون في أصل الوراثة، و إن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يدلي به إلى الميت من قرابة، أو زوجية، أو ولاء، فإنه لُحمةٌ كلحمة النسب.

٨- و قوله: **﴿و إذا حضر القسمة﴾** الآية، قيل: المراد و إذا حضر قسمة الميراث ذوو القربى ممن ليس بوارث **﴿واليتامى و المساكين﴾** فليُرضَخ لهم من التركة نصيب، و أن ذلك كان واجباً في ابتداء الإسلام، و قيل يستحب.

و اختلفوا هل هو منسوخ أم لا على قولين، فروى البخاري عن ابن عباس: **﴿و إذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى و المساكين﴾**. قال: هي محكمة و ليست بمنسوخة. و عن مجاهد في هذه الآية قال: هي واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم، و هكذا روي عن ابن مسعود و أبي موسى و عبد الرحمن بن أبي بكر و أبي العالية والشعبي و الحسن، و قال ابن سيرين و سعيد بن جبير و مكحول و إبراهيم النخعي و عطاء ابن أبي رباح و الزهري ويحيى بن يعمر: إنها واجبة، و روى ابن أبي حاتم عن ابن سيرين قال: و لي عبيدة وصية فأمر بشاة فذبحت فأطعم أصحاب هذه الآية و قال: لولا هذه الآية لكان هذا من مالي.

ذكر من ذهب إلى أن ذلك أمرٌ بالوصية لهم

روى عبد الرزاق: أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، قسم ميراث أبيه عبد الرحمن و عائشة حية، قالا:

فلم يدع في الدار مسكيناً و لا ذا قرابة إلا أعطاه من ميراث أبيه ، قالا : و تلا ﴿و إذا حضر القسمة أولوا القربى﴾ ، قال القاسم : فذكرت ذلك لابن عباس ، فقال : ما أصاب ، ليس ذلك له إنما ذلك إلى الوصية ، و إنما هذه الآية في الوصية يريد الميت يوصي لهم ، رواه ابن أبي حاتم.

ذكر من قال هذه الآية منسوخة بالكلية

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿و إذا حضر القسمة أولوا القربى و اليتامى و المساكين﴾ نسختها آية الميراث فجعل لكل إنسان نصيبه مما ترك الوالدان و الأقربون مما قل منه أو كثر . و روى عن سعيد بن المسيب أنه قال : إنها منسوخة ، كانت قبل الفرائض ، كان ما ترك الرجل من مال أعطى منه اليتيم و الفقير و المسكين وذوي القربى إذا حضروا القسمة ، ثم نسخ بعد ذلك نسختها المواريث فألحق الله بكل ذي حق حقه ، و صارت الوصية من ماله يوصي بها لذوي قرابته حيث شاء . و هكذا روي عن عكرمة و أبي الشعثاء و القاسم بن محمد و أبي صالح و أبي مالك و زيد بن أسلم و الضحاك و عطاء الخراساني و مقاتل بن حيان و ربيعة بن أبي عبد الرحمن أنهم قالوا : إنها منسوخة ، و هذا مذهب جمهور الفقهاء و الأئمة الأربعة و أصحابهم.

﴿و إذا حضر القسمة﴾ هي قسمة الميراث ، هكذا قال غير واحد ، و المعنى أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون و اليتامى و المساكين قسمة مال جزيل ، فإن أنفسهم تتوق إلى شيء منه ، إذا رأوا هذا يأخذ و هذا يأخذ ، و هم يائسون لا شيء يعطونه ، فأمر الله تعالى و هو الرؤوف الرحيم أن يرضخ لهم شيء من الوسط ، يكون براً بهم و صدقة عليهم ، و إحساناً إليهم و جبراً لكسرهم . كما قال الله تعالى : ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر و آتوا حقه يوم حصاده﴾ و ذم الذين ينقلون المال خفية خشية أن يطلع عليهم المحاويج و ذوو الفاقة . كما أخبر عن أصحاب الجنة ﴿إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين﴾ أي بليل . و قال ﴿فانطلقوا وهم يتخافتون ﴿أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين﴾ فـ ﴿دمّر الله عليهم و للكافرين أمثالها﴾ فمن جحد حق الله عليه عاقبه في أعز ما يملكه .

٩- و قوله تعالى : ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم﴾ الآية . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هذا في الرجل يحضره الموت ، فيسمعه رجل يوصي بوصية تضر بورثته ، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله ويوفقه ويسدده للصواب . فينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة ، و هكذا قال مجاهد و غير واحد ، و ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده ، قال : يا رسول الله ، إني ذو مال و لا يرثني إلا ابنة ، أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال «لا» . قال : فالشطر ؟ قال «لا» . قال : فالثلث ؟ قال : «الثلث ، و الثلث كثير» . ثم قال رسول الله ﷺ «إنك إن تذرْ ورثتك أغنياء ، خيرٌ من أن تذرهم عالة يتكففون الناس» و في الصحيح عن ابن عباس قال : لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع ، فإن رسول الله ﷺ قال «الثلث ، و الثلث كثير» قال الفقهاء : إن كان ورثة الميت أغنياء ، استحب للميت أن يستوفي في وصيته الثلث ، و إن كانوا فقراء استحب أن ينقص الثلث ، و قيل : المراد بالآية فليتقوا الله في مباشرة أموال اليتامى ﴿و لا يأكلوها إسرافاً و بداراً أن يكبروا﴾ ، حكاه ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس ، و هو قول حسن يتأيد بما بعده من التهديد في أكل أموال اليتامى ظلماً ، ، أي كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك ، فعامل الناس في ذراريهم إذا وليتهم.

١٠- ثم أعلمهم أن من أكل أموال اليتامى ظلماً، فإنما يأكل في بطنه ناراً، و لهذا قال **﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً و سيصلون سعيراً﴾** أي إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب فإنما يأكلون ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة. و في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: يا رسول الله، و ما هن؟ قال: «الشرك بالله، و السحر، و قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، و أكل مال اليتيم، و التولي يوم الزحف، و قذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

و روى ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «أُحَرِّج مال الضعيفين: المرأة و اليتيم» أي أوصيكم باجتناب مالهما، و تقدم في سورة البقرة عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما نزلت **﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾** الآية، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه و شرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله **﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير﴾** الآية، قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم، و شرابهم بشرابهم.

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) ﴾

١١- هذه الآية الكريمة و التي بعدها و الآية التي هي خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض، و هو مستنبط من هذه الآيات الثلاث و من الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك. و لنذكر منها ما هو متعلق بتفسير ذلك. و أما تقرير المسائل و نصب الخلاف و الأدلة، و الحجاج بين الأئمة، فموضعه كتب الأحكام، و الله المستعان.

و قد ورد الترغيب في تعلم الفرائض، و هذه الفرائض الخاصة من أهم ذلك، قال ابن عيينة: إنما سمي الفرائض نصف العلم، لأنه يبتلى به الناس كلهم. و روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن جابر بن عبد الله قال: عادني رسول الله ﷺ و أبو بكر في بني سلمة ماشيين، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل شيئاً، فدعا بماء فتوضأ منه، ثم رش علي فأفقت، فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت **﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾** و كذا رواه مسلم و النسائي.

حديث آخر عن جابر في سبب نزول الآية: روى أحمد عن جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قتل أبوهما معك في يوم أحد شهيداً، و إن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً، و لا ينكحان إلا ولهما مال، قال: فقال «يقضي الله في ذلك» فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال: «أعط ابنتي سعد الثلثين، و أمهما الثمن، و ما بقي فهو لك». و قد رواه أبو داود و الترمذي و ابن ماجه. و الظاهر أن حديث جابر الأول إنما نزل بسبب الآية الأخيرة من هذه السورة كما سيأتي من هذه السورة كما سيأتي، فإنه إنما كان له إذ ذاك أخوات، و لم يكن له بنات، و إنما كان يورث كلالة،

ولكن ذكرنا الحديث ههنا تبعاً للبخاري رحمه الله فإنه ذكره ههنا، و الحديث الثاني عن جابر أشبه بنزول هذه الآية، و الله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ أي يأمركم بالعدل فيهم، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث، وفاوت بين الصنفين، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة و الكلفة و معاناة التجارة والتكسب و تحمل المشاق، فناسب أن يُعطى ضعفي ما تأخذه الأنثى، و قد استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالدة بولدها، حيث أوصى الوالدين بأولادهم، فعلم أنه أرحم بهم منهم، كما جاء في الحديث الصحيح و قد رأى[1] امرأة من السبي فُرِّق بينها و بين ولدها، فجعلت تدور على ولدها، فلما وجدته من السبي أخذته فألصقته بصدرها وأرضعته. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه «أترون هذه طارحةً ولدها في النار و هي تقدر على ذلك»؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال «فو الله لله أرحمُ بعباده من هذه بولدها». و روى البخاري ههنا عن ابن عباس قال: كان المال للولد، و كانت الوصية للوالدين، فنسخ الله من ذلك ما أحب، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، و جعل للأبوين لكل واحد منهما السدس و الثلث، و جعل للزوجة الثمن و الربع، و للزوج الشطر و الربع.

و قوله ﴿فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك﴾ قال بعض الناس: قوله ﴿فوق﴾ زائدة، و تقديره فإن كن نساء اثنتين كما في قوله ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ و هذا غير مسلم لا هنا و لا هناك، فإنه ليس في القرآن زائد لا فائدة فيه، و هذا ممتنع، ثم قوله ﴿فلهن ثلثا ما ترك﴾ لو كان المراد ما قالوه لقال: فلهما ثلث ما ترك و إنما استفيد كون الثلثين للبنتين من حكم الأختين في الآية الأخيرة، فإنه تعالى حكم فيها للأختين بالثلثين. و إذا ورث الأختان الثلثين فلأن يرث البنتان الثلثين بالطريق الأولى. و قد تقدم في حديث جابر أن النبي ﷺ، حكم لابنتي سعد بن الربيع بالثلثين، فدل الكتاب و السنة على ذلك، و أيضاً فإنه قال ﴿و إن كانت واحدة فلها النصف﴾ فلو كان للبنتين في حكم الثلاث، و الله أعلم.

و قوله تعالى: ﴿و لأبويه لكل واحد منهما السدس﴾ إلى آخره، الأبوان لهما في الإرث أحوال: **أحدها**: أن يجتمعا مع الأولاد فيفرض لكل واحد منهما السدس، فإن لم يكن للميت إلا بنت واحدة، فرض لها النصف، وللأبوين لكل واحد منهما السدس؛ و أخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب، فيجمع له و الحالة هذه بين الفرض والتعصيب. **الحال الثاني**: أن ينفرد الأبوان بالميراث، فيفرض للأم و الحالة هذه الثلث، و يأخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض، و يكون قد أخذ ضعفي ما فرض للأم، و هو الثلثان، فلو كان معهما - و الحالة هذه - زوج أو زوجة أخذ الزوج النصف و الزوجة الربع. ثم اختلف العلماء ماذا تأخذ الأم بعد فرض الزوج و الزوجة، على ثلاثة أقوال: **أحدها**: أنهما تأخذ ثلث الباقي في المسألتين، لأن الباقي كأنه جميع الميراث بالنسبة إليهما. و قد جعل الله لها نصف ما جعل للأب. فتأخذ ثلث الباقي ويأخذ الأب ثلثيه، هذا قول عمر و عثمان، و أصح الروايتين عن علي، و به يقول ابن مسعود و زيد بن ثابت، و هو قول الفقهاء السبعة و الأئمة الأربعة و جمهور العلماء.

والثاني: أنها تأخذ ثلث جميع المال لعموم قوله ﴿فإن لم يكن له ولد و ورثه أبواه فلأمه الثلث﴾ فإن الآية أعم من أن

---

(١) أي النبي ﷺ

يكون معها زوج أو زوجة أو لا ، و هو قول ابن عباس . و روي عن علي و معاذ بن جبل نحوه . و به يقول شريح وداود الظاهري . و اختاره أبو الحسين محمد بن عبد الله بن اللبان البصري في كتابه «الإيجاز في علم الفرائض» وهذا فيه نظر ، بل هو ضعيف ، لأن ظاهر الآية إنما هو إذا استبد بجميع التركة ، و أما هنا فيأخذ الزوج أو الزوجة الفرض و يبقى الباقي كأنه جميع التركة ، فتأخذ ثلثه كما تقدم ، و **القول الثالث** : أنها تأخذ ثلث جميع المال في مسألة الزوجة خاصة ، فإنها تأخذ الربع و هو ثلاثة من اثني عشر ، و تأخذ الأم الثلث و هو أربعة ، فيبقى خمسة للأب ، و أما في مسألة الزوج فتأخذ ثلث الباقي لئلا تأخذ أكثر من الأب لو أخذت ثلث المال ، فتكون المسألة من ستة : للزوج النصف ثلاثة و للأم ثلث الباقي بعد ذلك و هو سهم ، و للأب الباقي بعد ذلك و هو سهمان . و يحكى هذا عن ابن سيرين و هو قول مركب من القولين الأولين ، موافق كلا منهما في صورة و هو ضعيف أيضاً ، والصحيح الأول ، و الله أعلم.

و الحال الثالث من أحوال الأبوين : و هو اجتماعهما مع الإخوة ، سواء كانوا من الأبوين أو من الأب أو من الأم ، فإنهم لا يرثون مع الأب شيئاً ، و لكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس ، فيفرض لها مع وجودهم السدس ، فإن لم يكن وارث سواها و سوى الأب ، أخذ الأب الباقي . وحكم الأخوين فيما ذكرناه كحكم الإخوة عند الجمهور .

عن زيد أنه قال : الأخوان تسمى إخوة ، و قد أفردت لهذه المسألة جزءاً على حدة . و روى ابن أبي حاتم عن قتادة قوله **﴿فإن كان له إخوة فلأمه السدس﴾** أضروا بالأم و لا يرثون ، و لا يحجبها الأخ الواحد من الثلث ويحجبها مافوق ذلك ، و كان أهل العلم يرون أنهم إنما حجبوا أمهم عن الثلث أن أباهم يلي إنكاحهم ، و نفقته عليهم دون أمهم ، و هذا كلام حسن . لكن روي عن ابن عباس بإسناد صحيح أنه كان يرى أن السدس الذي حجبوه عن أمهم يكون لهم ؛ و هذا قول شاذ رواه ابن جرير في تفسيره ثم قال : و هذا قول مخالف لجميع الأمة .

و قوله **﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾** أجمع العلماء من السلف و الخلف على أن الدَّين مقدم على الوصية وذلك عند إمعان النظر يفهم من فحوى الآية الكريمة .

و قوله **﴿آباؤكم و أبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً﴾** أي إنما فرضنا للآباء و الأبناء ، و ساوينا بين الكل في أصل الميراث على خلاف ما كان عليه الأمر في الجاهلية ، و على خلاف ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام ، من كون المال للولد و للأبوين الوصية ، كما تقدم عن ابن عباس ، إنما نسخ الله ذلك إلى هذا ففرض لهؤلاء و لهؤلاء بحسبهم ، لأن الإنسان قد يأتيه النفع الدنيوي أو الأخروي أو هما من أبيه ما لا يأتيه من ابنه ، و قد يكون بالعكس ، و لذا قال **﴿آباؤكم و أبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً﴾** أي كأن النفع متوقع و مرجو من هذا كما هو متوقع ومرجو من الآخر ، فلهذا فرضنا لهذا وهذا ، و ساوينا بين القسمين في أصل الميراث ، والله أعلم .

و قوله **﴿فريضة من الله﴾** أي هذا الذي ذكرناه من تفصيل الميراث ، و إعطاء بعض الورثة أكثر من بعض ، هو فرض الله حكم به و قضاه ، و الله عليم حكيم الذي يضع الأشياء في محالها ، و يعطي كلاً ما يستحقه بحسبه ، ولهذا قال **﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾** .

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن

بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) ﴾

١٢- يقول تعالى: ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم إذا متن من غير ولد، فإن كان لهن ولد، فلكم الربع مما تركن من بعد الوصية أو الدَّين. وقد تقدم أن الدين مقدم على الوصية، وبعده الوصية ثم الميراث، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب، ثم قال **﴿ولهن الربع مما تركتم﴾** إلى آخره وسواء في الربع أو الثمن الزوجة والزوجتان الاثنتان والثلاث والأربع يشتركن فيه. وقوله: **﴿من بعد وصية﴾** الخ الكلام عليه كما تقدم، وقوله تعالى: **﴿وإن كان رجل يورث كلالة﴾** الكلالة مشتقة من الإكليل، وهو الذي يحيط بالرأس من جوانبه، والمراد هنا من يرثه من حواشيه لا أصوله ولا فروعه. وروى ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس قال: كنت آخر الناس عهداً بعمر، فسمعته يقول: القول ما قلت وما قلت وما قلت، قال: الكلالة من لا ولد له ولا والد. وهكذا قال علي وابن مسعود وصح عن غير وجه عن ابن عباس وزيد بن ثابت، وبه يقول الشعبي والنخعي والحسن وقتادة وجابر بن زيد والحكم، وبه يقول أهل المدينة وأهل الكوفة والبصرة، وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور السلف والخلف، بل جميعهم، وقد حكى الإجماع عليه غير واحد، وورد فيه حديث مرفوع.

وقوله تعالى: **﴿وله أخ أو أخت﴾** أي من أم كما هي في قراءة بعض السلف، منهم سعد بن أبي وقاص. **﴿فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾** وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه: أحدها: أنهم يرثون مع من أدلوا به، وهي الأم. **الثاني**: أن ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء. **الثالث**: أنهم لا يرثون إلا إن كان ميتهم يورث كلالة، فلا يرثون مع أب ولا جد ولا ولد ولا ولد ابن. **الرابع**: أنهم لا يزادون على الثلث، وإن كثر ذكورهم وإناثهم.

واختلف العلماء في المسألة المشتركة، وهي زوج وأم أو جدة واثنان من ولد الأم وواحد أو أكثر من ولد الأبوين، فعلى قول الجمهور للزوج النصف، وللأم أو الجدة السدس ولولد الأم الثلث ويشاركهم فيه ولد الأب والأم بما بينهم من القدر المشترك وهو إخوة الأم، وقد وقعت هذه المسألة في زمن أمير المؤمنين عمر، فأعطى الزوج النصف، والأم السدس، وجعل الثلث لأولاد الأم، فقال له أولاد الأبوين: يا أمير المؤمنين، هب أن أبانا كان حماراً، ألسنا من أم واحدة؟ فشرك بينهم وصح التشريك عنه وعن عثمان، وهو إحدى الروايتين عن ابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس رضي الله عنهم، وبه يقول سعيد بن المسيب وشريح القاضي ومسروق وطاوس ومحمد بن سيرين وإبراهيم النخعي وعمر بن عبد العزيز والثوري وشريك، وهو مذهب مالك والشافعي وإسحاق بن راهويه، وكان علي بن أبي طالب لا يشرك بينهم، بل يجعل الثلث لأولاد الأم، ولا شيء لأولاد الأبوين، والحالة هذه لأنهم عصبة. وقال وكيع بن الجراح: لم يختلف عنه في ذلك. وهذا قول أبي بن كعب وأبي موسى الأشعري. وهو المشهور عن ابن عباس. وهو مذهب الشعبي وابن أبي ليلى وأبي حنيفة وأبي يوسف

و محمد بن الحسن و الحسن بن زياد و زفر بن الهذيل و الإمام أحمد بن حنبل و يحيى بن آدم و نعيم بن حماد و أبي ثور و داود بن علي الظاهري، و اختاره أبو الحسين بن اللبان الفرضي رحمه الله في كتابه الإيجاز. و قوله: **﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار﴾** أي لتكون وصيته على العدل لا على الإضرار و الجور و الحيف، بأن يحرم بعض الورثة أو ينقصه، أو يزيده على ما قدَّر الله له من الفريضة، فمن سعى في ذلك، كان كمن ضاد الله في حكمته، و قسمته.

روى النسائي عن ابن عباس موقوفاً «الإضرار في الوصية من الكبائر» و كذا رواه ابن أبي حاتم. و في بعضها: ويقرأ ابن عباس **﴿غير مضار﴾**، و لهذا اختلف الأئمة في الإقرار للوارث، هل هو صحيح أم لا؟ على قولين، **أحدهما**: لا يصح لأنه مظنة التهمة أن يكون قد أوصى له بصيغة الإقرار. و قد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث». و هذا مذهب مالك وأحمد بن حنبل و أبي حنيفة، و القول القديم للشافعي رحمهم الله، و ذهب في الجديد إلى أنه يصح الإقرار. و هو مذهب طاوس وعطاء و الحسن و عمر بن عبد العزيز و هو اختيار أبي عبد الله البخاري في صحيحه، واحج بأن رافع بن خديج أوصى أن لا تكشف الفزارية عما أغلق عليه بابها، قال: و قال بعض الناس لا يجوز إقراره لسوء الظن به للورثة، و قد قال النبي ﷺ «إياكم و الظن، فإن الظن أكذب الحديث» و قال الله تعالى: **﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾** فلم يخص وارثاً و لا غيره، انتهى ما ذكره. فمتى كان الإقرار صحيحاً مطابقاً لما في نفس الأمر، جرى فيه هذا الخلاف، و متى كان حيلة و وسيلة إلى زيادة بعض الورثة ونقصان بعضهم، فهو حرام بالإجماع و بنص هذه الآية الكريمة **﴿غير مضار و صية من الله و الله عليم حليم﴾**. ثم قال تعالى:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤) ﴾

١٣، ١٤- أي هذه الفرائض و المقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قربهم من الميت و احتياجهم إليه و فقدهم له عند عدمه، هي حدود الله، فلا تعتدوها و لا تجاوزوها، و لهذا قال **﴿و من يطع الله و رسوله﴾** أي فيها فلم يزد بعض الورثة لم ينقص بعضها بحيلة و وسيلة، بل تركهم على حكم الله و فريضته و قسمته **﴿يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها و ذلك الفوز العظيم ❖ و من يعص الله و رسوله و يتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها و له عذب مهين﴾** أي لكونه غيّر ما حكم الله به و ضاد الله في حكمه، و هذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله و حكم به، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم.

﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (١٦) ﴾

١٥- كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة، حُبست في بيت فلا تُمكّن من الخروج منه

إلا أن تموت، و لهذا قال: ﴿اللاتي يأتين الفاحشة﴾ يعني الزنا ﴿من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾ فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور، فنسخها بالجلد أو الرجم، وكذا روي عن عكرمة، و سعيد بن جبير و الحسن و عطاء الخراساني و أبي صالح و قتادة و زيد بن أسلم و الضحاك، أنها منسوخة، و هو أمر متفق عليه. روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي، أثر عليه، و كرب لذلك، و تَرَبَّدَ وجهه، فأنزل الله عز وجل عليه ذات يوم، فلما سري عنه، قال: «خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً، الثيب بالثيب، و البكر بالبكر، الثيب جلدُ مائةٍ و رجم بالحجارة، و البكر جلد مائة ثم نفي سَنَة»، و قد رواه مسلم و أصحاب السنن.

و قد ذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى القول بمقتضى هذا الحديث، و هو الجمع بين الجلد و الرجم في حق الثيب الزاني، و ذهب الجمهور إلى أن الثيب الزاني إنما يرجم فقط من غير جلد، قالوا: لأن النبي ﷺ رجم ماعزاً و الغامدية و اليهوديين، و لم يجلدهم قبل ذلك، فدل على أن الرجم ليس بحتم، بل هو منسوخ على قولهم، والله أعلم.

١٦ - و قوله تعالى: ﴿و اللذان يأتيانها منكم فآذوهما﴾ أي و اللذان يأتيان الفاحشة فآذوهما، قال ابن عباس رضي الله عنهما و سعيد بن جبير و غيرهما: أي بالشتم و التعيير و الضرب بالنعال، و كان الحكم كذلك، حتى نسخه الله بالجلد و الرجم، و قال عكرمة و عطاء و الحسن و عبد الله بن كثير: نزلت في الرجل و المرأة إذا زنيا. و قال السدي: نزلت في الفتيان من قبل أن يتزوجوا. و قال مجاهد: نزلت في الرجلين إذا فعلا - لا يكنى، وكأنه يريد اللواط - و الله أعلم، و قد روى أهل السنن من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل و المفعول به». و قوله: ﴿فإن تابا و أصلحا﴾ أي أقلعا و نزعا عما كانا عليه و صلحت أعمالهما و حسنت، ﴿فأعرضوا عنهما﴾ أي لا تعنفوهما بكلام قبيح بعد ذلك، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿إن الله كان تواباً رحيماً﴾. و قد ثبت في الصحيحين «إذا زنت أَمَةُ أحدكم، فليجلدها الحد و لا يُثرِّب عليها» أي ثم لا يعيّرها بما صنعت بعد الحد الذي هو كفارة لما صنعت.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾

١٧ - يقول سبحانه و تعالى: إنما يتقبل الله التوبة ممن عمل السوء بجهالة ثم يتوب و لو قبل معاينة المَلَك روحه قبل الغرغرة. قال مجاهد و غير واحد: كل من عصى الله خطأً أو عمداً، فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب، وعن أبي العالية أنه كان يحدث أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة، رواه ابن جرير. وروى عبد الرزاق عن قتادة، قال: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عصى الله به، فهو جهالة عمداً كان أو غيره، و قال عطاء بن أبي رباح نحوه. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ثم يتوبون من قريب﴾ قال: ما بينه و بين أن ينظر إلى ملك الموت. و قال الضحاك: ما كان دون الموت فهو قريب. و قال قتادة و السدي:

ما دام في صحته، و هو مروي عن ابن عباس . و قال الحسن البصري ﴿ثم يتوبون من قريب﴾، مالم يغرغر . وقال عكرمة: الدنيا كلها قريب.

و روى الإمام أحمد عن ابن عمر عن النبيﷺ، قال «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغرغر» رواه الترمذي وابن ماجه.

و روى الإمام أحمد عن أبي سعيد عن النبيﷺ قال «قال إبليس: و عزتك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله عز وجل: و عزتي و جلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني» فقد دلت هذه الأحاديث على أن من تاب إلى الله عز وجل و هو يرجو الحياة، فإن توبته مقبولة، و لهذا قال تعالى ﴿فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيماً﴾ و أما متى وقع الإياس من الحياة، و عاين الملَك، و حشرجت الروح في الحلق، و ضاق بها الصدر، و بلغت الحلقوم، و غرغرت النفس صاعدة في الغلاصم، فلا توبة مقبولة حينئذ، و لات حين مناص.

١٨- و لهذا قال ﴿و ليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾ و هذا كما قال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا﴾ و هذا كما قال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده﴾ الآيتين، وكما حكم تعالى بعدم توبة أهل الأرض إذا عاينوا الشمس طالعة من مغربها في قوله تعالى: ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ الآية، و قوله ﴿و لا الذين يموتون وهم كفار﴾ يعني أن الكافر إذا مات على كفره و شركه لا ينفعه ندمه و لا توبته، و لا يقبل منه فدية و لو بملء الأرض. قال ابن عباس و أبو العالية و الربيع بن أنس ﴿و لا الذين يموتون وهم كفار﴾ قالوا: نزلت في أهل الشرك. و لهذا قال الله تعالى: ﴿أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ أي موجعاً شديداً مقيماً.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً (٢٢) ﴾

١٩- روى البخاري عن ابن عباس ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ قال: كانوا إذا مات الرجل، كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها، و إن شاؤوا زوجوها، وإن شاؤوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾. و روى أبو داود عن ابن عباس قال ﴿لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً و لا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ و ذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذي قرابته فيعضلها حتى تموت أو ترد إليه صداقها، فأحكم الله تعالى عن ذلك، أي نهى عن ذلك. و روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ قال: كان الرجل إذا مات و ترك جارية، ألقى عليها حميمه ثوبه فمنعها من الناس، فإن كانت

جميلة تزوجها، و إن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها، و روى أبو بكر بن مردويه عن سهل بن حنيف قال: لما توفي أبو قيس بن الأسلت، أراد ابنه أن يتزوج امرأته، و كان لهم ذلك في الجاهلية، فأنزل الله ﴿لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ و رواه ابن جرير. و قال مجاهد في هذه الآية: كان الرجل يكون في حجره اليتيمة هو يلي أمرها، فيحبسها رجاء أن تموت امرأته فيتزوجها أو يزوجها ابنه، رواه ابن أبي حاتم. ثم قال: و روي عن الشعبي وعطاء بن أبي رباح و أبي مجلز و الضحاك و الزهري و عطاء الخراساني و مقاتل بن حيان، نحو ذلك. قلت: فالآية تعم ما كان يفعله أهل الجاهلية و ما ذكره مجاهد، و من وافقه، و كل ما كان فيه نوع من ذلك، و الله أعلم.

و قوله ﴿و لا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ أي لا تُضاروهن في العشرة، لتترك لك ما أصدقتها أو بعضه أو حقاً من حقوقها عليك، أو شيئاً من ذلك على وجه القهر لها و الاضطهاد. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿و لا تعضلوهن﴾ يقول: و لا تقهروهن ﴿لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ يعني الرجل، تكون له امرأة و هو كاره لصحبتها، و لها عليه مهر فيضرها لتفتدي، و كذا قال الضحاك و قتادة، و اختاره ابن جرير. وقوله ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ قال ابن مسعود و ابن عباس، و سعيد بن المسيب و الشعبي و الحسن البصري و محمد ابن سيرين و سعيد بن جبير ومجاهد و عكرمة و عطاء الخراساني و الضحاك و أبو قلابة و أبو صالح و السدي و زيد ابن أسلم و سعيد بن أبي هلال: يعني بذلك الزنا، يعني إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها، و تضاجرها حتى تتركه لك، و تخالعها، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿و لا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله﴾ الآية، و قال ابن عباس و عكرمة و الضحاك: الفاحشة المبينة النشوز والعصيان، و اختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله: الزنا و العصيان، و النشوز و بذاء اللسان، و غير ذلك. يعني أن هذا كله يُبيح مضاجرتها حتى تبرئه من حقها أو بعضه و يفارقها، و هذا جيد، و الله أعلم.

قال عكرمة و الحسن البصري: و هذا يقتضي أن يكون السياق كله كان في أمر الجاهلية، و لكن نُهي المسلمون عن فعله في الإسلام، و قال مجاهد في قوله ﴿و لا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ هو كالعضل في سورة البقرة. و قوله تعالى: ﴿و عاشروهن بالمعروف﴾ أي طيبوا أقوالكم لهن، و حسنوا أفعالكم و هيئاتكم بحسب قدرتكم كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: ﴿و لهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ وقال رسول الله ﷺ «خيركم خيركم لأهله، و أنا خيركم لأهلي» و كان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة دائم البشر، يداعب أهله، و يتلطف بهم و يوسعهم نفقته، و يضاحك نساءه حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنا، يتودد إليها بذلك، قالت: سابقني رسول الله ﷺ فسبقتُه، و ذلك قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقته بعد ما حملت اللحم فسبقني، فقال «هذه بتلك»، و يجتمع نساؤه كل ليلة في بيت التي تبيت عندها رسول الله ﷺ فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها، وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار واحد، يضع عن كتفيه الرداء و ينام بالإزار، و كان إذا صلى العشاء يدخل منزله يَسْمُر مع أهله قليلاً قبل أن ينام، يؤانسهم بذلك ﷺ. و قد قال الله تعالى ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ و أحكام عشرة النساء و ما يتعلق بتفصيل ذلك موضعه كتب الأحكام، و لله الحمد.

و قوله تعالى ﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً و يجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ أي فعسى أن يكون صبركم مع إمساككم لهن و كراهتهن فيه، خير كثير لكم في الدنيا و الآخرة، كما قال ابن عباس في هذه الآية: هو أن

يعطف عليها فيرزق منها ولداً، و يكون في ذلك الولد خير كثير، و في الحديث الصحيح «لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنة، إن سخط منها خُلُقاً رضي منها آخر»[1].

٢٠، ٢١- و قوله تعالى: **﴿و إن أردتم استبدال زوج مكان زوج و آتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً و إثماً مبيناً﴾** أي إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأة و يستبدل مكانها غيرها فلا يأخذ مما كان أصدق الأولى شيئاً و لو كان قنطاراً من المال، و قد قدمنا في سورة آل عمران الكلام على القنطار بما فيه كفاية عن إعادته ههنا. و في هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل، و قد كان عمر بن الخطاب نهى عن كثرة الإصداق، ثم رجع عن ذلك، كما روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب يقول: ألا لا تَغْلُوا في صداق النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله، كان أولاكم بها النبيﷺ، ما أصدق رسول اللهﷺ امرأة من نسائه و لا أُصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية، و إن كان الرجل ليبتلى بصدقة امرأته حتى يكون لها عداوة في نفسه، و حتى يقول: كلفت إليك علق القربة، و رواه أهل السنن.

و قال تعالى: **﴿و أخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾** روي عن ابن عباس و مجاهد و سعيد بن جبير، أن المراد بذلك: العقد. و روي عن ابن عباس في قوله **﴿و أخذن منكم ميثاقا غليظا﴾** قال: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. قال ابن أبي حاتم: و روي عن عكرمة و مجاهد و أبي العالية و الحسن و قتادة و يحيى بن أبي كثير و الضحاك والسدي نحو ذلك. و في صحيح مسلم عن جابر في خطبة حجة الوداع أن النبيﷺ قال فيها «و استوصوا بالنساء خيراً فإنكم أخذتموهن بأمانة الله و استحللتم فروجهن بكلمة الله».

٢٢- و قال تعالى: **﴿و لا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾** الآية، يحرم الله تعالى زوجات الآباء تكرمة لهم، وإعظاماً و احتراماً أن توطأ من بعده، حتى إنها لتحرم عن الابن بمجرد العقد عليها، و هذا أمر مُجمع عليه. و قد زعم السهيلي أن نكاح نساء الاباء كان معمولاً به في الجاهلية، و لهذا قال **﴿إلا ما قد سلف﴾** كما قال **﴿و أن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف﴾** قال: و قد فعل ذلك كنانة ابن خزيمة، تزوج بامرأة أبيه، فأولدها ابنه النضر بن كنانة، قال: و قد قالﷺ «وُلِدتُ من نكاح لا من سفاح» قال: فدل على أنه كان سائغاً لهم ذلك، فإن أراد أنهم كانوا يعدونه نكاحاً فيما بينهم. فقد روى ابن جرير عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يُحرّمون ما حرم الله إلا امرأة الأب و الجمع بين الأختين، فأنزل الله تعالى **﴿و لا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾** **﴿و أن تجمعوا بين الأختين﴾**، و هكذا قال عطاء و قتادة، و لكن فيما نقله السهيلي من قصة كنانة نظر، و الله أعلم. و على كل تقدير فهو حرام في هذه الآية، مبشع غاية التبشع، و لهذا قال تعالى: **﴿إنه كان فاحشة و مقتاً و ساء سبيلاً﴾** و قال **﴿و لا تقربوا الفواحش ما ظهر منها و ما بطن﴾** وقال **﴿و لا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾** فزاد ههنا **﴿و مقتاً﴾** أي بغضاً أي هو أمر كبير في نفسه، و يؤدي إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته، فإن الغالب أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله، و لهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة لأنهن أمهات لكونهن زوجات النبيﷺ و هو كالأب، بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله و سلامه عليه.

و قال عطاء بن أبي رباح في قوله **﴿و مقتاً﴾** أي يمقت الله عليه، **﴿و ساء سبيلاً﴾** أي و بئس طريقاً لمن سلكه من الناس، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه، فَيُقتل ويصير ماله فيئاً لبيت المال. كما رواه الإمام أحمد و أهل

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.

السنن من طرق عن البراء بن عازب، عن خاله أبي بردة - و في رواية: ابن عمر، و في رواية: عن عمه - أنه بعثه رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده أن يقتله و يأخذ ماله.

مسألة: و قد أجمع العلماء على تحريم من وطئها الأب بتزويج أو مُلك أو شبهة، و اختلفوا فيمن باشرها بشهوة دون الجماع، أو نظر إلى مالا يحل له النظر إليه منها لو كانت أجنبية. فعن الإمام أحمد رحمه الله أنها تحرم أيضاً بذلك.

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣) وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤) ﴾

٢٣، ٢٤- هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب و ما يتبعه من الرضاع و المحارم بالصهر، كما روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: حُرِّمت عليكم سبع نسباً و سبع صهراً، و قرأ **﴿حرمت عليكم أمهاتكم بناتكم وأخواتكم﴾** الآية، و قد استدل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزاني عليه، بعموم قوله تعالى: **﴿وبناتكم﴾** فإنها بنت، فتدخل في العموم كما هو مذهب أبي حنيفة و مالك و أحمد بن حنبل، و قد حُكي عن الشافعي شيء في إباحتها لأنها ليست بنتاً شرعية، فكما لم تدخل في قوله تعالى: **﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾** فإنها لا ترث بالإجماع، فكذلك لا تدخل في هذه الآية، و الله أعلم.

وقوله تعالى: **﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم و أخواتكم من الرضاعة﴾** أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك، و لهذا ثبت في الصحيحين من حديث عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال «إن الرضاعة تُحرّم ما تحرم الولادة»، و في لفظ لمسلم «يَحرُم من الرضاعة ما يحرم من النسب»، و قال بعض الفقهاء: كل ما يحرم من النسب يحرم بالرضاع إلا في أربع صور، و قال بعضهم: ست صور هي مذكورة في كتب الفروع و التحقيق أنه لا يُستثنى شيء من ذلك، لأنه يوجد مثل بعضها من النسب، و بعضها إنما يحرم من جهة الصهر فلا يرد على الحديث شيء أصلاً البتة، و لله الحمد و به الثقة.

ثم اختلف الأئمة في عدد الرضعات المحرمة، فذهب ذاهبون إلى أنه يحرم مجرد الرضاع لعموم هذه الآية، وهذا قول مالك، و يروى عن ابن عمر، و إليه ذهب سعيد بن المسيب و عروة بن الزبير و الزهري. و قال آخرون: لا يحرم أقل من ثلاث رضعات، لما ثبت في صحيح مسلم من طريق عائشة، أن رسول الله ﷺ، قال: «لا تحرم المصة و لا المصتان» و ممن ذهب إلى هذا القول: الإمام أحمد بن حنبل و إسحاق بن راهويه، و أبو عبيد و أبو ثور، و هو مروي عن علي و عائشة وأم الفضل و ابن الزبير و سليمان بن يسار و سعيد بن جبير رحمهم الله. و قال آخرون:

لا يحرم أقل من خمس رضعات، لما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان فيما أُنزل من القرآن «عشر رضعات معلومات يحرمن» ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفي النبيﷺ و هن فيما يقرأ من القرآن، و بهذا قال الشافعي و أصحابه، ثم ليعلم أنه لا بد أن تكون الرضاعة في سن الصغر دون الحولين على قول الجمهور. وكما قدمنا الكلام على هذه المسألة في سورة البقرة عند قوله ﴿يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾. ثم اختلفوا هل يحرم لبن الفحول، كما هو قول جمهور الأئمة و غيرهم، أو إنما يختص الرضاع بالأم فقط، و لا ينتشر إلى ناحية الأب، كما هو قول لبعض السلف؟ على قولين، تحرير هذا كله في كتاب الأحكام الكبير[1].

و قوله ﴿و أمهات نسائكم و ربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾، أما أم المرأة فإنها تحرم بمجرد العقد على ابنتها، سواء دخل بها أو لم يدخل، و أما الربيبة وهي بنت المرأة فلا تحرم بمجرد العقد على أمها حتى يدخل، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها، و لهذا قال ﴿و ربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾ في تزويجهن، فهذا خاص بالربائب وحدهن. و قد فهم بعضهم عود الضمير إلى الأمهات و الربائب، فقال: لا تحرم واحدة من الأم و لا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها، لقوله ﴿فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾. و جمهور العلماء على أن الربيبة لا تحرم بالعقد على الأم بخلاف الأم، فإنها تحرم بمجرد العقد. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه كان يقول: إذا طلق الرجل المرأة قبل أن يدخل بها أو ماتت لم تحل له أمها، و روي أنه قال: إنها مبهمة، فكرهها. ثم قال: و روي عن ابن مسعود و عمران بن حصين و مسروق وطاوس و عكرمة و عطاء و الحسن و مكحول و ابن سيرين و قتادة و الزهري نحو ذلك. و هذا مذهب الأئمة الأربعة و الفقهاء السبعة، و جمهور الفقهاء قديماً وحديثاً. و لله الحمد و المنة. قال ابن جرير: و الصواب قول من قال: الأم من المبهمات، لأن الله لم يشترط معهن الدخول كما اشترطه مع أمهات الربائب، مع أن ذلك أيضاً إجماع من الحجة التي لا يجوز خلافها فيما جاءت به متفقة عليه.

و أما قوله تعالى: ﴿و ربائبكم اللاتي في حجوركم﴾ فالجمهور على أن الربيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل، أو لم تكن في حجره، قالوا: و هذا الخطاب خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، كقوله تعالى: ﴿و لا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً﴾. و في الصحيحين أن أم حبيبة قالت: يا رسول الله انكح أختي بنت أبي سفيان، و في لفظ لمسلم عزة بنت أبي سفيان، قال «أو تحبين ذلك؟» قالت: نعم لست لك بمخلية، و أحب من شاركني في خير أختي، قال «فإن ذلك لا يحل لي»، قالت: فإنا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة، قال «بنت أم سلمة؟» قالت: نعم. قال «إنها لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي، إنها لبنت أخي من الرضاعة، أرضعتني و أباسلمة ثويبة، فلا تعرضن علي بناتكن و لا أخواتكن» و في رواية للبخاري «إني لو لم أتزوج أم سلمة ما حلت لي»، فجعل المناط في التحريم مجرد تزوجه أم سلمة، وحكم بالتحريم لذلك، و هذا هو مذهب الأئمة الأربعة و الفقهاء السبعة و جمهور الخلف و السلف. و قد قيل: بأنه لا تحرم الربيبة إلا إذا كانت في حجر الرجل، فإذا لم تكن كذلك فلا تحرم. و أما الربيبة في ملك اليمين فقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله: لا خلاف بين

---

(١) و الصواب هو الأول للحديث الوارد فيه عن عائشة رضي الله عنها في الصحيح و غيره.

العلماء أنه لا يحل لأحد أن يطأ امرأة و بنتها من ملك اليمين، لأن الله حرم ذلك في النكاح، قال **﴿و أمهات نسائكم و ربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم﴾** وملك اليمين عندهم تبع للنكاح، إلا ما روي عن عمر و ابن عباس، وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى و لا من تبعهم. و معنى قوله **﴿اللاتي دخلتم بهن﴾** أي نكحتموهن، قاله ابن عباس و غير واحد. و قال ابن جرير: و في إجماع الجميع على أن خلوة الرجل بامرأة لا يحرّم ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها و مباشرتها، أو قبل النظر إلى فرجها بشهوة ما يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع.

و قوله تعالى: **﴿و حلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾** أي و حرمت عليكم زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم، يحترز بذلك عن الأدعياء الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية. كما قال تعالى: **﴿فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم﴾** الآية، و قال ابن جريج: سألت عطاء عن قوله **﴿و حلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾**. قال: كنا نحدث ـ و الله أعلم ـ أن النبيﷺ لما نكح امرأة زيد، قال المشركون بمكة في ذلك، فأنزل الله عز وجل: **﴿و حلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾** ونزلت **﴿و ما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾**، و نزلت **﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾**، و روى ابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد: أن هؤلاء الآيات مبهمات **﴿و حلائل أبنائكم﴾** **﴿و أمهات نسائكم﴾** ثم قال: و روي عن طاوس و إبراهيم والزهري و مكحول، نحو ذلك. (قلت) معنى مبهمات أي عامة في المدخول بها و غير المدخول، فتحرم بمجرد العقد عليها، و هذا متفق عليه، فإن قيل: فمن أين تحرم امرأة ابنه من الرضاعة كما هو قول الجمهور، و من الناس من يحكيه إجماعاً و ليس من صلبه، فالجواب من قولهﷺ «يَحرُم من الرضاع ما يحرم من النسب»، و قوله تعالى: **﴿و أن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف﴾** الآية. أي و حرم عليكم الجمع بين الأختين معاً في التزويج، و كذا في ملك اليمين إلا ما كان منكم في جاهليتكم فقد عفونا عنه و غفرناه. فدل على أنه لا مثنوية فيما يستقبل و لا استثناف فيما سلف، كما قال **﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾** فدل على أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، و قد أجمع العلماء من الصحابة و التابعين و الأئمة قديماً و حديثاً على أنه يحرم الجمع بين الأختين في النكاح، و من أسلم و تحته أختان، خُيِّر فيمسك إحداهما و يطلق الأخرى لا محالة.

روى الإمام أحمد عن الضحاك بن فيروز عن أبيه، قال: أسلمت و عندي امرأتان أختان، فأمرني النبيﷺ أن أُطلق إحداهما. و رواه الترمذي و ابن ماجه. و أما الجمع بين الأختين في ملك اليمين فحرام أيضاً لعموم الآية. وروى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنه سئل عن الرجل يجمع بين الأختين، فكرهه فقال له ـ يعني السائل: يقول الله تعالى: **﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾** فقال له ابن مسعودرضي الله عنه: و بعيرك مما ملكت يمينك. و هذا هو المشهور عن الجمهور و الأئمة الأربعة و غيرهم، و إن كان بعض السلف قد توقف في ذلك. روى الإمام مالك عن قبيصة بن ذؤيب: أن رجلاً سأل عثمان بن عفان عن الأختين في ملك اليمين، هل يجمع بينهما؟ فقال عثمان: أحلّتهما آية، و حرمتهما آية، و ما كنت لأصنع ذلك، فخرج من عنده، فلقي رجلاً من أصحاب النبيﷺ فسأله عن ذلك، فقال: لو كان لي من الأمر شيء ثم وجدت أحداً فعل ذلك لجعلته نكالاً. قال مالك: قال ابن شهاب: أراه علي بن أبي طالب. قال: و بلغني عن الزبير بن العوام مثل ذلك. قال أبو عمر ابن عبد البر: و قد روي مثل قول عثمان عن طائفة من السلف منهم ابن عباس، و لكنهم اختلف عليهم، و لم يلتفت إلى ذلك أحد من فقهاء الأمصار و الحجاز

و لا العراق و لا ما وراءهما من المشرق و لا بالشام و لا المغرب، إلا من شذ عن جماعتهم باتباع الظاهر و نفي القياس، و قد ترك من يعمل ذلك ما اجتمعنا عليه، و جماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء، كما لا يحل ذلك في النكاح. و قد أجمع المسلمون على أن معنى قوله **﴿حرمت عليكم أمهاتكم و بناتكم و أخواتكم﴾** إلى آخر الآية، أن النكاح و ملك اليمين في هؤلاء كلهن سواء، فكذلك يجب أن يكون نظراً و قياساً الجمع بين الأختين و أمهات النساء والربائب. و كذلك هو عند جمهورهم، و هم الحجة المحجوج بها من خالفها و شذ عنها.

و قوله تعالى: **﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم﴾** أي و حرّم عليكم من الأجنبيات المحصنات، و هن المزوجات **﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾**، يعني إلا ما ملكتموهن بالسّبي فإنه يحل لكم وطؤهن إذا استبرأتموهن، فإن الآية نزلت في ذلك. روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري أن أصحاب رسول اللهﷺ أصابوا سبايا يوم أوطاس، لهن أزواج من أهل الشرك، فكأن أناساً من أصحاب رسول اللهﷺ كفوا و تأثموا من غشيانهن، قال: فنزلت هذه الآية في ذلك **﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم﴾** و هكذا رواه مسلم و أبو داود و النسائي.

وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن بيع الأمة يكون طلاقاً لها من زوجها أخذا بعموم هذه الآية، و روى ابن جرير عن ابن عباس قال: طلاق الأمة ست [1] بيعها طلاقها، و عتقها طلاقها، و هبتها طلاقها، و براءتها طلاقها، وطلاق زوجها طلاقها، وروى عبد الرزاق عن ابن المسيب قوله **﴿و المحصنات من النساء﴾** قال: هنّ ذوات الأزواج حرّم الله نكاحهن إلا ما ملكت يمينك، فبيعها طلاقها. قال معمر: و قال الحسن مثل ذلك، و قد خالفهم الجمهور قديماً و حديثاً، فرأوا أن بيع الأمة ليس طلاقاً لها لأن المشتري نائب عن البائع، و البائع كان قد أخرج عن ملكه هذه المنفعة و باعها مسلوبة عنها، و اعتمدوا في ذلك على حديث بريرة المخرّج في الصحيحين وغيرهما، فإن عائشة أم المؤمنين اشترتها و نجّزت عتقها، و لم ينفسخ نكاحها من زوجها مغيث، بل خيّرها رسول اللهﷺ، بين الفسخ والبقاء، فاختارت الفسخ وقصتها مشهورة، فلو كان بيع الأمة طلاقها كما قال هؤلاء ما خيرها النبيﷺ، فلما خيرها دل على بقاء النكاح، وأن المراد من الآية المسبيات فقط، والله أعلم.

و قوله تعالى: **﴿كتاب الله عليكم﴾** أي هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم، فالزموا كتابه، و لا تخرجوا عن حدوده، و الزموا شرعه و ما فرضه. و قال عبيدة و عطاء و السدي في قوله **﴿كتاب الله عليكم﴾** يعني الأربع. وقال إبراهيم **﴿كتاب الله عليكم﴾** يعني ما حرم عليكم. و قوله تعالى: **﴿و أحل لكم ما وراء ذلكم﴾** أي ما عدا من ذُكرن من المحارم، هن لكم حلال، قاله عطاء و غيره. و قال قتادة: **﴿و أحل لكم ما وراء ذلكم﴾** يعني ما ملكت أيمانكم، و قوله تعالى: **﴿أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين﴾** أي تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع، أو السراري ما شئتم بالطريق الشرعي، و لهذا قال **﴿محصنين غير مسافحين﴾**. و قوله تعالى: **﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة﴾** أي كما تستمتعن بهن فآتوهن مهورهن في مقابلة ذلك، كما قال تعالى: **﴿و كيف تأخذونه و قد أفضى بعضكم إلى بعض﴾** و كقوله تعالى: **﴿و آتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾**، وكقوله **﴿و لا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً﴾** وقد استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة، و لاشك أنه كان مشروعاً في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك، و قد ذهب الشافعي و طائفة من العلماء إلى أنه أبيح ثم نسخ

---

(١) هكذا جاء او قد ذكر خمساً.

مرتين. و قال آخرون: أكثر من ذلك. و قال آخرون: إنما أبيح مرة ثم نسخ مرة، ثم نسخ، و لم يُبَح بعد ذلك. وقد روي عن ابن عباس و طائفة من الصحابة القول بإباحتها للضرورة، و هو رواية عن الإمام أحمد. و لكن الجمهور على خلاف ذلك.

و العمدة ما ثبت في الصحيحين عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، قال: نهى رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة، و عن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر. و لهذا الحديث ألفاظ مقررة هي في كتاب الأحكام. وفي صحيح مسلم عن الربيع بن سبرة بن معبد الجهني، عن أبيه أنه غزا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، فقال «يا أيها الناس إني كنت أذنتُ لكم في الاستمتاع من النساء، و إن الله حَرَّم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله، و لا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً» و في رواية لمسلم: في حجة الوداع.

و قوله تعالى: **﴿و لا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾** من حمل هذه الآية على نكاح المتعة إلى أجل مسمى، قال: فلا جناح عليكم إذا انقضى الأجل أن تراضوا على زيادة به، و زيادة للجعل، قال السدي: إن شاء أرضاها من بعد الفريضة الأولى، يعني الأجر الذي أعطاها على تمتعه بها قبل انقضاء الأجل بينهما، فقال: أتمتع منك أيضاً بكذا وكذا، فازداد قبل أن يستبرئ رحمها يوم تنقضي المدة، و هو قوله تعالى: **﴿و لا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾**. قال السدي: إذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل، و هي منه بريئة و عليها أن تستبرئ ما في رحمها، و ليس بينهما ميراث، فلا يرث واحد منهما صاحبه، و من قال بهذا القول الأول جعل معناه كقوله **﴿و آتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾** الآية، أي إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه أو عن شيء منه فلا جناح عليك و لا عليها في ذلك. و روى ابن جرير عن سليمان التيمي قال: زعم الحضرمي أن رجالاً كانوا يفرضون المهر، ثم عسى أن يدرك أحدهم العسرة، فقال: و لا جناح عليكم أيها الناس فيما تراضيتم به من بعد الفريضة. يعني إن وضعت لك منه شيئاً فهو لك سائغ. و اختار هذا القول ابن جرير. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿و لا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾** و التراضي أن يوفيها صداقها ثم يخيرها، يعني في المقام أو الفراق. و قوله تعالى: **﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾** مناسب ذكر هذين الوصفين بعد شرع هذه المحرمات.

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٥) ﴾

٢٥- يقول تعالى: **﴿و من لم يستطع منكم طولاً﴾** أي سعة و قُدرة **﴿أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾** أي الحرائر العفائف المؤمنات. **﴿فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾** أي فتزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتي يملكهن المؤمنون، و لهذا قال **﴿من فتياتكم المؤمنات﴾**، قال ابن عباس و غيره: فلينكح من إماء المؤمنين، و كذا قال السدي و مقاتل بن حيان. ثم اعترض بقوله **﴿و الله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض﴾** أي هو العالم بحقائق الأمور

وسرائرها، و إنما لكم أيها الناس الظاهر من الأمور، ثم **﴿فانكحوهن بإذن أهلهن﴾** فدل على أن السيد هو ولي أمته لا تزوج إلا بإذنه، وكذلك هو ولي عبده ليس له أن يتزوج بغير إذنه، كما جاء في الحديث «أيما عبد تزوج بغير إذن مواليه فهو عاهر»[1] أي زان. فإن كان مالك الأمة امرأة زوجها من يزوج المرأة بإذنها لما جاء في الحديث «لا تزوج المرأةُ المرأةَ و لا المرأة نفسها، فإن الزانية التي تزوج نفسها»[2].

وقوله تعالى: **﴿و آتوهن أجورهن بالمعروف﴾** أي و ادفعوا مهورهن بالمعروف، أي عن طيب نفس منكم، و لا تبخسوا منه شيئاً استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات، وقوله تعالى: **﴿محصنات﴾** أي عفائف عن الزنا لا يتعاطينه، و لهذا قال **﴿غير مسافحات﴾** و هن الزواني اللاتي لا يمنعن من أرادهن بالفاحشة، وقوله تعالى: **﴿و لا متخذات أخدان﴾**، قال ابن عباس: (المسافحات) هن الزواني المعلنات، يعني الزواني اللاتي لا يمنعن أحداً أرادهن بالفاحشة و**﴿ومتخذات أخدان﴾** يعني أخلاء، و كذا روي عن أبي هريرة و مجاهد و الشعبي و الضحاك و عطاء الخراساني ويحيى بن أبي كثير و مقاتل بن حيان و السدي، قالوا: أخلاء. و قال الحسن البصري: يعني الصديق. وقال الضحاك أيضاً **﴿و لا متخذات أخدان﴾** ذات الخليل الواحد المقرة به، نهى الله عن ذلك. يعني تزويجها ما دامت كذلك.

و قوله تعالى: **﴿فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾** اختلف القراء في أحصن، فقرأه بعضهم بضم الهمزة و كسر الصاد مبني لما لم يسم فاعله، و قرئ بفتح الهمزة و الصاد فعل لازم، ثم قيل: معنى القراءتين واحد، و اختلفوا فيه على قولين، **أحدهما**: أن المراد بالإحصان ههنا الإسلام، و روي ذلك عن عبد الله بن مسعود و ابن عمر و أنس، و الأسود بن يزيد وزر بن حبيش و سعيد بن جبير وعطاء و إبراهيم النخعي و الشعبي و السدي، وهذا هو القول الذي نص عليه الشافعي في رواية الربيع، قال: وإنما قلنا ذلك استدلالاً بالسنة، و إجماع أكثر أهل العلم. و قال القاسم و سالم: إحصانها إسلامها وعفافها. وقيل: المراد به ههنا التزويج، و هو قول ابن عباس و مجاهد و عكرمة و طاوس و سعيد بن جبير و الحسن وقتادة و غيرهم ونقله أبو علي الطبري في كتابه الإيضاح عن الشافعي، فيما رواه ابن عبد الحكم عنه، و عن مجاهد أنه قال: إحصان الأمة أن ينكحها الحر، و إحصان العبد أن ينكح الحرة، و كذا روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس، رواهما ابن جرير في تفسيره. و نكره ابن أبي حاتم عن الشعبي و النخعي. و قيل: معنى القراءتين متباين. فمن قرأ: أُحصن بضم الهمزة فمراده التزويج، و من قرأ بفتحها فمراده الإسلام. اختاره أبو جعفر بن جرير في تفسيره و قرره و نصره، و الأظهر -و الله أعلم- أن المراد بالإحصان ههنا التزويج، لأن سياق الآية يدل عليه، حيث يقول سبحانه وتعالى: **﴿و من لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾** والله أعلم. و الآية الكريمة سياقها كلها في الفتيات المؤمنات فتعيّن أن المراد بقوله: **﴿فإذا أحصن﴾** أي تزوجن، كما فسره ابن عباس و من تبعه، وعلى كل من القولين إشكال على مذهب الجمهور، و ذلك أنهم يقولون: إن الأمة إذا زنت فعليها خمسون جلدة، سواء كانت مسلمة أو كافرة، مزوجة أو بكراً، مع أن مفهوم الآية يقتضي أنه لا حدّ على غير المحصنة ممن زنى من الإماء. و قد اختلفت أجوبتهم عن ذلك، فأما الجمهور فقالوا: لا شك أن المنطوق مقدم على المفهوم. و قد وردت أحاديث عامة في إقامة الحد على الإماء، فقدمناها على مفهوم الآية. فمن ذلك ما رواه مسلم

---

(١) رواه أحمد و أبو داود و الترمذي و هو صحيح. (٢) رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة و هو صحيح.

في صحيحه عن علي رضي الله عنه أنه خطب فقال: يا أيها الناس أقيموا على أرقائكم الحد من أحصن منهم ومن لم يحصن، فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت، فأمرني أن أجلدها، فإذا هي حديثة عهد بنفاس فخشيت إن جلدتها أن أقتلها، فذكرت ذلك لنبي الله ﷺ فقال: «أحسنت اتركها حتى تماثل»، و عند عبد الله بن أحمد عن غير أبيه «فإذا تعالت من نفسها حدّها خمسين». و عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها، فليجلدها الحد، و لا يُثرّب عليها، ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد، و لا يثرّب عليها، ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها. فليبعها و لو بحبل من شعر»، و لمسلم «إذا زنت ثلاثاً فليبعها في الرابعة»، و روى مالك عن عبد الله ابن عياش بن أبي ربيعة المخزومي قال: أمرني عمر بن الخطاب في فتية من قريش، فجلدنا ولائد من ولائد الإمارة خمسين خمسين في الزنا.

الجواب الثاني: جواب من ذهب إلى أن الأمة إذا زنت و لم تحصن فلا حد عليها، و إنما تضرب تأديباً، و هو المحكي عن ابن عباس رضي الله عنه. و إليه ذهب طاوس و سعيد بن جبير و أبو عبيد القاسم بن سلام و داود بن علي الظاهري في رواية عنه و عمدتهم مفهوم الآية، و هو من مفاهيم الشرط، و هو حجة عند أكثرهم فقدّم على العموم عندهم، و حديث أبي هريرة و زيد بن خالد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن؟ قال: «إن زنت فحدوها، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم بيعوها و لو بضفير». قال ابن شهاب: لا أدري بعد الثالثة أو الرابعة، و أخرجاه في الصحيحين. و عند مسلم قال ابن شهاب: الضفير الحبل. قالوا: فلم يؤقّت فيه عدد كما أقّت في المحصنة، و كما وقّت في القرآن بنصف ما على المحصنات من العذاب، فوجب الجمع بين الآية والحديث بذلك، و الله أعلم. قالوا: و حديث علي و عمر قضايا أعيان، و حديث أبي هريرة عنه أجوبة[1].

و قال أبو عبد الله الشافعي رحمه الله: و لم يختلف المسلمون في أن لا رجم على مملوك في الزنا، و ذلك لأن الآية دلت على أن عليهن نصف ما على المحصنات من العذاب، و الألف و اللام في المحصنات للعهد، و هن المحصنات المذكورات في أول الآية: **﴿و من لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾** والمراد بهن الحرائر فقط من غير تعرض لتزويج غيره، و قوله: **﴿نصف ما على المحصنات من العذاب﴾** يدل على أن المراد من العذاب الذي يمكن تنصيفه و هو الجلد لا الرجم، و الله أعلم. و قوله تعالى: **﴿ذلك لمن خشي العنت منكم﴾** أي إنما يباح نكاح الإماء بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا، و شق عليه الصبر عن الجماع، و عنت بسبب ذلك كله، فله حينئذ أن يتزوج بالأمة، و إن ترك تزوجها و جاهد نفسه في الكف عن الزنا، فهو خير له لأنه إذا تزوجها جاء أولاده أرقاء لسيدها إلا أن يكون الزوج عربياً، فلا تكون أولاده منها أرقاء في قول قديم للشافعي، ولهذا قال **﴿و أن تصبروا خير لكم و الله غفور رحيم﴾** و من هذه الآية الكريمة، استدل جمهور العلماء في جواز نكاح الإماء على أنه لا بد من عدم الطول لنكاح الحرائر، و من خوف العنت لما في نكاحهن من مفسدة رق الأولاد، و لما فيهن من الدناءة في العدول عن الحرائر إليهن.

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَن

---

(١) تركنا إيرادها اختصاراً، و بقية الأقوال الضعيفة.

يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) ﴾

٢٦ ، ٢٧- يخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم أيها المؤمنون ما أحل لكم و حرم عليكم مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها ، ﴿و يهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ يعني طرائقهم الحميدة و اتباع شرائعه التي يحبها ويرضاها ، ﴿ويتوب عليكم﴾ أي من الإثم و المحارم ، ﴿و الله عليم حكيم﴾ أي في شرعه و قدره و أفعاله وأقواله .

و قوله : ﴿و يريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ أي يريد أتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة أن تميلوا عن الحق إلى الباطل ميلاً عظيماً .

٢٨- ﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾ أي في شرائعه و أوامره و نواهيه و ما يقدره لكم ، و لهذا أباح الإماء بشروط ، كما قال مجاهد و غيره ﴿و خلق الإنسان ضعيفاً﴾ فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه ، و ضعف عزمه وهمته . وروى ابن أبي حاتم عن طاوس ﴿و خلق الإنسان ضعيفاً﴾ أي في أمر النساء . و قال وكيع : يذهب عقله عندهن . وقال موسى الكليم عليه السلام لنبينا محمد ﷺ ، ليلة الإسراء حين مر عليه راجعاً من عند سدرة المنتهى ، فقال له : ماذا فرض عليكم ، فقال : أمرني بخمسين صلاة في كل يوم و ليلة ، فقال له : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فإني قد بلوت الناس قبلك على ما هو أقل من ذلك فعجزوا ، و إن أمتك أضعف أسماعاً وأبصاراً و قلوباً ، فرجع ، فوضع عشراً . ثم رجع إلى موسى فلم يزل كذلك حتى بقيت خمساً ، الحديث .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (٣٠) إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا (٣١) ﴾

٢٩- ينهى تبارك و تعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضاً بالباطل ، أي بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية كأنواع الربا و القمار ، و ما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل ، و إن ظهرت في غالب الحكم الشرعي ، مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا . و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : لما أنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ قال المسلمون : إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، والطعام هو أفضل أموالنا ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد ، فكيف للناس ؟ فأنزل الله بعد ذلك ﴿ليس على الأعمى حرج﴾ الآية ، و كذا قال قتادة ، و قوله تعالى : ﴿إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾ قرئ تجارة بالرفع وبالنصب و هو استثناء منقطع ، كأنه يقول : لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال ، ولكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع و المشتري فافعلوها ، و تسببوا بها في تحصيل الأموال ، كما قال تعالى : ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾ ، و كقوله ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ .

و من هذه الآية الكريمة احتج الشافعي على أنه لا يصح البيع إلا بالقبول ، لأنه يدل على التراضي نصاً بخلاف المعاطاة ، فإنها قد لا تدل على الرضى و لابد ، و خالف الجمهور في ذلك مالك و أبو حنيفة و أحمد وأصحابهم ، فرأوا أن الأقوال كما تدل على التراضي فكذلك الأفعال تدل في بعض المحال قطعاً ، فصححوا بيع المعاطاة مطلقاً ،

و منهم من قال: يصح في المحقرات و فيما يعده الناس بيعاً و هو احتياط نظر من محققي المذهب، و الله أعلم.
وقال مجاهد ﴿**إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم**﴾ بيعاً أو عطاء يعطيه أحد أحداً، رواه ابن جرير، و من تمام التراضي إثبات خيار المجلس، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «البيّعان بالخيار ما لم يتفرقا» و في لفظ البخاري «إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا» و ذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث أحمد والشافعي و أصحابهما و جمهور السلف و الخلف، و من ذلك مشروعية خيار الشرط بعد العقد إلى ثلاثة أيام بحسب ما يتبين فيه حال البيع، و لو إلى سنة في القرية و نحوها، كما هو المشهور عن مالك رحمه الله، و قوله ﴿**و لا تقلتوا أنفسكم**﴾ أي بارتكاب محارم الله، و تعاطي معاصيه، وأكل أموالكم بينكم بالباطل ﴿**إن الله كان بكم رحيماً**﴾ أي فيما أمركم به و نهاكم عنه.

و روى الإمام أحمد عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال لما بعثه النبي ﷺ عام ذات السلاسل، قال: احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقتُ إن اغتسلت أن أهلك، فتيمّمت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، قال: فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له، فقال «يا عمرو صليتَ بأصحابك وأنت جنب؟» قال: قلت: يا رسول الله، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلتُ أن أَهلك، فذكرت قول الله عز وجل ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً**﴾ فتيممت ثم صليت، فضحك رسول الله ﷺ و لم يقل شيئاً، و هكذا رواه أبو داود. و أورد ابن مردويه عند هذه الآية الكريمة حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «من قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده، يجأ بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، و من قتل نفسه بسمٍّ فسمّه في يده، يتحسّاه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، و من تردّى من جبل فقتل نفسه، فهو متردٍ في نار جهنم خالداً فيها أبداً» و هذا الحديث ثابت في الصحيحين، و في الصحيحين من حديث الحسن عن جندب بن عبد الله البجلي، قال: قال رسول الله ﷺ: كان رجل ممن كان قبلكم و كان به جرحٌ فأخذ سكيناً نحر بها يده، فلما رَقَأ الدم حتى مات، قال الله عز وجل «عبدي بادرني بنفسه، حرّمتُ عليه الجنة».

٣٠- و لهذا قال تعالى: ﴿**و من يفعل ذلك عدواناً و ظلماً**﴾ أي و من يتعاطى ما نهاه الله عنه متعدياً فيه ظالماً في تعاطيه أي عالماً بتحريمه متجاسراً على انتهاكه ﴿**فسوف نصليه ناراً**﴾ الآية، و هذا تهديد شديد و وعيد أكيد، فليحذر منه كل عاقل لبيب ممن ألقى السمع و هو شهيد.

٣١- و قوله تعالى: ﴿**إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم**﴾ الآية، أي إذا اجتنبتم كبائر الآثام التي نُهيتم عنها، كفّرنا عنكم صغائر الذنوب و أدخلناكم الجنة، و لهذا قال ﴿**و ندخلكم مدخلاً كريماً**﴾ و قد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة، فلنذكر منها ما تيسر:

ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال «اجتنبوا السبع الموبقات». قيل: يا رسول الله، و ما هن؟ قال «الشركُ بالله، و قتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، و السّحر، و أكل الربا، و أكل مال اليتيم، و التولّي يوم الزحف، و قذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

طريق أخرى عنه: روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال «الكبائر سبع: أولها الإشراك بالله، ثم قتل النفس بغير حقها، و أكل الربا، و أكل مال اليتيم إلى أن يكبر، و الفرار من الزحف، و رمي المحصنات، والانقلاب إلى الأعراب بعد الهجرة»، فالنص على هذه السبع بأنهن كبائر، لا ينفي ما عداهن إلا عند من يقول

بمفهوم اللقب، و هو ضعيف عند عدم القرينة و لا سيما عند قيام الدليل بالمنطوق على عدم المفهوم، كما ستورده من الأحاديث المتضمنة من الكبائر غير هذه السبع، فمن ذلك ما رواه الحاكم عن عمير بن قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع «ألا إن أولياء الله المصلون من يقيم الصلوات الخمس التي كُتبت عليه، و يصوم رمضان و يحتسب صومه، يرى أنه عليه حق، و يُعطي زكاة ماله يحتسبها، و يجتنب الكبائر التي نهى الله عنها»، ثم إن رجلاً سأله فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ فقال «تسع: الشرك بالله، وقتل نفس مؤمن بغير حق، و فرار يوم الزحف، و أكل مال اليتيم، و أكل الربا، و قذف المحصنة، و عقوق الوالدين المسلمين، و استحلال البيت الحرام قبلتكم أحياء و أمواتاً، ثم قال: لا يموت رجلٌ لا يعمل هؤلاء الكبائر، و يقيم الصلاة و يؤتي الزكاة إلا كان مع النبي ﷺ في دار أبوابها مصاريع من ذهب»، هكذا رواه الحاكم مطولاً، وقد أخرجه أبو داود و الترمذي مختصراً.

حديث آخر فيه ذكر شهادة الزور: روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر، أو سئل عن الكبائر، فقال «الشرك بالله، و قتل النفس، و عقوق الوالدين»، و قال: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قال: قول الزور - أو شهادة الزور -» أخرجاه.

حديث آخر فيه ذكر قتل الولد: و هو ثابت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ و في رواية أكبر، قال «أن تجعل لله نداً و هو خلقك». قلت: ثم أي؟ قال «أن تقتل ولدك خشيةَ أن يَطعم معك». قت: ثم أي؟ قال «أن تُزاني حليلة جارك» ثم قرأ ﴿و الذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر - إلى قوله - إلا من تاب﴾.

حديث آخر فيه ذكر شرب الخمر: روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو قال: سألت رسول الله ﷺ عن الخمر، فقال: «هي أكبر الكبائر، و أم الفواحش، مَنْ شرب الخمر ترك الصلاة، و وقع على أمه و خالته وعمته».

حديث آخر: عن عبد الله بن عمرو و فيه ذكر اليمين الغموس: روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال «أكبر الكبائر الإشراك بالله، و عقوق الوالدين، أو قتل النفس - شعبة الشاك - واليمين الغموس» رواه البخاري و الترمذي و النسائي.

حديث آخر: عن عبد الله بن عمرو في التسبب إلى شتم الوالدين: وى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «من الكبائر أن يشتم الرجل والديه، قالوا: و كيف يشتم الرجل والديه؟ قال «يسبُّ الرجلُ أبا الرجل، فيسب أباه، و يسب أمه، فيسب أمه» أخرجه البخاري و مسلم. و ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال «سباب المسلم فسوق و قتاله كفر».

حديث آخر في الجمع بين الصلاتين من غير عذر: و روى ابن أبي حاتم عن أبي قتادة يعني العدوي، قال: قُرئ علينا كتاب عمر: من الكبائر جمع بين الصلاتين - يعني بغير عذر - و الفرار من الزحف، و النهبة، و هذا إسناد صحيح. و الغرض أنه إذا كان الوعيد فيمن جمع بين الصلاتين كالظهر و العصر، تقديماً أو تأخيراً، وكذا المغرب والعشاء هما من شأنه أن يجمع بسبب من الأسباب الشرعية، فإذا تعاطاه أحد بغير شيء من تلك الأسباب يكون مرتكباً كبيرة، فما ظنك بترك الصلاة بالكلية، و لهذا روى مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال «بين العبد و بين الشرك ترك الصلاة». و في السنن مرفوعاً عنه عليه الصلاة و السلام أنه قال «العهدُ بيننا و بينهم الصلاة، من تركها فقد كفر» و قال «مَن ترك صلاة العصر فقد حَبط عمله» و قال «من فاتته صلاة العصر فكأنما وُتِرَ أهلَه

وماله».

حديث آخر: فيه اليأس من روح الله، و الأمن من مكر الله: روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان متكئاً، فدخل عليه رجل فقال: ما الكبائر فقال «الشرك بالله، و اليأس من روح الله، و القنوط من رحمة الله، و الأمن من مكر الله، و هذا أكبر الكبائر» و قد رواه البزار. و روى ابن جرير عن ابن مسعود: «أكبر الكبائر الإشراك بالله، و اليأس من روح الله، و القنوط من رحمة الله، و الأمن من مكر الله».

حديث في منع فضل الماء: و في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال «لا يمنع فضل الماء ليمنع به الكلأ»، وفيهما عن النبي ﷺ أنه قال «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، و لا يزكيهم، و لهم عذاب أليم: رجلٌ على فَضلِ ماء بالفلاة يمنعه ابن السبيل» و ذكر تمام الحديث. و في مسند الإمام أحمد من حديث ابن عمرو مرفوعاً «من منع فضل الماء و فضل الكلأ، منعه الله فضله يوم القيامة». و روى ابن أبي حاتم عن عائشة، قالت: ما أخذ على النساء من الكبائر، قال ابن أبي حاتم: يعني قوله تعالى: **﴿على أن لا يشركن بالله شيئاً و لا يسرقن و لا يزنين ولا يقتلن أولادهن و لا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن و أرجلهن و لا يعصينك﴾**.

اقوال ابن عباس في ذلك

روى ابن جرير عن طاوس، قال: ذكروا عند ابن عباس الكبائر فقالوا: هي سبع، فقال: هي أكثر من سبع وسبع، قال: فلا أدري كم قالها من مرة، و روى عبد الرزاق، قال: قيل لابن عباس: الكبائر سبع؟ قال: هن إلى السبعين أقرب، و كذا قال أبو العالية الرياحي رحمه الله. و روى ابن جرير عن سعيد بن جبير: أن رجلاً قال لابن عباس: كم الكبائر، سبع؟ قال: هن إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع إستغفار، ولا صغيرة مع إصرار، و كذا رواه ابن أبي حاتم و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: **﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾** قال: الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب، رواه ابن جرير.

اقوال التابعين

روى ابن أبي حاتم عن مغيرة قال: كان يقال: شتم أبي بكر و عمر رضي الله عنهما من الكبائر. قلت: و قد ذهب طائفة من العلماء إلى تكفير من سبّ الصحابة، و هو رواية عن مالك بن أنس رحمه الله. و قال محمد بن سيرين: ما أظن أحداً ينتقص أبا بكر و عمر و هو يحب رسول الله ﷺ، رواه الترمذي. و روى ابن أبي حاتم أيضاً عن زيد بن أسلم في قول الله عز وجل **﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾** من الكبائر: الشرك بالله، والكفر بآيات الله و رسله، و السّحر، و قتل الأولاد، و من دعى لله ولداً أو صاحبة. و مثل ذلك من الأعمال، والقول الذي لا يصلح معه عمل. و أما كل ذنب يصلح معه دين، و يقبل معه عمل، فإن الله يغفر السيئات بالحسنات. و روى ابن جرير: عن قتادة **﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾** الآية: إنما و عد الله المغفرة لمن اجتنب الكبائر؛ و روى عبد الرزاق

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» إسناد صحيح على شرط الشيخين. و قد رواه الترمذي. و في الصحيح شاهد لمعناه و هو قوله ﷺ بعد ذكر الشفاعة «أترونها للمؤمنين المتقين؟ لا و لكنها للخاطئين المتلوثين» و قد اختلف علماء الأصول و الفروع في حد الكبيرة، فمن قائل: هي ما عليه حد في الشرع، و منهم من قال: هي ما عليه وعيد مخصوص من الكتاب و السنة، وبقيل غير ذلك.

و ذكر القاضي أبو سعيد الهروي أن الكبيرة كل فعل نص الكتاب على تحريمه، و كل معصية توجب في جنسها حداً من قتل أو غيره، و ترك كل فريضة مأمور بها على الفور، و الكذب في الشهادة و الرواية واليمين، هذا ما ذكروه على سبيل الضبط، ثم قال: و فصّل القاضي الروياني فقال: الكبائر سبع. قتل النفس بغير الحق، والزنا، واللواطة، و شرب الخمر، و السرقة، و أخذ المال غصباً، و القذف، و زاد في الشامل على السبع المذكورة: شهادة الزور، و أضاف إليها صاحب العدة: أكل الربا و الإفطار في رمضان بلا عذر، و اليمين الفاجرة، و قطع الرحم، وعقوق الوالدين، و الفرار من الزحف، و أكل مال اليتيم، و الخيانة في الكيل والوزن، و تقديم الصلاة على وقتها، و تأخيرها عن وقتها بلا عذر، و ضرب المسلم بلا حق، و الكذب على رسول الله ﷺ عمداً، و سب أصحابه، و كتمان الشهادة بلا عذر، و أخذ الرشوة، و القيادة بين الرجال والنساء، و السعاية عند السلطان، و منع الزكاة، و ترك الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر مع القدرة، و نسيان القرآن بعد تعلمه، و إحراق الحيوان بالنار، وامتناع المرأة من زوجها بلا سبب، و اليأس من رحمة الله، والأمن من مكر الله، و يقال: الوقيعة في أهل العلم، وحملة القرآن، و مما يعد من الكبائر: الظهار، و أكل لحم الخنزير و الميتة إلا عن ضرورة، ثم قال الرافعي: وللتوقف مجال في بعض هذه الخصال. قلت: و قد صنّف الناس في الكبائر مصنفات، منها ما جمعه شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي، الذي بلغ نحواً من سبعين كبيرة[1]. و إذا قيل: إن الكبيرة ما توعد عليها الشارع بالنار بخصوصها، كما قال ابن عباس و غيره و ما تُتُبّع ذلك، اجتمع منه شيء كثير، و إذا قيل كل ما نهى الله عنه فكثير جداً، و الله أعلم.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾

٣٢- روى الإمام أحمد عن أم سلمة قالت: يا رسول الله، يغزو الرجال و لا نغزو، و لنا نصف الميراث، فأنزل الله **﴿و لا تتمنوا ما فضل الله به بعضهم على بعض﴾**. و رواه الترمذي و ابن أبي حاتم و ابن جرير، و ابن مردويه والحاكم. و روى ابن أبي حاتم أيضاً عن ابن عباس في الآية، قال: أتت امرأة إلى النبي ﷺ قالت: يا رسول الله، للذكر مثل حظ الأنثيين، و شهادة امرأتين برجل، فنحن في العمل هكذا، إن عملت امرأة حسنة كُتبت لها نصف حسنة، فأنزل الله هذه الآية **﴿و لا تتمنوا﴾** الآية، فإنه عدل مني و أنا صنعته. و قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في الآية، قال: و لا يتمنى الرجل فيقول: ليت لو أن لي مال فلان و أهله، فنهى الله عن ذلك، و لكن ليسأل الله من فضله، و قال الحسن و محمد بن سيرين و عطاء و الضحاك، نحو هذا؛ و هو الظاهر من الآية و لا يرد على هذا ما ثبت في الصحيح «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق فيقول رجل: لو أن

(١) و هو مطبوع متداول.

لي مثل ما لفلان لعملت مثله فهما في الأجر سواء[1] فإن هذا شيء غير ما نهت عنه الآية، و ذلك أن الحديث حض على تمني مثل نعمة هذا، و الآية نهت عن تمني عين نعمة هذا، فقال **﴿و لا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾** أي في الأمور الدنيوية، و كذا الدينية أيضاً، لحديث أم سلمة و ابن عباس. و هكذا قال عطاء بن أبي رباح: نزلت في النهي عن تمني ما لفلان، و في تمني النساء أن يكن رجالاً فيغزون، رواه ابن جرير، ثم قال **﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا و للنساء نصيب مما اكتسبن﴾** أي كل له جزاء على عمله بحسبه إن خيراً فخير، و إن شراً فشر، هذا قول ابن جرير، و قيل: المراد بذلك في الميراث، أي كل يرث بحسبه، رواه الترمذي عن ابن عباس، ثم أرشدهم إلى ما يصلحهم، فقال **﴿و اسألوا الله من فضله﴾** لا تتمنوا ما فضلنا به بعضكم على بعض، فإن هذا أمر محتوم، والتمني لا يجدي شيئاً، و لكن سلوني من فضلي أعطكم، فإني كريم وهاب.

ثم قال **﴿إن الله كان بكل شيء عليماً﴾** أي هو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها، و بمن يستحق الفقر فيفقره، و عليم بمن يستحق الآخرة فيُقيضه لأعمالها، و بمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير و أسبابه، لهذا قال **﴿إن الله كان بكل شيء عليماً﴾**.

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) ﴾

٣٣- قال ابن عباس و مجاهد و سعيد بن جبير و أبو صالح و قتادة و زيد بن أسلم و السدي و الضحاك و مقاتل بن حيان و غيرهم، في قوله **﴿و لكل جعلنا موالي﴾** أي ورثة، و عن ابن عباس في رواية: أي عصبة، قال ابن جرير: و العرب تسمي ابن العم مولى.

و يعني بقوله **﴿مما ترك الوالدان و الأقربون﴾**، من تركة والديه و أقربيه من الميراث، فتأويل الكلام: ولكلكم أيها الناس جعلنا عصبة يرثونه مما ترك والداه و أقربوه من ميراثهم له. وقوله تعالى: **﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾** أي و الذين تحالفتم بالإيمان المؤكدة أنتم و هم، فآتوهم نصيبهم من الميراث كما وعدتموهم في الأيمان المغلظة، إن الله شاهد بينكم في تلك العهود و المعاقدات، و قد كان هذا في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك وأمروا أن يوفوا لمن عاقدوا، و لا ينشئوا بعد نزول هذه الآية معاقدة. روى البخاري عن ابن عباس **﴿و لكل جعلنا موالي﴾** قال: ورثة، **﴿و الذين عقدت أيمانكم﴾** كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه للأُخُوَّة التي آخى النبيﷺ بينهم، فلما نزلت **﴿ولكل جعلنا موالي﴾** نسخت، ثم قال **﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾** من النصر و الرفادة و النصيحة و قد ذهب الميراث و يوصى له، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: **﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾** فكان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل ويقول: ترثني وأرثك، و كان الأحياء يتحالفون، فقال رسول اللهﷺ «كل حلف كان في الجاهلية أو عقد أدركه الإسلام فلا يزيده الإسلام إلا شدة، ولا عقد و لا حلف في الإسلام» فنسختها هذه الآية **﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾**، ثم قال: و روي عن سعيد بن جبير و مجاهد و عطاء والحسن و ابن المسيب و أبي صالح و سليمان ابن يسار و الشعبي وعكرمة و السدي و الضحاك و قتادة و مقاتل ابن حيان، أنهم قالوا: هم الحلفاء.

---

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن (٩/ ٧٣) بنحوه.

و روى ابن جرير عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال «شهدت حلف المُطَيَّبين و أنا غلام مع عُمومتي، فما أحب أن لي حُمر النَّعم، و أني أنكثه»، و قد ألَّف رسول الله ﷺ بين قريش و الأنصار. وهكذا رواه الإمام أحمد. و روى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم، قال: قال رسول الله ﷺ «لا حلف في الإسلام و أيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدَّة». و هكذا رواه مسلم.

و هذا نص في الرد على من ذهب إلى التوارث بالحلف اليوم، كما هو مذهب أبي حنيفة و أصحابه، و رواية عن أحمد بن حنبل رحمه الله، والصحيح قول الجمهور و مالك و الشافعي و أحمد في المشهور عنه، و لهذا قال تعالى: **﴿ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان و الأقربون﴾** أي ورثة من قراباته من أبويه و أقربيه، هم يرثونه دون سائر الناس، كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر» أي اقسموا الميراث على أصحاب الفروض الذين ذكرهم الله في آيتي الفرائض، فما بقي بعد فأعطوه للعصبة.

و قوله **﴿و الذين عقدت أيمانكم﴾** أي قبل نزول هذه الآية فآتوهم نصيبهم، أي من الميراث، فأيما حلف عقد بعد ذلك فلا تأثير له، و قد قيل: إن هذه الآية نسخت الحلف في المستقبل و حكم الحلف الماضي أيضاً، فلا توارث به، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: قوله **﴿و الذين عقدت أيمانكم﴾** قال: كان الرجل يعاقد الرجل أيهما مات ورثه الآخر، فأنزل الله تعالى **﴿و أولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين و المهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾** يقول: إلا أن يوصوا لأوليائهم الذين عاقدوا وصية فهو لهم جائز من ثلث مال الميت، و هذا هو المعروف، و هكذا نص غير واحد من السلف أنها منسوخة بقوله **﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾** الآية.

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) ﴾

٣٤- يقول تعالى: **﴿الرجال قوامون على النساء﴾** أي الرجل قيم على المرأة، أي هو رئيسها و كبيرها و الحاكم عليها و مؤدبها إذا اعوجت، **﴿بما فضل الله بعضهم على بعض﴾** أي لأن الرجال أفضل من النساء، و الرجل خير من المرأة، و لهذا كانت النبوة مختصة بالرجال، و كذلك الملك الأعظم لقوله ﷺ «لن يُفلح قومٌ و لوا أمرهم امرأة» رواه البخاري من حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه، و كذا منصب القضاء و غير ذلك، **﴿و بما أنفقوا من أموالهم﴾** أي من المهور و النفقات و الكلف التي أوجبها الله عليهم لهن في كتابه و سنة نبيه ﷺ، فالرجل أفضل من المرأة في نفسه، و له الفضل عليها و الإفضال، فناسب أن يكون قيماً عليها، كما قال الله تعالى: **﴿و للرجال عليهن درجة﴾** الآية، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿الرجال قوامون على النساء﴾** يعني أمراء، عليها أن تطيعه فيما أمرها به من طاعته، و طاعته أن تكون محسنة لأهله حافظة لماله، و كذا قال مقاتل و السدي و الضحاك. و قال الشعبي في هذه الآية **﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض و بما أنفقوا من أموالهم﴾** قال: الصداق الذي أعطاها، ألا ترى أنه لو قذفها لاعنها، و لو قذفته جلدت. و قوله تعالى **﴿فالصالحات﴾** أي من

النساء ﴿**قانتات**﴾ قال ابن عباس و غير واحد: يعني مطيعات لأزواجهن ﴿**حافظات للغيب**﴾ و قال السدي و غيره: أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها و ماله. وقوله ﴿**بما حفظ الله**﴾ أي المحفوظ مَنْ حَفِظه الله. روى ابن جرير عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «خيرُ النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك، و إذا أمرتها أطاعتك، و إذا غبت عنها حفظتك في نفسها و مالك» قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿**الرجال قوامون على النساء**﴾ إلى آخرها، ورواه ابن أبي حاتم و أبو داود الطيالسي. و روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، و حفِظت فرجها، و أطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي الأبواب شئت» تفرد به أحمد.

و قوله تعالى: ﴿**و اللاتي تخافون نشوزهن**﴾ أي و النساء اللاتي تتخوفون أن ينشزن على أزواجهن، والنشوز هو الارتفاع، فالمرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها، التاركة لأمره، المعرضة عنه، المبغضة له، فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها و ليخوفها عقاب الله في عصيانه، فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته و حرم عليها معصيته لما له عليها من الفضل و الإفضال، و قد قال رسول الله ﷺ «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عِظَم حقّه عليها»، وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه، لعنتها الملائكة حتى تصبح»، رواه مسلم، ولفظه «إذا باتتْ المرأة هاجرةً فراش زوجها، لعنتها الملائكة حتى تصبح»، و لهذا قال تعالى: ﴿**و اللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن**﴾.

و قوله ﴿**و اهجروهن في المضاجع**﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الهجر هو أن لا يجامعها، ويضاجعها على فراشها و يوليها ظهره، و كذا قال غير واحد. و زاد آخرون منهم السدي والضحاك وعكرمة و ابن عباس في رواية: و لا يكلمها مع ذلك و لا يحدثها. و قال علي بن أبي طلحة أيضاً عن ابن عباس: يعظها فإن هي قبلت و إلا هجرها في المضجع، و لا يكلمها من غير أن يذر نكاحها، و ذلك عليها شديد. و قال مجاهد و الشعبي و إبراهيم و محمد بن كعب و مقسم و قتادة: الهجر هو أن لا يضاجعها. و في السنن و المسند عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال: يا رسول الله ما حق امرأة أحدنا عليه؟ قال «أن تطعمها إذا طعمتَ، و تكسوها إذا اكتسيت، و لا تضرب الوجه، و لا تقبح، و لا تهجر إلا في البيت». وقوله: ﴿**و اضربوهن**﴾، أي إذا لم يرتدعن بالموعظة و لا بالهجران، فلكم أن تضربوهن ضرباً غير مبرح، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع «و اتقوا الله في النساء، فإنهن عندكم عَوَان، و لكم عليهن ألا يُوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، و لهن عليكم رزقهن و كسوتهن بالمعروف». و كذا قال ابن عباس و غير واحد: ضرباً غير مبرح، قال الحسن البصري: يعني غير مؤثر، قال الفقهاء: هو أن لا يكسر فيها عضواً و لا يؤثر فيها شيئاً، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يهجرها في المضجع، فإن أقبلت و إلا فقد أذن الله لك أن تضربها ضرباً غير مبرح، و لا تكسر لها عظماً، فإن أقبلت و إلا فقد أحل الله لك منها الفدية.

و عن إياس بن عبد الله بن أبي ذباب قال: قال النبي ﷺ «لا تضربوا إماء الله» فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: «ذَئِرتْ النساءُ على أزواجهن، فرخص رسول الله ﷺ في ضربهن، فأطَاف بآل رسول الله نساءٌ كثير يشكون أزواجهن، فقال رسول الله ﷺ «لقد أطَاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن، ليس أولئك بخياركم» رواه أبو داود و النسائي و ابن ماجه.

و قوله تعالى: **﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾** أي إذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريده منها مما أباحه الله له منها، فلا سبيل له عليها بعد ذلك، و ليس له ضربها و لا هجرانها. و قوله **﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾** تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب، فإن الله العلي الكبير وليُّهن، و هو ينتقم ممن ظلمهن و بغى عليهن.

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً (٣٥) ﴾

٣٥- ذكر الحال الأول و هو إذا كان النفور و النشوز من الزوجة. ثم ذكر الحال الثاني و هو إذا كان النفور من الزوجين، فقال تعالى: **﴿و إن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله و حكماً من أهلها﴾** وقال الفقهاء: إذا وقع الشقاق بين الزوجين، أسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة ينظر في أمرهما و يمنع الظالم منهما من الظلم، فإن تفاقم أمرهما و طالت خصومتهما، بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة و ثقة من قوم الرجل ليجتمعا فينظرا في أمرهما ويفعلا ما فيه المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق، و تشوُّف الشارع إلى التوفيق، و لهذا قال تعالى: **﴿إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾** وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أمر الله عز وجل أن يبعثوا رجلاً صالحاً من أهل الرجل، و رجلاً من أهل المرأة، فينظران أيهما المسيء، فإن كان الرجل هو المسيء حجبوا عنه امرأته، و قصروه على النفقة، و إن كانت المرأة هي المسيئة، قصروها على زوجها و منعوها النفقة، فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا، فأمرهما جائز، فإن رأيا أن يجمعا فرضي أحد الزوجين و كره الآخر، ثم مات أحدهما، فإن الذي رضي يرث الذي لم يرض و لا يرث الكاره الراضي، رواه ابن أبي حاتم و ابن جرير، وروى عبد الرزاق عن ابن عباس قال: بعثتُ أنا و معاوية حكمين، قال معمر: بلغني أن عثمان بعثهما، و قال لهما: إن رأيتما أن تجمعا جمعتما، وإن رأيتما أن تفرقا ففرقا. و روى عبد الرزاق عن عبيدة قال: شهدت علياً و جاءته امرأة و زوجها مع كل واحد منهما فئام من الناس، فأخرج هؤلاء حكماً و هؤلاء حكماً، فقال علي للحكمين: أتدريان ما عليكما؟ إن عليكما إن رأيتما أن تجمعا جمعتما، فقالت المرأة: رضيت بكتاب الله لي و علي، و قال الزوج: أما الفرقة فلا، فقال علي: كذبت و الله لا تبرح حتى ترضى بكتاب الله عز وجل لك و عليك، رواه ابن أبي حاتم و ابن جرير، و قد أجمع جمهور العلماء على أن الحكمين لهما الجمع و التفرقة حتى قال إبراهيم النخعي: إن شاء الحكمان أن يفرقا بينهما بطلقة أو بطلقتين أو ثلاث فعلا، و هو رواية عن مالك، و قال الحسن البصري: الحكمان يحكمان في الجمع لا في التفرقة، و كذا قال قتادة و زيد بن أسلم، و به قال أحمد بن حنبل و أبو ثور و داود، و مأخذهم قوله تعالى: **﴿إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾** و لم يذكر التفريق، و أما إذا كانا وكيلين من جهة الزوجين فإنه ينفذ حكمهما في الجمع و التفرقة بلاخلاف، و قد اختلف الأئمة في الحكمين، هل هما منصوبان من جهة الحاكم، فيحكمان وإن لم يرض الزوجان. أو هما وكيلان من جهة الزوجين؟ على قولين و الجمهور على الأول، لقوله تعالى: **﴿فابعثوا حكماً من أهله و حكماً من أهلها﴾** فسماهما حكمين و من شأن الحكم أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه، و هذا ظاهر الآية، و الجديد من مذهب الشافعي و هو قول أبي حنيفة و أصحابه، الثاني منهما بقول علي رضي الله عنه للزوج حين قال: أما الفرقة فلا، قال: كذبت حتى تقرَّ بما أقرت به، قالوا: فلو كانا حكمين لما افتقر إلى إقرار الزوج، و الله

أعلم.

قال الشيخ أبو عمر ابن عبد البر: و أجمع العلماء على أن الحكمين إذا اختلف قولهما فلا عبرة بقول الآخر، وأجمعوا على أن قولهما نافذ في الجمع و إن لم يوكلهما الزوجان، و اختلفوا هل ينفذ قولهما في التفرقة، ثم حكي عن الجمهور أنه ينفذ قولهما فيها أيضاً من غير توكيل.

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) ﴾

٣٦- يأمر تبارك و تعالى بعبادته وحده لا شريك له، فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الآنات و الحالات، فهو المستحق منهم أن يوحدوه و لا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل «أتدري ما حق الله على العباد؟ قال: الله و رسوله أعلم، قال: «أن يعبدوه و لا يشركوا به شيئاً»، ثم قال: «أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم» - ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين، فإن الله سبحانه جعلهما سبباً لخروجك من العدم إلى الوجود، وكثيراً ما يقرن الله سبحانه بين عبادته و الإحسان إلى الوالدين، كقوله ﴿أن اشكر لي و لوالديك﴾، و كقوله ﴿و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه و بالوالدين إحساناً﴾ ثم عطف على الإحسان إليهما الإحسان إلى القرابات من الرجال و النساء كما جاء في الحديث «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم صدقة و صلة»، [1]. ثم قال تعالى: ﴿و اليتامى﴾ و ذلك لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم و من ينفق عليهم، فأمر الله بالإحسان إليهم و الحنو عليهم، ثم قال ﴿و المساكين﴾ و هم المحاويج من ذوي الحاجات الذين لا يجدون ما يقوم بكفايتهم، فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم و تزول به ضرورتهم، و سيأتي الكلام على الفقير و المسكين في سورة براءة، و قوله ﴿و الجار ذي القربى و الجار الجنب﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿و الجار ذي القربى﴾ يعني الذي بينك و بينه قرابة، ﴿و الجار الجنب﴾ الذي ليس بينك و بينه قرابة، وكذا روي عن عكرمة و مجاهد و ميمون بن مهران و الضحاك و زيد بن أسلم و مقاتل بن حيان و قتادة، و قال نوف البكالي في قوله ﴿والجار ذي القربى﴾ يعني الجار المسلم ﴿و الجار الجنب﴾ يعني اليهودي و النصراني، رواه ابن جرير و ابن أبي حاتم، و قد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار، فلنذكر منها ما تيسر، و بالله المستعان.

الحديث الأول: روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» أخرجاه في الصحيحين.

الحديث الثاني: روى أحمد أيضاً: عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، و خير الجيران عند الله خيرهم لجاره» رواه الترمذي.

الحديث الثالث: روى الإمام أحمد عن المقداد بن الأسود يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه «ما تقولون في الزنا؟» قالوا: حرام حرمه الله و رسوله فهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ: «لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره»، قال «ما تقولون في السرقة؟» قالوا: حرمها الله و رسوله، فهي حرام،

(١) رواه الإمام أحمد و الترمذي و النسائي و ابن ماجه من حديث سلمان بن عامر و هو صحيح.

قال: «لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره» تفرد به أحمد، و له شاهد في الصحيحين من حديث ابن مسعود: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: : «أن تجعل لله نداً و هو خلقك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعم معك». قلت ثم أي؟ قال: «أن تُزاني حليلة جارك».

الحديث الرابع: روى الإمام أحمد عن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت: إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال: «إلى أقربهما منك باباً»، و رواه البخاري.

الحديث الخامس: روى أحمد عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول خصمين يوم القيامة جاران» و قوله تعالى: ﴿و الصاحب بالجنب﴾ روي عن علي و ابن مسعود، قالا: هي المرأة، و قال ابن أبي حاتم: و روي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى و إبراهيم النخعي و الحسن و سعيد بن جبير في إحدى الروايات، نحو ذلك.

و قال ابن عباس و مجاهد و عكرمة و قتادة: هو الرفيق في السفر، وقال سعيد بن جبير: هو الرفيق الصالح، وقال زيد بن أسلم: هو جليسك في الحضر و رفيقك في السفر، و أما ﴿ابن السبيل﴾، فعن ابن عباس وجماعة: هو الضيف، و قال مجاهد و أبو جعفر الباقر و الحسن و الضحاك و مقاتل: هو الذي يمر عليك مجتازاً في السفر، وهذا أظهر، و إن كان مراد القائل بالضيف المار في الطريق، فهما سواء، و سيأتي الكلام على أبناء السبيل في سورة براءة، و بالله الثقة و عليه التكلان. و قوله تعالى: ﴿و ما ملكت أيمانكم﴾ وصية بالأرقاء، لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير في أيدي الناس، فلهذا ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يوصي أمته في مرض الموت يقول: «الصلاةَ الصلاةَ و ما ملكت أيمانكم» فجعل يرددها حتى ما يفيض بها لسانه، و روى الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ «ما أطعمتَ نفسك فهو لك صدقة، و ما أطعمتَ ولدك فهو لك صدقة، و ما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة، و ما أطعمت خادمك فهو لك صدقة» رواه النسائي وإسناده صحيح، و لله الحمد.

و عن عبدالله بن عمرو أنه قال لقهرمان له: هل أعطيت الرقيق قوتهم؟ قال: لا، قال: فانطلق فأعطهم، فإن رسول الله ﷺ قال: «كفى بالمرء إثماً أنْ يَحبس عمن يملك قوتهم» رواه مسلم. و عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «للمملوك طعامه و كسوته، و لا يكلف من العمل إلا ما يطيق» رواه مسلم أيضاً، و عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يُجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين، أو أكلة أكلتين، فإنه وَلِي حَرَّه وعلاجه»، و عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «هم إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، و لا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم» أخرجاه، وقوله تعالى: ﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾، أي مختالاً في نفسه، معجباً متكبراً فخوراً على الناس، يرى أنه خير منهم فهو في نفسه كبير، و هو عند الله حقير، و عند الناس بغيض، قال مجاهد في قوله ﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً﴾ يعني متكبراً ﴿فخوراً﴾ يعني يعدُّ ما أعطى، و هو لا يشكر الله تعالى يعني يفخر على الناس بما أعطاه الله من نعمه، و هو قليل الشكر لله على ذلك، و روى ابن جرير: عن عبد الله بن واقد أبي رجاء الهروي قال: لا تجد سيء الملكة إلا وجدته مختالاً فخوراً، و تلا ﴿و ما ملكت أيمانكم﴾ الآية، و لا عاقاً إلا وجدته جباراً شقياً، و تلا ﴿و براً بوالدتي و لم يجعلني جباراً شقياً﴾، و روى ابن أبي حاتم عن العوام بن حوشب مثله في المختال الفخور، و روي عن مطرف قال: كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقائه، فلقيته، فقلت: يا أباذر، بلغني أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم «إن الله يحب ثلاثة و يبغض ثلاثة»؟ فقال: أجل، فلا إخالني، أكذب على

خليلي ثلاثاً ؟ قلت: من الثلاثة الذين يبغض الله ؟ قال: المختال الفخور. أوليس تجدونه عندكم في كتاب الله المنزل، ثم قرأ الآية **﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾**، و روي عن رجل من بَلْهُجَم قال: قلت: يا رسول الله، أوصني، قال: «إياك و إسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة، و إن الله لا يحب المخيلة».

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (٣٧) وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩) ﴾

٣٧- يقول تعالى ذاماً الذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به من بر الوالدين و الإحسان إلى الأقارب، و اليتامى، و المساكين، و الجار ذي القربى، و الجار الجنب، و الصاحب بالجنب، و ابن السبيل، و ما ملكت أيمانكم من الأرقاء، و لا يدفعون حق الله فيها، و يأمرون الناس بالبخل أيضاً، و قد قال رسول الله ﷺ: «و أيُّ داءٍ أدوأ من البخل» [1]، و قال: «إياكم و الشح، فإنه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالقطيعة فقطعوا، و أمرهم بالفجور ففجروا» [2].

و قوله تعالى: **﴿و يكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾** فالبخيل جحود لنعمة الله لا تظهر عليه و لا تبين، لا في مأكله و لا في ملبسه و لا في إعطائه و بذله، كما قال تعالى: **﴿إن الإنسان لربه لكنود ❁ و إنه على ذلك لشهيد﴾** أي بحاله و شمائله **﴿و إنه لحب الخير لشديد﴾** و قال ههنا **﴿و يكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾** و لهذا توعدهم بقوله: **﴿و أعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾** و الكفر هو الستر و التغطية، فالبخيل يستر نعمة الله عليه و يكتمها و يجحدها، فهو كافر لنعم الله عليه، و في الحديث «إن الله إذا أنعم نعمةً على عبد أحب أن يظهر أثرها عليه» [3] وفي الدعاء النبوي «و اجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك قابليها، و أتممها علينا» [4] و قد حمل بعض السلف هذه الآية على بخل اليهود بإظهار العلم الذي عندهم من صفة محمد ﷺ و كتمانهم ذلك، و لهذا قال تعالى: **﴿و أعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾** و روي عن ابن عباس، و قاله مجاهد و غير واحد، و لا شك أن الآية محتملة لذلك، و الظاهر أن السياق في البخل بالمال، و إن كان البخل بالعلم داخلاً في ذلك بطريق الأولى، فإن السياق في الإنفاق على الأقارب و الضعفاء، و كذلك الآية التي بعدها، و هي قوله **﴿الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس﴾** فإنه ذكر الممسكين المذمومين و هم البخلاء، ثم ذكر الباذلين المرائين الذين يقصدون بإعطائهم السمعة و أن يحمدوا بالكرم، و لا يريدون بذلك وجه الله، و في حديث الثلاثة الذين هم أول من تسجّر بهم النار و هم: العالم، و الغازي، و المنفق، المراؤون بأعمالهم، «يقول صاحب المال: ما تركت من شيء تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت في سبيلك، فيقول الله: كذبت إنما أردت أن يقال: جواد، فقد قيل» أي فقد أخذت جزاءك في الدنيا و هو الذي أردت بفعلك، و في حديث آخر: أن رسول الله ﷺ سئل عن عبد الله بن جدعان: هل ينفعه إنفاقه و إعتاقه؟ فقال: «لا، إنه لم يقل يوماً من الدهر ربِّ اغفرلي خطيئتي يوم الدين»، ولهذا قال تعالى: **﴿و لا يؤمنون بالله ولا باليوم**

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٩٦) و الطبراني في الأوسط و الصغير و غيرهما. (٢) رواه أحمد و أبو داود و هو صحيح. (٣) رواه الترمذي عن ابن عمر ﷺ. (٤) رواه أبو داود (٩٦٩) و الحاكم (١/ ٢٦٥) و الطبراني في الدعاء (١٤٣٠).

الآخر﴾ الآية ، أي إنما حملهم على صنيعهم هذا القبيح ، و عدولهم عن فعل الطاعة على وجهها : الشيطان ، فإنه سوّل لهم و أملى لهم ، و قارنهم فحسّن لهم القبائح ، و لهذا قال تعالى : **﴿و من يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾**.

ولهذا قال الشاعر :

عن المرء لا تسأل و سَلْ عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

٣٩- ثم قال تعالى : **﴿و ماذا عليهم لو آمنوا بالله و اليوم الآخر و أنفقوا مما رزقهم الله﴾** الآية ، أي و أيُّ شيء يضرهم لو آمنوا بالله و سلكوا الطريق الحميدة ، و عدلوا عن الرياء إلى الإخلاص ، و الإيمان بالله ، و رجاء موعوده في الدار الآخرة لمن أحسن عملاً ، و أنفقوا مما رزقهم الله في الوجوه التي يحبها الله و يرضاها ، و قوله : **﴿وكان الله بهم عليماً﴾** أي و هو عليم بنياتهم الصالحة و الفاسدة ، و عليم بمن يستحق التوفيق منهم فيوفقه ويهمه رشده ، و يقيضه لعملٍ صالح يرضى به عنه ، و بمن يستحق الخذلان و الطرد عن الجناب الأعظم الإلهي الذي مَنْ طُرِدَ عن بابه ، فقد خاب و خسر في الدنيا و الآخرة ، عياذاً بالله من ذلك .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾

٤٠- يقول تعالى مخبراً : إنه لا يظلم أحداً من خلقه يوم القيامة مثقال حبة خردل و لا مثقال ذرة ، بل يوفيها له ويضاعفها له إن كانت حسنة ، كما قال تعالى : **﴿و نضع الموازين القسط﴾** الآية ، و قال تعالى مخبراً عن لقمان أنه قال : **﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله﴾** الآية ، و قال تعالى : **﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ۞ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ۞ و من يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾** و في الصحيحين من حديث عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل ، و فيه «فيقول الله عز وجل ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، فأخرجوه من النار» و في لفظ : «أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ، فأخرجوه من النار ، فيخرجون خلقاً كثيراً» ثم يقول أبو سعيد : اقرؤوا إن شئتم **﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾** الآية ، و روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود : يؤتى بالعبد و الأمة يوم القيامة فينادي منادٍ على رؤوس الأولين و الآخرين : هذا فلان بن فلان ، من كان له حق فليأت إلى حقه ، فتفرح المرأة أن يكون لها الحق على أبيها أو أمها أو أخيها أو زوجها ، ثم قرأ **﴿فلا أنساب بينهم يومئذ و لا يتساءلون﴾** فيغفر الله من حقه ما يشاء ، ولا يغفر من حقوق الناس شيئاً ، فينصب للناس فينادى : هذا فلان بن فلان ، من كان له حقٌ فليأت إلى حقه . فيقول : رب فَنيتْ الدنيا من أين أوتيهم حقوقهم؟ فيقول : خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا كل ذي حق حقه بقدر طَلبته ، فإن كان ولياً لله فَفَضَل له مثقالَ ذرة ضاعفها الله له حتى يدخله بها الجنة ثم قرأ علينا **﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة و إن تك حسنة يضاعفها﴾** وقال : ادخل الجنة ، و إن كان عبداً شقياً قال الملَك : رب فنيتْ حسناته وبقي طالبون كثير ، فيقول : خذوا من سيئاتهم فأضعفوها إلى سيئاته ، ثم صكوا له صكاً إلى النار ، و رواه ابن جرير ، ولبعض هذا الأثر شاهد في الحديث الصحيح .

و روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: **﴿و إن تك حسنة يضاعفها﴾** فأما المشرك فيخفف عنه العذاب يوم القيامة و لا يخرج من النار أبداً، و قد استدل له بالحديث الصحيح أن العباس قال: يا رسول الله، إن عمك أبا طالب كان يحوطك و ينصرك، فهل نفعته بشيء؟ قال: «نعم هو في ضَحْضَاح من نار، و لو لا أنا لكان في الدَّرك الأسفل من النار» و قد يكون هذا خاصاً بأبي طالب من دون الكفار بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يُثاب عليها الرزق في الدنيا ويُجزى بها في الآخرة، و أما الكافر فيطعم بها في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة لم يكن حسنة» و قال أبو هريرة و عكرمة و سعيد بن جبير و الحسن و قتادة والضحاك في قوله: **﴿و يؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾**: يعني الجنة، نسأل الله رضاه و الجنة.

٤١- و قوله تعالى: **﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد و جئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾** يقول تعالى مخبراً عن هول يوم القيامة و شدة أمره و شأنه، فكيف يكون الأمر و الحال يوم القيامة، حين يجيء من كل أمة بشهيد، يعني الأنبياء عليهم السلام، كما قال تعالى: **﴿و أشرقت الأرض بنور ربها و وضع الكتاب و جيء بالنبيين و الشهداء﴾** الآية، وقال تعالى: **﴿و يوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم﴾** الآية، و روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ علي» فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك، وعليك أُنزل؟ قال: «نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري» فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: **﴿فكيف إذا جئنا من كل بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾** فقال «حسبك الآن» فإذا عيناه تذرفان، و رواه مسلم أيضاً.

وأما ما ذكره أبو عبد الله القرطبي في التذكرة حيث قال: باب ما جاء في شهادة النبي ﷺ على أمته، عن سعيد ابن المسيب يقول: ليس من يوم إلا تُعرض فيه على النبي ﷺ أمته غدوة و عشية، فيعرفهم بأسمائهم و أعمالهم، فلذلك يشهد عليهم، يقول الله تعالى: **﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد و جئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾** فإنه أثر و فيه انقطاع، فإن فيه رجلاً مبهماً لم يسم، و هو من كلام سعيد بن المسيب لم يرفعه.

٤٢- و قوله تعالى: **﴿يومئذ يود الذين كفروا و عصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض و لا يكتمون الله حديثاً﴾** أي لو انشقت و بلعتهم مما يرون من أهوال الموقف و ما يحل بهم من الخزي و الفضيحة و التوبيخ، كقوله: **﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾** الآية، و قوله: **﴿و لا يكتمون الله حديثاً﴾** إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه و لا يكتمون منه شيئاً. و روى ابن جرير عن سعيد بن جبير، قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال له: سمعت الله عز وجل يقول-يعني إخباراً عن المشركين يوم القيامة أنهم قالوا: **﴿و الله ربنا ما كنا مشركين﴾** و قال في الآية الأخرى: **﴿و لا يكتمون الله حديثاً﴾** فقال ابن عباس: أما قوله: **﴿و الله ربنا ما كنا مشركين﴾** فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام، قالوا: تعالوا فلنجحد، فقالوا **﴿و الله ربنا ما كنا مشركين﴾** فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم و أرجلهم **﴿و لا يكتمون الله حديثاً﴾** و رواه عبد الرزاق بنحوه [1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً (٤٣)﴾

---

(١) رواه ابن أبي حاتم بنحوه أيضاً.

٤٣- ينهى تبارك و تعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السُّكر الذي لا يدري معه المصلي ما يقول، وعن قربان محالها التي هي المساجد للجنب، إلا أن يكون مجتازاً من باب إلى باب من غير مُكث، و قد كان هذا قبل تحريم الخمر، كما دل عليه الحديث الذي ذكرناه في سورة البقرة عند قوله تعالى: **﴿يسألونك عن الخمر و الميسر﴾** الآية. فإن رسول الله ﷺ تلاها على عمر، فقال «اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً»، فلما نزلت هذه الآية تلاها عليه فقال: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فكانوا لا يشربون الخمر في أوقات الصلوات، فلما نزل قوله: **﴿يا أيها الذين إنما الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾** إلى قوله تعالى: **﴿فهل أنتم منتهون﴾** فقال عمر: انتهينا انتهينا. وفي رواية عن عمر بن الخطاب في قصة تحريم الخمر، فذكر الحديث و فيه: فنزلت الآية التي في النساء **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة و أنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾** فكان منادي رسول الله ﷺ إذا قامت الصلاة ينادي: أن لا يقربنّ الصلاة سكران، لفظ أبي داود.

و ذكروا في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن أبي حاتم عن سعد قال: نزلت فيّ أربع آيات، صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعا أناساً من المهاجرين و أناساً من الأنصار، فأكلنا و شربنا حتى سكرنا، ثم افتخرنا، فرفع رجل لَحْيَ بعير ففزر به أنف سعد، فكان سعد مفزور الأنف، و ذلك قبل تحريم الخمر، فنزلت **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة و أنتم سكارى﴾** الآية، و الحديث بطوله عند مسلم.

سبب آخر: روى ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، و حضرت الصلاة فقدموا فلاناً، قال فقرأ: قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون، فأنزل الله **﴿يا أيها الذين لا تقربوا الصلاة و أنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾** و كذا رواه الترمذي و ابن جرير و أبو داود و النسائي. و روى عبد الرزاق عن قتادة: كانوا يجتنبون السكر عند حضور الصلوات ثم نسخ بتحريم الخمر. و قال الضحاك في الآية: لم يعن بها سكر الخمر و إنما عنى بها سكر النوم، رواه ابن جرير و ابن أبي حاتم، ثم قال ابن جرير: و الصواب أن المراد سكر الشراب، قال: و لم يتوجه النهي إلى السكران الذي لا يفهم الخطاب، لأن ذاك في حكم المجنون، و إنما خوطب بالنهي الثمل الذي يفهم التكليف، وهذا حاصل ما قاله، و قد ذكره غير واحد من الأصوليين، و هو أن الخطاب يتوجه إلى من يفهم الكلام دون السكران الذي لا يدري ما يقال له فإن الفهم شرط التكليف، و قد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهي عن السكر بالكلية لكونهم مأمورين بالصلاة في الخمسة الأوقات من الليل و النهار، فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة في أوقاتها دائماً، و الله أعلم، و على هذا فيكون كقوله تعالى: **﴿يا أيها الذين اتقوا الله حق تقاته و لا تموتن إلا و أنتم مسلمون﴾** و هو الأمر لهم بالتأهب للموت على الإسلام و المداومة على الطاعة لأجل ذلك.

و قوله: **﴿حتى تعلموا ما تقولون﴾** هذا أحسن ما يقال في حد السكران أنه الذي لا يدري ما يقول، فإن المخمور فيه تخليط في القراءة و عدم تدبره و خشوعه فيها. و قد روى الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نعس أحدكم و هو يصلي، فلينصرف فلينم حتى يعلم ما يقول» انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم، و في بعض ألفاظ الحديث «فلعله يذهب يستغفر فيسب نفسه» و قوله: **﴿و لا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا﴾** روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿و لا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا﴾** قال: لا تدخلوا المسجد و أنتم جنب، إلا

عابري سبيل، قال: تمر به، ولا تجلس[1] ثم قال: و روي عن عبد الله بن مسعود، و أنس، و أبي عبيدة، و سعيد ابن المسيب، و أبي الضحى، و عطاء، و مجاهد، و مسروق، و إبراهيم النخعي، و زيد بن أسلم، و أبي مالك، وعمرو بن دينار، والحكم بن عتيبة، و عكرمة، و الحسن البصري، ويحيى بن سعيد الأنصاري، و ابن شهاب، وقتادة نحو ذلك، وروى ابن جرير عن يزيد بن أبي حبيب عن قول الله عزو جل **﴿و لا جنباً إلا عابري سبيل﴾** أن رجالاً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد، فكانت تصيبهم الجنابة و لا ماء عندهم، فيريدون الماء و لا يجدون ممراً إلا في المسجد، فأنزل الله **﴿و لا جنباً إلا عابري سبيل﴾** و يشهد لصحة ما قاله يزيد بن أبي حبيب رحمه الله، ما ثبت في صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ قال: «سدّوا كل خَوخةٍ في المسجد إلا خوخة أبي بكر» و هذا قاله في آخر حياته ﷺ، علماً منه أن أبا بكر رضي الله عنه سيلي الأمر بعده، و يحتاج إلى الدخول في المسجد كثيراً للأمور المهمة فيما يصلح للمسلمين، فأمر بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد، إلا بابه رضي الله عنه، و من روى إلا باب علي، كما وقع في بعض السنن فهو خطأ، والصواب ما ثبت في الصحيح.

و من هذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد، و يجوز له المرور، و كذا الحائض و النفساء أيضاً في معناه، إلا أن بعضهم قال: يمنع مرورهما لاحتمال التلويث، و منهم من قال: إن أمنَتْ كل واحدة منهما التلويث في حال المرور، جاز لهما المرور، و إلا فلا. و قد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «ناوليني الخُمْرة من المسجد» فقلت: إني حائض، قال: «إن حيضتك ليست في يدك» و له عن أبي هريرة مثله، ففيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد، و النفساء في معناها، و الله أعلم، و روى أبو داود عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «إني لا أُحلّ المسجدَ لحائضٍ و لا جنب»، قال أبو مسلم الخطابي: ضعف هذا الحديث جماعة[2].

حديث آخر: في معنى الآية. روى ابن أبي حاتم عن علي **﴿و لا جنباً إلا عابري سبيل﴾** قال: لا يقرب الصلاة، إلا أن يكون مسافراً تصيبه الجنابة، فلا يجد الماء فيصلي، حتى يجد الماء، قال: و روي عن ابن عباس في إحدى الروايات، و سعيد بن جبير و الضحاك، و نحو ذلك. و قد رواه ابن جرير عن علي و عن ابن عباس، فذكره. و رواه عن سعيد بن جبير، و عن مجاهد و الحسن بن مسلم و الحكم بن عتيبة و زيد بن أسلم، و ابنه عبد الرحمن مثل ذلك. و روي عن عبد الله بن كثير قال: كنا نسمع أنه في السفر.

و يستشهد لهذا القول بالحديث الذي رواه أحمد و أهل السنن من حديث أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «الصّعيد الطيب طهور المسلم، و إن لم تجد الماء عشر حجج، فإذا وجدت الماء فأمسِسْه بشرتك، فإن ذلك خير لك» ثم قال ابن جرير بعد حكايته القولين: و الأولى قول من قال **﴿و لا جنباً إلا عابري سبيل﴾** أي إلا مجتازي طريق فيه، و ذلك أنه قد بين حكم المسافر إذا عدم الماء و هو جنب، في قوله **﴿و إن كنتم مرضى أو على سفر﴾** إلى آخره، فكان معلوماً بذلك أن قوله **﴿و لا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا﴾** لو كان معنياً به المسافر، لم يكن لإعادة ذكره في قوله **﴿و إن كنتم مرضى أو على سفر﴾** معنى مفهوم، و قد مضى حكم ذكره قبل ذلك، فإذا كان ذلك كذلك فتأويل الآية: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة مصلين فيها، و أنتم سكارى، حتى تعلموا ما تقولون، ولا تقربوها أيضاً جنباً، حتى تغتسلوا، إلا عابري سبيل، قال: و العابر السبيل: المجتاز مراً و قطعاً، يقال منه:

(١) و في سنده ضعف. (٢) و هو ضعيف كما قال، ضعفه البيهقي و الحافظ ابن حجر كما في التلخيص.

عبرت هذا الطريق، فأنا أعبره عبراً و عبوراً، و منه يقال عبر فلان النهر، إذا قطعه و جاوزه، و منه قيل للناقة القوية على الأسفار، هي عبر الأسفار لقوتها على قطع الأسفار، و هذا الذي نصره، هو قول الجمهور، و هو الظاهر من الآية، و كأنه تعالى نهى عن تعاطي الصلاة على هيئة ناقصة، تناقض مقصودها، و عن الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة و هي الجنابة المباعدة للصلاة، و لمحلها أيضاً، والله أعلم.

و قوله ﴿حتى تغتسلوا﴾ دليل لما ذهب إليه الأئمة الثلاثة، أبو حنيفة و مالك و الشافعي، أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد حتى يغتسل أو يتيمم، إن عدم الماء، أو لم يقدر على استعماله بطريقه، و ذهب الإمام أحمد: إلى أنه متى توضأ الجنب، جاز له المكث في المسجد، لما روى هو و سعيد بن منصور في سننه بسند صحيح: أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك. روى سعيد بن منصور عن عطاء بن يسار قال: رأيت رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ، يجلسون في المسجد و هم مجنبون، إذا توضؤوا وضوء الصلاة. و هذا إسناد على شرط مسلم، و الله أعلم.

و قوله ﴿و إن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾ أما المرض المبيح للتيمم، فهو الذي يخاف معه من استعمال الماء، فوات عضو أو شينه أو تطويل البرء، و من العلماء من جوز التيمم بمجرد المرض، لعموم الآية، و السفر معروف، و لا فرق فيه بين الطويل والقصير، و قوله ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ الغائط هو المكان المطمئن من الأرض، كنى بذلك عن التغوط، وهو الحدث الأصغر، و أما قوله ﴿أو لامستم النساء﴾ فقرئ ﴿لمستم﴾ و ﴿لامستم﴾ و اختلف المفسرون و الأئمة في معنى ذلك على قولين: أحدهما: أن ذلك كناية عن الجماع، لقوله تعالى: ﴿و إن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾ و قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿أو لامستم النساء﴾ قال: الجماع. وروي عن علي و أبي بن كعب و مجاهد و طاوس والحسن و عبيد بن عمير و سعيد بن جبير والشعبي و قتادة و مقاتل بن حيان نحو ذلك، و روى ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: ذكروا اللمس، فقال ناس من الموالي: ليس بالجماع، و قال ناس من العرب: اللمس هو الجماع، قال: فأتيت ابن عباس فقلت له: إن ناساً من الموالي و العرب اختلفوا في اللمس، فقالت الموالي: ليس بالجماع، و قالت العرب: الجماع، قال: فمن أي الفريقين كنت؟ قلت: كنت من الموالي، قال: غُلب فريق الموالي. إن اللمس و المس و المباشرة: الجماع، و لكن الله يكني ما شاء بما شاء، ثم قال ابن جرير: و قال آخرون: عنى الله تعالى بذلك كلَّ لمس بيد أو بغيرها من أعضاء الإنسان، و أوجبوا الوضوء على كل من مس بشيء من جسده شيئاً من جسدها مفضياً إليه، ثم روى عن عبد الله ابن مسعود قال: اللمس ما دون الجماع، وروى الطبراني بإسناده عن عبد الله بن مسعود قال: يتوضأ الرجل من المباشرة و من اللمس بيده و من القبلة، وكان يقول في هذه الآية ﴿أو لامستم النساء﴾ هو الغمز، و روى ابن جرير عن ابن عمر كان يتوضأ من قبلة المرأة، و يرى فيها الوضوء و يقول: هي من اللماس. و قال ابن أبي حاتم: و روي عن ابن عمر و عبيدة و أبي عثمان النهدي و أبي عبيدة يعني عبد الله بن مسعود و عامر الشعبي و ثابت بن الحجاج وإبراهيم النخعي و زيد بن أسلم نحو ذلك.

(قلت) و روى مالك عن عبد الله بن عمر أنه كان يقول: قبلة الرجل امرأته و جسه بيده من الملامسة، فمن قبل

امرأته أو جسّها بيده فعليه الوضوء، و روى الدار قطني عن عمر بن الخطاب نحو ذلك، ولكن روينا عنه من وجه آخر: أنه كان يقبل امرأته ثم يصلي و لا يتوضأ. فالرواية عنه مختلفة، فيحمل ما قاله في الوضوء إن صح عنه على الاستحباب، و الله أعلم. و القول بوجوب الوضوء من المس، هو قول الشافعي و أصحابه مالك و المشهور عن أحمد بن حنبل رحمهم الله، قال ناصر هذه المقالة: قد قرئ في هذه الآية لامستم و لمستم، و اللمس يطلق في الشرع على الجس باليد، قال تعالى: ﴿و لو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم﴾ أي جسوه، وقال رسول الله ﷺ لماعز حين أقر بالزنا، يعرّض له بالرجوع عن الإقرار: «لعلك قبلت أو لمست»، و في الحديث الصحيح «واليد زناها اللمس»[1] و قالت عائشة رضي الله عنها: قلّ يوم إلا ورسول الله ﷺ يطوف علينا فيقبل و يلمس[2]، ومنه ما ثبت في الصحيحين، أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع الملامسة، و هو يرجع إلى الجس باليد، على كلا التفسيرين، قالوا: و يطلق في اللغة على الجس باليد، كما يطلق على الجماع.

قال ابن جرير: و أولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: عنى الله بقوله: ﴿أو لامستم النساء﴾ الجماع، دون غيره من معاني اللمس، لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قبّل بعض نسائه، ثم صلى و لم يتوضأ، ثم روى عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يتوضأ، ثم يُقبّل ثم يُصلي، و لا يتوضأ. ورواه أحمد و أبو داود و النسائي.

و قوله تعالى: ﴿فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾ استنبط كثير من الفقهاء من هذه الآية: أنه لا يجوز التيمم لعادم الماء إلا بعد طلب الماء، فمتى طلبه فلم يجده، جاز له حينئذ التيمم، و قد ذكروا كيفية الطلب في كتب الفروع، كما هو مقرر في موضعه، كما هو في الصحيحين من حديث عمران بن حصين: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً معتزلاً لم يُصلّ في القوم، فقال «يا فلان ما منعك أن تصلي مع القوم، ألست برجل مسلم؟» قال: بلى يا رسول الله، و لكن أصابتني جنابة و لا ماء، قال «عليك بالصّعيد فإنه يكفيك». و لهذا قال تعالى: ﴿فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾ فالتيمم في اللغة، هو القصد، تقول العرب: تَيمَّمك الله بحفظه، أي قصدك.

و الصعيد قيل: هو كل ما صعد على وجه الأرض، فيدخل فيه التراب و الرمل و الشجر و الحجر و النبات، وهو قول مالك، و قيل: ما كان من جنس التراب، كالرمل و الزرنيخ و النورة، و هذا مذهب أبي حنيفة، وقيل: هو التراب فقط، و هو مذهب الشافعي و أحمد بن حنبل و أصحابهما، و احتجوا بقوله تعالى: ﴿فتصبح صعيداً زلقاً﴾ أي تراباً أملس طيباً، و بما ثبت في صحيح مسلم عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضّلنا على الناس بثلاث: جُعلتْ صفوفنا كصفوف الملائكة، و جعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء» و في لفظ «و جُعل ترابها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء» قالوا: فخصص الطهورية بالتراب، في مقام الامتنان، فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه، و الطيب ههنا قيل: الحلال، وقيل: الذي ليس بنجس، كما رواه الإمام أحمد و أهل السنن، إلا ابن ماجه من حديث أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «الصَّعيد الطيب طهور المسلم، و إن لم يجد الماء عشر حجج، فإذا وجده فليمسه بشرته فإن ذلك خير». و قال ابن عباس: أطيب الصعيد تراب الحرث، رواه ابن أبي حاتم.

و قوله: ﴿فامسحوا بوجوهكم و أيديكم﴾ التيمم بدل عن الوضوء في التطهر به، لا أنه بدل منه في جميع أعضائه، بل يكفي مسح الوجه و اليدين فقط بالإجماع، و لكن اختلف الأئمة في كيفية التيمم على أقوال: أحدها

(١) رواه مسلم (٢) و رواه أبو داود (٣٥١٢) بنحوه، و هو حسن.

و هو مذهب الشافعي في الجديد: أنه يجب أن يمسح الوجه و اليدين إلى المرفقين بضربتين، لأن لفظ اليدين يصدق إطلاقهما على ما يبلغ المنكبين، و على ما يبلغ المرفقين، كما في آية الوضوء، و يطلق و يُراد بهما ما يبلغ الكفين، كما في آية السرقة ﴿فاقطعوا أيديهما﴾ قالوا: و حَمْلُ ما أطلق ههنا على ما قيد في آية الوضوء أولى لجامع الطهورية.

و القول الثاني: أنه يجب مسح الوجه و اليدين إلى الكفين بضربتين، و هو قول الشافعي في القديم. والثالث: أنه يكفين بضربة واحدة. روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبزى أن رجلاً أتى عمر فقال: إني أجنبت فلم أجد ماء، فقال عمر لا تصل، فقال عمار: أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا و أنت في سرية فأجنبنا فلم نجد ماء، فأما أنت فلم تصل، و أما أنا فتمعكت في التراب فصليت، فلما أتينا النبيﷺ ذكرت ذلك له، فقال: «إنما كان يكفيك، وضرب النبيﷺ بيده الأرض، ثم نفخ فيها و مسح بها وجهه و كفيه»، و قال تعالى في آية المائدة: ﴿فامسحوا بوجوهكم و أيديكم منه﴾ استدل بذلك الشافعي، على أنه لا بد في التيمم، أن يكون بتراب طاهر، له غبار يعلق بالوجه و اليدين منه شي.

و قوله: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ أي في الدين الذي شرعه لكم ﴿و لكن يريد ليطهركم﴾ فلهذا أباح لكم، إذا لم تجدوا الماء، أن تعدلوا إلى التيمم بالصعيد، ﴿و ليتم نعمته لعلكم تشكرون﴾ و لهذا كانت هذه الأمة مخصوصة بمشروعية التيمم، دون سائر الأمم، كما ثبت في الصحيحين، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: قال رسول اللهﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، و جعلت لي الأرض مسجداً و طهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل» و في لفظ «فعنده طهوره و مسجده، وأحلت لي الغنائم و لم تحل لأحد قبلي، و أعطيت الشفاعة، و كان النبي يُبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة» و تقدم في حديث حذيفة عند مسلم «فضّلنا على الناس بثلاث، جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، و جعلت لنا الأرض مسجداً و تربتها طهوراً إذا لم نجد الماء» و قال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فامسحوا بوجوهكم و أيديكم إن الله كان عفواً غفوراً﴾ أي و من عفوه عنكم و غفرانه لكم أن شرع التيمم، و أباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم الماء، توسعة عليكم و رخصة لكم، و ذلك أن هذه الآية الكريمة فيها تنزيه الصلاة، أن تفعل على هيئة ناقصة، من سكر حتى يصحو المكلف و يعقل ما يقول، أو جنابة حتى يغتسل، أو حدَث حتى يتوضأ، إلا أن يكون مريضاً أو عادماً للماء، فإن الله عز وجل قد أرخص في التيمم، و الحالة هذه رحمة بعباده و رأفة بهم، و توسعة عليهم، و لله الحمد و المنة.

ذكر سبب نزول مشروعية التيمم: و إنما ذكرنا ذلك ههنا لأن هذه الآية التي في النساء متقدمة النزول على آية المائدة، و بيانه أن هذه نزلت قبل تحتم تحريم الخمر، و الخمر إنما حرم بعد أحد بيسير يقال: في محاصرة النبيﷺ لبني النضير، و أما المائدة فإنها من أواخر ما نزل و لا سيما صدرها، فناسب أن يُذكر السبب ههنا، وبالله الثقة.

روى أحمد عن عائشة أنها استعارت من أسماء قلادة فهلكت، فبعث رسول اللهﷺ رجالاً في طلبها فوجدوها، فأدركتهم الصلاة و ليس معهم ماء فصلوا بغير وضوء، فشكوا ذلك إلى رسول الله، فأنزل الله آية التيمم، فقال أُسيد بن الحُضير لعائشة: جزاك الله خيراً، فو الله ما نزل بك أمر تكرهينه، إلا جعل الله لك و للمسلمين فيه

خيراً[1].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيراً (٤٥) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً (٤٦) ﴾

٤٤- يخبر تعالى عن اليهود ـ عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ـ أنهم يشترون الضلالة بالهدى، ويعرضون عما أنزل الله على رسوله، و يتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمدﷺ، ليشتروا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا، ﴿و يريدون أن تضلوا السبيل﴾ أي يودون لو تكفرون بما أُنزل عليكم أيها المؤمنون، و تتركون ما أنتم عليه من الهدى و العلم النافع.

٤٥- ﴿و الله أعلم بأعدائكم﴾ أي هو أعلم بهم و يحذركم منهم، ﴿و كفى بالله ولياً و كفى بالله نصيراً﴾ أي كفى به ولياً لمن لجأ إليه، و نصيراً لمن استنصره.

٤٦- ثم قال تعالى: ﴿من الذين هادوا﴾ «من» في هذا لبيان الجنس كقوله ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾، وقوله ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ أي يتأولون الكلام على غير تأويله، و يفسرونه بغير مراد الله عز وجل قصداً منهم و افتراء ﴿و يقولون سمعنا و عصينا﴾ أي يقولون سمعنا ما قلته يا محمد و لا نطيعك فيه، هكذا فسره مجاهد وابن زيد، و هو المراد، و هذا أبلغ في كفرهم و عنادهم و أنهم يتولون عن كتاب الله بعد ما عقلوه، وهم يعلمون ما عليهم في ذلك من الإثم و العقوبة، و قوله ﴿و اسمع غير مسمع﴾ أي اسمع ما نقول، لا سمعت، رواه الضحاك عن ابن عباس، و قال مجاهد و الحسن: و اسمع غير مقبول منك، قال ابن جرير: والأول أصح، و هو كما قال، و هذا استهزاء منهم و استهتار، عليهم لعنة الله، ﴿و راعنا لياً بألسنتهم و طعناً في الدين﴾ أي يوهمون أنهم يقولون: راعنا سمعك بقولهم راعنا، و إنما يريدون الرعونة بسبهم النبي، و قد تقدم الكلام على هذا عند قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا و قولوا انظرنا﴾ و لهذا قال تعالى عن هؤلاء اليهود الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يُظهرونه ﴿لياً بألسنتهم و طعناً في الدين﴾ يعني بسبهم النبيﷺ، ثم قال تعالى: ﴿و لو أنهم قالوا سمعنا و أطعنا واسمع و انظرنا لكان خيراً لهم و أقوم و لكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ أي قلوبهم مطرودة عن الخير مبعدة منه، فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم، و قد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ والمقصود أنهم لا يؤمنون إيماناً نافعاً.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٤٧) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً (٤٨) ﴾

(١) و رواه البخاري و مسلم مطولاً.

٤٧- يقول تعالى آمراً أهل الكتاب بالإيمان بما نزّل على عبده و رسوله محمدﷺ من الكتاب العظيم الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات ، و متهدداً لهم إن لم يفعلوا بقوله: **﴿من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها﴾** قال بعضهم: معناه من قبل أن نطمس وجوهاً، فطمسها هو ردها إلى الأدبار و جعل أبصارهم من ورائهم ، و يحتمل أن يكون المراد: من قبل أن نطمس وجوهاً فلا نُبقي لها سمعاً و لا بصراً و لا أثراً، و مع ذلك نردها إلى ناحية الأدبار. قال العوفي عن ابن عباس في الآية و هي **﴿من قبل أن نطمس وجوهاً﴾** و طمسها أن تعمى **﴿فنردها على أدبارها﴾** يقول: نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم ، فيمشون القهقرى ، و نجعل لأحدهم عينين من قفاه ، و كذا قال قتادة و عطية العوفي، و هذا أبلغ في العقوبة و النكال ، و هو مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق و ردهم إلى الباطل ، و رجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سُبُل الضلالة ، يهرعون و يمشون القهقرى على أدبارهم، و هذا كما قال بعضهم في قوله **﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ◆ و جعلنا من بين أيديهم سداً﴾** الآية: إن هذا مثل ضربه الله لهم في ضلالهم ، و منعهم عن الهدى. قال مجاهد: **﴿من قبل أن نطمس وجوهاً﴾**، يقول: عن صراط الحق فنردها على أدبارها ، أي في الضلال. قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عباس و الحسن نحو هذا. قال: نرجعها كفاراً و نردهم قردة. و قد ذُكر أن كعب الأحبار أسلم حين سمع هذه الآية.

و قد روى ابن أبي حاتم عن أبي إدريس عائذ الله الخولاني قال: كان أبو مسلم الجليلي معلم كعب، و كان يلومه في إبطائه عن رسول اللهﷺ قال: فبعثه إليه لينظر أهو هو ؟ قال كعب: فركبت حتى أتيت المدينة ، فإذا تالٍ يقرأ القرآن يقول: **﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها﴾** فبادرت الماء فاغتسلت ، و إني لأمس وجهي مخافة أن أطمس ثم أسلمت. و قوله **﴿أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت﴾** يعني الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد ، و قد مسخوا قردة وخنازير، و سيأتي بسط قصتهم في سورة الأعراف. و قوله **﴿و كان أمر الله مفعولاً﴾** أي إذا أمر بأمر فإنه لا يُخالَف و لا يمانع.

٤٨- ثم أخبر تعالى أنه **﴿لا يغفر أن يشرك به﴾**، أي لا يغفر لعبد لقيه و هو مشرك به ، **﴿و يغفر ما دون ذلك﴾** أي من الذنوب **﴿لمن يشاء﴾**، أي من عباده و قد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة ، فلنذكر منها ما تيسر:

الحديث الأول: روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: قال رسول اللهﷺ: «الدواوين عند الله ثلاثة: ديوانٌ لا يَعبأ الله به شيئاً، و ديوانٌ لا يترك الله منه شيئاً، و ديوان لا يغفره الله، فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله ، قال الله عز وجل: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾** الآية، و قال: **﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة﴾**، و أما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً، فظلم العبد نفسه فيما بينه و بين ربه من صوم يوم تركه أو صلاة تركها ، فإن الله يغفر ذلك و يتجاوز إن شاء ، و أما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضاً، القصاص لا محالة» تفرد به أحمد.

الحديث الثاني: روى الإمام أحمد عن معاوية قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «كل ذنبٍ عسى الله أن يغفره ، إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً» و رواه النسائي.

الحديث الثالث: روى الإمام أحمد عن أبي ذر عن رسول اللهﷺ قال: «إن الله يقول: يا عبدي ما عبدتني ورجوتني ، فإني غافرٌ لك على ما كان فيك ، يا عبدي إنك إن لقيتني بقُرابِ الأرض خطيئة ما لم تشرك بي ، لقيتك

بقُرابها مغفرة» تفرد به أحمد.

الحدي الرابع: روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: أتيت رسول اللهﷺ فقال: «ما عبد قال: لا إله إلا الله ثم مات على ذلك، إلا دخل الجنة، قلت: و إن زنى و إن سرق ؟ قال: و إن زنى و إن سرق، قلت: و إن زنى و إن سرق ؟ قال: و إن زنى و إن سرق ثلاثاً، ثم قال في الرابعة: على رغم أنف أبي ذر»، قال: فخرج أبو ذر و هو يجر إزاره و هو يقول: و إن رغم أنف أبي ذر، و كان أبو ذر يحدث بهذا و يقول: و إن رغم أنف أبي ذر. أخرجاه.

الحديث الخامس: روى عبد بن حميد عن جابر قال: جاء رجل إلى رسول اللهﷺ فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان، قال: «مَنْ مات لا يشرك بالله شيئاً وَجَبَتْ له الجنة، و من مات يشرك بالله شيئاً وجبت له النار»[1].

الحديث السادس: روى الحافظ أبو يعلى عن أنس قال: جاء رجل إلى رسول اللهﷺ فقال: يا رسول الله، ما تركت حاجة و لا ذا حاجة إلا قد أتيت، قال: «أليس تشهد أن لا إله إلا الله، و أن محمداً رسول الله ؟» ثلاث مرات، قال: نعم، قال: «فإن ذلك يأتي على ذلك كله».

الحديث السابع: روى الإمام أحمد عن ضمضم بن جوس اليمامي قال: قال لي أبو هريرة: يا يمامي لا تقولن لرجل: و الله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الجنة أبداً. قلت: يا أبا هريرة، إن هذه كلمة يقولها أحدنا لأخيه وصاحبه إذا غضب قال: لا تقلها، فإني سمعت رسول اللهﷺ يقول: «كان في بني إسرائيل رجلان: كان أحدهما مجتهداً في العبادة، و كان الآخرُ مسرفاً على نفسه، و كانا متآخيين، و كان المجتهد لا يزال يرى الآخر على ذنب فيقول: يا هذا أقصر، فيقول: خلّني و ربي أَبُعثتَ علي رقيباً ؟قال: إلى أن رآه يوماً على ذنب استعظمه، فقال له: ويحك أقصر! قال: خلني و ربي، أبعثتَ علي رقيباً ؟ فقال: و الله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الله الجنة أبداً، قال: فبعَث الله إليهما ملكاً فقبض أرواحهما، و اجتمعا عنده، فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، و قال للآخر: أكنت بي عالماً؟ أكنت على ما في يدي قادراً ؟ اذهبوا به إلى النار: قال: فوالذي نفس أبي القاسم بيده لتكلّم بكلمة أوبقت دنياه و آخرته»، و رواه أبو داود.

و روى البزار عن ابن عمر قال: كنا نُمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا نبيناﷺ يقول: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾** و قال: «أخرتُ شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة».

و هذه الآية التي في سورة **﴿تنزيل﴾** مشروطة بالتوبة، فمن تاب من أي ذنب و إن تكرر منه، تاب الله عليه، ولهذا قال: **﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾** أي بشرط التوبة، و لو لم يكن كذلك لدخل الشرك فيه، و لا يصح ذلك لأنه تعالى قد حكم ههنا بأنه لا يغفر الشرك، و حكم بأنه يغفر ما عداه لمن يشاء، أي: و إن لم يتب صاحبه فهذه أرجى من تلك من هذا الوجه، والله أعلم.

وقوله **﴿و من يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾** كقوله **﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾** و ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم ؟ قال: «أن تجعل لله نداً و هو خلقك» و ذكر تمام الحديث.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٤٩) انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ

(١) و قد أخرجه مسلم في الإيمان.

بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) ﴾

٤٩- قال الحسن و قتادة: نزلت هذه الآية و هي قوله: ﴿**ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم**﴾ في اليهود و النصارى حين قالوا: نحن أبناء الله و أحباؤه، و قال ابن زيد: نزلت في قولهم: ﴿**نحن أبناء الله و أحباؤه**﴾، و في قولهم ﴿**لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى**﴾، و قال مجاهد: كانوا يقدّمون الصبيان أمامهم في الدعاء والصلاة يؤمونهم و يزعمون أنهم لا ذنب لهم، و كذا قال عكرمة و أبو مالك، و روى ابن جرير، و قال الضحاك: قالوا: ليس لنا ذنوب كما ليس لأبنائنا ذنوب، فأنزل الله ﴿**ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم**﴾ فيهم، و قيل: نزلت في ذم التمادح و التزكية، و قد جاء في الحديث الصحيح عند مسلم عن المقداد بن الأسود قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نَحْثُو في وجوه المداحين التراب، و في الحديث الآخر المخرج في الصحيحين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يثني على رجل، فقال: «ويحك قَطعْتَ عُنُقَ صاحبك»، ثم قال: «إن كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة، فليقل أحسبه كذا، و لا يزكي على الله أحداً».

و روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب: من قال: أنا مؤمن فهو كافر، و من قال هو عالم فهو جاهل، و من قال هو في الجنة فهو في النار. و رواه ابن مردويه. و روى الإمام أحمد عن معبد الجهني قال: كان معاوية قلّما يحدث عن النبي ﷺ، قال: و كان قلما يكاد أن يدع يوم الجمعة هؤلاء الكلمات أن يحدث بهن عن النبي ﷺ يقول: «مَنْ يُرِدِ الله به خيراً يفقهه في الدين، و إن هذا المال حُلْوٌ خَضِرٌ، فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه، و إياكم و التمادح فإنه الذبح» و روى ابن ماجه منه «إياكم و التمادح فإنه الذبح». و سيأتي الكلام على ذلك مطولاً عند قوله تعالى ﴿**فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى**﴾ و لهذا قال تعالى: ﴿**بل الله يزكي من يشاء**﴾ أي المرجع في ذلك إلى الله عز وجل لأنه أعلم بحقائق الأمور و غوامضها، ثم قال تعالى: ﴿**و لا يظلمون فتيلاً**﴾ أي و لا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل، قال ابن عباس و مجاهد و عكرمة و عطاء و الحسن و قتادة و غير واحد من السلف: هو ما يكون في شق النواة. و عن ابن عباس أيضاً: هو ما فتلت بين أصابعك، و كلا القولين متقارب.

٥٠- و قوله: ﴿**انظر كيف يفترون على الله الكذب**﴾ أي في تزكيتهم أنفسهم و دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقولهم ﴿**لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى**﴾، و قولهم: ﴿**لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات**﴾ و اتكالهم على أعمال آبائهم الصالحة، و قد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزي عن الأبناء شيئاً في قوله: ﴿**تلك أمة قد خلت لها ما كسبت و لكم ما كسبتم**﴾ الآية، ثم قال: ﴿**و كفى به إثماً مبيناً**﴾ أي و كفى بصنيعهم هذا كذباً و افتراء ظاهراً.

٥١- و قوله: ﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت و الطاغوت**﴾ أما الجبت، فروى محمد بن إسحاق عن عمر بن الخطاب أنه قال: الجبت السحر، و الطاغوت الشيطان. و هكذا روي عن ابن عباس وأبي العالية و مجاهد و عطاء و عكرمة و سعيد بن جبير و الشعبي و الحسن و الضحاك و السدي. و عن ابن عباس و أبي العالية و مجاهد و عطاء و عكرمة و سعيد بن جبي و الشعبي و الحسن و عطية: الجبت الشيطان، و زاد ابن عباس: بالحبشية و عن ابن عباس أيضاً: الجبت حيي بن أخطب، و عن مجاهد: الجبت كعب بن الأشرف، و قال العلامة

الجوهري في كتابه الصحاح: الجبت كلمة تقع على الصنم و الكاهن و الساحر و نحو ذلك. و قد تقدم الكلام على الطاغوت في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا. و روى ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله أنه سئل عن الطواغيت، فقال: هم كهان تنزل عليهم الشياطين. و قال مجاهد: الطاغوت الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه، و هو صاحب أمرهم. و قال الإمام مالك: الطاغوت هو كل ما يعبد من دون الله عز وجل. و قوله: **﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾** أي يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم، و قلة دينهم، و كفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم.

و روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش: ألا ترى هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خيرٌ منا و نحن أهل الحجيج و أهل السدانة، و أهل السقايه ؟ قال: أنتم خير، قال فنزلت **﴿إن شانئك هو الأبتر﴾** و نزل **﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب - إلى - نصيراً﴾**، و هذا لعنٌ لهم و إخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة، لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين، و إنما قالوا لهم ذلك، ليستميلوهم إلى نصرتهم، و قد أجابوهم و جاءوا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبي ﷺ و أصحابه حول المدينة الخندق، فكفى الله شرهم **﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً و كفى الله المؤمنين القتال و كان الله قوياً عزيزاً﴾**.

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً (٥٥) ﴾

٥٣- يقول تعالى: أم لهم نصيب من الملك، و هذا استفهام إنكاري، أي ليس لهم نصيب من الملك، ثم وصفهم بالبخل، فقال: **﴿فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً﴾**، أي لأنهم لو كان لهم نصيب في الملك و التصرف لما أعطوا أحداً من الناس و لا سيما محمداً ﷺ شيئاً، و لا ما يملأ النقير، و هو النقطة التي في النواة في قول ابن عباس والأكثرين.

و هذه الآية كقوله تعالى: **﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق﴾** أي خوف أن يذهب ما بأيديكم مع أنه لا يتصور نفاده، و إنما هو من بخلكم و شحكم، و لهذا قال تعالى: **﴿و كان الإنسان قتوراً﴾** أي بخيلاً.

٥٤- ثم قال: **﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾** يعني بذلك حسدهم النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، و منعهم من تصديقهم إياه حسدهم له، لكونه من العرب و ليس من بني إسرائيل. قال الله تعالى: **﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب و الحكمة و آتيناهم ملكاً عظيماً﴾** أي فقد جعلنا في أسباط بني إسرائيل الذين هم من ذرية إبراهيم النبوة و أنزلنا عليهم الكتب و حكموا فيهم بالسنن، و هي الحكمة، و جعلنا منهم الملوك.

٥٥- و مع هذا **﴿فمنهم من آمن به﴾**، أي بهذا الإيتاء و هذا الإنعام، **﴿و منهم من صد عنه﴾** أي كفر به و أعرض عنه و سعى في صدّ الناس عنه، و هو منهم و من جنسهم أي من بني إسرائيل. فقد اختلفوا عليهم، فكيف بك يا محمد و لست من بني إسرائيل ؟ و قال مجاهد: **﴿فمنهم من آمن به﴾** أي بمحمد ﷺ، **﴿و منهم من صد عنه﴾**، فالكفرة منهم أشد تكذيباً لك، و أبعد عما جئتهم به من الهدى، و الحق المبين، و لهذا قال متوعداً لهم: **﴿و كفى**

بجهنم سعيراً﴾ أي و كفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم و عنادهم ، و مخالفتهم كتب الله و رسله .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧) ﴾

٥٦- يخبر تعالى عما يُعاقِبُ به في نار جهنم من كفر بآياته و صد عن رسله ، فقال : ﴿إن الذين كفروا بآياتنا﴾ الآية ، أي ندخلهم ناراً دخولاً يحيط بجميع أجرامهم و أجزائهم ، ثم أخبر عن دوام عقوبتهم و نكالهم ، فقال : ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾ قال ابن عمر : إذا احترقت جلودهم بُدِّلوا جلوداً غيرها بيضاء أمثال القراطيس ، رواه ابن أبي حاتم . و روى ابن أبي حاتم عن الحسن قوله : ﴿كلما نضجت جلودهم﴾ قال : تنضجهم في اليوم سبعين ألف مرة ، و عنه قال : كلما أنضجتهم فأكلت لحومهم قيل لهم عودوا فعادوا .

و قد ورد في الحديث ما هو أبلغ من هذا ، روى الإمام أحمد عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : «يُعظَّم أهلُ النار في النار حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام ، و إن غلظ جلده سبعون ذرعاً ، وإن ضرسه مثل أُحُد» .

٥٧- و قوله : ﴿و الذين آمنوا و عملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾ هذا إخبار عن مآل السعداء في جنات عدن التي تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها ، و محالها و أرجائها حيث شاءوا و أين أرادوا ، و هم خالدون فيها أبداً ، لا يحولون و لا يزولون و لا يبغون عنها حولاً . و قوله : ﴿لهم فيها أزواج مطهرة﴾ أي من الحيض و النفاس و الأذى و الأخلاق الرذيلة ، و الصفات الناقصة ، كما قال ابن عباس : مطهرة من الأقذار و الأذى . و كذا قال عطاء و الحسن و الضحاك و النخعي و أبو صالح و عطية و السدي .

و قال مجاهد : مطهرة من البول و الحيض و النخام و البزاق و المني و الولد . و قال قتادة : مطهرة من الأذى والمآثم ، و لا حيض و لا كلف . و قوله : ﴿و ندخلهم ظلاً ظليلاً﴾ أي ظلاً عميقاً كثيراً غزيراً أنيقاً . روى ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها : شجرة الخلد»[1] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) ﴾

٥٨- يخبر تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها . و في حديث الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال : «أدِّ الأمانة إلى مَن ائتمنكَ ، و لا تخن من خانك» رواه الإمام أحمد و أهل السنن ، و هذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على عباده من الصلوات و الزكوات و الصيام و الكفارات والنذور و غير ذلك ، مما هو مؤتمن عليه و لا يطلع عليه العباد ، و من حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به بعضهم على بعض من غير اطلاع بينة على ذلك ، فأمر الله عز وجل بأدائها ، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا

(١) هو في الصحيحين بنحوه ، دون قوله : شجرة الخلد .

أُخذ منه ذلك يوم القيامة، كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لتُؤدُّنَّ الحقوق إلى أهلها حتى يقتص للشاة الجمّاء من القرناء».

و روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال: إن الشهادة تكفر كل ذنب إلا الأمانة، يؤتى بالرجل يوم القيامة، و إن كان قتل في سبيل الله، فيقال: أدِّ أمانتك، فيقول فأنى أؤديها و قد ذهبت الدنيا؟ فتمثل له الأمانة في قعر جهنم فيهوى إليها فيحملها على عاتقه، قال: فتنزل عن عاتقه فيهوي على أثرها أبد الآبدين. قال زاذان: فأتيت البراء فحدثته، فقال: صدق أخي: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾. و قال محمد بن الحنفية: هي مُسْجَلة للبر و الفاجر، و قال أبو العالية: الأمانة ما أُمروا به و نُهوا عنه.

و روى ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب قال: من الأمانة أن المرأة ائتمنت على فرجها. و قال الربيع بن أنس: هي من الأمانات فيما بينك و بين الناس. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾، قال: قال يدخل فيه وعظ السلطان النساء يوم العيد، وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة القرشي العبدري حاجب الكعبة المعظمة، و هو ابن عم شيبة بن عثمان بن أبي طلحة الذي صارت الحجابة في نسله إلى اليوم، أسلم عثمان هذا في الهدنة بين صلح الحديبية، و فتح مكة، هو و خالد بن الوليد و عمرو بن العاص، و أما عمه عثمان بن أبي طلحة، فكان معه لواء المشركين يوم أحد، و قتل يومئذ كافراً، و سبب نزولها فيه لمّا أخذ منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة يوم الفتح ثم رده عليه. و روى محمد بن إسحاق في غزوة الفتح عن صفية بنت شيبة: أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة و اطمأن الناس خرج حتى جاء البيت، فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففُتِحت له، فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان، فكسرها بيده ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة و قد استكفّ الناس في المسجد، قال ابن إسحاق: فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة، فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، و نصر عبده، و هزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت و سقاية الحاج» و ذكر بقية الحديث في خطبة النبي ﷺ يومئذ إلى أن قال: ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب و مفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة؟» فدعي له، فقال له: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم وفاء و بر».

و هذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت في ذلك، و سواء كانت نزلت في ذلك أو لا، فحكمها عام، و لهذا قال ابن عباس و محمد بن الحنفية: هي للبر و الفاجر، أي هي أمر لكل أحد، وقوله: ﴿و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ أمر منه تعالى بالحكم و العدل بين الناس، و لهذا قال محمد ابن كعب و زيد بن أسلم و شهر بن حوشب: إن هذه الآية إنما نزلت في الأمراء، يعني الحكام بين الناس، و في الحديث «إن الله مع الحاكم ما لم يَجُر، فإذا جار و كله الله إلى نفسه»[1] و في الأثر «عدل يوم كعبادة أربعين سنة»، و قوله: ﴿إن الله نعما يعظكم به﴾ أي يأمركم به من أداء الأمانات و الحكم بالعدل بين الناس، و غير ذلك من أوامره و شرائعه الكاملة العظيمة الشاملة. و قوله تعالى: ﴿إن الله كان سميعاً بصيراً﴾ أي سميعاً لأقوالكم، وبصيراً بأفعالكم، كما روى ابن أبي

(١) رواه ابن ماجه و غيره بلفظ: «إن الله مع القاضي . . . .» و هو حديث حسن.

حاتم عن عقبة بن عامر قال: رأيت رسول الله ﷺ و هو يُقرئ هذه الآية ﴿سميعاً بصيراً﴾ يقول: بكل شيء بصير، و قد روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة يقرأ هذه الآية ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ إلى قوله: ﴿إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً﴾ و يضع إبهامه على أذنه، و التي تليها على عينه، ويقول: هكذا سمعت رسول الله يقرؤها و يضع إصبعيه. قال أبو زكريا: و صفة لنا المقرئ، و وضع أبو زكريا إبهامه اليمني على عينه اليمنى، و التي تليها على الأذن اليمنى، و أرانا فقال: هكذا و هكذا. رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه، و الحاكم في مستدركه، و ابن مردويه في تفسيره.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)﴾

٥٩- روى البخاري عن ابن عباس ﴿أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولى الأمر منكم﴾ قال: نزلت في عبد الله ابن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية، و هكذا أخرجه بقية الجماعة إلا ابن ماجه. و روى الإمام أحمد عن علي قال: بعث رسول الله ﷺ سرية و استعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا وَجَدَ[1] عليهم في شيء، قال: فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: اجمعوا لي حطباً، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنّها، قال: فهمّ القوم أن يدخلوها قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ، فإنْ أَمَركم أن تدخلوها فادخلوها، قال: فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال لهم: «لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف»، أخرجاه في الصحيحين. و روى أبو داود عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ، قال: «السمع و الطاعة على المرء المسلم فيما أحب و كره، ما لم يؤمر بمعصية فإذا أُمر بمعصية فلا سمع و لا طاعة» أخرجاه. وعن عبادة بن الصامت قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع و الطاعة، في مَنشطنا و في مكرهنا، وعسرنا و يسرنا، وأثرة علينا، و أن لا ننازع الأمر أهله، قال: «إلا أن تروا كفراً بَواحاً عندكم فيه من الله برهان»، أخرجاه.

و في الحديث الآخر عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «اسمعوا و أطيعوا، و إن أُمّر عليكم عبدٌ حبشي كأن رأسه زبيبة»، رواه البخاري. و عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي أن أسمع و أطيع، و إن كان عبداً حبشياً مجدّع الأطراف، رواه مسلم. و عن أم الحصين أنها سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع يقول: «ولو استعمل عليكم عبدٌ يقودكم بكتاب الله، اسمعوا له و أطيعوا» رواه مسلم، و في لفظ له «عبداً حبشياً مجدوعاً». و عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تَسوسهم الأنبياء كلما هلك نبيٌ خلفه نبي، و إنه لا نبيَّ بعدي و سيكون خلفاء فيكثرون» قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: «أوفوا ببيعة الأول فالأول، و أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم»، أخرجاه.

و عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر، فإنه ليس أحدٌ يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية»، أخرجاه. و عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

(١) أي: غضبَ عليهم.

«مَنْ خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حُجَّةَ له، و من مات و ليس في عنقه بيعة مات ميتةً جاهلية» رواه مسلم.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿و أولي الأمر منكم﴾ يعني أهل الفقه و الدين، و كذا قال مجاهد و عطاء و الحسن البصري و أبو العالية: ﴿و أولي الأمر منكم﴾ يعني العلماء، و الظاهر و الله أعلم أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء و العلماء كما تقدم. و قد قال تعالى: ﴿لو لا ينهاهم الربانيون و الأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت﴾ و قال تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ و في الحديث الصحيح المتفق عليه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، و من عصاني فقد عصى الله، و من أطاع أميري فقد أطاعني، و من عصى أميري فقد عصاني»، فهذه أوامر بطاعة العلماء و الأمراء، ولهذا قال تعالى: ﴿أطيعوا الله﴾ أي: اتبعوا كتابه ﴿و أطيعوا الرسول﴾ أي: خذوا بسنته ﴿و أولي الأمر منكم﴾ أي فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله، كما تقدم في الحديث الصحيح «إنما الطاعة في المعروف».

و قوله: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله و الرسول﴾ قال مجاهد و غير واحد من السلف: أي إلى كتاب الله و سنة رسوله. و هذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين و فروعه، أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب و السنة كما قال تعالى: ﴿و ما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾ فما حكم به الكتاب و السنة و شهدا له بالصحة فهو الحق، و ماذا بعد الحق إلا الضلال، و لهذا قال تعالى: ﴿إن كنتم تؤمنون بالله و اليوم الآخر﴾ أي ردوا الخصومات و الجهالات إلى كتاب الله و سنة رسوله، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم ﴿إن كنتم تؤمنون بالله و اليوم الآخر﴾ فدل على أن من لم يتحاكموا في محل النزاع إلى الكتاب والسنة و لا يرجع إليهما في ذلك، فليس مؤمناً بالله و لا باليوم الآخر، و قوله: ﴿ذلك خير﴾ أي التحاكم إلى كتاب الله و سنة رسوله، و الرجوع إليهما في فصل النزاع خير ﴿و أحسن تأويلاً﴾ أي و أحسن عاقبة و مآلاً كما قاله السدي و غير واحد. و قال مجاهد: و أحسن جزاء، و هو قريب.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً (٦٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً (٦٣) ﴾

٦٠- هذا إنكار من الله عز وجل على ما يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله و على الأنبياء الأقدمين، و هو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله و سنة رسوله، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها في رجل من الأنصار و رجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني و بينك محمد، و ذاك يقول: بيني و بينك كعب بن الأشرف، و قيل: في جماعة من المنافقين ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن

يتحاكموا إلى حكّام الجاهلية، و قيل غير ذلك، و الآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامةٌ لمن عَدَل عن الكتاب والسنة. و تحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، و هو المراد بالطاغوت ههنا، و لهذا قال: **﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾** إلى آخرها.

٦١- و قوله: **﴿و يصدون عنك صدوداً﴾** أي يعرضون عنك إعراضاً كالمستكبرين عن ذلك، كما قال تعالى عن المشركين: **﴿و إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾** و هؤلاء بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم: **﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله و رسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا و أطعنا﴾** الآية.

٦٢- ثم قال تعالى في ذم المنافقين: **﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾** أي فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائبَ تَطْرقهم بسبب ذنوبهم، و احتاجوا إليك في ذلك **﴿ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً و توفيقاً﴾** أي يعتذرون إليك و يحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك، و تحاكمنا إلى أعدائك إلا الإحسان و التوفيق، أي المداراة و المصانعة لا اعتقاداً منا صحة تلك الحكومة، كما أخبرنا تعالى عنهم في قوله: **﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى - إلى قوله - فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾**. و قد روى الطبراني عن ابن عباس قال: كان أبو برزة الأسلمي كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافر إليه ناسٌ من المسلمين، فأنزل الله عز وجل **﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنفسهم أنهم آمنوا بما أنزل إليك و ما أنزل من قبلك - إلى قوله - إن أردنا إلا إحساناً و توفيقاً﴾**.

٦٣- ثم قال تعالى: **﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾** هذا الضرب من الناس هم المنافقون، و الله يعلم ما في قلوبهم و سيجزيهم على ذلك، فإنه لا تخفى عليه خافية، فاكتف به يا محمد فيهم، فإنه عالم بظواهرهم و بواطنهم. و لهذا قال له: **﴿فأعرض عنهم﴾** أي لا تعنفهم على ما في قلوبهم **﴿و عظهم﴾** أي و انههم عما في قلوبهم من النفاق و سرائر الشر، **﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾** أي و انصحهم فيما بينك و بينهم بكلام بليغ رادع لهم.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾

٦٤- يقول تعالى: **﴿و ما أرسلنا من رسول إلا ليطاع﴾** أي فرضت طاعته على من أرسله إليهم. و قوله: **﴿بإذن الله﴾** قال مجاهد: أي لا يطيع أحد إلا بإذني، يعني لا يطيعهم إلا مَن وفّقته لذلك، كقوله: **﴿و لقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه﴾** أي عن أمره و قدره و مشيئته و تسليطه إياكم عليهم. و قوله: **﴿و لو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾** الآية، يرشد تعالى العصاة و المذنبين إذا وقع منهم الخطأ و العصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده و يسألوه أن يستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم و رحمهم و غفر لهم، ولهذا قال: **﴿لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾**.

٦٥- و قوله: **﴿فلا و ربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾** يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكّم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكَم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً

وظاهراً، و لهذا قال: ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت و يسلموا تسليماً﴾ أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به، و ينقادون له في الظاهر و الباطن، فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة و لا مدافعة و لا منازعة. روى البخاري عن عروة قال: خاصم الزبير رجلاً في شُريج من الحَرَّة، فقال النبيﷺ: «اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك» فقال الأنصاري: يا رسول الله أنْ كان ابن عمتك، فتلوَّنَ وجه رسول اللهﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك». و استوعى النبيﷺ للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري، و كان أشار عليهماﷺ بأمر لهما فيه سعة، قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك ﴿فلا و ربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ الآية.

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠) ﴾

٦٦- يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أُمروا بما هم مرتكبون من المناهي لما فعلوه، لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، و هذا من علمه تبارك و تعالى بما لم يكن، أو كان فكيف كان يكون، و لهذا قال تعالى: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم﴾ الآية، قال تعالى: ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به﴾ أي و لو أنهم فعلوا ما يؤمرون به و تركوا ما ينهون عنه ﴿لكان خيراً لهم﴾ أي من مخالفة الأمر و ارتكاب النهي ﴿و أشد تثبيتاً﴾، قال السدي: أي و أشد تصديقاً.

٦٧- ﴿و إذاً لآتيناهم من لدنا﴾ أي من عندنا ﴿أجراً عظيماً﴾ يعني الجنة.

٦٨- ﴿و لهديناهم صراطاً مستقيماً﴾ أي في الدنيا و الآخرة.

٦٩-ثم قال تعالى: ﴿و من يطع الله و الرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين والشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقاً﴾. أي من عمل بما أمره الله به و ترك ما نهاه الله عنه و رسوله فإن الله عز وجل، يُسكنه دار كرامته و يجعله مرافقاً للأنبياء، ثم لمن بعدهم في الرتبة و هم الصديقون، ثم الشهداء والصالحون الذين صلحت سرائرهم و علانيتهم، ثم أثنى عليهم تعالى فقال: ﴿و حسن أولئك رفيقاً﴾ و روى البخاري عن عائشة قالت: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «ما من نبي يمرض إلا خُيِّر بين الدنيا و الآخرة» و كان في شكواه التي قُبِضَ فيها أخذته بَحَّةٌﷺ شديدة فسمعته يقول: «مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين» فعلمت أنه خُيِّر، و كذا رواه مسلم. و هذا معنى قولهﷺ في الحديث الآخر «اللهم الرفيق الأعلى» ثلاثاً ثم قضى، عليه أفضل الصلاة و التسليم.

ذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة

روى أبو بكر بن مردويه عن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إلي من نفسي، و أحب إلي من أهلي، و أحب إلي من ولدي، و إني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، و إذا ذكرت موتي و موتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، و إن دخلت الجنة خشيت ألا أراك، فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت عليه ﴿و من يطع الله و الرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقاً﴾. و هكذا رواه الحافظ المقدسي في كتابه في صفة الجنة ثم قال: لا أرى بإسناده بأساً، و الله أعلم.

و ثبت في صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال: كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي «سل» فقلت: يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: «أو غير ذلك؟» قلت: هو ذاك. قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود».

و أعظم من هذا كله بشارة ما ثبت في الصحيح و المسانيد و غيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم و لما يلحق بهم، فقال: «المرءُ مع من أحبَّ»، قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث. و في رواية عن أنس أنه قال: إني لأحب رسول الله ﷺ، وأحب أبا بكر و عمر رضي الله عنهما، و أرجو أن الله يبعثني معهم و إن لم أعمل كعملهم، و روى الإمام مالك عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تراءون الكوكب الدُّرِّي الغابر في الأفق المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى، و الذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا بالله و صدقوا المراسلين»، أخرجاه في الصحيحين. و لهذا قال تعالى: ﴿ذلك الفضل من الله﴾ أي من عند الله برحمته، و هو الذي أهّلهم لذلك لا بأعمالهم ﴿و كفى بالله عليماً﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية و التوفيق.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾

٧١- يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم، و هذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد، وتكثير العدد بالنفير في سبيل الله ﴿ثبات﴾ أي جماعة بعد جماعة، و فرقة بعد فرقة، و سرية بعد سرية، والثبات جمع ثبة، و قد تجمع الثبة على ثبين، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: قوله: ﴿فانفروا ثبات﴾ أي عصباً، يعني سرايا متفرقين ﴿أو انفروا جميعاً﴾ يعني كلكم، و كذا روي عن مجاهد و عكرمة و السدي

وقتادة و الضحاك و عطاء الخراساني و مقاتل بن حيان و خصيف الجزري.

٧٢- و قوله تعالى: **﴿و إن منكم لمن ليبطئن﴾** قال مجاهد و غير واحد: نزلت في المنافقين، و قال مقاتل بن حيان: **﴿ليبطئن﴾** أي ليتخلفن عن الجهاد، و يحتمل أن يكون المراد أنه يتبطأ هو في نفسه، و يبطئ غيره عن الجهاد كما كان عبد الله بن أبي بن سلول - قبحه الله - يفعل، يتأخر عن الجهاد و يثبّط الناس عن الخروج فيه. وهذا قول ابن جريج و ابن جرير، و لهذا قال تعالى إخباراً عن المنافق أنه يقول: إذا تأخر عن الجهاد **﴿فإن أصابتكم مصيبة﴾** أي قتلٌ و شهادة و غلب العدو لكم، لما لله في ذلك من الحكمة **﴿قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً﴾** أي إذ لم أحضر معهم وقعة القتال يعدّ ذلك من نعم الله عليه، و لم يدر ما فاته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قتل.

٧٣- **﴿ولئن أصابكم فضل من الله﴾** أي نصر و ظفر و غنيمة **﴿ليقولن كأن لم تكن بينكم و بينه مودة﴾** أي كأنه ليس من أهل دينكم **﴿يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً﴾** أي بأن يُضرب لي بسهم معهم فأحصل عليه. وهو أكبر قصده، و غاية مراده.

٧٤- ثم قال تعالى: **﴿فليقاتل﴾** أي المؤمن النافر **﴿في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾** أي يبيعون دينهم بعرض قليل من الدنيا، و ما ذلك إلا لكفرهم و عدم إيمانهم، ثم قال تعالى: **﴿و من يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نوتيه أجراً عظيماً﴾** أي كل من قاتل في سبيل الله سواء قُتل أو غُلب فله عند الله مثوبة عظيمة و أجر جزيل، كما ثبت في الصحيحين، و تكفل الله للمجاهدين في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة.

﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) ﴾

٧٥- يحرض تعالى عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله، و على السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال و النساء و الصبيان المتبرمين من المقام بها، و لهذا قال تعالى: **﴿الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية﴾** يعني مكة، كقوله تعالى: **﴿و كأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك﴾**، ثم وصفها بقوله: **﴿الظالم أهلها و اجعل لنا من لدنك ولياً و اجعل لنا من لدنك نصيراً﴾** أي سخر لنا من عندك ولياً و ناصراً، روى البخاري عن ابن عباس قال: كنت أنا و أمي من المستضعفين. و روى أيضاً أن ابن عباس تلا **﴿إلا المستضعفين من الرجال و النساء و الولدان﴾** قال: كنت أنا و أمي ممن عذر الله عزو جل.

٧٦- ثم قال تعالى: **﴿ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله و الذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ﴾** أي المؤمنون يقاتلون في طاعة الله و رضوانه، و الكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان، ثم هيّج تعالى المؤمنين على قتال أعدائه بقوله: **﴿فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾**

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾

٧٧-كان المؤمنون في ابتداء الإسلام و هم بمكة مأمورين بالصلاة و الزكاة، و إن لم تكن ذات النُّصُب[1]، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، و كانوا مأمورين بالصفح و العفو عن المشركين و الصبر إلى حين، و كانوا يَتحرّقون و يودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، و لم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدوهم، و منها: كونهم كانوا في بلدهم، و هو بلد حرام، أشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء كما يقال، فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة لما صارت لهم دار و منعة و أنصار، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودُّونه، جزع بعضهم منه، و خافوا مواجهة الناس خوفاً شديداً **﴿و قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لو لا أخرتنا إلى أجل قريب﴾** أي لو لا أَخَّرت فرضه إلى مدة أخرى، فإن فيه سفك الدماء، و يتم الأولاد، و تأيُّم النساء، و هذه الآية كقوله تعالى: **﴿و يقول الذين آمنوا لو لا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة و ذكر فيها القتال﴾** الآيات، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن عبد الرحمن بن عوف و أصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا نبي الله، كنا في عزة و نحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، قال: «إني أُمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم»، فلما حوله الله إلى المدينة، أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله **﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾** الآية، و رواه النسائي و الحاكم و ابن مردويه.

﴿لو لا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ و هو الموت. قال الله تعالى: **﴿قل متاع الدنيا قليل و الآخرة خير لمن اتقى﴾**. و قال مجاهد: إن هذه الآية نزلت في اليهود، رواه ابن جرير، و قوله: **﴿قل متاع الدنيا قليل و الآخرة خير لمن اتقى﴾** أي آخرة المتقي خير من دنياه. **﴿و لا تظلمون فتيلاً﴾** أي من أعمالكم بل توفَّونها أتم الجزاء، وهذه تسليةٌ لهم عن الدنيا، و ترغيب لهم في الآخرة، و تحريض لهم على الجهاد.

٧٨- و قوله تعالى: **﴿أينما تكونوا يدرككم الموت و لو كنتم في بروج مشيدة﴾** أي أنتم صائرون إلى الموت لا محالة و لا ينجو منه أحد منكم، كما قال تعالى: **﴿كل من عليها فان﴾** الآية، و قال تعالى: **﴿كل نفس ذائقة الموت﴾**، و قال تعالى: **﴿و ما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾** و المقصود أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة، ولا ينجيه من ذلك شيء سواء جاهد أو لم يجاهد، فإن له أجلاً محتوماً، و مقاماً مقسوماً، كما قال خالد بن الوليد حين جاء الموت على فراشه: لقد شهدتُ كذا و كذا موقفاً، و ما من عضو من أعضائي إلا و فيه جرح من

[1] جمع نصاب، و هو القدر الذي تجب فيه الزكاة.

طعنة أو رمية، و ها أنا أموت على فراشي، فلا نامت أعين الجبناء، و قوله: ﴿و لو كنتم في بروج مشيدة﴾ أي حصينة منيعة عالية رفيعة، أي لا يغني حذرٌ و تحصن من الموت.

ثم قيل: المشيَّدة هي المَشِيدة كما قال: ﴿و قصر مشيد﴾ و قيل: بل بينهما فرق، و هو أن المشيدة بالتشديد هي المطولة، و بالتخفيف هي المزينة بالشيد و هو الجص.

و قوله: ﴿و إن تصبهم حسنة﴾ أي خصب و رزق من ثمار و زروع و أولاد و نحو ذلك، هذا معنى قول ابن عباس و أبي العالية و السدي ﴿يقولوا هذه من عند الله و إن تصبهم سيئة﴾ أي قحط و جدب و نقص في الثمار و الزروع أو موت أولاد أو إنتاج أو غير ذلك، كما يقوله أبو العالية و السدي ﴿يقولوا هذه من عندك﴾ أي من قبلك و بسبب اتباعنا لك و اقتدائنا بدينك، كما قال تعالى عن قوم فرعون ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى و من معه﴾ و كما قال تعالى: ﴿و من الناس من يعبد الله على حرف﴾ الآية، وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا في الإسلام ظاهراً و هم كارهون له في نفس الأمر، و لهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتباعهم النبيﷺ.

﴿قل كل من عند الله﴾ أي الجميع بقضاء الله و قدره، و هو نافذ في البر و الفاجر و المؤمن و الكافر. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿قل كل من عند الله﴾ أي الحسنة و السيئة. و كذا قال الحسن البصري. ثم قال تعالى منكراً على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك و ريب، و قلة فهم و علم، و كثرة جهل وظلم ﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا﴾.

٧٩- ثم قال تعالى مخاطباً لرسولهﷺ و المراد جنس الإنسان ليحصل الجواب ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله﴾ أي من فضل الله و منه و لطفه و رحمته ﴿و ما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ أي فمن قبلك، و من عملك أنت، كما قال تعالى: ﴿و ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير﴾ قال السدي و الحسن البصري و ابن جريج و ابن زيد ﴿فمن نفسك﴾ أي بذنبك. و قال قتادة في الآية ﴿فمن نفسك﴾ عقوبة لك يا ابن آدم بذنبك. و في الصحيح «و الذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن همٌّ و لا حزن، و لا نصب، حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّرَ الله عنه بها من خطاياه» و قال أبو صالح ﴿و ما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ أي بذنبك و أنا الذي قدرتها عليك، رواه ابن جرير، و روى ابن أبي حاتم: عن مطرف بن عبد الله قال: ما تريدون من القدر أما تكفيكم الآية التي في سورة النساء ﴿و إن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله و إن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾؟ أي من نفسك و الله ما وكلوا إلى القدر و قد أمروا و إليه يصيرون، و هذا كلام متين قوي في الرد على القدرية و الجبرية أيضاً. و لبسطه موضع آخر.

و قوله تعالى: ﴿و أرسلناك للناس رسولا﴾ أي تبلغهم شرائع الله و ما يحبه الله و يرضاه، و ما يكرهه و يأباه ﴿و كفى بالله شهيدا﴾ أي على أنه أرسلك، و هو شهيد أيضاً بينك و بينهم، و عالم بما تبلغهم إياه، و بما يردون عليك من الحق كفراً و عناداً.

﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى

اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً ﴿٨١﴾ ﴾

٨٠- يخبر تعالى عن عبده و رسوله محمد ﷺ بأن من أطاعه فقد أطاع الله، و من عصاه فقد عصى الله، و ما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى. روى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله و من عصاني فقد عصى الله، و من أطاع الأمير فقد أطاعني، و من عصى الأمير فقد عصاني» و هذا الحديث ثابت في الصحيحين. و قوله: ﴿و من تولى فما أرسلناك حفيظاً﴾ أي ما عليك منه، إن عليك إلا البلاغ فمن اتبعك سعد و نجا، و كان لك من الأجر نظير ما حصل له، و من تولى عنك خاب و خسر و ليس عليك من أمره شيء، كما جاء في الحديث «من يطع الله و رسوله فقد رشد، و من يعص الله و رسوله فإنه لا يضر إلا نفسه».

٨١- و قوله: ﴿و يقولون طاعة﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة و الطاعة ﴿فإذا برزوا من عندك﴾ أي خرجوا و تواروا عنك ﴿بيت طائفة منهم غير الذي تقول﴾ أي استسرُّوا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه لك، فقال تعالى: ﴿و الله يكتب ما يبيتون﴾ أي يَعلَمه و يكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين الذين هم موكلون بالعباد، و المعنى في هذا التهديد أنه تعالى يخبر بأنه عالم بما يضمرونه و يسرونه فيما بينهم، و ما يتفقون عليه ليلاً من مخالفة الرسول ﷺ و عصيانه، و إن كانوا قد أظهروا له الطاعة و الموافقة، و سيجزيهم على ذلك، كما قال تعالى: ﴿و يقولون آمنا بالله و بالرسول و أطعنا﴾ الآية، و قوله: ﴿فأعرض عنهم﴾ أي اصفح عنهم و احلم عليهم و لا تؤاخذهم، و لا تكشف أمورهم للناس، و لا تخف منهم أيضاً ﴿و توكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾ أي كفى به ولياً و ناصراً و معيناً، لمن توكل عليه و أناب إليه.

﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٣﴾ ﴾

٨٢- يقول تعالى آمراً لهم بتدبر القرآن و ناهياً لهم عن الإعراض عنه، و عن تفهم معانيه المحكمة و ألفاظه البليغة، و مخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه و لا اضطراب، و لا يتعارض لأنه تنزيل من حكيم حميد، فهو حق من حق، و لهذا قال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾، ثم قال: ﴿و لو كان من عند غير الله﴾ أي لو كان مفتعلاً مختلقاً، كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين و المنافقين في بواطنهم لوجدوا فيه اختلافاً، أي اضطراباً و تضاداً كثيراً، أي و هذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله، كما قال تعالى مخبراً عن الراسخين في العلم حيث قالوا ﴿آمنا به كل من عند ربنا﴾ أي محكمه و متشابهه حق، فلهذا ردّوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، و الذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغَوُوا، و لهذا مدح تعالى الراسخين و ذم الزائغين.

روى الإمام أحمد عن ابن عمرو قال: لقد جلست أنا و أخي مجلساً ما أحب أن لي به حُمْر النعم، أقبلت أنا و أخي و إذا مشيخة من أصحاب رسول الله ﷺ على باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا حجرة إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مغضباً حتى احمر وجهه

يرميهم بالتراب و يقول: «مهلاً يا قوم بهذا أُهلكت الأمم من قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، و ضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً، إنما نزل يُصدِّق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، و ما جهلتم منه فردوه إلى عالمه» و رواه ابن ماجه بنحوه.

و روى أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: هَجَّرت إلى رسول الله ﷺ يوماً، فإنا لجلوس إذ اختلف اثنان في آية، فارتفعت أصواتهما، فقال: «إنما هلكت الأمم قبلكم باختلافهم في الكتاب». و رواه مسلم و النسائي.

٨٣- و قوله: **﴿و إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾** إنكار على مَنْ يُبادر إلى الأمور قبل تحققها فيخبر بها و يفشيها و ينشرها، و قد لا يكون لها صحة. و قد روى مسلم في مقدمة صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كفى بالمرء كذباً أن يُحدِّث بكل ما سمع» و كذا رواه أبو داود. و في الصحيحين عن المغيرة بن شعبة، أن رسول الله ﷺ نهى عن قيل و قال، أي الذي يُكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبُّت و لا تدبر و لا تبين. و في سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «بئس مطية الرجل زعموا». و في الصحيح «من حدَّث بحديث و هو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين».

و لنذكر ههنا حديث عمر بن الخطاب المتفق على صحته حين بلغه أن رسول الله ﷺ طلَّق نساءه، فجاء من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك، فلم يصبر حتى استأذن على النبي ﷺ فاستفهمه أطلقت نساءك فقال: «لا» فقلت: الله أكبر و ذكر الحديث بطوله. و عند مسلم فقلت: أطلقتهن؟ فقال: «لا» فقُمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي، لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه، و نزلت هذه الآية **﴿و إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به و لو ردوه إلى الرسول و إلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾** فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر، و معنى يستنبطونه أي يستخرجونه من معادنه، يقال: استنبط الرجل العين إذا حفرها و استخرجها من قعورها. و قوله: **﴿لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾**، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني المؤمنين. و روى عبد الرزاق عن قتادة: **﴿لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾** يعني كلكم.

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً (٨٤) مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا (٨٥) وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) ﴾

٨٤- يأمر تعالى عبده و رسوله محمداً بأن يباشر القتال بنفسه، و من نكل عنه فلا عليه منه، و لهذا قال **﴿لا تكلف إلا نفسك﴾** روى ابن أبي حاتم عن أبي إسحاق قال: سألت البراء بن عازب عن الرجل يلقى المائة من العدو فيقاتل فيكون ممن قال الله فيه: **﴿و لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾**؟ قال: قد قال الله تعالى لنبيه: **﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك و حرِّض المؤمنين﴾**. و رواه الإمام أحمد عن أبي إسحاق قال: قلت للبراء: الرجل يحمل على المشركين، أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة؟ قال: إن الله بعث رسوله ﷺ و قال:

﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾ إنما ذلك في النفقة، و كذا رواه ابن مردويه.

و قوله: ﴿و حرض المؤمنين﴾ أي على القتال و رغّبهم فيه و شجعهم عليه، كما قال لهمﷺ يوم بدر و هو يسوي الصفوف: «قوموا إلى جنةٍ عرضها السموات و الأرض» و قد وردت أحاديث كثيرة في الترغيب في ذلك، فمن ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ: «من آمن بالله و رسوله، و أقام الصلاة و آتى الزكاة، و صام رمضان، كان حقاً على الله أن يُدخله الجنة، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي وُلد فيها». قالوا: يارسول الله، أفلا نبشر الناس بذلك؟ فقال: «إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، بين كل درجتين كما بين السماء و الأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة و أعلى الجنة، و فوقه عرش الرحمن و منه تَفجَّر أنهار الجنة».

و عن أبي سعيد الخدري أن رسول اللهﷺ قال: «يا أبا سعيد، مَنْ رَضي بالله رباً، و بالإسلام ديناً، و بمحمدﷺ رسولاً و نبياً وجبت له الجنة»، قال: فعجب لها أبو سعيد، فقال: أَعِدْها علي يا رسول الله، ففعل ثم قال رسول اللهﷺ: «و أخرى يرفع الله العَبد بها مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض». قال: و ما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» رواه مسلم. و قوله: ﴿عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا﴾ أي بتحريضك إياهم على القتال تنبعث هممهم على مُنَاجزة الأعداء، و مدافعتهم عن حوزة الإسلام و أهله، و مقاومتهم و مصابرتهم. و قوله تعالى: ﴿و الله أشد بأساً و أشد تنكيلاً﴾ أي هو قادر عليهم في الدنيا و الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم و لكن ليبلو بعضكم ببعض﴾ الآية.

٨٥- و قوله: ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها﴾ أي من يسعى في أمر فيترتب عليه خير، كان له نصيب من ذلك، ﴿و من يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها﴾ أي يكون عليه وِزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته، كما ثبت في الصحيح عن النبيﷺ أنه قال: «اشْفعوا تُؤجروا، و يقضي الله على لسان نبيه ما شاء»، وقال مجاهد بن جبر: نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض. و قال الحسن البصري: قال الله تعالى: ﴿من يشفع﴾ و لم يقل من يُشَفَّعْ، و قوله: ﴿و كان الله على كل شيء مقيتاً﴾: قال ابن عباس و عطاء وعطية وقتادة و مطر الوارق ﴿مقيتاً﴾ أي حفيظاً. و قال مجاهد: شهيداً، و في رواية عنه: حسيباً. و قال سعيد ابن جبير و السدي و ابن زيد: قديراً.

٨٦- وقوله: ﴿و إذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ أي إذا سَلّمَ عليكم المُسلّم فردوا عليه أفضل مما سلم، أو ردوا عليه بمثل ما سلم، فالزيادة مندوبة، و المماثلة مفروضة.

و روى الإمام أحمد عن عمران بن حصين أن رجلاً جاء إلى رسول اللهﷺ فقال: السلام عليكم يا رسول الله، فرد عليه ثم جلس فقال: «عَشر» ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم يا رسول الله، فرد عليه ثم جلس، فقال: «عشرون»، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم و رحمة الله و بركاته، فرد عليه ثم جلس، فقال: «ثلاثون»، و كذا رواه أبو داود و البزار. و قال قتادة: ﴿فحيوا بأحسن منها﴾ يعني للمسلمين ﴿أو ردوها﴾ يعني لأهل الذمة، و هذا التنزيل فيه نظر كما تقدم في الحديث من أن المراد أن يرد بأحسن مما حيّاه به، فإن بلغ المسلم غاية ما شُرِع في السلام، رد عليه مثل ما قال، فأما أهل الذمة فلا يبدؤون بالسلام و لا يزادون، بل يرد

عليهم بما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم: السام عليكم، فقل: وعليك». وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه».

وعن الحسن البصري قال: السلام تطوع والرد فريضة، وهذا الذي قال هو قول العلماء قاطبة، أن الرد واجب على من سلم عليه، فيأثم إن لم يفعل، لأنه خالف أمر الله في قوله: ﴿فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود بسنده إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[1].

٨٧- وقوله: ﴿الله لا إله إلا هو﴾ إخبار بتوحيده وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات، وتضمن قسماً لقوله: ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ وهذه اللام موطئة للقسم، فقوله ﴿الله لا إله إلا هو﴾ خبر وقسم أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيجازي كل عامل بعمله، وقوله تعالى: ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ أي لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ووعده، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (٩١) ﴾

٨٨- يقول تعالى منكراً على المؤمنين في اختلافهم في المنافقين على قولين: واختلف في سبب ذلك، فروى الإمام أحمد عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ خرج إلى «أحد» فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا، هم المؤمنون، فأنزل الله ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة وإنها تنفي الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد» أخرجاه في الصحيحين، وقد ذكر محمد بن إسحاق في وقعة أحد أن عبد الله بن أبي بن سلول رجع يومئذ بثلث الجيش، رجع بثلثمائة وبقي النبي ﷺ في سبعمائة.

وقوله تعالى: ﴿والله أركسهم بما كسبوا﴾ أي ردهم وأوقعهم في الخطأ، قال ابن عباس ﴿أركسهم﴾ أي أوقعهم، وقال قتادة: أهلكهم، وقال السدي: أضلهم، وقوله: ﴿بما كسبوا﴾ أي بسبب عصيانهم

---

(١) وهو في صحيح مسلم.

ومخالفتهم الرسول و اتباعهم الباطل ﴿أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ أي لا طريق له إلى الهدى، و لا مَخلص له إليه.

٨٩- و قوله: ﴿و ردوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء﴾ أي هم يودون لكم الضلالة لتستووا أنتم و إياهم فيها، و ما ذاك إلا لشدة عداوتهم و بغضهم لكم، و لهذا قال: ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا﴾ أي تركوا الهجرة، قاله العوفي عن ابن عباس، و قال السدي: أظهروا كفرهم ﴿فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم و لا تتخذوا منهم ولياً و لا نصيراً﴾ أي لا توالوهم و لا تستنصروا بهم على أعداء الله ما داموا كذلك.

٩٠- ثم استثنى الله من هؤلاء، فقال: ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم و بينهم ميثاق﴾ أي إلا الذين لجؤوا وتحيزوا إلى قوم بينكم و بينهم مهادنة، أو عقد ذمة فاجعلوا حكمهم كحكمهم، و هذا قول السدي و ابن جرير، و في صحيح البخاري في قصة صلح الحديبية: فكان مَنْ أحب أن يدخل في صلح قريش و عهدهم، ومن أحب أن يدخل في صلح محمد ﷺ و أصحابه و عهدهم، و قد روي عن ابن عباس أنه قال: نسخها قوله: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ الآية.

و قوله: ﴿أو جاؤوكم حصرت صدورهم﴾ الآية، هؤلاء قوم آخرون من المستثنين من الأمر بقتالهم و هم الذين يجيئون إلى المصاف، و هم حَصِرة صدورهم، أي ضيقة صدورهم مبغضين أن يقاتلوكم، و لا يهون عليهم أيضاً أن يقاتلوا قومهم معكم، بل هم لا لكم و لا عليكم ﴿و لو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم﴾ أي من لطفه بكم أن كفهم عنكم ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم و ألقوا إليكم السلم﴾ أي المسالمة ﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ أي فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك، و هؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضروا القتال، و هم كارهون كالعباس و نحوه، و لهذا نهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل العباس و أمر بأسره.

٩١- وقوله: ﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم و يأمنوا قومهم﴾ الآية، هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدمهم، و لكن نية هؤلاء غير نية أولئك، فإن هؤلاء قوم منافقون يظهرون للنبي ﷺ و لأصحابه الإسلام ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم و أموالهم و ذراريهم، و يصانعون الكفار في الباطن فيعبدون معهم ما يعبدون ليأمنوا بذلك عندهم و هم في الباطن مع أولئك، كما قال تعالى: ﴿و إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم﴾ الآية، و قال ههنا ﴿كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها﴾ أي انهمكوا فيها، و قال السدي: الفتنة ههنا: الشرك، وحكى ابن جرير عن مجاهد أنها نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبي ﷺ فيُسلمون رياء ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان، يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا و ههنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا و يصلحوا ولهذا قال تعالى: ﴿فإن لم يعتزلوكم و يلقوا إليكم السلم﴾ المهادنة و الصلح، ﴿و يكفوا أيديهم﴾ أي عن القتال، ﴿فخذوهم﴾ أُسراء، ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ أي أين لقيتموهم، ﴿و أولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ أي بيناً واضحاً.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ

أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢) وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣) ﴾

٩٢- يقول تعالى: ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجهٍ من الوجوه، و كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَحلُّ دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، و أني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، و الثيب الزاني، التارك لدينه المفارق للجماعة» ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث، فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله، و إنما ذلك إلى الإمام أو نائبه، و قوله: ﴿إلا خطأ﴾ قالوا: هو استثناء منقطع.

و قوله: ﴿و من قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة و دية مسلمة إلى أهله﴾ هذان واجبان في قتل الخطأ، أحدهما الكافرة لما ارتكبه من الذنب العظيم و إن كان خطأ، و من شرطها أن تكون عتق رقبة مؤمنة فلا تجزئ الكافرة، و حكى ابن جرير عن ابن عباس و الشعبي و إبراهيم النخعي و الحسن البصري أنهم قالوا: لا يجزئ الصغير حتى يكون قاصداً للإيمان، و اختار ابن جرير أنه إن كان مولوداً بين أبوين مسلمين أجزأ و إلا فلا، والذي عليه الجمهور أنه متى كان مسلماً صح عتقه عن الكفارة سواء كان صغيراً أو كبيراً، و روى الإمام أحمد عن رجل من الأنصار أنه جاء بأَمةٍ سوداء، فقال: يا رسول الله، إن عليّ عتق رقبة مؤمنة، فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقها، فقال لها رسول الله ﷺ: «أتشهدين أن لا إله إلا الله؟» قالت: نعم. قال: «أتشهدين أني رسول الله؟» قالت: نعم قال: «أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟» قالت: نعم. قال: «أعتقها». و هذا إسناد صحيح وجهالة الصحابي لا تضره، و في صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم: أنه لما جاء بتلك الجارية السوداء، قال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «من أنا» قالت: رسول الله ﷺ. قال: «أعتقها فإنها مؤمنة».

و قوله: ﴿و دية مسلمة إلى أهله﴾ هو الواجب الثاني فيما بين القاتل و أهل القتيل عوضاً لهم عما فاتهم من قتيلهم، و هذه الدية إنما تجب أخماساً، كما رواه الإمام أحمد و أهل السنن من حديث ابن مسعود قال: قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ عشرين بنت مخاض، و عشرين بني مخاض ذكوراً، و عشرين بنت لبون، وعشرين جذعة، و عشرين حِقّة، لفظ النسائي، و هذه الدية على العاقلة لا في ماله، قال الشافعي رحمه الله: لم أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة و هو أكثر من حديث الخاصة، و هذا الذي أشار إليه رحمه الله قد ثبت في غير ما حديث، فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: «اقْتَتَلَتْ امرأتان من هذيل فرَمَتْ إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها و ما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فقضى أن دية جنينها غرة عبد أو أمة، و قضى بدية المرأة على عاقلتها، و هذا يقتضي أن حكم عمد الخطأ حكم الخطأ المحض في وجوب الدية، لكن هذا تجب فيه الدية أثلاثاً لشبهة العمد، و في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يُحْسِنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صَبَأنا صبأنا فجعل خالد يقتلهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فرفع يديه و قال: «اللهم إني أبرأ

إليك مما صنع خالد» و بعث علياً فَوَدَى قتلاهم و ما أتلف من أموالهم حتى ميلغة الكلب، و هذا الحديث يؤخذ منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال.

وقوله: **﴿إلا أن يصدقوا﴾** أي فتجب فيه الدية مسلّمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب، و قوله: **﴿فإن كان من قوم عدو لكم و هو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة﴾** أي إذا كان القتيل مؤمناً و لكن أولياؤه من الكفار أهل حرب، فلا دية لهم، و على القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير، و قوله: **﴿و إن كان من قوم بينكم و بينهم ميثاق﴾** الآية، أي فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة فلهم دية قتيلهم، فإن كان مؤمناً فدية كاملة، و كذا إن كان كافراً أيضاً عند طائفة من العلماء، و قيل: يجب في الكافر نصف دية المسلم، و قيل: ثلثها، كما هو مفصل في كتاب الأحكام، و يجب أيضاً على القاتل تحرير رقبة مؤمنة **﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين﴾** أي لا إفطار بينهما بل يسرد صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر من مرض أو حيض أو نفاس استأنف، و اختلفوا في السفر هل يقطع أم لا، على قولين، و قوله: **﴿توبة من الله و كان الله عليماً حكيماً﴾** أي هذه توبة القاتل خطأ إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين، و اختلفوا فيمن لا يستطيع الصيام، هل يجب عليه إطعام ستين مسكيناً كما في كفارة الظهار، على قولين أحدهما: نعم كما هو منصوص عليه في كفارة الظهار، و إنما لم يُذكر ههنا، لأن هذا مقام تهديد و تخويف و تحذير، فلا يناسب أن يذكر فيه الإطعام لما فيه من التسهيل والترخيص، و القول الثاني: لا يعدل إلى الطعام، لأنه لو كان واجباً لما أُخّر بيانه عن وقت الحاجة **﴿و كان الله عليماً حكيماً﴾** قد تقدم تفسيره غير مرة.

٩٣- ثم لما بيّن تعالى حكم القتل الخطأ، شرَع في بيان حكم القتل العمد، فقال: **﴿و من يقتل مؤمناً متعمداً﴾** الآية، و هذا تهديد شديد و وعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله، حيث يقول سبحانه في سورة الفرقان **﴿و الذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر و لا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾** الآية، و قال تعالى: **﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً﴾** الآية، والآيات و الأحاديث في تحريم القتل كثيرة جداً، فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما يقضي بين الناس يوم القيامة في الدماء»، و في الحديث الآخر الذي رواه أبو داود عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال المؤمن مُعْنقاً صالحاً ما لم يُصب دماً حراماً، فإذا أصاب دماً حراماً بلّح». و في حديث آخر: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم»، وقد كان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً، و روى البخاري عن ابن جبير قال: اختلف فيها أهل الكوفة، فرحلت إلى ابن عباس فسألته عنها، فقال: نزلت هذه الآية **﴿و من يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم﴾** هي آخر ما نزل، و ما نسخها شيء، و رواه مسلم.

و روى الإمام أحمد عن ابن عباس أن رجلاً أتى إليه فقال: أرأيت رجلاً قتل رجلاً عمداً؟ فقال: جزاؤه جهنم خالداً فيها، الآية، قال: لقد نزلت من آخر ما نزل، ما نسخها شيء حتى قُبض رسول الله ﷺ، و ما نزل وحي بعد رسول الله ﷺ قال: أرأيت إن تاب وآمن و عمل صالحاً ثم اهتدى؟ قال: و أنى له بالتوبة، و قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثكلته أمه رجل قتل رجلاً متعمداً يجيء يوم القيامة آخذاً قاتله بيمينه أو بيساره. أو آخذاً رأسه بيمينه أو بشماله. تشخب أوداجه دماً من قِبل العرش، يقول: يا رب، سل عبدك فيم قتلني» و قد

رواه النسائي و ابن ماجه. و ممن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف زيد بن ثابت و أبو هريرة و عبد الله بن عمر و أبو سلمة بن عبد الرحمن و عبيد بن عمير و الحسن و قتادة و الضحاك بن مزاحم نقله ابن أبي حاتم، و في الباب أحاديث كثيرة، فمن ذلك ما رواه أبو بكر بن مردويه الحافظ في تفسيره عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «يجيء المقتول متعلقاً بقاتله يوم القيامة آخذاً رأسه بيده الأخرى فيقول يا رَبِّ سَلْ هذا فيم قتلني؟ قال: فيقول: قتلتُه لتكون العزة لك، فيقول: فإنها لي، قال: و يجيء آخر متعلقاً بقتله فيقول: ربِّ سَلْ هذا فيم قتلني؟ قال: فيقول: قتلته لتكون العزة لفلان، فإنها ليست له بُؤْ بإثمه، قال: فيهوي في النار سبعين خريفاً» وقد رواه النسائي.

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن معاوية رضي الله عنه يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يَمُوتُ كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً» و كذا رواه النسائي.

و الذي عليه الجمهور من سلف الأمة و خَلَفها أن القاتل له توبة فيما بينه و بين الله عز وجل، فإن تاب وأناب، و خشع و خضع و عمل عملاً صالحاً بدّل الله سيئاته حسنات، و عوض المقتول من ظُلامته، قال الله تعالى: ﴿و الذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر- إلى قوله- إلا من تاب وآمن و عمل عملاً صالحاً﴾ الآية، و هذا خبر لا يجوز نسخه و حمله على المشركين وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر، و يحتاج حمله إلى دليل، و الله أعلم.

و قال تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ الآية، و هذا عام في جميع الذنوب من كفر و شرك و شك و نفاق و قتل و فسق و غير ذلك، كل من تاب أي من أي ذلك تاب الله عليه، قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك، و هي مذكورة في هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية و قبلها لتقوية الرجاء، و الله أعلم.

و ثبت في الصحيحين خبر الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس ثم سأل عالماً هل لي من توبة؟ فقال: و من يَحُولُ بينك و بين التوبة؟ ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه فهاجر إليه فمات في الطريق فقبضته ملائكة الرحمة، كما ذكرناه غير مرة، و إذا كان هذا في بني إسرائيل فلأن يكون في هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأحرى، لأن الله وضع عنا الآصار و الأغلال التي كانت عليهم، و بعث نبينا بالحنيفية السمحة.

فأما الآية الكريمة و هي قوله تعالى: ﴿و من يقتل مؤمناً متعمداً﴾ الآية، فقد قال أبو هريرة و جماعة من السلف: هذا جزاؤه إن جازاه، و معى هذه الصيغة أن هذا جزاؤه إن جوزي عليه، و كذا كل وعيد على ذنب، لكن قد يكون كذلك معارض من أعمال صالحة، تمنع وصول ذلك الجزاء إليه على قولي أصحاب الموازنة والإحباط، و هذا أحسن ما يسلك في باب الوعيد، و الله أعلم بالصواب، و بتقدير دخول القاتل في النار، أما على قول ابن عباس و من وافقه أنه لا توبة له، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحاً ينجو به فليس بمخلد فيها أبداً، بل الخلود هو المكث الطويل، و قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ: «أنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان»، و أما حديث معاوية «كلُّ ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً» فعسى للتَّرَجِّي، فإذا انتفى التَّرَجِّي في هاتين الصورتين، لا ينتفي وقوع ذلك في أحدهما و هو القتل لما ذكرنا من الأدلة، و أما من مات كافراً فالنص أن الله لا يغفر له البتة، و أما

مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة فإنه حق من حقوق الآدميين، و هي لا تسقط بالتوبة، و لكن لا بد من ردها إليهم و لا فرق بين المقتول و المسروق منه، و المغصوب منه و المقذوف وسائر حقوق الآدميين، فإن الإجماع منعقد على أنها لا تسقط بالتوبة، و لكنه لا بد من ردها إليهم في صحة التوبة، فإن تعذر ذلك فلا بد من المطالبة يوم القيامة، لكن لا يلزم من وقوع المطالبة وقوع المجازاة، إذ قد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها، ثم يَفْضُلُ له أجر يدخل به الجنة أو يعوّض الله المقتول بما يشاء من فضله من قصور الجنة و نعيمها، ورفع درجته فيها و نحو ذلك و الله أعلم.

ثم لقاتل العمد أحكام في الدنيا و أحكام في الآخرة، فأما في الدنيا فتسلط أولياء المقتول عليه، قال الله تعالى: ﴿و من قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾ الآية، ثم هم مخيرون بين أن يقتلوا، أو يعفوا، أو يأخذوا دية مغلظة أثلاثاً، ثلاثون حقة، و ثلاثون جدعة، و أربعون خلفة، كما هو مقرر في كتاب الأحكام، و اختلف الأئمة هل تجب عليه كفارة عتق رقبة، أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام، على أحد القولين كما تقدم في كفارة الخطأ، على قولين فالشافعي و أصحابه و طائفة من العلماء يقولون نعم، يجب عليه، لأنه إذا وجبت عليه الكفارة في الخطأ فلأن تجب عليه في العمد أولى، فطردوا هذا في كفارة اليمين الغموس، و اعتضدوا بقضاء الصلاة المتروكة عمداً كما أجمعوا على ذلك في الخطأ، و قال أصحاب الإمام أحمد و آخرون: قتل العمد أعظم من أن يكفّر فلا كفارة فيه، و كذا اليمين الغموس و لا سبيل لهم إلى الفرق بين هاتين الصورتين و بين الصلاة المتروكة عمداً، فإنهم يقولون بوجوب قضائها إذا تركت عمداً.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤) ﴾

٩٤- روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: مرّ رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ يرعى غنماً له فسلّم عليهم، فقالوا: لا يسلم علينا إلا ليتعوّذ منا، فعمدوا إليه فقتلوه، و أتوا بغنمه النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إلى آخرها، و رواه الترمذي. و روى البخاري عن ابن عباس ﴿و لا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾ قال: قال ابن عباس: كان رجل في غُنَيمة له فلحقه المسلمون فقال: السلام عليكم فقتلوه و أخذوا غنيمته، فأنزل الله في ذلك ﴿و لا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾ قال ابن عباس: عَرَضُ الدنيا تلك الغنيمة، و قرأ ابن عباس ﴿السلام﴾.

و أما قصة محلم بن جثامة، فروى الإمام أحمد رحمه الله عن القعقاع بن عبد الله بن أبي حدرد رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربعي، و محلم بن جثامة ابن قيس، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم، مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له، معه متيع له ووطب من لبن، فلما سلّم علينا، فأمسكنا عنه، و حمل عليه محلم بن جثامة فقتله، لشيء كان بينه و بينه، وأخذ بعيره و متيعه، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ و أخبرناه الخبر نزل فينا ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله - إلى قوله تعالى - خبيراً﴾ تفرد به أحمد.

و روى البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ للمقداد: «إذا كان رجل مؤمن يُخْفي إيمانه مع قوم كفار فقتلته، فكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة من قبل» هكذا ذكره البخاري معلقاً مختصراً.

و قوله: ﴿**فعند الله مغانم كثيرة**﴾ أي خير مما رغبتم فيه عرض الحياة الدنيا الذي حملكم على قتل مثل هذا الذي ألقى إليكم السلام، و أظهر لكم الإيمان فتغافلتم عنه و اتهموه بالمصانعة و التقية لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، فما عند الله من الرزق الحلال خير لكم من مال هذا.

و قوله: ﴿**كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم**﴾ أي قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذي يُسر إيمانه ويخفيه من قومه، كما تقدم في الحديث المرفوع آنفاً، و كما قال تعالى: ﴿**و اذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض**﴾ الآية، و هذا مذهب سعيد بن جبير في قوله: ﴿**كذلك كنتم من قبل**﴾ قال: تخفون إيمانكم في المشركين.

و هذا اختيار ابن جرير، و قال ابن أبي حاتم: و ذكر عن سعيد بن جبير قوله: ﴿**كذلك كنتم من قبل**﴾ لم تكونوا مؤمنين ﴿**فمن الله عليكم**﴾ أي تاب عليكم فحلف أسامة لا يقتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله بعد ذلك الرجل، و ما لقي من رسول الله ﷺ به، و قوله: ﴿**فتبينوا**﴾ تأكيد لما تقدم، و قوله: ﴿**إن الله كان بما تعملون خبيراً**﴾ قال سعيد بن جبير: هذا تهديد و وعيد.

﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٩٦) ﴾

٩٥- روى البخاري عن البراء قال: لما نزلت ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين**﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها، فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته، فأنزل الله ﴿**غير أولي الضرر**﴾، و روى البخاري أيضاً عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أملى علي ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين و المجاهدون في سبيل الله**﴾ فجاءه ابن أم مكتوم و هو يُمليها علي، قال: يا رسول الله، و الله لو استطع الجهاد لجاهدت، و كان أعمى، فأنزل الله على رسوله ﷺ، و كان فخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفتُ أن تُرضَّ فخذي، ثم سرّي عنه، فأنزل الله ﴿**غير أولي الضرر**﴾. و عن ابن عباس أخبره ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين**﴾ عن بدر و الخارجون إلى بدر، انفرد به البخاري. فقوله: ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين**﴾ كان مطلقاً، فلما نزل بوحي سريع ﴿**غير أولي الضرر**﴾ صار ذلك مخرجاً لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد من العمى و العرج و المرض، عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم و أنفسهم. ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين على القاعدين، قال ابن عباس: ﴿**غير أولي الضرر**﴾، و كذا ينبغي أن يكون، كما ثبت في صحيح البخاري عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير، و لا قطعتم من واد، إلا و هُم معكم فيه» قالوا: و هم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: «نعم، حبسهم العذر»، و هكذا رواه أحمد.

و قوله: ﴿و كلاً وعد الله الحسنى﴾ أي الجنة و الجزاء الجزيل. و فيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين، بل هو فرض على الكفاية. قال تعالى: ﴿و فضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾.

٩٦- ثم أخبر سبحانه بما فضلهم به من الدرجات، في غرف الجنان العاليات، و مغفرة الذنوب و الزلات، وحلول الرحمة و البركات، إحساناً منه و تكريماً، و لهذا قال: ﴿درجات منه و مغفرة و رحمة و كان الله غفوراً رحيماً﴾.

و قد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ في الجنة مائة درجة، أعدّها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كلِّ درجتين كما بين السماء و الأرض».

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٠) ﴾

٩٧- روى البخاري عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود قال: قُطع على أهل المدينة بَعثٌ[1] فاكتتبتُ فيه، فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته، فنهاني عن ذلك أشد النهي، قال: أخبرني ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يُكثّرون سوادهم على عهد رسول الله ﷺ، يأتي السهم يرمى به فيصيب أحدهم، فيقتله، أو يضرب عنقه فيقتل، فأنزل الله ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾.

و روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا و كانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم بفعل بعض. قال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين و أكرهوا فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ الآية. قال عكرمة: فكتب إلى من بقي من المسلمين بهذه الآية لا عذر لهم. قال: فخرجوا، فلحقهم المشركون، فأعطوهم التقية، فنزلت هذه الآية ﴿و من الناس من يقول آمنا بالله﴾ الآية.

قال الضحاك: نزلت في ناس من المنافقين تخلفوا عن رسول الله ﷺ بمكة و خرجوا مع المشركين يوم بدر فأصيبوا فيمن أصيب، فنزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين، و هو قادر على الهجرة و ليس متمكناً من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع، و بنص هذه الآية، حيث يقول تعالى: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ أي بترك الهجرة ﴿قالوا فيم كنتم﴾ أي لم مكثتم ههنا وتركتم الهجرة ﴿قالوا كنا مستضعفين في الأرض﴾ أي لا نقدر على الخروج من البلد، و لا الذهاب في الأرض ﴿قالوا ألم تكن أرض الله واسعة﴾ الآية. و روى أبو داود عن سمرة بن جندب قال: أما بعد، قال: قال رسول

(١) أي أنهم ألزموا بإخراج جيش لقتال أهل الشام.

الله ﷺ: «مَنْ جامعَ المشرك و سكن معه فإنه مثله».

٩٨- و قوله: ﴿إلا المستضعفين﴾ إلى آخر الآية، هذه عذر من الله لهؤلاء في ترك الهجرة، و ذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق، و لهذا قال: ﴿لا يستطيعون حيلة و لا يهتدون سبيلاً﴾، قال مجاهد و عكرمة و السدي: يعني طريقاً.

٩٩- ﴿فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم﴾ أي يتجاوز الله عنهم بترك الهجرة، و عسى من الله موجبة، ﴿و كان الله عفواً غفوراً﴾، روى البخاري عن أبي هريرة قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي العشاء إذ قال: سمع الله لمن حمده، ثم قال قبل أن يسجد: «اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف».

و روى البخاري أيضاً عن ابن عباس ﴿إلا المستضعفين﴾ قال: كنت أنا و أمي ممن عذر الله عز وجل.

١٠٠- و قوله: ﴿و من يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة﴾، هذا تحريض على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين، و أن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مَنْدوحة و ملجأ يتحصن فيه، و المراغم قال ابن عباس: المراغم التحول من أرض إلى أرض. و كذا روي عن الضحاك و الربيع بن أنس و الثوري. و قال مجاهد: ﴿مراغماً كثيراً﴾ يعني متزحزحاً عما يكره. و قال سفيان بن عيينة: مراغماً كثيراً يعني بروجاً، والظاهر - و الله أعلم - أنه المنع الذي يُتحصن به و يراغم به الأعداء. قوله ﴿و سعة﴾ يعني الرزق، قاله غير واحد منهم قتادة حيث قال في قوله: ﴿يجد في الأرض مراغماً كثيراً و سعة﴾ أي من الضلالة إلى الهدى، ومن القلة إلى الغنى، و قوله: ﴿و من يخرج من بيته مهاجراً إلى الله و رسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾ أي و من يخرج من منزله بنية الهجرة فمات في أثناء الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر، كما ثبت في الصحيحين و غيرهما من الصحاح و المسانيد و السنن عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمالُ بالنيّات و إنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله و رسوله فهجرته إلى الله و رسوله، و مَن كانت هجرته إلى دنيا يُصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه». و هذا عام في الهجرة و في جميع الأعمال. و منه الحديث الثابت في الصحيحين في الرجل الذي قتل تسعة و تسعين نفساً، ثم أكمل بذلك العابد المائة ثم سأل عالماً: هل له من توبة؟ فقال له: و مَن يحول بينك و بين التوبة؟ ثم أرشده إلى بلد آخر يعبد الله فيه. فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الآخر أدركه الموت في أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة و ملائكة العذاب، فقال هؤلاء: إنه جاء تائباً، و قال هؤلاء إنه لم يَصِل بعد، فأمروا أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها، فأمر الله هذه أن تقترب من هذه، و هذه أن تبعد، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر، فقبضته ملائكة الرحمة. و في رواية: لما جاءه الموت ناء بصدره إلى الأرض التي هاجر إليها.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج ضمرة بن جندب إلى رسول الله ﷺ فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ، فنزلت ﴿و من يخرج من بيته مهاجراً إلى الله و رسوله﴾ الآية.

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ

كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١) ﴾

١٠١ - يقول تعالى: **﴿و إذا ضربتم في الأرض﴾** أي سافرتم في البلاد، كما قال تعالى: **﴿علم أن سيكون منكم مرضى و آخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾** الآية. و قوله: **﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾** أي تخففوا فيها إما من كميتها بأن تجعل الرباعية ثنائية كما فهمه الجمهور من هذه الآية، و استدلوا بها على قصر الصلاة في السفر على اختلافهم في ذلك، فمن قائل: لا بد أن يكون سفر طاعة من جهاد، أوحج، أو عمرة، أو طلب علم، أو زيارة، و غير ذلك، كما هو مروي عن ابن عمر و عطاء و يحكى عن مالك في رواية عنه نحوه، لظاهر قوله: **﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾**، و من قائل: لا يشترط سفر القُربة، بل لا بد أن يكون مباحاً، لقوله: **﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم﴾** الآية، كما أباح له تناول الميتة مع الاضطرار بشرط أن لا يكون عاصياً بسفره، و هذا قول الشافعي و أحمد و غيرهما من الأئمة، ومن قائل: يكفي مطلق السفر سواء كان مباحاً أو محظوراً، حتى لو خرج لقطع الطريق، و إخافة السبيل، ترخص لوجود مطلق السفر، و هذا قول أبي حنيفة و الثوري و داود لعموم الآية و خالفهم الجمهور.

و أما قوله تعالى: **﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾** فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية، فإن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام، أو في سرية خاصة. و سائر الأحيان حرب للإسلام و أهله، و المنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له، كقوله تعالى: **﴿و لا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً﴾**، و كقوله تعالى: **﴿و ربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم﴾** الآية، و روى الإمام أحمد عن يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب قلت له: قوله: **﴿و ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾** و قد أمن الناس؟ فقال لي عمر رضي الله عنه: عجبتُ مما عجبتَ منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته». و هكذا رواه مسلم و أهل السنن. و روى أبو بكر بن أبي شيبة عن ابن عباس قال: صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة و المدينة و نحن آمنون لا نخاف بينهما ركعتين ركعتين. و هكذا رواه النسائي والترمذي. و روى البخاري عن أنس يقول: خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة، قلت أقمتم بمكة شيئاً؟ قال: أقمنا بها عشراً، و هكذا أخرجه بقية الجماعة.

و روى الإمام أحمد عن حارثة بن وهب الخزاعي قال: صليت مع النبي ﷺ الظهر و العصر بمنى أكثر ما كان الناس، و آمنه ركعتين. و رواه الجماعة سوى ابن ماجه.

و روى البخاري عن عبد الله بن عمر قال: صليت مع رسول الله ﷺ ركعتين، و أبي بكر و عثمان صدراً من إمارته، ثم أتمها، و كذا رواه مسلم.

فهذه الأحاديث دالة صريحاً على أن القصر ليس من شرطه وجود الخوف، و لهذا قال من قال من العلماء: إن المراد من القصر ههنا إنما هو قصر الكيفية لا الكمية، و هو قول مجاهد و الضحاك و السدي كما سيأتي بيانه، و اعتضدوا أيضاً بما رواه الإمام مالك عن عائشة رضي الله عنها قالت: فرضت الصلاة ركعتين ركعتين في السفرو الحضر، فأقرت صلاة السفر، و زيدت في صلاة الحضر، و قد روى هذا الحديث البخاري و مسلم،

قالوا: فإذا كان أصل الصلاة في السفر هي الثنتين، فكيف يكون المراد بالقصر ههنا قصر الكمية، لأن ما هو الأصل لا يقال فيه: **﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾** و أصرح من ذلك دلالة على هذا ما رواه الإمام أحمد: عن عمر رضي الله عنه قال: صلاة السفر ركعتان، و صلاة الأضحى ركعتان، و صلاة الفطر ركعتان، وصلاة الجمعة ركعتان تمام غير قصر، على لسان محمد ﷺ، و هكذا رواه النسائي و ابن ماجه و ابن حبان، وهذا إسناد على شرط مسلم.

و روى مسلم عن عبد الله عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم محمد ﷺ في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، و في الخوف ركعة، فكما يصلي في الحضر قبلها و بعدها فكذلك يصلي في السفر. فهذا ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما، و لا ينافي مما تقدم عن عائشة رضي الله عنها، لأنها أخبرت أن أصل الصلاة ركعتان، و لكن زيد في صلاة الحضر، فلما استقر ذلك، صح أن يقال: إن فرض صلاة الحضر أربع، كما قاله ابن عباس - و الله أعلم - لكن اتفق حديث ابن عباس و عائشة على أن صلاة السفر ركعتان، و أنها تامة غير مقصورة، كما هو مصرح به في حديث عمر رضي الله عنه، و إذا كان كذلك فيكون المراد بقوله تعالى: **﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾** قصر الكيفية كما في صلاة الخوف، و لهذا قال: **﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾** الآية، و لهذا قال بعدها: **﴿و إذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾** الآية، فبين المقصود من القصر ههنا وذكر صفته و كيفيته، و لهذا لما عقد البخاري كتاب صلاة الخوف صدّره بقوله تعالى: **﴿و إذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾** إلى قوله: **﴿إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً﴾** و قال أسباط عن السدي في قوله: **﴿و إذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم﴾** الآية، إن الصلاة إذا صليت ركعتين في السفر، فهي تمام التقصير لا يحل إلا أن يخاف من الذين كفروا أن يفتنوه عن الصلاة فالتقصير ركعة. و قال ابن أبي نجيح عن مجاهد: **﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾** يوم كان النبي ﷺ و أصحابه بعسفان، و المشركون بضجنان، فتوافقوا، فصلى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الظهر أربع ركعات بركوعهم سجودهم و قيامهم معاً جميعاً، فهَمَّ بهم المشركون أن يغيروا على أمتعتهم و أثقالهم، روى ذلك ابن أبي حاتم، و رواه ابن جرير عن مجاهد و السدي وعن جابر وابن عمر، و اختار ذلك أيضاً فإنه قال بعد ما حكاه من الأقوال في ذلك: وهو الصواب.

روى ابن جرير عن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد أنه قال لعبد الله بن عمر: إنا نجد في كتاب الله قصر صلاة الخوف، ولا نجد قصر صلاة المسافر، فقال عبد الله: إنا وجدنا نبينا ﷺ يعمل عملاً عملنا به. فقد سمى صلاة الخوف مقصورة و حمل الآية عليها لا على قصر صلاة المسافر و أقره ابن عمر على ذلك، و احتج على قصر الصلاة في السفر بفعل الشارع لا بنص القرآن.

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن

كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢) ﴾

١٠٢- صلاة الخوف أنواع كثيرة، فإن العدو تارة يكون تُجاه القبلة، و تارة يكون في غير صوبها، و الصلاة تارة تكون رباعية، و تارة تكون ثلاثية كالمغرب، و تارة تكون ثنائية كالصبح و صلاة السفر، ثم تارة يصلون جماعة، و تارة يلتحم الحرب فلا يقدرون على الجماعة، بل يصلون فرادى مستقبلي القبلة و غير مستقبليها ورجالاً و ركباناً، و لهم أن يمشوا و الحالة هذه و يضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة. و من العلماء من قال: يصلون و الحالة هذه ركعة واحدة لحديث ابن عباس المتقدم، و به قال أحمد بن حنبل. قال المنذري في الحواشي: و به قال عطاء و جابر و الحسن و مجاهد و الحكم و قتادة و حماد و إليه ذهب طاوس و الضحاك، وقد حكى أبو عاصم العبادي عن محمد بن نصر المروزي: أنه يرى رد الصبح إلى ركعة في الخوف، و إليه ذهب ابن حزم أيضاً. و قال إسحاق بن راهويه: أما عند المسايفة فيجزيك ركعة واحدة تُومئ بها إيماءً، فإن لم تقتد فسجدة واحدة لأنها ذكر الله، و قال آخرون: تكفي تكبيرة واحدة، فلعله أراد ركعة واحدة، كما قاله الإمام أحمد بن حنبل و أصحابه، و به قال جابر بن عبد الله و عبد الله بن عمر و كعب و غير واحد من الصحابة و السدي، و رواه ابن جرير، و لكن الذي حكوه إنما حكوه على ظاهره في الاجتزاء بتكبيرة واحدة، كما هو مذهب إسحاق ابن راهويه.

و من العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال و المناجزة، كما أخر النبيﷺ يوم الأحزاب الظهر و العصر فصلاهما بعد الغروب، ثم صلى بعدهما المغرب، ثم العشاء، و كما قال بعدها يوم بني قريظة حين جهز إليهم الجيش: لا يُصلين أحدٌ منكم العصر إلا في بني قريظة، فأدركتهم الصلاة في أثناء الطريق، فقال منهم قائلون: لم يرد منا رسول اللهﷺ إلا تعجيل المسير، و لم يرد منا تأخير الصلاة عن وقتها، فصلوا الصلاة لوقتها في الطريق، و أخّر آخرون منهم صلاة العصر فصلوها في بني قريظة بعد الغروب، و لم يعنّف رسول اللهﷺ أحداً من الفريقين، و قد تكلمنا على هذا في كتاب السيرة و بينا أن الذين صلوا العصر لوقتها أقرب إلى إصابة الحق في نفس الأمر، و إن كان الآخرون معذورين أيضاً، والحجة ههنا في عذرهم في تأخير الصلاة لأجل الجهاد والمبادرة إلى حصار الناكثين للعهد، من الطائفة الملعونة اليهود.

و أما الجمهور فقالوا: هذا كله منسوخ بصلاة الخوف، فإنها لم تكن نزلت بعد، فلما نزلت نسخ تأخير الصلاة لذلك، و هذا بينٌ في حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه الشافعي رحمه الله و أهل السنن، و لكن يُشكل عليه ما حكاه البخاري في صحيحه حيث قال:

(باب الصلاة عند مناهضة الحصون و لقاء العدو) قال الأوزاعي: إن كان تهيأ الفتح و لم يقدروا على الصلاة، صلوا إيماء كل امرئ لنفسه، فإن لم يقدروا على الإيماء، أخروا الصلاة حتى ينكشف القتال، أو يأمنوا فيصلوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلوا ركعة و سجدتين، فإن لم يقدروا فلا يجزئهم التكبير و يؤخرونها حتى يأمنوا، وبه قال مكحول. و قال أنس بن مالك: حضرت مناهضة حصن تُستَر عند إضاءة الفجر، و اشتد اشتعال القتال، فلم يقدروا على الصلاة، فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار فصليناها و نحن مع أبي موسى، ففُتح لنا،

قال أنس: و ما يسرني بتلك الصلاة الدنيا و ما فيها انتهى ما ذكره، ثم أتبعه بحديث تأخير الصلاة يوم الأحزاب، ثم بحديث أمره إياهم أن لا يصلوا العصر إلا في بني قريظة، و كأنه كالمختار لذلك، و الله أعلم.

و لمن جنح إلى ذلك له أن يحتج بصنيع أبي موسى و أصحابه يوم فتح تستر فإنه يشتهر غالباً، و لكن كان ذلك في إمارة عمر بن الخطاب، و لم ينقل أنه أنكر عليهم و لا أحد من الصحابة، و الله أعلم، قال هؤلاء: وقد كانت قبل الخندق في قول الجمهور علماء السير و المغازي، و قال البخاري و غيره: كانت ذات الرقاع بعد الخندق لحديث أبي موسى و ما قدم إلا في خيبر، و الله أعلم.

فقوله تعالى: **﴿و إذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾** أي إذا صليت بهم إماماً في صلاة الخوف، و هذه حالة غير الأولى، فإن تلك قصرها إلى ركعة كما دل عليه الحديث - فرادى و رجالاً و ركباناً مستقبلي القبلة و غير مستقبليها، ثم ذكر حال الاجتماع و الائتمام بإمام واحد، و ما أحسن ما استدل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة، حيث اغتُفِرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة، فلو لا أنها واجبة لما ساغ ذلك.

و لنذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة أولاً قبل ذكر صفتها، فروى الإمام أحمد عن أبي عياش الزرقي قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد، و هم بيننا و بين القبلة، فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر، فقالوا: لقد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم و أنفسهم، قال: فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر و العصر **﴿و إذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾** قال: فحضرت، فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح، قال: فصفنا خلفه صفين، قال: ثم ركع فركعنا جميعاً، ثم رفع فرفعنا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه و الآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا و قاموا، جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم، ثم تقدم إلى مَصافّ هؤلاء، و جاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ثم ركع فركعوا جميعاً، ثم رفع فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ و الصف الذي يليه و الآخرون قيام يحرسونهم، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا، ثم سلّم عليهم، ثم انصرف، قال: فصلاها رسول الله ﷺ مرتين: مرة بعسفان، و مرة بأرض بني سليم.

و هذا إسناد صحيح و له شواهد كثيرة، فمن ذلك ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام النبي ﷺ و قام الناس معه، فكبر و كبروا معه، و ركع و ركع ناس منهم، ثم سجد و سجدوا معه، ثم قام للثانية فقام الذين سجدوا و حرسوا إخوانهم، و أتت الطائفة الأخرى فركعوا و سجدوا معه و الناس كلهم في الصلاة، و لكن يحرس بعضهم بعضاً.

و روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: قاتل رسول الله ﷺ محارب خصفة، فجاء رجل منهم يقال له غورث بن الحارث حتى قام على رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: من يمنعك مني ؟ قال: «الله»، فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ، فقال: «و من يمنعك مني ؟» قال: كن خيرَ آخذٍ. قال: «أتشهد أن لا إله إلا الله و أني رسول الله ؟» قال: لا، و لكن أعاهدك أن لا أقاتلك و لا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله، فأتى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس، فلما حضرت الصلاة، صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف، فكان الناس طائفتين: طائفة بإزاء العدو، و طائفة صلوا مع رسول الله ﷺ، فصلى بالطائفة الذين معه ركعتين وانصرفوا، فكانوا مكان الطائفة الذين كانوا بإزاء العدو، ثم انصرف الذين كانوا بإزاء العدو فصلوا مع رسول

الله ﷺ ركعتين، فكان لرسول الله ﷺ أربع ركعات، و للقوم ركعتين ركعتين.

تفرد به من هذا الوجه. و قد رواه عن جابر جماعة كثيرون في الصحيح و السنن و المسانيد.

و أما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية، وهو أحد قولي الشافعي، و يدل عليه قول الله تعالى: **﴿و لا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم و خذوا حذركم﴾** أي بحيث تكونون على أهبة، إذا احتجتم إليها لبستموها بلا كلفة **﴿إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً﴾**.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣) وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤)﴾

١٠٣- يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف، و إن كان مشروعاً مرغّباً فيه أيضاً بعد غيرها، و لكن ههنا آكد لما وقع فيها من التخفيف في أركانها، و من الرخصة في الذهاب فيها و الإياب، و غير ذلك مما ليس يوجد في غيرها، كما قال تعالى في الأشهر الحرم: **﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾** و إن كان هذا منهياً عنه في غيرها، و لكن آكد لشدة حرمتها و عظمتها، و لهذا قال تعالى: **﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً و قعوداً وعلى جنوبكم﴾** أي في سائر أحوالكم، ثم قال تعالى: **﴿فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة﴾** أي فإذا أمنتم و ذهب الخوف، و حصلت الطمأنينة **﴿فأقيموا الصلاة﴾** أي فأتموها و أقيموها كما أمرتم بحدودها، و خشوعها، وركوعها، وسجودها، وجميع شؤونها.

و قوله تعالى: **﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾** قال ابن عباس: أي مفروضاً، و قال أيضاً: إن للصلاة وقتاً كوقت الحج، و كذا روي عن ابن مسعود، و مجاهد و سالم بن عبد الله و علي بن الحسين ومحمد ابن علي و الحسن و مقاتل و السدي و عطية العوفي. و قال زيد بن أسلم **﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾** قال: مُنجّماً كلما مضى نجم جاء نجم، يعني كلما مضى وقت جاء وقت.

١٠٤- و قوله تعالى: **﴿و لا تهنوا في ابتغاء القوم﴾** أي لا تضعفوا في طلب عدوكم، بل جدّوا فيهم وقاتلوهم، و اقعدوا لهم كل مرصد **﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون﴾** أي كما يصيبكم الجراح و القتل كذلك يحصل لهم، كما قال تعالى: **﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾** ثم قال تعالى: **﴿و ترجون من الله ما لا يرجون﴾** أي أنتم و إياهم سواء فيما يصيبكم، و إياهم من الجراح و الآلام، و لكن أنتم ترجون من الله المثوبة و النصر و التأييد، كما وعدكم إياه في كتابه و على لسان رسوله ﷺ و هو وعد حق، و خبر صدق، و هم لا يرجون شيئاً من ذلك، فأنتم أولى بالجهاد منهم و أشد رغبة فيه، و في إقامة كلمة الله و إعلائها، **﴿و كان الله عليماً حكيماً﴾** أي هو أعلم و أحكم فيما يقدّره و يقضيه و ينفذه و يمضيه من أحكامه الكونية و الشرعية وهو المحمود على كل حال.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)﴾

وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (١٠٩) ﴾

١٠٥، ١٠٦، ١٠٧- يقول تعالى مخاطباً لرسوله محمدﷺ: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ أي هو حق من الله، و هو يتضمن الحق في خبره و طلبه، و قوله: ﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كانﷺ له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية، و بما ثبت في الصحيحين عن زينب بنت أم سلمة أن رسول الله سمع جَلَبَة خصم بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: «ألا إنما أنا بشرٌ و إنما أقضي بنحو مما أسمع، و لعل أحدكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعةٌ من النار فليحملها أو ليذرها».

و ذكر مجاهد و عكرمة و قتادة و السدي و ابن زيد و غيرهم في هذه الآية: إنها نزلت في سارق بني أبيرق على اختلاف سياقاتهم و هي متقاربة[1].

١٠٨- و قوله تعالى: ﴿يستخفون من الناس و لا يستخفون من الله﴾ الآية، هذا إنكار على المنافقين في كونهم يستخفون بقبائحهم من الناس لئلا ينكروا عليهم و يجاهرون الله بها، لأنه مطلع على سرائرهم و عالم بما في ضمائرهم، و لهذا قال: ﴿و هو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول و كان الله بما يعملون محيطاً﴾ تهديد لهم و وعيد.

١٠٩- ثم قال تعالى: ﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا﴾ الآية، أي هب أن هؤلاء انتصروا في الدنيا بما أبدوه أو أُبدي لهم عند الحكام الذين يحكمون بالظاهر و هم متعبدون بذلك، فماذا يكون صنيعهم يوم القيامة بين يدي الله تعالى الذي يعلم السر و أخفى؟ و من ذا الذي يتوكل لهم يومئذ يوم القيامة في ترويج دعواهم؟ أي لا أحد يومئذ يكون لهم وكيلاً، و لهذا قال: ﴿أم من يكون عليهم وكيلاً﴾.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا

(١) و قد روى القصة الترمذي (٣٠٤٠) و ابن جرير و غيرهما و هي حسنة الإسناد. و حاصلها: أن بشير من بني أبيرق سرق طعاماً وسلاحاً من رفاعة بن زيد عم قتادة بن النعمان فشكى ذلك قتادة لرسول اللهﷺ فجاء بنو أبيرق إلى رسول اللهﷺ فأنكروا ذلك و ادعوا الصلاح فقال النبيﷺ لقتادة: «عمدت إلى أهل بيت ذُكر منهم إسلام وصلاح، ترميهم بالسرقة على غير بينة و لا ثبت» فحزن قتادة لذلك، قال: فلم نلبث أن نزل القران ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله و لا تكن للخائنين خصيماً﴾ يعني بني أبيرق، ﴿و استغفر الله﴾ أي مما قلت لقتادة ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً ◆ و لا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم- إلى قوله- رحيماً﴾ أي لو استغفروا الله لغفر لهم ﴿و من يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه- إلى قوله- إثماً مبيناً﴾ قولهم للبيد ﴿و لو لا فضل الله عليك و رحمته- إلى قوله- فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ فلما نزل القرآن أتى رسول اللهﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة، فقال قتادة: لما أتيت عمي بالسلاح و كان شيخاً قد عسى أو عشي في الجاهلية و كنت أرى إسلامه مدخولاً لما أتيته بالسلاح قال: يا ابن أخي هو في سبيل الله، فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين، فنزل على سلافة بنت سعد بن سمية، فأنزل الله تعالى: ﴿و من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى و يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم و ساءت مصيراً ◆ إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء و من يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾.

فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)﴾

١١٠- يخبر تعالى عن كرمه و جوده أن كل من تاب إليه، تاب عليه من أي ذنب كان. فقال تعالى: **﴿و من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾** قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: أخبر الله عباده بعفوه و حلمه و كرمه، و سعة رحمته و مغفرته، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً **﴿ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾** و لو كانت ذنوبه أعظم من السموات و الأرض و الجبال، رواه ابن جرير، و روى أيضاً عن عبد الله قال: كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنباً أصبح قد كُتِب كفارة ذلك الذنب على بابه، و إذا أصاب البول منه شيئاً قرضه بالمقراض، فقال رجل: لقد آتى الله بني إسرائيل خيراً، فقال عبد الله رضي الله عنه: ما آتاكم الله خير مما آتاهم، جعل الماء لكم طهوراً، و قال تعالى: **﴿و الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾**، و قال: **﴿و من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾**، و روى أيضاً عن حبيب بن أبي ثابت قال: جاءت امرأة إلى عبد الله بن مغفل فسألته عن امرأة فَجَرَتْ فحبلت فلما ولدت قتلت ولدها، قال عبد الله بن مغفل: لها النار، فانصرفت وهي تبكي فدعاها ثم قال: ما أرى أمرك إلا أحد أمرين **﴿و من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾** قال: فمسحت عينها ثم مضت.

روى الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، وحدثني أبو بكر - و صدق أبو بكر - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يُذنب ذنباً، ثم يتوضأ ثم يصلي ركعتين ثم يستغفر الله لذلك الذنب، إلا غفر له» و قرأ هاتين الآيتين **﴿و من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾** الآية، **﴿و الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم﴾**، الآية. و قد تقدم بعض ذلك في سورة آل عمران أيضاً.

١١١- و قوله: **﴿و من يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه﴾** الآية، كقوله تعالى: **﴿و لا تزر وازرة وزر أخرى﴾** الآية، يعني أنه لا يغني أحد عن أحد، و إنما على كل نفس ما عملت لا يحمل عنها غيرها، و لهذا قال تعالى: **﴿و كان الله عليماً حكيماً﴾** أي من علمه و حكمته، و عدله و رحمته كان ذلك.

١١٢- ثم قال: **﴿و من يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً﴾** الآية، يعني كما اتهم بنو أبيرق بصنيعهم القبيح ذلك الرجل الصالح و قد كان بريئاً و هم الظلمة الخونة، كما أطلع الله على ذلك رسوله ﷺ، ثم هذا التقريع وهذا التوبيخ عام فيهم و في غيرهم، ممن اتصف بصفتهم فارتكب مثل خطيئتهم، فعليه مثل عقوبتهم.

١١٣- و قوله: **﴿و لو لا فضل الله عليك و رحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك و ما يضلون إلا أنفسهم و ما يضرونك من شيء﴾** امتن عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال، و عصمته له، و ما أنزل عليه من الكتاب و هو القرآن و الحكمة، و هي السنة **﴿و علمك ما لم تكن تعلم﴾** أي قبل نزول ذلك عليك، كقوله: **﴿و كذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب﴾** إلى آخر السورة، و قال تعالى: **﴿و ما كنت ترجو أن**

يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك﴾ و لهذا قال: ﴿و كان فضل الله عليك عظيماً﴾.

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥) ﴾

١١٤- يقول تعالى: ﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ يعني كلام الناس ﴿إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾ أي إلا نجوى من قال ذلك.

و روى الإمام أحمد عن أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يُصلح بين الناس فيَنْمي خيراً، أو يقول خيراً»، و قالت لم أسمعه يرخّص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث: في الحرب، و الإصلاح بين الناس، و حديث الرجل امرأته، و حديث المرأة زوجها، و كانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتي بايعن رسول الله ﷺ، و قد رواه الجماعة سوى ابن ماجه.

و روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضلَ من درجة الصيام، و الصلاة، و الصدقة؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إصلاح ذات البَيْن»، قال: «و فساد ذات البين هي الحالقة». و رواه أبو داود و الترمذي. و لهذا قال: ﴿و من يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله﴾ أي مخلصاً في ذلك محتسباً ثواب ذلك عند الله عز وجل، ﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ أي ثواباً جزيلاً كثيراً واسعاً.

١١٥- و قوله: ﴿و من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى﴾ أي و من سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ، فصار في شق، و الشرع في شق، و ذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق، و تبين له و اتضح له.

و قوله: ﴿و يتبع غير سبيل المؤمنين﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، و لكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، و قد تكون لِمَا أجمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريفاً لهم و تعظيماً لنبيهم، و قد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذلك، قد ذكرنا منها طرفاً صالحاً في كتاب أحاديث الأصول، و من العلماء من ادعى تواتر معناها، و الذي عوّل عليه الشافعي رحمه الله في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته: هذه الآية الكريمة بعد التروي و الفكر الطويل، و هو من أحسن الاستنباطات و أقواها، و إن كان بعضهم قد استشكل ذلك فاستبعد الدلالة منها على ذلك، و لهذا توعد تعالى على ذلك بقوله: ﴿نوله ما تولى و نصله جهنم و ساءت مصيراً﴾ أي إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره و نزينها له استدراجاً له، كما قال تعالى: ﴿فذرني و من يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾، و قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾، و قوله: ﴿و نذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ و جعل النار مصيره في الآخرة، لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا و أزواجهم﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿و رأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها و لم يجدوا عنها مصرفاً﴾.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً (١١٦) إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيداً (١١٧) لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢٠) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (١٢٢) ﴾

١١٦ - قد تقدم الكلام على هذه الآية الكريمة، و ذكرنا ما يتعلق بها من الأحاديث في صدر هذه السورة. وقوله: **﴿و من يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾** أي فقد سلك غير الطريق الحق، و ضل عن الهدى و بَعُد عن الصواب، و أهلك نفسه و خسرها في الدنيا و الآخرة، و فاتته سعادة الدنيا و الآخرة.

١١٧ - و قوله: **﴿إن يدعون من دونه إلا إناثاً﴾** روى ابن أبي حاتم عن أبي ابن كعب قال: مع كل صنم جنية، وروى عن عائشة **﴿إن يدعون من دونه إلا إناثاً﴾** قالت: أوثاناً. و روي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن و عروة ابن الزبير و مجاهد و أبي مالك و السدي و مقاتل بن حيان نحو ذلك. و روي عن الضحاك في الآية، قال المشركون: إن الملائكة بنات الله، و إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، قال: فاتخذوهن أرباباً، و صوّروهن جواري فحكموا و قلدوا، و قالوا: هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبده، يعنون الملائكة، و هذا التفسير شبيه بقول الله تعالى: **﴿أفرأيتم اللات و العزى﴾** الآيات، و قال تعالى: **﴿و جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾** الاية، و قال: **﴿و جعلوا بينه و بين الجنة نسباً﴾** الآيتين.

و قوله: **﴿و إن يدعون إلا شيطاناً مريداً﴾** أي هو الذي أمرهم بذلك و حسَّنه و زيَّنه لهم، وهم إنما يعبدون إبليس في نفس الأمر، كما قال تعالى: **﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان﴾** الآية. و قال تعالى إخباراً عن الملائكة أنهم يقولون يوم القيامة عن المشركين الذين ادّعوا عبادتهم في الدنيا **﴿بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾**.

١١٨ - و قوله: **﴿لعنه الله﴾** أي طرده و أبعده من رحمته، و أخرجه من جواره، و قال: **﴿لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً﴾** أي معيناً مقدراً معلوماً. قال مقاتل بن حيان: من كل ألف، تسعمائة و تسعة و تسعون إلى النار، و واحد إلى الجنة.

١١٩ - **﴿و لأضلنهم﴾** أي عن الحق، **﴿و لأمنينهم﴾** أي أزين لهم ترك التوبة، و أعدهم الأماني، وآمرهم بالتسويف و التأخير، و أغرهم من أنفسهم، و قوله: **﴿و لآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام﴾**. قال قتادة و السدي وغيرهما: يعني تشقيقها و جعلها سِمة و علامة للبحيرة و السائبة و الوصيلة، **﴿و لآمرنهم فليغيرن خلق الله﴾**، قال ابن عباس: يعني بذلك خصي الدواب، و قد روي عن ابن عمر و أنس و سعيد بن المسيب و عكرمة و أبي عياض و قتادة و أبي صالح و الثوري، و قد ورد في حديث النهي عن ذلك، و قال الحسن البصري: يعني

بذلك الوشم، و في صحيح مسلم: النهي عن الوشم في الوجه، و في لفظ: لعن الله من فعل ذلك، و في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: لعن الله الواشمات و المستوشمات و النامصات و المتنصمات و المتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عز وجل، ثم قال: ألا ألعن من لعن رسول الله ﷺ و هو في كتاب الله عز و جل، يعني قوله: ﴿و ما آتاكم الرسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا﴾.

و قال ابن عباس في رواية عنه و مجاهد وعكرمة و إبراهيم النخعي و الحسن و قتادة و الحكم و السدي والضحاك و عطاء الخراساني في قوله: ﴿ولآمرنهم فليغيرن خلق الله﴾ يعني دين الله عز وجل، هذا كقوله: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ على قول من جعل ذلك أمراً، أي لا تُبدِّلوا فطرة الله و دعوا الناس على فطرتهم، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ مولود يُولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تُولد البهيمة بهيمة جَمعاء هل تجدون بها من جدعاء» و في صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، و حرَّمت عليهم ما أحللت لهم».

ثم قال تعالى: ﴿و من يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً﴾ أي فقد خسر الدنيا والآخرة، و تلك خسارة لا جبر لها و لا استدراك لفائتها.

١٢٠- و قوله تعالى: ﴿يعدهم و يمنيهم و ما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ و هذا إخبار عن الواقع، فإن الشيطان يعد أولياءه و يمنيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا و الآخرة، و قد كذب و افترى في ذلك، و لهذا قال الله تعالى: ﴿و ما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾، كما قال تعالى مخبراً عن إبليس يوم المعاد ﴿و قال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق و وعدتكم فأخلفتكم و ما كان لي عليكم من سلطان - إلى قوله - و إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾.

١٢١- و قوله: ﴿أولئك﴾ أي المستحسنون له فيما وعدهم و منّاهم ﴿مأواهم جهنم﴾ أي مصيرهم و مآلهم يوم القيامة ﴿و لا يجدون عنها محيصاً﴾ أي ليس لهم عنها مندوحة و لا مصرف، و لا خلاص، و لا مناص.

١٢٢- ثم ذكر تعالى حال السعداء و الأتقياء و ما لهم في مآلهم من الكرامة التامة، فقال تعالى: ﴿و الذين آمنوا و عملوا الصالحات﴾ أي صدقت قلوبهم و عملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات، و تركوا ما نهوا عنه من المنكرات ﴿سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي يصرفونها حيث شاؤوا و أين شاؤوا ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي بلا زوال و لا انتقال ﴿وعد الله حقاً﴾ أي هذا وعد من الله، و وعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة، و لهذا أكده بالمصدر الدال على تحقيق الخبر، و هو قوله حقاً، ثم قال تعالى: ﴿و من أصدق من الله قيلاً﴾ أي لا أحد أصدق منه قولاً، أي لا إله إلا هو و لا رب سواه، و كان رسول الله ﷺ يقول في خطبته: «إن أصدق الحديث كلام الله، و خير الهدي هدي محمد ﷺ، و شر الأمور محدثاتها، و كل محدثة بدعة، و كل بدعة ضلالة، و كل ضلالة في النار».

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا

يُظْلَمُونَ نَقِيراً (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا (١٢٦) ﴾

١٢٣- المعنى في هذه الآية أن الدِّين ليس بالتحلي و لا بالتمني، و لكن ما وَقَر في القلوب و صدقته الأعمال، وليس كل من ادعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه، و لا كل من قال إنه هو على الحق سمع قوله بمجرد ذلك، حتى يكون له من الله برهان، و لهذا قال تعالى: ﴿ليس بأمانيكم و لا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به﴾ أي ليس لكم و لا لهم النجاة بمجرد التمني، بل العبرة بطاعة الله سبحانه و اتباع ما شرعه على ألسنة الرسل الكرام، و لهذا قال بعده ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾، كقوله: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره* و من يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ و قد روي أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على كثير من الصحابة.

روى سعيد بن منصور عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿من سوءاً يجز به﴾ شق ذلك على المسلمين، فقال لهم رسول الله ﷺ: «سَدِّدوا و قاربوا، فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى الشوكة يُشاكها، و النَّكبة يَنكُبُها»، هكذا رواه أحمد. و عن أبي سعيد و أبي هريرة: أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «ما يصيب المسلم من نصب و لا وصب و لا سقم و لا حزن، حتى الهم يُهمه، إلا كفَّر الله من سيئاته» أخرجاه.

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت هذه الأمراض التي تصيبنا، ما لنا بها؟ قال: «كفارات». قال أُبي: و إن قَلَّت؟ قال: «حتى الشوكة فما فوقها» قال: فدعا أُبي على نفسه أنه لا يفارقه الوعك حتى يموت في أن لا يشغله عن حج و لا عمرة و لا جهاد في سبيل الله و لا صلاة مكتوبة في جماعة، فما مسه إنسان إلا وجد حره حتى مات رضي الله عنه، تفرد به أحمد.

١٢٤- و قوله: ﴿و من يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى و هو مؤمن﴾ الآية، لما ذكر الجزاء على السيئات وأنه لا بد أن يأخذ مستحقها من العبد إما في الدنيا و هو الأجود له، و إما في الآخرة و العياذ بالله من ذلك، ونسأله العافية في الدنيا و الآخرة، و الصفح و العفو و المسامحة، شرع في بيان إحسانه و كرمه و رحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده، ذُكرانهم و إناثهم بشرط الإيمان، وأنه سيدخلهم الجنة و لا يظلمهم من حسناتهم و لا مقدار النقير، و هو النقرة التي في ظهر نواة التمرة، و قد تقدم الكلام على الفتيل وهو الخيط في شق النواة، و هذا النقير و هما في نواة التمرة، و كذا القطمير و هو اللفافة التي على نواة التمرة، و الثلاثة في القرآن.

١٢٥- ثم قال تعالى: ﴿و من أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله﴾ أخلص العمل لربه عز وجل فعمل إيماناً واحتساباً، ﴿و هو محسن﴾ أي اتبع في عمله ما شرعه الله له، و ما أرسل به رسوله من الهدى و دين الحق، وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما، أي يكون: خالصاً صواباً، و الخالص أن يكون لله، و الصواب أن يكون متابعاً للشريعة فيصح ظاهره بالمتابعة، و باطنه بالإخلاص، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد، فمتى فقد الإخلاص كان منافقاً و هم الذين يراءون الناس، و من فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً، و متى جمعهما كان عمل المؤمنين ﴿الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا و نتجاوز عن سيئاتهم﴾، الآية. و لهذا قال

تعالى: ﴿واتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ و هم محمد و أتباعه إلى يوم القيامة. كما قال تعالى: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه و هذا النبي﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً و ما كان من المشركين﴾ و الحنيف هو المائل عن الشرك قصداً، أي تاركاً له عن بصيرة، و مقبل على الحق بكليته لا يصده عنه صاد، و لا يرده عنه راد.

و قوله: ﴿و اتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ و هذا من باب الترغيب في اتباعه، لأنه إمام يقتدى به حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له، فإنه انتهى إلى درجة الخلة التي هي أرفع مقامات المحبة، و ما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه، كما وصفه به في قوله: ﴿و إبراهيم الذي وفى﴾، قال كثير من علماء السلف: أي قام بجميع ما أمر به في كل مقام من مقامات العبادة، فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير، و لا كبير عن صغير، و قال تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين﴾ الآية، و الآية بعدها، و روى البخاري عن عمرو بن ميمون قال: إن معاذاً لما قدم اليمن صلى بهم الصبح، فقرأ ﴿و اتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ فقال رجل من القوم: لقد قرت عين أم إبراهيم. وإنما سمي خليل الله لشدة محبة ربه عز وجل، له لما قام به من الطاعة التي يحبها و يرضاها، ولهذا ثبت في الصحيحين من رواية أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها، قال: «أما بعد، أيها الناس فلو كنتُ متخذاً من أهل الأرض خليلاً، لاتخذتُ أبا بكر بن أبي قحافة خليلاً، و لكن صاحبكم خليلُ الله» و جاء من طريق جندب بن عبد الله البجلي و عبد الله بن عمرو بن العاص و عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إن الله اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً».

و قال ابن عباس أنه قال: أتعجبون من أن تكون الخلة لإبراهيم، و الكلام لموسى، و الرؤية لمحمد صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين، رواه الحاكم، و كذا روي عن أنس بن مالك و غير واحد من الصحابة و التابعين والأئمة من السلف و الخلف.

١٢٦- و قوله: ﴿و لله ما في السموات و الأرض﴾ أي الجميع ملكه و عبيده و خلقه، و هو المتصرف في جميع ذلك، لا رادّ لما قضى و لا معقّب لما حكم، و لا يسأل عما يفعل لعظمته و قدرته و عدله و حكمته و لطفه ورحمته. و قوله: ﴿و كان الله بكل شيء محيطاً﴾ أي علمه نافذ في جميع ذلك لا تخفى عليه خافية من عباده، و لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات و لا في الأرض و لا أصغر من ذلك و لا أكبر، و لا تخفى عليه ذرة لما تراءى للناظرين و ما توارى.

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (١٢٧) ﴾

١٢٧- روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها ﴿و يستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن - إلى قوله - وترغبون أن تنكحوهن﴾ قالت عائشة: هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها و وارثها، فأشركته في ماله حتى في العذق، فيرغب أن ينكحها و يكره أن يزوجها رجلاً فيشركه في ماله بما شركته، فيعضلها، فنزلت هذه الآية،

وكذلك رواه مسلم، كلاهما عن أسامة، و روى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن، فأنزل الله **﴿و يستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن و ما يتلى عليكم في الكتاب﴾** الآية، قال: و الذي ذكر الله أنه يتلى عليه في الكتاب، الآية الأولى التي قال الله **﴿و إن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾** و بهذا الإسناد عن عائشة قالت: و قول الله عز وجل: **﴿و ترغبون أن تنكحوهن﴾** رغبة أحدكم عن يتيمته التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال و الجمال، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها و جمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن، و أصله ثابت في الصحيحين.

و المقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها، فتارة يرغب في أن يتزوجها، فأمره الله أن يمهرها أسوة بأمثالها من النساء، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء، فقد وسّع الله عز وجل، و هذا المعنى في الآية الأولى التي في أول السورة، و تاة لا يكون له فيها رغبة لدمامتها عنده، أو في نفس الأمر، فنهاه الله عز وجل أن يعضلها عن الأزواج، خشية أن يشركوه في ماله الذي بينه و بينها، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية.

و قال في قوله: **﴿و المستضعفين من الولدان﴾** كانوا في الجاهلية لا يُورِّثون الصغار و لا البنات، و ذلك قوله: **﴿لا تؤتونهن ما كتب لهن﴾** فنهى الله عن ذلك، و بيّن لكل ذي سهم سهمه، فقال: **﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾** صغيراً أو كبيراً، و كذا قال سعيد بن جبير و غيره، و قوله: **﴿و ما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً﴾** تهييجاً على فعل الخيرات و امتثالاً للأوامر، و إن الله عز وجل عالم بجميع ذلك، و سيجزي عليه أوفر الجزاء و أتمه.

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨) وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٢٩) وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠) ﴾

١٢٨- يقول تعالى مخبراً و مشرعاً من حال الزوجين تارة في حال نفور الرجل عن المرأة، و تارة في حال اتفاقه معها، و تارة في حال فراقه لها، فالحالة الأولى ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها أو يعرض عنها، فلها أن تُسقط عنه حقها أو بعضه من نفقة أو كسوة أو مبيت أوغير ذلك من حقها عليه، و له أن يقبل ذلك منها فلا حرج عليها في بذلها ذلك له، و لا عليه في قبوله منها، و لهذا قال تعالى: **﴿فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً﴾** ثم قال: **﴿و الصلح خير﴾** أي من الفراق، و قوله: **﴿و أحضرت الأنفس الشح﴾** أي الصلح عند المشاحة خير من الفراق، و لهذا لما كبرت سودة بنت زمعة عزم رسول الله ﷺ على فراقها فصالحته على أن يمسكها و تترك يومها لعائشة، فقبل ذلك منها و أبقاها على ذلك.

(ذكر الرواية بذلك) في الصحيحين عن عائشة قالت: لما كبرت سودة بنت زمعة وهَبتْ يومها لعائشة، فكان النبيﷺ يقسم لها بيوم سودة.

و روى الحاكم عن عائشة أنها قالت له: يا ابن أختي، كان رسول اللهﷺ لا يفضّل بعضنا على بعض في مكثه عندنا، و كان قَلَّ يوم إلا و هو يطوف علينا، فيدنو من كان امرأة من مسيس حتى يبلغ إلى من هو يومها فيبيت عندها، و لقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنت و فزعت أن يفارقها رسول اللهﷺ: يا رسول الله، يومي هذا لعائشة، فقبل ذلك رسول اللهﷺ، قالت عائشة: ففي ذلك أنزل الله **﴿و إن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾** و كذلك رواه أبو داود. و روى البخاري عن عائشة **﴿و إن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾** قال: الرجل تكون عنده المرأة المسنة ليس بمستكثر منها، يريد أن يفارقها فتقول: أجعلك من شأني في حل، فنزلت هذه الآية.

و روى ابن جرير عن عائشة **﴿و إن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً و الصلح خير﴾** قالت: هذا في المرأة تكون عند الرجل، فلعله لا يكون بمستكثر منها، و لا يكون لها ولد و يكون لها صحبة فتقول: لا تُطلقني و أنت في حل من شأني. و روى عنها أيضاً قالت: هو الرجل يكون له امرأتان: إحداهما قد كبرت، أو هي دميمة، و هو لا يستكثر منها فتقول: لا تُطلقني و أنت في حل من شأني، و هذا الحديث ثابت في الصحيحين.

و كذا فسرها ابن عباس و عبيدة السلماني ومجاهد بن جبير و الشعبي و سعيد بن جبير و عطاء و عطية العوفي و مكحول و الحسن و الحكم بن عتيبة و قتادة و غير واحد من السلف و الأئمة، و لا أعلم في ذلك خلافاً أن المراد بهذه الآية هذا، و الله أعلم.

و قوله: **﴿و الصلح خير﴾** قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني التخيير أن يخير الزوج لها بين الإقامة و الفراق خير من تمادي الزوج على أثرة غيرها عليها، و الظاهر من الآية أن صلحهما على ترك بعض حقها للزوج و قبول الزوج ذلك خير من المفارقة بالكلية، كما أمسك النبيﷺ سودة بنت زمعة على أن تركت يومها لعائشة رضي الله عنها و لم يفارقها، بل تركها من جملة نسائه، و فعله لتتأسى به أُمته في مشروعية ذلك وجوازه، فهو أفضل في حقه عليه الصلاة و السلام، و لما كان الوفاق أحب إلى الله من الفراق، قال: **﴿والصلح خير﴾** بل الطلاق بغيض إليه سبحانه و تعالى، و لهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود و ابن ماجه عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول اللهﷺ: «أبغضُ الحلال إلى الله الطلاق».

و قوله: **﴿و إن تحسنوا و تتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾** و إن تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن و تقسموا لهن أسوة أمثالهن، فإن الله عالم بذلك و سيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء.

١٢٩- و قوله تعالى: **﴿و لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء و لو حرصتم﴾** أي لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه، فإنه و إن وقع القَسْم الصوري ليلة و ليلة، فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة و الجماع، كما قاله ابن عباس و عبيدة السلماني و مجاهد و الحسن البصري و الضحاك بن مزاحم، وروى ابن أبي حاتم عن ابن أبي مليكة، قال: نزلت هذه الآية **﴿و لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء و لو حرصتم﴾** في عائشة، يعني أن النبيﷺ كان يحبها أكثر من غيرها، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد

و أهل السنن عن عائشة قالت: كان رسول الله يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا قَسْمي فيما أملك، فلا تَلُمْني فيما تملك و لا أملك» يعني القلب، هذا لفظ أبي داود، و هذا إسناد صحيح.

و قوله: **﴿فلا تميلوا كل الميل﴾** أي فإذا ملتم إلى واحدة منهن فلا تبالغوا في الميل بالكلية **﴿فتذروها كالمعلقة﴾** أي فتبقى هذه الأخرى معلقة. قال ابن عباس و مجاهد و سعيد بن جبير و الحسن و الضحاك و الربيع ابن أنس و السدي و مقاتل بن حيان: معناها لا ذات زوج و لا مطلقة. و روى أبو داود الطيالسي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كانت له امرأتان فمالَ إلى إحداهما، جاء يوم القيامة و أحد شقيه ساقط»، وهكذا رواه الإمام أحمد و أهل السنن.

١٣٠- ثم قال تعالى: **﴿و إن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته و كان الله واسعاً حكيماً﴾** و هذه هي الحالة الثالثة، وهي حالة الفراق و قد أخبر الله تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها و يغنيها عنه، بأن يعوضه الله من هو خير له منها، و يعوضها عنه بمن هو خير لها منه، **﴿و كان الله واسعاً حكيماً﴾** أي واسع الفضل، عظيم المن، حكيماً في جميع أفعاله و أقداره و شرعه.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٣٢) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤) ﴾

١٣١- يخبر تعالى أنه مالك السموات و الأرض و أنه الحاكم فيهما، و لهذا قال: **﴿و لقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم و إياكم﴾** أي وصيناكم بما وصيناهم به من تقوى الله عز وجل بعبادته وحده لا شريك له. ثم قال: **﴿و إن تكفروا فإن لله ما في السموات و ما في الأرض﴾** الآية كما قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لقومه **﴿إن تكفروا أنتم و من في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾**. و قال: **﴿فكفروا و تولوا و استغنى الله و الله غني حميد﴾** أي غني عن عباده، (حميد) أي محمود في جميع ما يقدره و يشرعه.

١٣٢- و قوله: **﴿و لله ما في السموات و ما في الأرض و كفى بالله وكيلاً﴾** أي هو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب الشهيد على كل شيء.

١٣٣- و قوله: **﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس و يأت بآخرين و كان الله على ذلك قديراً﴾** أي هو قادر على إذهابكم و تبديلكم بغيركم إذا عصيتموه، و كما قال: **﴿و إن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾** و قال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره. و قال تعالى: **﴿إن يشأ يذهبكم و يأت بخلق جديد * و ما ذلك على الله بعزيز﴾** أي و ما هو عليه بممتنع.

١٣٤- و قوله: **﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا و الآخرة﴾** أي يامن ليس له همة إلا الدنيا، اعلم أن عند الله ثواب الدنيا و الآخرة، و إذا سألته من هذه أغناك و أعطاك و أقناك، كما قال تعالى: **﴿فمن**

الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا و ما له في الآخرة من خلاق ۞ و منهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة و في الآخرة حسنة و قنا عذاب النار ۞ أولئك لهم نصيب مما كسبوا﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد - إلى قوله - انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ الآية.

و قوله: ﴿فعند الله ثواب الدنيا و الآخرة﴾ ظاهر في حصول الخير في الدنيا و الآخرة، أي بيده هذا و هذا، فلا يقتصرن قاصر الهمة على السعي للدنيا فقط، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة، فإن مرجع ذلك كله إلى الذي بيده الضر و النفع، و هو الله الذي لا إله إلا هو الذي قد قسم السعادة و الشقاوة بين الناس في الدنيا و الآخرة، و عدل بينهم فيما علمه فيهم ممن يستحق هذا و ممن يستحق هذا، ولهذا قال: ﴿و كان الله سميعاً بصيراً﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) ﴾

١٣٥- يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط أي بالعدل، فلا يعدلوا عنه يميناً و لا شمالاً، و لا تأخذهم في الله لومة لائم و لا يصرفهم عنه صارف، و أن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه، و قوله: ﴿شهداء لله﴾ كما قال: ﴿و أقيموا الشهادة لله﴾ أي ليكن أداؤها ابتغاء وجه الله، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً خالية من التحريف و التبديل و الكتمان، و لهذا قال: ﴿و لو على أنفسكم﴾ أي اشهد الحق و لو عاد ضررها عليك، و إذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه و لو عادت مضرته عليك، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً و مخرجاً من كل أمر يضيق عليه. و قوله: ﴿أو الوالدين و الأقربين﴾ أي و إن كانت الشهادة على والديك و قرابتك فلا تراعهم فيها بل اشهد بالحق و إن عاد ضررها عليهم، فإن الحق حاكم على كل أحد.

و قوله: ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾ أي لا ترعاه لغناه و لا تشفق عليه لفقره، الله يتولاهما بل أولى بهما منك و أعلم بما فيه صلاحهما. و قوله: ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ أي فلا يحملنكم الهوى والعصبية و بغض الناس إليكم على ترك العدل في أموركم و شؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان، كما قال تعالى: ﴿و لا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾، و من هذا القبيل قول عبد الله بن رواحة لما بعثه النبي ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم و زروعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم، فقال: و الله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلي، و لأنتم أبغض إلي من أعدادكم من القردة و الخنازير، و ما يحملني حبي إياه، و بغضي لكم على أن لا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السموات و الأرض، و سيأتي الحديث مسنداً في سورة المائدة إن شاء الله تعالى[1] و قوله: ﴿و إن تلووا أو تعرضوا﴾ قال مجاهد و غير واحد من السلف: تلووا، أي تحرّفوا الشهادة و تغيروها، و اللّيّ هو التحريف وتعمد الكذب، قال تعالى: ﴿و إن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ الآية، و الإعراض هو كتمان الشهادة و تركها، قال تعالى: ﴿و من

(١) لم يذكره في موضعه.

يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ و قال النبي ﷺ : «خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها»[1] و لهذا توعدهم الله بقوله : ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ أي و سيجازيكم بذلك .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦) ﴾

١٣٦ - يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان شعبه و أركانه و دعائمه و ليس هذا من باب تحصيل الحاصل ، بل من باب تكميل الكامل و تقريره و تثبيته والاستمرار عليه ، كما يقول المؤمن في كل صلاة ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أي بصرنا فيه و زدنا هدى و ثبتنا عليه ، فأمرهم بالإيمان به و برسوله ، كما قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و آمنوا برسوله﴾ . و قوله : ﴿و الكتاب الذي نزل على رسوله﴾ يعني القرآن ، ﴿و الكتاب الذي أنزل من قبل﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿و من يكفر بالله و ملائكته و كتبه ورسله و اليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ أي فقد خرج عن طريق الهدى و بعد عن القصد كل البعد .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) ﴾

١٣٧ - يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ، ثم رجع عنه ، ثم عاد فيه ، ثم رجع و استمر على ضلاله و ازداد حتى مات ، فإنه لا توبة بعد موته و لا يغفر الله له ، و لا يجعل له مما هو فيه فرجاً و لا مخرجاً ، و لا طريقاً إلى الهدى ، و لهذا قال : ﴿لم يكن ليغفر لهم و لا ليهديهم سبيلاً﴾ . قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ قال : تموا على كفرهم حتى ماتوا .

١٣٨ - ثم قال : ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً﴾ يعني أن المنافقين من هذه الصفة ، فإنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ، ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة يوالونهم و يسرون إليهم بالمودة ، و يقولون لهم إذا خلوا بهم : إنما نحن معكم ، إنما نحن مستهزئون ، أي بالمؤمنين ، في إظهارنا لهم بالموافقة ، قال الله تعالى منكراً عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين ﴿أيبتغون عندهم العزة﴾ ، ثم أخبر تعالى بأن العزة كلها له وحده لا شريك له و لمن جعلها له ، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾ . و قال تعالى : ﴿و لله العزة و لرسوله و للمؤمنين و لكن المنافقين لا يعلمون﴾ ، و المقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله و الإقبال على عبوديته والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا ، و يوم يقوم الأشهاد .

١٤٠ - و قوله : ﴿و قد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها و يستهزأ بها فلا تقعدوا معهم

---

(١) رواه أحمد و ابن ماجه من حديث زيد بن خالد رضي الله عنه .

حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم﴾ أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم و رضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله و يستهزأ و ينتقص بها، و أقررتموهم على ذلك، فقد شاركتموهم في الذي هم فيه، فلهذا قال تعالى: **﴿إنكم إذاً مثلهم﴾** في المأثم، كما جاء في الحديث «مَنْ كان يومن بالله و اليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يُدار عليها الخمر»[1].

و الذي أحيل عليه في هذه الآية من النهي في ذلك هو قوله تعالى في سورة الأنعام، و هي مكية **﴿و إذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾** الآية، قال مقاتل بن حيان: نسخت هذه الآية التي في سورة الأنعام، يعني نُسخ قوله: **﴿إنكم إذاً مثلهم﴾** - إلى قوله - **و ما على الذين يتقون من حسابهم من شيء لعلهم يتقون﴾**. و قوله: **﴿إن الله جامع المنافقين و الكافرين في جهنم جميعاً﴾** أي كما أشركوهم في الكفر كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نارجهنم أبداً، و يجمع بينهم في دار العقوبة و النكال، و القيود و الأغلال، وشراب الحميم و الغسلين لا الزلال.

﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١) ﴾

١٤١ - يخبر تعالى عن المنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء بمعنى ينتظرون زوال دولتهم، و ظهور الكفر عليهم وذهاب ملتهم، **﴿فإن كان لكم فتح من الله﴾** أي نصر و تأييد و ظفر و غنيمة **﴿قالوا ألم نكن معكم﴾** أي يتوددون إلى المؤمنين بهذه المقالة، **﴿و إن كان للكافرين نصيب﴾** أي إدالة على المؤمنين في بعض الأحيان كما وقع يوم أحد، فإن الرسل تبتلى ثم يكون لها العاقبة **﴿قالوا ألم نستحوذ عليكم و نمنعكم من المؤمنين﴾** أي ساعدناكم في الباطن، و ما ألوناهم خبالاً و تخذيلاً حتى انتصر عليهم، و قال السدي: **﴿نستحوذ عليكم﴾** نغلب عليكم، كقوله: **﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾** و هذا أيضاً تودد منهم إليهم، فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء ليحظوا عندهم و يأمنوا كيدهم، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم و قلة إيقانهم، قال تعالى: **﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾** أي بما يعلمه منكم أيها المنافقون من البواطن الرديئة فلا تغتروا بجريان الأحكام الشريعة عليكم ظاهراً في الحياة الدنيا، لما في ذلك من الحكمة، فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم، بل هو يوم تبلى فيه السرائر و يحصل ما في الصدور.

و قوله: **﴿و لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾** و روى عبد الرزاق عن يسيع الكندي، قال: جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فقال: كيف هذه الآية **﴿و لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾** فقال علي ﷺ: أدنه أدنه، ثم قال: **﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة و لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾**.

و كذا روي عن ابن عباس قال: ذاك يوم القيامة، وكذا عن أبي مالك الأشجعي، و قال السدي: سبيلاً أي حجة، و يحتمل أن يكون المعنى **﴿و لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾** أي في الدنيا بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية، و إن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس، فإن العاقبة للمتقين

(١) رواه الترمذي و الحاكم من حديث جابر ﷺ و هو حديث حسن.

في الدنيا و الآخرة، كما قال تعالى: **﴿إنا لننصر رسلنا و الذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾** الآية، و على هذا يكون رداً على المنافقين فيما أمّلوه و رجوه و انتظروه من زوال دولة المؤمنين، و فيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفاً على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم، كماقال تعالى: **﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم - إلى قوله - نادمين﴾** و قد استدل كثير من العلماء بهذه الآية الكريمة على أصح قولي العلماء، و هو المنع من بيع العبد المسلم للكافر، لما في صحة ابتياعه من التسليط له عليه و الإذلال، و من قال منهم بالصحة، يأمره بإزالة ملكه عنه في الحال لقوله تعالى: **﴿و لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾**.

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لا إِلَىٰ هَٰؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَٰؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (١٤٣) ﴾

١٤٢ - قد تقدم في أول سورة البقرة قوله تعالى: **﴿يخادعون الله و الذين آمنوا﴾**، و قال ههنا: **﴿إن المنافقين يخادعون الله و هو خادعهم﴾** و لا شك أن الله لا يُخادَع، فإنه العالم بالسرائر و الضمائر، و لكن المنافقين لجهلهم و قلة علمهم و عقلهم يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس و جرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً، فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة و أن أمرهم يروج عنده، كما أخبر تعالى عنهم أنهم يوم القيامة يحلفون له أنهم كانوا على الاستقامة و السداد، و يعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده، كما قال تعالى: **﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم﴾** الآية، و قوله: **﴿هو خادعهم﴾** أي هو الذي يستدرجهم في طغيانهم و ضلالهم، و يخذلهم عن الحق و الوصول إليه في الدنيا، و كذلك يوم القيامة، كما قال تعالى: **﴿يوم يقول المنافقون و المنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم - إلى قوله تعالى - و بئس المصير﴾** و قد ورد في الحديث «مَنْ سمّع سمّع الله به، و مَنْ راءى راءى الله به»[1].

و قوله: **﴿و إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾** الآية، هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال و أفضلها خيرها، و هي الصلاة إذا قاموا إليها، قاموا و هم كسالى عنها، لأنهم لا نية لهم فيها و لا إيمان لهم بها و لا خشية، و لا يعقلون معناها كما روى ابن مردويه عن ابن عباس قال: يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة و هو كسلان، و لكن يقوم إليها طلق الوجه عظيم الرغبة شديد الفرح، فإنه يناجي الله و إن الله تُجاهه يغفر له ويجيبه إذا دعاه، ثم يتلو هذه الآية **﴿و إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾**. هذه صفة ظواهرهم كما قال: **﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾** ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة، فقال: **﴿يراؤون الناس﴾** أي لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله بل إنما يشهدون الصلاة تقية من الناس و مصانعة لهم، و لهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التي لا يرون فيها غالباً كصلاة العشاء في وقت العتمة، و صلاة الصبح في وقت الغلس، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء و صلاة الفجر، و لو يعلمون ما فيهما لأتوهما و لو حَبواً، و لقد هممت أنْ آمرَ بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال و معهم حُزَم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار». و في رواية «و الذي

---

(١) متفق عليه.

نفسي بيده، لو علم أحدهم أنه يجد عرقاً سميناً أو مرماتين حسنتين لشهد الصلاة».

و قوله: ﴿و لا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ أي في صلاتهم لا يخشعون و لا يدرون ما يقولون بل هم في صلاتهم ساهون لاهون، و عما يراد بهم من الخير معرضون، و قد روى الإمام مالك عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «تلك صلاةُ المنافق، تلك صلاةُ المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً» و كذا رواه مسلم و الترمذي و النسائي.

١٤٣- و قوله: ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء﴾ يعني المنافقين محيرين بين الإيمان و الكفر، فلا هم مع المؤمنين ظاهراً و باطناً، و لا مع الكافرين ظاهراً و باطناً، بل ظواهرهم مع المؤمنين، و بواطنهم مع الكافرين، و منهم من يعتريه الشك، فتارة يميل إلى هؤلاء و تارة يميل إلى أولئك ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ الآية، و قال مجاهد ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء﴾ يعني أصحاب محمد ﷺ ﴿و لا إلى هؤلاء﴾ يعني اليهود. و روى ابن جرير عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة و إلى هذه مرة و لا تدري أيتهما تتبع»، تفرد به مسلم. و روى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: مثل المؤمن و المنافق و الكافر مثل ثلاثة نفر انتهوا إلى واد، فوقع أحدهم فعبر، ثم وقع الآخر حتى إذا أتى على نصف الوادي ناداه الذي على شفير الوادي: ويلك أين تذهب إلى الهلكة، ارجع عودك على بدئك، و ناداه الذي عبر: هلم إلى النجاة، فجعل ينظر إلى هذا مرة و إلى هذا مرة، قال: فجاءه سيل فأغرقه، فالذي عبر هو المؤمن، و الذي غرق المنافق ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء﴾ و الذي مكث الكافر.

و روى ابن جرير عن قتادة ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء﴾ يقول: ليسوا بمؤمنين مخلصين، ولا مشركين مصرحين بالشرك، و لهذا قال تعالى: ﴿و من يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ أي و من صرفه عن طريق الهدى ﴿فلن تجد له ولياً مرشداً﴾، و لا منقذ لهم مما هم فيه، فإنه تعالى لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل و هم يسألون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)﴾

١٤٤- ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يعني مصاحبتهم و مصادقتهم و مناصحتهم و إسرار المودة إليهم، و إفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم، كما قال تعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين و من يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة و يحذركم الله نفسه﴾ أي يحذركم عقوبته في ارتكابكم نهيه، و لهذا قال ههنا: ﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ أي حجة عليكم في عقوبته إياكم. قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قوله: ﴿سلطاناً مبيناً﴾ قال كل سلطان في

القرآن حجة ؛ و هذا إسناد صحيح ، و كذا قال مجاهد و عكرمة و سعيد بن جبير و محمد بن كعب القرظي والضحاك و السدي و النضر بن عربي .

ثم أخبرنا تعالى ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ أي يوم القيامة جزاء على كفرهم الغليظ . قال الوالبي عن ابن عباس ﴿في الدرك الأسفل من النار﴾ أي في أسفل النار ، و قال غيره : النار دركات كما أن الجنة درجات . و روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ قال : الدرك الأسفل بيوت لها أبواب تطبق عليهم فتوقد من تحتهم و من فوقهم . و روى ابن جرير عن ابن مسعود ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ قال : في توابيت من نار تطبق عليهم أي مغلقة مقفلة ، و رواه ابن أبي حاتم .

﴿و لن تجد لهم نصيراً﴾ أي ينقذهم مما هم فيه و يخرجهم من أليم العذاب ، ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم في الدنيا ، تاب عليه و قبل ندمه إذا أخلص في توبته و أصلح عمله ، و اعتصم بربه في جميع أمره ، فقال تعالى : ﴿إلا الذين تابوا و أصلحوا و اعتصموا بالله و أخلصوا دينهم لله﴾ أي بدلوا الرياء بالإخلاص فينفعهم العمل الصالح و إن قلّ ، ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾ أي في زمرتهم يوم القيامة ﴿و سوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾ .

١٤٧- ثم قال تعالى مخبراً عن غناه عما سواه ، و أنه إنما يعذب العباد بذنوبهم فقال تعالى : ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم و آمنتم﴾ أي أصلحتم العمل و آمنتم بالله و رسوله ﴿و كان الله شاكراً عليماً﴾ أي من شكر شكر له ، و من آمن قلبه به علمه و جازاه على ذلك أوفر الجزاء .

﴿ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً (١٤٨) إِن تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً (١٤٩) ﴾

١٤٨- قال أبي طلحة عن ابن عباس في الآية يقول : لا يحب الله أن يدعو أحدٌ على أحد إلا أن يكون مظلوماً فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه و ذلك ، قوله : ﴿إلا من ظلم﴾ و إن صبر فهو خير له ، و قال الحسن البصري : لا يدع عليه ، و ليقل : اللهم أعني عليه ، و استخرج حقي منه ، و في رواية عنه قال : قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدي عليه .

و قال عبد الكريم بن مالك الجزري في هذه الآية : هو الرجل يشتمك فتشتمه ، و لكن إن افترى عليك فلا تفتر عليه ، لقوله : ﴿و لمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل﴾ . و روى أبو داود عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «المستبان ما قالا ، فعلى البادئ منهما ما لم يعتد المظلوم» و روى عبد الرزاق عن مجاهد في قوله : ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾ قال : ضاف رجل رجلاً فلم يؤد إليه حق ضيافته ، فلما خرج أخبر الناس فقال : ضفت فلاناً فلم يؤد إلي حق ضيافتي ، قال : فذلك الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم حتى يؤدي الآخر إليه حق ضيافته . و كذا روي عن غير واحد عن مجاهد نحو هذا ، و قد روى الجماعة سوى النسائي و الترمذي عن عقبة بن عامر قال : قلنا : يا رسول الله ، إنك تبعثنا فننزل بقوم فلا يقرونا ، فما ترى في ذلك ؟ فقال : «إذا نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغي للضيف ، فاقبلوا منهم ، و إن لم يفعلوا فخذوا منهم حقّ الضيف الذي ينبغي لهم» .

و روى أحمد عن المقدام بن معديكرب أبي كريمة سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليلة الضيف واجبة على كل مسلم، فإن أصبح بفنائه محروماً كان ديناً له عليه، فإن شاء اقتضاه و إن شاء تركه». و رواه أبو داود.

و من هذه الأحاديث و أمثالها، ذهب أحمد و غيره إلى وجوب الضيافة، و من هذا القبيل الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار عن أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال: إن لي جاراً يؤذيني، فقال له: «أخرج متاعك فضعه على الطريق» فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق، فكل مَن مرَّ به قال: ما لك؟ قال: جاري يؤذيني، فيقول: اللهم العنه، اللهم أخزه، قال: فقال الرجل: ارجع إلى منزلك، و الله لا أوذيك أبداً، و قد رواه أبو داود.

١٤٩- و قوله: **﴿إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً﴾** أي إن تظهروا أيها الناس خيراً أو أخفيتموه أو عفوتم عمن أساء إليكم، فإن ذلك مما يقربكم عند الله و يجزل ثوابكم لديه، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم، و لهذا قال: **﴿فإن الله كان عفواً قديراً﴾**. و في الحديث الصحيح «ما نقص مالٌ من صدقةٍ، و لا زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً، و من تواضع لله رفعه»[1].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٥٢) ﴾

١٥٠- يتوعد تبارك و تعالى الكافرين به و برسله، من اليهود و النصارى حيث فرقوا بين الله و رسله في الإيمان فآمنوا ببعض الأنبياء و كفروا ببعض بمجرد التشهي و العادة، و ما ألفوا عليه آباءهم لا عن دليل قادهم إلى ذلك، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك، بل بمجرد الهوى والعصبية، فاليهود-عليهم لعائن الله- آمنوا بالأنبياء إلا عيسى و محمد عليهما الصلاة و السلام، و النصارى آمنوا بالأنبياء و كفروا بخاتمهم و أشرفهم محمد ﷺ، والسامرة لا يؤمنون بنبيٍّ بعد يوشع خليفة موسى بن عمران، و المجوس يقال إنهم كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له رزادشة، ثم كفروا بشرعه فَرُفع من بين أظهرهم، و الله أعلم، و المقصود أن مَنْ كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض، فمن ردّ نبوته للحسد أو العصبية أو التشهي، تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً، إنما هو عن غرض و هوى و عصبية، و لهذا قال تعالى: **﴿إن الذين يكفرون﴾** بالله و رسله فوسمهم بأنهم كفار بالله و رسله، **﴿و يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله﴾** أي في الإيمان، **﴿و يقولون نؤمن ببعض و نكفر ببعض و يريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً﴾** أي طريقاً و مسلكاً.

١٥١- ثم أخبر تعالى عنهم فقال: **﴿أولئك هم الكافرون حقاً﴾** أي كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به، لأنه ليس شرعياً إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله، لآمنوا بنظيره و بمن هو أوضح دليلاً و أقوى برهاناً منه، أو نظروا حق النظر في نبوته.

---

(١) رواه مسلم.

و قوله : ﴿و أعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ أي كما استهانوا بمن كفروا به ، إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله و إعراضهم عنه و إقبالهم على جمع حطام الدنيا مما لا ضرورة بهم إليه ، و إما بكفرهم به بعد علمهم بنبوته ، كما كان يفعله كثير من أحبار اليهود في زمان رسول الله ﷺ حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة العظيمة و خالفوه و كذبوه و عادوه و قاتلوه ، فسلط الله عليهم الذل الدنيوي الموصول بالذل الأخروي ﴿وضربت ليهم الذلة و المسكنة و باؤوا بغضب من الله﴾ في الدنيا و الآخرة .

١٥٢ - و قوله : ﴿و الذين آمنوا بالله و رسله و لم يفرقوا بين أحد منهم﴾ يعني بذلك أمة محمد ﷺ ، فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله و بكل نبي بعثه الله ، كما قال تعالى : ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه و المؤمنون كل آمن بالله﴾ الآية ، ثم أخبر تعالى بأنه قد أعد لهم الجزاء الجزيل ، و الثواب الجليل ، و العطاء الجميل ، فقال : ﴿أولئك سوف يؤتيهم أجورهم﴾ على ما آمنوا بالله و رسله ﴿و كان الله غفوراً رحيماً﴾ أي لذنوبهم ، أي إن كان لبعضهم ذنوب .

﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) ﴾

١٥٣ - قال محمد بن كعب القرظي و السدي و قتادة : سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة ، قال ابن جريج : سألوه أن ينزل عليهم صحفاً من الله مكتوبة إلى فلان و فلان و فلان بتصديقه فيما جاءهم به ، و هذا إنما قالوه على سبيل التعنت و العناد و الكفر و الإلحاد ، كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك ، كما هو مذكور في سورة سبحان ﴿و قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ الآيات ، و لهذا قال تعالى : ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾ أي بطغيانهم و بغيهم ، و عتوهم و عنادهم ، و هذا مفسر في سورة البقرة حيث يقول تعالى : ﴿و إذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة و أنتم تنظرون ◆ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ .

و قوله تعالى : ﴿ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي من بعدما رأوا من الآيات الباهرة و الأدلة القاهرة على يد موسى ﷺ في بلاد مصر ، و ما كان من إهلاك عدوهم فرعون و جميع جنوده في اليم ، فما جاوزوه إلا يسيراً ، حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا لموسى : ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ الآيتين ، ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل مبسوطة في سورة الأعراف ، و في سورة طه ، بعد ذهاب موسى إلى مناجاة الله عز وجل ، ثم لما رجع و كان ما كان ، جعل الله توبتهم من الذي صنعوه و ابتدعوه أن يقتل من لم يعبد العجل منهم مَنْ عبده ، فجعل يقتل بعضهم بعضاً ، ثم أحياهم الله عز وجل ، و قال الله تعالى : ﴿فعفونا عن ذلك و آتينا موسى سلطناً مبيناً﴾ .

ثم قال: ﴿و رفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾ و ذلك حين امتنعوا من الالتزام بالأحكام بالتوراة، و ظهر منهم إباءٌ عما جاءهم به موسى عليه السلام، و رفع الله على رؤوسهم جبلاً، ثم ألزموا فالتزموا و سجدوا، و جعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم، خشية أن يسقط عليهم، كما قال تعالى: ﴿و إذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة و ظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ الآية، ﴿و قلنا لهم ادخلوا الباب سجداً﴾ أي فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل، فإنهم أمروا أن يدخلوا باب بيت القدس سجداً و هم يقولون حطة، أي: اللهم حُطَّ عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد و نكولنا عنه، حتى تهنا في التيه أربعين سنة، فدخلوا يزحفون على أستاههم و هم يقولون: حنطة في شعرة ﴿و قلنا لهم لا تعدوا في السبت﴾ أي وصيناهم بحفظ السبت و التزام ما حرّم الله عليهم، ما دام مشروعاً لهم ﴿و أخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ أي شديداً، فخالفوا و عصوا و تحيلوا على ارتكاب ما حرم الله عزوجل، كما هو مبسوط في سورة الأعراف عند قوله: ﴿و اسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾ الآيات.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً (١٥٩)﴾

١٥٥- و هذه من الذنوب التي ارتكبوها، مما أوجب لعنتهم و طردهم و إبعادهم عن الهدى، و هو نقضهم المواثيق و العهود التي أُخذت عليهم، و كفرهم بآيات الله، أي حججه و براهينه، و المعجزات التي شاهدوها على يد الأنبياء عليهم السلام، قوله: ﴿و قتلهم الأنبياء بغير حق﴾ و ذلك لكثرة إجرامهم و اجترائهم على أنبياء الله، فإنهم قتلوا جمعاً غفيراً من الأنبياء عليهم السلام. و قولهم: ﴿قلوبنا غلف﴾ قال ابن عباس ومجاهد و سعيد بن جبير و عكرمة و السدي و قتادة و غير واحد: أي في غطاء، و هذا كقول المشركين ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ الآية، و قيل معناه: أنهم ادعوا أن قلوبهم غلف للعلم، أي أوعية للعلم قد حوته و حصّلته، و قد تقدم نظيره في سورة البقرة، قال الله تعالى: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ فعلى القول الأول كأنهم يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعي ما يقول، لأنها في غلف و في أكنة، قال الله: بل هي مطبوع عليها بكفرهم، و على القول الثاني: عكس عليهم ما ادّعوه من كل وجه، وقد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة البقرة ﴿فلا يؤمنون إلا قليلا﴾ أي تمرنت قلوبهم على الكفر و الطغيان، و قلة الإيمان.

١٥٦- ﴿و بكفرهم و قولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني أنهم رموها بالزنا، و كذلك قال السدي و جويبر و محمد بن إسحاق و غير واحد، و هو ظاهر من الآية، أنهم رموها و ابنها بالعظائم، فجعلوها زانية و قد حملت بولدها من ذلك، زاد بعضهم: و هي حائض، فعليهم لعائن الله المتابعة

إلى يوم القيامة.

١٥٧ - ﴿و قولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ أي هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتلناه، وهذا منهم من باب التهكم و الاستهزاء، كقول المشركين ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ وكان من خبر اليهود عليهم لعائن الله و سخطه و غضبه و عقابه، أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات و الهدى حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة و المعجزات الباهرات، التي كان يبرئ بها الأكمه و الأبرص و يحيي الموتى بإذن الله، و يصور من الطين طائراً، ثم ينفخ فيه، فيكون طائراً يشاهد طيرانه بإذن الله عز وجل، إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمه الله بها و أجراها على يديه، و مع هذا كذبوه و خالفوه و سعوا في أذاه بكل ما أمكنهم حتى جعل نبي الله ﷺ لا يساكنهم في بلدة، بل يكثر السياحة هو و أمه عليهما السلام، ثم لم يقنعهم ذلك، حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان، و كان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب، و كان يقال لأهل ملته اليونان، و أنهوا إليه أن في بيت المقدس رجلاً يفتن الناس و يضلهم، و يفسد على الملك رعاياه، فغضب الملك من هذا و كتب إلى نائبه بالمقدس أن يحتاط على هذا المذكور، و أن يصلبه و يضع الشوك على رأسه، ويكف أذاه على الناس، فلما وصل الكتاب امتثل والي بيت المقدس ذلك، و ذهب هو و طائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى ﷺ، و هو في جماعة من أصحابه اثني عشر أو ثلاثة عشر، و قيل سبعة عشر نفراً، وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت، فحصروه هنالك. فلما أحس بهم و أنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهم، قال لأصحابه: أيكم يُلقَى عليه شبهي و هو رفيقي في الجنة؟ فانتدب لذلك شاب منهم فكأنه استصغره عن ذلك، فأعادها ثانية و ثالثة، و كل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب، فقال: أنت هو، و ألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو، و فُتحت روزنة من سقف البيت، و أخذت عيسى ﷺ سنة من النوم، فرفع إلى السماء و هو كذلك، كما قال الله تعالى: ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك و رافعك إلي﴾ الآية، فلما رفع خرج أولئك النفر، فلما رأى أولئك ذلك الشاب، ظنوا أنه عيسى، فأخذوه في الليل و صلبوه، و وضعوا الشوك على رأسه، و أظهر اليهود أنهم سعوا في صَلْبِه، و تبجّحوا بذلك و سلم لهم طوائف من النصارى، ذلك لجهلهم و قلة عقلهم، ما عدا من كان في البيت مع المسيح، فإنهم شاهدوا رفعه، و أما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود، أن المصلوب هو المسيح بن مريم، حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت، ويقال إنه خاطبها، و الله أعلم، و هذا كله من امتحان الله عباده، لما له في ذلك من الحكمة البالغة.

و قد أوضح الله الأمر و جلاّه و بيّنه، و أظهره في القرآن العظيم، الذي أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات و البينات و الدلائل الواضحات، فقال تعالى و هو أصدق القائلين و رب العالمين، المطلع على السرائر و الضمائر، الذي يعلم السر في السموات و الأرض، العالم بما كان و ما يكون، و ما لم يكن لو كان كيف يكون ﴿و ما قتلوه و ما صلبوه و لكن شبه لهم﴾ أي رأوا شبهه فظنوه إياه، و لهذا قال: ﴿و إن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾ يعني بذلك من ادعى أنه قتله من اليهود، و من سلّمه إليهم من جهال النصارى، كلهم في شك من ذلك و حيرة و ضلال و سُعُر، و لهذا قال: ﴿و ما قتلوه يقيناً﴾ أي و ما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكين متوهمين.

١٥٨- ﴿بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً﴾ أي منيع الجناب، لا يرام جنابه، و لا يضام من لاذ ببابه، ﴿حكيماً﴾ أي في جميع ما يقدره و يقضيه من الأمور التي يخلقها، و له الحكمة البالغة و الحجة الدامغة والسلطان العظيم والأمر القديم. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج على أصحابه و في البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريين، يعني فخرج عليهم من عين في البيت، و رأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي، قال: ثم قال: أيكم يُلقى عليه شبهي فيقتل مكاني و يكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سناً، فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام ذلك الشاب، فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم فقام الشاب، فقال: هو أنت ذاك، فألقى عليه عيسى، و رفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء، قال: و جاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه، فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، و افترقوا ثلاث فرق، فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء اليعقوبية، و قالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء، ثم رفعه الله إليه و هؤلاء النسطورية، و قالت فرقة: كان فينا عبد الله و رسوله ما شاء، ثم رفعه الله إليه و هؤلاء المسلمون فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ، و هذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، و رواه النسائي، و كذا ذكره غير واحد من السلف، أنه قال لهم: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني، و هو رفيقي في الجنة.

و قال ابن جرير عن مجاهد: صلبوا رجلاً شبه بعيسى، و رفع الله عز وجل عيسى إلى السماء حياً، واختار ابن جرير أن شبه عيسى ألقي على جميع أصحابه.

١٥٩- و قوله تعالى: ﴿و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل في معنى ذلك ﴿و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ يعني قبل موت عيسى يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، و هي ملة الإسلام الحنيفية، دين إبراهيم عليه السلام.

ذِكْر مَنْ قال ذلك:

عن ابن عباس ﴿و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ قال: قبل موت عيسى ابن مريم عليه السلام. و قال أبو مالك في قوله: ﴿إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ قال: ذلك عند نزول عيسى، و قبل موت عيسى ابن مريم عليه السلام، لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به.

و روى ابن جرير عن الحسن ﴿و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ قال: قبل موت عيسى، و الله إنه لحي عند الله، و لكن إذا نزل آمنوا به أجمعون. و روى ابن أبي حاتم (نحوه)، و كذا قال قتادة و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، و غير واحد، و هذا القول هو الحق، كما سنبينه بعد بالدليل القاطع إن شاء الله و به الثقة وعليه التكلان. قال ابن جرير: و قال آخرون: يعني بذلك ﴿و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به﴾ بعيسى قبل موت الكتابي، ذكر من كان يُوجه ذلك إلى أنه إذا عاين عَلِم الحق من الباطل، لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل في دينه. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قال: لا يموت

يهودي حتى يؤمن بعيسى، و عن مجاهد في قوله: ﴿إلا ليؤمنن قبل موته﴾ كل صاحب كتاب يؤمن بعيسى قبل موته قبل موت صاحب الكتاب، قال ابن عباس: لو ضربت عنقه لم تخرج نفسه حتى يؤمن بعيسى، و عن ابن عباس ﴿و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ قال: لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى عليه السلام و إن ضرب بالسيف تكلم به، قال: و إن هوى تكلم به و هو يهوي، و كذا روى أبو داود الطيالسي، فهذه كلها أسانيد صحيحة إلى ابن عباس، و كذا صح عن مجاهد و عكرمة و محمد بن سيرين، و به يقول الضحاك و جويبر والسدي و حكاه عن ابن عباس، و نقل قراءة أبي بن كعب: قبل موتهم، و قال آخرون: معنى ذلك و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت صاحب الكتاب.

ذكر من قال ذلك: عن عكرمة قال: لا يموت النصراني و لا اليهودي حتى يؤمن بمحمد ﷺ، يعني قوله: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ ثم قال ابن جرير: و أولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول، وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إلا آمن به قبل موت عيسى عليه السلام، و لا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح، لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلّم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن كذلك، و إنما شُبّه لهم، فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه، و إنه باقٍ حي، و إنه سينزل قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة التي سنوردها إن شاء الله قريباً، فيقتل مسيح الضلالة، و يكسر الصليب، و يقتل الخنزير، ويضع الجزية يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ و لا يتخلف عن التصديق به واحد منهم، و لهذا قال: ﴿و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ أي قبل موت عيسى عليه السلام الذي زعم اليهود و من وافقهم من النصارى أنه قتل و صلب ﴿و يوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ أي بأعمالهم التي شاهدها منهم قبل رفعه إلى السماء و بعد نزوله إلى الأرض.

فأما من فسر هذه الآية بأن المعنى أن كل كتابي لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد عليهما الصلاة والسلام، فهذا هو الواقع، و ذلك أن كل أحد عند احتضاره ينجلي له ما كان جاهلاً به، فيؤمن به، و لكن لا يكون ذلك إيماناً نافعاً له، إذا كان قد شاهد الملَك، كما قال تعالى في أول هذه السورة ﴿و ليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده﴾ الآيتين، و من تأمل جيداً و أمعن النظر، اتضح له أنه هو الواقع، لكن لا يلزم منه أن يكون المراد بهذه الآية هذا، بل المراد بها الذي ذكرناه من تقرير وجود عيسى عليه السلام و بقاء حياته في السماء، و أنه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة، ليكذب هؤلاء و هؤلاء من اليهود و النصارى، الذين تباينت أقوالهم فيه، وتصادمت وتعاكست و تناقضت و خلت عن الحق، ففرط هؤلاء اليهود، و أفرط هؤلاء النصارى تنقّصه اليهود بما رموه به و أمه من العظائم، و أطراه النصارى بحيث ادعوا فيه ما ليس فيه، فرفعوه في مقابلة أولئك عن مقام النبوة إلى مقام الربوبية، تعالى الله عما يقول هؤلاء و هؤلاء علواً كبيراً، و تنزه و تقدس لا إله إلا هو.

ذكر الأحاديث الواردة في نزول عيسى بن مريم إلى الأرض من السماء في آخر الزمان قبل يوم القيامة و أنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له

روى البخاري رحمه الله في «كتاب ذكر الأنبياء» من صحيحه المتلقى بالقبول: نزول عيسى ابن مريم ﷺ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «و الذي نفسي بيده، ليُوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب [1] و يقتل الخنزير [2] و يضع الجزية [3] و يفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة خيراً لهم من الدنيا و ما فيها»، ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم **﴿و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾**، و كذا رواه مسلم.

طريق أخرى: روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليهلنّ عيسى بفج الروحاء بالحج أو العمرة، أو ليثنينهما جميعاً»، و كذا رواه مسلم.

طريق أخرى: روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم و إمامكم منكم» و أخرجه مسلم.

طريق أخرى: روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد، و إني أولى الناس بعيسى ابن مريم، لأنه لم يكن نبيٌّ بيني و بينه، وإنه نازلٌ فإذا رأيتموه فاعرفووه: رجل مربوع إلى الحمرة و البياض، عليه ثوبان ممصّران [4] كأن رأسه يقطر و إن لم يصبه بلل، فيدق الصليب، و يقتل الخنزير، و يضع الجزية، و يدعو الناس إلى الإسلام، و يُهلِك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، و يهلك الله في زمانه المسيح الدجال، ثم تقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنِّمار مع البقر، و الذئاب مع الغنم، و يلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم، فيمكث أربعين سنة ثم يتوفى، ويصلي عليه المسلمون» وكذا رواه أبو داود.

حديث آخر: روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تنزل الروم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا، قالت الروم: خلّوا بيننا وبين الذين سَبَوا منا نقاتله، فيقول المسلمون: لا و الله، لا نخلّي بينكم و بين إخواننا، فيقاتلونهم فيُهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، و يُقتل ثلث هم أفضل الشهداء عند الله، و يفتح الثلث لا يفتنون أبداً، فيفتحون قسطنطينية، فبينما هم يقسمون الغنائم قد علّقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون و ذلك باطل، فإذا جاءوا الشام خرج، فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف، إذا أقيمت الصلاة فينزل عيسى ابن مريم فيؤمهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لذاب حتى يهلك، و لكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته» [5].

---

(١) لأن الصليب شعار الكفر و قد عُبد من دون الله تعالى. (٢) فيه دليل على وجوب قتل الخنازير و بيان أن أعيانها نجسة، و ذلك أن عيسى صلوات الله عليه إنما يقتل الخنزير في حكم شريعة نبينا محمد ﷺ لأن نزوله إنما يكون في آخر الزمان، و شريعة الإسلام باقية، قاله الخطابي. (٣) أي لا يقبل من اليهود و النصارى غير دين الحق، فلا يقبل منهم الجزية. (٤) الممصر من الثياب الملون بالصفرة، و ليست صفرته بالمشبعة (خطابي). (٥) و قد ذكر ابن كثير ههنا حديث النواس بن سمعان في خبر الدجال، الذي رواه مسلم و قد تركناه اختصاراً.

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من عرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، و الدخان، والدابة، و خروج يأجوج و مأجوج، و نزول عيسى ابن مريم و الدجال، و ثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب، و خسف بجزيرة العرب، و نار تخرج من قعر عدن تسوق - أو تَحشر - الناس تبيت معهم حيث باتوا، و تقيل معهم حيث قالوا» و هكذا رواه مسلم و أهل السنن.

فهذه أحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ من رواية أبي هريرة و ابن مسعود و عثمان بن أبي العاص، و أبي أمامة و النواس بن سمعان و عبد الله بن عمرو بن العاص و مجمع بن جارية و أبي سريحة و حذيفة بن أسيد رضي الله عنهم، وفيها دلالة على صفة نزوله و مكانه من أنه بالشام بل بدمشق عند المنارة الشرقية، و أن ذلك يكون عند إقامة صلاة الصبح، و قد بُنيت في هذه الأعصار في سنة إحدى و أربعين و سبعمائة منارة للجامع الأموي بيضاء من حجارة منحوتة عوضاً عن المنارة التي هدمت بسبب الحريق المنسوب إلى صنيع النصارى - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - و كان أكثر عمارتها من أموالهم، و قويت الظنون أنها هي التي ينزل عليها المسيح عيسى ابن مريم ﷺ، فيقتل الخنزير و يكسر الصليب و يضع الجزية، فلا يقبل إلا الإسلام كما تقدم في الصحيحين، و هذا إخبار من النبي ﷺ بذلك و تقرير و تشريع و تسويغ له على ذلك في ذلك الزمان، حيث تنزاح عللهم و ترتفع شبههم من أنفسهم، و لهذا كلهم يدخلون في دين الإسلام متابعة لعيسى ﷺ و على يديه، و لهذا قال تعالى: ﴿و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ الآية، و هذه الآية كقوله: ﴿و إنه لعلم للساعة﴾ و قرئ ﴿لَعَلَمٌ﴾ بالتحريك، أي أمارة و دليل على اقتراب الساعة، و ذلك لأنه ينزل بعد خروج المسيح الدجال فيقتله الله على يديه، كما ثبت في الصحيح «أن الله لم يخلق داء إلا أنزل له شفاء» و يبعث الله في أيامه يأجوج و مأجوج فيهلكهم الله تعالى ببركة دعائه، و قد قال تعالى: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج و مأجوج وهم من كل حدب ينسلون ۞ و اقترب الوعد الحق﴾ الآية.

صفة عيسى عليه السلام

قد تقدم في حديث أبي هريرة «فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجل مربوع إلى الحمرة و البياض، عليه ثوبان ممصران[1]، كأن رأسه يقطر و إن لم يصبه بلل»، و في حديث النوّاس بن سمعان «فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين[2] واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قَطَر، و إذا رفعه تَحدّر منه مثل جُمان اللؤلؤ، لا يحل لكافر أن يجد ريح نَفَسه إلا مات، و نَفَسُه ينتهي حيث انتهى طرفه».

و روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلة أسري بي لقيت موسى» قال: فنَعَته «فإذا رجل - حبسته قال - مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة» قال: «و لقيت عيسى» فنعته النبي ﷺ فقال: «ربعة أحمر كأنه خرج من ديماس» يعني الحمام، «و رأيت إبراهيم و أنا أشبه ولده به» الحديث.

---

(١) المُمصَّرة من الثياب: التي فيها صُفْرةٌ خفيفة (نهاية). (٢) أي في شُقّتين أو حُلّتين. و قيل: الثوب المهرود: الذي يُصبغ بالورس ثم بالزعفران (نهاية).

و روى البخاري عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت موسى و عيسى و إبراهيم، فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر، و أما موسى فآدم جسيم سبط كأنه من رجال الزط».

و قد تقدم في حديث أبي هريرة أن عيسى ﷺ يمكث في الأرض بعد نزوله أربعين سنة، ثم يتوفى و يصلي عليه المسلمون. و في حديث عبد الله بن عمر عند مسلم أنه يمكث سبع سنين فيحتمل ـ و الله أعلم ـ أن يكون المراد بلبثه في الأرض أربعين سنة مجموع إقامته فيها قبل رفعه و بعد نزوله، فإنه رفع و له ثلاث و ثلاثون سنة، في الصحيح و قد ورد ذلك في حديث في صفة أهل الجنة: أنهم على صورة آدم و ميلاد عيسى ثلاث و ثلاثين سنة.

و قوله تعالى: **﴿و يوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾** قال قتادة: يشهد عليهم أنه قد بلّغهم الرسالة من الله وأقر بعبودية الله عز وجل، و هذا كقوله تعالى في آخر سورة المائدة **﴿و إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس ـ إلى قوله ـ العزيز الحكيم﴾**.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢)﴾

١٦٠- يخبر تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبوه من الذنوب العظيمة، حرم عليهم طيبات كان أحلّها لهم، كما روى ابن أبي حاتم قال: قرأ ابن عباس: طيبات كانت أُحلَّتْ لهم. و هذا التحريم قد يكون قدرياً بمعنى أنه تعالى قيضهم لأن تأولوا في كتابهم، و حرّفوا و بدلوا أشياء كانت حلالاً لهم فحرموها على أنفسهم، تشديداً منهم على أنفسهم و تضييقاً و تنطعاً، و يحتمل أن يكون شرعياً بمعنى أنه تعالى حرّم عليهم في التوراة أشياء كانت حلالاً لهم قبل ذلك، كما قال تعالى: **﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة﴾** و قد قدمنا الكلام على الآية، و أن المراد أن الجميع من الأطعمة كانت حلالاً لهم من قبل أن تنزل التوراة، ما عدا ما كان حرم إسرائيل على نفسه من لحوم الإبل و ألبانها، ثم إنه تعالى حرّم أشياء كثيرة في التوراة، كما قال في سورة الأنعام: **﴿و على الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر و من البقر و الغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم و إنا لصادقون﴾** أي إنما حرمنا عليهم ذلك، لأنهم يستحقون ذلك بسبب بغيهم و طغيانهم، و مخالفتهم رسولهم و اختلافهم عليه، و لهذا قال: **﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم و بصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾** أي صدوا الناس و صدوا أنفسهم عن اتباع الحق، و هذه سجية لهم متصفون بها من قديم الدهر و حديثه، و لهذا كانوا أعداء الرسل، و قتلوا خلقاً من الأنبياء، و كذبوا عيسى و محمداً صلوات الله و سلامه عليهما.

١٦١- و قوله: **﴿و أخذهم الربا و قد نهوا عنه﴾** أي أن الله قد نهاهم عن الربا فتناولوه و أخذوه و احتالوا عليه بأنواع من الحيل و صنوف من الشُّبه، و أكلوا أموال الناس بالباطل، قال تعالى: **﴿و أعتدنا للكافرين منهم عذاباً**

أليماً﴾ .

١٦٢- ثم قال تعالى: **﴿لكن الراسخون في العلم منهم﴾** أي الثابتون في الدين لهم قَدَمٌ راسخة في العلم النافع. و قد تقدم الكلام على ذلك في سورة آل عمران . **﴿و المؤمنون﴾** عطف على الراسخين و خبره **﴿يؤمنون بما أنزل إليك و ما أنزل من قبلك﴾** قال ابن عباس: أنزلت في عبد الله بن سلام و ثعلبة بن سعية و أسد و زيد بن سعية و أسد بن عبيد، الذين دخلوا في الإسلام، و صدّقوا بما أرسل الله به محمداً ﷺ.

و قوله: **﴿و المقيمين الصلاة﴾** هكذا هو في جميع مصاحف الأئمة، و كذا هو في مصحف أبي بن كعب، وذكر ابن جرير أنها في مصحف ابن مسعود **﴿و المقيمون الصلاة﴾**، قال: و الصحيح قراءة الجميع ثم رد على من زعم أن ذلك من غلط الكُتّاب، ثم ذكر اختلاف الناس فقال بعضهم: هو منصوب على المدح، كما جاء في قوله: **﴿و الموفون بعهدهم إذا عاهدوا و الصابرين في البأساء و الضراء و حين البأس﴾** قال: و هذا سائغ في كلام العرب.

و قال آخرون: هو مخفوض عطفاً على قوله: **﴿بما أنزل إليك و ما أنزل من قبلك﴾** يعني و بالمقيمين الصلاة، و كأنه يقول: و بإقامة الصلاة أي يعترفون بوجوبها و كتابتها عليهم، أو أن المراد بالمقيمين الصلاة: الملائكة، و هذا اختيار ابن جرير، يعني يؤمنون بما أنزل إليك و ما أنزل من قبلك و بالملائكة، و في هذا نظر، والله أعلم. و قوله: **﴿و المؤتون الزكاة﴾** يحتمل أن يكون المراد زكاة الأموال، و يحتمل زكاة النفوس، ويحتمل الأمرين، و الله أعلم. **﴿و المؤمنون بالله و اليوم الآخر﴾** أي يُصدّقون بأنه لا إله إلا الله، و يؤمنون بالبعث بعد الموت، و الجزاء على الأعمال خيرها و شرها. و قوله: **﴿أولئك﴾** هو الخبر عما تقدم **﴿سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾** يعني الجنة.

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) ﴾

١٦٣- روي عن ابن عباس قال: قال سُكَين و عدي بن زيد: يا محمد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى، فأنزل الله في ذلك من قولهما: **﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح و النبيين من بعده﴾** إلى آخر الآيات [1]. ذكر تعالى أنه أوحى إلى عبده و رسوله محمد ﷺ، كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين، فقال: **﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح و النبيين من بعده﴾** إلى قوله: **﴿و آتينا داود زبوراً﴾** و الزبور اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود ﷺ و سنذكر ترجمة كل واحد من هؤلاء الأنبياء عليهم من الله أفضل الصلاة و السلام عند قصصهم من سورة الأنبياء إن شاء الله و به الثقة و عليه التكلان.

١٦٤- و قوله: **﴿و رسلاً قد قصصناهم عليك من قبل و رسلاً لم نقصصهم عليك﴾** أي من قبل هذه الآية،

(١) رواه عنه ابن إسحاق و في سنده ضعف.

يعني في السور المكية و غيرها و هذه تسمية الأنبياء الذين نص الله على أسمائهم في القرآن و هم: آدم و إدريس و نوح و هود و صالح و إبراهيم و لوط و إسماعيل و إسحاق و يعقوب و يوسف و أيوب و شعيب و موسى وهارون و يونس و داود و سليمان و إلياس و اليسع و زكريا و يحيى و عيسى، و كذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين، و سيدهم محمدﷺ.

و قوله: ﴿و رسلاً لم نقصصهم عليك﴾ أي خلقاً آخرين لم يُذكروا في القران، و قد اختلف في عدة الأنبياء و المرسلين، و المشهور في ذلك حديث أبي ذر الطويل، و ذلك فيما رواه ابن مردويه رحمه الله في تفسيره عن أبي ذر قال: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف و أربعة و عشرون ألفاً». قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: «ثلثمائة و ثلاثة عشر جمٌّ غفير». قلت: يا رسول الله، من كان أولهم؟ قال: «آدم» قلت: يا رسول الله، نبي مرسل؟ قال: «نعم، خلقه الله بيده، ثم نفخ فيه من روحه، ثم سواه قبيلاً». الحديث.

و قد روى هذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم بن حبان البستي في كتابه و قد وسمه بالصحة، و خالفه أبو الفرج بن الجوزي فذكر هذا الحديث في كتابه الموضوعات و اتهم به إبراهيم بن هشام هذا، و لا شك أنه تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح و التعديل من أجل هذا الحديث و الله أعلم[1].

قوله: ﴿و كلم الله موسى تكليماً﴾ و هذا تشريف لموسى‌ﷺ بهذه الصفة، و لهذا يقال له: الكليم، و قد روى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن عبد الجبار بن عبد الله قال: جاء رجل إلى أبي بكر بن عياش فقال: سمعت رجلاً يقرأ ﴿وكلم اللهَ موسى تكليماً﴾، فقال أبو بكر: ما قرأ هذا إلا كافر، قرأت على الأعمش، و قرأ الأعمش على يحيى بن وثاب، و قرأ يحيى بن وثاب على أبي عبد الرحمن السلمي، و قرأ أبو عبد الرحمن السلمي على علي ابن أبي طالب، و قرأ علي بن أبي طالب على رسول اللهﷺ ﴿و كلم اللهُ موسى تكليماً﴾.

وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عياش رحمه الله على من قرأ كذلك، لأنه حرّف لفظ القرآن و معناه، و كان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلّم موسى‌ﷺ أو يكلم أحداً من خلقه، كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ ﴿و كلم اللهَ موسى تكليماً﴾ فقال له: يا ابن اللخناء، كيف تصنع بقوله تعالى: ﴿و لما جاء موسى لميقاتنا و كلّمه ربُّه﴾؟ يعني أن هذا لا يحتمل التحريف، و لا التأويل.

١٦٥- و قوله: ﴿رسلاً مبشرين و منذرين﴾ أي يبشرون من أطاع الله و اتبع رضوانه بالخيرات، و ينذرون من خالف أمره و كذب رسله بالعقاب و العذاب، و قوله: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل و كان الله عزيزاً حكيماً﴾ أي أنه تعالى أنزل كتبه و أرسل رسله بالبشارة و النذارة، و بيّن ما يحبه و يرضاه مما يكرهه ويأباه، لئلا يبقى لمعتذر عذر، كما قال تعالى: ﴿و لو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل و نخزى﴾، و كذا قوله: ﴿و لو لا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾ الآية. و قد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول اللهﷺ: «لا أحدَ أغير من الله، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها و ما بطن، و لا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين و منذرين»، و في لفظ آخر: «من أجل

---

(١) و هو حديث صحيح لطرقه، و قد ذكره العلامة الألباني في الصحيحة (٢٦٦٨).

ذلك أرسل رسله و أنزل كتبه».

﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً (١٦٦) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (١٦٩) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٧٠) ﴾

١٦٦- لما تضمن قوله تعالى: **﴿إنا أوحينا إليك﴾** إلى آخر السياق، إثبات نبوته ﷺ و الرد على من أنكر نبوته من المشركين و أهل الكتاب، قال الله تعالى: **﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾** أي و إن كفر به من كفر به ممن كذبك و خالفك، فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب، و هو القرآن العظيم الذي **﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾** و لهذا قال: **﴿أنزله بعلمه﴾** أي في علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البينات و الهدى و الفرقان، و ما يحبه الله و يرضاه، و ما يكرهه و يأباه، و ما فيه من العلم بالغيوب من الماضي و المستقبل، و ما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التي لا يعلمها نبي مرسل، و لا ملك مقرب إلا أن يُعْلمه الله به، كما قال تعالى: **﴿و لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾** و قال: **﴿و لا يحيطون به علماً﴾**.

روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن السائب قال: أقرأني أبو عبد الرحمن السلمي القرآن، و كان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال: قد أخذت علم الله، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل، ثم يقرأ قوله: **﴿أنزله بعلمه والملائكة يشهدون و كفى بالله شهيداً﴾**، قوله: **﴿و الملائكة يشهدون﴾** أي بصدق ما جاءك و أوحى إليك و أنزل عليك مع شهادة الله تعالى بذلك **﴿و كفى بالله شهيداً﴾**.

١٦٧، ١٦٨- و قوله: **﴿إن الذين كفروا و صدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً﴾** أي كفروا في أنفسهم، فلم يتبعوا الحق، و سعوا في صد الناس عن اتباعه و الاقتداء به، قدخرجوا عن الحق و ضلوا عنه، و بعدوا منه بعداً عظيماً شاسعاً، ثم أخبر تعالى عن حكمه في الكافرين بآياته و كتابه و رسوله، الظالمين لأنفسهم بذلك وبالصد عن سبيله، و ارتكاب مآثمه و انتهاك محارمه بأنه لا يغفر لهم **﴿و لا يهديهم طريقاً﴾** أي سبيلاً إلى الخير.

١٦٩- **﴿إلا طريق جهنم﴾** و هذا استثناء منقطع **﴿خالدين فيها أبداً﴾** الآية.

١٧٠- ثم قال تعالى: **﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم﴾** أي قد جاءكم محمد صلوات الله و سلامه عليه بالهدى و دين الحق و البيان الشافي من الله عز وجل، فآمنوا بما جاءكم به و اتبعوه، يكن خيراً لكم. ثم قال: **﴿و إن تكفروا فإن لله ما في السموات و الأرض﴾** أي فهو غني عنكم و عن إيمانكم، و لا يتضرر بكفرانكم، كما قال تعالى: **﴿و قال موسى إن تكفروا أنتم و من في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾** و قال ههنا: **﴿و كان الله عليماً﴾** أي بمن يستحق منكم الهداية فيهديه، و بمن يستحق الغواية فيغويه،

﴿حكيماً﴾ أي في أقواله و أفعاله و شرعه و قدره.

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١) ﴾

١٧١- ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو و الإطراء، و هذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيّز النبوة، إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه. بل قد غلوا في أتباعه و أشياعه ممن زعم أنه على دينه، فادعوا فيهم العصمة، و اتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أوباطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً، و لهذا قال الله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ الآية.

و روى الإمام أحمد عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُطْرُوني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم. فإنما عبد فقولوا: عبد الله و رسوله». و رواه البخاري و لفظه: «إنما أنا عبد فقولوا عبد الله و رسوله».

و روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رجلاً قال: يا محمد يا سيدنا و ابن سيدنا، و خيرنا و ابن خيرنا؛ فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس عليكم بقولكم و لا يستهويكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، و الله ما أُحبّ أن تعرفوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل» تفرد به من هذا الوجه.

و قوله تعالى: ﴿و لا تقولوا على الله إلا الحق﴾ أي لا تفتروا عليه و تجعلوا له صاحبة و ولداً، تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً، و تنزه و تقدس و توحّد في سؤدده و كبريائه و عظمته، فلا إله إلا هو، و لا رب سواه، و لهذا قال: ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله و كلمته ألقاها إلى مريم و روح منه﴾ أي إنما هو عبد من عباد الله وخَلْقٌ من خلقه، قال له: كن فكان، ورسوله من رسله و كلمته ألقاها إلى مريم، أي خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذنه ربه عز وجل، فكان عيسى بإذنه عز وجل، و كانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها، فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب و الأم، والجميع مخلوق الله عز وجل، و لهذا قيل: لعيسى: إنه كلمة الله و روح منه، لأنه لم يكن له أب تولّد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها كن فكان، و الروح التي أرسل بها جبريل قال الله تعالى: ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل و أمه صديقة كانا يأكلان الطعام﴾. و قال تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾. و قال تعالى: ﴿و التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا و جعلناها و ابنها آية للعالمين﴾ و قال تعالى: ﴿و مريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها﴾ إلى آخر السورة، و قال تعالى إخباراً عن المسيح: ﴿إنْ هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه﴾ الآية.

و روى عبد الرزاق عن قتادة ﴿و كلمته ألقاها إلى مريم و روح منه﴾ هو قوله: ﴿كن فيكون﴾. و روى ابن أبي حاتم عن شاذّ بن يحيى في قول الله ﴿و كلمته ألقاها إلى مريم و روح منه﴾ قال: ليس الكلمة صارت عيسى

و لكن بالكلمة صار عيسى، و هذا أحسن مما ادعاه ابن جرير في قوله: ﴿**ألقاها إلى مريم**﴾ أي أعلمها بها، كما زعمه في قوله: ﴿**إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه**﴾ أي يعلمك بكلمة منه و يجعل ذلك كقوله تعالى: ﴿**و ما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك**﴾ بل الصحيح أنها الكلمة التي جاء بها جبريل إلى مريم، فنفخ فيها بإذن الله فكان عيسى ﷺ. و روى البخاري عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، و أن محمداً عبده و رسوله، و أن عيسى عبده و رسوله وكلمته ألقاها إلى مريم و روح منه، و أن الجنة حق و النار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». زاد مسلم «من أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء».

فقوله في الآية و الحديث «وروح منه» كقوله: ﴿**و سخر لكم ما في السموات و ما في الأرض جميعاً منه**﴾ أي من خلقه و من عنده و ليست «من» للتبعيض - كما تقوله النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة - بل هي لابتداء الغاية كما في الآية الأخرى، وقد قال مجاهد في قوله: ﴿**و روح منه**﴾ أي و رسول منه، و قال غيره: و محبة منه، و الأظهر الأول و هو أنه مخلوق من روح مخلوق و أضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف، كما أضيفت الناقة و البيت إلى الله في قوله: ﴿**هذه ناقة الله**﴾ و في قوله: ﴿**و طهر بيتي للطائفين**﴾ و كما روي في الحديث الصحيح: «فأدخل على ربي في داره» أضافها إليه إضافة تشريف، و هذا كله من قبيل واحد و نمط واحد.

و قوله: ﴿**فآمنوا بالله و رسله**﴾ أي فصدقوا بأن الله واحد أحد، لا ولد له و لا صاحبة، و اعلموا و تيقنوا بأن عيسى عبد الله و رسوله، و لهذا قال تعالى: ﴿**ولا تقولوا ثلاثة**﴾ أي لا تجعلوا عيسى و أمه مع الله شريكين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، و هذه الآية كالتي في سورة المائدة حيث يقول تعالى: ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة و ما من إله إلا إله واحد**﴾ و كما قال في آخر السورة المذكورة: ﴿**و إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني**﴾ الآية، و قال في أولها ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم**﴾ الآية، فالنصارى - عليهم لعائن الله - من جهلهم ليس لهم ضابط، و لا لكفرهم حد، بل أقوالهم و ضلالهم منتشر، فمنهم من يعتقده شريكاً، و منهم من يعتقده ولداً، و هم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة، و أقوال غير مؤتلفة.

و لقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولاً.

و كل هذه الفرقة تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح و يختلفون في كيفية ذلك، و في اللاهوت و الناسوت على زعمهم هل اتحدا أو ما اتحدا، أو امتزجا، أو حَلَّ فيه، على ثلاث مقالات و كل منهم يكفر الفرقة الأخرى، ونحن نكفر الثلاثة، و لهذا قال تعالى: ﴿**انتهوا خيراً لكم**﴾ أي يكن خيراً لكم ﴿**إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد**﴾ أي تعالى و تقدس عن ذلك علواً كبيراً ﴿**له ما في السموات و ما في الأرض و كفى بالله وكيلا**﴾ أي الجميع ملكه و خلقه، و جميع ما فيهما عبيده و هم تحت تدبيره و تصريفه، و هو وكيل على كل شيء، فكيف يكون لله منهم صاحبة و ولد، كما قال في الآية الأخرى: ﴿**بديع السموات و الأرض أنى يكون له ولد**﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿**و قالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً - إلى قوله - فرداً**﴾.

﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ

وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً (١٧٣) ﴾

١٧٢ - روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قوله: **﴿لن يستنكف﴾** لن يستكبر. و قال قتادة: لن يحتشم **﴿المسيح أن يكون عبداً لله و المقربون﴾** و قد استدل بعض من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال: **﴿و لا الملائكة المقربون﴾** و ليس له في ذلك دلالة، لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح، لأن الاستنكاف هو الامتناع، و الملائكة أقدر على ذلك من المسيح، فلهذا قال: **﴿و لا الملائكة المقربون﴾** و لا يلزم من كونهم أقوى و أقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل. و قيل: إنما ذُكروا لأنهم اتخذوا آلهة مع الله كما اتخذ المسيح، فأخبر تعالى أنهم عبيد من عباده و خلق من خلقه، كما قال تعالى: **﴿و قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل عباد مكرمون﴾** الآيات، و لهذا قال: **﴿و من يستنكف عن عبادته و يستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾** أي فيجمعهم إليه يوم القيامة، و يفصل بينهم بحكمه العدل الذي لا يجور فيه، و لا يحيف.

١٧٣ - و لهذا قال: **﴿فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم و يزيدهم من فضله﴾** أي فيعطيهم من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة، و يزيدهم على ذلك من فضله و إحسانه و سعة رحمته و امتنانه. **﴿و أما الذين استنكفوا واستكبروا﴾** أي امتنعوا من طاعة الله و عبادته و استكبروا عن ذلك **﴿فيعذبهم عذاباً أليماً و لا يجدون لهم من دون الله ولياً و لا نصيراً﴾** كقوله: **﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾** أي صاغرين حقيرين ذليلين كما كانوا ممتنعين مستكبرين.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً (١٧٥) ﴾

١٧٤ - يقول تعالى مخاطباً جميع الناس و مخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم، و هو الدليل القاطع للعذر والحجة المزيلة للشبهة، و لهذا قال: **﴿و أنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾** أي ضياء واضحاً على الحق، قال ابن جريج وغيره: و هو القرآن.

١٧٥ - **﴿فأما الذين آمنوا بالله و اعتصموا به﴾** أي جمعوا بين مقامي العبادة، و التوكل على الله، في جميع أمورهم، و قال ابن جريج: آمنوا بالله و اعتصموا بالقرآن. رواه ابن جرير **﴿فسيدخلهم في رحمة منه وفضل﴾** أي يرحمهم فيدخلهم الجنة، و يزيدهم ثواباً و مضاعفة و رفعاً في درجاتهم من فضله عليهم و إحساناً إليهم، **﴿و يهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾** أي طريقاً واضحاً قصداً قواماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف و هذه صفة المؤمنين في الدنيا و الآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة، و طريق السلامة، في جميع الاعتقادات والعمليات، و في الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات.

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً

﴿فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم (١٧٦)﴾

١٧٦- روى البخاري عن البراء قال: آخر سورة نزلت براءة، و آخر آية نزلت **﴿يستفتونك﴾**.

و روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: دخل علي رسول الله ﷺ و أنا مريض لا أعقل، فتوضأ ثم صب علي، أو قال: صبوا عليه، فعقلت فقلت: إنه لا يرثني إلا كلالة، فكيف الميراث؟ فأنزل الله آية الفرائض. أخرجاه في الصحيحين، و في بعض الألفاظ: فنزلت آية الميراث **﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾** الآية، و كأن معنى الكلام ـ و الله أعلم ـ يستفتونك عن الكلالة **﴿قل الله يفتيكم﴾** فيها، فدل المذكور على المتروك. و قد تقدم الكلام على الكلالة و اشتقاقها، و أنها مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه لهذا فسرها أكثر العلماء بمن يموت و ليس له ولد و لا والد، و من الناس من يقول: الكلالة من لا ولد له، كما دلت عليه الآية **﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد﴾**، و قد أشكل حكم الكلالة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه: الجد و الكلالة و باب من أبواب الربا. و روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب: ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بإصبعيه في صدري، وقال: «يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء» هكذا رواه مختصراً، و أخرجه مسلم مطولاً أكثر من هذا.

و كأن المراد بآية الصيف أنها نزلت في فصل الصيف، و الله أعلم، و لما أرشده النبي ﷺ إلى تفهمها، فإن فيها كفاية نسي أن يسأل النبي ﷺ عن معناها، و لهذا قال: فلأن أكون سألت رسول الله ﷺ عنها أحب إلي من أن يكون لي حمر النعم.

ذكر الكلام على معناها

و بالله المستعان و عليه التكلان. قوله تعالى: **﴿إن امرؤ هلك﴾** أي مات، قال الله تعالى: **﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾** كل شيء يفنى، و لا يبقى إلا الله عز وجل، كما قال: **﴿كل من عليها فان۞و يبقى وجه ربك ذو الجلال و الإكرام﴾**. قوله: **﴿ليس له ولد﴾** تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد، بل يكفي في وجود الكلالة انتفاء الولد، و هو رواية عن عمر بن الخطاب، رواها ابن جرير عنه بإسناد صحيح إليه، و لكن الذي يرجع إليه هو قول الجمهور و قضاء الصديق: أنه الذي لا ولد له و لا والد، و يدل على ذلك قوله: **﴿و له أخت فلها نصف ما ترك﴾** و لو كان معها أب لم ترث شيئاً لأنه يحجبها بالإجماع، فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن، و لا والد بالنص عند التأمل أيضاً، لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد بل ليس لها ميراث بالكلية.

و قد نقل ابن جرير و غيره عن ابن عباس و ابن الزبير أنهما كانا يقولان في الميت: ترك بنتاً و أختاً إنه لا شيء للأخت لقوله **﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك﴾** قال: فإذا ترك بنتاً فقد ترك ولداً فلا شيء للأخت، و خالفهما الجمهور فقالوا في هذه المسألة للبنت النصف بالفرض، و للأخت النصف الآخر بالتعصيب بدليل غير هذه الآية، و هذه الآية نصت أن يفرض لها في هذه الصورة، و أما وراثتها بالتعصيب فلما

رواه البخاري عن الأسود قال: قضى فينا معاذ بن جبل على عهد رسول الله ﷺ، النصف للبنت و النصف للأخت، ثم قال سليمان: قضى فينا و لم يذكر على عهد رسول الله ﷺ، و في صحيح البخاري أيضاً عن هزيل بن شرحبيل قال: سئل أبو مسى الأشعري عن ابنة و ابنة ابن و أخت، فقال: للابنة النصف، و للأخت النصف، و أت ابن مسعود فسيتابعني، فسأل ابن مسعود فأخبره بقول أبي موسى فقال: لقد ضللت إذاً و ما أنا من المهتدين، أقضي فيها بما قضى النبي ﷺ النصف للبنت، و لبنت الابن السدس تكملة الثلثين و ما بقي فللأخت، فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحَبر فيكم.

و قوله: ﴿و هو يرثها إن لم يكن لها ولد﴾ أي و الأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلالة، و ليس لها ولد أي ولا والد، لأنها لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئاً، فإن فرض أن معه من له فرض صرف إليه فرضه كزوج أو أخ من أم، و صرف الباقي إلى الأخ، لما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ألحقوا الفرائضَ بأهلها، فما أبقت الفرائض فلأولي رجل ذكر». و قوله: ﴿فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك﴾ أي فإن كان لمن يموت كلالة أختان، فرض لهما الثلثان و كذا ما زاد على الأختين في حكمهما، و من ههنا أخذ الجماعة حكم البنتين، كما استفيد حكم الأخوات من البنات في قوله: ﴿فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك﴾.

و قوله: ﴿و إن كانوا إخوة رجالاً و نساء فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾ هذا حكم العصبات من البنين و بني البنين و الإخوة إذا اجتمع ذكورهم و إناثهم، أعطي الذكر مثل حظ الأنثيين، و قوله ﴿يبين الله لكم﴾ أي يفرض لكم فرائضه، و يحد لكم حدوده، و يوضح لكم شرائعه. و قوله: ﴿أن تضلوا﴾ أي لئلا تضلوا عن الحق بعد البيان ﴿و الله بكل شيء عليم﴾ أي هو عالم بعواقب الأمور و مصالحها و ما فيها من الخير لعباده، و ما يستحقه كل واحد من القرابات بحسب قربة من المتوفى.

روى ابن جرير عن طارق بن شهاب قال: أخذ عمر كتفاً و جمع أصحاب رسول الله ﷺ ثم قال: لأقضين في الكلالة قضاء تحدث به النساء في خدورهن، فخرجت حينئذ حية من البيت فتفرقوا، فقال: لو أراد الله عز وجل أن يتم هذا الأمر لأتمه، و هذا إسناد صحيح.

و روى الحاكم عن عمر قال: ثلاث لأن يكون النبي ﷺ بَيَّنهن لنا أحب إلي من الدنيا و ما فيها: الخلافة، والكلالة، و الربا، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه. و بهذا الإسناد عن ابن عباس قال: كنت آخر الناس عهداً بعمر، فسمعته يقول: القول ما قلت: و ما قلت؟ قال: قلت: الكلالة من لا ولد له، ثم قال: صحيح على شرطهما، و لم يخرجاه.

و كان أبو بكر رضي الله عنه يقول: هو ما عدا الولد و الوالد.

و هذا الذي قاله الصديق عليه جمهور الصحابة والتابعين و الأئمة في قديم الزمان و حديثه، و هو مذهب الأئمة الأربعة و الفقهاء السبعة، و قول علماء الأمصار قاطبة، و هو الذي يدل عليه القرآن، كما أرشد الله أنه قد بيّن ذلك و وضحه في قوله: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا و الله بكل شيء عليم﴾، و الله أعلم.

تم الجزء الأول، و يليه الجزء الثاني

و أوله سورة المائدة.